محمد عبده

أديبا و ناقدا

تأليف
الدكتور / السيد تقي الدين السيد

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
الفجالة - القاهرة

محمد عبده

أديبا وناقدا

تأليف

الدكتور/ السيد تقي الدين السيد

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
الفجالة - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج الرسالة

لهذا المنهج أصول ثلاثة : -

١ - تاريخى :

ونعنى به دراسة الوسط الذى أحاط بالإمام من مناخ وبيئة طبيعية وأحوال سياسية واجتماعية ونحوها . وروح العصر الذى نشأ فيه لبيان العلاقة بينه وبين عصره .

٢ - نفسى :

ونعنى به تأثر أدب الإمام ونقده بشخصيته لأن نفس الإمام هى المنبع الذى صدرت عنه أعمالها الأدبية والنقدية .

٣ - نقدى :

يبحث الأداء الفنى عند الإمام بين النظرية والتطبيق .

فنحن نختار الحوادث والآثار وننسقها ونفسرها ثم نصدر حكمنا على الإمام تعديلا أو تجريحا بعد عرض المتناقض المضطرب من الروايات والآراء لاستخلاص الحقائق منها .

من حديث الرسالة

نبتت فكرة هذه الرسالة فى منزل أستاذنا الدكتور أحمد موسى الاستاذ بالكلية . حيث كنا نتحدث بموضوع يصلح للرسالة ، وعرضنا فيما عرضنا من الموضوعات لشخصيات طه حسين وأحمد أمين والعقاد ... الخ ، فقال أستاذنا الجليل فى الأزهريين من يفضل هؤلاء . وقلت له على الفور تعنى محمد عبده ؟ فقال نعم .

ومنذ هذه الجلسة الممحصة فى عام ١٩٦٥ وأنا التقى بمحمد عبده فى آثاره وما كتب عنه إلى أن تكشفت الحقيقة وهنا وجدت نفسى أمام موضوع ضخم ظننته أول الأمر ضيقا ضيقا إلى درجة ينتهى عندها الضيق أو يكاد .

وإنه وإن يكن لأستاذنا الدكتور أحمد موسى الفضل كل الفضل فى لفت نظرى إلى هذا الموضوع فإن لأستاذى الكبير الدكتور عبد الحسيب طه وكيل الكلية فضلا كبيرا فى تقويم منهج الرسالة وتحديد أفكارها وترابطها بما عرف عنه من دقة وصبر على مشقة العمل ، وتشجيع على متابعة العمل برغم وعورة الطريق . فقد سدد خطاى فى ميدان البحث بتوجيهاته السديدة .

اليكما أيها الأستاذان شكرى وتقديرى ، والى كل من أعاننى فى سبيل البحث والدراسة أقدم تحية عرفان بالجميل ، وشكرا لصاحب الفضل على فضله .

هذا وبالله التوفيق ،،،

السيد تقى الدين

مقدمة

حياة محمد عبده تلخص حياة مصر - بذور الإصلاح - قدوة حسنة - تراث إنسانى خالد - دراسة جديدة - محمد عبده ورشيد رضا

ان حياة محمد عبده يمكن أن تلخص حياة مصر كلها من النواحى السياسية والاجتماعية والأدبية . لقد كان هناك شعور عام بضرورة الإصلاح ، وكان هذا الإصلاح لاينجح فى نظره إلا إذا شمل هذه النواحى كلها فى وقت معا .

فى القرن الماضى كانت بذور الاصلاح السياسى والادبى والاجتماعى قد بذرت ، وتعهدها محمد عبده يومها بالسقى والنماء حتى كان القرن الذى نعيش فيه فلم يزد رجاله على أن جنوا ما زرعه ذلك العظيم .

فالرقى السياسى ، والإصلاح الاجتماعى ، والنهضة الأدبية ، والجامعة المصرية ، وغير ذلك من نواحى النشاط المصرى إنما هى أثر من آثار الجهود التى بذلها محمد عبده ، وثمرة من ثمراته .

غاية الأمر أن كل جماعة منا اليوم تخصصت فى ناحية من نواحى الإصلاح بعد أن كان محمد عبده وأمثاله من رجال القرن الماضى لايعرفون هذا التخصص . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان الشبيبة المصرية فى مستهل القرن العشرين كانت فى حيرة من أمرها فأخذت تقلب البصر فى الظلام الكثيف تتلمس بصيصا من نور ، وتتطلع الى رائد يرشدها ويهديها سواء السبيل . وسرعان ما وجدت رائدها فى شخص رجل قد زانته الحكمة وصقلته الثقافة وحنكته التجارب دون أن تفقده حدة الذهن وتأجج العاطفة وعزمة الشباب ، رجل عرف كيف يجمع بين القديم والحديث ، ويؤلف بين العلم والدين ، ويعيش لأمته قبل أن يعيش لنفسه وأسرته . (١)

وقد خلف لنا هذا الإمام العظيم تراثا إنسانيا خالدا ، وقد مضى على هذا التراث أكثر من تسعين عاما منذ بدأ رحمه الله جهاده فى الميدان العام وقد توزع فى أطواء الزمن بين حياته وهو تلميذ وحياته فى رياسة الوقائع المصرية ، واشتركه فى الثورة العرابية ، وجهاده فى المنفى ببيروت ، وباريس ثم فى مصر الى أن توفى ، فقد رأيت أن محمد عبده يحتاج الى دراسة جديدة تنير الطريق أمام شباب اليوم وشيوخه الذين لم يشهدوا هذا الإمام العظيم ، ولم يدرسوه دراسة واعية ، ولم يظهر عنه من المؤلفات الا القليل وقد جمعت طائفة من أعماله جمعا مجملا لايكفى لبيان هذا الجهاد الطويل ، وهذا المجهود الضخم الذى قام به الامام العظيم بل الزعيم الكريم فى

(١) رائد الفكر المصرى للدكتور عثمان أمين ص٢٠٥ .

مختلف ميادين الجهاد ، وما خلفه من مدرسة أخرجت طائفة من الزعماء والأعلام فى الدين وفى الوطنية والسياسة والاجتماع . وقد اخترت مدرسته فى الأدب والنقد لعلمى أنها لم تدرس من قبل .

واذا كان المرحوم العلامة السيد رشيد رضا قد قام فى حياة الإمام وبعد وفاته بتسجيل آثاره وأعماله على نحو ما يحتاج اليه الجيل الماضى ، وأدى واجبه فى ذلك بقدر ما استطاع فان تطور العصر واختلاف حياة الجيل الحاضر وأسلوب تعليمه وتفكيره عما سبقه من أجيال يبعثان على اعادة النظر فى هذا التراث بما يستحق . وتقديمه بما يلائم بطريقة جديدة واضحة . وبعناية دقيقة فى التحقيق والتعليق وبتقسيمه على كتب توضح أنواع هذا الجهاد المتعددة التى أفنى فيها الإمام حياته ، وقدمها قربانا للوطنية والإسلام وإصلاح المسلمين[٢] . بل لعلك تعجب إذا قلت لك إن محمد عبده ورشيد رضا بحاجة الى حكم عدل ترضى حكومته لينصف الإمام من رشيد رضا الذى حاول أن يأخذ بعض آثار الامام ويدعيها لنفسه ولو فى الظاهر على نحو ما فعل فى تفسير القرآن الحكيم حيث ضم خمسة أجزاء من القرآن قام الإمام بتفسيرها كما يقول رشيد رضا نفسه ، ولكن رشيد ضم هذه الأجزاء الى تفسيره هو ونسب التفسير كله لنفسه ، وصنع ذلك أيضا فى تفسير الفاتحة وفى تفسير سورة العصر .

انى أرى أن الحاجة ماسة إلى مثل هذه الحكومة ، وضعا للحق فى نصابه ، وانصافا للتاريخ والتأليف .

ولذا قمت بهذه الدراسة راجيا أن تسد مكانا خاليا فى المكتبة العربية وفى الأدب العربى الحديث .

هذا وبالله التوفيق ،،،

السيد تقى الدين

---

(٢) الإسلام دين العلم والمدنية : المقدمة لطاهر الطناحى ص٨ .

الفصل الأول

آراء وأحاديث

١ ماذا قال السابقون عن محمد عبده ؟ وماذا تركوا ؟
عرض لآراء :
مستربرودلى – رشيد رضا – سعيد اليازجي – جورجي زيدان – مصطفى عبد الرازق – عثمان أمين – عباس محمود العقاد – أحمد حسن الزيات – سليمان دنيا – أنور الجندى – أنور الجندى - أنور حجازى .

أردتُ بهذه الآراء ، وبتلك الأحاديث أن أتعرف بالباحثين قبلى ، أولئك الذين كتبوا عن الإمام محمد عبده ، ماذا قالوا ؟ وماذا تركوا ؟ .

لأبدأ من حيث انتهوا ، ولأصحح ماعساه يكون فى كتاباتهم من أخطاء سواء فى المنهج أو فى الفكرة ، ولأبين أننى لاأعيد حديثا سبقنى إليه باحث ، وإنما أخط فى حقل بكر ، وأضئ طريقا لم يعرف مصباحا من قبل .

على أن الآراء والأحاديث التى أقدمها فى هذا الفصل انما هى لكتاب أفذاذ لهم وزنهم فى عالم الثقافة والفكر ، الأمر الذى يعطى البحث أهمية على أهمية ، فهى من ناحية تعرض لك الإمام رائدا من روّاد النهضة جديرا بالبحث والدراسة ليس عند عامة الناس ولكن عند أهل الدراية والخبرة ومن يعتد برأيهم وحديثهم ، ومن ناحية أخرى تريك أن هؤلاء الكاتبين من قبل لم يوفوا الامام حقه . فمن واجبى أن أوفيه حقه بقدر ما أطيق .

عرضت فى هذا الفصل لآراء مستر برودلى ورشيد رضا ، وسعيد اليازجى ، وجورجى زيدان ، ومصطفى عبد الرازق ، وعثمان أمين ، وعبّاس محمود العقاد ، وأحمد حسن الزيات ، وسليمان دنيا ، وأنور الجندى وأنور حجازى .

وتكشف آراء هؤلاء عن أن محمد عبده كان رجلا موهوبا ، وكاتبا لطيفا ، وخطيبا فصيحا ، وعالما بالعربية ضليعا ، وأنه ساعد على تكوين الرأى العام فى مصر ، ولم يكن متعصبا فى الدين وأنه كان رئيسا نشيطا ووطنيا مخلصا ، ومثلا للقوة العقلية العظيمة ، وإن كان بعضهم قد أخذ عليه تقصيره فى علوم الحديث ، وأنه كانت به حدة ، ومبالغة فى الرحمة والورع ، وأنه كان يجمع بين الصلاتين فى الحضر مخالفا بذلك المذاهب الأربعة ، وأنه رجل سياسة وإن غلب عليه الدين ، بل إن بعضهم يراه نبراساً للفضيلة والإصلاح ، وأساسا للنهضة الأدبية والسياسية والعلمية والفقهية ، واللغوية والمنطقية ، ذا حنكة وتجربة .

ولعله من الأوفق أن نلتقي بهؤلاء الكاتبين وجها لوجه ، وسنرى أن أحدا منهم لم يقدم لنا محمد عبده الأديب الناقد ، لم يقدمه لنا فى دراسة منهجية تحليلية ، وانما الحال عندهم أحكام عامة غير مدّعمة بالنصوص ، وإشارات خاطفة تصلح عناوين لموضوعات كبيرة ، فلنلتق بهؤلاء الكاتبين .

١ – مع مستر برودلى :

الشيخ محمد عبده
العالم الصحفى المحرر [١]

ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم النّاس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين ، وقد أثر فى الطبقة المهذبة من أهل وطنه تأثيرا ظاهرا لأنه كان كاتبا لطيفا ، وعالما بالعربية ضليعا ، وخطيبا فصيحا يعمل فى القلوب ، ولا شك أنه ساعد من قبل كثيرا على جعل الرأى العام عاملا حقيقيا فى الرّقى المصرى ولم يكن متعصبا ذا خطر أو متهوسّا فى الدين بل هو من المسلمين القائلين بالتوسع الشديد ، وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأى الجمهورى الحر وكان رئيسا نشيطا ، ووطنيته التى لاشائبة للأنانية فيها هى التى منعت بعض رفقائه المتحمسين من استيائهم من خطته الدينية الشاذة [٢] استياءا علنيا حتى إن عرابى صديقه قال مرة : إن رأس الشيخ عبده أصلح للقبعة منه للعمامة .

وتعد أخلاق الشيخ محمد عبده كلها مثلا للقوة العقلية العظيمة التى تلبدت عليه سحب من ضعف البنية ، والأخلاق مدة من الزمن ، والظاهر أن عقله وجسمه معا سحقا سحقا لا أمل بشفائه بعد انفعاله الشديد الناشئ عن الآمال الضائعة وغصص القنوط ، وقد سبّ وأهين فى السجن مثل رفقائه ولكنه يختلف عنهم بحيث إن أخباره عما أصابه ضعيفة مبهمة إذا قيست بأخبارهم .

٢ – مع رشيد رضا :

نقص على القراء ملخص سيرته مع التزام الصدق ليظهر لهم كيف تعلم وتربى حتى صار إماما حكيما وماذا عمل حتى صار مصلحا عظيما ، وسنضع له تاريخا مطوّلا نفصل فيه ماأجملنا ونشرح فيه مالخصنا ونودعه كثيرا من رسائله ومكاتباته ، وخطبه ومقالاته وماكتب به إليه بعض العلماء والعظماء ، وماقاله فيه نوابغ الكتاب والشعراء ، ومابنته به الجرائد ومارثى به من غرر القصائد . [٣]

---

(١) ترجمة ماكتبه مستر برودلى تحت هذا العنوان : تاريخ الأستاذ الامام حـ١ ص ٢٢٥

(٢) هكذا يرى مستر برودلى ، وقد أخطأه التوفيق فى هذه العبارة ، ويبدو أن هذا الخطأ نشأ من عدم فهم مذهب الإمام فى الإصلاح الديني .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٣ ص ١٠٩

ويبدو أن السيد رشيد رضا أراد فى كتابته عن الإمام أن يقرن بين الثناء والملام فيذكر محاسنه ومثاليه ليرضى فريقا من الباحثين يرون أن ذلك هو المنهج الأصوب فى الكتابة عن الشخصيات ، ولذلك رأينا رشيد رضا يعرض لتقصير الإمام فى علوم الحديث ، ويعرض لما يتصف به من حدة ، ولجمعه بين الصلاتين فى الحضر ، وقد أحسست وأنا أقرأ لرشيد رضا أنه يتكلف حصر العيوب إرضاء لأولئك الباحثين ، ودليل تكلفه أنه قال بعد ذلك إن الإمام « أكمل من عرفت من البشر » ولا أقرّه على استعمال كلمة « أكمل » فلم هذا التعميم ؟

إن البحث المنهجى يجب أن يأخذ مجراه الطبيعى مسترشدا بالمناهج الفنية غير ملتزم بها تمام الالتزام وإلا أصبحت قوالب متحجرة تضر أكثر مما تنفع ، ولقد أعجبنى فى هذا الصدد موقف الاستاذ العقاد حيث يقول [٤] : « فالناس قد تعودّوا ممن يسمونهم بالكتاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا وأن يقرنوا بين الثناء والملام ، وأن يسترسلوا فى الحسنات بقدر لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها ، فان لم يفعلوا ذلك فهم اذن مظنة المغالاة والاعجاب المتحيّز ، وهم إذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون ، ولايعجبون إلا وهم متحفزون للملام » .

والأستاذ العقاد بعد أن يقرر هذا المنهج يرفض الأخذ به ويرى أنه لا حرج فى أن يزكى الإنسان عملا لعظيم كلما رآه أهلا للتزكية « وإن زعم زاعم أنها المغالاة وأنه فرط الإعجاب [٥] .

والحق أن المسائل التى لفظ بها الناقدون حول الإمام كانت له فيها حجة ناهضة وإنْ أخطأه الصواب فلم يكن يخبط فيها خبط عشواء وإنما كان مجتهدا وحسبه ذلك فى عصر عزّ فيه الاجتهاد .

وأكبر الظن أن رشيد رضا أراد أن يدفع عن نفسه تهمة المغالاة وفرط الإعجاب وذلك حيث يقول : وقد جريت على سنن علمائنا المتقدمين من رواة الآثار المحدثين والمؤرخين فى بيان آراء الأستاذ الإمام وعاداته وشمائله وأخلاقه بالصراحة والحرية والصدق .... كما أننى حرصت على تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية كى يحيط القارئ به .... أثبت أنه كان مقصرا فى علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل .... وكان لايخلو من الحدة ومما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة والمبالغة فى الورع المغريتين لصاحبهما بايثارهما على المصلحة العامة .... كان يجمع بين الصلاتين فى الحضر أحيانا ترخصا اجتهاديا خالف فيه المذاهب الأربعة ولكنه وافق حديثا صحيحا أخذ به غيرهم من الأئمة .

وجملة القول أن هذا الرجل أكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا ونفسا وعقلا وخلقا وعلما وإخلاصا وأن من مناقبه ماليس له فيه ند ولا ضريب . وأنه لهو الأحوذى العبقرى

---

(٤) مقدمة عبقرية عمر ، ص ٥ .

(٥) المرجع السابق ص ٦

الحقيق بلقب « المثل الأعلى » من ورثة الأنبياء فى هذا العصر وإن لم أطلقه عليه لأنه على إطلاقه خاص بالله فى نص كتابه ، وقد ابتذله الناس فى الخطب والجرائد حتى خرج عن معناه .(٦)

ويلفت النظر فى قول رشيد رضا هنا أنه حرص « على تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية كى يحيط القارىء فدراسته ليست بالدراسة المتخصصة الدقيقة ولكنها دراسة عامة قصد بها أن يحيط القارىء بحياة الإمام .

وكان رشيد رضا يرى أن السيد جمال الدين رجل دين وإن غلبت عليه السياسة والشيخ محمد عبده رجل سياسة وان غلب الدين بل هو أقرب من أستاذه إلى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين فيهما فقد كان فى الأزهر لايعلو قوله قول . ولا يغلب رأيه رأى . وكذلك كان بين الراقين من رجال الدنيا كالوزراء والقضاة والمحامين والأدباء والمنشئين بل كان كذلك بين علماء الإفرنج وساستهم .(٧)

وهكذا قدّم لنا رشيد رضا الإمام رجل سياسة ودين وقضاء وأدب ورأى لكى نحيط بحياة هذا العظيم .

ومما يذكر فيشكر للسيد رشيد رضا أنه جمع كل مقالات الأستاذ الإمام من بطون الصحف ووفر علينا وعلى الباحثين جهدا كبيرا فى البحث عن هذه المقالات . واستطعنا بفضل ذلك أن نتتبع الإمام فى مراحله الأدبية المختلفة وأن نكوّن لأنفسنا صورة عن أسلوبه الكتابى . كيف نشأ ؟ وكيف نما وارتقى ؟ ومامراحل هذا النمو والارتقاء .

ولكنه يجب أن نلاحظ أن تاريخ الأستاذ الإمام لم يخرج للنّاس الا فى سنة ١٩٣١م بعد وفاة الإمام بستة وعشرين عاما . وقبل وفاة رشيد رضا ببضع سنوات . ويظهر أن ضيق الوقت . وكثرة نفقات الطبع اضطرت السيد رشيد أن يجمل تاريخ الإمام إجمالا . ويدمج سيرته فى سيرة السيد جمال الدين الأفغانى . ويضم حياته الشخصية إلى حياته الدينية والسياسية ، ويدخل حياته العلمية فى حياته الاجتماعية . ويضيف فتاويه إلى آراه الإصلاحية ، ويخلط مذكراته الوطنية ، وكتاباته عن الثورة العرابية . وآراءه فى محمد على واسماعيل وتوفيق ، وأعوانهم فى مجموعة أخرى مما ليس فيها ويطبع ذلك كله فى جزء واحد يستوعب ١٠٥١ صفحة ، وقد كان من دوافع هذه الترجمة المزدحمة المتداخلة أنه كان على عرش مصر أبناء محمد على واسماعيل وتوفيق فلم يكن فى مقدوره أن يخرج للنّاس حياة الامام إخراجا ترضى عنه الحقيقة ويرضى عنه التاريخ كل الرضاء .(٨)

وقد عمد السيد رشيد إلى شىء لم يسبق إليه مترجم لحياة عظيم من عظماء التاريخ . ولا لتلميذ يكتب عن تاريخ أستاذه فقد وضع تاريخ الشيخ محمد عبده وماقام به من أعمال وكـ ه

(٦) تاريخ الأستاذ الإمام للسيد رشيد رضا جـ ١ ص ٥ . ٦

(٧) تاريخ الأستاذ الامام للسيد محمد رشيد رضا جـ١ ص ٧

(٨) مذكرات الإمام محمد عبده : المقدمة لطاهر الطناحى ص ٦

يضع تاريخا لنفسه أيضا فقد لاترى فصلا أو بحثا للسيد رشيد رضا عن الأستاذ الإمام إلا وقد أشرك فيه نفسه . ، وكأن حياته جزء من حياة الإمام بل بلغت به حماسته لنفسه أن جعل عمله مكملا لأعمال الإمام فى بحوثه وآرائه وكتبه ككتاب التوحيد وتفسير القرآن الكريم ، وغير ذلك مما كتبه وألقاه من بحوث ودروس ، وقد روى[٩] عن الإمام أبياتا قالها قبيل وفاته وهو على فراش الموت يدعو الإمام فيها الله تعالى أن يجعل السيد رشيد رضا خلفا له على دين الإسلام يضيء منهجه ويسير على طريقه ويماثله نطقا وعلما وحكمة وهذه الأبيات هى :

ولست أبالى أن يقال محمد .... الخ .

وسواء كانت هذه الأبيات للشيخ محمد عبده أم للسيد محمد رشيد رضا الذى رواها عنه فإنها تدل على عنايته بنفسه ، وإيمانه بأنه خليفته فى الإصلاح الإسلامى ، وقد استولى على الكثير من آرائه واقتنع بأن له الحق فى طبعها وشرحها والزيادة عليها دون أحد غيره من تلامذة الأستاذ الإمام .[١٠]

ونحن نوافق الأستاذ طاهر الطناحى فى جميع ماذهب اليه ماعدا المسألة الشعرية ، وسنعرض لها فى الفصل الخاص بنظرية الأنواع الأدبية .

٣ - مع سعيد اليازجى

من الناس من اشتهر بالفضيلة فكان لها نبراسا وللإصلاح رأسا ، وللنهضة الأدبية أساسا ، ومنهم من اشتهر بالسياسة فكان سياسيا خلابا ، وأسّا فى جسم وطنه مهابا ، ومنهم من اشتهر بالعلم فكان عالما مدققا ، وفقيها محققا ، ولغويا يعولّ فى اللغة عليه ، ومنطقيا يرجع فى تحليل القضايا اليه . ومنهم من اشتهر بالكتابة والنظم فكان كاتبا أدبيا يخلب الألباب بأساليبه ودقة معانيه ، وشاعرا لبيبا يطرب القلوب برقيق نظمه ومتانة قوافيه ، ومنهم من حنكه الدهر واختبرته الأيام فانصرف إلى صوالح الأمة يذود عنها ويدفع كل ملمة ، وأما محمد عبده فقد اشتهر بهذه كلها مقرونة بمحبة وطنية وغيرة وقادة على الحركة الأدبية ، والمشاريع الخيرية .[١١]

٤ - مع جورجى زيدان :

علم أن محور العلوم الإسلامية اليوم مصر ومركز العلم بمصر أو فى العالم الإسلامى كافة الجامع الأزهر فرأى أنه اذا أصلح الأزهر فقد أصلح الإسلام فسعى جهده فى ذلك فاعترضه أناس من أهل المراتب يفضلون بقاء القديم على قدمه ، واستنصروا العامة عليه ، وغرسوا فى أذهانهم أن ذلك نصيب أمثاله من قديم الزمان ، على أنه لم ينجح فى إصلاح الأزهر الا قليلا ولكنه وضع الأساس . ولابد من رجوع الامة إلى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين فيكون الفضل له فى تأسيسها .

---

(٩) مذكرات الإمام محمد عبده : المقدمة لطاهر الطناحى ص ٦

(١٠) المصدر نفسه : ص٧

(١١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٣ ص ١٤٢ . نقلا عن جريدة المناظرة التى يصدرها فى سان باول عاصمة برازيل لقوه لبكى فى العدد ٥٤٧ من السنة السابقة فى أيلول ١٩٠٥م

على أن الجانب الأعظم من عقلاء المسلمين وخاصتهم يرون رأيه فى اصلاح الدين ورجاله ، وربما سبقه كثيرون منهم إلى الشعور بحاجة الإسلام إلى ذلك ولاسيما المتخرجين بالعلوم العصرية من الناشئة المصرية ، ولكنهم لم يجسروا على التصريح بأفكارهم فى غير المجتمعات الخصوصية لئلا ينسبهم الناس إلى المروق من الدين فلما جاهر محمد عبده برأيه وافقوه وصاروا من مريديه ونصروه بألسنتهم وأقلامهم فحاجة الإسلام إلى الإصلاح ليس هو أول من انتبه اليها ولكنه أول من جاهر بها .[١٢]

٥ - مع مصطفى عبد الرازق[١٣]

كان مصطفى عبد الرازق يرمى من وراء كتابه إلى أن يؤرخ سيرة الشيخ محمد عبده فى جميع مراحلها وأطوارها ابتداء من ولادته إلى أن توفاه الله . ولذلك قال :

قد جعلنا سيرة الأستاذ قسمين : القسم الأول يتناول مابين ولادته إلى أن عرف له بيان مكتوب يعرب عن أفكاره وعواطفه ، والقسم الثانى من سيرة إمامنا الكبير يتضمن حياته المثمرة من يوم أن نشر على النّاس آراءه إلى أن طواه الموت .

ويقصد الشيخ مصطفى من وراء ذلك إلى تمثيل صورة صحيحة من أخلاقه ومعارفه ، ومذاهبه فى الإصلاح مع بذل الجهد فى بيان العوامل التى كونت كل ذلك ، وأثرت فى نموه وتطوّره من البيئة والتربية .

إلا أن دراسة الشيخ مصطفى لم تصل إلى نهايتها لأسباب خارجة عن ارادته ، ومع ذلك شملت دراسته معظم حياة الإمام منذ ولادته إلى ما بعد الثورة العربية .

٦ - مع عثمان أمين[١٤]

كانت حياة محمد عبده - كشخصيته - خصبة حافلة متناغمة صنعها بقلبه ورأسه ويده كما يصنع الفنان الممتاز تحفة رائعة ، وأعماله وفيرة منّوعة لا تتسع الصحائف الكثيرة لاستقصائها فلم يكل يوما عن الفكر والعمل منذ شبابه الباكر الى أن أصبح شيخا اقترب من الستين .

وبالجملة لم يدخر جهدا فى أداء الرسالة الاخلاقية التى رأى وجوب الاضطلاع بها تحقيقا للتجديد الدينى والإصلاح الإجتماعى ، وأنفق حياته داعيا إلى الحق ، جادا فى فعل الخير . حريصا فى هذا كله أن يضع شخصه وعلمه وتجربته فى خدمة المجتمع المصرى . وكان الرجل فى حياته كلها طلعة واعيا حر الفكر واسع الأفق ، كان على بينة من حضارة الشعوب الحديثة . وتاريخ الشعوب القديمة ، وكان محيطا بأهم ماتنتجه قرائح المفكرين الغربيين . وكانت له آراء ممحصة عن سلوك النّاس وأخلاقهم ، وكان يعرف كيف يقدّر الأشخاص ، ويزن الأحاديث

---

(١٢) المصدر نفسه جـ٣ ص ١١٥ نقلا عن مجلة الهلال لجورجى زيدان الجزء العاشر من المجلد الثامن .

(١٣) محمد عبده لمصطفى عبد الرازق ص ٦ - ٧

(١٤) رائد الفكر المصرى ص ٤٤ - ١١٩

وقد استكمل ثقافته المتينة برحلات عديدة فى افريقيا وأوروبا ، وكان يحاول فى كثير من الأحيان أن يقول : إنه فى حاجة إلى هذه الرحلات « لتجديد نفسه » .

وكان له أصدقاء عديدون شرقيون وغربيون ، أما أصدقاؤه المصريون فقليلون ولكنهم ممتازون .

وكان رجل نظر كما كان رجل عمل . والنظر والعمل عنده أمران متصلان لا ينفصلان ومن أجل هذا كان اعتبار أفكاره مستقلة عن أعماله اعتبارا ناقصا هو أدخل فى باب المجردات ، كما أن من التقصير حقا ذكر أعماله من غير اعتبار للنظرات الفلسفية التى كانت بمثابة النبراس الهادى الى تلك الأعمال .

ويبدو أن محمد عبده قد طبق فى دروسه المنهج الأثير لدى أستاذه جمال الدين وهو يتلخص فى اتخاذ نص قديم أساسا لشرح تحليلى نقدى . وكان لتدريس محمد عبده طابع حيّ منوّع تميّزه من المناهج الجامدة التى كانت إلى ذلك الحين . لقد تخيّر عددا من الكتب التى تعدّ أصيلة فى تكوين التراث القديم وبذل الجهد فى أن يفكر بدوره متأثرا بها .

ومحمد عبده كان عظيم الثقة بالروح العلمى وبرسالة العلم إذا اهتدى العالم بقواعد المنطق الصحيح وتتلخص هذه القواعد فى ثلاث أساسية :

١ - اكتساب الشجاعة فى التفكير ورؤية الأشياء على ماهى عليه .

٢ - ثم تحقيق حرية النفس بإزاء تحكم الأهواء وتحيّز الآراء .

٣ - وأخيرا صون استقلال الذهن والحرص على أن لا يذعن إلا للحق .

وفى السنوات الأولى لهذا القرن انتهت زعامة الفكر فى مصر إلى الأستاذ الإمام محمد عبده فاشتغل ذلك الفيلسوف بالتجديد الدينى والاصلاح الاجتماعى . وكان بحق رجل علم وعمل ، ورجل دنيا ودين .

ونستطيع أن نجمل وجوه نقده للمجتمع المصرى فى أربعة جوانب رئيسية : عقلية وأخلاقية ودينية واجتماعية .(١٥)

ثم يقول الدكتور عثمان أمين : وأكبر الظن أن المصلح المصرى كان يرمى بمحاولته إحياء المذهب العقلى الذى قال به المعتزلة . أن يساهم فى إعادة وتوطيد أركان مبدأ الاجتهاد فى الرأى والحرية فى البحث فى ربوع العالم الإسلامى ، وبهذا المبدأ يتيسر للفقهاء مثلا أن يتناولوا الشريعة الدينية فى شئ كثير من الاستقلال الفكرى الشخصى يؤهلهم حين الفصل فيما هو مباح وماهو محظور وفيما هو مأمور به وما هو منهى عنه لأن يكونوا قادرين على أن يحكموا على الأمور بما يطابق العقل . لا بالتزام النص والوقوف عند حرفيته . وبدلا من أن يقتصروا أحيانا على

---

(١٥) رائد الفكر المصرى للدكتور عثمان أمين ص ٤٣ - ٨٩

استعمال مبدأ القياس وحده يستطيعون أن يفصحوا فى حرية عما يجد من وقائع وشئون و ـ يلتمسوا لها حلولا أكثر مطابقة لروح العصر الحديثة ومقتضياته .(١٦)

ونحن نختلف مع الدكتور عثمان فى زعمه أن محمد عبده كان يرمى إلى احياء مذهب المعتزلة فالرجل كان يرمى إلى احياء مذهب السلف على ماسنبينه فى الفصل الخاص بحياته وبيئته . وبالرغم من ذلك كان حرّا فيما يأتى وفيما يدع . يأخذ من رأى المعتزله ويدع . ويأخذ من رأى السلف ويدع ، فلم يحبس نفسه داخل حدود المذهبية وإنما استنار بآراء الجميع . ثم استقل برأيه أخيرا ، ويتضح ذلك فى رد الإمام على الشيخ عليش حين اتهمه بترجيح مذهب المعتزلة فقال له الإمام : إذا كنت أترك تقليد الأشعرى فلماذا أقلّد المعتزلى : إذا أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل .(١٧)

٧ – مع العقاد

يقول العقاد فى التمهيد لكتابه :(١٨)

نبدأ هذا الكتاب بفصل عن عصر اليقظة ، يليه فصل عن حياة القرية المصرية فى ذلك العصر ، يليه فصل عن الجامع الأزهر فيما اتصلت به حياة القرية من رسالته الفكرية والاجتماعية لأننا نقضى من كل تاريخ من هذه التواريخ الثلاثة إلى تاريخ صاحب السيرة أعظم من أنجبته القرية ونهض برسالة الأزهر فى عصره . عبقرى الإصلاح والهداية محمد عبده قدس الله روحه ، وأعاننا على التعريف بفضله ، والتعريف بواجبنا من بعده تمهيد نفتتح به هذه السيرة العطرة لنبسطها – على ما نتحراه من سير العظماء جميعا – صورة نفسية تعنينا منها حوادث الزمن . ومواقع الأمكنة وأرقام السنين بمقدار ما تمثله لنا من ملامح الصورة . ومعالم الحياة التى تصوّرها ، وكل ما فى هذه الصفحات من أحاديث التاريخ والرواية عن محمد عبده فى نشأته وأسرته وصحبته وعوارض أوقاته من مولده الى وفاته – فالذى نتحراه منه أن يكون عضوا من أعضاء قوة حيّة قبل أن نتحراه جزءا من فترات التاريخ أو جزءا من الخريطة الجغرافية ، ويملى لنا فى مقصدنا أن صاحب السيرة – خاصة – ينبوع قوة روحية تطوى عوارض الزمن ، وصغائر الدنيا فيما تفيض به من حياة انسانية يخلص لنا منها – بعد تمحيص الجوهر عن نفايات الأوشاب والأخلاط – أشرف ما تتحلى به نفس الإنسان فى العالم الخالد الذى يذهب بالزبد ويبقى ما ينفع النّاس وسنبلغ مقصدنا من هذه الصفحات إذا جلونا بها صورة يلتفت اليها طلاب القدوة الحسنة من أبناء هذا الجيل فيجدون أمام أعينهم محمد عبده أماما هو أولى أئمة العصر أن يأتم به المقتدى فيما اضطلع به من أمانة العقيدة . وأمانة الفكر وأمانة الخير ، وأمانة الحق ، وأمانة الإخلاص للخلق والخالق . فى كل ما يتولاه الانسان – الجدير باسم الإنسان من نية وعمل ، ومن سر وعلانية .

---

(١٦) المرجع نفسه ص ١١٨ ١١٩

(١٧) تاريخ الأستاذ الإمام الرشيد رضا جـ١ ص ١٣٣

(١٨) محمد عبده ص٣ – ٤

٨ - مع أحمد حسن الزيات

لاريب أن الإمام محمداً كان من اولئك الأعلام المصطفين الذين يوضح الله بهم طريق الإنسانية من قرن إلى قرن . وأخص ما تميّزهم به الطبيعة متانة الخلق ، وصلابة الرجولة . وشدة الأسر وقوة الحيوية ، وحدة الذهن . وصفاء الملكة . ورث عن أبيه وشاقة التركيب . وشجاعة القلب . وشب نابيا عن الضعف أبيا على السكون .

وكان لهؤلاء الثلاثة : أبيه مربى جسمه . وشيخه مربى روحه ، وأستاذه مربى عقله . أبلغ الأثر فى تكوين صفاته . وتوجيه حياته . وتبليغ رسالته .

والقلق المقدّس الذى يشبه فى الحكماء الارهاص فى الأنبياء كان لايفتأ منذ حداثة الشيخ يساوره فى كل هم يحاوله . وعمل يزاوله وموضع يستقر فيه ، وذلك القلق مبعثه فى المصلح صفاء النفس . ولطف الحس . وحدة الفطنة . فهو وحده يدرك النقص فيروم الكمال . ويلحظ الخطأ فيطلب الصواب . ويسأم الركود فيبتغى التحول . ولذلك كان الإمام لايكره طبعه على حال . ولايلبس سمعه على رأى . ولا يملك لسانه عن نقد . ولايكف عزمه من تغيير . ولا يخزل جهده عن إصلاح .

كانت مقالاته فى « الوقائع المصرية » دستورا للغة ونظاما للكتابة . ومنهاجا للفضيلة .

كان الإمام محمد عبقرية ثائرة ناقدة لاتعرف القيود ولا الحدود ولا السطحية ، ولكنها انحصرت بحكم الظروف فى الاصلاح الدينى . فوقفت بين الدين الذى تأخر والعلم الذى تقدم موقف ابن رشد وابن سينا من قبل . تحاول التأليف بين القلب والعقل . والتوفيق بين الرأى والنقل . فذهب اكثر جهده باطلا بين الجامدين الذين يرون فى تجديد الدين بالعلم بدعة ، وبين المسرفين الذين يرون فى تقييد العلم بالدين رجعية فلو أنه عالج الاصلاح الاجتماعى عن طريق العلم . أو السياسى عن طريق الحكم ، لدفع الأمة الى الامام على الاقل .[١٩]

وإن كنت آخذ على الأستاذ الزيات قوله عن عبقرية الإمام « فوقفت بين الدين الذى تاخر .. الخ « فالدين لم يتأخر ، ولكن تأخر المتدينون به وأساؤا فهمه . وأهملوا تعاليمه فكانوا أسوأ دعاية للإسلام كما قال شوقى :

أمم الهلال مقالة من صادق والصدق أليق بالرجال مقالا
متلطف فى النصح غير مجادل والنصح أضيع ما يكون جدالا
من عادة الإسلام يرفع عاملا ويسود المقـــدام والفعّـــالا
ظلمته ألسنة تؤاخذه بكم وظلمتموه مقرطين كسالى[٢٠]

كما أننى لا أقرّ الأستاذ الزيات على ماذهب إليه من أن عبقرية الإمام انحصرت فى الإصلاح الدينى . وأنه لم يعالج الإصلاح الإجتماعى عن طريق العلم أو السياسى عن طريق الحكم .

---

(١٩) احمد حسن الزيات : وحى الرسالة : المجلد الأول ص٢٣٦ - ٢٤٢

(٢٠) الشوقيات جـ١ ص٢٢٥ من قصيدة « مرحبًا بالهلال » التى قيلت من رأس سنه ١٣٢٩هـ مطبعة الاستقامة ١٩٥٣

فقد كان للإمام إصلاح سياسى ودينى وإجتماعى وأدبى على ما سيجىء بل أن كثيرا من آراء الإمام الإصلاحية فى الدين والسياسة والاجتماع والأدب ترى النور فى أيامنا هذه .

٩ – مع الدكتور سليمان دنيا

الشيخ محمد عبده شخصية يحس بها الجيل الحاضر إحساسا قويا لقرب العهد بها فكثيرون ممن رأيناهم وعشنا معهم طويلا رأوها وعاشوا معها طويلا ولكن ليس قرب العهد بها مرجع الأمر فى إحساسنا القوى بها فان كثيرين ممن عاصروا الشيخ محمد عبده لانحس بهم كما نحس به بل ان كثيرين ممن يعاصروننا ليس لهم فى نفوسنا ما لشخص الشيخ محمد عبده من أثر وقد عاش الشيخ محمد عبده فى الأزهر وبين الأزهريين فكان أزهريا مثلهم يفهم الكتب الأزهرية ويتعمق معانيها ومراميها كما يفهمون ويتعمقون ، ولكنه عاش إلى جانب ذلك مع النّاس خارج الأزهر فانفعلت نفسه بالمجتمع مثلما انفعلت بالبيئة الأزهرية . وربما كانت نفس الشيخ محمد عبده سريعة الانفعال والتأثر فانطبع فيها أثر من هذا . وأثر من ذاك وتفاعل الأثران فكان منهما مزيج عكس على المجتمع شيئا من أثر الحياة الأزهرية . وعكس على الأزهر أو حاول أن يعكس شيئا من أثر الحياة الخارجية ويظهر أن هذا التكوين الثنائى قد خلق متاعب للشيخ محمد عبده اذ حاول أن يرضى أحاسيسه كلها فينقل شيئا من الأزهر إلى المجتمع . وينقل شيئا من المجتمع الى الأزهر .

أقصد أنه ربما حاول أن يقرب بين الأزهر والمجتمع بين دنيا النّاس ودينهم . وعساه لقى معارضة شديدة من النّاس خارج الأزهر كما لقى معارضة من النّاس فى داخل الأزهر[٢١] .

فالنّاس فى خارج الأزهر تنقصهم الروح الدينية التى تدخل فى حياتهم عناصر من العزة والكرامة والشمم والاباء تعلو بهم عن سفاف الأمور . والانحدار فى مسالك الحيوان الأعجم والنّاس فى داخل الأزهر لايحاولون أن يتصرفوا فى بضاعتهم تصرفا يجذب الأنظار اليها ، ويحبب النّاس فيها ، ويعرفهم مقدار الحاجة اليها .

هكذا كان المجتمع المصرى . وكان الأزهر فى عهد الشيخ محمد عبده كلاهما لايحاول الالتقاء بالآخر فلا الأزهر يحاول محاولة جدية أن يدنو من المجتمع ولا المجتمع يحاول أن يدنو من الأزهر .

وظلا كذلك كالماء فى البئر والظمآن على شاطئه فلا الماء يصعد من نفسه الى الظمآن . ولا الظمآن يحتال على الاغتراف من ماء البئر ومثل هذه الحال تفرض على المصلح أن ينظر الى كلتا الجهتين ، ولقد عمل الشيخ محمد عبده فى كلا الميدانين وكان له فى كل منهما أثر .

ولست هنا بسبيل أن أتحدث عن أثره فى المجتمع فإن المقام يفرض علىّ أن أقصر حديثى فى هذه العجالة عن الشيخ محمد عبده فى المجال العلمى وسأقصر نفسى حتى فى هذا الجانب عليه فى حدود كتابه هذا الذى بين أيدينا « حاشية الجلال الدوّانى » .

---

(٢١) الشيخ محمد عبده الفلاسفة والكلاميين ص٥

والأمر الذى لاشك عندى فيه أن الشيخ محمد عبده قد وهب عقلا نيراً نفّاذا ، وبيانا مشرقا أخاذا فأبرز آثار عقله فى أسلوب واضح رائق (٢٢) .

ومما لاشك فيه أيضا أن الشيخ محمد عبده كان حاد الطبع قوى الشخصية شديد الاعتداد بنفسه وأنه كان واسع الاطلاع على ما كتب فى الإسلام وعن الإسلام . ولاشك فى أنه قد أعطى عقله حريته فى البحث والفهم والنقد .

وأنه لبارع كل البراعة فى تشقيق القول ، وتحليل المسائل ، وتوليد الآراء ، وإن قدرته هذه لتجعله قادرا كل القدرة على الميل بالرأى عن متعارف النّاس فيه ميلا لاتحس بتعمل ولا بتكلف ، بل أنك لتجد كأن الرأى فى صورته التى يعرضه فيها الشيخ محمد عبده هو مراد صاحب القول منه وما عداه كأنما هو غريب عنه . وهكذا يستطيع الشيخ محمد عبده بمقدرته الفائقة أن يصرف قارئه عن المتعارف عن الرأى إلى شىء آخر غيره .

ويبدو أن الشيخ محمد عبده قد أحس بالفشل فى الميدان الداخلى – ميدان الأزهر – أو على الأقل أحسّ بضآلة الأثر الذى ترتب على جهاده لذلك كان عنيفا فى حديثه عن الأزهريين يلوم ويعتب فى حدة وعنف (٢٣) .

ويظهر أن تحميل الشيخ محمد عبده منهج الأزهريين فى البحث والدرس مسئولية عدم استجابة النّاس لدعوتهم ، ومسئولية عدم انتفاع النّاس بهم قد حمله على أن يسرف فى متابعة خصومهم ، فقد تابع الشيخ محمد عبده الفلاسفة فى أمور لايصعب على المنصف أن يرى صواب رأيه . فيها بحث زيادة الصفات وعدم زيادتها ، كما تابعهم فى أمور لايصعب على المنصف أيضا أن يرى الشيخ محمد عبده لم يكن لديه من المبررات ما يكفى لوثوقه بها .

والشيخ محمد عبده رجل كبير العقل جرىء القلب يستطيع أن يفهم ما يقوله النّاس على الوجه الذى أرادوه . ولا يتهيب أن يقول فيه ما يبدو له أنه حق .

وهو الى جانب كبر عقله ، وجرأة قلبه ، قد أتيح له من الفراغ ما ملأه بالقراءة والاطلاع . فتوفر له بوساطة كل ذلك انتاج خصب دسم رغم قلته وان القارىء لاشك واجد متعة فى أن يقرأ لرجل اجتمعت له كل هذه الميزات : اطلاع واسع ، وعقل فاحص . وشجاعة تمكن من إعلان الرأى وإبدائه وما أظن إلا أن خصوبة الشيخ محمد عبده ودسامة انتاجه هى بدورها مجال لنقد أو تعقيب ، وهذا هو الشأن دائما فى كل تفكير يعرض للعويص من المشاكل ، ويحاول أن يصل فيها إلى رأى حاسم وكذلك كان الشيخ محمد عبده رحمه الله فهو لم يقنع بما قنع به كثير من المؤلفين من حكاية آراء العلماء من قبله وتصوير وجهة نظرهم ليقوم بدور هو أشبه بالتبليغ فقط (٢٤) .

---

(٢٢) نفس المصدر ص٦

(٢٣) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين ص٦ ، ٧

(٢٤) المصدر السابق ص٧ ، ٨

إن الشيخ محمد عبده افترض إمكان الوصول فى هذه المشاكل إلى حلول صائبة ومقنعة فى الوقت ذاته لذلك تراه ينتهى إلى حلول لمشاكل الجبر والاختيار وما إليها إنتهاء يخيل إليك أن صاحبه لايخالجه شك فى أنه قد أصاب كبد الحقيقة .

ومن المخاطر التى يتعرض لها الباحثون فى المشاكل التى بحثها الشيخ محمد عبده التأرجح بين المغالاة فى قيمة العقل والذهاب إلى أنه قادر على إدراك كل شىء . وبين الهبوط بقيمته إلى مستوى دون ما ينبغى له . إذ بينا يغالى فى قيمته قوم فيثقون به أكثر مما ينبغى ويقحمونه فيما لاتصل طاقته اليه يهمله آخرون حتى ما يكادون يعترفون له بفضل فأين كان الشيخ محمد عبده من هذه المسألة . إن الذى يقرأ الكتاب الذى بين أيدينا يدرك فى وضوح أن الشيخ محمد عبده قد عوّل على العقل تعويلا يجعله فى عداد المفكرين الأحرار . ويدرك أن الشيخ محمد عبده يرى العقل كفيلا بحل المشاكل .

ويمكن القول فى إجمال : إن الشيخ محمد عبده لم يفرط فى حق العقل . ولم يبخسه حقه . والكتاب الذى بين أيدينا كله شواهد ناطقة بذلك .

ولكن هل لم يغل الشيخ محمد عبده فى حق العقل ؟ وهذا هو الطرف الآخر فى المسألة فانه ليس يكفى لحسن تقدير العقل أن لا نفرط فى حقه بل لابد إلى جانب ذلك أن لانغالى فى حقه لنحفظ عليه وضعه الطبيعى . ونحله المكان اللائق .

وعندى أن الشيخ محمد عبده إذا كان لم ينقص العقل حقه فهو قد جاوز به حده . لقد دفع الشيخ محمد عبده العقل دفعا ليقول فى حوادث المستقبل قولا يقينيا .
ومعرفة المستقبل معرفة يقينية تعتبر الآن من مشاكل الفكر الحديث [٢٥] .

١٠ - مع أنور الجندى [٢٦] ١٨٤٩ - ١٩٠٥

حياة خصبة عريضة دافقة بالحياة موفورة بالنشاط والحيوية فى مرحلة من أدق مراحل تاريخ مصر والأمة العربية - قبل الاحتلال البريطانى وبعده ولذلك كان لها ملامحها وصورتها يفصل بينهما خيط من النفى والاغتراب امتد خمس سنوات ١٨٨٣ - ١٨٨٧م . ولكنها فى مجموعها حياة مصلح يؤمن بالتربية ولايؤمن بالثورة والعنف . شهد أواخر عهد اسماعيل . ورأى كيف وصلت الأحوال إلى السوء حين غرقت مصر فى الديون وتضاءلت القوى الوطنية . واستفحل النفوذ الأجنبى ثم وقعت الثورة العرابية وشارك فيها أول مرة ثم انصرف عنها .

ولم يلبث أن وقف معها فى نهايتها ثم كان النفى إلى دمشق فباريس حيث اشترك مع جمال الدين فى اخراج (صحيفة العروة الوثقى) ثم كانت عودته إلى بيروت إلى أن اعيد الى مصر حيث استأنف حياته على نحو جديد . كان مدرسا فى الأزهر ودار العلوم قبل منفاه فأصبح قاضيا . وهو فى كل حلقات هذه الحياة صاحب الرأى وداعية الإصلاح يكتب المقالات ويرد

---

(٢٥) المصدر السابق ص٨ . ٩

(٢٦) أعلام وأصحاب أقلام ص٣٨١ ٣٩٩ ط دار نهضة مصر .

على افتراءات أعداء الإسلام والعرب . ويرتاد صالون نازلى فاضل ويلقى دروس التفسير فى الرواق العباسى ويتعلم الفرنسية ويجدد اللغة ويحرر الدين من التقليد . ويدعو الى فتح باب الاجتهاد . ويؤلف بين الأديان . ويدعو إلى إصلاح الازهر والمحاكم الشرعية ويشترك فى مجلس شورى القوانين ومجلس الأوقاف الاعلى والجمعية الخيرية . ويحرر فى الوقائع والعروة الوثقى ويصدر الفتاوى الجريئة ويترجم رسالة الرد على الدهبيين ويعمل مدرسا وقاضيا وفنيا . ويصادق جمال الدين ويجالس كرومر ويجادل سبنسر وفرح أنطون وهانوتو . ويسافر إلى أوربا لتجديد النفس . ويحضر محادثات فى بريطانيا بشأن السودان .

وهو فى كل هذه المراحل من حياته مرموق المكانة من معارفه وخصومه على السواء يقدرونه وينتظرون رأيه وهو دائما الجرىء الصريح الذى يقول كلمة الحق لايهاب .

١١ — مع أنور حجازى

كان الإمام محمد عبده من أوائل القضاة جدا وذكاء ونزاهة واستقلالا . وكان فى القضاء مفخرة الوطن مفخرة تذكر له بجانب ما ذكر له كعلم من أعلام الدولة وإمام لاينازع سواء وهو كاتب أو مصلح فى الأزهر وفى السياسة وفى الدين .

وكانت سياسته تقوم على التوعية والتبصير فسمى بحق « عبقرى الإصلاح والتعليم » .

وكان فى سلوكه حريصا على تربية الرأى العام المصرى والسمو به فوق الغرض وعن الأشخاص وقصر الاهتمام على الأمور الوطنية الكبرى . إمام نضجت أفكاره الحيّة قبل الأوان . واستوت آراؤه التقدمية . وانطلاقاته فى تربة صلدة عزّ عليها الرى والخصب والتبصر وحسن الإدراك ولكنه بفضل عبقريته الفذة نجح نجاحًا رائعا حين دعا للتجديد والتقدم والارتقاء متصديا لجبروت الحاكم وتسلط المستعمرين(٢٧) .

* * *

« وبعد » فلنقدم إليك الإمام فى ثوب جديد نعنى فيه عناية خاصة لم نسبق إليها بدراسة محمد عبده أديبا وناقدا . ولنبدأ عملنا بتقديم لوحة متكاملة عن حياته وبيئته تغنى عمّا كتبه الباحثون من قبل . ولايغنى غيرها عنها .

---

(٢٧) عمالقة وروّاد للمستشار أنور حجازى ص١٢٩ ١٣٢

الفصل الثانى

حياته وبيئته

أسرته - هجرة عبده حسن خيرالله والد الإمام إلى طنطا - زواجه بالسيدة جنينه والدة الإمام - مولده زواج والده مرة أخرى - صفات والده ووالدته وأثرهما فى الإمام - المصريون ماهم وما عليهم - موقع مصر الجغرافى - الحركة التعليمية فى مصر خلال القرن التاسع عشر وموقف الإمام منها - المدارس الأميرية الجامع الأزهر - دار العلوم - تعليمه فى المنزل والكتاب والجامع الأحمدى بطنطا - رغبته فى ترك التعليم وسببها زواجه ١٢٨٢هـ - إلى التعليم ثانية - فى كنيسة أورين - الشيخ درويش ورسائل السيد محمد المدنى - العودة إلى طنطا ثانية وفى رحاب السيد أحمد البدوى - إلى الأزهر فى القاهرة - حب العزلة - إجازة الصيف فى محلة نصر أساتذته وبعض الكتب التى درسها - بين الأزهر ودور الكتب - مالكى أولا حنفى ثانيا - مدرس متطوِّع - بين الإمام والشيخ عليش - طرق تعليمه - طريقة الأزهر - التحرر من تقليد المؤلفين - النظر فى علوم الغرب - تعلمه اللغة الفرنسية - عنايته بعلوم الأخلاق والنفس والاجتماع والتاريخ وفلسفته والتربية - اطلاعه على الكتب الأجنبية التى تتحدث عن الإسلام - من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوربية لايعد عالماً فى هذا العصر - بين العلم والعمل - الفيلسوف - لم يكن واسع العلم برواية الحديث - استقصاؤه أخبار - السيرة النبوية - معرفته بالرياضيات وإلمامه بالطبيعيات وإتقانه الفلسفة - حصوله على شهادة العالمية من الدرجة الثانية عام ١٨٧٧م - عمله مدرساً فى الجامع الأزهر وتدريسه العلوم الكلامية والمنطقية تعيينه مدرسا للتاريخ فى دار العلوم - ومدرساً للعلوم العربية فى مدرسة الإدارة والألسن - عزله من دار العلوم ومن الألسن - العفو عنه وتعينه فى الجريدة الرسمية - عين مديراً للمطبوعات المصرية ثم مستشارا الرئيس الوزراء - اشتراكه فى الثورة العرابية والحكم عليه بالنفى مدة ثلاث سنوات ابتداء من ١٨٨٢/١٢/٢٤م وإقامته فى بيروت ثم سفره إلى أوربا ثم عودته إلى سوريا - زواجه من كريمة الحاج سعد حمادة من بيروت - عمله فى سوريا وتدريسه فى المدرسة السلطانية فى بيروت جمعية التقريب بين الإسلام والمسيحية - عودته الى موطنه - عمله فى القضاء الأهلى والافتاء وتفتيش المحاكم والجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية إحياء الكتب العربية والأزهر فكرة الجامعة وتعليم المرأة

المسألة الشرقية - التطوُّرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى مصر فى العصر الحديث - الحركات الشعبية التى كانت مظهراً للرأى العام فى مصر نشأة النثر الحديث وتطوَّره أثر الإمام فى النثر الحديث الحركة النقدية فى العصر الحديث وموقف الامام منها - تدريسه - رأيه فى اللغة العربية واللغات الأوربية والكتب فى كل منهما - الدرس العالى الخاص درس التفسير - أسفاره - أهدافه - صفاته - إغاثة المنكوبين فى أحداث الزمان - عاداته وزيه ووفاته -

ليكن أول لقاء لنا مع الإمام فى هذا الفصل فى بيئته لنتعرف على هذه البيئة القريبة التى أنبتته ولنرى أثرها فى حياته ، سواء كان هذا الأثر حسنا أم غير ذلك .

ثم لننصت اليه ليحدثنا بأحاديث الطفولة وكيف قضى هذه الطفولة ؟ وكيف ترقى فى سلّم التعليم ، وما العقبات التى صادفته ؟ وكيف تغلب عليها ؟ وكيف فتح عينيه على الدنيا من حوله : هنا فى مصر وهناك فى بيروت أو باريس بل كيف رأى الدولة الاسلامية على عهد العثمانيين ، وكيف كانت الحياة الأدبية والنقدية فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ؟ وما الدور الذى قام به الإمام لإرساء دعائم هذه الحياة ؟ فلنبدأ جولتنا هذه مع محمد عبده .

تزوج أبو الأستاذ بأمه . وكانت من قبل زوجة ذات ولد ، ولايعرف له مولود منها سواه . وكان لأبيه زوجات غيرها وأبناء . فشب الأستاذ فى بيت فيه زوجات متعددات . وأولاد مختلفو الأمهات . وتزوج وهو صغير ، فاستعد منذ طفولته لفهم معايب النظم الاجتماعية فى مصر .

فأبوه هو عبده بن حسن خير الله من قرية تسمى محلة نصر « بمركز شبراخيت » محافظة البحيرة تبعد عن دمنهور بنحو خمسة عشر كيلو مترا وعن شبراخيت بثلاثة عشر كيلو مترا ، وهى واقعة على ترعة تسمى « الترعة الأنصارية » .

هاجر هذا الرجل من وطنه مع عائلته المؤلفة من أخيه « بهنس » وأخته « فاطمة » فى أواخر حكم محمد على فرارا من ظلم بعض الحكام ، وبعض العائلات الكبيرة وجاء الى شترة البحرية « بمركز السنطه » محافظة الغربية ، وكان يحسن الرماية والصيد فحبب الى عشاقها من وجهاء تلك النواحى ، وعيّن رئيسا للحراس فى أطيان الخديو .

وتردد على حصة شبشير « بمركز طنطا » فاتصل ببيت من بيوتها المعروفة ، ويسمى « بيت عثمان » ومال اليه أهل هذا البيت فتزوّج منهم السيدة « جنينه » ، وهى أيم ذات ولد ، توفى عنها السيد حسين الشريف من اخناواى الرلاقة « مركز طنطا » تاركا لها مجاهدا وراضيه .

عاد المهاجر الأبى عبده حسن خير الله إلى وطنه بعد أن قضى عامين فى غربته ، وأتت معه الى محلة نصر زوجه السيدة جنينه فولدت له فى أواخر عام (١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م) مولودا ذكرا سمى « محمدا » ويؤكد بعض الثقاة ممن يعرفون عائلة عبده حسن خير الله أن هذا المهاجر عاد إلى محلة نصر بعد أن ولد ابنه « محمد » .

ثم تزوج زوجة أخرى أولدها بنين وبنات(٢) ومهما يكن من شيء فقد كان يضرب بأبيه وأمه المثل فى الورع والشهامة وإكرام الضيف حتى كان بيتهما بغير باب ، وكان الأستاذ يفتخر بذلك كثيرا ، ومما يؤثر عن كرمهما أن ضيفا وفد عليهما صباح يوم ولم يكن عندهما شيء من الزاد لفقرهما فقدّما له اللبن الذى كان معدا لغذاء الإمام وهو صبى فى المهد فأمضى نهاره جائعا باكيا(٣) .

---

(١) محمد عبده مصطفى عبد الرازق ص١٨ ، ١٩ .

(٢) دروس من القرآن الكريم ص١٧

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٣ ص١٩

نشأ كما ينشأ الفلاحون حفاة عارى الرؤس يجرون فى الأزقة ويسبحون فى البرك والترع ويلعبون بالتراب والاحجار لايعنى أحد بتلقينهم فى طفولتهم شيئا من مبادىء الفهم والذوق . ولكنهم ينبتون كالنبات البرى يتغذى بما يصل إليه من مواد الغذاء وينمو شوكه وأزهاره . ويتربى فى نفوسهم الشعور بتهيب الوالدين وإجلالهما واحتذاء مثالهما .

وقد كان والده من أهل الفطرة السليمة والأخلاق القويمة فورث عن أبيه الصبر وقوة العزيمة . والتعالى عن سفاف الأمور . وورث عن أمه لين الجانب والسماحة والكرم(٤) .

ولعله من الأوفق أن نلقى نظرة عامة على الحركة التعليمية فى مصر خلال القرن التاسع عشر لنعرف الجو التعليمى الذى نشأ فيه محمد عبده . وماذا كان موقفه منه ؟ هل تفاعل معه أم انتقده ؟ وما سر هذا الانتقاد ؟

وليس من شك فى أن التلميذ عنصر مهم فى العملية التعليمية إن لم نقل إنه العنصر الأهم فمن أجله تنشأ المدرسة ويطبع الكتاب . ويعد المعلم إلى غير ذلك من مستلزمات التربية والتعليم .

ثم إن الرغبة فى التعليم وقوة العزيمة والارادة أمور لابد منها فى مجالات العلم والعمل . وفقدان هذه الأمور معناه فقدان العلم والعمل . والتعليم الناجح هو الذى يضع فى اعتباره أمراض المجتمع ومشكلاته ليطب لها ويضع الحلول . بل ينظر نظرة فاحصة للبيئة المحيطة به . وماهى احتياجاتها فى ميدان التربية والتعليم ؟

لننظر فى ضوء هذه الحقائق الأولية إلى التلميذ المصرى . وإلى الشعب المصرى بعامة وإلى بيئة مصر . ومشكلاتها الاجتماعية التى تتطلب حلولا عاجلة . وهل استطاع النظام التعليمى الذى أحدثه محمد على فى مصر أن يؤدى وظيفته . وما أبرز العقبات فى ميدان التربية والتعليم فى مصر . وكيف يمكن التغلب عليها ؟ يحدثنا الإمام محمد عبده عن الأطفال المصريين وعن بعض عيوب ذلك الشعب . وطريقة علاجها فيقول :

١ — إن اطفال المصريين أذكى من أطفال سائر الشعوب وإن شبانهم من أنشط الشبان . وأمضاهم عزما وهمة وإقداما لكن المصرى يدب فيه الهرم المعنوى منذ استكمال الخامسة والعشرين فيخلد إلى الراحة والتمتع باللذات . وتقعد به همته عن الجهاد والكدح فى سبيل المصلحة العامة .

٢ — والله لو أن فى مصر مائة رجل لما استطاع الإنجليز أن يقيموا فيها . أو لما استطاعوا أن يعملوا عملا إذا أقاموا . إن فى مصر مئات أو آلاف من الرجال يفهمون كل شيء . ولا ينقصهم العلم بما يجب للبلاد ولكنهم فاقدون للإرادة وقوة العزيمة فلا تكاد تجد عشرة منهم يتحلون بها . وهما الصفتان اللتان لاينفع بدونهما علم ولايقوم عمل .

---

(٤) فصول مختاره من كتب التاريخ جـ٣ ص٣٠٠ للدكتور طه حسين وآخرين نقلا عن كتاب « محمد عبده » لمصطفى الرازق .

إن الشعب المصرى لا يفنى ولا يندغم فى غيره من الشعوب .... ولكننى صرت فى ريب من بقاء هذه المزية بما علمت من سريان جريمة السكر من الأمصار إلى الأرياف . وابتلاء الفلاحين بهذه الأشربة الكحولية السامة وفشو الزنا فيهم . وكل منهما يعطل الجهاز التناسلى أو يضعفه فإذا لم يتدارك هذا الخطر بالتربية الدينية . والتعليم المشتمل على القواعد الصحية . وتغذية ذلك بإصلاح خطابة المساجد . وبث الوعاظ والمرشدين فيها فان الشعب المصرى نفسه على خطر الانحلال والزوال .(٦)

ثم يوسع الإمام دائرة البحث أكثر من ذى قبل فيتحدث عن البيئة الجغرافية لمصر وأثرها فى ذلك الشعب . ويشير إلى بعض الصفات الاجتماعية والنفسية والعقلية لأهل مصر . وحين يتحدث عن بعض الأمراض الإجتماعية يذكر أسباب المرض ثم يصف له العلاج . ثم هو حين يصف المرض ومصدره وعلاجه يرى أن الاصلاح ممكن متى وجد المربى . ولكن مصر حرمت من التربية الصحيحة ومن المربى الفاضل . وأن حركة التعليم فيها صورية لاتهدف الى تربية العقول ولا تهذيب النفوس . ولا تحصيل رجال يصلحون لتولى أعمال الحكومة .

وأخيرا يصل إلى الأزهر تلك المدرسة الدينية التى لا نظام لها فى دروسها . ولا ثمرة ترجى من تعليمها . وأن العلماء أقرب إلى التأثر بالأوهام من العامة . وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الردئ . والتربية المختلة التى لا ترجع إلى أصل صحيح . وأنه لابد من تغيير نظام الدروس فى الأزهر ولابأس أن يجعل نظامه مرتبطا بالمعارف العمومية أو بادارة الاوقاف . ثم يدعو دعوة جريئة الى توحيد التعليم ليصبح الناس كلهم فى طريق واحدة . وأن دار العلوم يمكن أن ينتهى أمرها إلى أن تحل محل الأزهر . وعند ذلك يتم توحيد التربية فى مصر . يقول الإمام :

١ – أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها .... وأهل مصر لايعرفون معنى المهاجرة .... ثم أن طباعهم مرنت على الاحتمال وألفت مقاومة القهر بالصبر .... أهل مصر قوم سريعو التقليد أذكياء الأذهان أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة .... أهل مصر هم رعية حاكمهم .... أهل مصر فى موقع عرف كل النّاس منزلته من الأرض وهو ممر أهل المشرق إلى المغرب(٧) ..... أهل مصر شديدو الانفعال بما يلقى اليهم كثيرو التذكار لما ينطبق على أهوائهم .... يقال ان أهل مصر ضعفاء ولكن قد أظهر التاريخ أنه متى وجد القائد كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم ...... ثم هم لايقدرون النظام قدره ..... بل يعتقدون أن كل نظام حبر على ورق ..... بل هم دائما فى التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة ..... احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس إذا لم يكن مبعثهما الحق ينشآن عند المصريين من أمرين . الأول

---

(٦) المصدر السابق جـ١ ص ٩١٦

(٧) تاريخ الأستاذ الإمام الرشيد رضا جـ٢ ص ٥٣٥

بعد جمهورهم عن المعرفة بوجوه المصالح . والثانى حرمانهم من التربية التى تطبع فى نفوس أغلبهم الاستقامة والتؤدة والتبصرة فى العواقب(٨) .... أهل مصر قوم أذكياء كما قلنا يغلب عليهم لين الطباع واشتداد القابلية للتأثر لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية وهى أن البذرة لا تنبت فى أرض الا اذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ..... أنفس المصريين أشربت الانقياد الى الدين .(٩) .... ولا قلوب أقرب إلى الإصلاح من قلوب أهل مصر . أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة ولم يروا مربيا يأخذهم بدينهم فحرموا خيره .(١٠)

« المدارس الأميرية »

المدارس الأميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية والتربية الصحيحة ، هذه المدارس أنشأها محمد على باشا باشارة بعض الفرنساويين .... والتربية على اخلاق سليمة لم تخطر له ولالمن تولى إدارة هذه المدارس ..... حتى جاء اسماعيل .... وله تعلق بتثقيف العقول فى ظاهر الأمر غير أن جميع ماأتاه من ذلك كان صوريا ليقال إن له فى حكومته مثل مالأوربا فى حكوماتها ، ولم يكن القصد منه تربية العقول ، ولاتهذيب النفوس ، ولاتحصيل رجال يصلحون لتولى أعمال الحكومة .(١١)

« الجامع الأزهر »

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة ..... ولكن مما يؤسف عليه أنه لانظام فى دروسها ، ولا يسأل فيها التلميذ عن شيء من أعماله .... ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من أستاذه تعود عليه بالصلاح فى دنياه أو دينه ، وإنما يسمع منه مايملأ القلب بغضا لكل من لم يكن على شاكلته فى الاعتقاد حتى من بنى ملته .... أغلب الأوقات تمرّ على أهل الجد منهم فى فهم مباحثات لبعض المتأخرين لافائدة فيها ، ولايتعلمون من الدين إلا بعض المسائل الفقهية ... وجلّ معلوماتهم تلك الزوائد التى عرضت على الدين ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها .. ثم ان المعروفين بالعلماء أقرب إلى التأثر بالأوهام والانقياد إلى الوساوس من العامة وأسرع الى مشايعتها منهم .(١٢) وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الردئ ، والتربية المختلفة التى لاترجع إلى أصل صحيح .

اصلاح مدرسة الأزهر لابد أن يكون بالتدريج فى تغيير نظام الدروس وجعلها فى الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها ، بحيث يقرر فيها أن كل من ادرج اسمه فى جدول الطلبة يلزم بالحضور فى الدروس ، والا حرم الامتياز . وكل استاذ يسأل عن طلبته ثم

(٨) المصدر نفسه جـ٢ ص ٥٣٦

(٩) المصدر نفسه جـ٢ ص ٥٣٧

(١٠) المصدر نفسه جـ٢ ص ٥٣٨

(١١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص٥٣٩

(١٢) تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا جـ٢ ص ٥٤١

يجعل ماينالونه من المنافع الطفيفة منوطا بالفهم لابالكتب وتغيير بروغرام الدروس . ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقودة الآن بالكلية ، ويكلف الأستاذ بتعهد اخلاق تلميذه ... ويجعل شيخ الجامع رقيبا على الأساتذه والتلامذة فى ذلك ثم يعدل نظام الامتحان النهائى وشروطه .... ولابأس أن يجعل نظام هذه المدرسة مرتبطا بالمعارف العمومية أو بادارة الأوقاف على قواعد تفصل فى اللائحة المختصة به[١٣] ... ان النّاس لايختارون الأزهر الا لسوء ظنهم بالمدارس أو لاعتقادهم أن الأزهر أحفظ للدين منها فإذا حصل الإصلاح فيها وجدوها أدنى إلى المنفعة منه فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم ويصبح النّاس كلهم فى طريق واحدة[١٤] .

مدرسة دار العلوم

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعا للتهذيب النفسى والفكرى والدينى والخلق . ويمكن أن ينتهى أمرها إلى أن تحل محلّ الأزهر وعند ذلك يتم توحيد التربية فى مصر.[١٥]

ومن هنا ترى أن الإمام كان حريصا على تجديد تكوين الأمة ، ويعمل على وحدة أبنائها بل يدعو إلى التعاون الدولى من أجل سعادة الإنسانية المعذبة .

هذا وقد تأثر الدكتور طه حسين بهذه الآراء التى ذكرناها لمحمد عبده فى حقل التربية والتعليم ، وذلك فى كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » وفى كتابه « نقد وإصلاح » وهذا موضوع جدير بالدراسة والبحث لعلنا نوفق له فيما بعد أو يوفق إليه غيرنا .

وقد لاحظت أن محمد عبده كان هنا ساخطا على الأزهر والأزهريين فرمى الأزهر بعدم النظام ورمى الأزهريين بالاهمال والفساد والجهل .... والتأثر بالأوهام ... الخ ألوان السباب التى ذكرها فهل كان ذلك هو الهدم الذى يسبق البناء ؟ أم أن تلك كانت صفات لبعض الأزهريين لا لجميعهم ؟ أولئك الذين كانوا يعادون الإمام ويقفون له بالمرصاد .

أكبر الظن أنها الحدة ، التى اتصف بها الإمام ، وأنها ثمرة من ثمار المضايقات التى كان يلقاها من بعض الأزهريين عن عمد أو عن غير عمد ، ومن أمثلة هذه المضايقات مايرويه الأستاذ ابراهيم الهلباوى يقول[١٦] :

كنت من أعدى أعداء الشيخ محمد عبده ، وأستاذنا السيد جمال الدين الأفغانى ، وأننى تسببت مرة للشيخ محمد عبده فى « علقة حامية » من الطلاب ، وكنت وقتئذ فى السابعة عشرة من عمرى حتى وصل بى طيش الصبا والشباب الى أن توجهت إلى أستاذنا الشيخ عليش وهو جالس بمسجد الإمام الحسين ، وادعيت على الشيخ عبده أنه يصلى العصر بغير وضوء .

---

(١٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص٥٤٢

(١٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص ٥٤٣

(١٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص ٥٤٨

(١٦) تقديم « دروس من القرآن الكريم » لطاهر الطناحى

وكانت سنه فى ذلك الوقت فى نحو الثانية والعشرين . فأرسل معى جمعا من الطلاب فوجدناه يصلى فقطعنا صلاته وأخذناه عنوة الى أستاذى الشيخ عليش وهناك أمر بتعذيبه . فانهلنا عليه ضربًا موجعا . ومهما يكن من شىء فإن خلاصة رأى الإمام فى التربية والتعليم هو أن يكون المراد منهما تجديد تكوين الأمة الذى بطل وانحل منذ قرون .

وقد استقر رأيه على أن الإصلاح محصور فى إحياء لغة الأمة وإصلاح نفوسها بالتربية الصحيحة والتعليم النافع .(١٧)

ولئن كانت أنماط التعليم والبحث فى الأزهر تختلف عما هو مستعمل فى الغرب الآن اختلافا أساسيا فهى لاتختلف فى شىء عن الأنماط التى كانت عندنا قديما .

أثر العلوم النقلية فى قهر العقول الذى أخذ فى التلاشى عندنا منذ قرون لايزال فى عنفوان سطوته فى أقدم الجامعات الإسلامية .

وليس الغرض من العلم عند أهل الأزهر هو البحث للتحقيق والمقارنة والتمحيص . ولكنه النقل الصحيح لما ترك الأقدمون .(١٨)

ولم يكن محمد عبده بالذى يرضى عن هذا المنهج وقد خلق ممحصا محققا .

ولقد حولت البعثات المدرسية التى أوفدها محمد على إلى باريس سنة ١٨٢٦م عددا كبيرا من الأذكياء من التعليم القديم المتوارث إلى طريق جديدة(١٩) ولكن هؤلاء كانوا موضع سخرية الأزهريين .

وفى عهد ابراهيم وعبّاس الأول وسعيد لم تتغير حال الأزهر وظلت المدارس النظامية تزاحمه(٢٠) . ولم يوجد فى الأزهر حركة تجديد إلا فى عهد اسماعيل الذى جاء فيه الشيخ عبده إلى الأزهر . وكان اسماعيل يعرف قيمة العلم لحسن تربيته فوجه عنايته إلى انشاء كثير من المدارس بمصر والاسكندرية ، وكثير من مدن الأقاليم .(٢١)

هذه هى الصورة التى فتح محمد عبده عينيه عليها صراع بين التعليم المدنى والدينى . وعناية بالعلوم النقلية فى الأزهر ، ثم بدء حركة تجديدية .

بدأ الصغير محمد عبده فى تعليم القراءة والكتابة بمنزل والده بعد أن بلغ العاشرة من عمره (١٢٧٦هـ - ١٨٥٩م)(٢٢) يقول الإمام(٢٣) « تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ثم

---

(١٧) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص ١٣٣
(١٨) محمد عبده لمصطفى عبد الرازق ص ٣٤
(١٩) محمد عبده لمصطفى عبد الرازق ص ٤٠
(٢٠) المرجع السابق ص ٤١
(٢١) المرجع السابق ص ٤٢
(٢٢) دروس من القرآن الكريم ص ١٩
(٢٣) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ٢٠ ٢٤

انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين » .

وفى (١٢٧٩هـ — ١٨٦٢م) ذهب إلى الجامع الأحمدى بطنطا ليجوّد القرآن وكان هناك أخوه لأمة الشيخ مجاهد الذى يقال انه كان قارئا مجيدا وصل إلى أن صار شيخا للمقارئ بطنطا .

أتم فنون التجويد فى سنتين على الوجه الأكمل وفى سنة (١٢٨١ هـ — ١٨٦٤م) ، جلس فى دروس العلم فى المسجد الأحمدى .(٢٤)

يقول الإمام(٢٥) : بدأت بتلقى شرح الكفراوى على الأجرومية فى المسجد الأحمدى بطنطا وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لانفهمها ، ولاعناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها . فأدركنى اليأس من النجاح . وهربت من الدرس واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ثم عثر علّى أخى فأخذنى الى المسجد الأحمدى وأراد إكراهى على طلب العلم فأبيت وقلت له : قد أيقنت أن لانجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق علّى إلا أن اعود إلى بلدى واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربى ، وانتهى الجدال بتغلبى عليه فأخذت ماكان لى من ثياب ومتاع ورجعت إلى محلة نصر على نية أن لاأعود إلى طلب العلم وتزوجت فى سنة ١٢٨٢هـ على هذه النية ..... بعد أن تزوجت بأربعين يوما جاءنى والدى ضحوة نهار ، وألزمنى بالذهاب الى طنطا لطلب العلم ، وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحه عن اطاعة الأمر . ووجدت فرّسا أحضر فركبته وأصحبنى والدى بأحد أقاربى ، وكان قوى البنية شديد البأس ليشيعنى إلى محطة (ايتاى البارود) التى أركب منها قطار السكة الحديدية إلى طنطا . كان اليوم شديد الحر والريح عاصفة ملتهبة سافياء تحصب الوجه بشبه الرمضاء فلم استطع الاستمرار فى السير فقلت لصاحبى أمّا مداومة المسير فلا طاقة لى بها مع هذه الحرارة ، ولابد من التعريج على قربة أنتظر فيها أن يخف الحر فأبى علّى ذلك فتركته وأجريت الفرس هاربا من مشادته . وقلت انى ذاهب الى «كنيسة أورين» — بلدة غالب سكانها من خؤولة أبى — وقد فرح بى شبان القرية لأننى كنت معروفا بالفروسية واللعب بالسلاح وأمّلوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه . أدركنى صاحبى وبقى معى إلى العصر ، وأرادنى على السفر فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد ، وإن شئت قلت لوالدى إننى سافرت الى طنطا . فانصرف وأخبر بما أخبر ، وبقيت فى هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتى وبدلت فيها رغبتى غير رغبتى ، ذلك أن أحد أخوال أبى واسمه الشيخ درويش .... جاءنى صبيحة الليلة التى بتها فى الكنيسة وبيده كتاب يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى إلى بعض مريديه بالأطراف

---

(٢٤) دروس من القرآن الكريم ص ٢٠

(٢٥) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص٢٠ ٢٤

بخط مغزلى دقيق وسألنى أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره فدفعت طلبه بشدة . ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، ونفرت منه أشد النفور ، ولما وضع الكتاب بين يدى رميته إلى بعيد لكن الشيخ تبسم وتجلى فى ألطف مظاهر الحلم ، ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب ، وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لى معانى ماقرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضى فتغلبه ، وتسبق إلى نفسى ، وبعد قليل جاء الشبان يدعوننى الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة فى نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه وألحّ علّى فى قراءة شئ منه فقرأت وفسّر ثم تركته إلى اللعب وفعل فى اليوم الثانى كما فعل فى الأول أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه وهو يشرح لى معانى ماأقرأ نحو ثلاث ساعات لم أملّ فيها فقال لى انه فى حاجة إلى الذهاب الى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معى فتركه ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها ، الى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب وهوى ينازعنى الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل الى الفهم .

كانت هذه الرسائل تحتوى على شيء من معارف الصوفية ، وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل ، وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الدنيا .

لم يأت علىّ اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء الىّ ماكنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحبّ إلىّ ماكنت أبغضه من مطالعة وفهم وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعوننى إلى ماكنت أحب ، ويزهدوننى فى عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا أحتمل أن أرى وأحدا منهم بل أفرّ من لقائهم جميعا كما يفرّ السليم من الأجرب . وفى اليوم السابع سألت الشيخ ماهى طريقتكم فقال : طريقتنا الاسلام فقلت أوليس كل هؤلاء النّاس بمسلمين ؟ قال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافة من الأمر ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب . هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ماكان عندى من المتاع القديم – متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون وان كنا فى غمرة ساهين سألته ماوردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصلوات فقال : لاورد لنا سوى القرآن تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر قلت أنى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا قال : أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل واذا خلوت فاذكر الله – على طريقة بينها – وأخذت أعمل على ماقال من اليوم الثامن فلم تمض علّى بضعة أيام إلا وقد رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت أعهد ، واتسع لى ماكان ضيقا ، وصغر عندى من الدنيا ماكان كبيرا ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ماكان صغيرا .

وفى اليوم الخامس عشر مرّبى أحد سكان بلدتنا « محلة نصر » فأخبرنى أن والدتى ذهبت إلى طنطا لترانى فعلمت أن سيقول لوالدى إننى لاأزال فى الكنيسة فأصبحت مبكرا إلى طنطا خوف عتاب الوالد ، واشتداده فى اللوم لأننى لو كنت أقمت له ألف دليل على أننى وجدت فى مهربى مطلبه ومطلبى لما اقتنع .

ذهبت إلى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية فى شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هـ لكن اتفق أن بعض المشايخ كانت ماتت بنته فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقانى على العزية ، وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الأجرومية فأدركت كلامنهما فى أوائل الكتاب الذى كان يدرس ، وجلست فى الدرسين فوجدت نفسى أفهم ماأقرأ وماأسمع والحمد لله . وعرف ذلك منى بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولى لأطالع معهم قبل الدرس ماستلقاه .

قضى الإمام نحو أربع سنين فى بداية تكوينه الفكرى بالجامع الأحمدى بطنطا ، ولاينبغى أن نغفل أن مسجد طنطا هو جامع السيد أحمد البدوى فيه مقامه ومخلفاته وفيه آثار مقدسة عند العامة ، وكثير من الخاصة ، وفيه مقابر لغير السيد من الأولياء . والسيد البدوى هو أشهر أولياء القطر المصرى ، وصيته وكرامته ذائعة فى وادى النيل ، ولزائريه من صور التوسل والزلفى مالا يخلو من شطط . ومسجد السيد البدوى مورد الدراويش ، ومجتمع المجاذيب الذين يظن كثير من النّاس أن لهم فى صفحة الغيب لمحات .

هذه السنين الأربع فى هذه البيئة نبهت عقل الشيخ محمد عبده إلى البدع الدينية وعملها فى العقول والأخلاق ، ولكنها أيضا مسّت بعض الجوانب من نفس الفتى فتركت فى منازعها المتسامية إلى الكمال والفهم موطن تأثر(٢٦) ، ويقول الإمام(٢٧) : وفى يوم من شهر رجب من سنة ١٢٨٢هـ كنت أطالع بين الطلبة ، وأقرر لهم معانى شرح الزرقانى فرأيت أمامى شخصا يشبه أن يكون من اولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب فلما رفعت رأسى اليه قال ما معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء ؟ فقلت له وأين الحلوى التى معك ؟ فقال سبحان الله من جد وجد ثم انصرف فعددت ذلك القول منه الهامًا ساقه الله الىّ ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا . وفى منتصف شوال من تلك السنة ذهبت إلى الأزهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتى على العزلة والبعد عن النّاس حتى كنت استغفر الله إذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة ، وفى آخر كل سنة دارسية كنت أذهب الى « محلة نصر » لأقيم بها شهرين من منتصف شعبان إلى منتصف شوال وكنت عند وصولى الى البلد أجد خال والدى الشيخ درويشا قد سبقنى إليه فكان يستمر معى يدارسنى القرآن والعلم الى يوم سفرى . وكل سنة كان

---

(٢٦) دروس من القرآن الكريم ص٢٢

(٢٧) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص٢٤

يسألنى ماذا قرأت فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ما درست الحساب ما درست شيئا من مبادىء الهندسة . وهكذا وكنت أقول له بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة فى الأزهر فيقول : طالب العلم لايعجز عن تحصيله فى أى مكّان فكنت إذا رجعت إلى القاهرة ألتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطىء فى الطلب وأخرى أصيب .

ذهب محمد عبده بتصوفه الى الأزهر فى (شوال سنة ١٢٨٢هـ – فبراير ١٨٦٦م) فى عهد اسماعيل الذى جلس على عرش مصر سنة (١٢٧٩هـ – ١٨٦٣م)[٢٨] .

كان الأستاذ متصوفا فى الأزهر مدة الدراسة مع شيوخه وزملائه . متصوفا فى أيام المسامحات مع خال أبيه الشيخ درويش خضر حتى انطبع تفكيره بنوع من الخيال الصوفى الذاهب فى الروحانيات الى ما يجاوز مدى الفهم أحيانا .

انساق الأستاذ الشيخ حسن الطويل إلى دراسة الفلسفة الاسلامية بحكم نزوعه الى التصوف . والتصوّف الاسلامى متأثر بمذاهب الفلسفة خصوصا مذهب أرسطو الذى يعتبر اماما لفلاسفة العرب .

وانساف بعض الأستاذه كالشيخ محمد البسيونى الى مدارسة الأدب باعتباره من الفنون الجميلة .

وقد كان الشيخ الطويل والشيخ البسيونى من أساتذه الشيخ محمد عبده فهو كان متصلا بالحركة الصوفية الممتزجة بالفلسفة ، وكان متصلا بالحركة الأدبية . على أنه لم يبعد كل البعد عن المحافظين على القديم فحضر دروس زعمائهم المشهورين كالشيخ عليش والشيخ الرفاعى والشيخ الجيزاوى والشيخ الطرابلسى والشيخ البحراوى[٢٩] .

ومن هنا ترى أن الشيخ محمد عبده كان ما بين سنة ١٢٩٠ – ١٢٩٢ – ١٨٧٣ ١٨٧٥ صوفيا متفلسفا[٣٠] .

وفى سنة (١٢٨٨هـ – ١٨٧١م) حضر الى مصر السيد جمال الدين الافغانى فصحبه الشيخ محمد عبده تلميذا وصديقا منذ سنة ١٢٨٨ – ١٢٩٦هـ الموافق (١٨٧١ – ١٨٧٩م)[٣١] .

ولقد وجه الشيخ درويش الفتى محمد عبده إلى العناية بالتصوّف فأقبل عليه إقبالا شديدا حتى كاد يغرق فى بحور التصوّف وخيالاته الواسعة . ولكن كان لمعلمه الثانى واستاذه الأعظم جمال الدين فضل إنقاذه نهائيا من هذا الغرق . وتوجيهه إلى ميادين العلم الواسعة وإلى الجهود العملية المثمرة فى الإصلاح الدينى[٣٢]

---

(٢٨) دروس من القرآن الكريم ص٢٣

(٢٩) دروس من القرآن الكريم ص٢٤ – ٢٥

(٣٠) المرجع نفسه ص٢٦

(٣١) المرجع نفسه ص٢٥

(٣٢) تقديم « دروس من القرآن الكريم » لظاهر الطناحى ص١٠

لقد قرأ عليه كتاب الزوراء للدوّانى فى التصوّف وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلّم العلوم من كتب المنطق والهداية والإشارات وحكمة الإشراق من الفلسفة . وعقائد الجلال الدوّانى فى التوحيد والتوضيح مع التلويح . والجغمينى وتذكرة الطوسى فى الهيئة القديمة (٣٣) .

هذا ولم يكن محمد عبده يواظب على حضور دروس من لايفهم أو لا يستفيد منه . وأنه ربما كان يحضر درس أحدهم وفى يده كتاب آخر يطالع فيه مدة الدرس . وأنه بعد الحضور فى الأزهر ثلاث سنين ملّ الدروس المعتادة كأنه أخذ حظه وصارت نفسه تطلب شيئا جديدا وتميل الى العلوم العقلية . ولكنه حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يرتاح إلى إعادة شىء منها . وكانت نفسه تتشوق دائما الى علم غير موجود فكان يبحث فى خزائن الكتب الأزهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشىء . ومما ظفر به القطب على الشمسية ناقصا .

تلقى الإمام علوم الشريعة فى الأزهر الشريف وكان مالكى المذهب فى نشأته الاولى تفقه بمذهب مالك ثم قرأ فقه الحنفية فى الأزهر وامتحن فيه امتحان شهادة العالمية (٣٤) . فنال من هذا المذهب ما أصبح به أهلا لتقلده منصب افتاء الديار المصرية . وتلقى فيه من علوم العربية وفنونها ما وصل به إلى الغاية التى لم يدركها الا القليل من اساطينها (٣٥) .

كان قبل أخذه شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التى يحضرونها فى الأزهر . ثم اتفق الـ[illegible]ـبة على أن يقرأ لطائفة منهم بعض الكتب فقرأ لهم ايساغوجى فى المنطق ثم شرح العقائد النسفية للسعد التفتزانى مع حواشيه ثم مقولات السجاعى بحاشية العطار وغير ذلك من الكتب . وحسده أناس منهم فأحفظوا عليه قلب الشيخ عليش . وكان أن ذهب ابن للشيخ عليش مع طالب آخر فقالوا للشيخ : إن فلانا يقرأ شرح العقائد النسفيه . وقد رجح فى درسه أمس مذهب المعتزله على مذهب الأشعرية . فأرسل الشيخ عليش إلى الأستاذ الإمام فجاءه وهو يقرأ الدرس فى المسجد الحسينى فقال الشيخ عليش : بلغنى أنك تقرأ شرح العقائد النسفية درسا قال : نعم . قال الشيخ عليش وبلغنى أنك رجحت مذهب المعتزله على مذهب الأشعرية قال : إذا كنت أترك تقليد الأشعرى فلماذا أقلد المعتزلى ؟ إذا أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل . قال الشيخ عليش أخبرنى الثقة بذلك . قال هلّم الثقة الذى يشهد بذلك فليميز أمامنا هنا بين المذهبين . وليخبرنا أيهما رجحت . قال الشيخ عليش : أو مثلك يفهم شرح العقائد قال : الكتاب حاضر . وأنا حاضر فسلنى ان شئت فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب مجاور للشيخ عليش المهيب (٣٦) . وقال بعضهم إن هذا يرسل شعره

---

(٣٣) [illegible] ص٢٥ [illegible]

(٣٤) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص٨٩٥

(٣٥) تاريخ الأستاذ الامام جـ٣ ص٢٧

(٣٦) تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا جـ١ ص١٣٣

ويجمعه تحت عمامته . وأخذ عمامته عن رأسه . ولغط الحاضرون . فتركهم الإمام وذهب حاسرا عن رأسه . ولم يمتنع عن قراءة الدرس . وكان يضع بجانبه عصا وقال : إذا جاء الشيخ بعكازه فله هذه العصا .

وكان تأثير هذه الحادثة فى حياة الامام كبيرا حتى عدّ بعض الجهلاء حبس الإمام فى أمر الثورة العرابية كرامة للشيخ عليش . وكاد يترتب على هذه الحادثة أيضا حرمان الإمام من شهادة العالمية ومرتبة التدريس فى الأزهر لولا عدل الشيخ العباسى وإنصافه .

وكان له فى طلب العلم ثلاثة أدوار(٣٧) : -

الأول : الطلب على طريقة الأزهر المعروفة من المناقشة فى عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتون مع الشروح والحواشى والتقارير - سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه إلى علم أعلى وفهم أجلى فقيض الله تعالى له ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين فقرأ له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكا وأقرب غاية . فتحرر من تقليد المؤلفين . وتعود الحكم باليقين فهذا هو **الدور الثانى** . وهو خاص كسابقه بالعلوم الإسلاميه التى كتبت باللغة العربية مع شىء قليل من العلوم الحديثة . وتطبيق العلوم على حال المسلمين الأخيرة .

أما **الدور الثالث** فهو النظر فى علوم الإفرنج . قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ثم تعلمّ اللغة الفرنسية بعد الاكتهال فلم تكن إلا بضعة شهور حتى أحسنها تكلما وكتابة .

يقول الأستاذ الإمام :

بدأت بتعلم اللغة الفرنساوية عندما كانت سنى أربعا وأربعين سنة . ولكن ميلى إلى تعلم لغة أجنبية ابتداء فى أثناء الحوادث العرابية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيته تقريبا وعندما سافرت إلى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة العروة الوثقى . ولم أتعلم شيئا من الفرنساوية لأن اجتماعى كان بالسيد جمال الدين ويرفاق من العرب . واشتغالى بتحرير تلك الجريدة ما كان يسمح لى بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة فذهب علىّ ذلك الزمن بدون فائدة فى اللغة لا كثيرة ولا قليلة ، أما بعد عودتى من النفى إلى مصر واشتغالى بالقضاء فى المحاكم الأهلية . والحكم بها خصوصا فى الجنايات على أصول القوانين الفرنساوية وجلوسى بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين فى لغتها فقد قوى عندى الميل الى تعلم اللغة الفرنساوية حتى لأكون فى معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء . وبعد مجىء إلى القاهرة واشتغالى بالقضاء فى احدى محاكمها وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء فى العمل فبحثت عن معلم(٣٨) فوجدت أستاذا لا بأس به فدعوته فجاءنى حاملا كتاب نحو فى يده (كرامير) فسألته ما هذا ؟ فقال كتاب نحو فقلت له لاوقت عندى لأن ابتدىء وانما عندى

---

(٣٧) تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا جـ١ ص١٠٣ . ١٠٤

(٣٨) تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا جـ١ ص١٠٤

زمن لأن انتهى . ثم ناولته قصة من تأليف الكسندر دوماس أنا أقرأ وأنت تصلح لى النطق وتفسر لى الكلم وماعدا ذلك فهو على . والنحو يأتى فى أثناء العمل ، وهكذا أتممت الكتاب وكتابا بعده وثالثا عقبه ، وكنت أطالع وحدى بصوت مرتفع كلما وجدت نفسى فى بيتى خاليا فتعلمت مبادىء اللغة الفرنساوية وحصلت منها ما كان يمكن من القراءة والفهم لكن ما كنت أستطيع الكلام .

سافرت بعد ذلك الى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرّات فى أيام العطلة الصيفية . وكنت أحضر دروس العطلة فى كلية جنيف . وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنساوية فى أوقات الفراغ مع اشتغالى بالقضاء فى المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف . ثم إن الذى زادنى تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أنى وجدت أنه لايمكن لأحد أن يدعى أنه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته . ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى إلا إذا كان يعرف لغة أوربية ، كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين فى جميع أقطار الأرض ؟ وهل يمكن مع ذلك لمن لايعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شرهم .(٣٩) .

وكانت عنايته بعلوم الأخلاق والنفس وأصول الاجتماع الإنسانى والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم . وقلما علم بكتاب لافرنجى يتكلم فيه عن الإسلام والمسلمين إلا واستحضره . وقرأه . وقد قرأ عدة كتب فى سفره الأخير إلى سويسرة ، وتعلّم هناك القلم المسند لأنه علم أن فى بعض المكاتب الأوربية كتبا فيه وأن الانجليز نقلوا من حضرموت بعض ما هنالك من الآثار الحضرمية ، ولذلك دخل كبير فى تاريخ العرب والإسلام ، وهذه العلوم الإفرنجية هى التى أعطته القوة العظيمة فى المدافعة عن الإسلام ، وفى زيادة البصيرة بخدمته لأنه عرف من أين يهاجمه أعداوءه وكيف ترد همجاتهم وكان يقول من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوربية لا يعد عالما فى هذا العصر(٤٠)

فكان يعنى بالعلم على قدر الحاجة اليه فى العمل والإصلاح . فأمّا علوم اللغة العربية فقد بلغ منها أن كان أدق النّاس فهما للقرآن والحديث ولغيرهما من فصيح الكلام . وأبلغ الكتاب وأخطب الخطباء .

قال الشيخ ابراهيم اليازجى اللغوى الأديب النقادة كان حديثه الذى يلقيه فى المجالس كأفصح ما يكتب الأدباء المترسلون .(٤١)

---

(٣٩) تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا جـ١ ص١٠٤ ١٠٥

(٤٠) تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا جـ١ ص١٠٤

(٤١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص١٠٣١ .

وكان يقول : الفيلسوف هو الذى له رأى ومذهب فى العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه .[٤٢]

ولم يكن واسع العلم برواية الحديث ولا حفظه وكان يستقصى أخبار السيرة النبوية والشمائل المحمدية ، وكان يرى أن المحدثين قد غلطوا فى تصحيح كثير من أحاديث الفتن والفرق لأن أصحاب الأهواء قاموا بترويجها .

أمّا فى العلوم العصرية فكان يعرف منها الرياضيات ويلم بالطبيعيات ، وتبقى الفلسفة العقلية وعلوم التربية والنفس والأخلاق والاجتماع وتواريخ الملل والأمم ومذاهبها ، وكان يطالع دائما ما تجدد عند الأفرنج من المصنفات فى هذه العلوم ، وفى شأن الاسلام ، وكان عزم على تعلم اللغه الألمانية ، وشرع فيه .

ومهما يكن من شيء فقد دخل محمد عبده إلى مجلس الامتحان سنة (١٢٩٤ هـ — ١٨٧٧م) ونال شهادة العالمية من الدرجة الثانية وهو ابن ثمان وعشرين سنة[٤٣] .

وصار مدرسا فى الجامع الأزهر ، وأخذ يقرأ العلوم الكلامية والمنطقية .

يقول الامام :

عرضت نفسى على مجلس الامتحان فى ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤هـ وابتليت فى الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش وكان يعادينى على الغيب اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على أن لا يمنحونى درجة ما فى العلم ، وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها ، ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية .[٤٤]

وأول نجم أضاء فى سماء خط الإمام أن المرحوم على مبارك ناظر المعارف ترجم رسالة فى « الروح والجسد » ثم أعطاها للأستاذ الامام ليكتبها فى قالب فصيح لما بلغه عنه من زيادة الاقتدار فكتبها بعبارة بليغة أعجب بها على مبارك وأراد أن يكافئ الإمام فعينه معلّما لأولاده .

وفى أواخر سنة ١٢٩٥هـ — ١٨٧٨م عين مدرسًا للتاريخ فى دار العلوم ، ومدرسًا للعلوم العربية فى مدرسة الإدارة والألسن .

وفى سنة ١٢٩٦هـ — ١٨٧٩م عزل من دار العلوم ومن الألسن ، وأمر بأن يقيم فى قرية محلة نصر لا يفارقها إلى بلد آخر .[٤٥]

---

(٤٢) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ١٠٣٢ .

(٤٣) دروس من القرآن الكريم ص٢٦ .

(٤٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص١٠٢ — ١٠٣ .

(٤٥) دروس من القرآن الكريم ص٢٨ .

وفى سنة ١٢٩٧هـ — ١٨٨٠م صدر العفو عنه من الخديوى وعين محررا فى الجريدة الرسمية .[٤٦]

وكانت فى عهده آية الاعجاز فى الإنشاء ، ثم عيّن مديرا للمطبوعات المصرية ، ولمّا عزل اسماعيل وتولى رئاسة النظار « رياض » قرّبه واتخذه مستشارا فالذى تراه الآن من آثار « رياض » الحسان إنما هو من فكر الأستاذ .[٤٧]

شرع فى كتابة الوقائع الرسمية بلفظ قوى ومعنى أنيق . وتراكيب كعقود الجمان فى عهد كانت اللغة فيه تتراوح بين الموت والحياة ، وكان الذى يفتح الله عليه بسجعه يعد نفسه من أئمة المنشئين ، والذى يفتح الله عليه بنوع بديعى يعد نفسه من أئمة النابغين فحلّ الشيخ عقدة الألسن ، وأطلق فى رياض المعانى طائر الفكر بعد ما هدم صروح البديعيين .[٤٨]

فإذا كانت النهضة المصرية قائمة فى ترقية العقول فقد رقاها أو فى الصحافة فهو أول من خدمها فى الجريدة الرسمية حينما كان شأنها الأدبى غير شأنها اليوم ، أو فى عالم التحرير على إطلاقه فقد كان كاتبا كبيرا ، أو فى الخطابة فقد كان خطيبا مفوّها .[٤٩]

ولكن الزمن لم يمهله حتى يؤدى رسالته كما كان يجب أن يؤديها فقد قامت الثورة العرابية ، وحكم على الأستاذ الإمام بالنفى من مصر مدة ثلاث سنين وكان ذلك فى (١٣ صفر سنة ١٣٠٠هـ — ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢م) وأقام فى بيروت ثم سافر إلى أوربا ثم عاد إلى سورية وأقام فى بيروت .[٥٠] وتزوج فيها بعد موت زوجته الأولى[٥١] وزوجته البيروتية هى كريمة الحاج سعد حمادة فكانت صلته بهذا البيت تحمله فى المنافسات والمخاصمات السياسية المحلية على الذب عنهم بفصاحته وقوّة حجته مع اعتقاده التام بنزاهة مقصده فكان يتحمل بسبب هذه النصرة لهم شطرا من اصر العداوة ، وكان بعض الساخطين من أجل ذلك يقولون : ما للشيخ وللتدخل فى هذه الأمور كان الأولى به أن يبقى فوق هذه الأحزاب .[٥٢]

عمله فى سوريا :

ألقى عصا السير فى بيروت واتخذ له بيتا فى ضاحيتها طلبًا لنقى الهواء ، واجتنابا للمجامع التى قد تذهب بسلامة الوحدة وراحتها من غير جدوى فأقبل عليه أهل الفضل والعقل ، وأرباب

(٤٦) دروس من القرآن الكريم ص٢٩ .
(٤٧) تاريخ الأستاذ الإمام ج٣ ص٢٠ .
(٤٨) تاريخ الأستاذ الإمام ج٣ ص٩٠ .
(٤٩) تاريخ الأستاذ الإمام ج٣ ص٤٢ .
(٥٠) تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص٢٧٤ .
(٥١) تاريخ الأستاذ الإمام ج٣ ص١٥٤ .
(٥٢) من مقال لشكيب ارسلان نشر فى « تاريخ الأستاذ الإمام » ج١ ص٤٠٤ .

الذكاء والنبل فكانت داره مدرسة عامة يؤمها الأذكياء وعشاق المعارف من جميع الملل والطوائف ، وكان يقرأ التفسير فى الجامع الكبير ، وفى جامع الباشورة لا يلتزم فيه كتابا ، وانما يقرأ فى المصحف ، ويلقى ما يفيض الله على قلبه ، وكان النّاس يقبلون على دروسه إقبالا . وكذلك كان يقرأ السيرة النبوية .

وفى أول سنة (١٣٠٣هـ - ١٨٨٥م) دعى الى التدريس فى المدرسة السلطانية لإحياء اللغة والدين فلبى ، ولم يكن فى المدرسة من العلوم العربية إلا مبادئ النحو والصرف وشيئا من أحكام العبادات فلما دخل المدرسة أدخلها فى طور جديد فأصلح إدارتها بالإتفاق مع مديرها ووضع قانونا جديدا للدروس ، وزاد فى العلوم التوحيد ، ومعاملات الفقه ، والتاريخ الإسلامى والمعانى والإنشاء،زادها لنفسه فكان هو الذى يدرسها حتى كانت دروسه تستغرق عامة النهار . وكانت دروسه كلها للتلاميذ على نحو ما ذكر فى رسالة التوحيد « أمالى مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم ، وفى أسلوب لا يصعب تناوله ، وإن لم يعهد تداوله » إلا معاملات الفقه فكان يقرأ فيها مجلة الأحكام العدلية التى يحكم بها فى المحاكم العثمانية ،[٥٣] وكان يكلف تلاميذ الإنشاء حفظ شىء من نهج البلاغة ، وديوان الحماسة ، والألفاظ الكتابية ، ويشرحها لهم ، وكان له همّ عظيم وعناية تامة بملاحظة آداب التلاميذ فى المدرسة حتى إنه كان يزورها ليلا لأجل ذلك . وقد تخرج على يديه نابتة عرفت بغيرتها واستقامتها وعرفانها ونباهتها ثم إنه فى سيرته كان مربيا للجماهير الذين يترددون عليه .

وكان هناك يشتغل بالتأليف فقد نقل إلى العربية رسالة الرد على الدهريين أو المقابلة بين الايمان والكفر فى العمران التى كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية ، وشرح كتاب نهج البلاغة ، ومقامات بديع الزمان الهمزانى ، وكان يكتب المقالات النافعة فى الجرائد . وكان يسعى لدى الحكومة فى إصلاح البلاد الإدارى ، فوضع فى ذلك لائحة قدمها للوالى وكتب لائحة أخرى فى الإصلاح الدينى ، قدمت للسلطان .[٥٤]

فى بيروت :

صار للناس ولوع بالامام فكنت تراهم يحفظون من كلامه ويقلدونه فى لفظه ، ويتابعونه فى رأيه وكثير من الأفكار والمبادئ والألفاظ والجمل السائدة الآن فى بر الشام هى من بقايا آثار الشيخ محمد عبده .[٥٥]

---

(٥٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٣٩١ .

(٥٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٣٩٢ .

(٥٥) من مقال لشكيب أرسلان : تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص٤٠١ .

ولم يكن يطرأ على بيروت أحد من معارفه أو من الأعيان المشهورين إلا وقام بسنة السلام عليه وقد يجله ويحتفى به ، ولو كان مخالفا له فى العقيدة .[٥٦]

« جمعية التقريب بين الإسلام والمسيحية »

ولقد كان جهاد الأستاذ الإمام فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن فى سبيل الإسلام وإصلاح المسلمين حافزا للكتابة والخطابة والحديث عن شئون هذا الدين ، وعلاقته بالدين المسيحى خصوصا أن بين العرب والمسلمين فى الأقطار الإسلامية والعربية عددا غير قليل من المسيحيين الذين يعيشون فى وئام تام مع إخوانهم المسلمين فى هذه الأقطار مما دفع بعض كبراء المسلمين والمسيحيين للدعوة إلى التقريب بين الدين الإسلامى والدين المسيحى ، وقد عقد الأستاذ الإمام اجتماعا فى بيروت بعد عودته من باريس وتعطيل جريدة « العروة الوثقى » فى أواخر سنة (١٣٠١هـ - ١٨٨٤م) دعا اليه بيرزاده و« عارف أبى تراب » تابع السيد جمال الدين الأفغانى ، وجمال بك نجل رامز بك التركى قاضى بيروت ، وميرزاباقر ، وطائفة من أصدقائه المسيحيين والمسلمين ، وقد ألفوا جمعية سياسية دينية سرية باسم « جمعية التقريب بين الأديان السماوية تعمل لإزالة الشقاق بين أهلها والتعاون على محو الاستعمار من الشرق وتعريف الإفرنج بحقيقة الإسلام من أقرب الطرق ، وقد انضم إلى هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء إيران ، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية فى الأستانة وبعض الإنجليز ، وكان من أعضائها من رجال الدين فى لندن « القس اسحق تيلر » بل كان هو من دعاتها فى انجلترا ،[٥٧] كما انضم اليها « مسترجى دبليولينتز » مفتش المدارس بالهند ، وكان الأستاذ الإمام رئيسها وصاحب الرأى الأول فى موضوعها ونظامها وكان ميرزابا قرهو الأمين العام لهذه الجمعية وقد ظلت جمعية التقريب بين الأديان السماوية نشيطة فى ذلك الحين حتى بعد عودة الإمام من منفاه إلى مصر بل كان يغذيها بمقالاته فى الإسلام وحالة المسلمين وفى الديانة المسيحية وحالة المسيحيين وما يجب أن يكون عليه الفريقان من اتفاق واتحاد فى سبيل الخير العام .[٥٨]

فبالرغم من أن الإمام كان مدافعا عن الإسلام طول عمره بلسانه وقلمه وخير مثل له فى أخلاقه وعلمه حتى لقد قالت امرأة سويسرية من المعلمات المصنفات فى علمى التربية والأخلاق : ما كنت أظن قبل معرفة هذا الرجل أن القداسة توجد فى غير المسيحية . بالرغم

(٥٦) المرجع السابق ص٤٠٧ .

(٥٧) الإسلام دين العلم والمدنية : المقدمة لطاهر الطناحى ص٩ .

(٥٨) الإسلام دين العلوم والمدنية : المقدمة لطاهر الطناحى ص٩-١١ .

من هذا فأن من مقاصد الإمام الدينية محاولة التقريب بين أهل الأديان ، ولاسيما النصرانية والإسلام بما يزيل أكبر شقاق بين الشرق والغرب أو بين البشر ، والتأليف بين أهلها بما يحول دون اتخاذها سببا لضد ما شرعت له ، وهو الهداية والخير.(٥٩)

بعد عودته من منفاه إلى وطنه :

عاد إلى وطنه . وهو يعلم أن الخديوى توفيق غضبان عليه كاره له ، وأن الانجليز أصحاب النفوذ الأعلى فى البلاد قد ذاقوا من مرارة قلمه الكثير ولكنه هو الشجاع الذى لا يعرف الخوف ألا من الله . عاد إلى مصر فى سنة ١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م فتلقاه أصدقاؤه ومريدوه بالإجلال والاستبشار إلا الجبناء منهم فإنهم تجاهلوا وجوده .

وقد اتخذ دارا له فى شارع الشيخ ريحان بالقرب من سراى عابدين .(٦٠)

ثم عفا عنه الخديوى بشفاعة نفر من رجالات مصر الكبار ، وهو يعلم أنه كان خصما قويا للثورة العسكرية وإنما ذنبه عنده أنه كان الروح المدبرة لنهضة الإصلاح السياسى والحركة الفكرية ، وأن الحكم العسكرى عليه بالنفى لم يكن عادلا ولذلك قال : ما عفوت عن أحد عفوا أشبه بالاعتذار منه بالعفو إلا هذا .(٦١)

كان الأستاذ الإمام يحب أن يكون أستاذا لمدرسة دار العلوم إن لم يمكن أن يكون ناظرا لها ، فلما رأى أن الوصول إلى ذلك عن طريق الخديوى متعذر أراد أن يحتال لنيل ذلك من طريق العميد الانجليزى كرومر فكتب اللائحة الثالثة وقدمها اليه وفيها من الخلابة والكياسة ما كان يمكن عقلا أن يقتنع به العميد لو لم يكن كاتبه والمتصدى له هو محمد عبده محرر جريدة العروة الوثقى .(٦٢)

عمله فى القضاء الأهلى

أمر الخديوى توفيق أن يعين الإمام قاضيا فى المحاكم الأهلية ، وأن يكون فى خارج القاهرة فلما بلغ الخبر الأستاذ امتعض وقال : إننى لم أخلق لأكون قاضيا أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا ، وإنما خلقت لأكون معلمًا وقد جربت نفسى فى التعليم فنجحت ثم رغب إلى ناظر الداخلية أن يشفع له عند الأمير باستبدال التدريس فى مدرسة دار العلوم بالقضاء وقال له إننى أعلم أنه لا ارتقاء فى التدريس وأننى أرتقى فى القضاء إلى أعلى درجة فيه . ولكننى

---

(٥٩) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٧٨٩ .

(٦٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٤١٧ .

(٦١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٤١٨ .

(٦٢) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٤١٩ .

لا أحبه ، فلم يقبل الأمير هذه الشفاعة وصرح بالسبب فقال : « أننى لا أحب أن يربى لى التلاميذ على أفكاره السياسية » فرضى بالقضاء .

عين قاضيا فى محكمة بنها ثم فى محكمة الزقازيق ثم فى محكمة عابدين بالقاهرة ثم عيّن مستشارا فى محكمة الاستئناف .

وقد كان قاضى العدل والإنصاف لا قاضى القانون والرسوم ، وإن شئت قلت القاضى المجتهد لا المقلد ، وأخيرا عيّن مفتيا للديار المصرية .(٦٣)

فقد صدر الأمر العالى من سمو الخديوى بناء على قرار مجلس النظار بتعيين الأستاذ الإمام مفتيا للديار المصرية لست بقين من المحرم سنة ١٣١٧هـ الموافق ٣ يونيو سنة ١٨٩٩م وكان الأمير هو الذى اختاره(٦٤) .

عمله فى تفتيش المحاكم الشرعية وإصلاحها

كان أول عمل عهدت به إليه الحكومة بعد تقليده الافتاء تفتيش المحاكم الشرعية ، وبيان رأيه فى إصلاحها(٦٥) .

عمله فى مجلس شورى القوانين

صدر الأمر العالى بتعيين الأستاذ الإمام عضوا فى مجلس شورى القوانين فى ١٨ صفر سنة ١٣١٧هـ الموافق ٢٥ يونيه سنة ١٨٩٩م(٦٦) .

عمله فى الجمعية الخيرية الإسلامية

أسست الجمعية سنة ١٣١٠هـ وفى سنة ١٣١٨هـ انتخب رئيسا لها ، وكان يرى أن الفائدة الأولى المقصودة بالذات من الجمعية هى تعويد المسلمين الاجتماع للخير والتعاون على البر والخدمة العامة وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان بالفقراء(٦٧) .

عمله فى جمعية إحياء الكتب العربية

كان يرى أن حياة الأمة بدون حياة لغتها من المحال وأن حياة العلوم العربية بمثل هذه الكتب الأزهرية محال ، وأنه لابد للإصلاح من إحياء كتب أئمتنا وكبار علمائنا التى ألفت أيام كان العلم حيّا فى الأمة ، فكان يسعى لذلك سعيه ، وبهديه طبع « أسرار البلاغة » « ودلائل

---

(٦٣) تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص٤٢٠ .

(٦٤) تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا جـ١ ص٦٠٢

(٦٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٦٠٥

(٦٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٧١٩

(٦٧) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٧٢٧

الإعجاز » للشيخ عبد القاهر الجرجانى مؤسس علوم البلاغة يقول رشيد رضا : ولولا تصحيح الإمام لها واستحضاره لنسخها من الأقطار النائية لما تيسر طبعها .

وفى سنة ١٣١٨هـ أسست فى مصر جمعية خاصة لهذه الخدمة تحت رئاسته سميت (جمعية إحياء العلوم العربية) كانت فاتحة أعمالها طبع كتاب (المخصص) لابن سيده فى اللغة ، وقد شرعت بعد طبعه فى إحياء مدونة الإمام مالك وعنى الإمام باستحضار نسخها من تونس وفاس وغيرهما من البلاد ، ولولاه لما تيسر جمعها كلها(٦٨) .

عمله فى الأزهر

وكان الشيخ محمد عبده يدعو إلى وجوب تعليم رجال الأزهر ، ووصلهم ببعض العلوم الحديثة ، ووصلهم كذلك بأمهات كتب الأدب وهى : الكامل للمبرد ، ونقد الشعر لقدامة ، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت ، والعقد الفريد لابن عبد ربه(٦٩) .

١ - كان يرى أن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام فإن إصلاحه إصلاح لجميع المسلمين ، وفساده فساد لهم .

٢ - أن أمامه عقبات وصعوبات من غفلة المشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم .

٣ - أن هذا الإصلاح لايتم إلا فى زمن طويل ، وأنه اذا رأى حال الأزهر قد صلحت قبل موته فإنه يموت قرير العين ، ويرى نفسه سعيدا بل يرى نفسه ملكا .

٤ - أنه لايرى لدخوله فى الحكومة فائدة إلا الاستعانة على إصلاح الأزهر فانه لولا مكانته عند الخديوى والحكومة لما كان يسمع له فى الأزهر كلام ، ولايقبل له رأى .

٥ - أنه لم يحصل شىء من الإصلاح يذكر حتى الآن (أواخر رجب ١٣١٥هـ) .

٦ - أنه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة فى الاصلاح اغتناما للفرصة فأشير عليه بوجوب التدريج .

وقد توجهت نفسه إلى إصلاح الأزهر منذ كان مجاورا بعد التلقى عن السيد جمال الدين(٧٠) وكان يرى أن بقاء الازهر متداعيا على حاله فى هذا العصر محال فهو إمّا أن يعمر وإمّا أن يتم خرابه ، ثم يقول : وإننى أبذل جهد المستطيع فى عمرانه فإن دفعتنى الصوادف الى اليأس من اصلاحه فاننى لا أيأس من الاصلاح الاسلامى ، بل أترك الحكومة وأختار أفرادا من المستعدين فأربيهم على الأسس التى ربيت عليها ليكونوا خلفا لى فى خدمة الإسلام ثم أولف كتابا فى بيان حقيقة الأزهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم . وتأثيرهم فى

---

(٦٨) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٧٥٣

(٦٩) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ٢ ص٨١

(٧٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٤٢٥

الوجود ، وأنشره باللغة العربية ، ولغة افرنجية حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التى يجهلها النّاس حتى من أهله .

ثم إنه لما اضطر إلى الاستقالة من إدارة الأزهر عزم على بناء محل بجانب داره بعين شمس والسعى لاختيار نفر من الأذكياء السليمى الفطرة وتربيتهم فيه بمساعدة رشيد رضا[٧١] وقد بدأ عمله فى الأزهر فى عهد عبّاس حلمى ، فسعى فى إصلاح الأزهر بنفسه ، واقناع الأمير بالسعى فى إصلاح المحاكم الشرعية والأوقاف لأن هذه المصالح الثلاث إسلامية محضة تشمل إصلاح التربية والتعليم ، وإصلاح المساجد والإرشاد ، وإصلاح البيوت ، وأن فى إصلاح هذه المصالح الثلاث إصلاح الأمة كلها ، ثم كاشف الحكومة بأمله فى إصلاح الأزهر حتى توصل إلى إنشاء قانون تمهيدى للإصلاح يديره مجلس مؤلف من أكابر علماء المذاهب فى الأزهر ينتخبون انتخابًا . وقد جعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه على أنهما من قبل الحكومة لا رأى لشيخ الأزهر ، ولا للمجلس فى انتخابهما ولا فى استبدال غيرهما بهما[٧٢] .

وقد شمل إصلاحه مرتبات الأزهريين ونظام التدريس والامتحان وتعيين طبيب للأزهر وصيدلية خاصة به فى نفس الجامع . وإنارة المسجد بالغاز البخارى ، وإنشاء الميضئة على الأصول الصحية .

ولكن الإصلاح الحقيقى الذى كان روحًا محببا ونورا مبصرا هو ما كان يلقيه من دروس التوحيد والتفسير والبلاغة والمنطق فهذه الدروس هى التى حولت نفوسا كثيرة عن السبل المتفرقة إلى سبل الله وصراطه محل الرجاء فى هذا المكان[٧٣] .

فكرة الجامعة :

لمّا خاب أمله فى الأزهر كما يقول رشيد رضا فكّر فى السعى لإنشاء مدرسة كلية تغنى عنه ، فاستمال أحمد المنشاوى المثرى المشهور ليقوم ببذل المال لذلك لما يعلمه من حبه لمعالى الأمور . وصار يدعوه إلى طعامه ومجلسه ويزوره فى ذهبيته ، وقد كان حمل من تونس عدة من برانس الصوف والحرير وغيرهما من نسيجها البديع ، فعرضها كلها على أحمد المنشاوى ليختار لنفسه برنسًا أو دثارا منها فأخذها كلها ظنا منه أنه اليه أهداها .

وصار المنشاوى كلما أراد أن يجىء القاهرة يرسل برقية إلى الإمام بأنه سيتغذى عنده يوم كذا[٧٤] .

---

(٧١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد جـ١ ص٤٢٦

(٧٢) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٤٢٧

(٧٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٤٢٩

(٧٤) المصدر نفسه ص٩٤٦

وذات يوم اجتمع الإمام ورشيد رضا والمنشاوى وأحمد فتحى زغلول فى عين شمس وتكلموا فى مسألة إنشاء الجامعة فقال المنشاوى أنا مستعد لتنفيذ ما تقررونه ، ولكن المنية عاجلته قبل أن ينفذ المشروع [٧٥] .

وقد فكر أيضا فى تعليم المرأة ، وكان يرى أن الأميرة نازلى قادرة على أن تعمل عملا مثمرا فى هذا الميدان . يقول الإمام :

هذه الأميرة قادرة على تأسيس عمل يفيد فى تهذيب البنات ، فإن من حولها من الأميرات ينفقن نفقات كبيرة اسرافًا وتبذيرا ، ولو أنها حملتهن وأمثالهن من النساء الغنيات على إنشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهن واستحضرت لهن معلمات من الآستانة أو سوريا لكان خير عمل تعمله وما كن ليخالفنها ، فإذا لم يأت بالفائدة المطلوبة كان غرسًا أو بذرا تجنى ثمرته ولو بعد حين ، وطالما ذاكرتها بهذا المعنى ، وخطأتها فى الاشتغال بالسياسة وكان يسؤها هذا منى لأن النساء (ولا سيما الأميرات) يحببن الطاعة وعدم المعارضة لهن فى آرائهن [٧٦] .

هذه عجالة عن الحركة التعليمية فى مصر أثناء القرن التاسع عشر عرضنا معظمها بقلم الامام لتكون اللوحة التى نرسمها عن حياته وبيئته مستقاة من أدبه وفكره إذ هما المقصودان أولا وأخيرا من هذه الرسالة .

وكان فى عزمه السعى لتأليف شركة تنشىء جريدة يومية فى القاهرة تختار لها طائفة من الكتاب الأخصائيين يتقاسمون موضوعاتها [٧٧] .

المسألة الشرقية

كانت أخطر مشكلة واجهت العالم العربى عندما خرج محمد عبده إلى ميدان السياسة العامة هو اشتداد أطماع الأوربين فى تلك البلاد ، ومحاولة اقتسامها فيما بينهم دون اهتمام بالدولة العثمانية صاحبة السيادة على أرجاء هذا العالم ، وتعرف تلك المشكلة الخطيرة باسم المسألة الشرقية كما اصطلح على تسميتها بذلك الاسم دهاة السياسة الأوربيون [٧٨] ، ومما جعل الأمر الذى واجهه الإمام محمد عبده صعبًا وشاقا هو أن تمزيق وحدة العالم العربى لم يكن من قبل جزءا من المسألة الشرقية ، وإنما كانت دول أوربا تحرص فى مطالع العصر الحديث على الإبقاء على وحدة الدولة العثمانية ، وبقاء البلاد العربية على التبعية لها برغم فساد الإدارة العثمانية لأن فى ذلك ضمانا للاحتفاظ بالتوازن الدولى فكانت الدول الأوربية ترى فى الدور الأول من

---

(٧٥) المصدر نفسه ص٩٤٦ - ٩٤٧

(٧٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٨٩٥

(٧٧) نفس المصدر ص٩٤٩

(٧٨) الشرق العربى الحديث لضياء الدين الريس ص١٥٨

المسألة الشرقية بقاء الأوضاع كما هى فى العالم العربى حتى لاتتسع دولة منها على حساب الأخرى بالتهام ما يلذ لها من أرجاء العالم العربى (٧٩) . ولكن حين اشتد الضعف بالدولة العثمانية ورأت الدول الأوربية أن لامناص من انهيار تلك الدولة المريضة بدأت كل منها تعمل على التمهيد لاحتلال ما يفيدها عسكريا وماديا من أرجاء البلاد العربية التابعة إذ ذاك للدولة العثمانية . ويعرف هذا الاتجاه الجديد عند الدول الأوربية بالدور الثانى من المسألة الشرقية ، وهو الميدان الذى تصدى محمد عبده للدفاع فيه عن البلاد العربية ضد الاحتلال الأوربى ، لهذه البلاد ، وكانت مصر هى الجبهة الأولى التى فتحتها الدول الأوربية لتحقيق مطامعها الجديدة ، وساعد خديوى مصر إذ ذاك وهو اسماعيل على إتاحة الفرصة للدول الأوربية بالتدخل فى شئون البلاد الذى انتهى أخيرا باحتلالها وضياع استقلالها ، فقد انغمس الخديوى اسماعيل فى الاستدانة من الدول الأوربية وبأرباح باهظة حتى عجزت موارده أخيرا عن القيام بسداد تلك الديون ، وبادرت انجلترا من دون الدول الأوربية إلى الاستفادة من الأزمة المالية المصرية واتخاذها وسيلة للسيطرة على البلاد (٨٠) .

وفى كتاب « أسباب الثورة العرابية » يصوّر محمد عبده الارتباك الشديد فى المالية المصرية باسراف اسماعيل وسوء تصرفه وتشكيل لجنة مختلطة من وكلاء الدول لذلك سميت « لجنة التفتيش العليا » وتعيين وزيرين أوربيين أحدهما انجليزى للمالية والآخر فرنسى للأشغال العمومية . فكان ذلك مع حكم المحاكم المختلطة على الخديوى فى مسألة مالية وتنفيذ الحكم بالقوة رغم إرادته مما أعان على تنبيه أفكار المصريين .... ثم أفاض فى بيان سوء الحال ... وذكر ما كان من سعى نوبار فى أوربا لعزل اسماعيل ، وأشار الى ما كان من سعى جمال الدين لذلك بمصر لما كان بينه وبين ولى العهد « توفيق » من المواطأة على الإصلاح إذا صار الأمر إليه (٨١) .

ثم ذكر ولاية توفيق وما تشبث به من الإصلاح فى أوائلها ، ومنه شروع شريف فى وضع قانون أساسى لمجلس النواب ، ومعارضة الأوربيين ولاسيما وكيلى فرنسا وانجلترا لذلك وذكر إنشاء جمعية فى الإسكندرية باسم « مصر الفتاة » لم يكن فيها مصرى حقيقى ، وإنما كان أغلب أعضائها من شبان اليهود ثم إنشائها جريدة (مصر الفتاة) المتطرفة فى الانتقاد والوعظ والإرشاد (٨٢) . وأخيرا تحدث عن نفى السيد جمال الدين إلى بمباى وكيف تمّ ذلك وأن هذه

---

(٧٩) قادة التحرير العربى فى العصر الحديث للدكتور ابراهيم العدوى ص٧٢
(٨٠) المصدر نفسه ص٧٣
(٨١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٧٤
(٨٢) المصدر نفسه ص٧٥

الشدة لم تزد الأفكار إلا حدة ، ولا الألسن إلا جرأة ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلا نموا وظهورا[٨٣] .

وكان علماء الدين فى مصر وغيرها من أقطار العالم الإسلامى إلى عهد غير بعيد ينظرون إلى أنفسهم وينظر الشعب المصرى إليهم على أنهم نوابه ، والمتحدثون بلسانه ، والذائدون عن حقوقه ، بل أصحاب الحق فى أن يعزلوا الحاكم الذى يسىء إلى الشعب ، أو يفهم من تصرفاته أنه يحاول الإساءة اليه[٨٤] ومن هنا ونظرا لتأصل العقيدة الدينية فى نفس الشعب كانت النزعة الإسلامية غالبة على العصبية الجنسية والرابطة القومية فى مصر إلى أوائل القرن العشرين ولذلك لم يكن المصريون يجدون غضاضة فى الاعتراف بسلطة الخليفة التركى[٨٥] .

وكانت المسألة الشرقية ملونة عند معظم الكتاب والمفكرين فى هذه الفترة بلون دينى يكاد يكون امتدادا للنزاع الصليبى فى العصور الوسطى ، وقد ساعد على تجمع الشعوب الإسلامية حول راية الخلافة العثمانية ما كان يبدو بوضوح من مطامع الدول الأوربية فى هذه الشعوب جميعا[٨٦] .

وقد بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح حلا للمسألة الإسلامية القضاء على المسلمين ، ونبش قبر الرسول الكريم ، ونقل عظامه إلى متحف اللوفر فى باريس[٨٧] .

وحين تضطر تركيا إلى محاربة روسيا تنهال عليهم الأمداد بالمؤن والرجال من سائر الأقطار الإسلامية وينبث الدعاة فى كل قطر يحرضون النّاس على الدفاع عن الإسلام حتى تبلغ دعوتهم الهند والصين ، بينما يعلن المسيحيون من رعايا الإمبراطورية العثمانية أنهم لن يقاتلوا الروس أو أى مسيحى آخر[٨٨] .

وحين كان يتحدث القيصر عن تحرير النصارى من تركيا ، وحين كانت تتجاوب الصيحات من بلاد البلقان « اقذفوا بالمسلمين إلى البحر » كان السلطان يدعو إلى تحرير المسلمين من روسيا فتتجاوب صيحاتهم « الآن سوف يسود الإسلام »[٨٩] .

ويغذى هذه الفتنة الدينية ما يتردد من أخبار المجازر الوحشية الرهيبة فى البلقان التى لم ينج من شرها أطفال المسلمين وفتياتهم[٩٠] . ويجيب السلطان عبد الحميد على هذه المجازر البشعة

(٨٣) المصدر نفسه ص٧٨
(٨٤) أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ١ ص٩
(٨٥) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين جـ١ ص١
(٨٦) المرجع السابق جـ١ ص٢
(٨٧) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص٨٠١
(٨٨) عبد الحميد ظل الله على الارض ص٩١
(٨٩) صداقة أربعين عاما ص٢٧٤
(٩٠) تاريخ الدولة العلية ص٢٦١ – ٢٦٢

بمجازر أخرى أبشع منها فى إخماد ثورة الأرمن سنة ١٨٩٤م . ويكتشف السلطان عبد الحميد فى مختتم القرن التاسع عشر . ومستهل القرن العشرين السياسة الرشيدة التى يستطيع بها أن يحفظ الإمبراطورية العثمانية المتداعية من الانهيار ، ويصون عقدها من الانفراط ، وذلك بالاتجاه إلى تقوية فكرة الجامعة الإسلامية ونشر شعارها المعروف : « يامسلمى العالم اتحدوا »[٩١] .

كل هذه الأحداث قد ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الإسلامية ، وتغذية الإحساس بالخطر الذى يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار الغربى المتربص بها فيدعوها إلى التجمع حول تركيا ، بوصفها أقوى هذه الشعوب وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك .[٩٢]

والمتأمل لأدب هذه الفترة يجد ذلك واضحا كل الوضوح فجريدة العروة الوثقى تكتب فى سنة ١٨٨٤م مجموعة من المقالات فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين ، منها مقال عنوانه « الجنسية والديانة الإسلامية » جاء فيه : وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التى لاتميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة ، وليس للوالى أدنى امتياز عنهم إلابكونه أحرصهم على الشريعة والدفاع عنها وكل فخار تكسبه الأنساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرا فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهى ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم ..... الخ[٩٣]

وفى مقال آخر عنوانه « التعصب »[٩٤] ومقال ثالث عنوانه « الوحدة الإسلامية »[٩٥] تأكيد للفكرة السابقة ، ورمى لمعارضيها بالغفلة ، وبأنهم أبواق المستعمر الذى يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التى تجمع بين شعوبها ويدلل على كذب المستعمرين وتدليسهم بأنهم أكثر النّاس عصبية للدين فى كل ماتجرى عليه سياستهم .

وعلى هذا الأساس كان رأى الإمام فى الدولة العثمانية حيث يقول :[٩٦] إن من له قلب من أهل الدين الإسلامى يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله .

---

(٩١) [illegible] ص١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ – ١٧٥

(٩٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين جـ١ ص٣

(٩٣) تاريخ الأستاذ الامام جـ٢ ص٢٢٣ – ٢٢٧

(٩٤) المصدر نفسه ص ٢٤٩ – ٢٥٨

(٩٥) المصدر نفسه ص ٢٧٦ –٢٨٢

(٩٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٩٠٩

وعلى هذا الأساس أيضا وجه نداءه إلى المصريين بأن يتحدوا مع الدولة العثمانية لأن هذا الاتحاد يخلص مصر من الاستعمار والمستعمرين ، ويحقق لهم آمالهم المرجوة ولذلك كان يقول : على العقلاء من أهالى مصر أن يسارعوا الى معاضدة الدولة التى تقضى عليها مصالحها بالسعى فى إنقاذها ، وإعادة شأنها الأول ، وتحقيق مايقال من أن « مصر للمصريين »[٩٧] فلا يرى تعارضا بين سيادة مصر وبين اتحادها مع الدولة العثمانية ، وبنفس الروح نظر إلى البلاد العربية الأخرى فكان يعتقد أن العرب أجدر الشعوب بالاستقلال والحضارة الرشيدة بطبيعة بلادهم وشجاعتهم ، وبما لهم من الوراثة والتاريخ واللغة الراقية ، وبوجود الروح الأعظم للإصلاح الأكمل بلغتهم وهو القرآن ومابينه من سيرة الرسول الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام ويعتقد أنه لا يجوز للعرب بحال من الاحوال أن يخرجوا على الدولة العثمانية[٩٨] . وكانت هناك دعوة تنادى بالقومية المصرية ، وبث الشعور بالوطنية الإقليمية فى الأمة التى تقوم — حسب تصوّرهم — على الجنس لا على الدين ، منادية بقصر الاهتمام على المصالح المصرية . ومعالجة مشكلاتهم مستقلة عن مشاكل الدولة العثمانية ، والأقطار الإسلامية .[٩٩]

وخير مايصوّر هذه الدعوة فى ذلك الوقت مقال لمحمد عبده نشرته الوقائع المصرية فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١م تحدث فيه عن الوطن ، وعن وجوب التفانى فى حبه والذود عنه . ومما جاء فيها :

١ — وجملة القول أن فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدودا (الأول) أنه السكن الذى فيه الغذاء والوفاء والأهل والولد (والثانى) أنه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان . (والثالث) أنه موضع النسبة التى يعلو بها الإنسان ويعز أو يسفل ويذل وهو معنوى محض[١٠٠]

إلى أن يقول : تقرر مما سلف أن لابد لذوى الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجرا صلدا . وأن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع النزاع أو الخلاف فيه ..... إلى أن قال : فإذا تقرر ذلك وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئا ويشرب مريئا ويبيت فى الأهل آمنا .

ويعلق الدكتور محمد محمد حسين على هذا المقال فيقول[١٠١] : ولكن الذى يبدو من مراجعة كتابات محمد عبده التى تلت ذلك أن المقصود بكلامه عن الوطن فى هذا المقال يختلف

(٩٧) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٣٥٢ نقلا عن العروة الوثقى .

(٩٨) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٩١٤

(٩٩) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر جـ١ ص ٥٠

(١٠٠) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ ص١٩٥

(١٠١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ١ ص٥١ — ٥٨

بعض الاختلاف عن مدلول هذه الكلمة فى أذهاننا اليوم فقد كتب بعد ذلك بسنوات مقالا فى صحيفة العروة الوثقى عنوانه : « ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها » تكلم فيه عما آل اليه أمر المسلمين من تأخر وانحطاط واستعرض آراء المصلحين فقال : ان بعضهم يظن أن أمراض الأمم تعالج بنشر الصحف ، وأنها تكفل انهاض الامم ، وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق وفريق آخر يرى أن شفاءها من هذه العلل القاتلة يتم بانشاء المدارس على الطراز الجديد المعروف فى أوربا حتى تعمّ المعارف جميع الأفراد ، وبعد أن فند الرأيين أثبت رأيه الذى يذهب فيه الى أن انتشال الأمة الإسلامية مماهى فيه من ضعف لا يتم إلا عن طريق الدين .(١٠٢)

وهذا المقال يدعونا الى تعديل فكرتنا عن مدلول الوطن والوطنية فى مقال محمد عبده الأول فى الوقائع المصرية وهو مع ما سبقه وماتلاه من كتابات محمد عبده يدعو إلى التفكير فى تعليل مايسود آراء محمد عبده من تباين واختلاف يبلغ حد التناقض فى بعض الأحيان . ومهما يكن من أمر فهذا المقال الأخير يدل على أن الدعوة الى الوطنية بمعناها المتعارف عليه الآن كانت قد نشأت ، وكان لها دعاة من أصحاب الثقافات الأوربية المعادين لفكرة الرابطة الاسلامية(١٠٣) . وأنه كانت هناك دعوة جديدة للوطنية بالمعنى الأوربى ، ولكن هذه الدعوة كانت مختلطة بالدين فى أذهان كثير من النّاس كما يبدو من كلمات محمد عبده .

ويجب أن نلاحظ أن الدعوة إلى نوع من الوطنية كان قد بدأ فى الظهور قبيل الثورة العرابية ، وأن هذه الوطنية كانت فيما يبدو نتيجة تسلط العنصر التركى واستئثاره بكل خير ، وأنها كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصرى ووطنه تحفزه على الاهتمام بأمره ونستطيع أن نلخص تعليق الدكتور محمد محمد حسين على مقال الإمام فى الوطن فيما يلى :

١ – مدلول الوطن فى مقال الإمام يختلف بعض الاختلاف عن مدلول هذه الكلمة فى أذهاننا اليوم ، واستشهد على ذلك بمقال للإمام فى صحيفة العروة الوثقى .

٢ – يدعو الدكتور إلى التفكير فى تعليل مايسود آراء محمد عبده من تباين واختلاف يبلغ حد التناقض فى بعض الأحيان .

٣ – يقول الدكتور « فهذا المقال الأخير يدل على أن الدعوة إلى الوطنية بمعناها المتعارف عليه الآن كانت قد نشأت » .

٤ – كانت هناك دعوة جديدة للوطنية بالمعنى الأوربى ولكن هذه الدعوة كانت مختلطة بالدين .

تلك نقاط أربع لفتت نظرنا فى تعليق الدكتور محمد محمد حسين ، ونحن نختلف معه فيما

(١٠٢) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ ص٢٢٧ - ٢٣٦

(١٠٣) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين جـ١ ص٥٦

ذهب اليه ، فاذا كان مدلول الوطن فى مقال الإمام يختلف بعض الاختلاف عن مدلول هذه الكلمة فى أذهاننا اليوم فلماذا جعل الدكتور مقال الإمام خير مايصور هذه الدعوة فى ذلك الوقت . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية هل صحيح أن مدلول الوطن فى مقال الإمام يختلف عن مدلول هذه الكلمة فى أذهاننا اليوم ؟

أما أنا فأشك فى صحة ذلك ، ان لم انكره فقد ذهب استاذنا الأستاذ ساطع الحصرى (١٠٤) إلى أن « الوطنية » هى حب الوطن والشعور بارتباط باطنى نحوه ، والقومية هى حب الأمة ، والشعور بارتباط باطنى نحوها ... ثم يقول : إن حب الوطن يتضمن بطبيعته حب المواطنين الذين ينتمون إلى ذلك الوطن ، كما أن حب الأمة يتضمن فى الوقت نفسه حب الأرض التى تعيش عليها تلك الأمة . إن منشأ الوطنية وبذرتها الأولى – حب الموطن – ومنشأ القومية وبذرتها الأصلية حب الأهل .

ونفس الفكرة يؤيدها أيضا أستاذنا الأمير مصطفى الشهابى فى محاضراته عن القومية العربية والتى القاها على طلبة السنة الثانية بمعهد الدراسات العربية العالية عام ٥٧ – ١٩٥٨ من ص ٢ – ٦ومن ص ١٠ – ١١ .

وما ذكره الأستاذان ساطع الحصرى ، ومصطفى الشهابى هو نفس ماذهب اليه محمد عبده بل هو نفس ماذهب اليه الدكتور محمد محمد حسين فى أول حديثه عن القومية المصرية ، وهو نفسه المعنى الأوربى لكلمة الوطنية .

على أن مقال العروة الوثقى لايتعارض مع مقال الوقائع المصرية ولا ينقضه فمقال الوقائع فى حب الوطن ، ومقال العروة عن أسباب رقى الأمم وهما نحوان من أنحاء البحث لا يتعارضان وقد يتفقان . فقد كان الإمام يرى أن الوطنية التى هى عبارة عن تعاون جميع أهل الوطن الواحد على كل مافيه عمرانه وإصلاح حكومته لايعارض الدين الإسلامى فى شىء كما يثبته شرعه فى العدل والمساواة ويشهد له تاريخه (١٠٥) . وكان مع هذا يدعو المسلمين إلى الإصلاح الإسلامى الخاص بهم فى فهم العلوم والدين ، وشد أوخى الأخوة الإسلامية مع جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ...كان داعية إلى اجتماع وطنى فى كل وطن وشرقى عام فى دعوة الشرق كله وإرشاده إلى تحرير شعوبه من سيطرة الغرب -- واتحاد إسلامى فى الإصلاح الدينى ونبذ الشقاق فيه (١٠٦) .

---

(١٠٤) محاضرات فى القومية العربية ص ٣١ – ٣٢ ألقيت على طلبة معهد الدراسات العربية العالية عام ٥٦ – ١٩٥٧ وكذلك كتابه آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية ص٧ – ١٦

(١٠٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص ٩١٧

(١٠٦) المصدر نفسه ص ٩١٨

وعلى هذا فلا تباين ولا اختلاف ولا تناقض عند الإمام بلى التباين والاختلاف والتناقض عند الدكتور محمد محمد حسين فبينما نراه يذهب إلى أن المقصود بكلام الإمام عن الوطن فى هذا المقال يختلف بعض الاختلاف عن مدلول هذه الكلمة فى اذهاننا اليوم . بينما يقول ذلك نراه يعود فيقول : فهذا المقال الأخير يدل على أن الدعوة إلى الوطنية بمعناها المتعارف عليه الآن كانت قد نشأت .... وأنه كانت هناك دعوة جديدة للوطنية بالمعنى الأوربى .... الخ

هذا ولعل الصواب هو ماذهب اليه الدكتور محمد محمد حسين حين قال : (١٠٧) :

« ولكن أصحاب هذه الدعوة لم يفكروا على كل حال فى أن يستبدلوا هذه الرابطة بالرابطة الدينية أو يضعوها فى مقابلها » .

هذه صورة مجملة عن الاتجاهات التى كانت تتردد أصداؤها فى جنبات الشرق ، وشغلت الأذهان ردحا طويلا من الزمن حين خرج محمد عبده الى معترك الحياة ، وقد شاهدنا أنه كان له دور إيجابى إزاء هذه الاتجاهات .

ولاننسى أن بيئة مصر قد تركت آثارها فى شخصية الإمام فقد ولد فى عهد عبّاس حلمى الأول الذى ولى عرش مصر من سنة ١٢٦٤ - إلى سنة ١٢٧٠هـ . وقد اهتم باعلاء شأن القوة العسكرية ، وكان أول ماأمر به فى ذلك أن جعل أخذ الجنود من كل الطبقات بلا فرق ، وكان من أول أعمإله أن أمر باغلاق المدارس التى شيدها جدّه وكانت عنايته مقصورة على المدرسة الحربية (١٠٨).

وقد جاء على أثر عبّاس الأول محمد سعيد بن محمد على الذى كان من أظهر الصفات والأميال التى اتصف بها ميله الشديد للعسكرية وترقيتها بجميع فروعها . وأصدر أمره بتجنيد أولاد العمد والمشايخ وأقاربهم ، وصرف جميع عساكر الجيش مرة وأرسلهم إلى بلادهم وقد أضعف هذا الأمير حركة التعليم فألغى ديوان المعارف « وذوق الحاكم فى أمة ذات حكومة مستبدة هو روح عصره يسرى فى النّاس ويصل الى الأطفال فى مهادهم فلاغرو أن نشأ الشيخ محمد عبده محبّا للفروسية واللعب بالسلاح ، وقد نفعته الرياضة فى بنيته وتزكية نشاطه (١٠٩)

بل أن محمد عبده لينظر إلى أبعد من هذه الفترة ينظر إلى مطالع القرن التاسع عشر وقبله بقليل فيقوم حكومة هذه البلاد قبل توليه محمد على ثم بعد توليته أيضا مشيرا إلى التطّورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على البلاد . وماتركت من آثار فى تماسك الجبهة الداخلية ، ثم يشير إلى النكسة التى أصابت البلاد بعد التدخل الأجنبى وماترتب عليه من شل

(١٠٧) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ١ ص٥٨

(١٠٨) محمد عبده لمصطفى عبد الرازق ص ١٦

(١٠٩) المرجع السابق ص ١٧

الحياة الاقتصادية والسياسية والعسكرية وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبه ، واتباع بواطل التهم ، حتى بلغ الفزع من القلوب مبلغه .

وهذه النظرة الفاحصة من جانب محمد عبده للبيئة المصرية ابان القرن التاسع عشر وقبله بقليل تزيد من تقديرنا للرجل ، وتجعل من الحديث عنه حديثا عن تاريخ مصر فى هذه الحقبة ، فقد نظر إلى حكومة هذه البلاد قبل تولية محمد على لها ورأى أنه : لو بحث باحث فى حالة مصر التى وجدها عليها محمد على وماكانت تصير بالبلاد اليه لو بقيت ، ومانشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد على ....

كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنساوى فيها من أنواع الحكومات التى كانت تسمى فى اصطلاح الغربيين حكومات الأشراف ، وتسمى فى عرف المصريين حكومات الالتزام ، وتعرف عند الخاصة بحكومات الإقطاع .(١١٠) ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة وتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه وتنزع نفس كل أمير الى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على مافى يد جاره من الأمراء فكان من مقتضى الطبيعة أن كل أمير لاينفك عن التدبير والتفكير فيما تعظم فيه شوكته ... وأن يكون الجميع دائما فى استعداد إما للوثوب وإمّا للدفاع ، ولكن الأمراء فى مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك ... فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم .

حاجة الأمراء إلى المال كانت تسوقهم إلى ظلم رعاياهم وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم إلى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم ... فاضطر الأمراء أن يتخففوا من ظلمهم ... أحس الأهلون بحاجة الأمراء إليهم فزادوا فى الدالة على الأمراء واضطروهم إلى قبول مطالبهم ... وانتهى بهم الأمر الى أن قيدوا الأمراء والملوك معا ... نعم كانت الحكومة فى مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات المشرقية .. فالخصام كان دأبهم والحروب كانت أهم عملهم لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك مااستطاع ليعد منهم جنده ، ولكن كانت تعوزه مؤنتهم إذا كثروا فاضطروا إلى اتخاذ أعوان من أهالى البلاد فوجدوا من العرب أحزابا كما وجدوا منهم خصوما ثم رجعوا إلى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه فاتخذوا بيوتا منها أنصارا لهم عند الحاجة(١١١).

هذا يحدث بطبعه فى النفوس شمما ، وفى العزائم قوة ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقر نوعها فكانت العناصر جميعها فى استعداد لأن يتكوّن منها جسم حيّ واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته .

---

(١١٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص٣٨٢

(١١١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص ٣٨٣

جاء الجيش الفرنساوى والبلاد فى هذه الحالة ... لم تكن إلا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق ... فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناوشات ... يدل على ذلك شكوى نابليون نفسه فى تقاريره التى كان يرسلها إلى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره ... واضطر نابليون أن يسير فى حكومة البلاد بمشورة أهلها ، وانتخب من أعيانها من يشركه فى الرأى لتدبيرها طوعا لحكم الطبيعة التى وجدها وقتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد وجاء الجيش العثمانى وعاونه الجيش الانجليزى وخرجت عساكر الفرنساويين من مصر ، ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد على بالوسائل التى هيأها له القدر ما الذى كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟ كانت تنتظر أن يسرى نور مدينة يضىء لرؤساء الأحزاب طرقهم فى سيرهم لبلوغ آمالهم ، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التى كان يقصدها فى بلاد غير بلاده ، وما كان بينهم وبين ذلك إلا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية ويرتفع الحجاب الذى أسدله الجهل دونهم ، أو كانت تنتظر أن يأتى أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحيّة بعضها الى بعض ، ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها[(١١٢)] .... ما الذى صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يحيى ولكن استطاع أن يميت كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأسا يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين ، وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الأهالى وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجهز على ما بقى فى الحياة من أنفس بعض أفرادها .. أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأى طريقة ، وعلى أى وجه فمحق بذلك جميع عناصر البلاد الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعا واحدا له ولأولاده على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة .[(١١٣)]

ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثمانى فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين .... وضعفت نفوس الأهالى بين أيدى الأجانب بقوة الحاكم .... فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان : ذل ضربته الحكومة

(١١٢) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص٣٨٤ – ٣٨٥

(١١٣) المصدر نفسه ص ٣٨٥

الاستبدادية المطلقة وذل سامهم الأجنبى إياه ليصل إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة . قالوا : إنه اطلع نجم العلم فى سماء البلاد. نعم عنى بالطب لأجل الجيش . والكشف على المجنى عليهم فى بعض الأحيان عندما يراد إيقاع الظلم بمتهم . وبالهندسة لأجل الرى حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ليستغل إقطاعه الكبير . هل تفكر يوما فى اصلاح اللغة عربية أو تركية أو ارنؤدية ؟ هل تفكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل خطر فى باله أن يجعل للأهالى رأيا فى الحكومة فى عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ؟ لم يكن شئ من ذلك .... كانوا يحكمون بما يهوون لايرجعون إلى شريعة ولاقانون ... أين البيوت المصرية التى اقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التى كان لها القدم السابقة فى إدارة حكومتها أو سياستها أو سياسة جندها .... أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوربا ليتعلموا فيها فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا فى البلاد مااستفادوا ؟ كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له مايريد ، وليس لها إرادة فيما تصنع . وجد بعض الأطباء الممتازين وهم قليل ووجد بعض المهندسين الماهرين وليسوا بكثير والسبب فى ذلك أن محمد على ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا إلى بعض المصريين ، ولم يكن أحد من الأعوان مسلطا على المهندس عند رسم مايلزم له من الأعمال ولاعلى الطبيب عند تركيب العلاج فظهر أثر استقلال الإرادة فى الصناعة عند أولئك . (١١٤)

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟ أين هى وأين الذين نبغوا من طلابها فإن وجد أحد نابغ فهل هو من المصريين ؟ عدوا ان شئتم أحياء أو أمواتا وجد كثير من الكتب المترجمة فى فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب ، ولكن هذه الكتب أودعت فى المخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها وتخفيف ثقلها عنها فنثرتها بين النّاس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم فى البلاد لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد على لم توجد فى البلاد قراء ، ولامنتفعين بتلك الكتب والفنون .

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى (الأفناء الناس المجهولون) كما يتخطفون عساكر الجيش فهل هذا مما يحبب القوم فى العلم ، ويرغبهم فى إرسال أولادهم إلى المدارس ؟ لابل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش .

حمل الأهالى على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات .... يقولون إنه أنشأ المعامل والمصانع ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ لا بل

---

(١١٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص ٣٨٦

بغض إلى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم فى العمل والاستبداد بثمرته[١١٥] .... يقولون إنه أنشأ جيشا كبيرا فتح به الممالك ودوّخ به الملوك ، وأنشأ أسطولا ضخما تثقل به ظهور البحار وتفتخر به مصر على سائر الأمصار فهل علّم المصريين حبّ التجند ، وأنشأ فيهم الرغبة فى الفتح والغلب وحبب اليهم الخدمة فى الجندية وعلمهم الافتخار بها ؟ لا بل علمهم الهروب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت بعد أن كانوا ينتظمون فى أحزاب الأمراء ، ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك ، وكان من ينتظم فى الجندية على عهد محرر مصر لا يخرج منها إلا بالموت هل شعر مصرى بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه .... كلا لم يكن شيء من ذلك فقد كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة عونا لظالمه فهى قوة خصمه . ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنجليز لإخماد ثورة عرابى . دخل الإنجليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر[١١٦] على قوم استقروا ولم توجد فى البلاد نخوة فى رأس تثبت لهم أن فى البلاد من يحامى عن استقلالها وهوضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين إلى مصر ، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير...... لا يستحى بعض الأحداث من أن يقول إن محمد على جعل من جدران سلطانه بنية الدين . أى دين كان دعامة للسلطان[١١٧] محمد على .... نعم إن الوهابية غلوا فى بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين ، وما كان محمد على يفهم هذا ، ولا سفك دماءهم لإرجاعهم الى الاعتدال ، وإنما كانت مسألة سياسية محضة تبعها جراءة محمد على على سلطانه العثمانى .... وقصارى أمره فى الدين أنه كان يستعمل بعض العلماء بالخلع أو إجلاسهم على الموائد لينفى من يريد منهم إذا اقتضى الحال ذلك . وأفاضل العلماء كانوا عليه فى سخط ماتوا عليه .

ولا أظن أن أحدا يرتاب بعد عرض تاريخ محمد على على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجرا زارعا وجنديا باسلا ، ومستبدا ماهرا ، لكنه كان لمصر قاهرا ، ولحياتها الحقيقة معدما ، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره ، متعنا الله بخيره ، وحمانا من شره والسلام .[١١٨]

هذه مقتطفات من مقاله نشرها محمد عبده فى المنار بتاريخ ٧ من يونيه ١٩٠٢م تحت عنوان « آثار محمد على فى مصر » ويبدو أنه كتبها فى حالة هياج نفسى . وفوران عاطفى اتسم بالغضب والمقت لهذه الأسرة العلوية بعد أن اكتوى بنارها . وذاق منها الأمرين هو وأستاذه

---

(١١٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٢ ص٢٨٧ .

(١١٦) الدامر هو الذى يدخل على القوم بلا استئذان .

(١١٧) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٢ ص٣٨٨ — ٣٨٩ .

(١١٨) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٢ ص٣٨٩ .

جمال الدين ، وقد حاول فى هذه المقالة أن يطمس كل أثر لمحمد على فهو لم يستطع أن يحى ولكن استطاع أن يميت وقد استعان بالجيش على إذلال الشعب وهو حاكم مستبد .

وقد أوشكت الحقيقة أن تفلت من محمد عبده حين صرح بأن محمد على عنى بالطب وبالهندسة وإن انتقده فى عدم عنايته باللغة وبالتربية وفى عدم إرسائه دعائم الحكم الدستورى ، وإهماله الانتفاع بالكتب المترجمة .

لقد كان محمد عبده هنا أديبا أكثر منه مؤرخا غضب فقال أسوأ ما علم ، ولكنه فى مقال آخر ظهر فى العروة الوثقى قبل هذا المقال بنحو عشرين عاما كان مؤرخا أكثر منه أديبا فقد اعترف فى مقال العروة الوثقى بأفضال محمد على فى هدوء يناسب البحث العلمى بينما حاول هنا أن ينكر كل أثر لمحمد على ، ويبدو أن الحالة النفسية لمحمد عبده والظروف السياسية التى كانت محيطة به أثناء كتابه مقال المنار سنة ١٩٠٢ كان لهما تأثير كبير فى توجيه هذا المقال وجهته الغاضبة المحنقة . الأمر الذى يجعل من مقالين لكاتب واحد فكرتين متضاربتين تهدم إحداهما ما تبنيه الأخرى إلا إذا اعتبرنا ذلك تطوّرا فى تفكير الإمام دفعه إلى أن ينكر اليوم ما اعترف به أمس ولكن الذى نرجحه أن الصراع الذى كان قائما آن ذاك بين الإمام وبين الخديوى كان له أكبر الأثر فى صدور هذا المقال ان لم نقل بأن ذلك الصراع هو الدافع الأول لذلك المقال . لقد رضى على الخديوى توفيق يوما فقال فيه إنه قد بذل الهمة فى اجتلاب المعارف وتوسيع دائرة الآداب والعوارف إذ فتح المدارس والمكاتب وعنى بالأساتذة من الأقارب والأجانب ، واجتذب التلامذة من كل جانب ... وأطلق الحرية أيده الله فى اقتناء هذه الخيرات . ولعمرى أن ما فعل الخديوى فى هذه البلاد من موجبات الإسعاد .... فإننا لم نسمع أن ملكا من ملوك أوربا الذين خلدت أسماؤهم فى الصحف ، الذين هم كانوا قد قاموا بنشر التمدن فى أقطارهم قد بذل الهمة فى ذلك معشار ما بذله جناب الخديوى فيالله سعيه إذ قد أتى بكل ما يمكن أن يؤتى به فى إسعاد أمته .[١١٩]

وحين رضى على عباس حلمى فى أول حكمه أهداه كتاب « أسباب الثورة العرابية » وجاء فى خطاب الأستاذ الإمام لسمو الخديوى قوله :

إلى مليك مصر المعظم عبّاس حلمى باشا الأفخم . مولاى :

هذا مقام الذاكر لنعمتك ، العارف بقدر منتك العاجز عن الإيفاء بحق شكرك ، التالى فى سرّه وجهره لآيات حمدك ... الخ . على ما سيأتى فى الفصل الخاص « بآثاره » ثم غضب الإمام على الخديوى عبّاس حلمى هذا فكان ذلك المقال الذى أشرنا اليه سابقا « آثار محمد على فى مصر »

---

(١١٩) تاريخ الأستاذ الإمام ج٢ ص٤٢ .

والحق أن الخديوى قد توسل بكل ما يقدر من الوسائل للانتقام من الإمام ، وعزله من منصب الإفتاء ، ومن ادارة الأزهر ، وكان من أسخف التدبير لإقناع لورد كرومر بذلك أنهم لفقوا صورة شمسية له مع جماعة أو أسرة من الرجال والنساء ونشروها فى جريدة « الحمارة » الهزلية مع طعن فى المفتى بأنه يجالس الإفرنج ، وذلك يعد ازراء بمنصبه الدينى ، وقد أرسلوا هذه الصورة إلى لورد كرومر مع رجل أراد إقناعه بأن هذا يعد ازراء بمنصبه فى عرف المسلمين ، وينبغى خروجه منه مراعاة لشعورهم ، فتبسم اللورد سخرية من هذه السخافة ، وقال : إن هذه الصورة لا يثبت لها عندى أصل ، ولكن الأستاذ يزورنا هنا وتحضر مجلسه « لادى كرومر » وغيرها من عقائلنا فهل يصح أن نعد هذا إهانة له أو لنا ؟ أم يصح أن نهتم بشعور المتعصبين الجهلاء ونبنى عليه عملا مهما كهذا ؟

والذى أشهر أن تلك الصورة ملفقه أخذت عن صورة منفردة للمفتى ، وضعت بجانبها تلك الصورة فكأن المأخوذ عنها مأخوذ عن أصل واحد . (١٢٠)

استعان الخديوى عباس الثانى بالأزهر فى الكيد للشيخ محمد عبده مع أن الشيخ عاش يجاهد فى إصلاح الأزهر ، وسلك فى سبيل ذلك كل طريق حتى طريق الانجليز (١٢١) وذلك فى وقت ضاقت فيه بالشيخ الحيل ، وسدت أمامه الأبواب ، وكان الخديوى يخاصمه ، والشعب من جانبه لا يفهمه ، فلجأ إلى كرومر أخذا بفكرة « الغاية تبرر الوسيلة » (١٢٢)

ولعله من الأوفق أن نسوق إليك مقتطفات من مقال العروة الوثقى بعد أن سقنا لك مقتطفات من مقال المنار ، فربما رأيت رأينا ، وربما رأيت غير ذلك يقول الإمام :

كانت حكومة هذه البلاد فى الربع الأول من القرن الماضى (الهجرى) تعد من نوع حكومة الأشراف ويحسبها المؤرخون فى تلك الأوقات بدرجة لا تعرف هيئتها ، ولا يصل بحث الباحث إلى كنهها ، وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا طراز قديم كان معروفا فى أغلب أنحاء المسكونة .

ثم أعجب الدهر فيها بغرائبه بعدما فوضت أمورها لمحمد على باشا فلم يمس قليل من الزمن حتى دخلت فى طور جديد من أطوار المدنيه ، وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية ، تقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء ، وعدّ هذا التقدّم السريع من عجائب الأمور . (١٢٣) وطرقت مصر أبواب السعادة من كل وجه فتقدّمت فيها الزراعة تقدما غريبا واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت معاهد العلم ، وانتشرت فى أرجائها مبادئ المعارف

---

(١٢٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٥٥٨ .

(١٢١) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه ج٢ ص٦٨ .

(١٢٢) المرجع نفسه ج٢ ص٦٩ .

(١٢٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٣٣٢ نقلا عن العروة الوثقى .

الصحيحة وتقاربت أنحاؤها واتصلت أطرافها بما انشىء فيها من سكك الحديد ، وخطوط التلغراف ، وتعارفت أهاليها ، وائتلف الجنوبى بالشمالى ، والشرقى بالغربى ، وقوى فيهم معنى الأخوة الوطنية بعد أن كانوا لبعد الشقة بين بلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة ، وتواصلوا فى المعاملات ، وتشاركوا فى المنافع ، واعتدلت المشارب المذهبية حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر ، وارتفعت بذلك أصواتهم ، بعدما جالت فيه أفكارهم .

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية بل وصل مد نيلها الى أقصى البلاد الغربية توارد اليها الغرباء ، وقصاد الكسب من كل مكان وسادبها الأمن وعمت الراحة ، وضارعت فى كل احوالها نوع ما عليه الممالك الأوربية العظيمة .(١٢٤) غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته ، ففتحت للدسائس أبواب ، وإنساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات فتفرق اتصال وتقطعت أوصال ، فضعفت السلطة الوازعة ونبذت الطاعة ، والتهبت نيران الفتن .

وأشفقت دولة الانجليز على طريق الهند ، فرأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة فى مصر من فرائض ذمتها فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتغريم وما شاكل ذلك ، وعمّ بعض أنواع الهون حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد إلا مسه ضر ما خلا أشخاصا قلائل ، وهذه المرهبات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر ، ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد .

أليست المالية هى مرمى أنظار دول أوربا ، وما وضع نظام فى البلاد ، ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوربية ؟(١٢٥) اليوم رزئت بالنقص فى الإيراد ، وحملت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات ، ورميت بنفقات جيش الحلول ، وحرب السودان ، ومصاريف إخلائه ، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل فاختلت الموازين ، وبطل قانون الجبايات . عقد العزم على الغاء الجيش الوطنى ، وهو قوة البلاد وبه فخارها ، وكأنه لم يوجد وسيلة لتنظيم عسكر مصرى ، وقصر الجهد على مجاراة محمد على ، وإبراهيم اللذين دوخا كثيرا من الأقطار بجنود مصرية وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبه وان ضعفت . واتباع بواطل التهم وإن بعدت أو استحالت حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه .(١٢٦)

ظهر فى أخريات عصر اسماعيل فجر نهضة جديدة لم تكن مدارس اسماعيل ، ولا حركة

---

(١٢٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٣٢٣ نقلا عن العروة الوثقى .

(١٢٥) المصدر نفسه ص٣٣٤ .

(١٢٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٣٣٥ نقلا عن العروة الوثقى .

الاحياء فى عهده هى الباعث عليها ، ولكن رغبة اسماعيل فى أن يرى مصر بين عشية وضحاها قطعة من أوربا فى مدنيتها وحضارتها جعلته يسرف فى مال مصر ويبدده فى هذه السبل غير ناظر إلى الشعب ومصيره ، واتخذ الأجانب من حب اسماعيل للحضارة الأوربية وسيلة لاستيطان مصر. (١٢٧)

ولما استدان اسماعيل ، وأثقلته ومصر الديون عظم نفوذ هؤلاء الأجانب وشجعتهم حكوماتهم وحمتهم امتيازاتهم ، فكان هذا النفوذ المتزايد سببا تنبه المصريين إلى الخطر الداهم الذى ينتظر بلادهم ، وتصادف أن كان بمصر الزعيم المصلح جمال الدين الأفغانى فبث تعاليمه الإصلاحية وشجع حركة الاستياء من النفوذ الأجنبى ، وأخذ يقتحم هذا الحمى الذى ظل قرونا لا يقرب وهو حق الحاكم فى التصرف برعاياه وأموالهم ونفوسهم فوجه الانتقاد لاسماعيل ، وحاسبه فى الصحف المختلفة التى يكتب فيها أتباعه ومريدوه ، ومن أبرزهم محمد عبده .

هذه الحركة انتجت أدبا قوميا حيث وجهت الأدب ولاسيما النثر إلى النظر فى شئون الشعب ، والدفاع عن حقه ، ووصف أمراضه وأدوائه ، وما تتطلبه هذه الأوضاع من علاج (١٢٨) وبهذا بدأ الرأى العام المستنير يسطع فى أفق مصر وان تكن جذوره قد وضعت فى التربية المصرية قبل ذلك بزمن فما من شك فى أن الرأى العام المستنير قد تأثر فيما تأثر به من الأشياء بالحملة الفرنسية وبالكتاب الشرقيين الذين تثقفوا بالثقافتين الشرقية والأوربية ، ولقنوا مبادئ الثورة الفرنسية ، وراحت هذه المبادئ تتسرب من طريق أولئك الكتاب إلى العقل المصرى والبيئة المصرية .

ونحن نعرف أن من الأفكار التى أتت بها الثورة الفرنسية فكرة الحرية ، وفكرة المساواة وفكرة الإخاء ، وفكرة الوطن والوطنية . (١٢٩)

ومهما يكن من شىء فإن أهم الدوافع التى أدت إلى ظهور الرأى العام فى مصر يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - التدخل الإجنبى فى مصر وقد كان من آثاره ظهور المحاكم المختلطة ، والامتيازات الأجنبية ، وصندوق الدين ، والمراقبة الثنائية ، والوزارة الأوربية وما إلى ذلك من الأحداث المهمة المعروفة فى تاريخنا المصرى الحديث .

٢ - استبداد الحكم المصرى منذ أيام محمد على استبدادا نسبيا كان له أثره فى نفوس الشعب ويصور محمد عبده هذا الاستبداد وآثاره السيئة فيقول فى كتاب « أسباب الثورة

(١٢٧) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى ج١ ص١٠٥ .

(١٢٨) المصدر نفسه ص١٠٦ .

(١٢٩) أدب المقالة الصحفية فى مصر ج١ ص١٤ .

العرابية » ومن غرائب تعوّد الظلم ورؤيته ملازما للسلطة بمصر أن الذين حفظت أبدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسادهم من الحبس فى سبيل اقتضاء الحقوق سواء أكانت للحكومة أو للأفراد كانوا يعدون تلك الأوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به وأنه لا يفيد إلا الكرباج ، وكان يقول أيضا :

(ا) أهل مصر قبل سنة ١٢٩٣ كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى .

(ب) ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد على ..... لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار .

(جـ) مع أن اسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣هـ وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأنا فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأيا يرجع اليه فيها لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس بأن له ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية لأن مبدع المجلس قيّده فى النظام والعمل .

ويصوّر الإمام مدى ما كانت عليه البلاد من استبداد وقسوة قبل مجىء جمال الدين الأفغانى فيقول :

كان يجانب كل لفظ نفى عن الوطن أو إزهاق للروح أو تجريد من المال[١٣٠] .

وبالرغم من غضبة محمد عبده على اسماعيل هنا فنحن لانستطيع أن ننكر أثر اسماعيل فى النهضة . فإن ظهور الرأى العام فى مصر انما يقترن باسم اسماعيل الذى عنى عناية خاصة بالتعليم ، وأصلح خطأ كبيرا من أخطاء جده الذى اهمل فى حركته التعليمية جانب التربية الشعبية ، وحصر جهده فى تخريج الضباط والمهندسين وغيرهم ممن وكل اليهم تسيير دفة الحكومة ، فأتى اسماعيل وأشرك الأمة فى حركة التعليم ، وترك هذا الروح الكريم — وهو روح التعليم — يسرى حتى يحس به الفلاح فى أعماق القرية ، كما يحس به الصانع فى ضوضاء المدينة ، وما لبثت خطة اسماعيل أن أثمرت ، وأنبتت نباتا حسنا كان فيه ارتقاء الرأى العام فى مصر ، فشارك هذا الرأى مشاركة واضحة فى تقدّم النهضة المصرية من جميع جوانبها كما شارك هذا الرأى مشاركة صادقة فى وضع الخطط اللازمة لاجتناء ثمرتها بعد ذلك[١٣١] .

٣ — أنه فى ذلك الوقت حدثت أزمة بين الخديوى وبين الباب العالى بسبب جفوة دبت بينهما عندما رغب اسماعيل فى الاستقلال عن تركيا[١٣٢] .

---

(١٣٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٣٦ ، ١٨١

(١٣١) أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ١ ص١١

(١٣٢) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ١ ص١٢

٤ — الرابع من تلك الدوافع : الدستور الذى منحه السلطان عبد الحميد الثانى لشعبه فى تركيا ، وذلك على أثر الثورة التى قام بها الشعب التركى بزعامة مدحت باشا عام ١٨٧٦م فقد شجع ذلك الحادث المصريين على المطالبة بمثل هذا الدستور وخاصة أنه دستور منحت مثله الشعوب على اختلافها فى ذلك الوقت .

٥ — الخامس من تلك الدوافع التى تشير اليها : انتشار الثقافة على النحو الذى تشير اليه كتب التاريخ المصرى الحديث ، ونشاط الحركة الفكرية فى مصر ، وبخاصة منذ ظهور السيد جمال الدين الأفغانى ، وهو الرجل الذى غرس فى مصر بذور الفكرة الدستورية ، وكان له الفضل فى تنبيه الأذهان اليها(١٣٣) .

فقد كان مجيئه الى مصر كما يقول محمد عبده : مبدأ النهضة المعنوية لأن كلامه كان فيما ينير العقول أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصالح البلاد وسكانها .

ولذلك استيقظت مشاعر وانتبهت عقول ، وأخذ الشيخ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية فى مواضيع مختلفة لاتخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار وتهذيب الأخلاق فتسابقت إلى ذلك الكتاب وتبارت الأقلام وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد(١٣٤) .

الحركات الشعبية التى كانت مظهرا للرأى العام فى مصر :

١ — إنشاء (الجمعية الخيرية الإسلامية) بمدينة الإسكندرية عام ١٨٧٨م وهذه الجمعية هى غير الجمعية الخيرية الإسلامية الحالية التى يرجع تأسيسها إلى سنة ١٨٩٢م .

٢ — ظهور هيئة شعبية بالقاهرة اسمها « جمعية المقاصد الخيرية » كان من أعضائها الشيخ محمد عبده ، وكان من عملها الانغماس فى أمور السياسة ، واجتماع الأعضاء للخطابة والتداول فى أمور كثيرة ، وتكوين رأى فى كل أمر من هذه الأمور للمجاهرة أو المطالبة به فى الوقت المناسب ، وقد اجتمعت هذه الجمعية فى مساء ١٧ فبراير ١٨٨٢م للتصديق على مشروع القانون الأساسى لمجلس النواب(١٣٥) . وخطب محمد عبده خطبة بليغة فى ذلك الاجتماع . وقد لخص الأستاذ الإمام كل ذلك وأضاف إليه دوافع أخرى حين قال :(١٣٦)

هذه كانت شدائد مهلكة . وظلمات حالكة . وذلك أن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣هـ —

(١٣٣) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ١ ص١٣

(١٣٤) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص٣٧ — ٣٨

(١٣٥) أدب المقالة الصحيفة فى مصر جـ١ ص١٧

(١٣٦) تاريخ العصر الحديث لمحمد صبرى ص١٥١

١٨٧٧م كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ... الخ . إلى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة روسيا فى سنة ١٢٩٣ – ١٨٧٧م .

ووجدت النّاس من أنفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة الروسيا ، فتطلعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب ، وكثرة الاجانب فى هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الأوربية إلى طلابها من الأوربيين ، ومخالطتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق إلى العلم بما فيها ، وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية التى لاتزال إلى هذا العهد قاصرة على ما لايهم فانطلقت فى ايراد الحوادث ، فوجد فى النّاس الناقم على تلك الحرب ، والناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل ثم استخدمت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها فى نشر الأخبار ، ومناوأتها فى المشرب ، واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيها الى حد لايمكن منعه وقضى سلطان الوقت على سلطان الإدارة القاهرة . ومضى الإمام يقول :

لم يكن ما ينشر فى الجرائد محصورا فى حوادث الحرب بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم فى سيرتهم السياسية والمعاشية ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ فى الحكومة من سوء الأحوال المالية .

٣ – ظهور الصحافة الشعبية أو الصحافة المصرية الحرة [١٣٧] : وكان لهذه الصحافةالحرة أعظم الفضل فى الإصلاح الدستورى المصرى .

٤ – ظهور جماعة من الشعب بمدينة الإسكندرية فكرت فيما نسميه بالاستقلال الاقتصادى ودعت فى عام ١٨٧٩م إلى انشاء بنك قومى لانقاذ البلاد من الاستبداد الاجنبى ، واسم هذه الجماعة (اتحاد الشببه المصرية) ورئيسها عمر لطفى محافظ الإسكندرية [١٣٨] .

٥ – تأليف هيئة شعبية باسم « الجمعية الوطنية » أو « الحزب الوطنى » وذلك عام ١٨٧٨م أعنى فى وزارة رياض [١٣٩] . ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عن هذه الهيئة « عندى أن هذه الحركة كانت أسلم عاقبة ، وأدعى إلى الإعجاب والتقدير من الثورة العرابية ، ذلك أن الحركة الأولى كان قوامها نهضة الأفكار والآراء ونضج العقول والقرائح ، وتبادل الرأى والمشورة على حين جاءت الحركة العرابية ، وقوامها الاعتداد بقوة الجيش وحسب فتضاءل العامل الفكرى والمعنوى فى طورها الأخير . وخفت صوت الحكمة والتعقل إلى جانب صوت

---

(١٣٧) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ٢ ص١٤

(١٣٨) المرجع السابق ص١٥

(١٣٩) المرجع نفسه ص١٦

السيف والمدفع ، ومن ثم تنكبت الحركة سبيل الرشاد ، وركبت متن الشطط وانفسح مجال الدسائس الأجنبية تنصب شراكها ، والمطامع الاستعمارية تدبر مكايدها حتى انتهت الثورة بالاحتلال الإنجليزى (١٤٠) .

وهذا الرأى الذى يراه الأستاذ الرافعى هو نفسه رأى محمد عبده الذى يقول : علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة (١٤١) . والذى كان يرى أن عرابى لم يكن « يخطر بباله ولا يهتف به فى منامه أن يطلب اصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذى أحاط بفكره ، وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من امراء الجراكسة ، والمنافرة من عثمان باشا فلم يكن له هم سوى الأمن على مقامه والانتقام من ذلك العدو ، والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف العسكرية قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ لأنه هو وإخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة بأمثالهم . الى أن يقول :

لو كانت فى مصر حكومة دستورية يقضى فيها القانون ولا يستبد فيها الرأى لأوخذ عرابى ومن معه أشد المؤاخذة ، ولقضى عليهم بجزاء ما هتكوا من حرمة القانون ، وما أدخلوا فى الجند من الميل إلى الفوضى والاستهانة بالسلطة العليا .

ثم يقول :

كنت معروفا بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكرى ، وتسوئة رأى المطالبين لتشكيل مجلس النوّاب على ذلك الوجه وبتلك الوسائل الحمقى (١٤٢) .

ومهما يكن من شىء فإننا لانستطيع أن ننكر أن الثورة العرابية كانت بداية تحوّل خطير فى الوعى السياسى المصرى ، فقد كثر فيها الكلام عن حقوق المصريين ، وعن الحياة النيابية ، وعن الحد من سلطان الحاكم ومراقبة تصرفاته ، وكان أخطر ما تنطوى عليه من دلالة أنها مظهر لثقة المصريين بأنفسهم وبقدرتهم على فرض إرادتهم ، وبجيشهم وبقدرته على الصمود فى وجه الأجنبى .

والواقع أن ثورة الأفكار والتطلع إلى الحرية والنظم النيابية كانت قد بدأت منذ أواخر عهد

---

(١٤٠) تاريخ الحركة القومية – عبد الرحمن الرافعى عصر اسماعيل جـ١ ص٧
(١٤١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص٢١٧
(١٤٢) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص١٩٨ – ٢١٣

اسماعيل ، واتسع مداها فى أوائل عهد توفيق فأخذت مصر تتطلع إلى نظام جديد يضع حدا للإسراف وللنفوذ الأجنبى ويوطد أركان العدل والحرية والدستور(١٤٣) .

وبدأت مظاهر هذه الثورة الكامنة التى تريد أن تعبر عن نفسها فى صور مختلفة ، فقد بلغت جرأة الصحف فى معارضة الحكومة حدا لم يألفه النّاس ، ولم يعرفه الحاكمون من قبل . وأصبحنا نسمع للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث عن تعطيل الصحف واطهاد رجال الصحافة ، وكثر حديث النّاس عن الظلم والظالمين ، وجهر الثوّار بآرائهم الجريئة التى صادفت هوى فى النفوس ، وانطلق جمال الدين الأفغانى يشحذ قلوب تلاميذه ومريديه بالثورة على الأوضاع السائدة ، ويوقظ فيهم روح الحمية والأنفة(١٤٤) :

وغمر البلاد سيل من المنشورات السرية التى تصوّر سوء الحال وانتشار الظلم مطالبة بوضع حد لما تعانيه مصر والمصريون ، ثم أسفرت جماعة الثوّار من الساخطين عن وجهها ، ، وجهرت بوجودها ، فكوّنوا حزبا سياسيا للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث سموه « الحزب الوطنى » ونشر الحزب برنامجه الرسمى فى جريدة التيمس فى أول يناير سنة ١٨٨٢م وهو يدل على وعى سياسى مصرى صميم ، يقوم على أساس القومية المصرية وحدها دون تفريق بين الأديان(١٤٥) .

وبدأ هذا الشعور الغامض بالسخط يتبلور وبدأت الآراء المختلطة تتضح ، وتأخذ أشكالا محددة واضحة المعالم والأهداف والمناهج ، فهذا هو محمد شريف يؤلف وزارته الأولى سنة ١٨٧٩ فى أواخر أيام اسماعيل على أساس مسئولية الوزارة أمام مجلس شورى النوّاب ، ويعود فيؤكد ذلك عندما دعاه توفيق بعد عزل أبيه إلى إعادة تأليف الوزارة ، ويصدر بعد تشكيلها أمرا ساميا يوضح فيه برنامج الحكم ، وفيه يقرر مسئولية الوزارة كما يقرر العمل على حل المشكلات المالية والحد من نفوذ الأجانب ، وذلك بهيمنة مجلس النوّاب على الميزانية ، وبعدم إشراك الأجانب فى الوزارة(١٤٦) .

وهذا هو محمد عبده يكتب مقالين فى سنة ١٨٨١م يؤيد فيها النظام النيابى ، ويدلل على وجوبه ولزومه للحاكم والمحكوم ، كما يتكلم عن قيمة الرأى العام فى تقويم الحاكم ومراقبة تصرفاته ، وفى لمّ الشتيت المتفرق من الآراء والمصالح بما يصون مصالح الوطن ، ويحقق السعادة والرفاهية للمواطنين جميعا(١٤٧) . يقول محمد عبده فى وجوب الشورى على

---

(١٤٣) الثورة العرابية ص١٩

(١٤٤) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين جـ١ ص١٣٤

(١٤٥) المصدر نفسه ص١٣٦

(١٤٦) المصدر نفسه ص١٣٨

(١٤٧) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ ص١٩٧ – ٢٠٥

الحاكم : « خلق الإنسان محاطا بالشهوات ، مكتنفاً بالأميال ، مقيدا بالأغراض ، فهو أسيرها تدفعه إلى مقتضياتها ، وتجذبه إلى لوازمها بحيث تكون جميع قواه آلات لها تحركها بما يناسبها ، وتستعملها فيما يلائمها .... إلى أن يقول :

وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولى الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها ، وتمكنهم من لوازمها كانوا مضطرين إلى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر من الوسائل المؤدية إلى ذلك . حتى يتمكنوا من النهوض بما وسد اليهم من رعاية مصالح العباد وليس من وسيلة إلى ذلك الا مشاورة العارفين العالمين بطرقها فان للرأى العام فى مغالبة الأهواء مالا يخفى من القوّة » .

ويقول فى وجوب الشورى على المحكوم : « قد علمت أن الواحد وإن بلغ من علو الفكر ، ورقعة الذكاء مكانا عاليا قاصر عن الإحاطة بمصالح الأمة ، وحينئذ يلزمها إذا ألقت اليه مقاليد مصالحها أن تمده من آرائها بما يقتدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها » .

ويقول فى نشأة الرأى العام : إن القانون الصادر عن الرأى العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس الا » .

وحين اشتدت الأزمة المالية بمصر تنازل الخديوى اسماعيل عن الحكم ، وتولى توفيق العرش ، وكان هذا التطوّر الأخير فى الأحداث الداخلية سببا فى دفع محمد عبده إلى الإمام نحو القيادة وانفراده بالعمل ، ذلك أن الخديوى توفيق استهل حكمه بنفى جمال الدين من مصر معتقدا أنه بذلك قد أطفأ شعلة هذا القائد الفذ ولكن نسى الخديوى أن التلميذ الأول لجمال الدين ، والأمين على تعاليمه مازال موجودا فى مصر ممثلا فى شخص محمد عبده[١٤٨] .

ففى سنة ١٨٨١م بدأت الحوادث العربية فتولى رئاسة المطبوعات ، وعلت منزلته حتى قيل أن العرابيين كانوا لايبرمون أمرا دون استشارته ، وكان ينكر كثيرا من أعمالهم ، وهو الذى حمى سراى رياض وقتئذ[١٤٩] .

زار مرة طلبة باشا فى أيام عيد الفطر فإذا بعرابى وأعوانه جلوس يتكلمون فى الاستبداد والحرية ، والحكومة المطلقة والحكومة النيابية الدستورية واتفقوا على أن الأمن على الأرواح ، وصعود الأمة فى مراقى الكمال من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال ، وأن هذا التحويل قد آن فى مصر أوانه فعارض الأستاذ فى ذلك[١٥٠] وقال : إن أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيمة ، وحمل الحكومة على

(١٤٨) قادة التحرير العربى فى العصر الحديث للدكتور ابراهيم احمد العدوى ص٧٤

(١٤٩) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٣ ص١٠

(١٥٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص١٤٦ .

العدل والإصلاح ، ومنه تعويدها الأهالى على البحث فى المصالح العامة ، واستشارتها اياهم فى الأمر بمجالس خاصة تنشأ فى المديريات والمحافظات ، وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له ، فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد ، وكمال التربية المؤهلة والمعددة للتصرف المقيد ، فطفق عرابى يجادله هو وأحد أساتذة المدرسة الحربية وكان مما احتج به الإمام عليهما أن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة فى إدارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لأنه ليس تصويرا لاستعداد الأمة ومطالبها ، ويخشى أن يجر هذا الشعب على البلاد احتلالا اجنبيا يسجل على مسببه اللعنة إلى يوم القيامة .

عند ذلك أبدى عرابى نواجذه وقال : أرجو أن لا استحق هذه اللعنة ، وليس الجند هو الذى يطالب بمجلس النوّاب ولكنه مؤيد لطلب أعيان البلاد ووجهائها .[١٥١]

ثم يشخص الإمام الحالة العامة للبلاد إبان الثورة العرابية ، ويحلل النوازع النفسية للشعب وللمستعمر ، وكيف تغلب هذا الأخير بالحيلة والخداع حتى مكّن لنفسه فى أرض مصر ، ولكن الشعب المصرى لم يلبث أن أفاق من الغاشية ، وعرف عدوه من صديقه .

يقول الإمام :

إن سكنة مصر كانوا أيام عرابى على قسمين :

قسم يروم حفظ الحالة القديمة ، والوقوف عندما يرسم توفيق ، وقسم كان يميل بأحد جانبيه إلى عرابى ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديمة ، فكان هذا القسم فى ريبة من أمره ولا عزيمة مع الريب ، والقسم الأول مخلد إلى الفشل ، فدخل الانجليز بلا حرب حقيقية ، نوع من الترقب ، وقليل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس صادف قلوبًا مستعدة فأخذ منها مقاما فانحلت الرابطة ، وتفرق النّاس عن عرابى بزوال جانب الميل إليه من قلوبهم ، ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الانجليز يبتغون من البلاد شيئا سوى أنهم يؤيّدون توفيق ، وينقذونه من الثائرين عليه ، فتساهل المصريون فى الأمر بحسن ظنهم فى حكومة الانجليز مع ما جاءتهم به من الحجة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية فى رضاء عن تصرفها ، بهذا فاز الانجليز ، واستقرت أقدامهم ، أما وقد مضى الزمن الكافى لظهور غدرهم ، وسوء نيتهم فلا يوجد من الأهالى المصريين من يميل إليهم ، بل لا يوجد إلا من يبغضهم ، ويتمنى فناءهم ، ويود لو يعمل عملا لهلاكهم ، ولكن الوهم يجسم المخافة ، ويكبح العزيمة .[١٥٢]

فلابد من عمل يرأب الصدع ويلم الشمل ، والأسس المادية وحدها غير كافية فضلا عن أن الأمة لا تملك منها إلا القليل . فلابد أن يرتكز ذلك العمل على أسس نفسية ومعنوية .

(١٥١) مصدر نفسه ص١٤٦ ١٤٧

(١٥٢) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٣٣٤ نقلا عن العروة الوثقى .

وهنا يرفع الإمام شعار المحبة والسلام ليكتل أبناء الوطن ضدّ أعدائه ، حتى إذا جاء يوم الفصل قذف بهؤلاء الأعداء فى الجحيم يقول الإمام : علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية ، ونحمل عوامل الشهامة الإسلامية ، ونوقد نيران الغيرة الجنسية لنخيب آمال الانجليز ، ونرد كيدهم فى نحورهم ونقذف بأولئك المغفلين الذين يميلون اليهم خارج تخوم هذه الحياة .(١٥٣)

فالانجليز وأعوانهم أعداء الأمة يتربص بهم محمد عبده الدوائر ، ويعمل جاهدا على تخليص البلاد من شرهم ، ويتحين الفرصة إن هنا أو هناك ليفتك بهم ، ويمزقهم شرّ ممزق فهو يرنو ببصره داخل مصر فيدعو الى وحدة وطنية ليكوّن شعبا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فيستطيع الوقوف فى وجه عدوه ، ويحاول التغلب عليه فيرجى أن يغلبه ، ثم يرنو محمد عبده ببصره خارج مصر هناك فى السودان فيرى المهدى قد أعلن ثورته فيرى فيها حركة عربيّة تهدف الى تحرير العالم العربى ، وأن لهيب هذه الثورة سوف يندلع فى سائر أقطار البلاد العربية وتودى بكيان انجلترا التى لم تهتم إلا بالسيطرة على مصر التى تعتبر مفتاح كل من العالم العربى ، والامبراطورية البريطانية فى الهند .(١٥٤)

ولم يكن الإمام فى تحريكه للثورة وتأليبه للجماهير رجلاً ذا عاطفة وطنية طائشة ولكنه كان حكيما يضع الأمور فى نصابها ويتكيّف مع البيئة السياسية فيعطيها ما تتطلبه غير ناظر إلى شىء سوى مصلحة الوطن والدين فيثور ويهدأ ويعادى ويهادن . فقد أظهر سياسة جديدة بعد مغادرة جمال الدين مصر ، ذلك أنه رأى من الحكمة معالجة الموقف السياسى فى مصر بالهدوء ، والعمل التدريجى البعيد عن الاندفاع ، ذلك أن الدول الأوربية كانت تتلمس الفرص للتدخل فى شئون مصر فضلا عن أن الخديوى توفيق صار متنمرا للحركة الوطنية التى بذر جمال الدين بذورها فى مصر وعمد إلى الإطاحة بأقطابها من البلاد ، ولكن نفرا من أهل البلاد لم ير رأى محمد عبده ، واندفع فى تيار الوطنية الجارف الذى انتهى بقيام الثورة العرابية ، وقد انضم محمد عبده الى تلك الثورة ، وصار من الغلاة الداعين لها برغم سياسته الأولى الخاصة بالاعتدال لأنه رأى خديوى مصر يرتكب الخطأ القاتل باستدعاء الأسطول الانجليزى لمساعدته ضد الحركة الوطنية فأعلن جهارا سخطه على الخديوى واتهمه بالخيانة وانغمس فى الدعوة إلى الجهاد ومساعدة الحركة العرابية .(١٥٥)

وانتهت الحركة بالفشل ، وذاق محمد عبده مرارتها كما لم يذقها أحد ، وألقى به فى غيابة السجن ثم نفى جزاء غير عادل لاشتراكه فى الثورة ، وقد ظن أقوام أن الحركة الوطنية وئدت

---

(١٥٣) المصدر نفسه ص٣٦١ .

(١٥٤) قادة التحرير فى العصر الحديث للدكتور ابراهيم احمد [illegible] ص٧٨ .

(١٥٥) المصدر نفسه ص٧٤ .

بهزيمة العرابيين ، ولكن خاب ظنهم ، فقد كانت القلوب تغلى كالمراجل ، والأمة تتحين الفرصة لوثبة جديدة ، وقد اقترن ظهور الحركة الوطنية بعد الثورة العرابية بظهور الخديوى عباس على مسرح السياسة حين جلس على عرش مصر فى ٨يناير سنة ١٨٩٢م بعد وفاة أبيه الذى كان سببا فى نكبتها بالاحتلال والواقع أن عبّاسًا كان محور الحياة السياسية والوطنية فى ذلك الوقت . فقد تولى الحكم وهو شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وكان جريئا واسع الأمل يريد أن يكون ملكا حقيقيا لا دمية فى يد الانجليز ، وكان مصريا بحتا فنفخ فى مصر روحا جديدة من الوطنية والشجاعة جرأت الأمة على مناهضة الاحتلال ، وقوت الآمال بالاستقلال ، وكان ينعى على أبيه ضعفه واستسلامه للانجليز . وبدأ حكمه كأحسن ما يبدأه ملك ، ولذلك لم يكن عجبا أن يلتف المصريون حوله وأن يحبوه .(١٥٦)

ومن أجل ذلك كله لم يكن هناك مفر من اصطدام عبّاس بكرومر ممثل الاحتلال ، ولم يكن هناك وسيلة لتجنب هذا الصدام المتوقع .(١٥٧)

وسرعان ما وجد كرومر الفرصة المناسبة عندما انتهز عبّاس مرض مصطفى فهمى فتخلص منه باقالته فى ١٥يناير سنة ١٨٩٣ ، وأصدر أمره الى حسين فخرى بتشكيل الوزارة مكتفيا فى كل ذلك بابلاغ كرومر بما تمّ ، غضب كرومر لهذا الإجراء وأصدر أمره إلى الموظفين البريطانيين بأن لا يعترفوا بالوزارة الجديدة حتى يتلقوا أوامره .

ووجد الخديوى الشاب نفسه وحيدا أمام السياسى العجوز فالكتلة الشعبية لا تتجاوز قوتها كلاما يقال أو مظاهرات تجتمع ثم تنفض ، وقنصلا فرنسا وروسيا اللذان كانا يشجعانه على مقاومة الانجليز قد تخليا عنه .(١٥٨) ورأى كرومر أن من الأفضل أن لا يسرف فى إذلاله ، وأن يدع الباب مفتوحًا للتفاهم لعله يستطيع من بعد أن يتألفه فحّل المسألة حلا وسطا ، وذلك بأن لا يعود مصطفى فهمى إلى رياسة الوزارة ، وبأن يعزل فخرى فى نفس الوقت ، ويعهد فى تأليف الوزارة الى مصطفى رياض ، ولكنه أصر على أن يتقدّم عبّاس اليه بخطاب أملى هو صورته يقول فيه « إنه يرغب رغبة شديدة فى أن يوجه عنايته الى ايجاد أصدق العلاقات الودية مع انجلترا ، وأنه يسير بكل رضاه بموجب نصيحة حكومه جلالة الملكة فى كل المسائل المهمة فى المستقبل .(١٥٩)

وظن كرومر أنه قد لقن الخديوى درسًا لن ينساه وكان يتوقع أن يجد فى رياض عونا على ترويض عبّاس وكسر حدته ، ولكن الذى حدث هو أن رياضا قد انقلب على مؤازرة عباس ،

(١٥٦) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ج١ ص١٥٦ .

(١٥٧) المرجع نفسه ج١ ص١٥٨

(١٥٨) المرجع نفسه ص١٥ .

(١٥٩) الاتجاها الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حين ج١ ص١٦٠ .

وظاهره فى موقفه العدائى من انجلترا ، ومضى عباس لوجهه لا يتراجع . لذلك لم يمض على أزمة مصطفى فهمى عام حتى تصيد كرومر فرصة أخرى لتوجيه لطمة جديدة قوية إلى عبّاس ، وذلك أن الخديوى سافر فى رحلة إلى الحدود فلما بلغ وادى حلفا واستعرض الجيش فى ١٨ يناير سنة ١٨٩٤ أبدى للسردار وهو وقتذاك كتشنر بعض الملاحظات التى تدل على عدم رضائه عن تدريب بعض الفرق فاعتبر السردار أن فى توجيه مثل هذه الملاحظات إهانة له وغضا من قدره فقدّم استقالته ، ولم يدع كرومر الفرصة تفلت من يده ، فبادر إلى الاتصال برياض يطالب تقديم اعتذار رسمى من الخديوى عباس ، وفعلا اعتذر الخديوى رسميا .(١٦٠)

وقد ضعف عبّاس أمام هاتين اللطمتين القاسيتين اللتين تلقاهما من كرومر فلجأ إلى السلطان عبد الحميد يرجو أن يجد عنده ملجأ من كرومر ولكن خاب ظنه .(١٦١) واضطرب تفكير عبّاس وراح يتخبط فى تصرفاته ، فهو تارة يفر من الانجليز الى تركيا ، وتارة يحتمى بالانجليز وهو كاره لكليهما فى الحالتين . وبينما هو مقبل على الشعب يحتضن مطالبه اذا به يتنكر للشعب وزعمائه .(١٦٢) وانتهى الأمر إلى اليأس والانحلال والشره فى جمع المال .(١٦٣) وكان انحراف عبّاس سببا فى تحوّل الشعب عنه ، ثم سخطه عليه ومهاجمته له مما دعا إلى زج الأحرار فى السجون .(١٦٤)

وانضم الأزهر للحركة الوطنية يندد مع المنددين بحكم الخديوى الاستبدادى ، وبحكم من يشد أزره من أعوان الاستبداد والاستعباد .(١٦٥)

وجهر المعارضون للخديوى بعدائه وتجرّؤا عليه ونشر محمد عبده مقالا عنيفا فى صحيفة المنار سنة ١٩٠٢م يهاجم فيه محمد على ، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس الأسرة العلوية ، وقد صوّر فى هذا المقال الجرئ كيف وصل محمد على للحكم ؟ ثم كيف احتفظ به وقد عرضنا لهذا المقال سابقا فلا داعى لاعادة القول فيه .

ولقد كان محمد عبده صديقا لكرومر ، وكان يستمد منه القوة والتايد حين يهاجم الخديوى ، ولعل هذه الحقيقة تقلل من تقدير الجرأة التى ينطوى عليها هذا المقال .(١٦٦)

وربما يلوم بعض النّاس الإمام لسلوكه هذا المسلك حيث احتمى بالانجليز أعدائه وأعداء أمته ، ولكنى أراه تطوّرا طرأ على فكر الإمام أراد أن يتكيّف به مع الأحداث المحيطة به

(١٦٠) المصدر نفسه ص١٦١ .
(١٦١) المصدر نفسه ص١٧٠ .
(١٦٢) المصدر نفسه ص١٧١ .
(١٦٣) المصدر نفسه ص١٧٢ .
(١٦٤) المصدر نفسه ص١٧٥ .
(١٦٥) محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ص٧٧ – ١٠٣ .
(١٦٦) الاتجاهات فى الأدب المعاصر ج١ ص١٨١ .

فسلك سبيل المداراة فى السياسة ورأى أن الطريقة المثلى اجتنابها ، ومداراة أهلها ، وإقناعهم بكل وسائل الإقناع الممكنة بأن الإصلاح العلمى أو الدينى المطلوب هو خير لبلادهم ورعاياهم ونافع لهم أو غير ضار بهم ، وحسب العامل المصلح تمكنه من العمل .[١٦٧] ولولا هذه المداراة لما أمكن له أن يعيش فى مصر ، فاذا لم يخرجه الانجليز منها لسعة حرية لورد كرومر فلا شك فى أن الخديوى كان يخرجه كما أخرج جمال الدين ، وحسبك أنه قاومه فى كل إصلاح حاوله ، ولم يقاومه الأجانب فى شىء ،[١٦٨]

لقد كان اتصال محمد عبده بكرومر فى خدمة الوطن والمواطنين ، وحسبك دليلا على ذلك ما يحدثنا به التاريخ . فقد حدث أن اللورد كرومر رأى أثناء وجوده بمصر أن يلغى النيابة من القضاء الأهلى لفساد بعض رجالها ، وعدم قيامهم بما يقتضيه الواجب والقانون وصمم على ذلك فاتصل الخبر بالشيخ محمد عبده فذهب اليه — وكان وقتئذ مفتى الديار المصرية — وجلس معه ساعتين أقنعه فيهما بالعدول عن هذا المشروع ووجوب العمل لإصلاح ما فسد من النيابة بدلا من الغائها .[١٦٩]

وعلى كل حال فقد ظلت فى مصر سلطتان قائمتان تتنازعان النفوذ : سلطة الخديوى وسلطة المعتمد البريطانى أو السلطة الشرعية والسلطة الفعلية كما كانت تسميها الصحف فى ذلك الحين .[١٧٠]

وكانت كل من هاتين السلطتين تعمل دائبة فى جمع الأنصار ، واكتساب الأعوان ، وحين كان عبّاس يخسر الأصدقاء والأولياء كان الانجليز يجدون فى اصطناع الأصداقاء والأولياء[١٧١] من أمثال العمد والمشايخ ، وبعض رجال الجيش ورجال الدين ومنهم محمد عبده الذى احتضنه كرومر حين اصطدم بعباس ، وكان سنده فى كل ما استهدفه من مشاريع تطور الأزهر وإنشاء مدرسة القضاء الشرعى .[١٧٢]

واتخذ النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية شكلا أدبيا فكان لكل أدباء يؤيدون سياسته ، وكان من أثر ذلك أن ارتبط الأدبّ بالواقع أشد الارتباط ، يستمد موضوعاته مما يجرى حوله فاحتل مكانا بارزا بين الفنون الأدبية المختلفة وطالعنا كثير من القصائد والمقالات

---

(١٦٧) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٨٩١ .
(١٦٨) المصدر نفسه ص٨٩٢ .
(١٦٩) تقديم « دروس من القرآن الكريم » لطاهر الطناحى ص١١ .
(١٧٠) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ج١ ص١٩٢ .
(١٧١) المصدر نفسه ص١٩٣ .
(١٧٢) المصدر نفسه ص١٩٤ .

الهجائية التى تلهب المجتمع بسياط النقد المر ، وتهاجم معايبه وتهكم بأساليب حياته الفاسدة .[١٧٣]

ويجدر بنا قبل أن نخوض فى أدب هذه الحقبة ونبيّن أثر الامام فى توجيه الحركة الأدبية فى زمانه أن نلقى نظرة عابره على نشأة النثر الحديث وتطوّره حتى وصل إلى زمن الإمام .

من المعلوم أنه قبل العصر الحديث قد نشأت مدارس البديعيات التى تعنى بفنون البديع عناية فائقة تطغى حتى على ابراز المعنى فكان الكاتب أو الشاعر يحسب أن البلاغة فى أن يجمع أكبر عدد ممكن من هذه الفنون وأن براعته إنما تقاس بهذه الناحية ، ومن هنا تهلهلت الأساليب وأصبحت واهية المعنى[١٧٤] .

وقد انصرم عهد العثمانيين . وبدأت تنقشع سحب ظلمته ، وتنجاب غياهب دجنته ، والكتابة الإنشائية معتلة الأسلوب ، مختلة العبارة ، يجرى اللحن فى أفواه الكتاب مجرى الغريزة ، وفجاج الأغراض الكتابية ضيقة النطاق أمام نواظرهم لضعف الثقافة ، وسيادة الجهل ، وقلة المستجيب ، وفداحة الظلم حتى أصبح الكاتب المجيد هو الذى يخط عبارات متعثرة يوهم بها أنه يحاكى الأقدمين . ولكن الكتابة ماعتمت أن درجت بها الأيام فى مدارج الرقى قليلا قليلا ، وجذبتها عوامل النهوض من طريق الموت إلى طريق الحياة ، وتهيأ لها من أسباب القوة ماأنحى على ضعفها فأزاله ولوى على عثارها فأقاله ، فأخذت الفضارة تدب فى عودها ، والنضارة تبدو على جسدها حتى بدت اليوم فى ثوب قشيب كالدوحة الفينانة وارفا ظلها ، ممتدة اغصانها ، مفترة أزهارها ، طيبة ثمارها .[١٧٥]

وإن كان ذلك لم يحدث طفره ، ولكن تدريجيا على ما سنبينه فيما بعد .

أدوار تدرج الكتابة الإنشائية

١ – أيام الحملة الفرنسية :

فترة خمود وجمود ، ووقفة بين موت وحياة وصلت فيها الكتابة إلى نهاية ماانتابها من ضعف وضيق وهزال ، غرّضا ومعنى وأسلوبا ولعل خير مايستشهد به هنا ماكان يذيعه نابليون على المصريين من المنشورات المكتوبة بالعربية يحررها فئة من المستشرقين والمترجمين الذين وفدوا مع الحملة . وكذلك ماكان ينشر فى « التنبيه » من أخبار يحررها السيد اسماعيل الخشاب ، وكذلك بعض الرسائل الإخوانية .[١٧٦]

---

(١٧٣) المصدر نفسه ص٢٣١ .

(١٧٤) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق : القسم الثانى ص ٢٨

(١٧٥) الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم لمحمود رزق سليم ص ١٧١

(١٧٦) المصدر السابق ص ١٧١ – ١٧٢

فنجد فى هذا العهد نوعين من النثر :
أولها - نثر رسمى يصدر عن الحكومة الفرنسية فى مصر .
ثانيهما - نثر غير رسمى هو ما كان يصدر عن العلماء والأمراء فى تلك الحقبة من الدهر

فأمّا النثر الرسمى فقد كان سقيما فى أكثره (١٧٧) . ويكفى أن تعلم أن ذلك النثر الرسمى إنما كان ترجمة للمنشورات التى تصدر عن القيادة الفرنسية وكانت هذه المنشورات إنما تكتب بالفرنسية أولا ثم تترجم إلى العربية على يد من لايجيدون اللغة العربية الاعن طريق التعليم وفرق كبير بين هؤلاء وبين من يضيفون إلى التعلم فضيلة التذوق .

وأمّا النثر غير الرسمى فى عهد الحملة الفرنسية فهو صورة لما كان عليه النثر العربى قبل هذه الحملة مع فارق واحد بينهما هو اعتماد الأخير على الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وخاصة فيما يصدر عن العلماء وموظفى الديوان . (١٧٨)

٢ - أيام محمد على :

اتخذت الكتابة العربية أداة للتفاهم فى الدواوين بدل التركية ، وترجمت اليها بعض الكتب لضرورة التعليم ، وحررت بها الوقائع المصرية ، وبذلك كله اتسعت أغراض الكتابة زيادة عن الرسائل الإخوانية ، وتأليف بعض الكتب ، وفى ذلك اثراء للمعانى ، وظل أسلوبها ركيكا بعيدا عن الصبغة الأدبية ، والنزعات البليغة مع التقيد ببعض أنواع البديع وبالسجع . وبقيت كتب العلوم غارقة فى محيط العامية وخير الأمثلة لذلك ماترجمه رفاعه الطهطاوى وماألفه عبد الرحمن الجبرتى .

وسبب ضعف الأسلوب أن محمدا عليا كانت نهضته عسكرية فاصطبغت بصبغة علمية لم تكن تعنى باللغة لذاتها بل لأنها أداة لنقل المعنى فحسب فأيما عبارة يفهم منها مضمونها تكفى فى سبيل التعبير ، وقد اتخذ محمد على بعض الطائفة القبطية كتابا له إذ كانت لديهم أثارة من العربية واشتهر من بينهم « المعلم غالى » فظلت آداب اللغة العربية وأسلوبها الكتابى يرزحان تحت عبء الضعف ، ومع ذلك كله قد أفادت العربية فى تلك الفترة عددا من الألفاظ الجديدة الموضوعة باحدى طرق الوضع العربى أو المبعوثة من مرقدها بين معاجم اللغة وكتب علومها القديمة (١٧٩) .

---

(١٧٧) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ١ ص ٩٦
(١٧٨) المرجع السابق ص ٩٧
(١٧٩) الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم لمحمود رزق سليم ص١٧٢ - ١٧٣ .

٣ — في عصر اسماعيل :

كانت أساليب اللغة العربية فى أول عصر اسماعيل مازالت ترزح تحت أعباء الضعف والتخلف تنتظر من يأخذ بيدها ويقيل عثارها تنتظر ذلك الذى يعرف مواطن الداء ويصف له الدواء الشافى . ثم يسلك طريق العلاج الناجح .

ومن أولى بذلك من محمد عبده ؟ لقد شمرّ هذا الإمام عن ساعد الجد ، وجعل اصلاح أساليب اللغة فى التحرير غرضا أساسيا من الأغراض التى كرّس حياته للنهوض بها ، سواء كان ذلك الاصلاح كما يقول الإمام فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجما من لغات أخرى ، أو فى المراسلات بين النّاس . وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب :

الأول ماكان مستعملا فى مصالح الحكومة ومايشبهها وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ولايمكن رده إلى لغة من لغات العالم لافى صورته ولا فى مادته ، ولايزال شئ من بقاياه الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ومن تعلم منهم غير أنه والحمد لله قليل . والنوع الثانى ماكان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر وهو ماكان يراعى فيه السجع وإن كان باردا ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وإن كان رديئا فى الذوق بعيدا عن الفهم ثقيلا على السمع غير مؤد للمعنى المقصود ولا منطبق على آداب اللغة العربية وهو وإن كان يمكن رده إلى أصول اللغة العربية فى صورته لكنه لايعد من الأساليب المرضية عند أهلها ولايزال هذا النوع موجودا فى عبارات المشايخ خاصة .[١٨٠] ثم ورد علينا فى أخريات الأيام ضرب آخر من التعبير كان غريبا فى بابه وهو ماجاءنا من الأقطار السورية فى جريدتى الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستانى ، وهذا الضرب كان يعد من غرائب الأساليب وبه انشئت جريدة الأهرام فى مصر وقد محى أثره والحمد لله .[١٨١]

ثم لم تلبث عوامل النهضة أن فعلت فعلها وتركت أثرها فامتد أفق الكتابة الى جميع الأغراض السياسية والاجتماعية ، وكانت الصحف خير معوان على بث الآراء الجريئة ، والارشادات النافعة ، والنصائح الثمينة التى حرّكت الهمم وأثارت العزائم ومهدت الطريق للنضج .

وكان بجانب هذه الأغراض السياسية والاجتماعية موضوعات أدبية بحته من وصف وتعزية وتهنئة وتحدث عن الأمور المعنوية كالجمال والعاطفة ، والذوق ، والسعادة وماشاكل هذا [١٨٢] وعرف هذا الاتجاه الأخير باسم « المدرسة الديوانية » ويمثلها عبد الله فكرى ولم

(١٨٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص١١

(١٨١) المرجع نفسه ص١٢

(١٨٢) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ ص٢١٤

تتناول السياسة والاجتماع والإصلاح كما يقول[١٨٣] الأستاذ عمر الدسوقى ، وموضوعاتها لم تتعد الأمور الشخصية أو الأدبية البحتة كرسائل التعزية والتهنئة والاعتذار والرجاء أو وصف منظر جميل أو آنية أنيقة الصنع ، وماشاكل ذلك مما يكون مبعثه الشعور الشخصى .

كانت هناك محاولة لإصلاح أساليب اللغة من جانب محمد عبده كما ذكرنا ذلك سابقا . فهل كان محمد عبده أول من حاول ذلك فى العصر الحديث ؟ ومالفرق بين محاولته ومحاولات الآخرين ؟

حاول رائدان من روّاد النهضة الحديثة قبل محمد عبده (التجديد) ومضى أولهما دون أن يندد بالقدماء ، وأبى ثانيهما إلا أن يعيب ما كان عليه الأقدمون ، ويحاول الخروج على أساليبهم فى جلبة ، وصياح كما فعل أبو نواس. وكما فعل ابن خلدون حين خرج على طرائق عصره من التزام السجع والبديع إلى أسلوب مرسل ، وأخذ يعيب على معاصريه ، ويمتدح طريقته هو ، ويفخر بأن أحدا لم يشركه فيها .

أما أولهما فهو (رفاعة الطهطاوى) فقد أدخل على الشعر أساليب جديدة اقتبسها من الشعر الفرنسى وأمّا الثانى فهو أحمد فارس الشدياق الذى حاول أن يسلك مسلك أبى نواس فى النعى على ابتداء القصائد ببكاء الأطلال .[١٨٤]

ولكن الفرق بين محاولة الإمام وبين محاولة هذين الرائدين أن محاولته كانت أكثر عمقا وأكثر اتساعا تبعا لشخصيته وللمجالات الحيوية التى عمل فيها ولاسيما إبان إشرافه على إدارة المطبوعات ، وتحرير الوقائع ، ثم إن حتمية التطوّر التى جعلت رفاعة والشدياق يسبقان الإمام فى الوجود والزمن تجعل العمل اللاحق أكثر نضجا ووعيا وإدراكا .

ومهما يكن من شئ فقد أراد الله لهذه اللغة أن تقوم من سباتها وتنهض من عشارها ، وتضافرت عوامل كثيرة عل هذا النهوض منها انتشار التعليم الحديث ثم العمل على احياء التراث العربى القديم ، وعناية المستشرقين باللغة العربية وآدابها ، ثم انتشار الصحافة فى مدن الشرق العربى ، ويضاف إلى ذلك كله باعث كبير له فى نفوس المصريين تأثير عظيم ونعنى به الباعث الدينى الذى يملأ قلوب المسلمين فى كل زمان ومكان غيرة على لغة القرآن حتى إنهم لينظرون إلى ضياع لغتهم على أنه ضياع لقوميتهم ولشخصيتهم ولدينهم ومعتقدهم .[١٨٥]

ولكن مالسبيل التى سلكها الرّواد إلى النهضة ؟

---

(١٨٣) المرجع السابق جـ١ ص٢٠٥

(١٨٤) الصراع الأدبى بين القديم والجديد لعلى العمارى ص ٢٠٢

(١٨٥) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة جـ١ ص٩٩

نفس السبيل التى سلكها رّواد الأدب الغربى ألا وهى إحياء القديم فالغربيون بعثوا أدب اليونان من مرقده ، وكذلك رّوادنا الأوائل عملوا على بعث الأدب العربى القديم من مرقده .

فلما كان الأدب الموروث هو أول ماعرفوا من الآداب كان طبيعيا أن يحتذوه ، ويحاكوه فى موضوعاته وأسلوبه ومعانيه وأخيلته ، وقد تفاوت الأدباء فى هذا التقليد تبعا لمواهبهم وشخصياتهم ، كما تفاوتوا فى اختيار من قلدوهم .[١٨٦]

ولقد كان إحياء الأدب القديم أول ما فكّر فيه روّاد النهضة ، فقد رأوا أنه لاحياة للغة العربية وآدابها إلا بالاتصال بالآداب القديمة ، وعملت المطابع فى إخراج أمهات الكتب ، وجهد كثير من المفكرين لإنجاح هذا العمل العظيم[١٨٧] .

وقد رأى الدكتور طه حسين : أن السبيل الأولى للإصلاح هى : « أن نجتهد ما استطعنا أن نحبب إلى طلاب المدارس العالية ، وتلاميذ المدارس الثانوية والابتدائية قراءة النصوص العربية وتفهمها ، ونقرب اليهم هذه النصوص ، ونحسن لهم اختيارها ، ونظهرهم على أن الأدب العربى ليس كما يمثله لهم معلموه من الشيوخ جافًا جدبا عسر الهضم ، لاسبيل إلى اساغته ، ولاإلى تذوقه وإنما هو على عكس هذا كله لين هين خصب لذيذ فيه مايرضى حاجة الشعور ، وفيه مايقوّم عوج اللسان ، وفيه مايصلح من فساد الخلق .[١٨٨]

واندفع الكتاب والشعراء فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن يستقون من منابع الجاحظ وأبى حيّان التوحيدى والمتنبى وأبى العلاء ، والشريف الرضى ، وأضرابهم ، فارتفع الأدب ، وخلص من وهدة الانحطاط الذى كان قد تردى فيها وشاعت الأساليب القوية النسج ، الرضيئة العبارات ، الجزلة الألفاظ فى نثر الكتاب المبرزين ، وعلى رأسهم الأستاذ الإمام محمد عبده .[١٨٩]

فهل أخطأوا فى اتجاههم نحو بعث القديم ؟ وماقيمة هذا الاتجاه ؟ وهل من الممكن الاستغناء عنه ؟

يجيبنا على ذلك الأستاذ توفيق الحكيم[١٩٠] فيقول :

استيقظت الشعوب المستعبدة واستقل الكثير منها ، ونهض ليلحق بركب الحضارة العالمية وظهرت أمامه المشكلة واضحة جلية ، كيف يمكن اللحاق بالركب الذى كان يسير ومازال

---

(١٨٦) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ ص١٠٣

(١٨٧) الصراع الأدبى بين القديم والجديد لعلى العمارى ص ٢٠٦

(١٨٨) الشعر الجاهلى ص ٨

(١٨٩) الصراع الأدبى بين القديم والجديد لعلى العمارى ص ٢٠٧

(١٩٠) جريدة الأهرام الصادرة فى يوم الجمعة ١٩٦٨/٧/٥ تحت عنوان حديث مع توفيق الحكيم .

يسير بسرعة مجنونة فى وقت كان هو فيه مستعبّدا نائما أو واقفا سجينا مكتفا طيله أجيال ؟ هل يبدأ من النتائج الأخيرة التى أثمرتها هذه الحضارة أو يبدأ من ماضيه هو ؟

هذا السؤال هو موضوع البحث الدائم ، هناك مع ذلك حالات الجواب فيها بديهى لايحتاج إلى إطالة النظر . فأنت لكى تنهض لابد لك من علم ولايمكن أن تبدأ العلم من ماضيك فتعيش فى عصر ماقبل البخار ، والدنيا اليوم فى عصر الذرة إذا لابد أن تقفز فوق كل أجيال تخلفك لتأخذ نتائج العلم الحديث اليوم ، وهكذا يشدك العصر الحاضر رغمًا عنك لتعيش فيه بوسائله لأنه ليس لديك خيار إما أن تقفز إلى قطار الحضارة السائر وإمّا أن تجلس متخلفا . وأكثر الدول الحديثة الاستقلال اختارت أن تقفز . لكن عملية القفز أدت الى مشكلات وتناقضات ، لأن ماتمّ فى أوربا على مراحل ، كل مرحلة تنضج تسلم إلى مرحلة بعدها . تأتى الدول الطالعة فتستوعب كل تلك المراحل وتزدردها ازدرارا ومن هنا تصاب أحيانا بسؤ الهضم لأنه لم تتح لها فرصة هضم كل مرحلة على حدة ، ومع ذلك فلا خيار لها لأن أى اقامة طويلة فى مرحلة واحدة بعينها معناها التخلف مرّة أخرى عن الركب مامن حل إذن إلا أن تكون لنا معدة النعام تزدرد كل شئ وتهضم على المهل أو معدة الابل تلتهم وتختزن ثم تختار وتصغى وتضيف اليه من شخصيتنا وظروفنا .

وفى الفن والأدب والثقافة تتضح صعوبة المشكلة وتبدو عسيرة على الحل لأنك هنا متصل بذات الإنسان أى بدخيلة إحساسه وشخصيته والماضى هنا يلعب دورا مهمًا لأنك مهما تكن نائما أو سجينا فإنك تحلم وتجتر ذكرياتك أى تراثك والفنان أو الأديب فى الدول المستيقظة حديثا ينهض فيجد التقدّم الفكرى والفنى على مداه فى هذه الحضارة الراكضة ، ويجد ذاته فى نفس الوقت مرتبطا بتراثه الخاص يحبه ويهواه وان كان فى كثير من الأحيان قاصرا بالمقارنة فى أساليبه وأدواته ، وهنا يقع فى الحيرة ويتساءل ماذا يصنع ؟ وقد يزيد الأمر حرّجا العقدة النفسية تجاه الحضارة المتفوقة وعندئذ لا يجد شيئا يتشبث به فى اعتزاز الا تراثه الأدبى والفنى .

لكن مشكلة أخرى تنشأ أمام الفنان والأديب وهى هل يقعد بذلك مع ماضيه ، ويعود بنفس شخصيته إلى العصور الغابرة ، ذلك يعنى أنه يدير ظهره لعصره الراكض ، وذلك هو التحدى فى التخلف ومن هنا فكّر الفنان أو الأديب المتطوّر أن يكون التحدى فى التقدّم ، وذلك بأن يأخذ القديم ويركب به قطار الحضارة المعاصرة أى أن يحافظ على شخصيته بتجديدها أو على الأقل يستبقى جانبا من ماضيه الجميل الأصيل كما هو ويأخذ الجانب الصالح للتطوير فيلبسه ثوب العصر ، ويعطيه شخصية جديدة .

إن الاتجاه نحو إحياء الأدب القديم لم يكن رجعية وتخلفا ، ولكنه وصل ماانقطع وتجديد

ماانذثر ، ومحافظة على ذاتية الأدب والأدباء . وهكذا يرى الامام حيث يقول : (١٩١)كما وصل إلينا وجودنا بالتناسل عن آبائنا فلتصل إلينا حياة نفوسنا بما أورثونا من علومهم وآدابهم ولا يتيسر لنا ذلك الا بعلم اللغات التى أودعوها معارفهم » .

ومهما يكن من شيء فإن أهم العوامل التى أثرت فى نهضة النثر الحديث يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — إطلاع الأدباء على الأدب الغربى ، وقد رأوا فيه السهولة والترسل والعناية بالمعانى أكثر من العناية بالبديع .

٢ — رجوعهم إلى النثر القديم فى العصر العباسى الأول مثل ابن المقفع والجاحظ والأصفهانى قبل أن يفرقه فى الزينة الحريرى وابن العميد وابن عباد . ثم إنه قد حدث للنثر الحديث ماحدث فى العصر العباسى الأول ، لقد نقل الجاحظ الأدب على أثر امتزاج الثقافات ، فجعل كل شئ صالحا لأن يكون ، موضوعا أدبيا حتى اللصوص والبخلاء ، وحتى الحيوانات ، فلما جاءتنا النهضة الحديثة كان الأمر كذلك فقد كاد موضوع الأدب ينحصر فيما يسمونه بالإخوانيات من لوعة اشتياق أو شكر على إهداء كتاب أو عتاب على تقصير فى زيارة أو نحو ذلك ، فاتسع معنى الأدب واتسع موضوعه ، وصار النثر أدلة للصحافة فى شتى الموضوعات ، وأداة للقصص والتمثيل ، والبحوث الاجتماعية والأدبية والنقدية ، وكان أثر الغرب واضحا فيه فى معالجة موضوعاته وفى تحليلها وبسطها وأثر الأدب العربى القديم فى الأساليب . كل أديب على قدر ثقافته واستعداده من هذا المنبع أو ذاك . فالصحافة فى مصر جارت الصحافة الأوربية وقطعت شوطا كبيرا فى التقدم تغذيها أقلام الكتاب المنشئين والمترجمين . ولو جمعت مايخرج منها كل يوم لأخذك العجب من كمها وكيفها وقد أثرت أثرا كبيرا فى نشر الثقافة بين الشعب كما أثرت فى تمرين أقلام الكتاب . وصقلها وتدفقها وكان لها أكبر الفضل فى تحويل النثر من مقيد الى مرسل فالأسلوب الصحفى يجب أن يكون متدفقا سريعا ليماشى سرعة الحوادث ، وسرعة الحركة ، وقد أشعلها وملأها حرارة نهضة المصريين فى طلبهم الاستقلال وطموحهم إلى الإصلاح الاجتماعى .(١٩٢) ومهما يكن من شئ فقد نهضت الصحافة فى عصر اسماعيل بلغة الكتابة ، وحررت النثر من السجع المتكلف ، والإمعان فى طلب المحسنات البديعية ، وتناولت موضوعات شتى مما يمس الحياة العامة ، ومشكلات الشعب .(١٩٣)

---

(١٩١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ ص٣٥٣ — ٣٥٤

(١٩٢) فيض الخاطر لأحمد أمين جـ٨ ص٢٥٨ — ٢٥٩

(١٩٣) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ ص ٢٠٥

ثم إن كثيرا من الصحف الأدبية فى القرن الماضى كصحيفة « روضة المدارس » وغيرها كانت تعتمد على المقالات المترجمة فى شتى العلوم الحديثة وكانت هذه الصحف معرضا عاما لهذه الثقافة وصبغة الترجمة غلبت على هذه الصحف ، وكانت استجابة طبيعية لروح العصر الذى نشأت فيه هذه الصحف .[١٩٤]

وانتشرت المدارس شيئا فشيئا ثم تعددت أنواعها ، وكثرت طلابها . وأصبح التعليم أحد أركان السياسة العامة للدولة ، وأخذت اللغة العربية تحتل هذا الدور تدريجيا مستغلبة على ما عداها من اللغات الأجنبية التى تدرس بها العلوم ، وصارت دروس الإنشاء من بين مواد الدراسة بل أهمها ، وقد اتسعت حركة الترجمة والتأليف ، وزاد النشاط الأدبى مما أدى إلى سمو الكتابة ، وإن كانت الأدبية منها قد لازمها السجع ، وقد عاون الكتاب انتشار الطباعة ، وطبع بعض كتب العلم والأدب القديم ذات الأساليب المختارة مثل كليلة ودمنه لابن المقفع ومقدمة ابن خلدون ، ثم خزانة الأدب للبغدادى ثم كتب الجاحظ فاطلع عليها الأدباء والمنشئون وترسموا خطاها .

وقد رأس تحرير الوقائع وقام بالكتابة فيها بعض أئمة الإنشاء فى ذلك الوقت كمحمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان ، وانشىء بها قسم أدبى كان معرضا لثمار قرائح الأدباء وهيمن قلم تحريرها زمنا كبيرا على لغة الصحافة بل ولغة الدواوين ، ولقد تعقبها الإمام محمد عبده أيام عمله بالوقائع حتى اضطر أهلها الى العناية بتجويد عباراتهم ، ثم انتشرت الصحف بأنواعها فاتسعت آفاق الكتابة ، وتعددت أغراضها[١٩٥] .

وكانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعمد البلاد توزيع الضرائب ، ترسل إلى من ترسل إليه بغير طلبه ، ويجبر على دفع قيمتها بالوسائل التى كان يجبر بها الممولون على الدفع . فأراد رياض أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة فى ذاتها تحمل النّاس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ما تضمنته من الأوامر واللوائح فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير إكراه من الحكومة لهم على ذلك وكان قد أحس بتوجه الأفكار إلى طلب شيء من طلاوة العبارة . ووفرة المعنى ، وحسن الانتقاد ، أمّا الأوامر الحكومية وحدها فلم تكن مما تحرك النفوس للاطلاع عليها فى الجريدة الرسمية ، لأن المأمورين يعرفونها من طريق أخرى والأهالى لم يكونوا قد تعودوا معاملة الحكومة بما تنشره ، ولا على أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما يكتب وينشر بوجه رسمى ، ولا على الثقة بأن الحكومة تقف عندما تحده فى أوامرها ، لهذا لم يكن لهم اهتمام فى الأغلب إلا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه ، ولم يكن فى الجريدة الرسمية وراء أوامر

(١٩٤) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ١ ص ١٠٤

(١٩٥) الأدب العربى من عهد الفاطميين الى اليوم محمود رزق سليم ص١٧٤

الحكومة إلا مدائح للجناب الخديوى وبعض كبار المأمورين على الطريقة القديمة ، وهذا مما كان ينفر من رؤيتها . فطلب رياض وسيلة لتغيير طريقة التحرير . وتحريرها على وجه يستميل النّاس للاطّلاع عليها . ورغب مع ذلك أن تكون يومية فهداه بحثه إلى تعيين الإمام فى تحرير تلك الجريدة (١٩٦) .

وكان الجناب الخديوى فى انحراف عنه فاجتهد رياض فى استرضائه فرضى عنه فعيّن محررا ثالثا وبعد أشهر ذاكره فى الطريقة التى يمكن بها إصلاح الجريدة فعرض له ما رآه فى تقرير واف فأمر بأن ينظر فى التقرير لجنة تؤلف من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير ثم توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فوضعت اللائحة فى قليل من الزمن ، وأمضاها رياض . وعيّن صاحب التقرير رئيسا لقلم تحرير الجريدة العربية فانتخب محررين مجيدين تستميل النّاس أقلامهم ، وتنبعث الرغبات إلى النظر فيما يقولون فتحوّل حال الجريدة الرسمية الى ماحمده العامة والخاصة (١٩٧) .

تضمنت اللائحة أن جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى والمحاكم ملزمة بأن تكتب إلى إدارة المطبوعات بجميع ما لديها من الأعمال المهمة التى تمت أو شرع فيها على أن تتم ، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها (١٩٨) وأن لإدارة الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أى عمل من الأعمال عند ما ترى له وجها حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التى كانت الإدارة جزءا منها ، وإذا رأت فى الجرائد التى تنشر فى مصر عربية أو أجنبية ذكرا لخلل فى عمل أو سوء تصرف فى أمر ما فلها الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية إلى النظارة أو الإدارة التى يختص بها ذلك العمل تسألها عن الحقيقة . فإن كان حقا ما نشرته الجريدة أوخذ المخطىء بواسطة رؤسائه ، وأشعرت إدارة المطبوعات بذلك ، ونشر فى الجريدة الرسمية ، وأن كان باطلا كلف صاحب الجريدة اثبات ما ذكره ، وإلا أنذر مرة بعد أخرى ، وبعد الثالثة يعطل لأجل أو دائما على حسب الأحوال ، وإن من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيها تحت عنوان قسم غير رسمى ما يعن له أو ما يرد اليه من الفصول الأدبية مما له مساس بالأحوال العامة .

وأول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التى كانت متبعة فى النظارات والإدارات فأخذت تبين وجه الخلل فيها واضرارها بفهم المعانى المطلوبة واقتضائها لطول المخابرات فى الاستفهامات التى لاطائل تحتها ، ثم ترسم الطريقة الفضلى التى يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفى الحكومة وخصهم رؤساؤهم

(١٩٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص١٧٥

(١٩٧) المرجع نفسه ص١٧٥ — ١٧٦

(١٩٨) المرجع نفسه ص١٧٦

بمكاتبة الجريدة الرسمية سترا لعيوب الإدارات ، واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعمّ ذلك المديريات كما عمّ النظارات ، وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير فى مصالح الحكومة ، وهكذا كان شأن الجرائد كانت تتسابق إلى إظهار مزاياها فى التحرير حتى تعجب ادارة المطبوعات وصلح بذلك كثير من أساليب الجرائد التى لم تكن لها عناية بتهذيب العبارات وتسابقت الأقلام فى تنقيح الألفاظ ، وضبط المطالب فانتعشت بذلك نهضة التحرير التى كانت بدأت من سنين قبل هذا[١٩٩] . سهلت بذلك المواصلات بين الأنفس فى الأفكار وخفّ عليها التعبير عمّا فى الضمائر . كثر الكاتبون وغزرت مادة المتكلمين ، وتيسر التعارف بين المتباعدين ، ونشأ فى النّاس نوع من الألفة أحدثه الشعور بجامعة اللغة[٢٠٠] .

بهذا القانون كما يقول حسن عاصم[٢٠١] صار الإمام كالمسيطر على عمال الحكومة والمربى للأمة وقد قام بالأمرين حق القيام فكانت الجريدة الرسمية تنتقد ما تكتبه مصالح الحكومة حتى اضطر رؤساء الكتاب إلى تلقى دروس فى العربية وأنشئت لذلك مدارس ليلية كان الإمام تبرع بالقاء دروس فى بعضها ، وكانت الجريدة تنقد الأعمال حتى كان ذلك عونًا على إصلاحها لما يتوقاه العمال من الانتقاد والتشهير بل من المؤاخذة بعد ذلك إذا المتنقد إنما ينتقد بلسان الحكومة — بل كان من القانون أن لرئيس التحرير الحق فى مطالبة الحكومة بالتحقيق عما تقوله الجرائد المحلية فى عمال الحكومة فإن ظهر صدق طعن فى أحد فعلى الحكومة أن تؤاخذه . وكان يؤاخذ الجرائد بفساد عبارتها .... فكان وجوده فى المطبوعات مبدأ النهضة القلمية فى القطر المصرى بعد أن أعده السيد جمال الدين وأفرادا آخرين لذلك وقد كان من أثر انتقاده على الحكومة إنشاء مجلس أعلى لنظارة المعارف هو أحد أعضائه والغرض منه ترقية التربية والتعليم فى البلاد .

كان هذا فى عهد الإمام الذى سيطر على عمال الحكومة وربى الأمة خير تربية . ثم خلف من بعده خلف حاولوا هدم بنائه . فسمعنا بعد الإمام تلك الصيحات المنكرة التى يدعو بعضها إلى استخدام الحروف اللاتينية وترك الحروف العربية . ويدعو بعضها الآخر إلى استعمال العامية ، ويتذرع هؤلاء وأولئك بصعوبة اللغة العربية . وقد نتج عن هذه الدعوات الماكرة الخبيثة شيوع الأخطاء النحوية واللغوية فى الصحف والكتب ، وأحاديث الإذاعة ، ومحاضرات الجامعة ، والمنابر العامة .

---

(١٩٩) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص١٧٧

(٢٠٠) المرجع نفسه ص١٧٨

(٢٠١) المرجع نفسه جـ٣ ص٢٤١

فالذى ننشده وهو أضعف الإيمان أن تختفى من صحف الأدب . ومن الكتب المقروءة ومن أحاديث الإذاعة ومحاضرات الجامعة والمنابر العامة ، ومن الصحف اليومية تلك الأخطاء النحوية الدالة على جهل مطبق بقواعد اللغة المتداولة . فالتذرع بصعوبة القواعد أمر غير مقبول ، ومن لايعرف لغته فخير له أن يثنى قلمه عن الكتابة . ويلجم لسنه عن الكلام لأنه غير أهل للكتابة أو الكلام . وكيف يؤتمن صحفى على جريدة وهو سقيم التفكير لا يقوى على تعبير ، ولا يحسن كتابة ولا يتجنب مواطن الزلل(٢٠٢) .

ويطول بنا المقام لو حاولنا المقارنة بين الأمس واليوم ، ولكنها لمحة أردنا بها أن نذكر بعمل الإمام فى ذلك المضمار . والتفاته المبكر إلى خطورة هذا الموضوع الأمر الذى دفعه الى أن يبذل فيه ما بذل حرصًا على وحدة التفكير والتعبير والشعور بين أبناء الوطن .

وبينما كان الامام يربى ويوجه ويقود الأمة إلى التى هى أقوم حدثت الثورة العرابية ، وقبض على الإمام وسجن ونفى ومن منفاه سافر إلى باريس حيث اتصل بأستاذه جمال الدين . وتابعا جهادهما لله وللإنسانية ، وكان أن أصدر جريدة العروة الوثقى فى باريس ، وصدر العدد الأول منها فى ٥ جماد الأولى سنة ١٣٠١هـ الموافق ١٣ مارس ١٨٨٤م وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الأفغانى ورئيس تحريرها الأستاذ الإمام . ويقول شكيب أرسلان إنه سمع الإمام يقول : إن الأفكار فى العروة الوثقى كلها للسيد ليس لى منها فكرة واحدة . والعبارة كلها لى ليس للسيد منها كلمة واحدة(٢٠٣) .

ويقول رشيد رضا عن العروة الوثقى : والذى علمته من نفسى بالخبر ومن غيرى بالخبر ، ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربى فى هذا العصر ، ولا فى قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب ، والإقناع من العقل ، ولا حدّ للبلاغة إلا هذا(٢٠٤)

وقال عنها الأستاذ الإمام بعد أن انقطع صدورها : إننى لا أستطيع الآن أن أكتب مثلها ، وعلل ذلك بتأثير الزمان والمكان والحال والانفعال والآمال(٢٠٥) والموضوعات التى تنحصر فيها مقاصد العروة الوثقى أربعة : الجامعة الإسلامية - الرابطة الشرقية - المسألة المصرية - المسألة السودانية(٢٠٦) . والغرض الأول أنشأ له بضع عشرة مقالة صدر أكثرها بآيات من القرآن . وأقلها بحديث أو عنوان يناسب موضوعها . ولم يضع لأكثرها عناوين غير هذه الآيات(٢٠٧)

---

(٢٠٢) قضايا الفكر فى الأدب المعاصر لوديع فلسطين ص٣٣ - ٣٤

(٢٠٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٢٨٩

(٢٠٤) المرجع نفسه ص٣٠٣

(٢٠٥) المرجع نفسه ص٣٠٥

(٢٠٦) المرجع نفسه ص٣٠٦

(٢٠٧) المرجع نفسه ص٣٠٧

ومما تقدّم نرى أن اللغة كانت فى عهده فريسة العجمة رهينة البلى (٢٠٨) فجاهد فى انقاذها وإحيائها حق جهاده كان وهو يحرر الجريدة الرسمية يراقب ما ينشر فى الصحف ويكتب فى الدواوين ، ويدبج الفصول فى نقد الأساليب ، وخطأ التراكيب ، وينشر نماذج من تلك الكتابات السقيمة العقيمة ويدل على عيوبها ويكتب غيرها فى موضعها تعليما للكتاب ، وتدريبا للناشئة ثم سلك فى التدريس غير سبيل الأزهريين فقرأ كتابى عبد القاهر فى البلاغة بأسلوب ملك الأسماع والقلوب ، وفسر كتاب الله بلسان رسوله ، فكان فى درسه خطيبا جزل المنطق قوى العارضة لاتدركه حبسة ، ولايرهقه حصر فأفاد الطلاب ببيانه مثل ما أفادهم بتبينه ، وهو الذى ساعد على إحياء الكتب العربية ، وسن فى الأزهر تدريس الأدب فاعتضد فى الأول بالإمام محمد محمود الشنقيطى واعتمد فى الثانى على سيد بن على المرصفى (٢٠٩) .
وكان للإمام تأثير آخر فى الحياة الأدبية ، فقد تأثر به فى مجالسه ودروسه جماعة من الأدباء والمفكرين لوّنوا الحياة الأدبية فيما بعد ، وكان لبعضهم مدارس واضحة الخصائص ، متفردة السمات . فقد كانت المجالس الأدبية معروفة ومنتشرة فى القرن الماضى سواء ما كان منها أرستقراطيا كمجلس الأميره نازلى ، ومجلس البارودى ، ومجلس محمد عبده وما كان منها شعبيا ديمقراطيا كهذه الجماعات التى كانت تتخلق دائما حول التجار على اختلافهم من بزاز وكوّاء وعطار ونحو ذلك .

وكما كانت المجالس الأدبية « الارستقراطية » تجذب إليها من شيوخ الأدب بعض سراة القوم وبعض الشباب المثقف فقد كانت الحلقات الأدبية الشعبية تجذب إليها أخلاطا من شيوخ الأزهر المتعطشين من الشباب إلى الظهور فى عالم الأدب ، أو النبوغ فى ميدان الشعر والخطابة والكتابة ، وكان هؤلاء وهؤلاء يجدون فى هذه المجالس الصغيرة من اللذة والمتعة ما يصرفهم ويصرف التجار معهم حتى عن العمل الذى يكسبون منه العيش (٢١٠) .

كما أن أثر تفكيره فى أصحاب المناصب والأدباء الذين تزعموا الحركة الأدبية والفكرية كان أسرع سريانا فى النفوس .

ومما يلاحظ فى أصحاب المناصب والأدباء الذين التفوا حول الإمام فحضروا عليه دروسه فى الأزهر ، أو ترددوا على داره فى عين شمس فاستمعوا لدروسه الخاصة ، أو عملوا معه فى الجمعيات والهيئات التى عاونها بجهوده ، وأمدها بتشجيعه ، ونفذ فيها إصلاحاته . يلاحظ فى هذه الطبقة من رواد مجالسه ومريديه أنهم جميعا أو العدد الوفير منهم قد درسوا فى الأزهر ثم

---

(٢٠٨) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص٤٤٤
(٢٠٩) المرجع نفسه ص٤٤٥
(٢١٠) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ٣ ص٣١

تجاوزوا فيما بعد ما اعتاد الأزهريون أن يعنوا به ، ويصرفوا جهودهم فيه ، وكان من هؤلاء ابراهيم اللقانى من رجال المحاماة والأدب المعدودين ، وابراهيم الهلباوى الذى أصبح فيما بعد نقيبا للمحامين ، وواحدا من الخطباء المعدودين ، ومنهم ابراهيم المويلحى . وكان حسن عاصم من أخلص المريدين الذين عاونوا الإمام(٢١١) .

ومن هؤلاء حفنى ناصف الذى يقول عن أثر دروس الإمام فى نفسه ونفس زملائه «كنا نجد فى أنفسنا من سماع خطبته أن الواحد منا جدير باصلاح مديرية أو إصلاح مملكة(٢١٢) » .

وغير هؤلاء كثيرون كأحمد فتحى زغلول ، وأحمد تيمور ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وحافظ ابراهيم « وفى الحق أن النهضة الأدبية الحديثة لم تبلغ غايتها إلا بعد الحرب العظمى ، ومع هذا فإن حركة الشيخ محمد عبده زادت من قوة العوامل التى كانت موجودة من قبل ، وكان لها خط قوى فى بعث روح النهضة فهى لم تمدها بالكتاب والعلماء القادرين فحسب بل إنها خلقت جوا صالحا يمكن أن ينشأ فيه عهد من الكتاب جديد . وأن الجهود التى بذلها الشيخ محمد عبده فى سبيل تحرير العقول فى مصر من أغلال التقليد ، وفى التوفيق بين دين الإسلام وثقافته وبين ما وصلت اليه المدنية الحديثة سهلت على الأدب العربى فى عصرنا الحاضر سبل التجديد دون أن تنقصم الروابط التى وصلت بين حاضره وماضيه فى الإسلام . وليس من شك فى أن الجيل الحديث من كتاب المسلمين يدينون بهذا الفضل للأستاذ الإمام »(٢١٣)

وهكذا شهدت أخريات عهد اسماعيل ، وعهد توفيق لونا جديدا من النثر ، وأدبا ينبض بالحياة وبالحرارة . أما موضوعاته فكانت واسعة الأفق ، وتناولت مشكلات الحياة ، وما يهم الشعوب ، وما يبعث على اليقظة والنهضة(٢١٤) وتراها ممثلة فى :

١ — الدفاع عن الشعوب المظلومة التى ظلت تئن تحت نير العبودية والعسف قرونا مديدة لا تعرف كيف تراجع الحاكم فى حكم أبرمه ولو كان ظالما ، ولا كيف تثور وتشكو وتئن وتتوجع ، وتسمع شكاتها للعالم ، والحاكم سادر فى غلوائه يمتص دماءها ويسخرها لأهوائه وشهواته . ولا يفكر فى نفعها إلا بمقدار ما يعود عليه هو من الفائدة . استمع للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يصوّر لك حال مصر قبل أن يشيع هذا الأدب الجديد والفكر الجرئ فى أرجائها .

إن اهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣هـ كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته .... الخ .

(٢١١) الإسلام والتجديد فى مصر ص٢٠٣

(٢١٢) الأستاذ الامام محمد عبده لعبد المنعم حماده ص٣٣٣

(١١٣) الإسلام والتجديد فى مصر ص٢١٠

(٢١٤) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جا ص٢٠٥

وكان الأدب صدى لهذه الحياة البيئية التى تقبر فيها الحريات ، وتغل العقول . يتغنى بما قام به هذا الحاكم الظالم من افعال وضيعة ، ويصوّر سيئاته حسنات وسخافاته آيات . وحماقاته معجزات ، ولكن الأدب الجديد أخذ ينظر إلى هذه الشعوب ، ويجعل خيرها غايته[٢١٥] ، فيهاجم من اعتدى عليها ، ويبيّن للناس سوء حالهم ، ومواضع بؤسهم وأدوائهم وطرق علاجها ، ويقف للحكام بالمرصاد يذيع سيئاتهم ومظالمهم ويهاجمهم فى غير هوادة أو رفق ، ويشجع أفراد الأمة على المطالبة بحقوقهم ، وألا يخشوا بأس الحاكم وجبروته لأنه مدين بقوته لهم ، وبغناه وضياعه لكدّهم وكدحهم[٢١٦] ، استمع كذلك إلى الأستاذ الإمام محمد عبده كيف يحرض الأمة على خلع نير العبودية ، والحد من سطوة الحاكم الغاشم ، وينعى عليه جهله :

إن الأمة التى ليس لها فى شئونها حل ولا غفد ولا تستشار فى مصالحها . ولا أثر لإرادتها فى منافعها العمومية ، وإنما هى خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ، ومشيئته نظام . يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد . فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير.... [٢١٧] الخ .

يمثل هذا الأدب أخذ الإمام ينادى الأمة المستكينة ويوقظها من سباتها العميق . ويندد بما عليه أبناؤها من جبن وخور فلا يغضبون لكرامة امتهنت ولا يثورون لعفاف ثلم.وشرف دنس . الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها . هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين . ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين . يسهل على النفوس احتمال الذلة . ويخفف عليها مضض المسكنة ويهوّن عليها حمل نير العبودية الثقيل .... الخ .[٢١٨]

٢ — الدعوة إلى الأخذ بنظام الشورى فى الحكم حتى تشعر الأمة أن مقدرتها بيدها . أو حتى تأمن جانب الحكام وعبثهم بكنوزها وأرزاقها بل مقامرتهم على استقلالها وحريتها حتى لا تدع للأجانب حجة يتكئون عليها فى إشرافهم على الحكومة وإدارتها . ولقد كانت هذه الروح قبسا من نار مشتعلة فى نفس جمال الدين ومحمد عبده وغيرهما .[٢١٩]

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده مبرهنا على أن الأمة المصرية بلغت حدا من النضج يؤهلها لأن تتولى أمورها بنفسها :

---

(٢١٥) المرجع نفسه ص٢٠٦

(٢١٦) المرجع نفسه ص٢٠٧

(٢١٧) تاريخ الأستاذ الإمام ج٢ ص٣٣١ .

(٢١٨) المرجع السابق ص٣٢٨ .

(٢١٩) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى ج١ ص٢١٠ .

مما تقدّم سرده تعلم أن أهالى بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأى العام ، وأخذوا يتنصلون من جرم الإهمال ، ويستيقظون من نومة الإغفال وقد مرّت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ، ثم تقشعت عنهم فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار حتى اشرأبت أعناقهم إلى بث أفكارهم فيما يصلح الشأن ويلم الشعث ويجمع المتفرق من الأمور ليكونوا أمة متمتعة بمزاياها الحقيقية فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم طريق الشورى والتعاضد فى الرأى .(٢٢٠)

٣ - محاربة الاستعمار وإثارة الحمية الوطنية فى نفوس الشعوب المستذلة التى غلبت على أمرها وقادها ملوكها وزعماؤها إلى الدمار والبوار بينما العدو يتربص بهم الدوائر ، فلما لاحت الفرصة انقض على الفريسة كالوحش الكاسر يوسعها نهشا وعضا حتى خرّت تحت قدميه دامية الجسد هامدة الفكر تنظر بعينين ملؤهما الرعب والذلة .

وقف هذا الأدب يصرخ فى هذه الأمة صرخات مدوية علها تفيق من سباتها وتنهض لمحاربة عدوها وتتنبه إلى الختل والغيلة ، والغدر والحيلة ، وشتى الوسائل الزائفة التى عمد لها الطامع الجشع من وعود مصيرها الخلف ، ومواثيق غايتها النقض وإيمان يتبعها الحنث ، كل ذلك حتى يمكن له فى البلاد فيمتص دماء أهلها ويسخرهم لطاعته عبيدا غير مأجورين ، وفعلة غير مشكورين .(٢٢١)

٤ - السعى فى إصلاح المفاسد الاجتماعية كالفقر والجهل ، والربا(٢٢٢) والمعتقدات الفاسدة ، وبعض الكتاب وعلى رأسهم الأستاذ الإمام كان لا يكتفى بتشخيص المرض بل كان يطب لعلاجه فيرسم الطريق إلى النهوض ، ويعوّل إلى حد كبير على ضرورة اختيار القائد الحازم الذى يقود الجماهير الى مراقى الفلاح .

ومن الأمثلة على ذلك مقالة بعنوان « القضاء والقدر » لمحمد عبده وقد نشرت فى العدد **٢٣٩٧** المؤرخ فى ١٤ ربيع الآخر من جريدة المؤيد هاجم فيها أولئك الذين يحسبون أن الإيمان بالقضاء والقدر من أسباب الانحطاط عند المسلمين والشرقيين لأن ذلك الإيمان فى نظر أولئك مدعاة إلى الكسل ، وقد بيّن الإمام أن هذا سوء فهم من معتقديه كما بيّن حكمة الإيمان بالقضاء والقدر فكان مما قال :

١ - عقيدة الإذعان حسبت من أسباب الانحطاط عند الشرقيين عموّما ، وعند المسلمين خصوصا لأنها نزعت بالأمم المعتقدة بها إلى الكسل انتظارًا لما يأتيهم من الغيب . وبسطت

---

(٢٢٠) تاريخ الأستاذ الإمام ج٢ ص٢١٧ - ٢١٨

(٢٢١) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى ج١ ص٢٢١ .

(٢٢٢) المرجع السابق ص٢١٣ .

أيدى أغنيائهم فى الإسراف إتكالا على ما يسوقه عالم الغيب . ولكن ذلك سوء فهم ، سببه سوء فهم أهل هذه العقيدة — (٢٢٣) الاعتقاد بالقدر مما يلهمك الصبر على ما نزل ويذلل لك إلى ما يستعمل — خلق الإنسان ومعه عدو يلازمه ... ذلك العدو الطبيعى هو الكسل وحب الراحة ، ومن عادة الأنفس أن تلتمس الوسائل وتمهد الأعذار لمساعدة هذا العدو الخداع ... فكان من حكمة الله تعالى أن يدعو الأنفس البشرية للإيمان بقضائه وقدره ... فإذا هاجم اليأس قلب امرىء من مطلوب يطلبه أو قامت العقبات دون مرغوب يرغبه قام الإيمان بالقضاء والقدر والاعتماد على معونة صاحب الحول والقوة يفتح له الأبواب المغلقة (٢٢٤)

ثم يهاجم محمد عبده أولئك المتناكرين الذين لا يعرفون ما به صلاحهم . ويدعو إلى أخذهم بالشدة ليستقيم أمرهم ، ويقوّم عوجهم ويتجهوا نحو الصلاح والفلاح فى زمن حدده بخمس عشرة سنة ، على أن يقود السفينة مستبد عادل . وقد نشر محمد عبده هذه الصيحة فى مقالة نشرت فى السنة الأولى من مجلة الجامعة العثمانية التى كانت تصدر بالإسكندرية تحت عنوان : انما ينهض بالشرق مستبد عادل ومما جاء فيها تعليقا على العنوان :

١ — مستبد يكره المتناكرين على التعارف .... يحمل النّاس على رأيه فى منافعهم بالرهبة إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذى يحكمه ...... فهو لهم أكثر مما هو لنفسه ...... يكفى لإبلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة .... يثنى فيها أعناق الكبار إلى ما هو خير لهم ولأعقابهم ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج ومنها البتر والكّى إذا اقتضت الحال وينشىء فيها نفوس الصغار على ما وجه العزيمة نحوه ويسدد نياتهم بالتثقيف .... خمس عشرة سنة تحشد له جمهورا عظيما من أعوان الإصلاح ...... حتى إذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف .... أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضمه ، والناقة من المرض هضمه . وأول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ثم بعد سنين تأتى مجالس الإدارة على لا تكون آلات تدار . بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية .

٢ — هل يعدم الشرق كله مستبدا من أهله عادلا فى قومه يتمكن به العدل أن يصنع فى خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرنا . (٢٢٥)

ولست أدرى كيف يجتمع الاستبداد والعدل وهما نقيضان وكيف يأخذ الإمام على محمد على وذريته نقيصة الاستبداد . ويرى أنها أماتت الشعب وقضت على روح العزة والأنفة فيه ثم

---

(٢٢٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٢ ص٣٩١

(٢٢٤) تاريخ الأستاذ الإمام ج٢ ص٣٩٢

(٢٢٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٢ ص٣٩٠ ، ٣٩١ .

يأتى هنا فيحاول تبرير الاستبداد إذا كانت فيه منفعة للأمة ، إن الغاية فى نظرنا لا تبرر الوسيلة ، والغاية الشريفة يجب أن تسلك لها وسيلة شريفة ، ولو كنت مكان الإمام لقلت « أنما ينهض بالشرق قوى عادل » بل لفضلت مقالة الإمام « الرجل الكبير فى الشرق » والتى نشرت فى العدد ٣٥٠٩ من المؤيد فى غرة شعبان سنة ١٣١٩هـ - ٢١ نوفمبر سنة ١٩٠١م ونسبت إلى أحد أفاضل الكتاب المجيدين . لتنكير الكاتب ومما جاء فيها :

١ - إن الكبار من الرجال هداة فى أممهم ، وأنما يظهر أثرهم فى ارشادها ، والسير بها فى الطريق المؤدية إلى الغاية التى تطلبها ، وليسوا بخالقين ولا ناشرين من موت . وأنما تنجح الهداية فيمن رمى بفكره إلى المطلب ، وعرف أنه أبعد عما هو فيه فتهيأ للسفر . وتحفز للرحلة ، وأخذ لأمره أهبته وأعدّ له عدّته ، واستقام على أول الطريق فإذا السبل متفرقة ، والأعلام كثيرة ، والصوى متعددة فيقف المسافر وقفة الحائر فيأتيه البصير بالمسالك فيدله على خيرها ، ويختار له أقربها ، وأبعدها عن المهالك ، فيقع فى نفسه صدقه لا لأنه قلده ، ووثق بخبرته ، ولكن لأنه رسم له الغاية التى يطلبها .(٢٢٦)

٢ - إن الملوك والرؤساء لهم فى الأمم ما للجهل فيها فكما أن للجهل فيها حكمًا لا معارض له فللسلطان عليها قول لا يرد فيمكن للحاكم أن يداويها بدائها والاستبداد الذى يستعمله ليسوقها إلى الشر يمكنه أن يستعمله فيها ليقودها به إلى الخير .

٣ - فما الذى يصنعه الرجل الكبير ؟ يسعى ويجد ، ويدأب ويكد ثم يموت محروما من ثمرة عمله .

٤ - ولكن هل ذلك كله يقضى على الكبير بأن يصغر وهل يحكم على العظيم فى نفسه بأن يحقر ، كلا فهو أنما يؤدى واجبا عليه ، وعلى الله ما وراء ذلك والمرجع اليه .(٢٢٧)

وإن كان يبدو فى هذه المقالة سخط الإمام على الملوك والرؤساء المستبدين ويرى أنهم لو غيّروا واجهتهم الإجرامية واتجهوا وجه الخير والإصلاح لسعدوا وأسعدوا الآخرين . وعلى كل حال فقد تحوّل الأدب فى العصر الحديث إلى ناحية الشعب ، فأخذ يمجد الحرية ، ويمجد الفرد ولو كان فى كوخ ، ويعنى بالموضوعات التى تمس الشعب ، وتجددت للشعوب آمال فى استقلالها ، وفى تحقيق العدل من حكامها فكان الأدب خير ما يصوّر ذلك .(٢٢٨)

والواقع أن الأدب العربى الحديث يضطرب بعوامل الثورة فيه منذ الثورة العرابية فى مصر . ومنذ بدأ هذا الشعور القومى يحرّك النفوس . ويدعوها إلى التوجه نحو النهوض بمجموع الأمة

---

(٢٢٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٢ ص٣٩٤ .

(٢٢٧) المرجع نفسه ص٣٩٦ .

(٢٢٨) فيض الخاطر لأحمد أمين ج٨ ص٢٢٥ .

إلى مثل أعلى من يومئذ بدأت الكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة حظيرة الدواوين ومن النطاق المحصور نطاق التعليم لتتصل بالنّاس على اختلاف طبقاتهم ، ولتصوّر لهم من نواحى الحياة ما يريد الكاتب تصويره .(٢٢٩)

وكما أدت الثورة العرابية إلى الاحتلال البريطانى لهذه البلاد احتلالا اتجه بالثورة السياسية الى ناحية جديدة ، كذلك اتجه هذا الاحتلال بثورة الأدب الى ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الأولى من الثورة ، صورة لغة الكلام ، ولغة الكتابة ، ولم يبق بعدها محل لبحث أو جدل ، ولم يبق ألبته قائل باتخاذ لهجات الكلام أساسا للأدب . وحلّ محل ذلك ما سمى القديم والجديد فى الأدب واللغة ، وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة ، وتنقل المحاربون فيها فى ميادين مختلفة .

كانت هذه الميادين قبل الحرب تتناول أساليب الكتابة ، وتتناول الألفاظ العلمية وغير العلمية الجديدة ، كما كانت تمس فى رفق صور الأدب ، وما يصح أن تكون عليه ، وإلى يومئذ كانت الغلبة لأنصار تقليد الأدب القديم ، وكان السجع والأغراب فى اختيار الألفاظ بعض ما يمتاز به كتاب العصر .(٢٣٠)

وكان طبيعيا أن تبدأ النهضة بنشر اللغة وإحياء آدابها القديمة وتعليم النّاس أصول التعبير بها(٢٣١) ليمكن بعد ذلك أن تنبعث حياتها قوية ، وأن يكون الأدب العربى بحيث يحيط بالحياة والوجود ، وما فيها من حق وجمال حتى تبعث الأقدار الأديب العربى الذى يؤدى لأهل كل عصر بلهجة العصر رسالة الأدب ، ويرجع الفضل فى هذه الخطوة الأولى لشيوخ الأزهر بمعونة من أرسلهم محمد على إلى أوربا للاتصال بموارد العلم فيها ، ولرجال مدرسة دار العلوم . على أن اللغة ما كادت تنبعث ، وما كاد الكاتبون بها يشعرون بالحاجة إلى انتشار فنون آدابها حتى رأوا إلى جانب الفنون القديمة فنونا فى الأدب جديدة أحدثها بعث الغرب فى القرون الثلاثة الأخيرة ، ولم تكن معروفة عند العرب ، ولا غير العرب من قبل ورأوا أن هذه الفنون الجديدة من الأدب تستند إلى فلسفة جديدة فى تصويرها أيضا ، وإلى علوم اتسعت دائرتها ، وعظم نطاقها ، وأن لابد اذن من الاتصال بالعلم والفلسفة فى آخر صورها ، ليكون الأدب العربى مؤديا إلى الغاية الصحيحة لأدب أية لغة من اللغات ، غاية تبليغ الإنسانية ما فى الحياة والوجود من حق وجمال بلهجة العصر الذى تعيش الإنسانية فيه .(٢٣٢) منذ أواخر القرن

(٢٢٩) ثورة الأدب لمحمد حسين هيكل ص٦ .
(٢٣٠) المرجع السابق ص٧ .
(٢٣١) المرجع السابق ص٣٠ .
(٢٣٢) المرجع السابق ص٣١ .

الماضى . وأوائل هذا القرن نشأ حوار بين كتابنا ، وفى مقدمتهم كبارهم . عن هذا العصر الذى نتخطاه منذ الثورة العرابية أهو عصر ترجمة أم عصر تأليف ؟ وهو حوار من نوع الحوار الذى نشأ بين القديم والجديد . يرجع إلى مثل أصله . ويقوم على مثل أساسه وأصل هذا الحوار وأساسه فى الحالين نضال ما بين الحضارتين : الحضارة الحاكمة اليوم . والحضارة الاسلامية التى حكمت العالم زمنا ثم جاء دورها فى الاستجمام انتظارا للبعث ، فأنصار الجديد لا يرون مفرا من أن تغزو حضارة الغرب أمم الشرق ، فهم يريدون أن يهيئوها لهذا الغزو حتى تستقبله مستعدة لتمثل آثاره متهيئة للوقوف أمامه فى شىء من الكرامة وأنصار القديم يخشون عليها كل جديد أن يفسدها وأن يقضى عليها . لذلك يريد أنصار القديم هؤلاء أن يظل العلم . وأن يظل الأدب والتفكير كما كانت جميعا فى العصور الماضية .(٢٣٣)

أنصار الحديث يريدون أن يكون التفكير حرا والعلم حرا والرأى حرا والتعبير عنه حرا . وأن تمتد الحرية فى هذه الناحية إلى أقصى الحدود .(٢٣٤)

والذى لاشك فيه أن الإمام محمد عبده كان من روّاد هذا الاتجاه إن لم نقل بأنه كان رائده الأول بيد أنه لم يهمل ذخائر التراث ، ونقّب عنها فى مكانها وعمل جهده على إحيائها ، فلم يكن مع الجديد لجدته وحسب . ولا مع القديم لقدمه ليس غير ، ولكن مع الأصوب والأنفع والأقوم . كان مرآة لعصره ، وكان محركا لهذا العصر فى نفس الوقت . وأيما كان الأمر فقد كان للنثر مظهران : مظهر المحافظة ومظهر التجديد .

أمّا المحافظة فتتجلى فى مقالات الأستاذ الإمام الأولى فى الأهرام ، وفى « صهاريج اللؤلؤ » للبكرى و« حديث عيسى بن هشام » للمويلحى . ولكن الواقع أن الصحف اليومية والدوريات بصورة عامة كانت تضطر الكاتب إلى ضروب من التعبير عن حاجات العصر وأحداثه ، وتضطره أيضا إلى نبذ الزخارف اللفظية التى تعنى بالتأنق والاحتفال ، لأن الصحافة يومية أو أسبوعية فليس هناك وقت لمثل هذا التأنق وذلك الاحتفال ، ومن أجل هذا غلب أسلوب المجددين الذين نبذوا السجع والزخرف على كتاب المقالات الصحفية العربية مثل قاسم أمين . وأديب اسحاق ، ومصطفى كامل وغيرهم ممن زاولوا العمل الصحفى . وبدأ السجع يتراجع فى هذه الفترة تحت وطأة الهجوم المستمر لكتاب العصر . وكان أكثر مهاجمى السجع من كتاب الصحف الذين اضطروا بحكم عملهم إلى التخلص منه ، وبخاصة إذا كانت المقالة تتعلق بالأخبار والأحداث(٢٣٥) . وتغيرت طريقة الكتابة طوعا لتغير طريقة التفكير من تقصير

---

(٢٣٣) مرجع سبق ص١٤٤ .

(٢٣٤) المرجع نفسه ص١٤٥ .

(٢٣٥) محمد توفيق البكرى للدكتور ماهر حسن فهمى ص١٣٥ - ١٣٦

الجمل ، وفصل العبارات ، وحبس كل واحدة منها على أداء معنى واحد ، واعتماد لون طريف فى ترتيب الكلام وتبويبه ، وسوق المقال فى الغالب لأداء فكرة واحدة ، واستحداث صيغ جديدة لأداء معان جديدة(٢٣٦) . وان كان ذلك لم يتم طفرة فقد كان طبيعيا أن يكون فى الأدب مخضرمون كما فى الحياة الواقعية مخضرمون عاشوا فى القديم والجديد معا وتربوا فى المدرسة القديمة ناشئين ، ورأوا المدرسة الجديدة كهولا أو شيوخا فكان أدبهم نتاج الحياتين(٢٣٧) كما كان الشأن عند الإمام . وكان بعض كتاب العصر يرجعون باللغة إلى ما قبل العصر العباسى ، أو إلى عصور الصحة والسلامة والبراءة من فساد العجمة(٢٣٨) .

وليس من شك فى أن الأزهر كان له دوره الكبير فى الحركة الأدبية خلال القرن التاسع عشر وفى أوائل القرن العشرين ، وإن حاول فريق من الكاتبين أن يبخس الأزهر حقه هذا . وليس من شك أيضا فى أن هذه الحركة كانت أقل مما نرى فى الأزهر اليوم ، ولكنها كانت موجودة ، ألم يكن يدرس فى الأزهر تفسير القرآن والحديث ؟ هذا فضلا عن بعض كتب الأدب البحتة ، الأمر الذى لايبرر أن يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : لا نعرف كتب الأدب التى كان يدرسها علماء الأزهر فى تلك الأيام ، ونظن هؤلاء كانوا يتدارسون نحو مقامات الحريرى التى قرأها الشيخ الطنطاوى حوالى سنة ١٢٢٧هـ لأول مرة وظلت كتاب الأدب المقروء عند الأزهريين إلى زمن أدركناه(٢٣٩) .

وأخشى أن يكون هذا التفكير مؤامرة قصد بها إثبات عقم الأزهر فى هذا الميدان ، فالنهضة الأدبية التى أتت أكلها فى القرن العشرين كانت وليدة الحركة الأدبية فى القرن التاسع عشر ولايمكن أن تفاجأنا النهضة بين يوم وليلة ، لابد أن تخضع لعوامل النمو والتطّور ، والدكتور طه حسين يرى أن مؤرخ الآداب المصرية مضطر إلى الاعتراف بهذه الحقيقة ، فلماذا هذا الاضطرار ؟ لماذا لايقرر الواقع كما هو المفروض فيمن يؤرخ ؟ ولا يضطر إلى ذلك اضطرارا . يقول الدكتور طه :

« وليس من شك فى أن من يؤرخ الآداب المصرية فى هذا العصر مضطر إلى أن يرد هذا الإنتاج إلى مصدرين عظيمين : أحدهما الأزهر نفسه والآخر التعليم المدنى الحديث(٢٤٠) . فأمّا الأزهر فقد كوّن جماعة من المفكرين والكتاب تكوينا أزهريا خالصا ثم أتيح لهذه الجماعة أن تتصل بالحياة العاملة . وأن تتثقف بالثقافة المدنية فنبغت نبوغا ظاهرا ، وتركت فى حياة مصر

(٢٣٦) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ ص٢١٦

(٢٣٧) فيض الخاطر لأحمد أمين جـ٨ ص٢٥٥

(٢٣٨) محمد توفيق البكرى للدكتور ماهر حسن فهمى ص١٣٥

(٢٣٩) محمد عبده لمصطفى عبد الرازق ص٤٩

(٢٤٠) مستقبل الثقافة فى مصر جـ٢ للدكتور طه حسين ص٣٧٥

آثارا باقية . وحسبك بما تركه محمد عبده[٢٤١] . حقا إننا نقر الدكتور على ما ذهب إليه من أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لقى كثيرا من الجهد ، واحتمل كثيرا من المشقة وأوذى فى نفسه ودينه لأنه أدخل العلوم الحديثة فى الأزهر . وكان الأدب العربى من هذه العلوم الحديثة فى ذلك الوقت[٢٤٢] . ولكن هذا شأن الإصلاح والمصلحين ، وقد لقى محمد عبده كثيرا من الجهد ، واحتمل كثيرا من المشقة وأوذى فى نفسه ودينه لأنه انضم إلى العرابيين ، وعارض الخديوى .

فالطريق التى يسير فيها المصلحون وعرة وشائكة سواء ساروا نحو الأزهر أو تجوّلوا فى جنبات المجتمع ، وإذا عورض إصلاح محمد عبده من بعض الأزهريين فمن الخطأ البيّن أن نسحب حكما عاما على الأزهريين ونتهمهم بعدم المرونة وبالتأبى على الإصلاح ونستخف بهم جميعا لأن بعضهم عارض محمد عبده حين حاول إدخال الأدب العربى ضمن مواد الدراسة فى الأزهر .

وعلى كل حال فمحمد عبده شيخ أزهرى حرص كل الحرص على خير الأزهر والأزهريين ، ولقد كان الأستاذ أحمد حسن الزيات أكثر انصافا من غيره حين قال :

كانت علوم الأدب فيما مضى تدرس فى الأزهر دراسة عميقة تمكن الطالب المجتهد المستعد من فهم ما يقرأ ، وفقه ما يعلم ، وتعليل ما ينقد ، وتحليل ما يذوق فإذا اتصل النظر بالعمل ، واقترن الحكم بالتطبيق وصادف ذلك استعدادا فى المتعلم نبغ الكاتب الذى يكتب عن علم ، والشاعر الذى ينظم عن فن ، والناقد الذى يحكم عن تصوّر ، أمّا إذا قوى الاجتهاد ، وضعف الاستعداد ظهر الأديب العالم الذى يهىء الوسائل ، ويقرب الموارد ، ويوجه المواهب ، ويسدد الخطى ، ومن هاتين الفئتين تستمد الحركة الأدبية عناصرها الحيوية فتقوى لتزدهر ، وتنمو لتنتشر ، وتسمو لتخلد . وكان من خريجى هذا المنهج القديم فى التعليم أولئك الأدباء الأصلاء الذين حفظوا تراث اللغة وجددوا شباب الأدب ، وأسسوا هذه النهضة الأدبية الحديثة[٢٤٣] .

ألا تذكر الإمام محمد عبده ؟ لقد كان مشهورا بالبلاغة والفصاحة وحسن الإنشاء والترسل ، وصحة الإدراك ، وسلامة الذوق وله من قلمه فى ذلك أدلة كثيرة ، وشواهد عديدة حتى إنه لو لم يكن يشغل منصب الإفتاء لكان يشغل أسمى مركز بين أولى الآداب وحملة الأقلام[٢٤٤] .

---

(٢٤١) المرجع نفسه ص٣٧٦

(٢٤٢) المرجع نفسه ص٣٣١

(٢٤٣) وحى الرسالة لأحمد حسن الزيات المجلد الثالث ص٢٠٧ مطبعة الرسالة ١٩٥٠

(٢٤٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٣ ص١٥ نقلا عن جريدة البصير فى عددها ٢٣٧٣ فى ١٩٠٥/٧/٢٣ .

وكان حلو الحديث جهورى الصوت حاده فى الخطبة إذا تكلمّ فى الجمع رقى فى معناه ورق فى مبناه وأطرب برنته ، وأثر بنفاذ نظراته الساطعة . وكان كاتبا إذا استل القلم فى غارة شعواء كغارته فى الدفاع عن الإسلام ومقاتلته المتهجمين عليه لم يبق نادرة من قضايا الكلام ولم يذر شاردة من مستحدثات الجدل إلا استثارها من مكمنها وأرسلها على خصمه حججا دامغة وبراهين قاطعة [٢٤٥] .

فاذا نحن قسنا النثر فى عهد الشيخ حسن العطار بالنثر فى عهد الشيخ رفاعة بالنثر فى عهد عبد الله فكرى ، بالنثر فى عهد الإمام رأينا أنه يقفز قفزًا سواء من ناحية أسلوبه أو موضوعه . وكان أهم تقدم للنثر تحرره من طريقة ابن العميد والقاضى الفاضل وتكلف السجع ، وتحرى فنون البديع ففك عنه هذه الأغلال وجرى فى سلاسة وطلاقة [٢٤٦] .

وإذا نحن قلنا إن الإمام حوّل الكتابة من كتابة مسجوعة سخيفة إلى كتابة مرسلة جميلة ، ومن كتابة فارغة المعانى إلى كتابة يعنى فيها بالمعانى لم نبعد [٢٤٧] ، هذا علاوة على أنه أسهم إسهاما كبيرا فى خلق جو فكرى متقدّم كان له تأثيره القوى الغلاب فى نمو الوعى ، والاستعداد لاستقبال آراء الآخرين الإصلاحية ، مما دفع عجلة التطوّر خطوات إلى الإمام ، وخلق قيادات فكرية واصلت العمل الذى بدأه الإمام .

فقد كان الجو الفكرى فى مصر أواخر القرن التاسع عشر قد أصبح ملائما لاستقبال الأفكار الجديدة وانمائها ، وذلك بتأثير الكتابات والخطب التى كان يذيعها المصلح الحر الشيخ محمد عبده [٢٤٨] .

وإن المتأمل المنصف لابد أن يلاحظ أننا حين نستقصى الحركة الفكرية منذ أيام قاسم أمين وسعد زغلول الى المفكرين المعاصرين من مثل احمد لطفى السيد وفريد وجدى ومصطفى عبد الرازق وعبّاس العقاد وطه حسين وأحمد أمين وعلى عبد الرازق وحسين هيكل ، نجد أنهم جميعا على اختلاف نزعاتهم وتباين اتجاهاتهم لايخلوق من أن يكونوا متأثرين بآراء الأستاذ الإمام من قريب أو من بعيد [٢٤٩] .

هذا عن الحركة الفكرية والأدبية فى عهد الإمام . أمّا الحركة النقدية فلم تكن بأقل من هاتين الحركتين بل كانت امتدادا طبيعيا للتطوّر الفكرى والأدبى فلا وجود للنقد إلا بوجود الأدب ، مع ملاحظة أن التيارات الفكرية تتفاعل مع بعضها ولاسيما التأثير المتبادل بين الأدب

---

(٢٤٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٣ ص٢٢ ، ٢٣ نقلا عن جريدة الجوائب المصرية فى ١٩٠٥/٧/١٢

(٢٤٦) فيض الخاطر لأحمد أمين جـ٨ ص٢٥٨

(٢٤٧) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين ص٣٣٣ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨

(٢٤٨) جمال الدين الافغانى لمحمود أبوريه ص٥٠

(٢٤٩) رائد الفكر المصرى للدكتور عثمان أمين ص١١ ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ .

والنقد وقد شاعت فى هذه الفترة كلمة الإصلاح فهناك الإصلاح السياسى ، والإصلاح الاجتماعى وإصلاح الأزهر ، والاصلاح اللغوى والأدبى ، وليس هذا الأخير غير النقد الأدبى فالنقد الأدبى فى أيسر تعريفاته انما يعنى دراسة النص الأدبى ، والحكم له أو عليه ، وبيان ما كان ، وما هو كائن ، وما ينبغى أن يكون . وهذا هو الذى حدث فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولعلك لاحظت شيئا من ذلك فيما مضى ، فالرجل المصلح يلزمه طلاقة اللسان وبلاغة الكتابة . وكان المجتمع المصرى يفتقر الى الكثير من هذا . فلما جاء السيد جمال الدين والتف حوله من التلاميذ من عرف مقداره ، وكان الإمام واسطتهم عنى السيد بتكميل نقص البلاغة فى تلامذته فحملهم على التحرير على طريقة سنها لهم من حسن الأسلوب فبرع كثير ممن كان يختلف اليه ، وصاحب الترجمة غرتهم فكانت هاته الحركة العلمية فاتحة إصلاح اللغة العربية ، وكانت صحبة السيد جمال الدين قد أفادت الأستاذ الإمام حرية فى الفكر واستقلالا فى الإرادة وبصيرة بأمراض المسلمين ، وغيرة دافعة إلى السعى فى علاجها بقدر الطاقة وجراءة فى القول والعمل وأعانه على تحقيق هاته المبادىء سلامة فطرته وتكافؤ قواه العاملة من الفكر والإرادة والقول والفعل وكان ابتداء عمله فى الاصلاح أن عيّن فى سنة ١٢٩٧هـ رئيس المحررين للجريدة الرسمية المصرية « الوقائع المصرية » على نحو ما مر بنا فاختار لها محررين من خواصه الذين ظهرت آثار أقلامهم فى تلك النشأة الجديدة كالشيخ عبد الكريم سلمان وسعد زغلول ، والسيد محمد وفا ثم وضع قانونا لقلم المطبوعات أعطى به ذلك القلم حق المراقبة على جميع مصالح الحكومة ووجه همه إلى اصلاح أساليب التحرير فى جميع دوائر الحكومة ، وقد عنى أيضا باصلاح الأساليب العربية فى الجرائد التى كانت تنشر فى القطر المصرى لذلك العهد فلم يكن يسمح للجرائد أن تنشر شيئا بعبارات سخيفة (٢٥٠) فاتجه إصلاح الإمام إلى البلد الذى يسكنه ، والكتاب الذى يقرؤه ، والحكومة التى تحكمه ، والدين الذى يعتقده ، والاقتصاد الذى يحيط به ، والسياسة التى تسوسه .

وقد بدأ الإمام فى ميدان الإصلاح اللغوى والأدبى باصلاح أسلوبه هو أولا ، أخذ يكتب فى جريدة الأهرام ، بأسلوب متأثر بالكتب القديمة ، وخاصة بما ألف فى الفلسفة الإسلامية ، وبما هو شائع فى ذلك العصر من السجع والازدواج ، وبمقدمات طويلة قبل الدخول فى الموضوع ، ثم أخذ يقوى أسلوبه ويصح ويزداد حركة وقوة من روح أستاذه جمال الدين ، كما يتجلى فى مقالات العروة الوثقى ثم مرن قلمه وتدفق من طول ما كتب وعالج ، حتى بلغ غايته فى مقالاته فى الرد على هانوتو حيث تجمل بجمال البساطة ، وتدفق المعانى فى سلاسة

(٢٥٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٣ ص١٢٧ نقلا عن جريدة الصواب التى يصدرها فى تونس سيدى محمد الجعايبر عدد ٦١ الصادر فى ٢٥ جمادى الاولى .

وقوة[٢٥١] . وله فى شرح الإسلام الحقيقى مقالات اجتمعت البلاغة والفصاحة والحكمة والسداد على تحريرها ، وأخصها « رسالة التوحيد » إنها مثلت الإسلام تمثيلا لاعجب إذا أنكره المسلمون المقلدون أو ظنوا أنه تعليم جديد وما هو من الإسلام الشائع فى شىء .

وكان صاحب الترجمة حاد البصر حتى لنرى الحياة منبعثة من رسم عينيه .

وكان على وفرة من جميع استعدادات الخطيب[٢٥٢] . ثم إن حالة المخاطب كانت تؤثر فيه جيدا فهو لايلقى الكلام إلا لمن ينصت اليه بعكس أستاذه جمال الدين الذى كان يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها .

يقول الإمام :

إن بعض النّاس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرون على الكلام بأى موضوع أمام أى إنسان ، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا ، وهذه الخاصية كانت موجودة عند السيد جمال الدين ، يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها ، وأنا كنت أحسده على هذا لأننى تؤثر فىّ حالة المجالس والوقت فلا تتوجه نفسى للكلام إلا إذا رأيت له محلا ، وهكذا الكتابة فإننى ربما أتصوّر أن أكتب فى موضوع وعندما أوجه قواى لجمع ما يحسن كتابته تتوارد على فكرى معان كثيرة ، ووجوه للكلام جمة ، ثم يأتينى الخاطر : لمن ألقى هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ فأتوقف عن الكتابة . وأرى تلك المعانى التى اجتمعت عندى قد امتص بعضها بعضا حتى تلاشت ، ولا أكتب شيئا .

إن حالة المخاطب تؤثر بى جيّدا[٢٥٣] . فالإمام لاتتوجه نفسه للكلام إلا إذا رأى له محلا ، وهو حين يريد الكتابة فى موضوع يوجه قواه لجمع ما يحسن كتابته وتتوارد على فكره معان كثيرة ، ووجوه للكلام جمة ، ولكنه يتساءل : لمن ألقى هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ وتلك مبادىء قيمة فى النقد الأدبى أخذ الإمام بها نفسه ، فالغاية من الأدب عنده المنفعة فاذا انتفت هذه الغاية فلا أدب ولا أديب .

وكان من أنجح الوسائل التى اتخذها الإمام لإنهاض اللغة العربية من عثارها ، وإمدادها بالعدة اللازمة لها فى مسايرة العصر الحديث الكتابة والتحرير فى الصحف العامة ، الأمر الذى يمكن أن يعتبر تاريخا لهذه الصحافة من الوجهة اللغوية والأدبية فقلم الإمام كان من الأقلام التى

---

(٢٥١) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين ص٣٣٣ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .

(٢٥٢) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٣ ص١٣٨ نقلا عن جريدة المناظر التى يصدرها فى سان باولو عاصمة البرازيل لقوم لبكى فى العدد ٥٤٧ من السنة السابقة المؤرخ فى ٩ أيلول ١٩٠٥ .

(٢٥٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٧٦٧

راضت اللغة العربية فى مصر رياضة حسنة قيمة عادت بالخير على هذه اللغة وذلك الأدب من جهة وعلى العقل المصرى من جهة ثانية (٢٥٤) .

لقد نظر إلى أساليب الكتاب فحاول إصلاحها ما استطاع فكان يقدّم نماذج للكتابة بما يكتبه هو وأصحابه .

ولما كان فى بيروت كان يعلم فى المدرسة السلطانية الإنشاء . ونشر « مقامات بديع الزمان الهمزانى » بعد أن ضبطها وشرحها ، و« نهج البلاغة » بعد أن ضبطه وشرحه . يرمى بذلك إلى تغذية الناشئين بأدبهما واتخاذهما نموذجا من نماذج الأساليب الجديدة

ولما عاد إلى مصر كان من دروسه درس فى البلاغة لا على نمط البلاغة التى أفسدتها الفلسفة . بل على النمط الذى يربى الذوق ، ويرقى الأسلوب فقرأ كتابَى « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجانى ، وكان هو السبب فى نشرهما ، فقدّم بهما معنى للبلاغة لم يكن مفهومًا للنّاس من قبل (٢٥٥) .

ثم من الطرق التى سلكها فى الإصلاح اللغوى والأدبى أنه عهد إلى الأستاذ المرصفى بتدريس كتاب الكامل للمبرد وكتاب « ديوان الحماسة » لطلبة الأزهر ، ولم يكن ذلك معروفا من قبل .

ومن ذلك نرى أن محمد عبده قد حوّل النقد الأدبى إلى حركة اجتماعية تربوية عملية ، ولم يجعله مجرد نظرية أو فكرة كما لم يجعله قاصرا على فرد بل وجهه إلى خير المجموع ، وإصلاح أسلوب الأمة .

تدريسه :

جاهد جهادا كبيرا على ترك قراءة الحواشى ، وكان يكره قراءة الشروح أيضا ، ولم يقرأ فى عهد الإصلاح الأخير فى الأزهر غير المتون ، وأمّا ما وضعه من التعليقات على كتاب البصائر النصيرية فى المنطق فلم يكن يلتزم قراءتها فى دروسه ، وإنما وضعها لتسهيل مطالعة الكتاب على طلبة الأزهر لدقة عبارته على كونه لم ير متنا متوسطا خيرا منه .

كان يقرأ عبارة متن رسالة التوحيد والبصائر وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ويبين معناها بعبارة مختصرة مفيدة قلما يحتاج سامعها إلى سؤال ، فان استشكل مستشكل ، وسأل سائل أجيب بما يقنعه بالاختصار ، فى قول فاصل ليس فيه شك ولا احتمال ثم يضع الكتاب أو الكراس أمامه ، ويبسط الموضوع بسطا علميا تاما وافيا بتحقيق المسألة والإحاطة بالفرض منها بعبارات مختلفة . وهذه الطريقة عكس ما كان يجرى عليه السيد جمال الدين الأفغانى فإنه كان

(٢٥٤) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة جـ٢ ص٧٣

(٢٥٥) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين ص٣٣٣ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .

يبسط المسألة العلمية بما يجليها للسامع من جميع نواحيها ثم يقرأ عبارة الكتاب فيها فيفهمها السامع من أول وهلة (٢٥٦) .

ولمّا شرع فى قراءة أسرار البلاغة فى الرواق العباسى بالأزهر بيّن فى الدرس الأول معنى علم البيان والبلاغة . قال الشيخ محمد المهدى : إننا قد اكتشفنا فى هذه الليلة معنى علم البيان . فاعترف بأن ما حضره من هذا العلم فى مدرسة دار العلوم لم يفده معرفة حقيقة هذا العلم والمراد منه ، وقد كان هو يدرس البيان فى المدرسة الخديوية ثم صار مدرسًا فى دار العلوم ثم فى الجامعة المصرية درس فيها آداب اللغة العربية ثم فى مدرسة القضاء الشرعى . وقد انتقل بحضور درس كتابى أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز على الأستاذ الإمام من طور إلى طور فى البيان والمعانى وآداب اللغة ، وممن تخرج عليه فى الكتابين فكان كاتبا مجيدا السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والمشايخ عبد الرحمن البرقوقى ومصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق وكل منهم كاتب بليغ .

بل كان تدريسه للكتابين فى الأزهر بدء عهد جديد فى البلاغة سرى تأثيره من تلاميذه الى غيرهم وصار فيه عدد كثير من حسنى الإنشاء مثل طه البشرى وعبد العزيز البشرى ، ولكن كان أكثر النّاس استفادة من دروسه فى البلاغة من غير الأزهريين أحمد تيمور ، والمتخرجون فى دار العلوم وقد كان يحضر جميع دروسه كثير من أساتذة المدارس العالية والقضاة ورؤساء الدواوين (٢٥٧) .

ولقد قلنا سابقا إنه فى أواخر سنة **١٢٩٥** عين مدرسًا للتاريخ بدار العلوم ، وبدأ دروسه فيها بقراءة (مقدمة ابن خلدون) ذلك لأنه رآها الوسيلة الوحيدة التى تمكنه من بيان أسباب نهوض الأمم وسقوطها من غير أن يعرض نفسه لغضب رجال الحكم فى ذلك الوقت الذى تلبدت فيه السماء بالغيوم ، وانتشرت فيه العيون والأرصاد (٢٥٨) .

يقول الدكتور تشارلز آدمس « كان الأستاذ الشاب يبسط آراء المؤرخ العظيم فى أسباب نهوض الأمم وسقوطها ، وأصول الحضارة والعمران البشرى والاجتماعى والإنسانى ثم يعقب عليها بآرائه الخاصة فى الشئون السياسية والاجتماعية ، تلك الآراء التى كان يستقيها من المصنفات الحديثة ثم يطبق هذا كله بطريقة عملية على شئون أمته (٢٥٩) .

---

(٢٥٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٧٥٦
(٢٥٧) المرجع نفسه ص٧٥٧
(٢٥٨) الأستاذ الإمام محمد عبده لعبد المنعم حماده ص٦١
(٢٥٩) الإسلام والتجديد فى مصر ص٤٣ تعريب الأستاذ عبّاس محمود

فسلك فى تدريس التاريخ مسلكا لم يكن معهودا فى مصر إذ مزجه بعلم الاجتماع والعمران ويومئذ ابتدأت حياته الاصلاحية[٢٦٠] .

رأيه فى اللغة العربية واللغات الأوربية ، والكتب فى كل منهما :

كانَ يرى أن اللغة العربية فى حاجة إلى اصلاح آخر فوق إصلاح التعليم لفنونها وآدابها ، واتقان الكتابة والخطابة فيها ، وهو ما فعله الفرنسيس وغيرهم من شعوب العلم فى أوربا من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية ، وتاريخ تطّور اللغة ، وما دخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره ، والمعاجم العلمية وفلسفة البيان والانتقاد ، وغير ذلك ، وقد قال : إن هذا النوع من الإصلاح لايرجى لنا بلوغ شأو الفرنسيس فيه الا باشتغال جدى مدة خمسين سنة .

وأمّا كتبنا العربية فقد كان كثير الشكوى والتبرم من سوء أسلوبها ، وضعف لغتها ، وكان يفضل كتب المتقدمين على كتب المتأخرين[٢٦١] . وكان يقول : يمكننا أن نعرف كثيرا من شئون الإسلام وتاريخه من الكتب الإفرنجية فإن فيها ما لا نجده فى كتبنا .

وقال أيضا : إن العالم المسلم لايمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر إلا إذا كان متقنا للغة من لغات العلم الأوربية تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها فى الإسلام وأهله من مدح وذم وغير ذلك من العلوم[٢٦٢] .

الدرس العالى الخاص :

١ — اقترح رشيد رضا على الأستاذ الإمام أن يعقد مجلسا فى كل أسبوع أو أكثر لإلقاء بعض الحقائق الحكمية العالية ، وتمحيص بعض المسائل الخفية أو المشكلة ، وبيان ما بين الدين وعلم الاجتماع والفلسفة العقلية من الصلة ، وما أشبه هذا .

قال : ومن يحضر هذه المجالس ؟ قال رشيد رضا ، بعض إخواننا المفكرين من أذكياء متخرجى دار العلوم أساتذة المدارس الأميرية .

وتمّ الاتفاق على أن يكون هذا الدرس فى دار أحمد تيمور التى كانت فى « درب سعادة » لأنها فى وسط القاهرة ، وصاحبها من أشد النّاس رغبة فى هذه المباحث ، وكان من المواظبين على جميع دروس الأستاذ الإمام فى الأزهر ، وكان هذا فى أول الأمر ، ثم انتقل المجلس إلى دار الأستاذ الإمام فى عين شمس ، وأشترى احمد تيمور دارا بجوار داره لأجل التمكن من اقتباس أنواره فسكن فيها .[٢٦٣]

---

(٢٦٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٣ ص١٢٥ نقلا عن جريدة الصواب التى يصدرها فى تونس سيدى محمد الجعايبى عدد ٦١ الصادر فى ٢٥ من جمادى الأولى ١٣٢٣هـ .

(٢٦١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٩٢٦

(٢٦٢) المرجع نفسه ص٩٢٧

(٢٦٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٧٧٤ .

وكان من تلاميذ هذا المجلس : حافظ إبراهيم ومحمد كرد على واسماعيل صبرى ، وأحمد فتحى زغلول ورفيق العظم .

وكان الدرس الأول طبيعة الدين وكونه غريزة فى الإنسان .(٢٦٤)

وتكلمّ فى درس آخر عن حقيقة التصوّف وتاريخه وأطواره ومن أحسن ما قاله فيه : كان غرض صوفية المسلمين تربية المريدين بالعلم والعمل الذى غايته أن يكون الدين وجدانا فى أنفسهم تصدر عنه الأعمال الصالحة ، ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة ، وكان أكثر الدروس الأخرى فى المسائل الاجتماعية ، وفلسفة الأخلاق وحكم التشريع ، ودحض ما يرد على الإسلام من اعتراض أو شبهة .(٢٦٥)

كان يحاضر النّاس فى داره فيما يهمهم من شئون الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الدينية ، وكانت داره مقصد طلاب العلم على اختلاف أوطانهم ولم يكن محمد عبده يمل هذه الزيارات ، ولكنه كان يحاول الاكثار منها لأنه كان يرى فيها وسيلة من وسائل الإصلاح والتهذيب اللذين ينشدهما ويسعى اليهما بكل ما يستطيع من جهد ، وقد قرأ لتلاميذه من روّاد هذه الدار دروسا فى الأخلاق والسياسة فقرأ فى ذلك كتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه الرازى ، ثم بدأ فى قراءة النسخة المترجمة لكتاب « التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوربية » للمؤرخ الفرنسى « جيزو »(٢٦٦)

درس التفسير :

بدأ بالدرس فى غرة المحرم سنة ١٣١٧هـ وانتهى منه فى منتصف المحرم ١٣٢٣هـ عند تفسير قوله تعالى : « وكان الله بكل شىء محيطا » من الآية ١٢٥ من سورة النساء فقرأ زهاء خمسة أجزاء فى ست سنين إذ توفى لثمان خلسون من جمادى الأولى منها .

كانت طريقته فى قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه فى كتابة التفسير ، وهو أن يتوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغة ، وفى الروايات التى لا تدل عليها ، ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكأ فى ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذى هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرها أو ينتقد ما يراه منتقدا ثم يتكلمّ فى الآية أو الآيات المنزلة فى معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة . هذا وإن درس التفسير فى الأزهر كان أحفل الدروس وأنفعها فى الدين والاجتماع والسياسة والأدب والبلاغة .(٢٦٧)

(٢٦٤) المرجع نفسه ص٧٧٥ .

(٢٦٥) المرجع نفسه ص٧٧٦ .

(٢٦٦) الأستاذ الإمام محمد عبده لعبد المنعم حماده ص٦٣ .

(٢٦٧) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٧٦٩ .

وكان للأستاذ فكاهات فى الدرس يقصد بها ترويح النفس فى إثر بعض الزواجر الصادعة كقوله لبعضهم مرّة وقد قال له : إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل - يعنى محشى الجلالين - قال الأستاذ إننى أقرر ما يدل عليه النظم الكريم والأسلوب البليغ ، ولا يعنينى أوافق الجمل أو الحمار عليه أم خالفا .(٢٦٨)

وذات يوم قال له أحد الحاضرين إن فلانا حفظ كتاب البخارى فابتسم - رحمه الله - وقال :

« لقد زادت نسخة فى البلد »

وبينما كان جالسا فى درسه يفسر القرآن ، وكان النّاس يتحدثون فى ذلك الحين عن دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة إذ دخلت الرواق الذى يلقى فيه الأستاذ الدرس فتاة صغيرة لا تقل سنها عن اثنتى عشرة سنة فتخطت رقاب بعض الحاضرين ، ووصلت إلى والدها فأسرت اليه بكلمة فى أذنه وخرجت فالتفت النّاس اليها استغرابًا لجرأتها ، وسكت الأستاذ الإمام هنيهة ثم قال باللغة العامية : « يظهر أن دى المرأة الجديدة اللى بيقولوا عنها فى الصحف والمجالس » فضحك الحاضرون لهذا الالتفات .(٢٦٩)

كان يرى أن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من وجه فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها ما لم يتقنها بعض ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات .(٢٧٠)

ثم يقول الإمام :

كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر وبعض طلبة المدارس الأميرية ، وكنت أذكر كثيرا من الفوائد التى تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم ، مع أنها كانت من حقها أن تكتب وما علمت أحدا كتب منها شيئا خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق وكانا يراجعانى فى بعض ما يكتبان وأما المسلمون فلا .

قرأت تفسير سورة العصر فى سبعة أيام وكل درس لا يقل عن ساعتين أو ساعة ونصف ، بينت فيها وجه كون نوع الإنسان فى خسر إلا من استثنى الله تعالى ، وما المراد بالتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، مما لو جمع لكان رسالة حسنة فى تفسير السورة ، وما علمت أحدا كتب من ذلك شيئا .

يقول رشيد رضا : قرأه بعد ذلك فى الجزائر ثم كتبه باقتراحنا ونشرناه .(٢٧١)

---

(٢٦٨) المرجع السابق ص٧٧٠

(٢٦٩) تقديم « دروس القرآن الكريم » لطاهر الطناحى ص٧ .

(٢٧٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٧٦٥ .

(٢٧١) المرجع السابق ص٧٦٦ .

ويقول الإمام :

لا أحب أن أحشر المسائل الخلافية فى تفسير القرآن ، بل أحب أن أبين المعنى الذى كان يفهمه الصحابة رضى الله تعالى عنهم »(٢٧٢)

وما كان أحوج المسلمين إلى مثل هذا التفسير ولكن رشيد رضا حرمهم من هذا الخير حين خلط تفسير الإمام ولم يكتف بذلك بل ذكر كثيرا من المسائل الخلافية ، وبذلك قضى على الغرض الذى قصد اليه الإمام ، وبرر ذلك تبريرا مضحكا حين قال عن الإمام :

إنه رحمه الله كانت خطته الغالبة فيه – فى التفسير – ترك ذكر المسائل الخلافية التى لا يدل عليها القرآن ، وهذا غير الخلاف فى مدلول عباراته ، وربما يكون ذكر الخلاف وسيلة إلى بيان كونه فوق كل خلاف .(٢٧٣) ... الخ . أننا وإن كنا نحمد لرشيد رضا صنيعه فى تاريخ الأستاذ الإمام إلا أننا نلومه على بعض تصرفاته وأهمها أنه لم ينس نفسه ، وهو يتحدث عن الإمام ، وكأنى به وقد أحس بجاه الإمام وعظمته ، أحس بذلك العملاق فأراد أن يصعد على كتفيه فكان أشبه ما يكون بالنباتات المتسلقة .

أسفاره :

كان نهما فى الاطلاع والتعلم ليكون أصوب حكما وأسد رأيا ، ولذلك ساح كثيرا فى بلاد أوربا وبلاد المشرق باحثا أينما حل عما عساه ينفع للعمل الجليل الذى ابتدأه ، وكان يدرس غير متشيع إلى مذهب ضروب الحضارة والأخلاق عند جميع الأمم فى الفكر ، وجولان فى الرأى يندر وجودهما فى هذه الأيام .(٢٧٤)

يقول الأستاذ الإمام :

أمّا الأسفار إلى البلاد العثمانية ومعاشرة كثير من المسلمين غير مسلمى مصر فقد كان من نتائجها عندى أنى عرفت حق المعرفة أن مرض المسلمين نشأ من أمرين : الأول الجهل بدينهم ، وإبداع ما لم يكن منه ، والصاقه به ، واختلاط ما هو من الدين بما ليس منه حتى صار ما هم عليه دينا أجنبيا عن أصل الدين الإسلامى الطاهر الرفيع . والأمر الثانى استبداد الحكام الظالمين من المسلمين فى جميع أقطار الأرض .

وقد سافرت بعد ذلك مرّات إلى أوربا وأفريقيا فكان أثر الأسفار فى بلاد المسلمين زيادة البصيرة فى ذلك الذى عرفته لأول الأمر ، وأثر الأسفار فى أوربا قوة الأمل فى اصلاح أحوال

---

(٢٧٢) تفسير المنار ج١ ص١٤٧ .

(٢٧٣) المرجع نفسه ج٢ ص٩٩ .

(٢٧٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٣ ص١٨٥ (نقلا عن جريدة الاجيبت) الصادرة فى ١٣ يوليه ١٩٠٥ بقلم محمد طلعت حرب .

المسلمين ، فما من مرة أذهب إلى أوربا إلا ويتجدد عندى الأمل فى تغيير حال المسلمين إلى خير منها ، وذلك باصلاح ما أفسدوا من دينهم ، وتشحيذ عزائمهم إلى معرفة شئونهم ، وامتلاك ناصيتها بأيديهم . (٢٧٥) وهذه الآمال وإن كانت تضعف فى نفسى عندما أعود إلى ديارى لكثرة ما ألاقى من العنت ، وشدة ما أصادف من المصاعب ، وسوء ما أرى من انصراف المسلمين عن النظر فى منافعهم ، وشدة عداوتهم لأنفسهم ، وقوة رغبتهم فى تمكين ظالميهم من رقابهم ، وحبهم فى الاستعباد لهم لغير سبب معقول ، لكنى متى عدت إلى أوربا ومكثت فيها شهرا أو شهرين تعود الىّ تلك الآمال ويسهل علىّ تناول ما كنت أعده من المحال ... وكان يقول عندما يريد السفر إلى أوربا : أننى أذهب لأجدد نفسى : أى فقد أخلقتها معاشرة الكسالى واليائسين .

وقد توجهت همته فى السنين الأخيرة من حياته لزيارة الشعوب المسلمة فبدأ بزيارة تونس والجزائر ، وكان عازمًا على زيارة الهند وإيران ، فصرفه المرض عن عزمه ، ثم قطع آماله كلها الحمام .

سفره إلى الآستانة :

كان يود أن يسيح فى البلاد الإسلامية ليختبر أحوال المسلمين فيها ، وقد عنّ له أن يبدأ بزيارة الآستانة فذكر ذلك للورد كرومر فكان رأيه أنه لا يظن أنه يسر بهذه الزيارة ، وأنه لا بأس مع ذلك بأن يعرف حال هذه العاصمة القديمة والدولة التاريخية ، (٢٧٦) وقد سافر هو والشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، وكان سمو الخديوى قد سبقهما اليها . (٢٧٧)

وقد قال فى أحد كتبه إلى رشيد رضا من الآستانة : لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملا أو يصيب خيرا فى الآستانة وعلى كل ذى دين أن يفرّ منها بدينه ونفسه . (٢٧٨)

ومن حديث الإمام عن الآستانة : أنه لم يربيئة فى العالم ، ولم يكن يعقل وجود بيئة كالآستانة فى سوء تأثيرها فى العقل والفكر والقلب ، وأن ذهنه كان هنالك ممسوحا كأنه لم ينقش فيه شىء من العلوم والآراء . (٢٧٩)

سفره إلى فرنسا :

كان فى أسفاره الأولى إلى فرنسا يعنى بعلم الحقوق وأصول القوانين الفرنسية التى تستمد منها القوانين المصرية حتى إنه كان يختار لنفسه مدة وجوده فى باريس حوذيا يحمل شهادة

---

(٢٧٥) تاريخ الأستاذ الإمام رشيد رضا جـ١ ص٨٤٦

(٢٧٦) المرجع السابق ص٨٤٧ .

(٢٧٧) المرجع نفسه ص٨٤٨ .

(٢٧٨) المرجع نفسه ص٨٥٨ .

(٢٧٩) المرجع نفسه ص٨٦٤ .

« الليسانسيه » فى الحقوق فكان يذاكره فى هذا العلم فى حال تنزهه فى ضواحى باريس .

وشاهد المدارس الفرنسية العالية ، وأخذ إذنا من ناظر معارف فرنسا بأن يزور أى معهد من معاهد العلم فى أى وقت شاء .(٢٨٠)

وقد ذهب إلى دار الفيلسوف الاجتماعى الشهير (غوستاف لويون) للتعرف به والشكر له على تأليف كتابه (حضارة العرب) فلم يجده لأنه كان مصطافا فى الأرياف فترك له فى داره بطاقة الزيارة ، فلما عاد الفيلسوف ورأى البطاقة أسف لما فاته من لقاء أكبر علماء الإسلام وأرسل اليه كتابًا يؤذنه بذلك ويشكر له تفضله بزيارته .(٢٨١)

سفره الى تونس والجزائر وأسبانيا

كان الإمام عازمًا أن يسافر من فرنسا إلى تونس والجزائر على أن ينتهى إلى أسبانيا حيث كانت تلك الدولة العربية التى أفاضت العلوم على أوربا فانتقم منها التعصب فأفناها عن آخرها ، ولمّا علم بعض الأشرار بذلك كتبوا فى السعاية به إلى حكومة الجزائر ، وأبانوا أن الإمام لا يقصد بهذه الزيارة إلى الجزائر إلا تحريض المسلمين على الثورة والخروج على الحكومة ، ولكن هذه السعاية باءت بالفشل .(٢٨٢) وسافر الأستاذ إلى تونس والجزائر فكان له من الحفاوة والتكريم عند علماء المسلمين وكبرائهم ما يليق به ، ولم ير من الحكومة الفرنسية شيئا يسوءه .

وألقى فى تونس ذلك الدرس الحافل العظيم الشأن فى (العلم والتعليم) كما ألقى فى الجزائر تفسير سورة العصر ونزل فى تونس ضيفا بدار خليل أبو حاجب كبير الوزراء ، وكان أحرارها ولاسيما الشبان يودون لو نزل فى أكبر الفنادق لتكون حريتهم بالاستفادة منه أوسع (٢٨٣) وقد عرض عليه أخذ الإذن له بزيارة سمو الباى فقال هل يمكنى أن أخلو به وأتكلم معه بالحرية ؟ قيل لا . بل لابد من حضور أحد حاشيته من الفرنسيين . قال إذن لا حاجة إلى زيارته .(٢٨٤)

سفره إلى صقلية

أتيح للأستاذ الإمام أن يجعل عودته من تونس والجزائر عن طريق إيطاليا فعرج فى طريقه على جزيرة صقلية وشاهد ما فى عاصمتها «بلرم »من آثار العرب ، وكتب فى ذلك ، فوصف قصر الملك روجار ، وكنيسته فى بلرم ، والكنيسة الكبرى والأديار ، وكنيسة موديالى ، وبيّن فى هذا الوصف ماكان من تساهل العرب وتساءل أين هم الآن ؟

---

(٢٨٠) المرجع السابق ص٨٦٦ .

(٢٨١) المرجع نفسه ص٨٦٧ .

(٢٨٢) المرجع نفسه ص٨٧١ .

(٢٨٣) المرجع نفسه ص٨٧٢ .

(٢٨٤) المرجع نفسه ص٨٧٣ .

وعقد فصلا للمكتبة العمومية ، ودار المحفوظات وما فيها من آثار العرب ، وبيّن حاجة السائح الى معرفة اللغات الأجنبية ، وأن الانجليزية أعم نفعا فى أوربا ووصف الصقليين ورثاثتهم ووساختهم وما بينهم وبين الطبقات الفقيرة من المصريين من الشبه ، ووصف دور الآثار وبساتين النبات والمقبرة ، وبيّن بمناسبة مافيها من الصور والتماثيل فائدتها وحكمها فى الشرع ، وقلم الأستاذ فى هذه الرحلة أدى فكاهى [285]

وقد عاد الأستاذ من رحلته فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ .

سفره إلى انجلترا

سافر إلى انجلترا سنة ١٩٠٣م لزيارة مدارسها ، وبالأخص جامعة اكسفورد وجامعة كمبردج ، كما زار الفيلسوف « سبنسر » أعظم فلاسفة أوربا الاجتماعيين ونزل ضيفا كريما على المستر ويلفر دبلنت فى قصر « كرايت بارك » .

وقد صحبه فى زيارته لأكسفورد المستر كوكرنل ، وكان دليله الأستاذ يويل أحد معلمى التاريخ فى أكسفورد وعند زيارته لكمبردج خرج لاستقباله فى المحطة طائفة من أساتذتها ، وبعض المستشرقين ، وقد سأله هؤلاء العلماء عن بعض ما أشكل عليهم فى بعض الكتب العربية فكان يجيبهم بداهة بما يقنعهم ويزيل اشكالهم ، وقد تناول طعام العشاء فى قاعة الجامعة الكبرى . [286]

سفره إلى السودان

كانت حكومة السودان تعتمد على الأستاذ الإمام فى اختيار قضاة الشرع له من علماء مصر ، ولاسيما رئيسهم قاضى القضاة فيختار لها خير رجال الشرع علما وأخلاقا وإدارة ، ومعرفة بحال الزمان ، كما كانت تعتمد عليه فى اختيار بعض أساتذة مدرسة غردون الكلية .

وقد توجهت نفسه لزيارة السودان فى أخريات أيامه وصرح له بذلك فى يناير ١٩٠٥ ، وسافر إلى السودان وزار المدرسة الكلية واختبر طلبتها ، كما زار نادى الموظفين المصريين ، وميس الضباط ، وخطب فيهم وصلى الجمعة فى أم درمان ، واستقبل فى السودان استقبالا حافلا ، واغتبطت البلاد باقامته فيها واستفادت منه كثيرا . [287]

كان من أكبر آماله أن يحج بيت الله الحرام ويزور المسجد النبوى ، وقبره عليه الصلاة والسلام ثم يزور جميع أماكن غزواته ﷺ ويضع خريطة للحجاز يبين بها مواضع تلك

(٢٨٥) المرجع السابق ص ٨٧٤

(٢٨٦) المرجع نفسه ص ٨٦٦

(٢٨٧) المرجع السابق ص ٨٧٦ - ٨٨٩

الغزوات . (٢٨٨) ، على نحو ما فعل الدكتور محمد حسين هيكل بعد وفاة الإمام حين ألف كتاب « فى منزل الوحى » .

أهدافه

يقول الأستاذ الإمام : نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ، ودخلت فيما فيه يدخلون ، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على مايألفون ، واندفعت إلى طلب شئ مما لا يعرفون فعثرت على مالم يكونوا يعثرون عليه ، وناديت بأحسن ماوجدت ودعوت اليه ، وارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى وانه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل كل هذا أعده أمرا واحدا ، وقد خالفت فى الدعوة اليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن فى ناحيتهم . (٢٨٩) ثم يقول الإمام :

وهناك أمر آخر كنت من دعاته والنّاس جميعا فى عمى عنه ، وبعد عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وماأصابهم الوهن والضعف والذلة إلا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ماللحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها وهى هذه الأمة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنا ، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لايرده عن خطأه ، ولايقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل جهرنا بهذا القول ، والاستبداد فى عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظلم من حديد ، والنّاس كلهم عبيد له أى عبيد (٢٩٠) ثم يتابع الإمام حديثه فيقول :

نعم إننى فى كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع غير أنى كنت روح الدعوة . وهى لاتزال بى فى كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرح أدعو إلى عقيدتى فى الدين ، وأطلب باتمام

(٢٨٨) المرجع نفسه ص ٩٤٧

(٢٨٩) المرجع السابق ص ١١

(٢٩٠) المرجع نفسه ص ١٢

الإصلاح فى اللغة وقد قارب . أمّا أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن والله المستعان .

أصبت نجاحا فى كثير مما عنيت به ، أخفقت فى كثير مما وجهت عزيمتى اليه ، ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرس فى طبعى ، وشىء منها مما احتف حولى وطائفة منها من اصالتى فى الرأى أو خلطى ، ومن الذى يستطيع أن يفصل ذلك غيرى حتى يكون إن شاء الله عبرة لمن يأتى بعدى .[٢٩١]

صفاته :

لا يرى الإمام صاحب العقيدة الراسخة والإيمان الصحيح طريق النجاة للنّاس إلا إذا فهموا الإسلام على حقيقته كما فهمه هو ، وكان أبدا حربا على من خالفوا الدين ، وحرّبا على الملحدين والكافرين . إن الإمام أخذ عن عظماء فى العلوم والآداب وعاش زمناً بين كبار فى الإمارة والسياسة ، وقد تركت هذه البيئة الراقية فى نفسه من الصفات مايسمو به إلى الفضائل والمكارم .

وما نظن أن من اتهموا الإمام بدينه إلا من الفقهاء المرائين الذين اشترط هو أن لا يكون منهم الفقيه الذى يركن اليه المصاحب ، وهذه الطبقة من الفقهاء كانت فى كل عصر علة توقف العقل ونشوب فتن سالت فيها الدماء أنهارا على غابر الأيام . وقد تعوذ بالله من شرهم علماء الأمة . وأبانوا مساويهم ومصانعتهم للملوك يحملون اليهم من سلعهم مايروجونه عليهم بكل حيلة ، ولايرون الخير إلا فيما هم فيه بسبيل ينكرون فضل الله على العالمين بتعدد الخصائص والاستعدادات .

ليس الإمام أول من رمى بالإلحاد فتاريخ الفكر الإسلامى يذكر أخبار من وقع اتهامهم بهذه التهمة من نوابغ الأمة على حين كانوا أعظم أنصار الدين كالجاحظ وفى القرون التالية اتهم بهذه التهمة عشرات من كبار العلماء « وأن ماكتبوه ليشهد لهم أن أعداءهم ظلموهم فى هذه التهمة وظهر بعد أن عذبوا فى حيلتهم أنهم كانوا من المخلصين فى خدمة الدين »[٢٩٢] وأن أولئك الثرثارين الذين طوتهم الأرض ولا أثر لهم فى دنيا ولادين كانوا يحسدون أولئك المؤمنين فانتقموا لأنفسهم بأن ضربوهم فى أقدس الأشياء عندهم .

صحة الإيمان وحب الإسلام صفتان ماثلتان فى الإمام مهما تقوّل عليه المتقوّلون ، وكان إلى هذا رجل نجدة وأنفة وكرم أخلاق ومروءة ووفاء وحسن عشرة . وكان ربّ جد وعمل

(٢٩١) المرجع السابق ص١٣٠

(٢٩٢) أمراء البيان جـ١ ص١٢٤

لايستند فى أموره على الخيال ، وجل اعتماده على عقله وتجاربه وتجارب من سلف من حكماء الأمم . كان محافظا على شعائره لايحرم على نفسه الطيبات المحللة فليس فيه جمود الفقهاء ولا استهتار الأدباء فهم من الدين ما فهمه منه كل عاقل .

وكان من أرباب التفاؤل لاالتشاؤم لطيف الاختلاط وادع النفس ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن ، ولايفتأ يجملها بحسن ظنه ويغالط نفسه فى حقيقة السعادة فينبعث إلى العمل مرحا يحب من الملوك عدلهم ، وأن يعملوا فى خشية الله وخشية النّاس ، ولايهوّن عليهم صناعتهم ولايصعبها خصوصا إذا اقترنت بقرناء الخير من الوزراء والعلماء .

وكان يعرف أدب الكبراء لأنه داخلهم ومازجهم وكان على حذر منهم لايغتر باقبالهم عليه وهم فى حاجة الى علمه وأدبه .

كان يحافظ على أوقاته لايضيع منها مايمكن شغله بالمفيد بعيدا عن الفوضى ، ويحب النظام كان على جانب كبير من عزة النفس ، وما كان بالمتزمت ولا بالمتنسك ، قام بما فرض الإسلام عليه من الفروض والواجبات ، وصرف ساعات عمره فيما يرفع من شأن المسلمين .

دعاهم إلى الحياة الفاضلة . وحبب اليهم دينهم ودنياهم ليستقيموا أمة عزيزة فاضلة فى أخلاقها ، وكان يرى أن العمل الصالح هو الأثر الذى يظل على الأيام . ولذلك كان يتقن عمله ، ولا يتوخى منه إلا مايجدى فى الحياة والمعاد وسع علمه النّاس والأمصار ونظر أكثر من غيره إلى ماوراء حدود النظر وماكان بالمقلد الخائف ولاممن يأخذ كل مااتصل به قضية مسلمة لابحث ولانظر قصاراه التجديد والبعد عن مزالق التقليد والتعرف الى كل شئ معرفة ثاقبة .

رأى من العبث تكليف الأيام صدّ طباعها . فلابس دهره كما شاء فى الجملة لا كما أراد هو بالتفصيل فضحك لشقاء الحياة الدنيا وهزأ بما يراه غيره نعمة عرف أن السعادة فى الأرض مستحيلة وأن العالم يحلو ويمر فرضى بحلوه ومره ، وفى الرضا والقناعة عزاء وشفاء رأى فساد النّاس بما كسبت أيديهم من الكذب والزور والحسد والخبث فاستعمل من دهائه ماأتقى به شرّهم وعلق يطمع فى الحيلة لتعليمهم ومداواة أمراض نفوسهم وتفنن فى دعوته لا تفنن صاحب خيال وطلب محال بل تفنن الرجل الحكيم يفيض اليوم بعد اليوم من علمه على تلميذه بقدر مايشهد فيه من استعداد ويسمح له من رأس ماله الواسع مايرجى له أن ينعم به وهو لا ينفّر أهل جيله وقبيله ولا يقرهم على كل ما هم فيه .

خلق نقادا كما يخلق الشاعر شاعرا وقوة النقد فيه شديدة ومع هذا يعمد إلى الرفق وينصف خصمه من نفسه ويستمع إلى مايدلى به من حجة . تراه وهو العربى القح لم تستهوه حكمة اليونان والهند وفارس ولاحكمة الفرنسيين والإنجليز وماامتلكت قلبه غير حكمة العرب وهدايتهم وآدابهم ومع هذا يأخذ ممن سبق ولحق وعمن وافق وخالف لاينبو نظره عن شئ ولا ترذل

نفسه حقيرا ولم تورثه شهرته العلمية زهوا وغرورا ولا يتكلف التواضع ولا التخاشع وبغيته الكبرى أن يرفق بالضعاف حتى يقووا وبالجهلاء حتى يتعلموا محاسن الكبراء من دون اسفاف ويجتنب مخاشنتهم تفاديا من شرهم وعتوهم ويحلم عن الأشرار طبعا وتطبعا ويبتعد عن الحاسدين والموتورين ، لايضجر ولا يضطرب متزّن إذا أزم معتدل إذا حاور لايحسد ذا نعمة على نعمته ولا ذا سلطان على نفوذ إرادته.

كان من أصله عصبى المزاج ، سريع الانفعال ، مرهف الإحساس ، فربما جرى لسانه بسائق التأثر بما لم يكن يجرى به متأثرا .... وهو متصف بالكياسة والرقة جامع بين أدب النفس ، وأدب الدرس يشبه فى هذا أكابر علماء الشام واستنبول، وكانت أخلاقه تسير جنبا إلى جنب مع معارفه .

ومن خصاله العلم المقرون بالطهارة ، والذكاء المزدان بالعفة والفصاحة المتحلية بالاحتشام والورع ، ولقد كان المختلطون به بصورة دائمة عددا لايكاد يحصى من كل الطوائف ، وهو لايكاد يوجد وحده إلا فى وقت النوم فأمّا فى سائر أوقاته فقد كان محاطا بالزائرين .

كان من أرق خلق الله طبعا . وأظهرهم وداعة وتواضعا ، وأحلاهم عشرة ، وأحبهم للفكاهة ، وأطربهم للنكتة ، وكان للنكات والنوادر من مجلسه نصيب وافر ، وكان للطرائف واللطائف من محاضرته حظ سافر ، ولكنه لم يكن يشوب تلك الفكاهات كلمة بذيئة .

وكان الشيخ بسيط نوع المعيشة يكره السرف والترف إلا أنه كان سخى النفس كثير البر .

وكان والده يرسل اليه ما يلزم لمعيشته فلم يحتج فى أثناء وجوده فى بيروت إلى شىء ، ولا ضاقت ذات يده ولا مرة ، وكان يوازن بين الراتب الذى يأتيه من أبيه وبين نفقاته ، وكان لا يقبل من أحد شيئا من شده أنفته إلا الهدايا التافهة من خلصاء أصحابه لاغير .

ولم تكن تحمله شدة الأنفة على اطراح التكلف . (٢٩٣)

إغاثته للمنكوبين فى أحداث الزمان

كانت هذه الإغاثة نوعين : خفية وجلية ، أما الخفية فقد اشتهر بها فى حياته ، ونوهت بها الجرائد والمؤبنون له بعد وفاته على ما كان من شدة كتمانه لها ، فقد كان هو يتصدق بكل ما تيسر له التصدق من ماله على قلته وكثرة نفقاته ، وكان يجمع المال من أصدقائه الأغنياء للمنكوبين لمن رمتهم أحداث الزمان أو السفه والاسراف فى المال بالعسر بعد اليسر والفقر بعد الغنى .

وأمّا الجلية فهى التى كان يقوم بها بالتعاون مع اللجان المنظمة تحت رياسته وأشهرها لجنة

---

(٢٩٣) من مقال لشكيب أرسلان : تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص٤٠٤ - ٤٠٧ .

الإعانة لجرحي الجيش فى حرب السودان ، وأرامل موتاهم وأيتامهم ، ولجنة الإعانة لمنكوبى الحريق فى (ميت غمر).(٢٩٤)

فإذا كانت النهضة فى تربية الفقير والإحسان اليه فقد كان أب البائس ، وعضد اليتيم أو فى الجمعيات الخيرية فقد كان عضدها وساعدها الأقوى بإيجاده الجمعية الخيرية الإسلامية وفروعها ، واهتمامه بترقيتها إلى المدى الذى وصلت اليه .(٢٩٥)

يقول رشيد رضا : زرته فى ضحوة يوم من أيام رمضان سنة ١٣١٥هـ بداره التى كانت بحى الناصرية فقيل لى أنه موعوك لم ينزل من سريره قلت أخبروه بمجيئ فأخبروه فأذن لى فسألته عن شكاته فقال : إننى اطلت الفكر ليلا فى حال المسلمين وما أصابهم من الشقاء بترك دينهم فساورتنى آلام عصبية يعتادنى مثلها كلما أطلت الفكر فى هذا الأمر حتى خطر فى بالى أن أنزل من الدار وأذهب إلى مجامع لهوهم وفسقهم العامة فى حى الأزبكية ، وأصيح بهم : أيها النّاس ماذا رأيتم فى دينكم حتى تركتموه ، ثم إننى لم أجد لنفسى اسعافا يسكن الألم إلا الكتابة فكتبت هذا الفصل الملحق برسالة التوحيد « انتشار الإسلام بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ » وما يليه من الإيراد والجواب عنه .(٢٩٦)

ويقول رشيد رضا : الأستاذ الإمام كان سلفى العقيدة فى سنيه الأخيرة التى عرفناه فيها .(٢٩٧)

وكان يرى أن اليقين المطلوب فى الإيمان هو اليقين المنطقى المؤلف من قسمين : أحدهما : أن الحق فى المسألة كذا .

وثانيهما : أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا .(٢٩٨)

تقلد القضاء فظهرت على يديه العدالة ناصعة راجحة وبسط يد التدبير إلى أوقاف المسلمين فكان أحفظ حفيظ على اليتامى والمساكين ، وأصحاب الحقوق . وبعث فى صدور النّاس الحمية لإقامة مبانى المدارس ، وتثقيف الأفهام وتهذيب النفوس ، فهبت الآداب والعلوم من مكان خمولها ، وكان هو القائد لنهضتها ، وما اكتفى بذلك حتى أقام نفسه مقام المدرسين فألقى فى أجل الجوامع وأكبر المجامع على الألوف من التلامذة أنواع العلوم العالية .(٢٩٩)

---

(٢٩٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٨٣٠ .

(٢٩٥) المرجع نفسه ج٣ ص٤٢ .

(٢٩٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص٣٠٥ .

(٢٩٧) تفسير المنار ج٣ ص٣٦٥ .

(٢٩٨) تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص١٠٣٥ .

(٢٩٩) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٣ ص٢٦ نقلا عن جريدة الظاهر فى عدد ٤٤٩ فى ١٩٠٥/٧/١٢ .

كان مع الحكماء حكيما ، ومع الفقهاء فقيها ، ومع الأدباء أديبا ، ومع المؤرخين مؤرخا ، ومع رجال الإدارة والقضاء إداريا كاملا ، وقاضيا عادلا ، وكان يخاطب كل قوم وكل فرد بقدر ما يراه من استعداده مع التزام الصدق واستقلال الرأى .(٣٠٠)

ومن أسرار عبقرية الشيخ فى العلم والأدب كان يتجنب كل التجنب انتقاص مذهب من المذاهب أو عقيدة من العقائد .(٣٠١)

وكان لا يفضى بكل ما فى نفسه بدون احتراس إلا لبعض الأفراد .(٣٠٢)

هو عصامى رقى إلى هذه المنزلة بجده وتوقد ذهنه وحسن نظره فى العواقب ، وإقدامه على عظائم الأمور .... وكان ذكى الفؤاد بالطبع قوى الحجة حسن المحاضرة لا يخاف لومة لائم ، ولا يتهيب الكبراء والعظماء لمجرد ما هم فيه أو ما أدركوه من رفعة المقام فاستطاع أن يكون علما يهتدى بنور علمه المحافظون الذين لا يروقهم إلا ما جرى عليه المتقدمون كأكثر العلماء وطلبة العلوم الدينية واللغوية ، ومن جرى مجراهم لأنه كان ثقة فيهم ، وعضدا قويا لأبناء هذا العصر الذين استناروا بالعلوم الحديثة والآراء الجديدة .(٣٠٣)

كان جنة علوم دانية القطوف ثمارها العقل الكبير وأزهارها العوارف ، ولكن أشهر ما اشتهر به الإقدام والثبات فى العزم ، والميل إلى فقراء الأدب ، وشدة الحزم فقد كان مقدامًا على كل أمر خطير كما كان منزله العامر ملجأ لكل أديب فقير حتى لقب فى أخريات أيامه بأبى التعساء من الأدباء وكان من آثار فضله تعريب حافظ ابراهيم لكتاب البؤساء الذى عدّ معجزة الكتاب لما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة فى الإنشاء .(٣٠٤)

حاد النظر فصيح المنطق جهورى الصوت ، وكان متوقد الفؤاد ثاقب البصيرة قوى الحجة ذرب اللسان ، بليغ العبارة إذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه فلا يتوقف ولا يتلكأ ، ولا تجد فى كلامه لفظة ركيكة ، ولا تركيبا سخيفًا حتى لو كتبت لفظه الذى يقوله على البداهة وجدته كأحسن ما ينشىء المترسلون من الفصحاء ، وكان أية من آيات الله فى قوة الحفظ وسرعة التناول حتى أنه تعلمّ اللغة الفرنسوية وهو فوق الأربعين فلم يأت عليه إلا أشهر حتى كان يجيد فهمها ثم كان يتكلم فيها كأحد أهلها ، ولم يرو مثل ذلك إلا عن أستاذه السيد جمال الدين .(٣٠٥)

---

(٣٠٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص١٢٦ .

(٣٠١) من مقال لشكيب أرسلان : تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص٤٠٢ .

(٣٠٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص٨٩٠ .

(٣٠٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٣ ص١٠٣ نقلا عن المقتطف التى كان يصدرها يعقوب صروف وفارس نمر ج٨ من المجلد الثلاثين .

(٣٠٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٣ ص٥٠ نقلا عن جريدة الوطن فى العدد ٣٢١٨ فى ١٩٠٥/٧/١٢ .

(٣٠٥) تاريخ الأستاذ الإمام ج٣ ص٩٦ .

ومع هذا كان يقول عن نفسه إنه متوسط فى الذكاء وأنه يوجد فى كل مائة رجل ٧٥ رجلا مثله فى ذهنه ، وعلى هذا كان يجب أن يكون ثلاثة أرباع النّاس أو طلاب العلم منهم خاصة مثله .

يقول رشيد رضا : وقد راجعناه فى ذلك وقلنا له كيف تحصل فى الزمن القصير من العلم مالا يحصلونه فى الزمن الطويل ؟ فقال : إن الفرق بين النّاس فى هذا لا يتأتى من الاختلاف فى الذهن فقط ، وأنما يتأتى معظمه من الاختلاف فى توجيه الإرادة إلى الشيء ، ومعرفة طريقته وغايته قبل طلبه .(٣٠٦) .... ويقول أيضا : (٣٠٧) المرء ولوع بما بين يديه غير واثق بما غاب عنه .

وكتب فى رقيم من رأس البر :

ما رأيت مكانا يشغل النفس عن كل شاغل مثل رأس البر لا أشتهى فيه أن أمد يدى إلى قلم ، وأنما أطالع فى أوراق متنوعة ، فى أوقات متقطعة ولذلك أراه أفضل مكان للراحة ، وتبديل الهواء ، بعد شدة التعب وطول العناء .(٣٠٨)

وكتب فى رقيم آخر من رأس البر :

رأس البر لا عقل فيه ولا عمل(٣٠٩)

عاداته وزيه ووفاته

قلما كانت داره تخلو ليلة من السامرين يتكلمون فى العلم والأدب والمصالح العامة والخاصة ... وكان كثير النسيان للأمور الجزئية كالأرقام وأسماء الأعلام .(٣١٠)

مجاور فى الأزهر ، ومنقطع إلى التصوف ، لبس قميصا يبدو من أعلاجيبه صدره الأشعر . وقد أرسل جمة كجمة الدراويش ، ولقد طبع الله هذا الرجل على عزة النفس ، وعلو الهمة والتواضع ، والمهابة ، واللطف فى المعاشرة ، وسلامة الصدر وصفاء القلب ، ويغلب حسن الظن ، ويتغابى عن الشر ، ويؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

وكان من أشهر صفاته الوفاء لأصدقائه ، يهتم بشأنهم ، ويسعى فى دفع الشر عنهم ، وفى سوق الخير اليهم ، لهذا كان من أعجب الشعر اليه هذا البيت الذى كان يضعه أمامه على مكتبه مكتوبا بخط جميل لأنه يصوّر حاله مع أصدقائه أدق تصوير :

رأى خلتى من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

(٣٠٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج١ ص١٠٢٨ .
(٣٠٧) المرجع نفسه ص١٠ .
(٣٠٨) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ج٢ ص٦٣٩ .
(٣٠٩) المرجع السابق ص٦٣٩ .
(٣١٠) المرجع نفسه ص١٠٣١ .

وقد حضر فى شبابه مجلسًا من أترابه فتمنى كل منهم ما تسمو إليه نفسه من سعادة الدنيا فكانت أمنيته هو أن يكون له صديق وفى مخلص ينعم بمعاشرته وكان مستقلا برأيه مع الاستشارة . مستقلا بارادته مع الاستعانة بالله ، معتصما بحبل الصدق متحريا ما يعتقد أنه حق . وهذان الخلقان : الصدق والشجاعة - هما شرطان للقدرة على الإصلاح .[٣١١] يقول رشيد رضا : وسألته مرة ماذا تصنع إذا هجم عليك لص فى الليل أتطلق عليه الرصاص من هذا المسدس - وأشرت إلى مسدس معلق بسرير نومه -- فقال لايجوز إطلاق الرصاص فى البيت فانه يزعج النساء والعيال ، وليس عندى للص إلا القبض عليه والأخذ بقوف رقبته .

وكان فى سن الشباب يسير مع والده ليلا فى خلاء من الريف فهجم عليهما صائل من قطاع الطريق بيده نبوت مستدير الرأس فيه مسامير كبيرة من الحديد رفعه ليضرب به أحدهما فسبقه الولد بضربة خرّ بها صريعا ، ويظن أنه مات ، وأغذّا هما فى السير . فشجاعة الأستاذ الإمام بنوعيها كانت تحتدم فى بعض أوقات الغضب فتخون حلمه وأناته .[٣١٢]

وكان من أخلاقه الإنصاف فى الرأى والعلم كالإنصاف فى الحكم ، والبعد عن المكابرة فى المذاكرة والمناظرة ومن صفاته أيضا الجود والسخاء ، والغيرة على الملة والأمة ، والمروءة والنجدة . والثبات على الحق والاستقامة .[٣١٣]

كان زيه جبة وقباء من ذوات الزيق للرقبة ، ومن ذوات الألوان غير البهجة ، وكان يكره كسوة التشريفة ويستحى منها فى نفسه .

وكان يكره أن تقبل يده ، وكان يحتذى النعال المدنية التى تسمى « الجزمة » دون سائر العلماء فينكرون عليه ذلك فيما بينهم ، وكان يركب الخيل ، ثم ترك ذلك بعد الانتقال من القاهرة إلى عين شمس ، وكان يحب المشى على قدميه .

وكان يقول : أن من ضعف الإنسان ونقصه حاجته إلى الطعام كل يوم ، ولوددت لو أمكننى الاستغناء عنه .

وكان ربع القامة أسمر اللون مع وضاءة ، عظيم الهامة فى اعتدال ، عالى الجبهة ، كبير الدماغ ، أسود العينين براقهما ، أقنى العرنين ، واسع الفم ، منظم الأسنان جهورى الصوت ، أشعر الذراعين . والمنكبين والصدر عصبى المزاج ، ممتلىء الجسم فى غير ضخامة ، قوى البنية .[٣١٤]

---

(٣١١) المرجع نفسه ص٩٤٧ - ٩٦٠ .
(٣١٢) المرجع السابق ٩٦٠ - ٩٦١ .
(٣١٣) المرجع نفسه ص٩٦٢ - ٩٧٠ .
(٣١٤) المرجع السابق ص٩٧١ .

ولكن عرض له ما أضعف هذه القوة منذ سن الشباب فكان سببا لما كان ينتابه من الأمراض ، وذلك بأنه ظهر له خراج تحت أبطه فى سن الصبا فلم يبال به حتى كبر وتحولّ الدم فيه إلى صديد ، وكان كعادته يركب الخيل ، ويطيل الجرى عليها فى الشمس حتى أقعدته الحمى بل ألقته فى الفراش فامتص دمه ذلك الصديد السام فغاب عن الإدراك أربعين يوما ، وبعد ذلك عرق عرقا شديدا فاض منه على فراشه ففتح عينيه وعاد إليه شعوره ، وكان يعاوده تأثير ذلك السم فى موعده من كل عام فيمرض مرضًا ثقيلا أو خفيفا ثم حسنت صحته بالسكنى الخلوية فى عين شمس . وقد كان يصيبه الروماتزم فى يده حتى يضطر فى بعض الليالى إلى رفعها طول الليل ، ولم ينفعه علاج إلا صبغة اليود ، وواظب على أخذ نقط معدودة منها فى نصف كوب من الماء بعد كل طعام .(٣١٥)

وقد أصيب بحمى التيفوس مرة فى بيروت فبلغت نهاية شدتها ، ولم يغب عقله ولم يهذ لسانه .(٣١٦)

وكان قد دبّ السم فى جميع جسمه ، وبقى عقله حاضرا وذاكرته على لسانه الأجوبة السديدة فى وصف مرضه لمن يسأل عنه وفى غير ذلك .(٣١٧)

أما مرضه الذى صرع به فهو اعتلال فى الكبد السفلى وتضخمها بالمرض السرطانى حتى طغى هذا الورم على البطن وتجاوز إلى القلب فأبطل وظيفته وقد تسمم من جراء ذلك دمه فاختل الدماغ وتشوشت القوة المدركة فيه ، وهذا علة السهو والغيبوبة اللذين كانا يتناوبانه حال المرض . قضى الإمام فى الساعة الخامسة ثامن جمادى الأولى سنة ١٣٢٣هـ الموافق ١١ من يوليو سنة ١٩٠٥م فى الإسكندرية ثم نقل إلى القاهرة .(٣١٨) ودفن فى قرافة المجاورين وترك ثروة متوسطة بالنسبة لسراة مصر . ومات دون عقب ذكر ، وله من البنات أربع اثنتان منهن متزوجات بمحمد يوسف وعثمان يوسف ، والأخريان تعيشان مع عمهما حمودة عيده المحامى ، وترك من الإخوة الذكور ثلاثة أشهرهم « حموده(٣١٩)

ولكنه ترك فى عالم الثقافة والفكر وفى دنيا الأدب والفن ، ثروة ضخمة تسجل اسمه بأحرف من نور فى سجل الخالدين .

---

(٣١٥) المرجع نفسه ص٩٧١ – ٩٧٣ .

(٣١٦) المرجع نفسه ص١٠٢٩ .

(٣١٧) تاريخ الاستاذ الإمام ج١ ص١٠٣٠ .

(٣١٨) المرجع نفسه .

(٣١٩) تاريخ الأستاذ الإمام ج٣ ص١٢٣ .

الفصل الثالث

آثـــاره

١ - رسالة الواردات - ٢ - رسالة فى وحدة الوجود
٣ - تاريخ إسماعيل - ٤ - حاشية عقائد الجلال الدوانى -٥ - الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلابيين -٦ - فلسفة الاجتماع والتاريخ -٧ - الجزء الثانى من تاريخ الأستاذ الإمام .. وهو جل منشآته الإصلاحية والاجتماعية والأدبية -٨ - شرح نهج البلاغة - ٩ - تعريب الرد على الدهريين .. - ١٠ - شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى -١١ - شرح البصائر النصيرية فى المنطق لعمر بن سهلان الساوى -١٢ - نظام التربية والتعليم بمصر -١٣ - رسالة التوحيد -١٤ - تقرير المحاكم الشرعية -١٥ - الإسلام والنصرانية -١٦ - تفسير سورة العصر - ١٧ - جزء عم -١٨ - شرح دلائل الإعجاز - ١٩ - شرح أسرار البلاغة -٢٠ - تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار -٢١ -دروس من القرآن الكريم -٢٢ - تفسير الفاتحة و٦ سور من خواتيم القرآن : العصر والكوثر والكافرون والإخلاص والمعوذتين -٢٣ - فاتحة الكتاب -٢٤ - أسباب الثورة العرابية -٢٥ - آراء ومذكرات -٢٦ - مذكرات الإمام محمد عبده

تمهيد :

يكشف لك هذا الفصل عن طفولة التفكير عند الإمام ، وكيف نشأ ؟ وكيف تطوّر إلى أن صار صاحبه رائدا للفكر مصرى الحديث .

ذلك أن هذه الآثار تلقى ضوءا على الموضوعات التى عالجها الإمام أول الأمر وآخره ، وتكشف عن عقل حصيف ، وفكر ثاقب متحنث .

لقد اتجه أول مااتجه إلى علم التوحيد ، وعالجه على طريقة الصوفية ، ثم خاض هذا الغمار مع الخائضين ، ولكن كان معه رأيه وعقله ، ثم لم يلبث أن ولى وجهه شطر المجتمع ومايتطلبه من إصلاح سياسى واجتماعى وأدبى .

تلتقى فى هذا الفصل بآراء الإمام وأفكاره مجردة من أى مؤثر خارجى فتقبل منها ماتقبل وترفض ماترفض ، ربما وافقتنا فيما ذهبنا اليه ، وربما خالفتنا . هذا الفصل بمثابة الأدلة الدامغة على أى حكم يصدر على الإمام أوله . ثم إن الحديث عن الإمام لاينحصر فى الدائرة التى نتناوله بالدراسة هنا ، ولكنه أعمّ وأشمل . فهذا الفصل بمثابة مصابيح توضع على رؤس موضوعات ربما فكر باحث فى الشرق أو فى الغرب أن يعالجها فيسترشد بهذه المصابيح فلنصحب الإمام فى آثاره بحسب تاريخ تأليفها .

١ - رسالة الواردات .. ١٢٩٠هـ

رسالة فى الكلام أو التوحيد على طريقة الصوفية وأسلوبهم ، يقول رشيد رضا : وكان أعطانا نسخة منها فى حياته ، وقد نشرتها فى الطبعة الأولى للجزء الثانى من منشآته « ، يقصد تاريخ الأستاذ الإمام » ثم طبعتها على حدة ، وذكرت أنه قد رجع عن بعض ما كان قرره فيها كما يعلم من رسالة التوحيد له .[١]

ويقول الإمام فى آخر هذه الرسالة : « تمّ تبييضها يوم الأربعاء سادس عشر شعبان المكرم سنة تسعين ومائتين بعد الألف » .

هذه الرسالة هى أول ماوصل الينا من آثار الأستاذ الإمام .[٢] وتقع فى ١٧ صحيفة من الجزء الثانى من تاريخ الأستاذ الإمام جزء المنشآت ، وهى لاتخلو فى أسلوبها من نفحة الأدب القديم أدب السجع الذى كان عالقا بالمؤلف لقرب عهده به ولكن هذه الرسالة فى تأليفها ذات نظام حسن وطريقة فى سوق البراهين معقولة .

هى رسالة فى العقائد تتضمن بيان معنى الممكن والواجب ، وإثبات وجود الواجب ، وألا وجود إلا وجوده ثم الكلام على علم الواجب ، وعلى إرادته وحكمته ثم الكلام على كيفية بدء الله الخلق .

٢ - رسالة فى وحدة الوجود :

يقول رشيد رضا :

لم أطلع عليها ، وهو الذى أخبرنى بها . وقال : إنها ليست بمعنى ما كتب عبد الكريم الجيلى ، وأمثاله مما هو أقرب إلى مذاهب الحلول كالنصرانية منه إلى توحيد الإسلام بل هو أبعد عن الإسلام من النصرانية ولكنها بأسلوب آخر يبين فيه مراتب الوجود وتعددها من وجه ، ونظامها العام ووحدتها من وجه آخر ، ولعلنا نظفر بها ونطبعها[٣] .

٣ - تاريخ اسماعيل :

يقول رشيد رضا :

أخبرنى بهذا الكتاب أحد تلاميذه الأولين وقال : إن السيد عبد الله النديم كان أخذ من الفقيد نسخته فى أثناء الثورة العرابية ، ونشر منه فصولا فى جريدة الطائف بتصرف أو بغير تصرف ، ولم أسمع منه رحمه الله تعالى ذكرا لهذا الكتاب ، وكنت أظن أنه لم يصنف شيئا إلا وقد أخبرنى به لأنه قصّ علّى تاريخه بالتفصيل . وكتب إلىّ شيئا مجملا منه[٤] .

(١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٧٧٧

(٢) محمد عبده لمصطفى عبد الرازق ص٥٩

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ ١ ص ٧٧٧

(٤) المرجع السابق

٤ - حاشية عقائد الجلال الدوانى :

وفى سنة (١٢٩٢ هـ - ١٨٧٥م) ألف الإمام حاشيته على « شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية وهذه الحاشية ترينا الشيخ محمد عبده فى السادسة والعشرين من عمره محيطا بمذاهب المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة إحاطة فهم ونقد يكاد يجهر بآرائه فى تلك الموضوعات الخطيرة ويكاد يكظم صوته الفتى القوى عصا الشيخ عليش قائما على رأس مجاور بينه وبين التقدّم لامتحان العالمية سنتان .

فى هذه الحاشية توضيح للمذاهب فى الإلهيات والنبوات ومقارنة بينها ونقد متين[٥] .

يقول[٦] رشيد رضا :

وهى غاية الغايات فى علم الكلام وتحقيق مسائله وتحرير الخلاف بين المتكلمين ، وبيان ماهو لفظى منه ، وماهو حقيقى ، وقد اهتدى فى كثير من أبحاثها إلى أن الحق فى العقائد هو مذهب السلف ، ولكن كثيرا من نظريات المتكلمين وتأويلاتهم ظلت ناشبة فى ذهنه زمنا طويلا ، ولايزول مثل هذا إلا رويدًا رويدًا ، والحاشية مطبوعة .

٥ - الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين :

جانب الفلسفة والكلام عند الشيخ محمد عبده قد قام بدراسته دراسة وافية مستفيضة الدكتور سليمان دنيا حين أخرج كتاب « الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين » وفيه عرض وعلاج لأهم مشاكل الفكر البشرى ، ورأى الإمام فى هذه المشاكل ، والكتاب قسمان : أول وثان طبع دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه - الطبعة الأولى ١٩٥٨م - ١٣٧٧هـ . ولعلك تعجب حين نعد هذا الكتاب ضمن آثار الإمام ، ولكن عجبك يزول حين تقرأ مقدمة الدكتور دنيا لهذا الكتاب وفيها يقول :

إن الكتاب الذى بين يديك يحوى نصوصا ثلاثة : **النص الأول** : وهو الذى اتخذ محورا يدور حوله الشرح والبسط والتعليل والتدليل والاعتراض والنقد - وهو لعضد الدين الايجى صاحب كتاب المواقف وقد جعلته فى أعلى الصحيفة ووضعته بين معكوفتين هكذا[٧] [...]

والنص الثانى : وهو الشرح والبسط والتعديل والتدليل والاعتراض والنقد - هو جلال الدين الدوانى الباحث المتعمق ، والناقد الحر وقد جعلته مع نص العضد فى أعلى الصحيفة .

والنص الثالث : وهو النص الجرىء الذى وقف من النصين السابقين موقف المهيمن الذى أذهله تحمسه للحق . عن اصطناع وسائل المحاباة أو الرضوخ لداعى العصبية هو للشيخ محمد

---

(٥) دروس من القرآن الكريم ص ٢٦

(٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص ٧٧٧

(٧) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : القسم الأول ص٣ تقديم الدكتور سليمان دنيا .

عبده الذى صاح فى وجه الباطل أكثر من مّرة صيحة أفزعته ومكنت للحق منه وقد جعلناه فى أسفل الصحيفة مفصولا عن النصين السابقين بجدول .

واذا كنّا قد أسندنا الكتاب لصاحب المرحلة الأخيرة وجعلنا عنوانه مقصورا عليه فليس ذلك غمطا منا لشريكيه ، كيف ؟ وفضلهما سابق سامق وإنما القصد أن نبرز للشيخ محمد عبده أثرا من أهم آثاره فاقتضانا ذلك أن يكون مكانه فى العنوان بارزا .

وقد استعرض فى هذا الكتاب مذاهب الكلاميين عامة . ومذهب أهل السنة خاصة مع آراء الفلاسفة صّور كلا من هذه المذاهب والآراء تصويرا دقيقا كل الدقة فاهما كل الفهم ثم عقب عليها بما يراه من نقد ، وهو فى نقده يتعالى ويتسامى وتسعفه كفايته بما يشبع فيه نزعة التعالى والتسامى فلا يضرب إلا ليصيب ولايصيب إلا ليصمى.

ملحق : نصوص اضافية - فهارس

« عاود الشيخ محمد عبده النظر فى كتابه هذا فبدا له أن يشرح فيه غامضا ، أو أن يضيف اليه جديدا فسجل ما بدا له على هامشه فى نصوص إضافية هامة وإغفال هذه النصوص افتيات على التاريخ وتشويه للحقيقة[٨] . ثم ذكر محقق الكتاب هذه الإضافات . وأتبعها بفهرس المقدمة من صفحة ٦٧٧ - ٦٨٠ ثم بفهرس الأفكار الواردة فى نصوص عضد الدين الايجى ، وجلال الدين الدوانى من صفحة ٦٨١ - ٧٠٥ . وأخيرا فهرس الأفكار الواردة فى نصوص الشيخ محمد عبده وقال : إن الشيخ محمد عبده يقف وراء كل فكرة من الأفكار الواردة فى الفهرس السابق فهرس عضد الدين الإيجى ، وجلال الدين الدوّانى .

أنه يشارك فى كل فكرة من هذه الأفكار بنقدها أو تكميلها أو ردها إلى أصلها أو على الأقل بتسهيل عرضها ، ومحاولة تبسيطها ، ولهذا فالفهرس السابق هو نفسه فهرس لمحاولات قام بها الشيخ محمد عبده حول هذه الأفكار . ولذلك فسوف نقصر اهتمامنا هنا على المحاولات الهامة التى لابد من إبرازها مضافة إلى الشيخ محمد عبده وحده ومقرونة باسمه دون مشاركة[٩] . ثم ذكر هذه المحاولات .

وقد انتهى الشيخ محمد عبده من هذه الدراسة فى آخر سنة ١٢٩٢هـ وفى ذلك يقول : إلى هنا انتهى بنا سير الفكر فوقف القلم والحمد لله بالخير تم ، وكان ذلك فى أواخر ذى الحجة الحرام سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف من الهجرة المحمدية[١٠] .

---

(٨) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين ص٦٦١

(٩) المصدر نفسه ص٧٠٦

(١٠) المصدر نفسه ص٦٢٢

٦ - فلسفة الاجتماع والتاريخ ١٨٧٨ - ١٨٧٩م

بدأ الإمام دروسه فى دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون . وكان غرضه من قراءتها بث أفكاره السياسية والاجتماعية فى أذهان التلاميذ ، فكان يطبق ما فيها من الكلام على نهوض الدول ، وسقوطها وشئون العمران وأصوله على أمته ، ويبين أسباب ضعفها ، والوسائل التى تذهب به ، وتعيد اليها ما فقدت من عزها ومجدها ، وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والفصول فى ذلك فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب فى هيكله ، ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده ، وإعلاء شأن أمته لأن هذه الأفكار لم تكن معهودة فى هذه البلاد فلا تذكر فى المدارس ولا فى المجالس ، والمقرر فى أذهان جميع الناس وقلوبهم أنهم عبيد للحكام لاحقوق لهم عليهم[١١] ، وقد كتب فى ذلك العهد كتابا حافلا فى علم الاجتماع وفلسفة التاريخ انتقد فيه بعض ما قاله ابن خلدون واستدرك عليه ما نسخته طبيعة الاجتماع فى هذا العصر من أحكام العمران فى العصور الغابرة وهذا الكتاب هو فلسفة الاجتماع والتاريخ . وقد فقد هذا الكتاب عند ما عزله توفيق من المدرسة ونفى السيد جمال ، وأخذت أوراقه ، يقول[١٢] رشيد رضا : وكان طيب الله ثراه يقول : أتمنى لو يحفظ هذا الكتاب من وقع فى يده ويدعيه لنفسه ولو بعد موتى لينتفع به النّاس ، وقد سألت عنه محمد صالح المستشار فى محكمة الاستئناف إذ كان ممن حضره عليه فقال لى : إننى كنت أكتب ما يمليه الأستاذ من تلك الدروس فطلبتها منه فقال إنها بين أوراقى القديمة فى البلد ، وعسى أن أبحث عنها وأجدها عند زيارتى للبلد فى الإجازة ، ولكنه توفى ولم يفعل[١٣] .

٧ - الجزء الثانى من تاريخ الأستاذ الإمام وهو جل منشآته الإصلاحية والاجتماعية والأدبية

وهو مقسم إلى عدة أبواب : باب المقالات : الفصل الأول : ما كتبه فى عهد طلبه للعلم بمصر ، والفصل الثانى : مقالاته فى السنة الأولى من الأهرام ، والفصل الثالث مقالاته الإصلاحية فى جريدة الوقائع المصرية الرسمية ، والفصل الرابع مقالات العروة الوثقى الإصلاحية والفصل الخامس : ما نشر له بعد النفى من المقالات فى الصحف السورية والمصرية ، والفصل السادس : بعض ما كتبه فى المناظرات الدينية وغيرها . وفيه باب خاص يسمى (باب الرحلات العلمية والتاريخية) وآخر عن لوائح الإصلاح والتعليم الدينى ، أما آخر الأبواب فعن كتبه ورسائله الاصلاحية والسياسية والدينية ، وعن كتبه ورسائله الودادية ، وخاتمة فى بعض كلمه المنثورة وحكمه المأثورة .

---

(١١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص١٣٥

(١٢) المرجع نفسه ص٧٧٧

(١٣) المرجع السابق

وقد جمعه السيد محمد رشيد رضا وطبعه فى مجلة المنار الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤هـ وكتب له مقدمة جاء فيها :

١ - يسفر لك هذا السفر من تاريخ هذه الحياة عن هذا النابغة العبقرى وهو لايزال تلميذا يقتبس أنوار الحكمة من أستاذه السيد جمال الدين ويفيض منها على عقول المستعدين بما يكتب من فلسفة التربية والصناعات ، وآونة يحبر الفصول الإنشائية ، ويجلى المعانى العصرية فى أثواب الأسجاع الحريرية ، ويزفها كالخرائد ، على منصات الجرائد داعيا إلى استقلال الفكر وتناول علوم العصر ، حاثا على ترقية الأمة ، حاضا على تجديد مجد الملة ، آمرا بالاتحاد على ترقية الأوطان ، ناهيا عن التعصب الذميم بين المختلفين فى الأديان فهذا مثال طور الطلب والتحصيل من حياة الرجل العقلية ، يبتدىء فى الكتاب بمقالاته التى كتبها وهو فى عهد طلبه للعلم بالأزهر الشريف ، وينتهى بحكمه المأثوره ، ودرره المنثوره .

٢ - ثم يمثله لك فى طور آخر . وهو تارة بين أرباب الرياسة يرشدهم إلى طرق الإدارة ، والسياسة ، ويهديهم سبيل الرشاد لترقية الرعية وعمران البلاد ، وتارة يشرف على الأمة بالوعظ والتعليم ، ويسلك بها صراط الحياة المستقيم ببيان غوائل السرف وفوائد الاقتصاد وتقويم النفوس بعقائل الفضائل وأحاسن الآداب بعد تطهيرها من لوث الخرافات ومساوى التقاليد والعادات يهبط على الفلاح فى حرثه فيخاطبه بما يفهم ، ويعرج بطالب الحكمة الى أفقه فيعلمه مالم يكن يعلم ، وهذا هو المثال الأول بطور العمل من الحياة المعنوية للرجل تجليه لك مقالات فى جريدة الحكومة الرسمية ، وجل عمله فيها خاص باصلاح حال البلاد المصرية .

٣ - ثم يجليه لك مع أستاذه فى الديار الأوربية متحدين على إرشاد جميع الشعوب الاسلامية (١٤) ، السيد الحكيم يقترح ويدبر ، والأستاذ الإمام يكتب ويحرر ، يدعوان إلى العروة الوثقى التى لاانفصام لها ، ويجمعان القلوب على الوحدة ، وكانا أحق بها وأهلها . هنالك تتجلى لك روح القرآن هابطة من سماء الحكمة والعرفان مؤيدة بالعزة والسلطان ، تطوف بتلك العروة البلاد وتصافح قلوب أهل الاستعداد فتحييها حياة جديدة وتجذبها إلى عيشة سعيدة ، هنالك ترى الإلهام الإلهى يمد بتأثيره العلم الكسبى ، فيصيبان مواقع الاقناع من العقل ، ويبلغان مواضع التأثير من النفس ، فلا يقرأ القارىء ما فى العروة من بيان حال المسلمين وأسباب ما أصيبوا به من البلاء المبين ، وما تطب لدائهم وتصف من دوائهم إلا وينثنى أسير البرهان مملوك الوجدان بالإذعان ، مندفعا إلى العمل بذلك البيان بالجنان واللسان والأركان ، وذلك طور مستوى القوة ، وكمال الفتوة ، ومنتهى علو الهمة وبيع النفس والوقت للملة والأمة

(١٤) المرجع السابق جـ٢ ص ط

٤ - ثم يظهر لك - أيضا فى الديار السورية يعمل لإصلاح الإسلام باصلاح الدولة العثمانية أو مقيما فى الديار المصرية يبين لأولى الأمر طريق الإصلاح بالتربية الدينية .

٥ - ثم يبرزه لك فى طور المبارزين الطاعنين على الدين المبين(١٥) .

٦ - ثم يريكه يجوب الأقطار ، ويقطع أجواز البحار للنظر فى آثار الأولين واستخراج العبر منها للآخرين فتراه فى صقلية مرة يتصفح الصحف والأسفار ، ويستنطق العاديات والآثار ، ويقرأ ما نقش على الجدران بالعربية لتحقيق المسائل التاريخية ، ومرة يبحث عن الأخلاق والعادات ....

٧ - ثم يكشف لك عنه الحجاب وهو يراسل العلماء والكبراء والكتاب .

٨ - ومرّة يشنف مسامعك باللؤلؤ والمرجان من رسائل الوداد إلى الأصدقاء والخلان فيمثل لك الأدب الباهر(١٦) .

٩ - وآونة يقرئك مما كتب إلى المؤلفين بالعربية أو المترجمين للكتب الأجنبية ما يرفع من أقدارهم .

١٠ - وأحيانا يسمعك من تعازيه للمحزونين ومواعظه للمرزوئين بالأقربين ما يحلو به مرير الصبر .

١١ - ثم يختم لك ذكر هذه الحياة الروحية والآثار العقلية بشذرات من الحكم المنثورة .

١٢ - وإن آثاره فى النفوس لأعظم من آثاره فى الطروس(١٧) .

وبالجملة فإن مقدمة السيد رشيد رضا تكشف لنا عن الموضوعات التى جال فيها الإمام والآفاق التى حلق فيها بفكره وروحه . وقد عرضها عرضًا تاريخيا مبتدأ بالطور الأول من حياته وهو لايزال تلميذا ومنتهيا بأرقى طور يمكن أن يصل إليه الإنسان طور الحكم المنثورة والآيات المأثورة . وجميل من رشيد رضا هذا الصنيع وإن كنت آخذ عليه أنه لم يتحدث عن الخصائص الفنية لأدب كل طور من أطوار الإمام اللهم إلا إشارة خاطفة فى الطور الأول حيث يقول « ويجلى المعانى العصرية فى أثواب الأسجاع الحريرية . وقد كان باستطاعته أن يفعل ولكنه أعرض ، ولست أدرى عن عمد ذلك الإعراض أم عن سهو وغفلة .

ومهما يكن من شيء فإننى اعتقد أن هذا الجزء من تاريخ الأستاذ الإمام يحتوى على جل خصائصه الأسلوبية إن لم يحتو على كلها .

وأبرز كتاباته قبل النفى إلى الشام كانت فى جريدة « الأهرام » وفى الوقائع أمّا فى الأهرام

---

(١٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص ى

(١٦) المرجع نفسه ص ك

(١٧) المرجع السابق ص ل

فقد شرع يكتب فيها فصولا متتابعة ، سامية المنزع ، مشتملة على أصول الدعوة الإصلاحية التى صرف حياته فى سبيلها .

وقد استرعت تلك الفصول نظر النّاس إلى ذلك الفتى الناهض إلى السابعة والعشرين من عمره نهضة المصلحين الكبار عاقلا جريئا[١٨] .

وأمّا فى الوقائع فقد ألمّ محمد عبده فى فصوله الكبيرة الفائدة القوية الروح بوجوه الإصلاح التى كانت تنبعث عزيمته إليها ، فدعا إلى التعاون على الخير ، وحبذّ فكرة الحرية ورفع المظالم عن الأهالى ، وعاب على الشعب كسله ، ونادى باصلاح التعليم والتربية فى المدارس ، وحمل على الرشوة وأهلها ، وبينّ أن الحق للقانون لا للقوة ، وذم اسراف الأهالى وتمسكهم بمظاهر المدنية مع الغفلة عن وسائل المدنية الصحيحة ، وعالج إصلاح منتدياتنا وإصلاح بيوتنا ، وذكر رأيه فى خطأ العقلاء الذين يريدون الرقى طفرة ووثبا .

ثم تعرضّ الأستاذ لنوع من الإصلاح الدينى ، شغف به فى أدوار حياته الإصلاحية كلها : ذلك هو تطهير الإسلام من البدع التى شوهت شعائره وجنت عليه .

وهذه المقالات تجمع مبادئه الوطنية ، ومذاهبه فى الحرية ، وطريقه فى الإصلاح[١٩] .

ومن هذه المقالات :

المقالة الثالثة والثلاثون (الشورى) : نشرت فى العدد ١٢٨٩ الصادر فى ٥صفر سنة ١٢٩٩ - ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨١ ومما جاء فيها :

١ - إن الرأى العام فى مغالبة الأهواء ما لا يخفى من القوة[٢٠] .

٢ - ولقد رأى خديوينا الأفخم حفظه الله مثل ما رأى سيدنا عمر مما قضى بالتشاور[٢١] .

المقالة الرابعة والثلاثون

الشورى والقانون

نشرت فى العدد ١٢٩٠ الصادر فى ٦صفر سنة ١٢٩٩ - ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨١م ومما جاء فيها :

١ - إن القانون الصادر عن الرأى العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس إلا .

٢ إن الحاجة هى الأستاذ الذى لايضيع تعليمه ولايخيب إرشاده[٢٢] .

---

(١٨) دروس من القرآن الكريم ص٢٧

(١٩) المرجع السابق ص٢٩

(٢٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص١٩٧

(٢١) المرجع نفسه ص١٩٩

(٢٢) المرجع نفسه ص٢٠١

٣ - ان الحصول على أقصى المراد يستحيل أن يكون دفعة واحدة فقد قضت حكمة الله تعالى فى خلقه أن الشىء لا يبلغ حده فى الكمال إلا بالتدريج[٢٣] .

٤ - استعداد النّاس لأن ينهجوا المنهج الشورى غير متوقف على أن يكونوا متدربين فى البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهله ، بل يكفى كونهم نصبوا أنفسهم وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح على نظام موافق لمصالح البلاد وأحوال العباد[٢٤] .

المقالة الخامسة والثلاثون

التمرن والاعتياد

نشرت فى العدد ١٤٠٠ الصادر فى ١٦ جمادى الآخر سنة ١٢٩٩ - ٤مايو سنة ١٨٨٢م ومما جاء فيها :

١ - حصول صورة الشىء فى النفس علم ، وميلها إلى طلبه أو تركه إرادة ، والتصميم على أحد الأمرين عزم ، وليس بعده إلا الطلب بالفعل أو الترك والترك لايحمل النفس كبير مشقة[٢٥] .... أمّا الطلب فهو واحد الأمرين الذى يحمل النفس عنائين أحدهما يتعلق بها من جهة قوتها الفكرية والثانى من جهة القوة العملية المودعة فى أعضاء البدن والأول مقدمة الثانى وسابق عليه ونسبته إليه لدى أرباب الحل والعقد ورجال النقد نسبة الأمرين المتضايفين لايوجد أحدهما بدون الآخر[٢٦] .

٢ - إن الإنسان من حيث هو مفكر لايقف عند حد محدود فيما يتعلق بلوازم حياته[٢٧] .

المقالة الخامسة عشر

دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان

إذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم

نشرت فى العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى فى ٢٢ شوال سنة ١٣٠١ - ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤م . ومما جاء فيها أثناء حديثه عن أهل فارس وقيامهم بخدمة اللسان العربى وضبط أصوله وتأسيس فنونه قوله : فمنهم :

---

(٢٣) المرجع نفسه ص٢٠٣
(٢٤) المرجع السابق ص٢٠٣ ٢٠٤
(٢٥) المرجع نفسه ص٢٠٥
(٢٦) المرجع نفسه ص٢٠٦
(٢٧) المرجع نفسه ص٢٠٧

١ - عبد القاهر الجرجانى مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية وصاحب صحاح الجوهرى . وبديع الزمان الهمذانى وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين[٢٨] .

٢ - العالم الإنسانى عالم الفكر والكلام فإحكام الفكر الصالح ونشره فى الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر فى تهذيب النّاس ، وتثقيف عقولهم وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم فإذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا وكتبوا ونشروا مع الوقوف عند الحدود الدينية والأصول الشرعية كان فضل الله كافلا لهم النجاح[٢٩] .

المقالة السادسة

اللغة الرسمية فى المحاكم الأهلية بمصر

نشرت فى العدد ٧١١ من ثمرات الفنون بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦هـ . ومما جاء فيها :

١ - انظر إلى المادة ٢٣ من لائحة ترتيب المحاكم الأهلية تجدها صريحة فى أن اللغة الرسمية فى المحاكم الأهلية هى اللغة العربية[٣٠] .

٢ - فن هذا يظهر أن وكلاء الخصوم (الأفوكاتية) عند المحاكم الأهلية يجب عليهم أن يتكلموا باللغة العربية لاغير سواء كانوا عربا أو عجما .[٣١] .

٣ - العادة تكون قانونًا وهى عند الأوربيين تثبت بمرة .... فلو فرض أن القانون جوّز أن يكون الكلام بغير العربية لوجب عليه أن يستعمل الجواز موجبًا للحظر فيقول يجوز هذا ويجوز غيره ، ولى الخيار فى القبول فلا أقبل إلا لسان بلدى[٣٢] .

٨ - شرح نهج البلاغة :

وهو شهير جدا وقد طبع فى بيروت وفى طرابلس وفى مصر مرارا ، وكان سبب شرحه له حمل طلبة المدارس على مطالعته لأجل تحصيل ملكة البلاغة من كتاب مملوء بالتوحيد وعظمة الإسلام ، وذكر فى مقدمته أنه لم يتعرض فيه لمسألة الخلافة لأن الخلاف فيها بين الشيعة وأهل السنة معروف فى كتبها . وهو لم يكن يعتقد صحة اسناد كل ما فى هذا الكتاب إلى الإمام

---

(٢٨) المرجع السابق ص٣١٣
(٢٩) المرجع نفسه ص٣١٦
(٣٠) المرجع نفسه ص٣٦٥
(٣١) المرجع نفسه ص٣٦٦
(٣٢) المرجع نفسه ص٣٦٧

على ، ولا كان يعتقد أنه كله أو جله موضوع كما قال حافظ الذهبى ولم يكن يخفى عليه أن فيه دسائس مدرجة ، ومنها ما ليس من أسلوب الصحابة وعصرهم فى خطبهم وكتبهم كاصطلاحات المتكلمين الحادثة بعدهم .(٣٣)

٩ - تعريب الرد على الدهريين - للسيد جمال الدين الأفغانى

عربها من الفارسية إلى العربية الأستاذ الأمام محمد عبده بمساعدة عارف أبى تراب الأفغانى وإنما عددنا هذه الرسالة من آثار الأمام لأنه قد ترجم فيها للسيد جمال الدين ، ولأننا لانشك فى شغف الإمام بهذه الرسالة وبصاحبها الأمر الذى يجعلنا نرجح أن يكون لأفكار الرسالة تأثير فى عقل الإمام وفكره ، ويتضح ذلك بعد أن نعرض الأفكار الأساسية للرسالة . ثم أليست الترجمة عملا ؟ أليست أثرا يذكر فيحمد للإمام ؟ بلى وإنه كذلك .

بدأ محمد عبده يقدّم لنا رسالة الرد على الدهريين ، فتحدث عن قيمة الرسالة وقيمة مؤلفها ، وعن الباعث له على تأليفها ، والباعث لمحمد عبده على ترجمتها ، وفى كل ذلك يقول(٣٤) محمد عبده :

أتيح لى الاطلاع على رسالة فارسية فى نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل ، محيط المعرفة الشامل الشيخ جمال الدين الحسينى الأفغانى أمّا الشيخ فله من لسان الصدق ، ورفيع الذكر مالا يحتاج معه إلى الوصف ، وأمّا الرسالة فعلى إيجازها قد جمعت لإرغام الضالين وتأييد عقائد المؤمنين ما لم يجمعه مطول فى طوله ، وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله دعاه إلى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان فى البلاد الهندية عندما رأى حكومة الهند الانكليزية تمد فى الغى جماعة من سكان تلك البلاد إغراء لهم بنبذ الأديان ، وحل عقود الإيمان ، وإن كثيرا من العامة فتنوا بآرائهم وخدعوا عن عقائدهم ، وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ما تدعيه تلك الجماعة الضالة ، وممن سأله عن ذلك حضرة الفاضل مولوى محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بمدينة حيدر آباد الدكن من بلاد الهند فأجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بانشاء رسالة فى بيان ما كثر السؤال عنه وقد حدانى علو الموضوع ، وسمو منزلة الرسالة منه إلى الاجتهاد فى نقلها من لغتها إلى اللغة العربية فتم لى ذلك بمساعدة عارف أفندى الأفغانى تابع الشيخ المؤلف ، ورجونا بذلك تعميم الفائدة ، وتكميل العائدة إن شاء الله ، وإنّا نذكر ترجمة الرقيمين مبتدئين برقيم مولوى محمد واصل .

هذا وقد تناولت الرسالة بالمناقشة والتحليل ، وبالعرض التاريخى المتطوّر حقيقة مذهب

---

(٣٣) المرجع السابق جـ١ ص٧٧٨ .

(٣٤) المرجع نفسه ص٢٤ - ٢٥ .

النيشرية والنيشريين وبيان حالهم منذ حكماء اليونان حتى وصل إلى داروين والمتأخرين من الماديين كما بينت المفاسد التى جلبها الماديون على نظام المدينة والمضار التى تضعضع لها بناء الهيئة الاجتماعية وكان منشؤها فشو أفكارهم ، وتحدث عن مظاهر الماديين ومقاصدهم ، وقد شمل الحديث عن كل ذلك الصفحات من ٢٨ - ١٥٥ .

ثم تكلم عن الدين وأنه أكسب عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال أمّا العقائد فهى :

العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وهو أشرف المخلوفات .

والثانية : يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل .

والثالثة : جزمه بأن الإنسان أنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات(٣٥) ... الخ .

وأما الخصال الثلاث التى توارثتها الأمم وقد لا تحد قدمًا وأنما طبعها فى نفوسهم طابع الدين . (فإحداها خصلة الحياء) ثم تكلمّ عن هذه الخصلة وأثرها .

(والخصلة الثانية الأمانة) ثم تحدث عنها وبيّن أثرها .

(والخصلة الثالثة الصدق) ثم تحدث عنها وبيّن أثرها .(٣٦)

وبعد ذلك شرع فى تفصيل(٣٧) غايات النيشريين هذا الوباء المهلك والطاعون المجتاح حسب تعبير الرسالة .

ويبدو أن الأستاذ الإمام قد تأثر بأستاذه جمال الدين فى اتباع طريقة الإجمال أولا والتفصيل ثانيا والدليل على ذلك حديث جمال الدين عن النيشريين إجمالا ثم حديثه عنهم تفصيلا بعد ذلك ونفس الصنيع صنعه محمد عبده فى كتابه الإسلام والنصرانية أجمل أولا وفصل ثانيا .

ومهما يكن من شىء فإن جمال الدين تابع حديثه فذكر مسالك النيشريين(٣٨) فى طلب غاياتهم ، وبين ضرر مذاهبهم حتى بعقول من لا يأخذ بها إذا خالطهم ثم تحدث عن الأمم(٣٩) التى خنعت للذل وضرعت للضيم بعد العزة والشرف بما أفسد فيهم النيشريون وذكر فى ذلك الصدد اليونان والفرس ، والمسلمين ابتداء من القرن الرابع بعد الهجرة فتحدث عن طائفة الباطنية وإفسادها عقائد المسلمين ، وتحدث عن الشعب الفرنسى وأنه كان مشرق التمدن فى

---

(٣٥) ص٤٦ ٥٢
(٣٦) ص٥٢ - ٥٩ .
(٣٧) ص٥٩ - ٦٥ .
(٣٨) ص٦٥ - ٦٨ .
(٣٩) ص٦٨ - ٨٦ .

أوربا إلى القرن الثامن عشر حيث ظهر فيهم الدهريون فأفسدوا تاريخهم وقضوا على تمدنهم ، ولم ينس الأمة العثمانية[٤٠] وتكلم عن « الاجتماعيين » و« العدميين » و« الاشتراكيين » وبين أن هذه الطوائف الثلاثة تتفق فى سلوك هذه الطريقة (الدهرية) وتحدث[٤١] عن مضار إنكار الألوهية ، وعن الأمور[٤٢] التى يمكن بها الزام النفس حدود العدل وذكر أن هذه الأمور هى : المدافعة الشخصية - شرف النفس - الحكومة - الاعتقاد بالألوهية . ولا ريب أن جمال الدين بذلك كان يقابل بين مذهب الدهريين وبين الدين على وجه عام وأثر كل من الأمرين فى بنية الاجتماع الإنسانى ، ثم تناول بالتخصيص بعد ذلك دين الإسلام[٤٣] فبّين أن دين الإسلام قد أقيم على أساس من الحكمة متين ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين ذلك أن نيلهم السعادة الحقيقية فى الدارين مشروط بأمور[٤٤] لا يتم إلا بها .

الأول : صفاء العقول من كدر الخرافات ، وصدأ الأوهام ... وأول ركن بنى عليه الدين الإسلامى صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام .

الأمر الثانى أن تكون نفس الأمم مستقبلة وجهة الشرف طامحة إلى بلوغ الغاية منه بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الإنسانى ماعدا رتبة النبوة فإنها بمعزل عن المطمع وأنما يختص الله بها من شاء من عباده . ولا يذهب وهم أحد من الأمة إلى أنه ناقص الفطرة منحط المنزلة فاقد الاستعداد لشىء من الكمالات ...

إن دين الإسلام فتح أبواب الشرف فى وجه الأنفس وكشف لها عن غايته وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة وأنبأ كل ذى نطق استعداده لأى منزل من منازل الكرامة ومحق امتياز وتفاضل الأصناف وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال وقد لاتجد من الأديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة ....

الأمر الثالث أن تكون عقائد الأمة وهى أول رقم ينقش فى ألواح نفوسها مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة ، وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها ... إن الدين الإسلامى يكاد يكون منفردا من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون ... هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل ...

---

(٤٠) ص٨٦ - ٩٠ .

(٤١) ص٩٠ - ٩٢ .

(٤٢) ص٩٢ - ١٠٥ .

(٤٣) ص١٠٥ .

(٤٤) ص١٠٦ - ١١٦ .

الرابع أن يكون فى كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة ... وأن من أهم الأركان الدينية فى الديانة الإسلامية هاتين الفريضتين : نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر ... حيث كانت أركان الدين الإسلامى بالغة حد الكثرة فلو أخذت فى بيان ما يفيده كل ركن منها فى تقويم المدنية وتشييد بناء النظام الإنسانى وإقامة الدليل على أن كل أصل من أصول هذا الدين عنصر لحياة السعادة الإنسانية لخرجت عن القصد من هذه الرسالة .

ولهذا أخذت على نفسى أن أضع رسالة تختص بذلك الغرض أبين فيها أن المدنية الفاضلة التى مات الحكماء على حسرة من فقدها لا تختط فى العالم الإنسانى إلا بالدين الإسلامى .

فإن قال قائل إن كانت الديانة الإسلامية على ما بينت فما بال المسلمين على ما نرى من الحال السيئة والشأن المحزن فجوابه أن المسلمين كانوا كما كانوا وبلغوا بدينهم ما بلغوا والعالم يشهد بفضلهم واكتفى الآن من القول بهذا النص الشريف « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم »

وهذا آخر ما أردت بيانه فى هذه الرسالة ينتهى به ما أجملته فى كشف سوآت النيشريين (الدهريين) ومضار طريقتهم فى المدنية والهيئة الاجتماعية الإنسانية وتوضيح الأدلة على منفعة الأديان ولزومها لقيام النظام البشرى خصوصا دين الإسلام .

« وبعد » فلعلك لاحظت أننى أكثرت من الاقتباس أخيرا . وقد تعمدت هذا لأننى أحسست أن هذا التصميم الفكرى والروحى لجمال الدين الأفغانى قد تأثر به محمد عبده إلى حد كبير ولاسيما فى كتابه « الإسلام والنصرانية » فقد تحدث فيه عن أصول الدين الإسلامى التى خشى أستاذه أن يتحدث فيها حتى لا يخرج عن القصد من رسالة الرد على الدهريين ، وإذا كان جمال الدين قد أخذ على نفسه أن يضع رسالة يبين فيها أن المدنية الفاضلة التى مات الحكماء على حسرة من فقدها لاتختلط فى العالم الإنسانى إلا بالدين الإسلامى .

إذا كان جمال الدين قد أخذ على نفسه القيام بهذه المهمة فإن محمد عبده قد قام بها فعلا حين ألف كتابه (الإسلام والنصرانية) وكتابه « رسالة التوحيد » وحين ردّ على هانوتو وغيره من المستشرقين .

وإذا كان جمال الدين قد أشار الى حال المسلمين السيئة فان محمد عبده قد أشار أيضا اليها وذكر أن الجمود علة هذه الحال .

وبالجملة فإننى أعتقد أن كتاب « الاسلام والنصرانية » والرد على هانوتو وغيره من المستشرقين إنما هو صدى لرسالة « الرد على الدهريين » السيد جمال الدين الأفغانى أو على الأقل هناك انطباعات كثيرة من هذه الرسالة فى كتاب محمد عبده ولاسيما إذا علمنا أن محمد

عبده كان معجّبا بهذه الرسالة ويرى أنها على إيجازها قد جمعت لإرغام الضالين وتأييد عقائد المؤمنين مالم يجمعه مطوّل فى طوله وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة مالم يحوه مفصل على تفصيله كما وصفها بسمو المنزلة على نحو مابينا ذلك سابقا .

١٠ - شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى

وهو مطبوع فى بيروت ، ولم يعرف لغيره شرح لهذه المقامات .(٤٥)

وفى المقالة الخامسة عشرة من مقالات العورة الوثقى وجدنا الامام يتحدث عن أهل فارس وقيامهم بخدمة اللسان العربى وضبط أصوله وتأسيس فنونه ، ووجدناه يعد من أبرزهم بديع الزمان الهمذانى ، ويشير الى أنه كان له دور فى تبيين دقائق القرآن ، وتشييد معالم الدين فأكبر الظن أن الأساسين اللغوى والدين كانا من وراء اختيار الامام لهذه المقامات يعلق عليها ويشرحها .

لقد كان البديع كما يقول الدكتور مصطفى الشكعة يتسم بالاشراق النفسى ، والجرأة والاستقامة ، والعزة والتدين والنزعة التحررية الجريئة ، والحملة القوية المدمرة على الأوضاع الفاسدة فى زمانه فحاربها حربّا شديدة لاهوادة فيها ولالين ، ولعل ذلك أوضح مايكون فى حملاته على الغلاء وفساد الحكم ، واضطراب الأمن . (٤٦)وهذه أمور تتفق مع مشارب الامام واتجاهاته .

ويقول الامام : (٤٧)

« وهذا آخر ماأردنا تعليقه على ماوجد من مقامات أبى الفضل بديع الزمان الهمزانى وكان الفراغ منه فى السادس عشر من شهر رمضان المعظم سنة ست وثلثمائة والف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم » .

١١ - شرح البصائر النصيرية فى المنطق لعمر بن سهلان الساوى

وهو شرح وجيز أطلق عليه لفظ التعليقات ، والكتاب عالى الأسلوب وهو من أحسن ماكتب المسلمون فى المنطق ، ولم يسبق لأحد قبله كتابة عليه فيما نعلم وقد قرأه درّسا فى الجامع الأزهر(٤٨)

١٢ - نظام التربية والتعليم بمصر :

رسالة فى الطريقة المثلى لتربية المصريين وتعليمهم وهى على إيجازها من أحسن ماكتب

(٤٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص ٧٧٨

(٤٦) بديع الزمان الهمذانى رائد القصة العربية والمقالة الصحفية للدكتور مصطفى الشكعة ص هـ

(٤٧) ص ٢٦٤

(٤٨) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص ٧٧٨

وأدقه ، وقد نشرها رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ ص ٥٣٢ فى باب لوائح التربية والتعليم .

١٣ - رسالة التوحيد :

وقد كتب الأستاذ رشيد رضا مقدمة لهذه الرسالة أبدى فيها إعجابه البالغ بالرسالة وبصاحب الرسالة ، أما الرسالة فقد ارتقى علم العقائد فى مصر بنشرها ، ولأهميتها ترجمت إلى لغة الأردو والى الفرنسية ، وتدرس فى الأزهر وسائر المعاهد الدينية بل إن بعض علماء النصارى قرظوها ، ولايقدّرها حق قدرها إلا عالم جليل ، وأنها لم تدع شبهة على الدين إلا وكشفتها . وان كان رشيد رضا لم ينس أن ينتقد أستاذه فى استخدامه للاصطلاحات الكلامية فى أول الرسالة ورأى أنه يقلل من نفعها . أما صاحب الرسالة فهو حجة الإسلام أتى بمالم يأت بمثله أحد من المتقدمين ...الخ

ولابد لنا من جولة فى الرسالة نستطلع بها سبب تأليف الرسالة والمنهج الذى سلكه المؤلف فيها ، وأبرز المعالم الفكرية والأدبية والنقدية والعقائدية . فلنترك الإمام يحدثنا عن سبب تأليف الرسالة والمنهج الذى سلكه فيها حيث يقول :

لما كنت فى بيروت من أعمال سورية أيام بعدى عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية ودعيت فى سنة ١٣٠٣ إلى تدريس بعض العلوم فى المدرسة السلطانية . ومنها كان علم التوحيد رأيت أن المختصرات فى هذا الفن ربما لا تأتى على الغرض من إفادة التلامذة والمطولات تعلو على أفهامهم والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم فرأيت من الأليق أن أملى عليهم ماهو أمس بحالهم فكانت أماليّ مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم أقربها إلى كفاية الطالب ماأملى على الفرقة الأولى فى أسلوب لايصعب تناوله ، وإن لم يعهد تداوله ، تمهيد مقدمات وسير منها إلى المطالب من غير نظر إلا إلى صحة الدليل ، وإن جاء فى التعبير على خلاف ماعهد من هيئة التأليف ، راميا إلى الخلاف من مكان بعيد حتى ربما لايدركه إلا الرجل الرشيد على أن تلك الأمالى لم تحفظ ارلا فى دفاتر التلامذة ، ولم استبق لنفسى منها شيئا وعرض بعد ذلك مااستقدمنى إلى مصر(٤٩) وكان من تقدير الله أن اشتغل بغير التعليم حتى أتى النسيان على ماأمليت وذهب عن الخاطر جميع ماألقيت الى أن خطر لى من مدة أشهر خاطر العود الى ماتهواه نفسى ويصبو اليه عقلى وحسى ، وأن أشغل أوقات فراغى بمدارسة شىء من علم التوحيد ، علّما منى أنه ركن العلم الشديد فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الأمل ، وعزمت أن أكتب الى بعض التلامذة ليرسل إليّ ماتلقاه بين يدى لكيلا أنفق من الزمن ماأنا فى أشد الحاجة اليه فى انشاء مأرى التعويل عليه وذكرت ذلك لأخى (٥٠) فأخبرنى أنه نسخ ماأملى على

(٤٩) ص٢

(٥٠) هو حمودة عبده وكان تلميذا فى المدرسة السلطانية فى ذلك العهد .

الفرقة الأولى فطلبته وقرأته فإذا هو قريب مما أحب . قد يحتاج اليه القاصد ، وربما لايستغنى عنه المكاثر على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك فى العقائد مسلك السلف ، ولم يعب فى سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب بعد مميله عن أعاصير المشاغب ، لكن وجدت فيه إيجازا فى بعض المواضع ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع وإغفالا لبعض ماتمس الحاجة اليه وزيادة عما يجب فى مختصر مثله أن يقتصر عليه ، فبسطت بعض عباراته ، وحررت ماغمض من مقدماته ، وزدت ماأغفل ، وحذفت ما فضل ، وتوكلت على الله فى نشره راجيا أن لايكون فى قصره ما يحمل على إغفال أمره أو يغض من قدره ، فما من أحد بدون أن يعين ولايفوق أن يعان ، والله وحده ولى الأمر وهو المستعان[٥١]

وهذه المقدمة على جانب كبير من الأهمية لأنها تكشف لنا عن تطور رسالة التوحيد منذ نشأتها الأولى فى بيروت دروسا تلقى على طلاب المدرسة السلطانية ، ليست مختصرة ولا مطولة ولابين هذين إنها لم تضع الكم فى اعتبارها وإنما وضعت ماهو أهم وضعت مايحتاجه الطالب وماهو أمس بحاله ثم وضعت صفوف الدراسة فى اعتبارها فكانت أماليّ مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم أى طلاب الصفوف .

ثم منهج منطقى سديد ينتقل من المقدمة إلى النتيجة معتمدًا فى ذلك على صحة الدليل بعيدا عن إثارة المسائل الخلافية »تمهيد مقدمات وسير منها إلى المطالب .. الخ

كان هذا فى بيروت فلما قدم الإمام إلى مصر وعاد إلى مدارسة شىء من علم التوحيد ذكر سابق العمل وتعلق بمثله الأمل .. الخ فيجد الإمام عند أخيه نسخة مما أملى على الفرقة الأولى فإذا هو قريب مما يجب ، ثم يحدد الإمام قيمة الرسالة حين يقول : قد يحتاج اليه القاصد ، وربما لايستغنى عنه المكاثر » ثم يزيد منهجه إيضاحا حين يقول قد سلك فى العقائد مسلك السلف ... الخ ، وانظر إلى الباحث الذى ينقد نفسه بنفسه حين يقول وجدت فيه إيجازا فى بعض المواضع ... وزيادة عما يجب ... فبسطت بعض عباراته .

على أن أهمية المقدمة لا تقتصر على ذلك بل إنها تكشف عن جوانب من شخصية الامام فهو رجل ذو رأى لا يسير على الدروب المطروقة بل يتخذ لنفسه مسلكا يتمشى مع مايحيطه به من ظروف ومايؤمن به ومايقتنع بصحته . رجل يبتعد ماأمكن عن المسائل الخلافية . لايهتم بحفظ آثاره « ولم استبق لنفسى منها شيئا ، يأتى النسيان أحيانا على ماأملى يهوى مدارسة التوحيد » ويصبو اليه عقله وحسه لأنه يراه ركن العلم الشديد ، حريص على وقته » لكيلا أنفق من الزمن ماأنا فى أشد الحاجة اليه ... الخ سلفى فى عقائده يؤمن بنظرية النقد الذاتى يرى أن الناس للناس فمامن أحد بدون أن يعين ولايفوق أن يعان .

---

(٥١) ص ٣

والواقع أن كل المقدمات التى افتتح بها الإمام كتبه مهمة لأنها تكشف عن منهج تأليفى يناسب الموضوع كما أنها تكشف عن الغاية من الكتاب ، وعن صفات شخصية للمؤلف .

ولنصحب الإمام الآن فى رسالة التوحيد حيث نجده يحدثنا عن تطوّر علم التوحيد والغاية منه تحت عنوان « مقدمات » ، ويبدأ بتعريف علم التوحيد ويبين وجه تسميته بالكلام وقد لاحظت على هذه المقدمات مايلى :

١ - **أصل معنى التوحيد** : اعتقاد أن الله واحد لاشريك له وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه[٥٢]

٢ - هذا النوع من العلم- علم تقرير العقائد وبيان ماجاء فى النبوات- كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام ففى كل أمة كان القائمىن بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحو [٥٣] فى بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل نظام الكون بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الإلزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض[٥٤]

٣ - جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ماسبقه من الكتب المقدسة .. أقام الدعوى وبرهن .[٥٥]

٤ - وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدّس على لسان نبى مرسل بتصريح لايقبل التأويل ، وتقرر بين المسلمين كافة -- إلا من لاثقة بعقله ولابدينه - إن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل .[٥٦] ولعلك ترى معى أن قول الإمام - الا من لاثقة بعقله ولابدينه - فيه قسوة فى الحكم .

٥ - كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشئ قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل .[٥٧]

٦ - وتحدث عن الخلاف بين الفرق الإسلامية فقال :

أغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لافى أصول العقائد .[٤٨]

٧ - تحدث عن قتل الخليفة الثالث فقال : قتل الخليفة بدون حكم شرعى ، وأشعر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس لم يملك الإيمان قلوبهم وغلب الغضب على كثير

---

(٥٢) ص٤

(٥٣) هكذا قال الإمام ولعل صوابها ينحون

(٥٤) ص٥

(٥٥) ص٦

(٥٦) ص٧

(٥٧) ص ٨

(٥٨) ص٩

من الغالين فى دينهم ، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير مايحبون [٥٩] .

٨ - واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع عن سلطان الإسلام وآن لهم أن يشتغلوا فى أصول العقائد والأحكام .

٩ - وكان قد التحق بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين أن يصلوا بينه وبين ماوجدوه [٦٠]

١٠ - عرف الأولون من العباسيين ماكان من الفرس فى اقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على جذب الأنصار منهم ، وأعدوا لهم مناصب الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين فى شىء [٦١]

١١ - بدأ علم الكلام كما انتهى مشوبا بمبادئ النظر فى الكائنات جريا على ماسنه القرآن من ذلك .

١٢ - وحدثت فتنة القول بخلق القرآن ... وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى وسفكت فيه دماء بغير حق وهكذا تعدّى القوم حدود الدين باسم الدين . [٦٢]

١٣ - والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع .

١٤ - وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طالبوا أن يحملوا القرآن على ماحملوه عند التحاقهم بالإسلام وأفرطوا فى التأويل .

١٥ - جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم . [٦٣]

١٦ - أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم والوفاء بما تندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول .

١٧ - وماكان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب فى سبيلهم الى ماهدوا اليه بعد مارفع القرآن من شأن العقل وماوضعه من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل . [٦٤]

---

(٥٩) ص١٠
(٦٠) ص ١٣
(٦١) ص ١٥
(٦٢) ص ١٦
(٦٣) ص ١٨
(٦٤) ص١٩

١٨ - لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم (الأول) الإعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان خصوصًا أرسطو وأفلاطون ووجد أن اللذة فى تقليدهما لبادئ الأمر (والثانى) الشهوة الغالبة على النّاس فى ذلك الوقت ، وهو أشأم الأمرين . زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ماانطبعت عليه نفوس الكافة فمال حماة العقائد عليهم .(٦٥)

١٩ - هذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتأخرين كما تراه فى كتب البيضاوى والعضد وغيرهما وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعًا علمًا واحدا والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ماهو أقرب إلى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم .

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة وتغلب الجهال على الأمر ... ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحاور فى الالفاظ أو تناظر فى الأساليب(٦٦)

٢٠ - ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين ... حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين(٦٧) .

٢١ - وفى ختام هذه الجولة يقول الإمام : هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به فى نهاية الأمر أيدى المفرقين حتى خرجوا به عن قصده ، وبعدوا به عن حده . ثم تحدث الإمام عما يجب علينا اعتقاده ، وعن الغاية من هذا العلم فكان مما قال :

١ - والذى علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد ، العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه ، وماوراء ذلك فنزعات شياطين وشهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه فى صوابه وخطأه .

٢ - الغاية من هذا العلم القيام بغرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى ... والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل لااسترسالا مع التقليد حسبما أرشدنا اليه الكتاب فقد أمر بالنظر واستعمال العقل .

٣ - التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو فضله يعذر فيها الحيوان . ولاتجمل بحال الإنسان(٦٨) .

ثم تحدث بعد ذلك عن أقسام المعلوم ، وعن حكم المستحيل . وأحكام الممكن . وعن أن الممكن موجود قطعًا . وأن وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب . وعن أحكام

---

(٦٥) ص ٢٠

(٦٦) ص ٢١

(٦٧) ص ٢٢

(٦٨) ص ٢٤ - ٤٨

الواجب ، وتحدث عن صفات الله : عن الحياة والعلم والإرادة والقدرة والاختيار والوحدة ، وعن الصفات السمعية التي يجب اعتقادها (٦٩)

وقد لفت نظرى فى كل ذلك قول الإمام فى نهاية حديثه عن علم الله وأحاطته بكل شىء : وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان ومايسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء ، والطب ومايتبعه ، على أن الباحثين فى كل ذلك بعد مابذلوا من الجهد وماصرفوا من الهمم وماكشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أوائل البحث فهل كان الإمام على ذكر بهذه الكتب ومافيها من العلوم ؟ أكبر الظن أنها كانت ثقافة عامة لاثقافة تخصص ، ولعله تأثر فى ذلك بما جاء فى كتاب « المخصص » لابن سيده .

وفى حديث الإمام عن كلام الصفات إجمالا يقول :

ابتدئ الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله ﷺ « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » (٧٠)

٢ - ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شىء من الكائنات ، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ولذة عقله إن كان سليما إنما هى تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به ، وإدراك القواعد التى قامت عليها تلك النسب فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت وصرف للقوة إلى غير ما سيقت إليه . (٧١)

ويذكر رشيد رضا أن الإمام كان يعتقد أن ارتقاء الأمم عن طريق علوم الكون والنفس والاجتماع سينتهى بهم إلى التوحيد وسائر ما قرره القرآن من أصول الدين . (٧٢)

وبعد أن فرغ من الحديث عن أفعال الله جلّ شأنه ، وأفعال العباد ، وحسن الأفعال وقبحها ، وعن النبى والنبوة والرسالة العامة تحدث عن حاجة البشر إلى الرسالة وقد لاحظت عليه ما يلى :-

١ - هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبعث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها وحشيها ومستأسها باديها وحاضرها قديمها وحديثها لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزعة وهمية وإنما هو من الإلهامات التى اختص بها هذا النوع .

٢ - الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء إلى الأجل المحدود .

٣ - الهمت العقول وشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى

---

(٦٩) ص ٢٣

(٧٠) ص ٤٨

(٧١) ص٥٠ .

(٧٢) ص٨١ .

الوجود بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وان لم يدرك كنهه .

ذلك الإلهام يكاد يزاحم فى الجلاء يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة إلى لذائذ غير محدودة ، ولا واقفة عند غاية مهيأة[٧٣] لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات .

٤ – شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوم بل لزمتنا الحاجة إلى التعليم والإرشاد ، وقضاء الأزمنة والأعصار فى تقويم الأنظار وتعديل الأفكار ، وإصلاح الوجدان ، وتثقيف الأذهان ولا نزال إلى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب لا ندرى متى نخلص منه وفى شوق إلى طمأنينة لا نعلم متى تنتهى إليها .[٧٤]

وتحدث[٧٥] عن المسلك الثانى فى بيان الحاجة إلى الرسالة فكان مما قال فى ذلك .

١ – المحبة عماد السلم ورسول السكينة إلى القلوب .

٢ – بجوار كل لذة ألم فلا تنتهى رغائبه – الإنسان – إلى غاية ولا تقف مخاوفه عند نهاية .

٣ – وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد إليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حدا من الأنفس وكادت تتغلب على جميع الشهوات .

٤ – مهب الشقاء هو تفاوت النّاس فى الإدراك .

٥ – من لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة .

٦ – اتفق النّاس فى الإذعان لمن فاق قدرهم .

٧ – الإنسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ، وسامى بقوته ما يعظم أن يسامى من قوى الكون الأعظم ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ذلك لسر عرفه المستبصرون واستشعرته نفوس النّاس اجمعين .[٧٦]

وتحدث عن إمكان الوحى ووقوعه والرسالة ووظيفة الرسل عليهم السلام للناس « فهم يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به مما لو صعب على العقل أكتناهه لم يشق

(٧٣) ص٩١ .

(٧٤) ص٩١ .

(٧٥) ص٩٧ – ١٠٦ .

(٧٦) ص١٠٥ – ١٠٦ .

عليه الاعتراف بوجوده بهذا تطمئن النفوس . وتثلج الصدور ، ويعتصم الموزوء بالصبر انتظارا لجزيل الأجر أو إرضاء لمن بيده الأمر. وبهذا ينحل أعظم شكل فى الاجتماع الإنسانى لايزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم .(٧٧)

ويعلق رشيد رضا على قوله « ينحل أعظم مشكل ... الخ فيقول : يعنى مشكل العمال وما نشأ عنه من الاشتراكية والفوضوية بأنواعها وأوربة كلها فى حيرة من تلافى هذا الأمر ويسهل تلافيه بالدين الإسلامى الذى فرض الزكاة وأمر بالصدقة وهدى الأنفس إلى الرضا بما قسم لها طالبا لسعادة الآخرة مع بذل الجهد فى السعى .(٧٨)

١ - على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزا بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان مطالبًا لها باحترام البرهان ، فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد ، والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد ، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى جناية لا يغفرها له رب العالمين .(٧٩) وتكلم عن تأثير المواعظ الدينية على الإيمان فكان مما قال :

كم سمعنا أن عيونا بكت ، وزفرات صعدت ، وقلوبًا خشعت لواعظ الدين ، ولكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الأدب وزعماء السياسة .(٨٠)

٢ - وكل ما وجه إلى الدين ... فتبعته فى أعناق القائمين عليه الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه ، وما عليهم فى إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ، ويرجعوا إلى أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع فترجع إليه قوته ، وتظهر للأعمى حكمته .(٨١)

ثم تكلم(٨٢) بعد ذلك عن الدين الإسلامى أو الإسلام فكان مما قال عنه :

١ - وأنى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه وما سندى فيما أقول إلا الكتاب والسنة وهدى الراشدين .

٢ - تمّ للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الإرادة ، واستقلال الرأى والفكر.

(٧٧) ص١٢١ .

(٧٨) هامش ص١٢١ .

(٧٩) ص١٢٣ .

(٨٠) ص١٢٦ .

(٨١) ص١٢٨ .

(٨٢) ص١٥٢ - ١٦٠ .

١٤ – تقرير المحاكم الشرعية :

وفيه كثير من الفوائد الإدارية والاجتماعية والأدبية ، وأحوج النّاس إليه بعد القضاة وكتاب المحاكم المرشحون للقضاء وللكتابة فى هذه المحاكم ، وهو مطبوع ومنشور أيضا فى « تاريخ الأستاذ الإمام » جـ١ ص٧٨٦ .

١٥ – الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية :

يقول رشيد(٨٣) رضا :

هو مقالات كتبها لمجلة المنار ثم جرّدناها منها وطبعناها على حدتها وسميناها بهذا الاسم بإذنه فجاءت كتابًا مستقلا أعيد طبعه مرار والغرض الأهم من هذا الكتاب هو إيقاظ المسلمين وإرشادهم إلى أسباب تأخرهم ، وضياع مجدهم وزوال ملكهم ، وإلى المخرج منه ، فهو لم يترك شيئا من هذه الأسباب إلا وقد بينه أحسن بيان مؤيدا بالبرهان ، فترجيح الإسلام على النصرانية فى حرية العلم ونشأة المدنية كان هو الغرض الأدنى المحرّك للكتابة ، وإرشاد المسلمين هو الغرض الأعلى .

هى مجموعة مقالات ظهرت أولا فى مجلة المنار سنة ١٩٠١ ردا على مقالات فرح أنطون فى مجلة الجامعة الجزء الثامن – السنة الثالثة ، وقد ذهب فرج أنطون إلى أن المسيحية كانت أكثر تسامحا مع العلم من الإسلام ، وأن الإسلام أكثر اضطهادا للعلم والفلسفة من النصرانية .

تكلمّ فى المقابلة بين الدينين : المسيحى والإسلامى بالنسبة إلى العلم والفلسفة فى ترجمة ابن رشد . فساءت تلك الترجمة من قرأها من المسلمين لهذه المقابلة ، ولمسألتين أخريين .

أولاها : نسبة إنكار علاقة الأسباب بمسبباتها إلى علماء الكلام .

والثانية : ما تضمنته الترجمة من الحكم بكفر ابن رشد فيلسوف المسلمين الأكبر فى الأندلس .

وقد ردّ الأستاذ الإمام على فرح أنطون فى كل ذلك من الكلام فى فلسفة ابن رشد والمتكلمين ومن المقابلة بين الديانتين ، ونشر ذلك كله فى المنار والطريقة التى اتبعها الأستاذ الإمام فى كتابه هى أنه كان يعرض رأى صاحب الجامعة ثم يرد عليه ردا مجملا أولا ومفصلا ثانيا والموضوع كما ترون على جانب كبير من الخطورة والأهمية يحتاج إلى اللباقة والمهارة حتى لا يتسبب فى إثارة كل النّاس وما يزالون فى غنى عنها . وقد ظهرت تلك اللباقة وهذه المهارة على أسلات قلم الإمام فقد اعتمد فى ردّه على نصوص من انجيل متى وفى هذا دحض أى دحض لآراء فرح أنطون الكاتب المسيحى وستأتى نماذج من تلك النصوص فيما بعد .

---

(٨٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٧٨٦ .

وقد صدر هذا الكتاب أخيرا عن دار الهلال تحت عنوان : « الإسلام دين العلم والمدنية » عرض وتحقيق وتعليق طاهر الطناحي . وجاء فى مقدمة الأستاذ طاهر ما يلى :-

هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم بعنوان « الإسلام دين العلم والمدنية » هو الكتاب الثانى [٨٤] من هذه المجموعة القيمة التى لا ريب فى أن كل كتاب منها سيكون ذخيرة نفيسة ، وهو يشتمل على طائفة من البحوث المختلفة فى الدين الإسلامى وموقفه من المدنية الحديثة ، وبيان المعانى الإنسانية والأهداف الاجتماعية والعمرانية فى هذا الدين الحنيف ، وما يتفق مع الدين المسيحى من مثل عليا ، وما يختلف معه من معاملات بشرية لا تمس جوهر التوحيد وعبادة الله سبحانه وتعالى ، كما يشتمل على دفاع الأستاذ الإمام عن الإسلام فى المزاعم التى ألصقها البعض به جهلا أو خطأ فى البحث والرأى والتقدير كمزاعم مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى عهده الذى أراد أن يخلط السياسة بالدين فقد كتب مقالين عن الإسلام والمسلمين أملاهما عليه الغرض ، ودفعه اليهما تشويه الحقائق خدمة للسياسة الفرنسية وللنفوذ الفرنسى الذى يريد أن يسيطر على البلاد الإسلامية وخاصة فى مستعمرات شمال أفريقيا فى ذلك الحين . [٨٥]

ومما هو جدير بالذكر أن الكتاب الذى طبعته دار الهلال للأستاذ الإمام محمد عبده بعنوان « الإسلام دين العلم والمدنية » عرض وتحقيق وتعليق ظاهر الطناحى ، قد جمع بين مقالات مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا عن الإسلام والمسيحية ، ورد الأستاذ الإمام عليه ، وبين كتاب الأستاذ الإمام « الإسلام والنصرانية » مع العلم والمدنية .

١٦ - تفسير سورة العصر :

كان الإمام فسّر هذه السورة فى دروس متعددة فى الأزهر [٨٦] ثم ألقاها محاضرة أو درسا على علماء مدينة الجزائر ووجهائها سنة ١٣٢١هـ - ١٩٠٣ وكتبه بيده ، وهذا التفسير كما يقول رشيد [٨٧] رضا : « آية من آيات الله عز وجل يظهر به معنى قول الإمام الشافعى رضى الله لو لم ينزل إلا هذه السورة لكفت النّاس ، وفى رواية لو تدّبر النّاس هذه السورة لكفتهم .

وقد طبع أولا فى مجلة المنار ثم ظهر فى طبعات مستقلة .

١٧ - جزء عمّ

قد كتب تفسير هذا الجزء ليقرأ فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجعل طبعه حقا للجمعية خاصّا بها . وقد كتبه فى بعض أسفاره الصيفية إلى أوربا . وأتمه فى مدينة جنيف من

(٨٤) الكتاب الأول : دروس من القرآن الكريم .

(٨٥) الإسلام دين العلم والمدنية : المقدمة لطاهر الطناحى ص٩ .

(٨٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص٧٨٧

(٨٧) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص٥

سويسرة فى صيف ١٣٢١هـ الموافق ١٩٠٣م وطبع الطبعة الأولى فى أوائل سنة ١٣٢٢ الموافق ١٩٠٤ .

افتتح خطبته ببضعة أسطر فيها إشارة إلى كل ما يحتاج إليه المسلمون من إصلاح فى دينهم ودنياهم يتضمن لكل ما هم عليه من سوء الحال ، وخطر الاستقبال وهو ما يمكن أن يكون موضوعا لدروس كثيرة وخطب مفيدة .

ثم ذكر من الباعث على تأليفه لمدارس الجمعية ما يرشد جميع المسلمين إلى ما هم فى أشد الحاجة إليه من الاهتداء وكيف يكون ذلك إذ قال : « ليكون مرجعا لأساتذة مدارس الجمعية فى تفهيم التلامذة معانى ما يحفظون من الجزءين (أى هذا الجزء وجزء تبارك الذى كان عازماً على تفسيره بعده) لينشئوا متعودين على فهم ما يحفظون وتدبر ما يقرأون ، وليكون ما فى تلك السور من دلائل التوحيد والعظات والعبر مشرقا للعقائد السليمة فى نفوسهم ، وعاملا للصلاح فى أعمالهم وأخلاقهم .»[٨٨]

١٨ – شرح دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى

ألقاه درسًا فى الجامع الأزهر ، وكان تدريس الإمام لهذا الكتاب ولكتاب ، « أسرار البلاغة » فتحًا جديدا فى عالم البلاغة والأدب ، كما كان له الفضل فى طبع هذين الكتابين ، والعمل على نشرهما .

وكان شرحه تعليقا على بعض عبارات المؤلف وتحقيقا للبعض الآخر بالاضافة إلى الشرح اللغوى للمفردات والمعانى الاجمالية شرحا أدبيا كما تناوله أيضا من الناحية البلاغية والنحوية .

١٩ – شرح أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى وكان صنيعه مع هذا الكتاب هو بعينه صنيعه مع « دلائل الإعجاز ».

٢٠ – تفسير القرآن الحكيم – المشتهر باسم تفسير المنار

توالى على تفسير القرآن أحوال تختلف باختلاف العصور من أول الإسلام إلى الآن ترجع إلى أربعة أعصر : الأول الشفاهى وهو ينحصر فى أيام النبى وأصحابه فقد كانوا عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة أو آية فهموها وأدركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لأنها بلسانهم ، وعلى أساليب بلاغتهم ولأن أكثرها قيلت فى أحوال كانت القرائن تسهل فهمها وإذا أشكل عليهم شىء منها سألوا النبى فيفسره لهم . وكان التفسير مختصرا ميسرا لسذاجة الدولة الإسلامية يومئذ .

ثانيا العصر التقليدى ونريد به عصر التابعين أو حواليه وكانت الدولة الإسلامية قد أخذت فى النمو والارتقاء فاحتاجوا إلى التوسع فى التفسير وكان أكثرهم أميين فاذا أعجزهم تفسير

---

(٨٨) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص٧٨٧ .

بعض الآيات سألوا عنها من أسلم من أهل الكتاب ولاسيا اليهود المقيمين فى اليمن ، وكانوا قد أسلموا وظلوا على ما كان عندهم من التقاليد المتناقلة شفاها وكتابة مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية .

ثالثا العصر الفلسفى المنطقى : ونريد به تدوين التفسير وضبطه بالقياس الفلسفى والحكم المنطقى بعد أن اختلط المسلمون بأهل العلم القديم فى الشام والعراق وفارس واطلعوا على علوم القدماء وفلسفة اليونان والهند ونقلوا ذلك إلى لسانهم واستخرجوا منه علم الكلام . وكان العرب قد وضعوا العلوم اللسانية وضبطوا معانى الألفاظ وأساليب التعبير فنظروا فى التفاسير السابقة نظر الناقد ومحصوها بالقياس العقلى بالاعتماد على قواعد المنطق بما تقتضيه الفلسفة اليونانية القديمة .

رابعا العصر العلمى : الذى نحن فيه وهو عصر الفلسفة الجديدة المبنية على العلم الطبيعى الثابت بالمشاهدة والاختبار ويمتاز عن العصر السابق باطلاق حرية الفكر من قيود التقليد القديمة التى غلت ألسنة أسلافنا وأقلامهم وأوقفت مجارى التمدن أجيالا متطاولة « فالشيخ المفتى رحمه الله أراد أن ينقل التفسير إلى روح هذا العصر فيفسر القرآن بما يطابق أحكام العقل ويحل الإسلام من قيود التقليد فسار فى هذا الطريق شوطا بعيدا فألقى على طلبة الأزهر خطبًا كثيرة فى التفسير نشرت فى مجلة المنار وطبع بعضها على حدة وكان لها تأثير حسن فى نفوس العقلاء .[(٨٩)]

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول ، الذى يبين حكم التشريع وسنن الله فى الإنسان ، وكون القرآن هداية للبشر فى كل زمان ومكان ، ويوازن بين هدايته ، وما عليه المسلمون فى هذا العصر وقد أعرضوا عنها وما كان عليه سلفهم المعتصمين بحبلها مراعيا فيه السهولة فى التعبير مجتنبًا مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون بحيث يفهمه العامة ولا يستغنى عنه الخاصة .

وهذه هى الطريقة التى جرى عليها فى دروسه فى الأزهر الأستاذ الإمام .

ويقول رشيد رضا :

كان أول اقتراح لى على الإمام أن يكتب تفسيرًا للقرآن ينفخ فيه من روحه التى وجدنا روحها ونورها فى مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة . فقال إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها ما لم يتقنه البعض ، ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل . فاقترحت عليه أن يقرأ

---

(٨٩) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٣ ص١١٨ .

درسًا فى التفسير وكان ذلك فى شعبان ١٣١٥هـ ثم كررت عليه الاقتراح فى رمضان . ويقول : (٩٠)

ولم أزل به حتى اقنعته بقراءة التفسير فى الأزهر فاقتنع وبدأ بالدروس فى غرة المحرم ١٣١٧هـ وانتهى فى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣هـ عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شيء محيطا) من الآية ١٢٥ من سورة النساء . فقرأ زهاء خمسة أجزاء فى ست سنين اذ توفى لثمان خلون من جمادى الأولى .

وهذا التفسير من أعمال الإمام النافعة ، فقد انفرد بمزايا كثيرة أهمها أنه كان شرحا علميا عصريا خاليًا مما حشاه السابقون وهو على كونه لم يخرج عن تفاسير المتقدمين فى مضمونه إلا أنه بلغ فيه الغاية فى سهولة التعبير مع حسنه ، ومن جدة الترتيب مع القرب إلى الاجتهاد .(٩١) وتطبيق العلم على الدين ، وهو مطلب صعب نسج فيه على منوال علماء الدين فى أوربا ردًا على الدهريين الذين يتهجمون على الدين بالعلم .(٩٢) ولكن رشيد رضا أبى إلا أن يسلخ هذا التفسير من آثار الإمام ، ويضيفه إلى نفسه فى لباقة ماكرة ، فالتفسير يحمل اسم رشيد رضا ، وإن ذكر أنه على طريقة الإمام.وبه نقل كثيرة للإمام ، وقدكان بوسع رشيد أن يدع ما لقيصر لقيصر ، وما لرشيد رضا لرشيد رضا ، وما لمحمد عبده لمحمد عبده ، ولكن رشيد رضا أغار على محمد عبده وافترس منه هذا التفسير وأفسد الخطة التى رسمها محمد عبده لتفسيره .

٢١ - دروس من القرآن الكريم :

صدر عن دار الهلال مع تقديم للأستاذ طاهر الطناحى ، وهو أثر نفيس من آثار الإمام ، وجانب علمى جليل من تراثه الخالد ، ودروس دينية نافعة من تفسيره لبعض سور القرآن الكريم وآياته المثلى ، وقد نهج فى هذه الدروس نهجًا يحقق الغرض الذى ترمى إليه هذه السور والآيات وهى أنها كغيرها مما نزل به القرآن هدى للنّاس وبيّنات من الهدى ، وإرشاد للفرد والجماعة إلى أسباب النجاح فى الدنيا والسعادة فى الآخرة وقد عرض الأستاذ طاهر الطناحى فى الكتاب لترجمة الامام مستقاة من كتاب الأستاذ/مصطفى عبد الرازق عن « محمد عبده »

ويشتمل الكتاب على تفسير سورة الفاتحة وسورة العصر ، كما اشتمل على الموضوعات الآتية :

العلم والتعليم - الخير والشر - مسألة الغرانيق - زينب وزيد - سنن الله فى الأمم .

---

(٩٠) تفسير المنار جـ١ ص١٤ .

(٩١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٣ ص٢١ - ٢٣ .

(٩٢) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٣ ص١٠ نقلا عن جريدة الأهرام فى ١٩٠٥/٧/١٣ .

ومما هو جدير بالذكر أن السيد رشيد قد عرض لهذه الموضوعات فى كتابه « تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن » وجاء صنيع الأستاذ طاهر ليعيد الحق إلى نصابه وينسب إلى الإمام أثرا من أجل آثاره .

٢٢ - تفسير الفاتحة

و٦ سور من خواتيم القرآن

العصر والكوثر والكافرون والإخلاص والمعوذتين

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

رضى الله عنه

إلا تفسير سورة العصر المطوّل فهو للأستاذ الإمام ويليهن خمس أثارات للأستاذ الإمام فى التوسل والتوحيد ومشكلات التفسير ، ومحاضرة فى العلم والتعليم .

ولست أدرى سببا لهذا الخلط الذى لجأ إليه رشيد رضا لماذا لم يفرد تأليفه عن تأليف الإمام ويخص كلا بكتاب ؟ وقد أحسن الأستاذ طاهر الطناحى صنعًا حين فصل تأليف الإمام عن تأليف رشيد رضا فى هذه المجموعة وأطلق على تأليف الإمام عنوان « دروس من القرآن الكريم » وأضاف إليها ترجمة الأستاذ الامام ، وإن كان من الانصاف لرشيد رضا أن نذكر أنه قسم الكتاب إلى قسمين : جعل القسم الأول لما قاله والقسم الثانى لما قاله الإمام ، ولكن القسم الأول برغم هذا التقسيم قد اشتمل على آراء كثيرة للإمام وما كتبه كل منهما كان كافيا ليظهر فى شكل مستقل يعفينا من هذا الخلط .

- سورة الفاتحة -

قطع الأستاذ الإمام بأنها أول سورة نزلت من القرآن ، وهو مروى عن على كرم الله وجهه ، واستدل على ذلك بوضعها فى أول القرآن بالإجماع وبموضوعها الشامل لمقاصده الكلية بالإجمال الذى علم به وجه تسميتها بأم الكتاب .(٩٣)

(قال رحمه الله ما مثاله) إن ما نزل القرآن لأجله خمسة أمور كلية (أحدها) التوحيد لأن النّاس كانوا كلهم وثنيين وإن كان بعضهم يدعى التوحيد (ثانيها) وعد من أخذ به

(٩٣) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن لرشيد رضا ص١٥ .

وتبشيره بحسن المثوبة ، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة ، والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتها ، والوعيد كذلك يشمل نقمها وشقاءهما .[٩٤] فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد المخالفين بالخزى والشقاء فى الدنيا كما وعد بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة (ثالثها) العبادة التى تحيي التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس (رابعها) بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيها الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة (خامسها) قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذوا بأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكامه ظهريا لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله فى البشر .

هذه هى الأمور التى احتوى عليها القرآن وفيها حياة النّاس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ولاريب[٩٥] .

- آثارات للأستاذ الإمام -
فى مشكلات فى العقيدة وبعض آيات القرآن
الأولى فى التوسل بالأنبياء والأولياء

يرد الأستاذ الإمام على المعتقدين فى التوسل فيقول : بين أيديهم القرون الثلاثة الأولى . ولم يكن فيها شىء من هذا التوسل ، ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أوصافه أنه بدعة فى الدين ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار ، وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الإشراك بالله وسوء الظن كهذه البدع التى نحن بصدد الكلام فيها[٩٦] .

٢ - إن لفظ الجاه الذى يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل مفهومه العرفى هو السلطة ، وإن شئت قلت النفوذ عند من يستعمل عليه أو لديه فيقال فلان اغتصب مال فلان بجاهه ويقال فلان خلص فلانا من عقوبة الذنب بجاهه لدى الأمير أو الوزير مثلا فزعم زاعم أن لفلان جاها عند الله بهذا المعنى إشراك جلى لاخفى وقلما يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغوى وهو المنزلة والقدر على أنه لامعنى للتوسل بالقدر والمنزلة فى نفسها لأنها ليست شيئا ينفع وإنما يكون لذلك معنى لو أولت بصفة من صفات الله كالاجتباء والاصطفاء ، ولا علاقة لها بالدعاء ، ولا يمكن لمتوسل أن يقصدها فى دعائه ، وإن كان الألوسى المسكين بنى

(٩٤) المرجع نفسه ص١٦

(٩٥) المرجع السابق ص١٧

(٩٦) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن لرشيد رضا ص١٥٣

تجويز التوسل بجاه النبى خاصة على ذلك التأويل وما حمله على هذا إلا خوفه من ألسنة العامة وسباب الجهال ، وهو ما لا قيمة له عند العارفين فالتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاثة وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله ، وشبهه العدول عما جاء به رسول الله ﷺ فلم الإصرار على تحسين هذه البدعة (٩٧) .

والإمام هنا يترك المنهج اللغوى الذى كثيرا ما يستخدمه فى تفسيره ويميل إلى العرف لأن ذلك العرف هو مقصود المتحدث وفى هذا ما فيه من يقظة الإمام وفطنته ثم انظر إلى نقده للألوس المسكين ، وخوفه من العامة وما أجمل قول الإمام عن سباب الجهال : لاقيمة له عند العارفين ، والإمام لايبتعد عن منهجه العام الذى ارتضاه لنفسه منهج السلف ، وان كان يضع فى الاعتبار عرف التخاطب والتحدث (٩٨) .

وفى حديث الإمام عن آيات سورة الحج والضلال فى تفسيرها يمهد الإمام لذلك بقوله :

قد يجد الباطل أنصارا ، فيتبوّأ من نفوسهم دارا ، ويتخذ له منها قرارا ، وتذهب على ذلك الأيام بعد الأيام وتمضى عليه الأعوام إثر الأعوام ، وهو يلعب ويغلب أهواءهم بحيله حتى يقصروا نظرهم عليه ولا يجدوا ملجأ منه إلا إليه (٩٩) فإذا أتوا من ناحيته رضوا ، وإذا عرض لهم الحق أعرضوا ، ولا يزالون كذلك إلى أن تنحل به عراهم ، وتفسد بعلله قواهم ، والحق لايزال يعرض نفسه ، يستخدم مرة لينه وأخرى بأسه ، وهو الشاب الذى لايهرم ، والعامل الصبور الذى لايسأم ، وإنما يعرض بوجهه عن الأغبياء ويولى ظهره الأشقياء ، ثم لا ينفك يرحمهم ، ولايبرح يتعهدهم يسفر عليهم محياه ، ويرسل اليهم أشعة من سناه ، فإذا وافاهم وقد وهنت منتهم ، ومرهت عيونهم ، وحلك ليلهم ، واشتد خيلهم صاح بهم منه صائح ورمحهم من جنده رامح فقلق بالباطل مكانه ، وزلزلت من حوله أركانه ، وفزع يطلب النصير ، وثار يلتمس المجير فلا يجد إلا أسبابا تقطعت به ، وأعضادافت فيها بسببه ، وقد رق قومه ، وعبس يومه فيحملق الى الحق يأخذه ببصره ويستنزله بنظره ، ولكن خاب الظن ، وبطل الفن ثم لايلبث وهو الباطل أن يتحوّل عنه اليأس أملا ويجد من اليبس بللا فيظن وهو أن الحق ناصره وأن ستقوى به أواصره فيستنصر بجنده ويطلب النجدة من عنده (١٠٠) . وأقرب ما يكون خصم إلى الهلكة إذا اطمأن إلى عدوه ، وأمل الخير فى دنوه ، هذا شأن الباطل وأهله مع تقلبه فى ملله ونحله (١٠١) .

---

(٩٧) تفسير خدعة وست سور من خواتيم القرآن لرشيد رضا ص١٥٤

(٩٨) المرجع نفسه ص١٦٢

(٩٩) المرجع نفسه ص١٦٧

(١٠٠) المرجع السابق ص١٦٨

(١٠١) المرجع نفسه ص١٦٩

تشعر فى هذا النص بعاطفة الشيخ التى تعشق الحق وتبغض الباطل ، تحس بالشيخ يرى أن بين الباطل والحق صراعا وأن النصر للحق لامحالة ، تحس بقلب الشيخ ينبض بنبضات الحق والصدق فيرسلها ألحانا موسيقية موقعة على أوتار الأدب فهو هنا يسلك الطريقة المقيدة وما تستتبعه من حرص على المحسنات البديعية كالسجع والمزاوجة والطباق والجناس ، والتكرار المعنوى ، واستخدام الجمل الطويلة أحيانا والقصيرة احيانا أخرى ، فمن أمثلة السجع والمزاوجة : قد يجد الباطل أنصارا فيتبوّا من نفوسهم دارا ويتخذ له منها قرارا ، ومن أمثلة الجناس : رضوا وأعرضوا وعراهم وقواهم ، ومن أمثلة الطباق لينه وبأسه . ومن أمثلة التكرار المعنوى يعرض بوجهه عن الأغبياء ويولى ظهره الأشقياء ثم لاينفك يرحمهم ، ولايبرح يتعهدهم ، يسفر عليهم محياه ، ويرسل اليهم أشعة من سناه ومن أمثلة الجمل القصيرة خاب الظن وبطل الفن ، وهكذا تجد الشيخ ملتزما للطريقة المقيدة ولكن فى سلاسة ويسر وبدون تكلف أو افتعال ، وانما هى نفس منسابة مع التعبير حتى كأن أسلوبه شعر منثور أو نثر مشعور ثم إن الشيخ لايجنح إلى التعبير المباشر وإنما يلجأ إلى التصوير الأدبى الممتع وهذا أمر طبعى مادامت هناك نفس تحس وعاطفة تفور يستخدم الشيخ التشبيه والاستعارة والكناية استخداما موفقا ماهرًا فمن تشبيهاته قوله عن الحق : هو الشاب الذى لايهزم والعامل الصبور الذى لايسأم ومن استعاراته قوله عن الحق أيضا يسفر عليهم محياه ، ويرسل اليهم أشعة من سناه ، أما الكنايات فكثيرة إذ هى الصفة البيانية الغالبة على النص مثل : وهنت منهم ، ومرهت عيونهم ، وحلك ليلهم .. الخ ثم يختم الإمام النص بتلك الحكمة الرائعة : وأقرب ما يكون خصم إلى الهلكة إذا اطمأنّ إلى عدوه .

إن الإمام بهذا الأسلوب المشرق يعيد إلى أذهاننا خير تلك الطريقة المقيدة فى أوج مجدها يوم كانت مزدهرة فى القرون الأولى ويثبت أن العبرة ليست فى الطريقة المقيدة وليس اليسر فى الطريقة المرسلة وانما يرجع التعقيد كما يرجع اليسر إلى الفنان فبيد فنان تستقيم طريقه وبيد فنان آخر تعوّج نفس الطريقة وهكذا . هذا وان كنت ألاحظ أن الطريقة الغالبة على أدب الإمام هى الطريقة المرسلة ، وأنه لايسلك الطريقة المقيدة إلا فى بعض الأحيان ، ولعله يسلكها حين تنصهر نسفه ويتوهج شعوره ويتغلب قلبه على عقله ، فى لحظات الشعور الغامر ، والعواطف الجياشة .

وبعد هذا التمهيد الذى نقلنا جزءا منه يقول الإمام :

والآن أرجع إلى تفسير الآيات على الوجه الذى تحتمله ألفاظها وتدل عليه عباراتها والله أعلم[١٠٢] . وهى الآيات من قوله تعالى فى سورة الحج : وما أرسلنا من قبلك من رسول

---

(١٠٢) المرجع السابق ص١٧٨

ولانبى إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته ... إلى قوله : أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » .
يفسر الإمام التمنى على وجهين :

(الأول) أن يكون تمنى بمعنى قرأ والأمنية بمعنى القراءة وهو معنى قد يصح وقد ورد استعمال اللفظ فيه . قال حسان بن ثابت فى عثمان رضى الله عنهما :

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى الحمام المقدرا

وقال آخر :

تمنى كتاب الله أول ليله تمنى داود الزبور على رسل[١٠٣]

ثم يقول : وسواء أرجعت الضمير فى « أنه الحق » إلى ما جاءت به الآيات المحكمة من الهدى الإلهى أو إلى القرآن وهو أجلها فالمعنى من الصحة على ما يراه أهل التمكين[١٠٤] .

وواضح أن الإمام هنا يدرس النص دراسة أدبية لغوية ولكنه لاينسى أن يربط آيات القرآن بعضها ببعض وذلك حيث يقول : ما أقرب هذه الآيات فى مغازيها إلى قوله تعالى فى سورة آل عمران « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات .... الخ .[١٠٥] » .

والوجه الثانى فى تفسير الآيات : أن التمنى على معناه المعروف وكذلك الأمنية وهى أفعولة بمعنى المنية وجمعها أمانى كما هو مشهور[١٠٦] ثم ينقل كلامًا عن العلماء والأدباء يؤيد به وجهة نظره إلى أن يقول : على أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق العلى لم يرد لا فى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جاريا على ألسنتهم الا ما جاء فى معجم ياقوت غير مسند ولا معروف بطريق صحيح وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة كما قال ابن اسحاق[١٠٧] .

وفى مسألة زيد وزينب يقول الإمام : إن قبول الحديث لايصح أن يكون موقوفا على قوة سنده وضعفه فقط بل تجب فيه مراعاة أمور أخرى كانطباقه على قواعد الشريعة العامة وعقائد الدين الصحيحة وغير ذلك[١٠٨] .

وقد سأل أحد فضلاء تونس الأستاذ الإمام عن تفسير الآيات الواردة فى هذه المسألة فأجابه إلى طلبه ونشر هذا فى غرة شعبان سنة ١٣١٨هـ نوفمبر ١٩٠٠م . ومما قاله الإمام فى

---

(١٠٣) المرجع نفسه ص١٨٠
(١٠٤) المرجع نفسه ص١٨٢
(١٠٥) المرجع السابق
(١٠٦) المرجع نفسه ص١٨٤
(١٠٧) المرجع نفسه ص١٨٩
(١٠٨) المرجع نفسه ص١٩٠

ذلك : لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب إلى أن تبلغ حد العشق خصوصا إذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهادة الأقرباء بعضهم فى بعض متى تعوّد بعضهم النظر الى بعض من بداية السن إلى أن يبلغ حدا منه تجول فيه نظرة الشهوة فكيف نظن أو نتوهم أن النبى الذى يقول الله :ولا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا) يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله فى ذلك(١٠٩) أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده(١١٠) .

ونحن نتفق مع الإمام فى بعض ما ذهب اليه ونختلف معه فى البعض الآخر نتفق معه فى أن ميل الرسول إلى زينب كذب وافتراء لأنه يخالف أمر الله ويخالف العصمة ويخالف الذوق السليم فالرسول هو الذى زوجها بنفسه لعبد من عبيده فكيف يتزوّجها بعد ذلك ؟ ولكننا نختلف معه حينما يقول : لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب .... الخ ونرى أن الشهوة لاتعظم فى فترة الصغر لأن نظر كل منهما للآخر لم يبلغ حدا تجول فيه الشهوة كما يقول الإمام ، وأنها غير مأمونة بعد ذلك ، وإلا لما حث الرسول على التفرقة بين الأخوة فى المضاجع ، ولقد كان الإمام ماهرا فى تعبيره محتاطا لنفسه حين يقول : لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر....الخ » .

٢٣ - فاتحة الكتاب

وقد صدر هذا الكتاب عن دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة ضمن سلسلة «كتاب التحرير » وكان أول عمل لها فيما يبدو إذ أخذ رقم(١) وهو يشتمل على مقدمة التفسير التى ذكرها رشيد رضا فى مقدمة تفسير المنار . وقد تحدث فيها الإمام عن ضرورة فهم القرآن بالتعقل والتدبر ، وبيّن أن للتفسير وجوها شتى ، وأن القرآن حجة قائمة إلى يوم القيامة ، ولابد لكل مسلم أن يكون له من فهمه نصيب بقدر طاقته واستعداده وتحدث عن مراتب التفسير ، وما الذى يجب على النّاس من التفسير ، وذكر أن التفسير فرض كفاية ، وأن الحاجة شديدة إلى التفسير اليوم وفيما بعده ، وبيّن أن جاهلية النّاس اليوم أعرق فى الجهل من الجاهلية الأولى ، وتحدث عن تأثير القرآن العظيم واعتناء العلماء الأولين باللغة العربية ، وأخيرا عرض لتفسير سورة الفاتحة .

٢٤ - أسباب الثورة العرابية

شرع الإمام فى أواخر سنى حياته بكتابة تاريخ الثورة العرابية يبين فيه أسباب الحوادث ومسبباتها ويستنبط النتائج من مقدماتها ، توجه إلى كتابة هذا الكتاب بطلب من أمير البلاد ،

(١٠٩) المرجع السابق ص١٩٣

(١١٠) المرجع نفسه ص١٩٤

ويقول رشيد رضا : « وإنك لتجد ما كتبه فى هذه الحال القاضية بأتمّ الروية والاعتدال مما يعد فى معنى الشرح لما جاء فى قصيدة السجن إلا ما فيها من الفخر الذى لايحسن الا فى الشعر ... » .

ومن سوء حظ مصر والمصريين بل الشرق الأدنى والشرقيين ومحبى حقائق التاريخ أجمعين أن الأستاذ الإمام لم يتم تأليف هذا الكتاب ، وسبب ذلك أنه كان يكتبه لأمير البلاد عباس حلمى بأمره وكان إذا رغب اليه بكتابته – وذلك فى السنين الأولى – من إمارته – موادا للأستاذ شديد الرغبة فى استفادة الأمة من معارفه ، ولكن لم يكد يتم القسم الأول من الكتاب ، وهو ما تقدّم الثورة من المقدمات والأسباب حتى تجمعت نواجم التناكر بين الأمير والأستاذ ، وبهذا صار تأليف الكتاب للأمير مشكلا(١١١) . ثم إن أعمال الأستاذ الإمام تضاعفت بعد جعله مفتيا للديار المصرية وعضوا فى مجلس الأوقاف الأعلى ومجلس شورى القوانين على كونه رئيسا للجمعية الخيرية ، وعضوا فى مجلس إدارة الأزهر .

فلأجل هذا كله ترك إتمام كتاب الثورة منتظرا به سنوح الفرصة(١١٢) . ونشرت أجزاء منه فى تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص١٥٩ وما بعدها ، وأجزاء أخرى فى كتب مستر « بلنت » وفى رسالة الدكتور محمد صبرى باللغة الفرنسية عن نشأة الروح القومية المصرية التى طبعت فى باريس ١٩٢٤م . ولهذا الكتاب دون شك أهمية كبرى فى فهم هذه الثورة وأسبابها ، ودوافعها ، ويبدو أن الشيخ محمد عبده قد تناول أحداث الثورة وأبطالها وأسرارها بشىء من الصراحة فكان هذا سببا فى اختفاء الكتاب وعدم طبعه أو ظهوره(١١٣) .

خطاب الأستاذ الإمام لسمو الخديوى فى أول الكتاب

إلى مليك مصر المعظم عبّاس حلمى باشا الأفخم .

مولاى

هذا مقام الذاكر لنعمتك ، العارف بقدر منتك العاجز عن الإيفاء بحق شكرك ، التالى فى سره وجهره لآيات حمدك ، طوقتنى إحسانا لم أكن أتأمله إذ أمرتنى أمرا ما كنت أتخيله ، أمرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت ، وما علمت وما اعتقدت فى الحوادث العرابية من عهد نشأتها إلى نهايتها مع بيان أسبابها ، وإسناد الأعمال إلى أربابها سمحت بأن تكون الحقيقة بادية الرواء ، حاسرة نقاب الرياء ، أى منة أعظم من الإذن للحقيقة أن تتجلى بعد أن نسجت عليها العناكب ، وتدافعت عنها المناكب ، ومنعها عن الأبصار عثير الأهواء وحجب

(١١١) تاريخ الأستاذ الإمام رشيد رضا جـ١ ص١٥٧

(١١٢) المصدر نفسه ص١٥٨

(١١٣) التاريخ والمؤرخون فى القرن التاسع عشر للدكتور جمال الدين الشيال ص١٦٩ ، ٢٥٦

عن البصائر ضلة الأعياء ، وذلة الضعفاء حتى أنكرها من شهدها ، وخبط فيها من سمع خبرها ممن تولى كبرها ، أو ممن لم يقف على سرها ، ولم يميز خلها من خمرها . أى إحسان أجل وأوفى من رغبة مليك فى كشف الغطاء عن حادثة ألمت بعرش الدولة(١١٤) . واضطربت لها أركان الحكومة ، وتغير لها وجه السلطان ، وظهرت بعدها البلاد فى شأن جديد علم بعوامل هذه الفتنة يقرر تبعة الخطيئة على من اقترفها ، ويبرىء منها من رمى بها ، وقد كان الساعى فى تسكينها ، وحاثى التراب فى وجهها ، وقوف على دخائل هذه النازلة يبعد بالعقل الرشيد فى مثلها من الاغترار بظواهر ليست لها سرائر وصور إما تنكشف عن غير وعبر ، ويجنب الفكر السليم فيما يشبهها عن الزلل فى مزالق الخطل ويضىء لأهل العزم مسالك الحزم ، فلمولاى المنة على الحقيقة ومظهرها ، حتى قدرها ، واستضاء بسناها واهتدى بنورها . مولاى أرفع إلى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسى غير ناظر فى كتاب ولا راجع الى مقال سبقنى به غيرى اللهم إلا إلى بعض الأوامر الرسمية أو شىء من المخابرات السياسية التى يضطر فى بيان الوقائع إلى الإشارة إليها إذ لاغنى للقارىء عن الاطلاع عليها .

أرفع إلى كرم مولاى المعظم ما استطعت أن أعرض على مقامه الفخيم امتثالا لأمره الكريم معترفا بقصورى عن إبلاغه منزلة كتاب يستحق النظر أو عمل من الأعمال يليق به أن يذكر إلا إذا شملته عناية الجناب العالى بحسن القبول فعند ذلك تعلو قيمته ، وتستكمل له زينته ، ويرتد عنه كيد الكائد ، وتنقطع دونه نفثات الحاسد ، أيد الله بالحق مليكنا ومولانا ، وأبلغه من العزة والمجد امتنانا ، آمين(١١٥) .

بدأ الأستاذ كتابه بوصف حالة البلاد المصرية وحكومتها السوى عند ما تنازل اسماعيل عن إمارة مصر ووليها توفيق ، وأن البلاد دخلت فى عهده فى طور جديد من الحياة ، وبدأت حركة الاصلاح وتظاهر الأجانب بالرضا عنه ، وتحدث أيضا عن مبدأ الفوضى فى الجندى المصرى إذ كان يعتبر الحركة العرابية حركة فوضوية أدت إلى ازدياد نفوذ الأجانب وبين أسبابها وغايتها(١١٦) . ثم يقول الإمام :

« وهنا أترك تسلسل الحوادث ، وتوارد الأسباب التى جرّت إلى الثورة حتى أفرغ من ذكر ما تّم من الإصلاح مدة وزارة رياض باشا ، وما تحولت إليه أحوال المصريين ، وما عرض على أفكارهم مما يحسب تقدمًا وتأخرًا . آتى على ذلك باجمال يغنى عن تفصيل ان شاء الله ثم ترى بعد ذلك سلسلة الحوادث قد اتصلت حلقاتها بما ذكرناه سابقا بدون حاجة للتنبيه للعود اليه » .

(١١٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص١٥٨

(١١٥) المرجع السابق ص١٥٩

(١١٦) المرجع نفسه ص١٥٩ – ١٧٠

ثم يقول عن رياض إنه سار فى الإصلاح سيرة حميدة لاعيب فيها إلا محاولة تعميم العدل والمساواة فيها بسرعة وتلخص ذلك بما يأتى : -

١ - الغاء رياض للسخرة[١١٧] .

٢ - العدل فى توزيع مياه النيل - الغاء الضرائب وضع ميزانية الحكومة - إبطال الكرباج - إبطال الحبس فى تحصيل الحقوق - قانون تصفية الديون المصرية[١١٨] .

وتحدث أيضا عن عمله فى إدارة المطبوعات ١٧٥ - ١٨٠ وعن دار الكتب ودار العلوم وإصلاح نظام العسكرية وإصلاح المحاكم[١١٩] . وتحدث عن شيء من سيرة الخديوى توفيق ، والوزير رياض ، وعن عثمان رفقى ، وتأثير سيرة رياض وشمائله فى مقدمات الثورة ، وإثارة الخديوى الضباط على رياض وكيف أن سيرة الأجانب كانت من أسباب الثورة وأسباب تألب الضباط الذى أفضى إلى الثورة وتحدث عن عبد العال وعلى فهمى وأحمد عرابى وأحمد عبد الغفار ، ومظاهرة الملأ المصرى للضباط ، وحادثة قصر النيل ، ومسلك الخديوى وحاشيته مع الضباط ، وتأثير دسائس الحاشية الخديوية فى عرابى ، وطلب عرابى مجلس نواب وسببه ومسألة التسعة عشر ضابطا حيث كتب البكباشى عبد الله أفندى الكردى تقريرا أمضاه هو وضابط « قول أغاس » وستة عشر من اليوزباشية وملازمان وقدمه إلى ناظر الجهادية ، ومحصل ما فيه الشكوى من تصرف عرابى ومحالفيه وتعديهم حدود القانون واشتغالهم ببث الدسائس بين ضباط الجيش[١٢٠] . وتحدث عن القوة التى كان يعتمد عليها ناظر الجهادية ومأمور الضبطية ، وطاعة الجند لأمر عرابى ورفقائه دون الناظر وعن سلطان باشا ، وحادثة عابدين[١٢١] .

هذا هو التخطيط العام لكتاب الثورة العرابية كما جاء فى تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول .

٢٥ - آراء ومذكرات

صدر هذا الكتاب ضمن سلسلة « كتب قومية » وهو الكتاب الحادى والعشرون من هذه السلسلة ، وقد صدر عن الدار القومية للطباعة والنشر يوم الثلاثاء ٨سبتمبر ١٩٥٩ والكتاب عبارة عن قسمين :

القسم الأول : هو آراء الأستاذ الإمام مستخلصة من مقالاته بجريدة العروة الوثقى .

---

(١١٧) المرجع السابق ص١٧٠ - ١٧٢

(١١٨) المرجع نفسه ص١٧٢ - ١٧٥

(١١٩) المرجع نفسه ص١٨٠ - ١٨١

(١٢٠) المرجع نفسه ص١٨٢ - ٢١٤

(١٢١) المرجع نفسه ص٢١٤ - ٢٢٤

والقسم الثانى : مذكرات الثورة العرابية نقلت من دفتر جيب للإمام بخط يده ، والظاهر أنه كان تابعا لدفتر آخر قبله كما يقول[١٢٢] ناشر الكتاب .

تحدث فى القسم الأول عن مقالة عنوانها (ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها).[١٢٣] افتتحها بقوله تعالى : سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا) وتحدث عن رفعة الأمة وانحطاطها فبين أن انحطاط الأمم نتيجة لعدة عوامل منها تفرق الأهواء ، واختلاف الآراء ، وتراكم الجهل والغبن ، وضلال الطريق إلى الغاية ، ومما قال[١٢٤] فى ذلك :

١ — (هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة ، وتوحد آراءها المتخالفة بعد ما تراكم جهل وران غبن ، وخيّل للعقول أن كل قريب بعيد ، وكل سهل وعر؟ ايم الله أنه لشىء يعيا فى علاجه النطاسى ، ويحار فيه الحكم البصير)

ثم أخذ يبحث فى حقيقة الدواء ومرض الأمة والفرق بينه وبين معالجة مرض الأفراد الجسدى ، ويستعرض الآراء فى ذلك ، ومنها ذهاب بعض النّاس إلى فائدة الجرائد ، وآخرين إلى الاعتاد على إنشاء المدارس على نحوها فى أوربا ... وضرب المثل لقلة غنائها فى ذلك بما فى مصر والدولة العثمانية منها ، وما كان من سوء تأثيرها ، ورأى هذا تقليدا سيئا نعته بأنه « جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ، وما كان هكذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها »[١٢٥]

ثم أجمل ما فصله من تقييد ما قيل فى علاج هذه الأمة وانتقل إلى العلاج الصحيح الذى قال فيه إنه سبب يجمع كل الأسباب ، ووسيلة تحيط الوسائل ، وحصر ذلك فيما أشار إليه فى أول المقالة من أن حياة هذه الأمة وقوتها وعزتها فى نشأتها الأولى فكان ذلك شرحا لقول الإمام مالك « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها وأمّا المقالة[١٢٦] الثانية فعنوانها « الفضائل والرذائل وأثرهما فى الأفراد والأمة » ، وقد بدأها بقوله تعالى « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » والكلام فيها منتظم فى سلك الدعاية بالحكمة لاسلك القضايا العلمية المحضة فهو يصوّر للقارئ تأثير الأخلاق فى الأفراد ، ويجعلها مع المشاعر مثالا لتأثيرها فى الأمم ، وينتقل من الكلى إلى الجزئى فيشرح ما كان من تأثير الفضائل الإسلامية فى المسلمين ، وما نالوا بها من الملك والعظمة العلمية والعملية ، وما آل إليه أمرهم بما طرأ على أخلاقهم . ويصف العلاج له ، ومما تكرره فى تشبيه مكانة الفضائل من الأمة قوله بعد ذكر حياة الإنسان الفردية والنوعية

(١٢٢) ص ٢١

(١٢٣) ص ٥ ٨ .

(١٢٤) ص٦ .

(١٢٥) ص٧ .

(١٢٦) ص٩ — ١٠ .

والقومية ، وتشبيه الفضائل فى الأمة بقوى الحياة فى الفرد المخصصة لكل حاسة وجارجة بوظيفة تؤديها لحياة البنية كلها قوله : وإن شئت قلت الفضائل فى عالم الإنسان كالجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات وبالتوازن فى الجاذبية ثبت كل كوكب فى مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيره بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله فى وجود الأكوان وبقائها ، كذلك شأن الفضائل فى الاجتماع الإنسانى ، بها يحفظ الله الوجود الشخصى إلى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعى إلى أن يأتى أمر الله .

ومما قاله فى سوء تأثير الرذائل فى إفساد الأمة بعد بيان سوء تأثيرها فى إفساد الأفراد قوله : « وهذه الرذائل إذا فشت فى أمة قضت بناءها ونثرت أعضاءها ، وبددتها شذر مذر ، واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر وتصرفها فى الأعمال بالقسر »

وختم المقالة بالرجاء فى همم العلماء الراسخين وغيرتهم أن يتداركوا ما عرض للمسلمين من الضعف فى أخلاق دينهم ، وإهمال فضائله ، ويسيروا فى سبيل تجمع كلمتهم ، وتوحد وجهتهم ، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق فى قوله : وكان حقا علينا نصر المؤمنين .

والمقالة الثالثة عنوانها « الوهم »[(١٢٧)] جاء فيها :

اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الأوهام حتى نرى الحقائق كما هى كيلا نضل ونشقى .

ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طورا يكون مرآة المزعجات ومجلى المفزعات ، وطورا يكون ممثلا للمسرات ، حاكيا للمنعشات ، وهو فى جميع أطواره حجاب الحقيقة وغشاء عين البصيرة ، ولكن له سلطانا على الإرادة وحكما على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير . الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيدا ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكا ، الوهم يذهل الواهم عن نفسه ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما ، والمعدوم موجودا ، الواهم فى كون غير مشهود ، يخبط فيه خبط المصروع لا يدرى ماذا أدركه وماذا تركه . الوهم روح خبيث يلابس النفس الإنسانية وهى فى ظلام الجهل ، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام ، وتسلطت على الإرادات ، فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة فيتخبطون فى مجاهيل ، لا يهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق »

ثم ضرب المثل على ذلك بالانجليز فى مستعمراتهم وتوهم أهل المستعمرات أن الانجليز لا يقهرون ، واستغلال الانجليز لهذه الظاهرة ، ثم دعا إلى تمزيق هذا الستار وإزالة ذلك الحجاب ، وحث العثمانيين خاصة على أن يستعملوا سلطتهم المعنوية ضدّ الانجليز ليتخلصوا من مرارة تحكمهم وذلك حيث يقول :

---

(١٢٧) ص ١١ - ١٦

« أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الانجليز ، واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء لما تجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الانجليز فى أعمالهم » ثم يختم المقالة بقوله :

ليس فى الأرض شيء سوى الوهم ، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا ما هو عليه الانجليز؟ ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء صوت عال ، وشبح بال ، قامت الدول على معارضتهم لعلمها أن الانجليز صاروا للأمم كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمّر البنية ، لكن بقى أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ، ويستقلوا بأمورهم ، ولا ينتقلوا من عبودية إلى اخرى ، ولا يستبدلوا سيدا أجنبيا بسيد آخر. اللهم ارفع عنا حجب الأوهام ، وهيئ لنا الرشد فى أمورنا ، واحفظنا من الغواية ، واهدنا إلى خير نهاية »

وفى المقالة(١٢٨) الرابعة يحدثنا عن المدافعة عن الوطن فيقول :

خائن الوطن من يكون سببا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن ، بل من يدع قدمًا لعدو تستقر على تراب الوطن ، وهو قادر على زلزلتها »

وأخيرا يقول :

يأتى الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ، ويطمس رسمه ، إلا وصمة الخيانة فلا تطويها الأدهار »

والمقالة الخامسة عنوانها « آفة الشرق »(١٢٩) تحدث فيها عن أسلوب الانجليز فى الاستيلاء على ممالك الهند بمساعدة أمرائها ، وتحدث أيضا عن طرد الانجليز للجيش المصرى ، وتأليف جيش صغير تولوا قيادته .

والمقالة السادسة وعنوانها « المثال الثانى » تحدث فيها عن الطريق التى يسلكها الأجانب لاستعباد الأمم بطريق السيطرة على رؤساء تلك الأمم .(١٣٠)

والمقالة السابعة عنوانها « المثال الثالث »(١٣١) رأى العروة الوثقى فى معاقبة الأمم للأمراء والرؤساء الذين يكونون أعوانا للأجنبى عليها جاء فيها :

خلاصة هذا الإرشاد أن الأمم لا ترجى لها سيادة ولا سعادة ولا حرية ولا استقلال إلا إذا عرفت نفسها وجمعت كلمتها . وكان أمرها بيدها . وكان حكامها خدمًا لها . فمن أحسن

---

(١٢٨) ص١٧ - ١٨ .
(١٢٩) ص١٩ - ٢١ .
(١٣٠) ص٢٢ - ٢٣ .
(١٣١) ص٢٤ - ٢٥ .

خدمة أمته بالنصيحة والإخلاص كافأته ، ومن خانها أو أساء إليها عاقبته ، ويجب عليها أن لا نولى شيئا من أعطالها لأحد من المفتونين بحب الرياسة .

وبهذه المقالة ينتهى القسم الأول من كتاب (آراء ومذكرات) ثم يبدأ القسم الثانى (١٣٢) وهو عبارة عن مذكرات عن الثورة العرابية كما ذكرنا ذلك سابقا ، حدثنا فى الدفتر الأول عن سلطان باشا حديثا يفيض بالسخرية والاستهزاء فقال : (١٣٣) فهذا الهمام الوطنى الذى أوقد نار الفتنة فى البلاد وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهبها وعمّ جميع الأرجاء ثم هرب من طريقها عندما خاف أن يلذعه لسان لهبها جاء فى آخر الأمر نائبا عن الحضرة الخديوية فى حبس كثير من النّاس ، ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم نال المكافأة من الجناب العالى بالإحسان جزاء إيقاد الفتنة ثم الهرب منها ليتعلم كل مصرى هذه الطريقة المفيدة لكسب الشرف ونيل الإحسان أولا وآخرا .

وتحدث فى هذا الدفتر عن عناوين كان الغرض منها فيما يبدو تفصيل الكلام فيها فى فصول للعظة والعبرة مثل : إشارتى بعدم الاهتمام بمسألة الجراكسة – تقرير راغب باشا بطلب العفو عن جميع من اشترك فى الحوادث ماعدا الجناة فى مذبحة الإسكندرية – وقبول الخديوى وصدور العفو وتحدث عن تعطيله لجريدة الطائف شهرا لتهييجه ، وكان يصدر هذه الجريدة السيد عبد الله النديم .

أمّا مذكرات الدفتر الثانى فقد سردها ناشرو الكتاب بنصها بعد أن وضعوا لها أرقاما مسلسلة تضبطها بالعدد ، وقد تحدث فيها عن الأسباب المباشرة للثورة وعمّا سبقها من أحداث ولاسيما مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، وتحرش الأسطول الانجليزى لضرب الإسكندرية ، وحرق الإسكندرية وضربها والمهاجرة منها ، والصدام بين عرابى والخديوى ، وبيان حالة الجيش المصرى قبل الحرب ، ثم قيام الحرب ، وانخداع عرابى بغش دلسبس ، وخيانة سلطان باشا وبعض المواطنين مع الأسف .

---

(١٣٢) ص٢٧ – ٢٩ .

(١٣٣) ص٢٧ – ٥١ .

٢٦ - مذكرات الإمام محمد عبده
عرض وتحقيق وتعليق
طاهر الطناحى

وقد صدر عن دار الهلال ، وجاء فى المقدمة التى كتبها الأستاذ طاهر ما يلى : عنيت بأن أجعل من هذه المذكرات صورة صادقة للحياة الوطنية والسياسية لهذا الإمام الكبير . فلم أقتصر على نبذ عن الثورة العرابية كتبها فى دفتر صغير - وهو فى السجن - بل جمعت كتاباته الوطنية وآراءه فى محمد على واسماعيل وتوفيق وما كتبه بالتفصيل ثم بالاختصار عن الثورة العرابية وأسبابها وأحداثها والرجال الذين اشتركوا فيها وما دونه من تحليل لأهداف هؤلاء الرجال ، وقد قمت بتحقيق ذلك وشرحه والتعليق عليه تعليقا علميا وتاريخيا دقيقا ، وتقديمه تقديمًا جديدا بحيث اجتمع من ذلك ما يصح أن يطلق عليه اسم « محمد عبده فى حياته الوطنية » أو « مذكرات الإمام محمد عبده » وقد أخذت هذا الاسم لأنها بقلمه ولابد من الإشارة هنا إلى أن الشيخ محمد عبده كان قد طلب منه الخديوى عبّاس حلمى الثانى فى السنين الأولى من ولايته عرش الخديوية أن يضع كتابًا عن الثورة العرابية ، وقد وضع منه جانبا كبيرا بدأ بأسباب الثورة منذ عهد الخديو اسماعيل ، وانتهى إلى وزارة محمد شريف باشا الثانية ، [١٣٤] وفى أثناء وضعه لهذا الكتاب دس عليه عند الخديوى من أفهمه أن الشيخ محمد عبده عدو لأسرة محمد على ، وأنه لا يريد أحدا منها على عرش البلاد فتأثر الخديو من هذه الدسيسة فانصرف الشيخ عن اتمام الكتاب وساءت علاقة الخديويه .

---

(١٣٤) مذكرات الإمام محمد عبده ص١٤ ، ١٥ .

الفصل الرابع

الاتجاه الأدبي عند الإمام
شكلا ومضمونا

١ تمهيد العودة إلى الأساليب العربية فى عصر العرب الزاهر - مذهب السلف فى الأدب - رأى الإمام فى الأدب الإسلامي - الدين والأدب والعقل - أسلوب القرآن - أدب السجع وأدب الترسل - الطريقة الفارسية - النثر فى القرنين الثانى والثالث - عبث المتأخرين - موضوع الأدب - الأدب فى الأندلس هجوم البديعيين - ابن العميد أشعه مجلفة اتصال بين الكلام المطبوع والمصنوع - المقامات - الصراع الأدبى فى العصر العباسى وموقف الإمام من هذا الصراع - رأى النقاد - قرون الظلمات - طلائع البعث - مذهب البعث الأدبى وعوامل ازدهار الأدب - خط النثر والشعر من الرق - دور الإمام فى حركة البعث والتجديد - مفهوم الأدب عند ابن خلدون وعند الإمام - الخطوة الأولى فى نهضة النثر : لرفاعة رافع الطهطاوى - الخطوة الثانية : عبد الله فكرى - الخطوة الثالثة : محمد عبده - أقسام النثر عند الإمام : العلمى - الاجتماعى - السياسى أو الصحفى النثر الفنى .

بين العلم والأدب - أسلوب الإثارة والمنهج العلمى - أسلوب الكتب التاريخية فى القرن التاسع عشر - المضمون الفنى عند الإمام فى أصوله وتطوراته - مفتاح شخصية محمد عبده - الدين والأدب - اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية ثم العقلية - دراسة الفنون الأدبية وأثرها - الأدب الحديث عماد النهضات السياسية والاجتماعية - الالتزام فى الأدب - الأدب الواقعى - المثل الأعلى فى الأدب عند الإمام .

تمهيد : قصدنا بكتابة هذا الفصل أن نتبين الاتجاه الأدبى للشكل الفنى عند الإمام وبالتالى أن نعرف أهم الخصائص الفنية المميزة لأدبه . كما قصدنا أيضا أن نتبين الاتجاه الأدبى للمضمون الفنى عند الإمام وبالتالى أن نعرف أبرز الموضوعات التى جال فيها قلمه .

ولما كان للإمام دوره الكبير فى وضع أسس النهضة الأدبية الحديثة ، ولما كانت هذه النهضة ذات شكل ومضمون فإن ذلك يدعونا إلى أن نعرف المنهج الذى سار عليه الإمام لوضع أسس النهضة الأدبية الحديثة ، وكيف تطوّر هذا المنهج ؟

يبدأ هذا المنهج بدعوة الإمام إلى العودة إلى الأساليب العربية فى عصر العرب الزاهر يوم أضحى اللسان العربى لغة حضارة وعلم بل إلى ما قبل ذلك إلى القرن الأول للهجرة يوم كان اللسان العربى لغة دين وأدب . وأكبر الظن أن الأستاذ الإمام كان يرى فى ترسم طريقة هؤلاء

عونًا على تمثل أساليبهم فى الرشاقة والجزالة فالبيان العربى كما يقول[١] محمد كرد على : «كالإسلام لا يحيا إلا بالاستقاء من رؤس عيونه الصافية »

وما دام الإمام رنا ببصره إلى هذه الآفاق الأدبية فلابد لنا من أن نعرف مذهب السلف فى الأدب ذلك الذى ارتضاه الإمام واتخذه أساسًا يبنى عليه نهضته الأدبية بل نحن بحاجة إلى أن نعرف الاتجاهات الأدبية عند العرب لنعرف أولا السرّ فى اختيار الإمام لمذهب السلف ، ولنعرف ثانيا القيمة الفنية لهذا المذهب .

وقد عرضنا لشىء من هذا فى كتابنا « أبو حنيفة الدينورى ومدرسته فى الأدب والنقد » فى فصل جعلنا عنوانه « الاتجاهات الأدبية عند العرب ».

ونحن هنا مضطرون إلى إعادة ما ذكرناه هناك ونزيد عليه ما يتطلبه المقام ولا نطيل الوقوف عند العصر الجاهلى ونجتزئ فى الحديث عنه بما يقوله الجاحظ :[٢] أنه لم يجد فى خطب السلف الطيب ، والأعراب الأقحاح ألفاظا مسخوطة ولا معانى مدخولة ، ولا طبّعا رديئًا ، ولا قولا مستكرهًا ، وأكثر ما وجد من ذلك فى خطب المولدين البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدبين سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتاج التخيّر والتفكير .

وتهمنا نظرة الجاحظ إلى خطب السلف الطيب لأنها تلقى ضوءا على ذلك المذهب فى منابعه الأولى فى العصر الجاهلى حيث يبدو صفاء الأسلوب وإشراق الديباجة ، والطبع السليم ، والقول الحسن ، وحيث تظهر نقائض هذه الصفات فى خطب المولدين ، وأهل الصنعة المتأدبين ، فهل وقف الإمام على هذه الحقائق وارتأى رأى الجاحظ الذى دافع عنه فى شرحه لمقامات بديع الزمان الهمذانى والذى نجد أوجه شبه قوية بينه وبين الامام ؟ أكبر الظن أن ذلك كذلك .

ومع هذا فلنتابع سيرنا مع الأساليب العربية ولنلتق بها فى العصر الإسلامى ذلك العصر الذى يقول[٣] عنه محمد عبده . اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب ، وأغزرها مادة فى الفصاحة وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمّه بوفرة رجال البلاغة ، وفرسان الخطاب ، وأنفس ما كانت تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب فى القول والسبق إلى إصابة مكان الوجدان ومقر الإذعان من العقول . وتفانيهم فى المفاخرة بذلك مما لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه .

والمعقول أن أسلوب الجاهليين فى الكلام المنثور لا يختلف عن الأسلوب المتبع فى الرسائل و خطب أول الإسلام إذ ليس من المعقول أن يتغيّر اتجاه أدبى بين يوم وليلة فلابد من مضى

(١) أمراء البيان جـ١ ص٤ .

(٢) البيان والتبيين جـ١ ص١١ .

(٣) رسالة التوحيد ص١٤٥ .

فترة كافية حتى تختمر المضامين والأشكال الجديدة فى أذهان النّاس وبالتالى يصدرون عنها فى أحاديثهم ، وحتى يحين ذلك الحين وحرصًا من صاحب الدعوة ﷺ على تبليغ الرسالة خاطب قومه بالطريقة التى يفهمونها وتقع من نفوسهم الموقع الحسن ، وما قدرت العرب بلاغته حق قدرها إلا لأن بلاغتهم ضرب من بلاغته « والبليغ كما يقول محمد كرد على(٤) يدرك من هو أبلغ منه »

وفى كتب النبى إلى عماله ، وإلى رؤساء القبائل ، وإلى الأمراء والملوك ، ومنها ما أملاه بنفسه أو كتبه له كتابه فأقرّهم عليه مثال من بلاغة الأقدمين من العرب ، وقد رأيناه « صلوات الله عليه » ينكر على من يسجعون الكلام ، وينهى عن السجع على نحو سجع الكهان ، وكانوا يسجعون للأغراب والتأثير والزينة .(٥)

فالرسول لم ينه عن السجع أى سجع كان وإنما نهى عن السجع الذى يشبه سجع الكلان ويهدف إلى ما يهدفون إليه من اغراب وتأثير وزينة .

وكان الرسول يتوخى إذا كتب لغير العرب أن يوجز القول ، ويقلّ من اللفظ الذى لا يتفهمه كل إنسان حتى يسهل نقل كلامه إلى ألسن من كتب إليهم من غير العرب كما كان إذا خاطب قبائل من غير قريش أو كاتبهم يستعمل ألفاظا مألوفة لهم لا يعرفها القرشيون ذلك لأن مقصده الإفهام ، « والبليغ من الكلام ما فهم وأبقى فى النفس أثرا »(٦)

أوتى الرسول جوا مع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارا وكلامه جزل رشيق لا تعمّل فيه ولا غموض . مرسل موجز يقتصر على حاجته ، فأصلح الرسول العربى لغة التخاطب والتكاتب كما جاء لإصلاح المعاد والمعاش ، وكذلك يقال فى بلاغة الصحابة ، ومن أخذوا عن الرسول ، وكذلك يقال فيمن أخذ عن الصحابة من التابعين وتابعيهم والخلفاء والأمراء يمتاز أفراد منهم بالبلاغة كما يمتازون برجحان العقل ، واستمر الأدب على ذلك إلى أواخر القرن الأول أخذ بالطبع وبعد عن الإطناب .. وذلك ضوء جديد يلقى على مذهب الإمام فى الأدب وعلى اختياره لذلك المذهب ، الذى ترعرع على يد الرسول ومن جاء بعده ، والذى يتميّز بالجمع بين الدين والأدب والعقل ، وتلك أمور بارزة فى حياة الإمام وكانت أهدافا يسعى إلى تحقيقها أسوة بالرسول الأعظم ﷺ فهو رجل دين وأدب يحترم عقله ويعتمد عليه إلى حد كبير ، فى أدب هذه الفترة ما يرضى الإمام ويشبع رغبته ويساعده على تحقيق رسالته وقد اختار الإمام من أدب هذه الفترة « نهج البلاغة » فشرحه وعلق عليه .

---

(٤) أمراء البيان جـ١ ص١١ .

(٥) الفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف ص٤٢ .

(٦) أمراء البيان جـ١ ص١٢ .

ويبدو أسلوب القرآن فى هذه الفترة فوق كل أسلوب وأسمى من كل كلام ، لم يعهد العرب مثله فى نظام القول وترتيبه ، وما استطاعت على كثرة فصحائها فى زمن نزوله أن تحتذى مثاله فى أسلوبه وأداء معانيه ، وقد أريدوا على ذلك ، وتحدوا ، والقرآن حسن ملكه الكتابة والخطابة كما كان كذلك تأثيره فى الشعراء فجاء الشعر الإسلامى أرق من الشعر الجاهلى « واحتفظت الكتابة والخطابة فى عصر الصحابة ومن بعدهم بالطريقة التى ما حذقوا غيرها ، وهى تدور على توفية المعنى واللفظ حقهما مع البعد عن الإطناب والمبالغة والقصد إلى الإيجاز والسهولة يرسلون الكلام ارسالا بلفظ سمح ، ومخرج سهل فكتابتهم كأحاديثهم ابنة السليقة وربيبة الغريزة خالية من كل ما هو متكلّف مصنّع ، وقال علىّ بن أبى طالب ما رأيت بليغا قط إلا وله فى القول إيجاز وفى المعانى إطالة ، وقيل لعمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ليسمع منها . قيل فهل كانت توجز ، قال نعم ليحفظ عنها »[٧]

وأدب هذه الفترة حرص الإمام على بعثه ووجه الشباب إليه ، واعتبر كتّابه أهل الطبقة العليا فى الأدب العربى ، واعتبر على بن أبى طالب زعيم هذا الاتجاه ، ودعا الأدباء الناشئين أن يجعلوا كتابه « نهج البلاغة » أهم محفوظهم ، وأفضل مأثورهم .

لقد أحسّ الإمام بتكالب الشبان على أدب السجع الخالى من المعانى الجليلة فنفرهم فى رفق وهوادة ، وذكّرهم بأن هذا ليس كل شىء عند العرب ، وأنما عندهم ما هو خير منه ، والظاهر أن أدب السجع كانت له سطوة فى عصر الإمام صرفت الناشئين عن النظر فيما دونه فعرض الإمام للمذهبين الرئيسيين من مذاهب الكتابة الفنية فى النثر العربى ، أعنى المذهب المقيدّ ، والمذهب المرسل . ونعى على الأول ولام معتنقيه ، وأثنى على الثانى ودعا الشبان إليه ، وذلك حيث يقول[٨] فى مقدمة « نهج البلاغة » :

وأرجو أن يكون فيما وضعت من وجيز البيان فائدة للشبان من أهل هذا الزمان ، فقد رأيتهم قيامًا على طريق الطلب يتدافعون إلى نيل الأدب من لسان العرب يبتغون لأنفسهم سلائق عربية وملكات لغوية ، وكل يطلب لسانا خاطبا ، وقلما كاتبا ، لكنهم يتوخون وسائل ما يطلبون فى مطالعة المقامات ، وكتب المراسلات مما كتبه المولدون ، أو قلدهم فيه المتأخرون ، ولم يراعوا فى تحريره إلا رقة الكلمات ، وتوافق الجناسات ، وانسجام السجعات وما يشبه ذلك من المحسنات اللفظية التى وسموها بالفنون البديعية ، وإن كانت العبارة خلوا من المعانى الجليلة ، أو فاقدة الأساليب الرفيعة على أن هذا النوع من الكلام بعض ما فى اللسان العربى ، وليس كل ما فيه ، بل هذا النوع إذا انفرد يعد من أدنى طبقات القول ، وليس فى حلاه

(٧) المصدر السابق ص١٥ .
(٨) ص٥ -٦ .

المنوطة بأواخر ألفاظه ما يرفعه إلى درجة الوسط ، لو أنهم عدلوا إلى مدارسة ما جاء عن أهل اللسان ، خصوصا أهل الطبقة العليا منهم لأحرزوا من بغيتهم ما امتدت إليه أعناقهم واستعدت لقبوله أعرافهم ، وليس فى أهل هذه اللغة إلا قائل بأن كلام الإمام على بن أبى طالب هو أشرف كلام وأبلغه - بعد كلام الله تعالى وكلام نبيه - وأغزره مادة ، وأرفعه أسلوبًا ، وأجمعه لجلائل المعانى .

فأجدر بالطالبين لنفائس اللغة ، والطامعين فى التدرج لمراقيها أن يجعلوا هذا الكتاب أهم محفوظهم ، وأفضل مأثورهم ، مع تفهم معانيه فى الأغراض التى جاءت لأجلها وتأمل ألفاظه فى المعانى التى صبغت للدلالة عليها ليطلبوا بذلك أفضل غاية ، وينتهوا إلى خير نهاية .

على أننا يجب أن نلاحظ أن الإمام ينعى على البديع والبديعيين مذهبهم إذا انفرد بالجناس والسجع وما إلى ذلك من فنون البديع ، وخلا من المعانى الجليلة ، والأساليب الرفيعة ، وإلا فإن الامام نفسه قد استخدم الكثير من فنون البديع فى مقدمات كتبه ، كما أنه شرح وفسّر وعلّق على مقامات بديع الزمان الهمذانى .

ومهما يكن من شيء فإن أدب هذه الفترة هو المشرع الروى الذى استقى منه الامام وعَلّ ونهل ، وهذا التيار الأدبى قد سيطر على الحياة الأدبية عند العرب حقبة طويلة . فلم يقف عند عصر صدر الإسلام فإن أدباء بنى أمية جروا فى ترتيب دولتهم على سنّة من تقدّمهم فى الرسائل والعهود ، وفى الموجزات من رسائل عمر بن عبد العزيز مثال من البلاغة . وقد جرى بعض خلفاء الأمويين على نهج عمر بن عبد العزيز وبعضهم على التطويل مثل الوليد بن عبد الملك .

ولئن كان القرن الأول قرن الايجاز والفطرة فإن القرن الثانى قرن التطويل والإيجاز معا .

وكان أخوف ما يخافه العرب على اللغة سراية اللحن اليها ، وما أهمهم ما دخل من التطويل على الرسائل والخطب وما سرى من تغيير طفيف إلى نسج الكلام كالإكثار من السجع والازدواج .(٩)

وطبيعى أن يزيد اللحن بدخول الأعاجم فى الدين وتمازجهم بالعرب ، وأن تضعف ملكة البلاغة فى القول والكتابة بتكاثر كتاب الدولة الأموية وعمالهم من أبناء الروم والفرس والقبط والبربر ، ولا سبيل إلى أن يكون الدخيل كالأصيل فى منازع التصوير والتفكير والتحبير .(١٠)

وتجلت فى القرن الثانى الطريقة الفارسية فى العربية ووضع عبد الحميد بن يحيى أساس هذا الأسلوب المطوّل ، وكان يحسن الفارسية ، وهو أول من أطال الرسائل ولم يعهد تطويل مثل تطويله فى أهل القرن الأول اللهم إلا ما كان من رسالة على بن أبى طالب إلى الأشتر النخعى

---

(٩) [illegible] جـ١ ص١٨

(١٠) المرجع السابق ص٢٠ .

وهى فى مطالب إدارية عظيمة هذا إذا صحت نسبتها إلى أمير المؤمنين . فأسلوب القرن الثانى لم يخرج والحالة هذه عن أسلوب أهل القرن الذى تقدمه بألفاظه وتراكيبه اللهم إلا ما كان من سجع قليل ، وشىء من مبالغة وتهويل ، ولولا الإطالة لاشبهت كتابة أهل القرن الثانى كتابة أهل القرن الأول ، دع ما كان من أفكار جديدة سرت بالترجمة والاختلاط مما هو طبيعى فى اللغات والأمم .(١١)

ولكن من يقارن بين ما كان يصدر من الرسائل عن الصحابة وخلفاء بنى أمية وأوائل بنى العبّاس وما كان يصدر فى مثل موضوعها عن كتّاب العباسيين فى القرن الرابع يقع على فروق يسوغ لك أن تقول معها أن الكتابة انقلبت رأساً على عقب ، وأن بعض ما دبجه الكاتبون هذا القرن فى السلطانيات خاصة والإخوانيات عامة ليس إلا أسلوبا فارسيا مهذبًا : ألفاظ كثيرة وجناسات واستعارات تشف فى الواقع عن حضارة وما هى إلا نثر فيه الصنعة وفيه التصنّع والمدنية على جمالها لا تخلو فى كل عصر من تعقيد ، وقد سبقت الكتابة فى هذا الباب فتبدل المصنوع بالمطبوع أو كاد .

جرى بعض الخلفاء الأول من بنى العبّاس فى الشرق وبنى أمية فى الغرب خلال القرن الثانى على طريقة أهل القرن الأول .

وبعد القرن الثانى رأى النّاس أن من المصلحة الإسهاب فى المكاتبات فأسهبوا ، وبدأ إسهابهم ضئيلا ثم عظم بعد .

وجملة القول أن الكتاب فى القرن الثانى والثالث جروا على سنة القدماء فى الرشاقة والجزالة وخالفوهم فى الأسلوب والوضع على ما لا يعبث بمذاهب الكلام فكان فيهم من يطيل ويسهب وفيهم من يوجز ويقتضب ، وفيهم من يبالغ فى المعنى ويغلو ، وفيهم من يقتصد فى اللفظ ولا يسرف ، فأسلوب بن المقفع وسهل بن هارون وعمرو ابن مسعدة والجاحظ إيجاز وتطويل بحسب الحال والجاحظ إلى البسط أقرب فى الأحايين لأنه يقرر أنظارا ويضع تعاليم ويفسر علمًا وأدبًا ، ويشرح معارف وحقائق ويحاج ويجادل فليس له غنى عن التوسع فى فنون الكلام ، وإذا أفاض فكلامه كلام أهل القرن الثانى والثالث وأمّا بلاغته فبلاغة أهل القرن الأول لا سجع فى كلامه إلا ما جاء عفوا ولا تحس الصنعة فيه إلا إذا كان فى تجديد المعانى والتراكيب واستعمال الجزل من الألفاظ .

إن ملكة التطويل استحكمت أواخر القرن الثانى بتكاثر عدد من نشأ من الفرس كتابا وخطباء ومؤلفين أدمجوا فيما أنشأوا إسرافهم فى التعظيم والتطويل واشتد تمازج من كانوا من أصل عربى من الكتاب والمؤلفين والرواة بأهل فارس حتى كادت دولة العباسيين تعد دولة

---

(١١) المرجع نفسه ص٢١ .

فارسية لولا مكان الخليفة من العرب وظهر الغلو فى القول ، والإسراف فى اللفظ ، وتلوين المعانى وإبرازها فى صور كثيرة ، وتفنن بعض الكاتبين فى إرسال الكلام وأوغلوا فى الصنعة والتثقيف حتى أوشك البيان أن يصاب بما يخرجه عن رونقه القديم .

وفى تلك الحقبة كان العارفون يحاذرون ضياع الأسلوب القديم جملة .(١٢)

ولما نظم المتأخرون متون العلوم كالفرائض والقراءات والفقه والنحو وغيرها شعرا أفسدوا الشعر ، وما أفادوا العلوم والمتعلمين كبير أمر ، وكان هذا العبث كالعبث بصنع الكلام يوم استخرجوا من نثر ابن المعتز ذاك الفن الذى سموه البديع فأفسد نظام الكلام ، وأخرج البيان عن أصوله وطرائفه إلى صنعة يقصد بها المجانسات فى الألفاظ والاستعارات والتشبيهات فى المعانى .

والكتاب كما يقول ابن قتيبة هم ألسنة الملوك اما يتراسلون فى جباية خراج أو سد ثغر أو عمارة بلاد ، وإصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو دعاء إلى ألفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ، ومعاظم الشؤون التى يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفتنة .(١٣)

وحديث ابن قتيبه هذا على جانب كبير من الأهمية لأنه يلقى ضوءا على المضمار الذى يجول فيه الكتاب وأنه لا يقتصر على مجرد عرض المشاعر السيالة فى الثياب المزخرفة وإنما عمله شكل وموضوع وموضوعه الحياة وما فيها ومن فيها . وكذلك اتخذ محمد عبده موضوعات أدبه اتخذها من كل شىء انفعلت به نفسه ورصده عقله وأثر فى حياته وحياة النّاس ولم يقتصر على الرسائل الديوانية والإخوانية فميدان الأدب ارحب من ذلك وأنفع وأمتع .

هذا وإن فى منثور الكتاب من القرون الثانى إلى الخامس بل السادس إحسانا دونه كل إحسان . فمذهب الترسل ظل قائما وإن وضعت الالقاب فى مخاطبة الملوك والأمراء والوزراء والعمّال ، وكانوا من قبل يكتفون بالاسم والتكنية ، ولا تلحظ فى الكتابة من الصغير إلى الكبير وبالعكس تعظيما ولا تصغيرا شأن العرب فى مخاطبة بعضهم بعضا بأسمائهم وكناهم .(١٤) ويقتصرون فى المكاتبات على اللباب دون القشور ولم يطل عمر هذه المصطلحات فى التلقيب فالمواضعة والاصطلاح يتغيران بحسب تغيّر الأزمنة والدول .

هذا فى بلاد الشرق . أمّا فى الأندلس فقد ظلت دولتهم عربية فى كل مظاهرها لاتعرف التلقيب الذى أحدثه من جاوروا الفرس . وأخذوا مدينتهم وأدخلوا رجالهم فى جملتهم .

---

(١٢) المرجع السابق ص٢٤ .

(١٣) المرجع السابق ص٢٥ .

(١٤) المرجع نفسه ص٢٧ .

ظل كتاب الأندلس على طريقة القدماء من إتيان جزل الألفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأسجاع التى أخذها متأخرو الكتاب إلا ما جاء من ذلك عفوا ومن غير استدعاء .

وعلى كل حال فالأندلسيون من المتأخرين لم يكونوا فى السجع والتطويل دون المشارقة .(١٤)

ولقد هجم السجع هجومًا مريعا على الكلام المرسل فأضعف من قواه ونال من قوامه بعد القرن الرابع وكان أول من غالى فى التزام الكتابة المسجوعة أبو اسحاق الصابى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى ، والصاحب والعتبى ، واقتفى أثرهم كتاب الأندلس ومصر ، وعدم التكلف غالب على البديع فقد يتخلى عن السجع فى رسائله .

وكان ابن العميد أشبه بحلقة اتصال بين دور الكلام المطبوع ودور الكلام المصنوع فسلك طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع .

ووضع الهمذانى طريقة المقامات وقيل إنه اقتبسها من ابن دريد وعلى منواله نسج الحريرى فى القرن التالى على أسلوب مبتكر لا يصلح للرسائل ولا للكتب وما هو إلا ضرب جديد من النثر تقرأ فى تضاعيفه الكلفة الظاهرة .(١٥)

ومعظم أبناء هذه العصور عصور السجع هم أهل تكلف وتصنع .

إنك تحس وأنت تقرأ الأدب العربى وتاريخه فى العصر العباسى بالصراع العنيف بين مذهبى الكتابة الفنية : المقيد والمرسل يتزعم الثانى الجاحظ وأشياعه ، ويتزعم الأول الهمذانى ومن سار على دربه أمّا ابن العميد فكان حلقة اتصال بين المذهبين .

وتحس وأنقرأ « مقامات بديع الزمان الهمذانى » بهذا الصراع ، وبموقف الإمام منه فهو يمجدّ الجاحظ وابن المقفع من أعلام الترسل العربى ، ومذهب الجاحظ عنده هو مذهب رجال البلاغة الأولين ومجال فرسانها السابقين . أمّا المذهب المقيد فلا ينظر إليه إلا الصبية فى الأدب . انظر إلى :

المقامة الجاحظية

يقول ابن هشام . ونحن فى الحديث نجرى معه « يقصد رجلا على المائدة – حتى وقف بنا على ذكر الجاحظ وخطابته ووصف ابن المقفع وذرايته .... الخ . ويقول الأستاذ الإمام فى هامش ص٧٩ : والجاحظ من سلفاء العلماء فى الأمة الاسلامية مات فى خمس وخمسين ومائتين من الهجرة وكان أخطب أهل وقته وأكتب أبناء عصره ، وابن المقفع من رجال المائة

(١٤) المرجع السابق ص٢٨ .

(١٥) المرجع نفسه ص٢٩ .

الثانية من الهجرة من الحكماء المشهورين والبلغاء المعروفين وهو الذى ترجم كتاب كليلة ودمنة من الفارسية .

ثم يقول ابن هشام : إن الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف وفى الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر عن نثره ولم يزر كلامه بشعره فهل تروون للجاحظ شعرا رائعا قلنا : لا . قال : فهلموا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات قليل الاستعارات قريب العبارات منقاد لعربان الكلام يستعمله نفور من معتاصه يهمله فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة – يقول الأستاذ الإمام فى هامش ص٨٠ : أحد شقى البلاغة يريد منه النثر ... ثم يقول كأنه يشترط فى البليغ أن يكون مجيدا فى النثر والنظم معا فلا يزرى نثره بشعره أى إذا نظرت إلى كلامه فى النثر ثم نظرت إلى شعره فى النظم لا تحقر النظم ولا النثر بل ترى كلا منهما رفيعا فى بابه . أمّا من إذا نظرت إلى نثره حقرت شعره بالقياس إليه فليس ببليغ هكذا يزعم أبو الفتح وما زعمه بصحيح عند أهل الصناعة نعم إذا اجتمعت الإجادة فى النوعين لواحد كان أكمل من المجيد فى واحد فقط ... ثم يقول عريان الكلام ما كان باديا لسامعه بجوهره لا يكسوه ثوب الصنعة ولا ينجلى فى حلل التخيل من نسج القريحة . ومعتاص الكلام هو ما أبدع فيه صاحبه بما يفعل فى تزيينه وزخرفته فبعد عن أذهان العامة فاعتاص عليها أى امتنع وكأنّ الكلام العريان له غلبة على الجاحظ فهو منقاد له .

ثم يقول[١٦] أى أن المفردات فى كلام الجاحظ والأساليب ليس منها شىء يستغربه السمع ويستطرفه بل كله مما لم تلطفه الصنعة ولم يأت منه على النفس ما تعجب له ، وهذه الأوصاف التى يعدها كأنها من مناقص كلام الجاحظ هى أعلى مزايا الكلام عند أهله وهى التى ترفع مقامه على غيره وهذا المذهب الذى سلكه الجاحظ هو مذهب رجال البلاغة الأولين ومجال فرسانها السابقين أمّا المصنوعات فهى من أحداث الموضوعات لا ينظر إليها إلا صبية هذه الصناعة .

وذكر الثعالبى وهو من أئمة الكتابة الذين جوّدوا فى المرسل والسجع أن من النثر المسجع ومنه المرسل ...

قال والمحمود فى هذا الزمان أى فى القرن الخامس المرسل إذا اشتمل على شىء من السجع يجئ عفوا وقال صاحب « نقد النثر » ان من أوصاف البلاغة السجع فى موضعه ، وعند سماحة القريحة به ، وأن يكون فى بعض الكلام لا فى جميعه فإن السجع فى الكلام كمثل القافية فى الشعر وإن كانت القافية غير مستغنى عنها ، والسجع مستغنى عنه . فأمّا أن يلزمه الانسان فى جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله وعىّ من قائله ».[١٧]

---

(١٦) ص٨١ .

(١٧) نقد النثر لأبى الفرج قدامة بن جعفر ص١٠٧ .

والذى ذكر صاحب نقد النثر ينطبق تمام الانطباق على ما خلفه لنا الإمام فلم يلتزم السجع وإن كان قد استعمله فى بعض الموضوعات ، وغلبت عليه الطريقة المرسلة .

على كل حال فقد وقع هذا الضعف فى اللغة باستيلاء الأعاجم على بلاد العرب وغيرها ، وكانت دواوين الرسائل من قبل مدارس لتخريج الكتاب فى البلاغة وعنى القلقشندى وابن عر بشاه والخفاجى وأضرابهم على محاسنهم بما أخذوا أنفسهم به فى القرن التاسع والعاشر من مذاهب السجع والجناس والتشبيه وتناسى الكتاب الكلام المرسل منذ القرن العاشر إلى أواسط القرن الثالث عشر فقّل المجوّدون من المترسلين والمؤلفين ، وندر الإبداع ، وتراجع العلم والأدب ، وما فتئ أرباب الأقلام يسترون نقص كلامهم بأسجاعهم وتطويلاتهم .(١٨)

ولا نذكر لمؤلف إبداعا فى هذه العصور وأكثرهم أدنى إلى أن يعدوا نقلة ومحتذين منهم إلى أن يحسبوا كاتبين ومؤلفين ، ودثر كثير مما كتبوا لاستغناء النّاس عنه ، ولأنه غير صالح للبقاء وما بقى مما روعى فيه الطبع من التأليف والرسائل قليل ونادر .

نعم إن فى بيان المتأخرين فى عصور التدلى شناعة وهجانة جاء ضعيف المادة قلق الأسلوب مبتذل اللفظ مغموسًا فى التقليد محركا بالتعقيد ، ولا نذكر كاتبا مترسلا نشأ فى القرون الأربعة المنحطة يصح عدّه فى فحلول الكتاب لأنهم كلمهم أهل سجع وبديع وكلهم ألفوا اقتباس طريقة من سبقهم فتغذى أدبهم من مادة ضعيفة ، وربما جاء فى غضون تلك الأحقاب من لا بأس بأدبه وكان يمكن أن يتجوز فى ضمه إلى سلك البلغاء لو وقع إلى ديوان ملك يفهم منه ما يكتب له فى هذا اللسان . ذلك لأن العرب زالت بخروج الأندلس عن حكم المسلمين ، وبقى قليل فى البيان فى دولة الغرب الأقصى مشوبًا بعجمة بربرية ، وبسقوط سائر بلاد العرب فى حكم الأتراك العثمانيين ، واستقلال فارس دولة فارسية زاد الحال إعضالا فاعتمدت هاتان الدولتان على لسانيهما وأغفلتا العربية خلافًا للمماليك فى مصر فإنهم رفعوا من أقدار المؤلفين والكاتبين فى عهدهم إلى ما يستغرب من أعاجم مثلهم والفضل لمصر فى ذلك فإنها أدخلتهم فى بوتقتها العربية فعربتهم أمّا دولة الترك فإنها قضت قصدا أو عن غير قصد على كل ما هو عربى فى بلادها(١٩) ، وتآليف أشهر علمائها فى العربية تشهد بالعجمة فى كل سطر دونوه .(٢٠)

ثم بدأت طلائع البعث فى العصر الحديث تؤتى أكلها ورائد هذه الطلائع فى مصر هو جمال الدين الأفغانى ومدرسته . إنه كما يقول محمد عبده نفسه « وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك ألباب ، واستضاءت بصائر ، وحمل تلامذته على العمل فى

(١٨) المرجع السابق ص٣٤ .

(١٩) أمراء البيان ص٣٥ .

(٢٠) المصدر السابق .

الكتابة ، وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدّم فن الكتابة فى مصر بسعيه ، وكان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الإجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنّا نعرف منهم إلا عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ومحمد باشا سيد أحمد على ضعف فيه ، ومصطفى باشا وهبى على اختصاص فيه . ومن عدا هؤلاء فإمّا ساجعون فى المراسلات الخاصة ، وامّا مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها .(٢١)

وتلقى هذه الفقرة ضوءا على الحياة الأدبية فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وما كانت عليه من ضعف وكيف أن جمال الدين نفخ من روحه حتى أصبح فى القطر المصرى كتبة « لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلدّ المتصلين به ومنكر ذلك مكابر وللحق مدابر »(٢٢)

وهذا الموقف المشرف الذى وقفه السيد جمال الدين الأفغانى من النهضة الأدبية فى بلادنا كان مبعث حسد وحقد فقد حقد عليه أقوام لذلك واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية ... وأذاعوا ذلك بين العامة ثم أيدهم أخلاط من النّاس ... غير أن هذا كله لم يؤثر فى مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله »(٢٣)

مذهب البعث الأدبى :

ونعنى به إحياء الأسلوب القديم ، وقد ظهر ذلك المذهب بعد الفترة الحالكة التى أشرنا اليها سابقا ظهر فى مصر على يد الإمام محمد عبده فى أواخر القرن الماضى فرّد اللغة إلى سهولتها الأولى بما كتبه وألفه فدبت الحياة فى الكتابة يتعمد الكاتبون الأساليب الحديثة ممزوجة بديباجة القدماء ، وساعد على ذلك انتشار اللغات الأجنبية بين بعض المثقفين من أبناء الضاد وكثر المترجمون فاطلع من كانوا يعانون الأدب على طرق الأمم فى تأدية المعانى بل كان بعض المبرزين فى الإنشاء هم ممن حذقوا لغة غربية مع العربية كل ذلك كان من العوامل فى خروج الكتابة عن أسلوب العهد المغولى ، ومحاولة جميلة لإعادة اللغة إلى عصرها الذهبى ، والفضل العظيم أيضا لانتشار الصحف والمجلات بين الخاصة والعامة ولانتظام المدارس بالنظام الغربى حتى اضطرت المعاهد الدينية المحافظة بفضل جهود الأستاذ الإمام أن تسير على الأسلوب الذى جرت عليه المدارس العصرية فى التدريس والكتابة والتأليف ، وشاع فى كل بلد الأسلوب

---

(٢١) الرد على الدهريين ص١٢ .

(٢٢) المصدر نفسه ص١٣ .

(٢٣) المصدر نفسه .

الرشيق الخالى من تلك البالية التى طالما غالى الكتاب فى المباهاة بها ، ونعنى بها السجع المتكلف واللعب بالألفاظ وإهمال المعانى .

وكان حظ النثر من الرقى خيرا من حظ الشعر لأن المثقفين من الناثرين ثقافة عربية كانوا أكثر عددا من المثقفين من الشعراء وذلك طبيعى ، ولأن حاجة الأمة إلى الناثرين أكثر من حاجتها إلى الشعراء فالنثر ضرورى والشعر كمالى فقد استخدم النثر فى الصحافة ، وفى تأليف الكتب ، وفى تبادل الرسائل وفى الدعوة إلى الإصلاح وفى الخطابة وفى الترجمة والحركة العلمية ، (٢٤) وقد تعاونت هذه كلها على تقدم النثر وصقله حتى وفق أن يخطو هذه الخطوة الواسعة .

وكذلك استطاع النثر بعد قليل من ظهور عوامل النهضة أن يتحرر من القيود الثقيلة التى كان يتقيد بها ، تحرر من السجع فانطلق وتدفق ، وكان للصحافة أكبر الأثر فى ذلك لأن الأسلوب الصحفى يحتاج إلى السرعة والانطلاق ، كما تحرر من المحسنات البديعية الأخرى ، ومن تكرار الجمل المملة فى المعنى الواحد ، وتخلص بالتدريج من المقدمات الطويلة التى كان يتكلفها الكتاب أمام الموضوع ، كما اتجه الكتاب تدريجيا إلى تقويم المعانى كما قوّموا الألفاظ بعد أن كانت المعانى فى المرتبة الثانية والألفاظ فى المرتبة الأولى وتقدم النثر فوق ذلك من ناحية القصد فى المقال إلى معنى واحد محدد يولّده الكاتب ويستوفيه بعد أن كان الكاتب يقدم على الكتابة وليس له معنى محدود بل يتبعثر هنا وهناك من غير قصد ومن غير غرض .

كما نمت فكرة التحليل ، وكان يغلب على الأدب فكرة التركيب . (٢٥)

ويقل اليوم فى مجالس المتأدبين من يقدم على استعمال البديع والتسجيع ولو على سبيل التسلية ، ومازال الإنشاء يقترب من الأسلوب البليغ ويتفوق المجددون اليوم بعد اليوم فى المخطوب والمكتوب ويختفى السجع فى ظلمات الليالى ، ولا تكاد تجد له من يجوّزه حتى فى الخطب الدينية ، ولا تمضى خمسون سنة أخرى حتى تعود الكتابة والخطابة إلى الرونق القديم على عهد بلغاء الكتاب . (٢٦)

وكان الأستاذ الإمام من وراء هذه الحركة يدفعها بكلتا يديه فى الصحافة وفى التدريس وفى الكتابة والتأليف فى شتى الميادين هو الرائد وهو الموجه ، وإن كان يعطف على السجع أحيانا إلا أن له فى الكلام المرسل إحسانا وإبداعا ، يسجع فى مقدمات الكتب ، ويترسم خطى ابن خلدون . ألم يدرس مقدمته لطلاب دار العلوم ؟ بلى . ومن غير شك نرى أن الإمام

---

(٢٤) قصة الأدب فى العالم جـ٣ القسم الأول لأحمد أمين ، زكى نجيب محمود ص٣٠٩ .

(٢٥) المرجع السابق ص٣١٠ .

(٢٦) أمراء البيان جـ١ ص٣٦ .

قد تأثر بمفهوم الأدب عند ابن خلدون . وفيما ذكرناه سابقا وما سنذكره لاحقا ما يكشف عن مناحى هذا التأثر فالإمام حريص على أساليب العرب ومناحيهم يتخذ ذلك وسيلة لتحصيل الملكة الفنية ، والإمام حريص على مسائل اللغة والنحو وأيام العرب ، والقرآن والحديث ، يدرس كل ذلك ويفهمه حق الفهم ثم يأخذ به طلابه . تتضح لك كل هذه الحقائق حين تقرأ فى مقدمة ابن خلدون وتقارن بين مفهوم الأدب فيها ومفهوم الأدب عند الإمام ، يقول ابن خلدون تحت عنوان (علم الأدب) : هذا العلم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهى الإجادة فى فن المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة : من شعر عالى الطبقة ، وسجع متساو فى الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقرئ منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع فى أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة ، والأخبار العامة ، والمقصود بذلك كله ألا يخفى على الناظر فيه شىء من كلام العرب وأساليبهم ، ومناحى بلاغتهم إذا تصفحه لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ، وهى القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم فى كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية فى أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها .(٢٧)

هذا التعريف يدل على أن الفرق لم يتضح فى ذهن ابن خلدون بين الأدب والتأديب ، لأن ما ذكره من الإجادة فى المنظوم والمنثور ليس ثمرة للأدب ولكنه ثمرة للتأدب ودراسة الأدب ، وما عرف به الأدب من أنه حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف ليس تعريفا للأدب ولكنه تعريف للتأدب كذلك .

أمّا الأدب فهو هذا الذى يجمعونه من كلام العرب من شعر عالى الطبقة ، وسجع متساو فى الإجادة ، وما يرتبط بذلك كله من لغة ونحو وأيام وأنساب .

وفى وقوف ابن خلدون عند السجع الجيّد من بين ألوان النثر ما يظهر أثر العصر فى هذا التعريف فإن النثر المقتدى به يومئذ ، والمعدود من الأدب هو هذا السجع المرموق فى ذلك العهد بعين الإجلال والتقدير ، وعندما حدثنا ابن خلدون عن الأخذ من كل علم بطرف أشار إلى هذه الثقافة الواسعة التى ينبغى أن يحصل عليها الأديب ليكون الأديب المثالى ، وكذلك

(٢٧) مقدمة ابن خلدون ص٥٠٨ .

كان الإمام وخلط ابن خلدون بين الأدب والتأدب هو الذى جعله كما يقول [٢٨] الدكتور أحمد أحمد بدوى : يدعى أن الأدب لا موضوع له فإنه لو صح ذلك بالنسبة للتأدب فإن الأدب موضوعه الجيّد من المنظوم والمنثور ولا ينبغى أن يفوتنا أن إشارة ابن خلدون إلى الأدب أنه علم حينا وفن حينا آخر تدل على أن التفرقة بين العلم والفن لم تتضح فى الأذهان إلى أن كتب ابن خلدون كتابه بل كان يراد منهما معا المعرفة الإنسانية . [٢٩] وإن كانت هذه الحقيقة قد اتضحت لدى الإمام .

ولمّا كان الأدب عبير الروح ، وشعاع النفس ، ونضج العواطف ، يتأثر حتما بما نال أولئك من تطوّر الحياة ، وتغير النّاس ، وتقلب الزمن . فهو يطيب أو يخبث ، ويضطرم أو يخبو ، ويمر أو يحلو تبعا لما يعرض للروح والنفس والعاطفة من أحوال الضعف أو القوة والفساد أو الصلاح والانحطاط أو السمو . [٣٠]

لمّا كان هذا شأن الأدب ، ولما كنّا أحوج فى عصر النهضة ، إلى أدب يتجه بنا أو نتجه به إلى سيرة السالفين من القدماء فى أعمالهم الجدية ، وأدبهم المستمد من ينابيع الرجولة المكتملة أدب محاسبة النفس ، ولأننا أحوج ما نكون إلى هذا التراث القديم الذى يهتف بنا أن نكون رجالا عمليين أكثر من أن نكون رجال حديث وكلام . نبغى من الأدباء أن تكتب لنا أقلامهم الدراسات المطوّلة فيما يفيد أمراضنا الروحية لا بهذا الأسلوب الفقهى الممل ، ولا بتلك الشقشقة اللفظية المخلة . كتابات دراسية هى الغذاء الشهى للأجساد والعقول ومثل هذه الدراسات كثيرة كتب بعضا منها أو شبيها بها الأستاذ الإمام محمد عبده وغيره من الأدباء والأساتذة ذلك الرجل الذى استطاع أن يجعل أدبه جدا كله وقوة أكثره يجلس إليه القارئ ليستمع له ثم يمضى ليتركه بعد القراءة فيجد نفسه قد استفاد فعلا .

كان للإمام رأى حر وبديهة تكشف أمامه الحقائق ، وتفتق أكمام المعانى ، ولم يتقيد بقيود الأثر ، وما روى عن السلف كان يفند ويفحص ثم يهجم بلسانه فى سخرية لاذعة ، ويسلطه فى اقتدار عجيب ، ولا أدل على ذلك من موقفه من هانوتو .

ولعل الذى يمثل الخطوة الأولى فى نهضة النثر رفاعة الطهطاوى ، فقد كان من أكبر عوامل النهضة العلمية والأدبية فى مصر ، ولكنه أغنى الفكر العربى أكثر مما أغنى الأسلوب الأدبى ، فقد كان يغلب عليه أثر العصر الماضى فى حبه للسجع والبديع ، وسائر ما قيد به النثر القديم [٣١] . ولكنه تحرر من ذلك فى الترجمة بطبيعة الحال ، وكان انتقاله فى الأسلوب انتقالا

---

(٢٨) أسس النقد الأدبى عند العرب ص٢٠ .

(٢٩) المرجع نفسه .

(٣٠) وحى الرسالة لأحمد حسن الزيات المجلد الأول ص١٢١ مطبعة الرسالة ١٩٤٩ الطبعة الثالثة .

(٣١) قصة الأدب فى العالم جـ٣ القسم الأول لأحمد أمين وزكى نجيب محمود ص٣١٣ .

بطيئا بحكم التطوّر تحلل من بعض القيود وحافظ على بعضها . ولم يتدفق ولم ينطلق لأن الطبيعة أبت عليه الطفرة وقد مات رفاعة الطهطاوى فى عام ١٨٧٣م بعد أن خدم النهضة طول حياته خدمة لاتقدر .

وربما تجلت الخطوة الثانية فى رقى النثر فى كتابات عبد الله فكرى فقد كان بحق خليفة رفاعة الطهطاوى لا من حيث الترجمة فقد كان لايعرف إلا العربية والتركية ، ولكن من ناحية أنه كان مركز الحركة الفكرية فى عصره اتصل بالتعليم حتى كان ناظر المعارف المصرية(٣٢) . وكان يتأرجح بين الأسلوب القديم فى بعض الموضوعات والأسلوب العصرى فى بعضها ، هو إلى القديم أقرب فى أسلوبه ، وإلى الحديث أقرب فى موضوعاته وقد نال الزعامة الأدبية فى عصره باستعداده الطبيعى الجيد ، وباتصاله بالأوساط الراقية التى كان يتشرب منها أفكاره الجديدة ويعمل فيها فكره فينميها .

وقد مات عبد الله فكرى سنة ١٨٨٩م بعد أن أثر فى النهضة الحديثة أثرا بالغا(٣٣) .

وربما مثل الخطوة الثالثة من خطى النثر الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥) فى إنتاجه العلمى والأدبى الأخير من مثل مقالاته التى كانت تنشر فى مجلة (المنار) وفى رده على هانوتو ، وفى كتابه (الإسلام والنصرانية) .

وكتاباته متأثرة بنزعته القوية نحو (الإصلاح الدينى) وقد تجلت فيه هذه النزعة منذ أن كان طالبًا فى الأزهر ، وقويت على أثر اتصاله بالشيخ حسن الطويل أولا ثم بجمال الدين الأفغانى ثانيا . ولما اتصل بجمال الدين وجدت عنده النزعة السياسية والوطنية بمعناها الواسع الذى يشمل العالم الإسلامى كله .

والناظر فى أسلوبه يرى أنه متأثر بالقديم فى أول أمره حين كان ينشر مقالاته فى الأهرام والوقائع فلما نفى أثر حوادث عرابى وجاء بيروت اتصل بالكتب الأدبية ونشرها بعد أن شرحها مثل مقامات بديع الزمان الهمذانى ، ونهج البلاغة ، ويظهر أن نهج البلاغة أثر فى أسلوبه أثرا كبيرا ، وطبع فى ذهنه أساليب قوية جزلة ، ثم لما اتصل بجمال الدين الأفغانى وحرر معه مجلة العروة الوثقى تدفق أسلوبه كما تقتضيه الكتابة الصحفية ، وتحرر من السجع تحررا واسعًا ، ولمّا عاد إلى مصر بدأ يتعلم الفرنسية ويقرأ كتبها ويطلع على ثقافتها وطريقة معالجتها للموضوعات ، كما اطلع من كتب البلاغة القديمة على كتابى « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ، وعنى بنشرهما – وهما كتابان لهما أسلوب جزل وتعبير قوى وإرشاد إلى مواقع الحسن فى الكلام وتربية الذوق الأدبى – كل هذا أثر فى أسلوبه وجعل له خاصة القوة والوضوح والتدفق حتى لتحس

(٣٢) المرجع نفسه ص٣١٤

(٣٣) المرجع نفسه ص٣١٥

وأنت تقرأ أسلوبه القديم وأسلوبه الجديد أنك تقرأ لكاتبين مختلفين تمام الاختلاف ، وعلى الجملة فقد نقل الشيخ محمد عبده النثر فى أيامه نقلة جديدة بكتاباته من ناحية ، وبهذه المدرسة التى كونها من طلبته من ناحية أخرى(٣٤) .

فقد كان هؤلاء الطلبة يأخذون عنه وعن كتبه ومقالاته ويقلدونه ويتشربون روحه وأسلوبه وأدبه .

وباستطاعتنا أن نقسم المراحل التى عبرها النثر الحديث إلى ثلاث : مرحلة تقليد الأدب فى العصرين المملوكى والعثمانى وقد استمرت هذه المرحلة إلى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا والمرحلة الثانية تلك التى جمعت بين التقليد والتجديد : التقليد فى الشكل ، والتجديد فى المضمون . والمرحلة الثالثة : مرحلة التجديد المطلق تلك التى يمكن أن يمثلها العقاد وطه حسين وهيكل ومن اليهم .

ويصدق على محمد عبده الأديب أنه استعاد أطوار الأدب فى كتابته من نهاية عصر التقليد إلى الطور الأوسط من عصر التجديد الحديث(٣٥) .

وقد امتاز بذوق أدبى رفيع وطبيعة نقادة مبتكرة تميّز اللطائف ، وقد يكون هذا الطابع الفنى الممتاز نتيجة سعة أفقه وكثرة اطلاعه فى اللغة والنحو والشعر وأخبار العرب والفلسفة والأديان المختلفة ، وثقافات عصره المتعددة .

وللأستاذ فى الترسل أسلوب خاص كأنه قطع الرياض ، تقرأه فى الردود والمقالات : وقد ينحو فى رسائله نحو ابن العميد فيتكلف السجع ويكلف بالصنعة ، ويقصد قصد الجاحظ فى تأليفه فتتساوق أغراضه ، وتتراصف فقره ، فهو متصرف فى أنواع الكلام يلبس كل معنى ما يلائمه من الأساليب ، أمّا الشعر فما علمناه يقرضه ولكن النّاس رددوا له أبياتا قالها فى سياق الموت(٣٦) .

ولكن فات الأساذ الزيات أن للإمام قصيدة كبرى قالها وهو فى السجن بعد الحوادث العرابية ، وإذا كانت الأبيات التى رووا أنه قالها فى سياق الموت موضع شك فإننا لم نر أحدا شك فى قصيدة السجن .

وأيمّا كان الأمر فإننا نرى الأستاذ يعنى بأسلوبه عناية زائدة ، وإذا قرأت ما كتبه فى جريدة الأهرام تجده متأثرا بالكتب القديمة ، وخاصة ماألف فى الفلسفة الإسلامية من حيث الموضوع وطريقة ، علاجه ونجده كذلك لاتفوته سجعة ، وان تكلف فى سبيلها المشاق ، ويقدّم

(٣٤) المرجع السابق ص٣١٨

(٣٥) محمد عبده لعباس محمود العقاد ص٣٠٧ - ٣٠٨

(٣٦) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص٤٤٦

لموضوعه بمقدمات طويلة تجهد نفس القارىء وتسئمه [٣٧] . وهاك مثلا على هذا الأسلوب من مقالة (الكتابة والقلم) : « ولما انتشر نوع الإنسان فى أقطار الأرض وبعد ما بينهم فى الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا إلى التخاطب فى شئونهم ، مع تنائى أمكنتهم وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل إذ ذاك لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبدىء المرسل ويعيد ، وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مفلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس ، فمع ذلك كان خلاف المرام ورمية من غير رام . فالتجئوا إلى استعمال رقم القلم ، ووكلوا الأمر إليه فيما به يتكلم .

٢ - لما اتصل بجمال الدين ، ورأى منه قدرته على تصريف المعانى ، وعلى ابتداع أفكار جديدة ، وقرأ معه بعض كتب الفلسفة والمنطق ، وخاض فى الموضوعات الاجتماعية والسياسية تدفعه الى الكتابة عاطفة جيّاشة وشباب فتى ، وأثر متقد من نفس أستاذه جمال الدين لم يجد وسيلة إلا أن يتخلص من السجع والكلف به ، وأن يتجنب المقدمات الطويلة ، وأن يرتب الموضوعات ترتيبًا منطقيا ، ويكثر من استعمال الأقيسة والبراهين ، ويقلب الفكرة على شتى وجوهها وترى فى كلامه قوة وحرارة وإيمانا بما يكتب [٣٨] . وهذا النوع من النثر يتجلى فى مقالات (الوقائع المصرية) وقد تدرج فى إصلاح أسلوبه حتى اشتد وقوى ، ثم بلغ درجة عظيمة من المتانة أسلوبه هنا أسلوب المصلح الاجتماعى الذى لا يعمد إلى تفخيم الألفاظ وانتقائها ، وحبك الجمل واستوائها [٣٩] .

وقد يصح أن نقسم النثر عند الإمام إلى أنواع : -

١ - النثر العلمى :

يعنى بوصف حقائق العلوم ومعلوماتها ، وتفصيل نظرياتها ، وصفًا دقيقا لا يعبث به . تخيّل موهوم ، ولا يوهنه تصوير مخترع ولا تنتابه المبالغات .

وقد كان أول هذا العصر يكاد يكون مقصورا على التاريخ وطرف من التراجم ويسير من علوم الدين كما كان لاجا فى العامية ككتاب الجبرتى « عجائب الآثار » أو مقصورا على شروح لفظية [٤٠] .

ثم ترقى شيئا فشيئا باتساع حركة الترجمة والاشتغال بالعلم زمن محمد على ثم عصر اسماعيل فتناول الكتابة فى القانون والملك والسياسة وفنون الحرب والطب والهندسة والتقدم وغير ذلك

(٣٧) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ ص٢٥٨

(٣٨) المرجع السابق

(٣٩) المرجع نفسه ص٢٥٩

(٤٠) الأدب العربى من عهد الفاطميين الى اليوم لمحمود رزق سليم ص١٨٦ - ١٨٧

وظل أسلوبه يتخلل بعضه العامية أيضا . ثم تناول قليلا من شئون الدين وفنون اللغة زيادة عن تناوله العلوم الكونية ، وذلك بعد انتشار المدارس وإصلاح الأزهر ورواج دعوة الإصلاح الديني والاجتماعي منذ أيام الأفغاني ومحمد عبده فتهذبت أساليبه وأخذت تتخللها الحجج والبراهين مع الترتيب المنطقي كما في رسالة التوحيد للإمام محمد عبده[٤١] وتعليقاته على كتب المنطق والفلسفة والكلام .

٢ – والنثر الاجتماعي :

يتطلب صحة العبارة ، وبالضرورة البعد عن الزخرف والزينة ، ووضوح الجمل ، وترك المبالغات وسلامة الحجج ، وإجرائها على حكم المنطق الصحيح لأن الغرض منه معالجة الأمر الواقع ، فلا ينبغي استعمال الأقيسة الشعرية ، ولا الخيال المجنح اللهم إلا في المقامات التي تقتضي استفزاز الجماهير ، وإثارة عواطفهم وتحميسها للإقلاع عن خلة فاسدة ، أو للتظاهر على الاضطلاع بنفع عام ، على أن يكون ذلك بقدر فإن الاغراض الاجتماعية انما تجري في حدود الحقائق الواقعة على كل حال .

والانصراف عن السجع والزخرف في هذا النوع من النثر بدهي لأن الفكر منصرف إلى تفتيق المعاني ، وسوق الحجج ، وضرب الأمثلة ، لا إلى الجري وراء كلمة أو سجعة[٤٢] .

ومثال هذا النوع من نثر الإمام كتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » .

فقد تحدثت « مجلة الجامعة » عن الاضطهاد والتسامح فسألها الأستاذ الإمام[٤٣] : أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون . وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو ورسو وأمثالهم ، وكيف ساغ لها أن تقول وهي في أرض مصر ، ومصر بلاد إسلامية وحالها كما ترى ؟ فإذا أرادت شاهدا على حال المسيحية والعلم فلتمر بنظرها اليوم على أسبانيا ، ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم . يمكنها أن تجد من طلبة العلوم المسلمين مئين في مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وأمريكان وهي مدارس دينية خصوصًا مدارس الجزويت ، فهل يمكنني أن أجد طالبًا واحدا مسيحيا في مدرسة دينية إسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب من أي ملة ، لانجد إلا قليلا منهم في مدارس الحكومة لعلمهم أنها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على الدين ، فهل سمع أن والدا اضطهد لأنه بعث بولده إلى مدرسة مسيحية يديرها قسيسون مسيحيون ، إلا يعد هذا من تسامح الإسلام مع العلم اليوم .

---

(٤١) المرجع السابق ص١٨٧

(٤٢) في الأدب الحديث لعمر الدسوقي جـ١ ص٢١٧

(٤٣) ص٩ – ١٠

وكم كان جميلا من الأستاذ الإمام أن يتخذ من الواقع الملموس دليلا يفند به مزاعم خصمه فتلك حجة بالغة ، وبرهان ساطع فمصر بلاد إسلامية وحالها كما ترى ، وأسبانيا بلاد مسيحية وحالها ما ترى ، ولكننى أهمس فى أذن الأستاذ الإمام قائلا : أين تلك المدرسة الدينية الإسلامية التى يباح الدخول فيها لكل طالب من أى ملة ؟ لعلها كانت أمنية من أمانى الشيخ حيث تتخذ تلك المدرسة وسيلة لتعريف غير المسلمين بالإسلام على غرار مدارس التبشير ، ولكن الواقع أن المدارس الدينية الإسلامية محظورة على غير المسلمين .

والمقطع الذى نقلناه يحمل بعض خصائص الأستاذ الفنية ومنها التنويع بين الخبر والإنشاء فمن الأخير قوله : أين الاضطهاد ؟ وأين أولئك العلماء ؟ وكيف ساغ ... ؟ فلتمر بنظرها ، ولتقف برهة فهل يمكننى أن أجد طالبًا واحدا ... ؟ فهل سمع أن والدا اضطهد ... ؟ ألا يعد هذا من تسامح الإسلام ؟ وبقية التعبيرات بعد ذلك خيرية ، ولاشك أن تنوّع الأسلوب بين الخبر والانشاء يحمل الكثير من عناصر التشويق ، ويوجد نوّعا من المشاركة الوجدانية بين الأديب وقارئه ، ولاسيما فى أساليب الاستفهام البلاغى الذى استخدمه الأستاذ الإمام .

هذا القسم كان أكثر تحررا من السجع وأنواع البديع ، وسائر المحسنات لأنه يعتمد بطبيعته على مخاطبة جماهير المثقفين واستثارة مشاعرهم ، وتغذية عقولهم ، ولذلك كان له الفضل الأكبر فى تحوّل أسلوب الكتابة من كتابة مقيّدة إلى كتابة مرسلة .

وقد بدا هذا فى أول النهضة من تحرير بعض المقالات فى الوقائع المصرية وفى تأليف بعض الكتب التى ألفها أعضاء البعثات من مثل رفاعة الطهطاوى ومدرسته بما كانوا يعرضون من صور اجتماعية طبعها فى نفوسهم مارأوا أثناء بعثتهم فى أوربا .

٣ - النثر السياسى أو الصحفى

يمتاز بالسهولة والوضوح[٤٤] بحيث يكون معناه فى ظاهر لفظه لأن الصحف تخاطب الجماهير ، ويقرؤها الخاصة والعامة ، وتتحدث إلى الجهال كما تتحدث الى المتعلمين ، هذا إلى أن قراءها انما يبغونها للساعة فلا محل للارتفاع بعبارتها والتعمق فى معانيها مما يقتضى من القارىء كدّ الذهن ، وارهاق العصب وهو يلجأ إلى الأدلة الخطابية لأنها أنفذ فى اقناع الجماهير من سواها اذ تقوم النزعات السياسية فى الغالب على الفروض والاعتبارات والميول الوجدانية أكثر مما تقوم على الحقائق العلمية .

وليس فى هذا النثر احتفاء بالأسلوب ، أو تخيّر للألفاظ ، أو جنوح إلى الخيال ، أو تعمق فى المعنى ، وإنما هو التصوير السريع ، وليس فيه تحقيق علمى منظم مبنى على الاستقراء أو ذكر المقدمات الوافية ، ويكثر فيه التكرار وعدم ترتيب الفكرة وهناك صحف خاصة أو مجلات

(٤٤) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ ص ٢١٧

علمية وفنية ، ويلحق بها الأبواب التى تحررها الصحف السياسية للعلوم والفنون ، فهذه ينبغى التأنق فى عباراتها ، والأيغال فى معانيها تحقيقا للغرض المقصود بها من تعليم العلوم وترقية الآداب ، ولايقبل على قراءة مثل هذه المجلات إلا المتعلمون(٤٥) ، ولكن الظاهرة التى ينبغى ملاحظتها أن أسلوب الصحافة يميل إلى السهولة والتأثير ويتسم بالسرعة ولا يتأنق فى عباراته(٤٦) .

قوى هذا النوع من الكتابة على أثر تبرم البلاد من التدخل الأجنبى فى عهد اسماعيل ثم قوى واشتد على أثر الاحتلال الانجليزى والمطالبة بالاستقلال ، وشعور نخبة من المفكرين بسوء الحالة الاجتماعية والدعوة إلى الإصلاح . ومن أعلام الكتاب فى هذا الباب السيد جمال الدين الأفغانى المتوفى سنة (١٨٩٧م) فقد شهد حركة التدخل الأجنبى فى عهد اسماعيل وأثار الشعور الوطنى ليصرخ فى وجه الظلم ولكن لم يكن قوى الأسلوب الكتابى ، إذ كانت تغلب عليه العجمة غير أنه كان نارا تلتهب يحمس كل من اتصل به ، ويؤثر بحديثه وبروحه فى مجالسه وتلاميذه ، ويدفع كل من له قدرة على الكتابة أن يكتب وأن يجيد الكتابة فخلق مدرسة قوية الروح قوية الأسلوب .

وربما كان هذا ممثلا خير تمثيل فيما أنشأه فى باريس بعد نفيه من مجلة (العروة الوثقى) إذ كان هو روح المجلة والشيخ محمد عبده هو قلمها وأسلوبها .(٤٧)

ومما يلاحظ أن المقالات السياسية والاجتماعية حاجة من حاجات الغذاء العقلى والعاطفى وأنها أكثر تأثرا فى الترسل والمعانى بالأدب الغربى وإن اتخذت موضوعاتها من البيئة الشرقية .(٤٨)

٤ - وأمّا النثر الفنى ، ونعنى به النثر الذى يقصد فيه إلى الصياغة والجمال الموسيقى ، والامتاع الفنى أكثر مما يقصد فيه الى نقل الأفكار ، وتقرير الحقائق فقد كان رقيه أقل وخطواته أضيق ، ولم يتحرر من سجعه وبديعه طوال القرن التاسع عشر إلا قليلا ، وكان أكثر ما يتجلى فى الإخوانيات والمساجلات الأدبية ، والتقدمة لموضوع اجتماعى كما نرى فى مقدمة محمد عبده لكتابه «أسباب الثورة العرابية» وغيره ، وفى إخوانياته ومساجلاته أيضا وكثيرا ما يكون للأديب لونان : لون يتأنق فيه ويتقّيد بالقيود الرسمية ، ويتصنع فيه ويتكلف ويعمل ذهنه وخياله للعثور على نوع من أنواع البديع ، أو فقرتين يؤلف بينهما سجعه ، ويحتذى فيه حذو

---

(٤٥) المرجع نفسه ص ٢١٨

(٤٦) Sidney low Egypt in tvansition p.284

(٤٧) قصة الأدب فى العالم جـ٣ القسم الأول لأحمد أمين ومكى نجيب محمود ص ٣٢٢

(٤٨) قصة الأدب فى العالم جـ٣ القسم الأول ص ٣٢٥

الأقدمين من الكتاب أمثال بديع الزمان والحريرى - ولون يترسل فيه ويتحرر من القيود إذا عرض لموضوع اجتماعى أو سياسى كما فعل محمد المويلحى فى حديث عيسى بن هشام. وكما نرى فى كثير من المقالات التى كتبت فى هذا العصر.

ومهما يكن من شىء فإن هذا النوع من النثر أشد أنواع النثر حاجة إلى تخيّر اللفظ، والتأنق فى النظم حتى يخرج الكلام مشرقا منيرا لطيف الموقع فى النفوس، حلو النبرة فى الآذان، لأن للموسيقى اللفظية أثرا كبيرا فى الأذهان، وهو أدنى أنواع النثر إلى الشعر ولهذا لاينكر منه البديع، على ألا يكون من الكثرة بحيث يستهلك ذهن القارىء، وبحيث لايستكره على النظم استكراها، ولاتساق الجملة لمجرد اصطياده، بل إن خيره ماجاء عفوا.

ويقتضى التأنق فى اللفظ، وجودة السبك، وتفتيق المعانى، معرفة بأسرار اللغة، ووفرة محصول من المفردات، وخبرة بالكلام الجيّد، واستظهار كثير من المنظوم والمنثور، هذا إلى طبيعة مواتية، وحس مرهف، وذوق رقيق، وفطنة إلى مواطن الجمال[٤٩].

ولعل أفضل مثل نضربه على ذلك رسالة الشيخ محمد عبده إلى أحد أصدقائه وهو فى السجن بعد فشل الثورة العرابية.

وقد قل هذا الأدب بطغيان الأدب الاجتماعى والسياسى عليه، وبحكم أن النّاس رأوه ضربًا من ضروب الكمال.

وهو أكثر تأثرا بالأدب العربى القديم فى أسلوبه وقيوده.[٥٠]

إن الأدب فى مراحله الأولية يكون مداره الخيال حتى إذا مانهض واستقام على قدميه نبذ الخيال ولاذ بالحقائق والوقائع[٥١]، أو بعبارة أخرى إن الأدب إذا ماشبّ عن طوق طفولته تحولت مادته إلى كلام يشبه ماتنطلق به ألسنة العلماء من حيث تقريره للحقائق الواقعة، فإن كان ذلك كذلك فالحق أن مصر اليوم بل وفى القرن التاسع عشر فيها كثرة من الأدباء الذين يكتبون أمثال هذه الحقائق فى لفظ جميل، وإذا فقد ارتحلت فيها راحلة الأدب بحيث جاوزت من طريقها خيال الطفولة وبلغت نضج الرجولة[٥٢].

وليس معنى ذلك أن العلم والأدب ينبعان من نبع واحد وأن الخلاف بينهما شكلى ولكن الأمر أعمق من ذلك. فالرأى عندى[٥٣] وهو أن العلم والأدب صنفان من الكلام مختلفان اختلافا يستحيل معه أن يتطور أحدهما إلى الآخر كما يستحيل أن تتطور الأغنام فتصبح أبقارا،

---

(٤٩) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ ص ٢١٨

(٥٠) قصة الأدب فى العالم جـ٣ القسم الأول ص ٣٢٦

(٥١) قشور ولباب للدكتور زكى نجيب محمود ص ١٠٥

(٥٢) المرجع السابق ص ١٠٦

(٥٣) المرجع نفسه ص ١٠٧

لالأن الأدب متميّز من العلم بجمال أسلوبه مع جواز اتحادهما فى مادة القول بل الاختلاف أعمق من ذلك وأبعد ، فالعبارة العلمية من طراز ، والعبارة الأدبية من طراز آخر ولن يستطيع جمال الأسلوب أن يعبر مابينهما من فجوة واسعة سحيقة .

فالعلم تعميم والفن تخصيص ، العلم تجميع والفن تفريد ، العلم يلاحظ الأشباه والنظائر ليستخلص منها أوجه الشبه فيصوغها فى قانون واحد ينظمها ، والفن يلاحظ جزئية واحدة يقف عندها ، ويحلل خصائصها . العلم يستبعد نفس الخصائص التى يستبقيها الفن ، فالخصائص الفريدة التى تميّز فلانا من النّاس دون سائر الأفراد هى التى يستبقيها الفنان ليحللها ويصوّرها ، وهى نفسها التى يستبعدها العالم لأنها ليست مشتركة بين سائر أفراد النوع الإنسانى . يقول عالم النبات عن الزهر ماينطبق على الزهر كله مادام منتميا إلى فصيلة واحدة ، أمّا الفنان فيقف عند زهرة واحدة فى لحظة زمنية واحدة يلقفها من تيار حوادثها الدافق قبل أن تمضى إلى غير عودة فيصورها رسما أو أدبًا أو ماشاءت له مادته التى يستخدمها وسيلة لإثبات مايريد أن يثبته .(٥٤)

أسلوب الاثارة والمنهج العلمى :

هناك سبيلان لمخاطبة القارىء عن طريق المنشور هما سبيل الإثارة وسبيل المنهاج العلمى . والمقصود بكلا السبيلين اقناع القارىء برأى الكاتب ، وحمله على تأييده إذا كانت هناك مناظرة فى موضوع ذى وجهين .

والأغلب أن الكاتب يلجأ إلى أسلوب الإثارة إن وجد إن الحجة تعوزه ، وأن المنطق لايطاوعه ، فيعمد إلى إثارة القارىء بالكلمات ذات الأثر المنبرى والمفعول الخطابى ، ويذهب فى التهويل والمبالغة إلى حد المغالطة فى بعض الأحيان مطمئنا إلى أن القارىء العادى غير فطن ، وأن الثوب القشيب المزركش الصارخ الألوان يخفى دمامة السحنة ، ويصرف النظر عن المعايب حتى ما كان منها ظاهرا ملحوظا .

ولكن أهل العلم عامة لايرتضون أسلوب الإثارة ولا يجعلونه سبيلهم إلى مخاطبة العقول والافهام فالإثارة قد تخاطب العاطفة والوجدان(٥٥) . أما أسلوب الروية العلمى المتحفظ فإنه يخاطب العقل ، ويتوسل بالمنطق ، ويراعى الحقائق قبل كل اعتبار ، وينأى عن التحيزّ الأعمى لرأى مالم يقم عليه ألف دليل ودليل . وقد لايحتاج أسلوب الإثارة إلى مقدمات تبنى عليها النتائج لأن الكاتب يدخل مباشرة إلى صميم موضوعه غنيا عن سوق الحقائق التى تعزز

(٥٤) المرجع نفسه ص ١٠٨

(٥٥) قضايا الفكر فى الأدب المعاصر لوديع فلسطين ص٦٨

حجته ودعواه ، أما المنهج العلمى فإنه لايهتم بمعالجة موضوع قبل أن يوطىء له بمقدمات[٥٦] وأصحابه يسيرون على منهج ديدنه الصدق ، ودعامته الحقيقة ، وسبيله التحفظ ، وهدفه الاستزادة من المعرفة ، وفتح آفاق للعلم رحبة .

والذين يشتغلون بالأدب وبالقانون وبالاقتصاد وبالسياسة وبالفلسفة وبكل فرع من فروع المعرفة يستطيعون أن ينهجوا على شيمة العلماء آخذين بالأسلوب العلمى فيما يكتبون ويصنفون ويعالجون من أمور الحياة جميعا[٥٧] ، وأولئك الجادون يبعثون فى القراء ثقة ويخلفون وراءهم آثار أقدام باقية على صخر التاريخ لاتمحوها الأعاصير لأنها آثار منقوشة على صّوان .

وإذا كان أسلوب الإثارة يستهدف مناشدة عاطفة القراء فإن الأسلوب العلمى قد ينتهى عن غير قصد إلى مثل هاته النتيجة فالحقائق والأرقام الصماء كثيرا ما تكون فى صحتها أبلغ من خطب البلغاء الذربين[٥٨] .

وقد يتوسل متعشقو أسلوب الاثارة بالخيال فيفرطون فى استعماله إفراطا يباعد بينهم وبين الواقع ، أمّا الآخذون بالمنهاج العلمى فانهم متشبثون بالواقع العلمى ، لا يتخلون عنه إلا إذا انتقلوا إلى واقع عملى على درجة أعلى من سابقه فإن توسلوا بالخيال ففى حدود وسرعان ما يرتدون إلى يقظة الواقع بكل ما فيها من مر ومن حلو[٥٩] .

هذان إذن سبيلان فى الحياة يمثلان منهاجين من مناهج الفكر لكل منهما أنصار ومحبذون ولا غبار على المنهاجين إذا كان سعيهما حثيثا إلى بلوغ كنه الحق ، ولكن تنكب أحدهما لطريق الحق يبعث على الاسترابة فى وسائله ومآربه[٦٠] . وقد غلب على أسلوب الأستاذ الإمام سبيل المنهج العلمى .

أسلوب الكتب التاريخية فى القرن التاسع عشر :

تغيّر أسلوب النثر التاريخى تغيّرا تدريجيّا . فمؤرخو هذا القرن التزموا فى أوله أسلوب سابقيهم فكانوا يختارون لكتبهم عناوين مسجوعة وكانوا يلتزمون السجع أحيانا فى كتاباتهم ويكتبون بأسلوب سهل مرسل أحيانا أخرى وخير مثال لهذا التذبذب رفاعة الطهطاوى فهو فى الجزء الأول من تاريخه المسمى « أنوار توفيق الجليل » يلتزم السجع إلى حد كبير ، ولكنه فى الجزء الثانى الذى أرّخ فيه للرسول ترك السجع وانطلق يكتب بأسلوب سهل مرسل[٦١] ، ولم يكد

---

(٥٦) المرجع نفسه ص٦٩
(٥٧) المرجع السابق ص٧٠
(٥٨) المرجع نفسه ص٧١
(٥٩) المرجع نفسه ص٧٢
(٦٠) المرجع نفسه ص٧٤
(٦١) التاريخ والمؤرخون فى القرن التاسع عشر للدكتور جمال الدين الشيال ص٢٢٩

يشرف القرن التاسع عشر على نهايته حتى وجدنا المؤرخين المصريين - والكتاب بوجه عام - يتركون هذه المحسنات البديعية ، ويكتبون بأسلوب سهل جميل خال تماما مما كان يعيب أساليب العصر العثمانى المتأخر من ركاكة أو عجمة ، والفرق واضح جلى بين أسلوب الجبرتى أو رفاعة ، وأسلوب عبد الله النديم أو محمد عبده(٦٢) .

لقد مرن أسلوب الإمام واشتد قلمه من كثرة ما كتب ، وما تناول من موضوعات وما تأثر به من تجارب وقراءة ، وبلغ أسلوبه غايته فى مقالته التى يرد بها على (هانوتو) حيث تجلت فيها نصاعة الفكرة ، وصدق العاطفة ، ومتانة الأسلوب ، وقوة الحجة ، وسلامة البرهان مع بساطة فى التركيب وسهولة فى الألفاظ(٦٣) .

وعلى كل حال فنحن نستطيع كما يقول الدكتور محمد كامل الفقى : أن نحكم على الطابع العام لأدب الأستاذ الإمام بأنه السطوة والجزالة والميل للإطناب ما احتاج إلى الشرح والإفاضة مع تخفف من الصناعة اللفظية التى لا تكلف فيها كما يشيع فى كتاباته الاستشهاد بالقرآن والحديث والتمثل بالمأثور من كلام الحكماء الشرقيين والغربيين .

أمّا أسلوبه العلمى التأليفى فانه يمتاز بالوضوح والسلاسة والاطراد ، وحسن السبك وقوة البرهان(٦٤) . كانت تتمثل فيه قوة فى العرض ، ودراسة للموضوع لها حظ من العمق ، ومعرفة جيّدة بطبائع الأمم . وعلم دقيق بأمور التربية والتعليم ، وفقه عظيم بالسياسة ، ثم سهولة ووضوح فى تأدية المعنى .

ونحن وإن كنّا لانستطيع أن نضع حدّا فاصلاً بين الشكل والمضمون لنرجع البلاغة إلى واحد منهما وبالتالى نتورط فيما تورط فيه الأقدمون حول قضية اللفظ والمعنى وإلى أيهما ترجع بلاغة الكلام . إذا كنا لا نستطيع أن نضع ذلك الحد الفاصل لأننا نؤمن بأن العلاقة بين الشكل والمضمون تشبه العلاقة بين شقى المقص لايدرى أيهما أقطع من صاحبه .

نحن وإن كنا نؤمن بكل هذه القضايا النقدية والأدبية فإننا لابد أن نلقى ضوءا كشافا على المضمون الفنى عند الإمام فى أصوله وتطوراته ، ذلك أن أهم فرق بين إنسان وإنسان هو نظرته إلى الأشياء وتقويمها ، هذا هو الفرق بين العالم والجاهل ، والراقى والوضيع والحكيم والأحمق ، وسلوك الإنسان فى الحياة دليل على قائمة القيم المنقوشة فى أعماق نفسه(٦٥) .

فكيف كانت نظرة الإمام إلى اللغة التى تعدمتن الأدب ؟ إنه يرى أن اللغة ظاهرة اجتماعية

---

(٦٢) المرجع نفسه ص٢٣٠

(٦٣) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ ص٢٦٠

(٦٤) الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة ص٢٨٠ - ٢٨١

(٦٥) فيض الخاطر جـ٧ ص٣٢٢

احتاج اليها الإنسان لشدة حاجته إلى التفاهم مع بنى جنسه لأنه لاغنى لأحدهم عن الآخر.
يقول الإمام(٦٦) :

كفاك من الدليل على أن الإنسان لايعيش إلا فى جملة ما وهبه من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعدّا لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات الا لاشتداد الحاجة إلى التفاهم بين اثنين أو أكثر إلا الشهادة بأنه لاغنى لأحدهم عن الآخر.

فاللغة اخترعها الإنسان ليتحدث بها مع أخيه الانسان وليتفاهموا مع بعضهم وأحاديث النّاس تتأثر بنظرتهم إلى الحياة ، وبقيمة الحياة فى تصوّرهم وبمقدار ما عند النّاس من فكر وخيال ومعرفة ومزاج تتأثر أحاديثهم فتسمو وتسفل ، وترق وتخشن ، وتقوى وتضعف والمثل الأعلى عندهم من وراء كل ذلك .

هذا هو تصوّر الإمام لمدار الأحاديث والآراء التى يتداولها النّاس ولاسيا أحاديث الأدب شعره ونثره ، وليس أدل على ذلك من قول الإمام(٦٧) : إن أحاديث الأمم تدور على محور أفكارهم إذ اللسان هو المترجم عما يختلج بالضمير من الصور المحفوظة والمعانى المتخيلة على اختلاف أشكالها وتنوّع فنونها فباختلاف صنوف البشر فى المعارف والأمزجة تتباين مفاوضاتها وأحاديثها ، وتتشعب مجادلاتها ومحاوراتها ، وإن تواريخ الأمم الغابرة ، وحوادث الملل الحاضرة لترشدنا إلى ذلك بأجلى بيان .

فهذه الأمة العربية فى صدر الإسلام وقبيله لما مال عنصرها إلى التحبب فى خلق الجرأة ، وحملتها شهامة النفس على الجولان فى ميادين الغزو والفتوح قصرت أحاديث رجالها على ما يتعلق بحرب ماضية ومعركة آتية ، تعقد مجالسها على ذكر جياد الخيل ومحاسنها ، شارحة معايب الأقواس وأوتارها متنقلة إلى الكلام عمن اشتهر من رجالها بالاقدام والظفر والبسالة والانتصار ، وقصائدهم الشعرية مشحونة بأوصاف الحماس ، وخطبهم النثرية موقوفة على مدح النزال والبراز ، وبقيت هكذا أحاديثهم إلى أن ضعفت تلك الحواس واستعيض عنها بالميل إلى الراحة والانغماس فى النعيم فتولد فيهم من ذلك المحبة والعشق ، ولهجت شعراؤهم بأوصاف الغزل بعد الحماس ، وبنعت الحاجبين والخصر بعد الإسهاب فى وصفى القوس والوتر.

فالادب وثيق الصلة بالحياة من ناحية وبقيمة الحياة فى نظر النّاس من ناحية أخرى ، ومن هنا كان الأدب عند الإمام ظاهرة اجتماعية فحين كان الدين والعلم يؤثران فى حياة النّاس تأثيرا مباشرا أو غير مباشر كانت الفنون الجميلة صدى لهذا الأثر ، وحين يضعف هذا الأثر أو ينعدم

---

(٦٦) رسالة التوحيد ص٩٧

(٦٧) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ ص١٠٣ وما بعدها

ينال الفنون الجميلة ما ينالها من الهزال والضعف وتعجز عن أداء رسالتها السامية وهكذا يرى الإمام حين يقول (٦٨) :

كان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ، ويسيح به فى الأرض ، ويصعد به إلى أطباق السماء ، ليقف به على أثر الله ، أو يكتشف به سرا من أسرار خليقته أو يستنبط حكما من أحكام شريعته فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقطف من ثمارها ما تشاء وتبلغ من التمتع بها ما تريد ، فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج .

ولهذا النص أهمية كبرى إذ هو يطلعنا على رأى الإمام فى الدين وأنه مفتاح العلوم والفنون فبالدين يتحرك العقل منقبا مكتشفا مستنبطا ، وبالدين أيضا يقف العلم وتقف الفنون فقوّة الدين تحمل معها قوّة العلوم والفنون ، وضعف الدين يجر إلى ضعفهما وهذا الرأى ليس بغريب إذا علمنا أن العلوم العربية مدينة فى نشأتها للقرآن الكريم .

وفى الواقع إن مفتاح شخصية محمد عبده يوجد هنا أيضا فعمق إيمانه ودينه القويم ، وتمسكه بآداب هذا الدين وأحكامه جهد الطاقة تكشف لنا عن البواعث والحوافز فى حياة محمد عبده وآثاره . الإسلام كان من وراء محمد عبده طفلا وشابا وشيخا ، طالبا ومعلمًا ومحسنا وقاضيا ومفتيا ومصلحًا . والإسلام كان من وراء محمد عبده أديبا وناقدا ومؤلفا .

الدين والأدب :

يبعث الدين فى أساليب الأدب روحا طيبة تفيض بالمحبة والسلام ، والتآخى والمساواة ، والشفقة ، وتلك كانت طريقة الرسل فاستطاعوا أن يصفوا النفوس من أدران الرذائل ، وأن يسموا بها إلى درجات الطهر والفضيلة ، وليس ينكر ما كان بين الدين والأدب من صلات قديمة فإن الأناشيد الدينية من فنون الشعر الجميل ، والدين والأدب يتأثران بالإلهام ، ويقصدان إلى تهذيب الجنس البشرى ذلك عن طريق الشعائر الدينية المقدسة وهذا عم طريق العواطف الصادقة والأخيلة الجميلة ، وأقدر رجال الدين على القيام بواجبهم هم الأدباء الذين أتوا من صدق الشعور ، وملكة البيان ما يعينهم على إدراك الفضائل الدينية وبثها فى نفوس البشر ، وقد قال سيدنا موسى عليه السلام يخاطب المولى جلّ جلاله لمّا بعثه إلى فرعون وقومه « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذّبون » وكان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أفصح العرب ، وكان القرآن معجزة الإسلام الأدبية ، وكان الأدب العربى من خير الوسائل لنشر الدين حتى أشرب روحه ، واتجهت دراسته إلى تعرف

---

(٦٨) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص١١٦

إعجاز القرآن واستنباط الأحكام الشرعية منه[٦٩] . على أن تاريخ الديانات كلها حافل بذكر الأدباء الذين كان لألسنتهم وأقلامهم أبلغ الأثر فيما قصدوا من إصلاح وهداية[٧٠] .

وقد برز هذا الارتباط بين الدين والأدب عند الإمام فى تفسيره للقرآن الكريم ، وفى الرد على هانوتو وفى رسالة التوحيد ، وفى الإسلام والنصرانية ... الخ .

ولا نغالى إذا قلنا أن الدين كان هو الطاقة التى تنفخ فى أدب الإمام فتدب فيه الروح ويشيع فيه الدفء .

يتحدث الأستاذ عن جناية الجمود على اللغة فيقول [٧١] : أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة وأساليبها وآدابها ، فإن القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم اليها . أريد حاجتهم فى كتابهم إلى معرفة دقائق أساليبها وما تشير اليه هيئة تراكيبها وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربًا بملكاتهم ، يساوون من كانوا عربًا بسلائقهم ، فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بما قال المتقدّم قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا إلى دليله ، ولو نظروا فى الدليل فرأوه غير دال عليه بل دالا لخصمه ، بأن كان عرض له فى فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم لخطأوا نظرهم وأعموا أبصارهم ، وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا إلى غير ما ذهب اليه متقدمنا ، وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية ، فأى حاجة له بعد ذلك إلى اللغة العربية نفسها ، وقد يكفيه ما يفهم به أسلوب كلام المتقدّم ، وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الأولون فى كلامهم .

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه فى كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الأول . بل ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان ، فهو لا ينظر إلى اللفظ وما يعطيه ، فتسقط منزلته فى تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال النّاس إلى مانراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين فى النحو وفنون البلاغة وإن لم يصلوا منها إلى غاية فى فهم ماوراءها فدرست علوم الأولين وبادت صناعتهم بل فقدت كتب السلف الأولين رضى الله عنهم .

ويلفت النظر فى حديث الإمام السابق عدة أمور : أولا : الغرض من تعلم اللغة العربية هو خدمة الدين .

ثانيا : السبب فى جمود اللغة هو أخذ المتأخرين بما قال المتقدمون بغير تعقل فأصيب العقل بالشلل .

---

(٦٩) أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب ص٧٩

(٧٠) المصدر نفسه ص٨٠

(٧١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص١١٦ - ١١٧

ثالثا : إهمال المتأخرين الأخذ بمذهب السلف «كل متأخر يقصر فهمه على النظر فى كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الأول» وفى هذا مايؤيد ما ذهبنا اليه من أن للإمام مذهبًا واحدا فى اللغة والأدب والنقد هو مذهب السلف ، والفقرة التى نقلناها تؤيد مذهبه فى اللغة .

رابعا : كانت لفتة كريمة من الإمام نظرته إلى جو النص وإيماءات اللفظ ، وأن ذلك يسمو بصاحبه فى تحصيل اللغة ، كل متأخر ... غير مبال بسلفه الأول بل ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان ، فهو لا ينظر إلى اللفظ وما يعطيه ... الخ .

وكان مما تحدث به الإمام عن اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية ثم العقلية قوله(٧٢) :

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة على بن أبى طالب كرّم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة النّاس إلى ذلك ، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم فى ظلام تلك الفتن استرسالا مع مايدعوهم اليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم ، وإن كانت الحروب الداخلية التى اشتعلت نارها فى أطراف بلادهم للنزاع فى أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شىء من مصالحهم فإنها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة فالبراعة فى الآداب : من علم بوقائع العرب وتاريخهم ، وقول الشعر وإنشاء البليغ من النثر قد بلغت فى خلافة بنى أمية مبلغا لم تبلغه أمة قط فى مثل مدتها ، وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتها ، ويرفعون مكانة الشعراء والخطباء والعلماء بالسير ثم ظهرت آثار العلوم العقلية فى آخر دولتهم وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول .

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة إلى الشام ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين فقد جاء رسول من الفرس إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فلما سأل عنه دّل عليه فذهب اليه فإذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء وجاءت رسل الملوك إلى معاوية رحمه الله فإذا هو فى قصر مشيد محلى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية ، مزين بالجنات والرياض ، وينابيع الماء ، مفروش بأحسن الفرش ، يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش ، ولم يكن معاوية فى ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه ، وانما تناول مباحا وتمتع برخصة آتاه الله إياها ، ولا يخفى ما فى ذلك من ترويج فنون الإبداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها .

ولابد لنا من وقفة عند هذا المقطع الذى نقلناه من كلام الإمام لأنه يرشدنا إلى نقاط مهمة يفتح لنا السّر الذى من أجله شرح الإمام نهج البلاغة فعلى ابن أبى طالب أخذ يحض على تعليم الآداب العربية بعد عشرين سنة من وفاة الرسول فأدبه إذا من النوع الصافى الذى لم ترتق

(٧٢) المرجع السابق ص ٨٥

صفوة نزعة المتأخرين فهو يرضى رغبة الإمام فى العودة إلى ذلك المشرع الروى فليشرحه بطريقته الخاصة وليلفت إليه أنظار تلاميذه وأنصار مدرسته فى الأدب . ليعد إلى ذلك الأدب يبعثه ليتخذ منه ركيزة ثابتة ينطلق منها نحو الجديد فى الأدب حتى يقف على أرض صلبة تمكنه من الانطلاقة المنشودة ، والقفزة الرائعة نحو أدب خالد مشرق جديد .

ثم إن هذا المقطع يرشدنا إلى الفنون الأدبية فى عصر بنى أمية : من علم بوقائع العرب وتاريخهم وقول الشعر وإنشاء البليغ من النثر .

والأستاذ الإمام حينما يعتبر وقائع العرب وتاريخهم فى عصر بنى أمية أدبًا يصدر فى ذلك عن فكر ثاقب ورأى ناضج لأن كتب التاريخ فى هذه الفترة تختلف عن كتب التاريخ التى بين أيدينا الآن إنها مجموعات أدبية من القصص التاريخى . وقد أوضحنا ذلك فى كتابنا « ابو حنيفة الدينورى ومدرسته فى الأدب والنقد » ثم يحدثنا عن أسباب النهضة الأدبية فى العصر الأموى حينما يقول : وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتها ... الخ فتشجيع الخلفاء وظهور العلوم العقلية والترجمة كل هذه الأمور ساعدت على نهضة الأدب الأموى . كما أنه لم ينس الحضارة الأموية وماكان لها من أثر فى ترويج فنون الإبداع .

ثم تحدث عن اشتغال العرب بالعلوم الكونية [٧٣] فى أوائل القرن الثانى وعن إنشائهم دور الكتب العامة والخاصة وانشائهم المدارس للعلوم وطريقة التدريس ، وكان مما قال فى ذلك [٧٤] :

« ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الأدبية بجميع أنواعها حتى القصص والأساطير الخيالية فى الأحوال الاجتماعية » .

وتحدث عن علوم العرب [٧٥] واكتشافاتها فقال :

كان علم العرب فى أول الأمر يونانيا لكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربيا ، ولم يرض العربى أن يكون تلميذا لأرسطو وأفلاطون أو اقليدس أو بطليموس زمنا طويلا كما بقى الأوربى كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحى ... ثم يقول : أول شىء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجريبات ، وأن لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية فى العلوم مالم تؤيدها التجربة حتى لقد قال جوستاف لوبون أحد فلاسفة الأوربيين إن القاعدة عند العرب هى « جرِّب وشاهد ولاحظ تكن عارفا وعند الأوربى الى مابعد القرن العاشر من التاريخ المسيحى » اقرأ فى الكتب

(٧٣) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٨٦ - ٩٠

(٧٤) المرجع نفسه ص٩٠

(٧٥) المرجع نفسه ص ٩١ - ٩٦

وكرر مايقول الأساتذة تكن عالما » فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال وماذا أعقب من سوء المآل .

كان هذا هو تصّور الإمام للأدب ، ورسالته عبر القرون : يرتبط الأدب بقيمة الحياة فى نظر النّاس قوة وضعفا سموا وانحطاطا جدا وهزلا ودراسة الفنون الأدبية التى ارتضاها الإمام من شأنها أن تولد فى العقول أفكارا جليلة وتدفع إلى قول الحق كما يقول الإمام :

إن كثيرا من ذوى القرائح الجيّدة إذا أكثروا من دراسة الفنون الأدبية ، ومطالعة أخبار الأمم ، وأحوالهم الحاضرة تتولد فى عقولهم أفكار جليلة وتنبعث فى نفوسهم همم رفيعة تندفع إلى قول الحق .[٧٦]

ونحس من ذلك أن الإمام يرى أن للفنون الأدبية رسالة أخلاقية فهى تبعث فى النفوس الهمم الرفيعة وتدفع إلى قول الحق .

وحين يربط الإمام بين دراسة الفنون الأدبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالهم الحاضرة يلفت نظرنا إلى ميدان من أهم ميادين الأدب الحديث : ميدان السياسة والاجتماع ، فالذى لاشك فيه أن الأدب الحديث كان عماد النهضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية يسجلها ويسايرها ويغذوها ويأخذ بيدها إلى سبيل النجاح .

وهو الذى سجل نواحى النشاط المصرى الحديث والنهضة الفكرية فى الشرق العربى جميعه فصار مرآة هذه الحركات ومرجعها الصحيح . والحضارة الإنسانية ثورة متصلة مظهرها الأدب والفن ونحن فى مصر وفى الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ثم اخضعتنا الظروف لحكم الحضارة الغربية ، وقد قامت هذه الحضارة الغربية أول قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الأدب هذه الوجهة التى ترسمها هذه الفلسفة ، وهذا التشريع ومأأحاط بها من عصرهما من صور الفن والأدب ، ثم جعلت أوربا تستقل بحضارتها رويدا رويدا لتقيمها على الأساس العلمى الذى وضعه ديكارت فى القرن السابع عشر والأدب العربى المعبر عن هذه الحضارة لايمكن أن ينسى هذه الصلة .[٧٧] ولاينكر أحد مالأقلام الأدباء وألسنتهم من آثار خطيرة فى اذكاء الثوارت والتأثير فى الحكومات ، وحرب الطغاة والمستبدين وثل عروش الجبابرة ، وتغيير النظم والقوانين فذلك كله بارز الأمثلة فى حياتنا المعاصرة ، وفى أطوار التاريخ ، ودليل على أن الأدب يحمل حقا رسالة الحق والجمال والحرية والعدالة ويجاهد فى سبيل ذلك غير وان ولا يائس حتى يضمن للناس حياة حرة عادلة كريمة هى الحياة الخليقة بالإنسان وربما كانت هذه المهمة خير ما ينهض به الأديب الذى يعرف وظيفته ، ويحتر

(٧٦) تاريخ الأستاذ الإمام جـ ص ١١٩

(٧٧) ثورة الأدب – للدكتور محمد حسين هيكل ص ١١

نفسه ، ولاشك أن العلم والفلسفة عمدته فى تعرف الحق والجمال والحرية ، والأدب كثمرة جذورها العلم ، وهيكلها الفلسفة .(٧٨)

وإن الجهود التى بذلها الشيخ محمد عبده فى سبيل تحرير العقول فى مصر من أغلال التقليد ، وفى التوفيق بين دين الإسلام وثقافته ، وبين ماوصلت اليه المدنية الحديثة سهلت على الأدب فى عصرنا الحاضر سبل التجديد دون أن تنفصم الروابط التى وصلت بين حاضره وماضيه .(٧٩)

لقد كان أدب الإمام يمثل الشعب فى بؤسه والحكام فى ظلمهم . كان ينفخ فى الأمة روح الثورة على الظالمين ، ويدعوها إلى أن تتبوأ مكانتها اللائقة بها .

وبعد الاحتلال وجدت نزعتان مختلفتان فى السياسة والاجتماع : نزعة تميل إلى الاصلاح التدريجى(٨٠) والميل إلى الحكومة المستبدة العادلة والتدرج بالأمة حتى تنتج أفرادا ممتازين فى الخلق والثقافة ، وإذ ذاك يمكن تكوين حكومة شورية ، وكان على هذا الحزب رياض ، ويناصره من الكتاب الشيخ محمد عبده ، وحزب يرى الإسراع فى تنفيذ النظام النيابى ، وأنه هو الذى يكوّن الرجال ، ويسير بهم نحو الكمال ، وكان على رأس هذا الحزب شريف ويناصره من الكتاب أديب اسحاق وغيره ، كما وجدت فيما بعد أحزاب أخرى لها نزعاتها المختلفة ، ولكل نزعة كتابها وأدباؤها . وكان هذا كله نعمة على الأدب السياسى والاجتماعى إذ أجرى أقلام الكتاب ، وألهب عواطفهم وجعل كتاباتهم حارة متدفقة ، فتوفر طائفة منهم على دراسة الحياة الاجتماعية ينقدون حالة المجتمع ويدعون إلى الإصلاح من مثل مقالات محمد عبده(٨١) .

وليس لدينا اعتراض على أن يعالج الأديب مشكلات الجماعة من الزاوية التى تروق له ، فالحياة عامرة بالمشكلات التى ينبغى أن يتصدى لبحثها كل مفكر ، وكل صاحب قلم على النحو الذى يحسنه وتسعفه فيه وسائله ولكن محاولة قصر الأدب على معالجة مشكلات المجتمع هى محاولة لإفراغ الأدباء جميعا فى قالب واحد لايشذ عنه أحد(٨٢) .

والواقع أن الأديب المشتغل بالفن هو ثمرة ظروف خاصة وجدت فيه الموهبة فجعلت منه

---

(٧٨) أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب ص٨١

(٧٩) الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة - للدكتور محمد كامل الفقى ص ٢٨٣ ط نهضة مصر بالفجالة . من ٢٢٩ إلى ٢٣٣ محمد عبده

(٨٠) قصة الأدب فى العالم جـ٣ القسم الأول لأحمد أمين وزكى نجيب محمود ص٣٢٢

(٨١) المرجع نفسه ص٣٢٣

(٨٢) قضايا الفكر فى الأدب المعاصر لوديع فلسطين ص٤٧

ذلكم الأديب وإذا ألزم الأديب أن يقول مالا يؤمن به كان أدبه أدب مخاتلة ومين[٨٣] .

إن الالتزام فى حد ذاته موجود فى أدب الأديب الحقيقى ذى الرسالة إذ يلتزم أداءها ويسوق فى فحواها آثاره البيانية التى أودعها تجاربه مع الحياة والمجتمع .

وحسن أن يكون الأديب على دراية بمشكلات زمانه وأن يحس كما يحس زملاؤه المواطنون ، وأن يستجيب لدواعى الجماعة عند الاقتضاء ، ولكن ليس من المقبول أن تنتقل جميع مشكلات الجماعة إلى فنون الأدب فتفسدها وتجعلها انعكاسا لما فى الحياة من معضلات وضائقات[٨٤] .

فليترك الأدباء أحرارا يلتزمون ما يشاءون من مناهج واتجاهات[٨٥] . ويبدو أن الإمام لم يكن من أنصار هذه الحرية ، لذلك كان يلتمس سنّ القوانين للرقابة على المطبوعات بل هو قد سعى لذلك وأفلح فيه ، وكان يرجع إلى سلطانه أمر هذه الرقابة فى عهد رئاسته لتحرير الجريدة الرسمية .

ذلك بأنه كان يخشى انتشار الكتب الضارة بالدين الداعية للخرافات بين العامة ، ويخشى انتشار اللهجات السخيفة ، والموضوعات المؤذية للأخلاق[٨٦] .

وقد شاع فى عالم الأدب اسم الأدب الواقعى ، وهو أدب يفترض فيه أن يعرض الحياة اليومية بأسلوب خلو من الخيال والافتعال ، فتظهر الصورة واقعية صرفا ، لابد للصنعة فيها ، والأدباء الواقعيون كالمصورين تمامًا يلتقطون الصورة بكل ما فيها من عيوب وظلال وألوان ، حتى وإن كانت صورة بغيضة إلى النفس ينفر منها الذوق ، ويزور عنها ذوو المبادىء والأدباء الواقعيون على طرف نقيض مع الأدباء المثاليين لأن الأولين يرون كل ما فى الحياة مستحقا للتسجيل والتصوير والعرض بينما المثاليون يجردون الحياة من جميع نقائصها ومثالبها ، ويحاولون تجميلها بما يدخلونه عليها من عناصر تمت إلى الجمال والخيال والمثل العليا بأوثق الأسباب ، وفى الواقعية المعاصرة تحريض واضح على تخطى الحواجز الاجتماعية المتعارف عليها .

والمذاهب الأدبية جميعا ينبغى عند نقلها من مجالها النظرى إلى مجالها العملى أن يراعى فيها اعتبار الشمول لااعتبار الاستثناء والندرة فالواقعية كمذهب يحاول الكتاب تطبيقه تفقد مذهبيتها حين يقصرها الكتاب على حالات فردية فى المجتمع لاتتكرر إلا فى النادر ، ولاتستكمل خصائص وجودها إلا بما يضيفه اليها الكاتب من اختلاق وافتعال[٨٧] .

---

(٨٣) المرجع نفسه ص٤٨

(٨٤) المرجع السابق ص٤٩

(٨٥) المرجع نفسه ص٥٠

(٨٦) دروس من القرآن الكريم ص٣٠

(٨٧) قضايا الفكر فى الأدب المعاصر لوديع فلسطين ص٥٣

على أن الكاتب ذا الرسالة ليس ممن يقنعون بتصوير المجتمع تصويرا صامتا كالآلة الفوتغرافية الصماء بل انه يدخل على الصورة من فنون التشذيب والتهذيب ما يجعلها بريئة من الأوشاب (٨٩).

وكذلك كان محمد عبده الذى عالج مشكلات الجماعة من الزاوية الدينية والسياسية والاجتماعية والأدبية بحرية تامة لأنه كان صاحب رسالة يعمل على أدائها ، ولكن أدبه لم يقتصر على هذه الزاوية زاوية الالتزام فى الأدب ، وقد أخذ من الواقعية خير ما فيها فلم يكتف بعرض الواقع كما هو ولكنه هذّبه ، ورسم الطريق لما ينبغى أن يكون.

كان أدب الإمام يتصل بالعواطف السامية عند الإنسان فيهذبها ويرقيها ، ويغذيها.

كان القرآن مثله الأعلى فى الأدب لأنه يسمو بالإنسان عن عالم المادة ، ويأخذ بيده إلى السماء لينظر إلى الأرض ، نظرة تريه الحق حقا والباطل باطلا وكذلك كانت نظرة الإمام إلى أحاديث الرسول ﷺ.

ويأتى بعد ذلك أدب على بن أبى طالب على نحو ما أوضح الإمام فى مقدمة « نهج البلاغة ».

وكذلك كان الإمام معجبا بديوان الحماسة لأنه صادر عن نفوس قوية ، وباعث لمشاعر قوية ، وداع لمواجهة هذا العالم وما فيه بنفوس أبية ، فى غير خضوع ولا استخذاء.

وكان إحساس الإمام بالطبيعة عميقا على نحو ما نجد فى حديثه عن « بلرم » كان عنده شعور بالجمال مجردْ عن الرغبة ، وتقدير للحسن منزه عن الاثرة ، ومزيج من شعور بجمال وجلال يحد من كبرياء الانسان ويقفه من هذا العالم حيث ينبغى أن يقف.

حدثوا أن جميلا لما حضره الموت أعطى رجلا وأمره بأن يسافر إلى ربع بثينه ويقف عند بيتها وينشد :

صرح النعى وماكنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول

فلما سمعته بثينة لم تملك نفسها أن خرجت حاسرة وقالت له : ياهذا إن كنت كاذبا فقد فضحتنى ، وإن كنت صادقا فقد قتلتنى فأخرج لها الحلة فانصرفت وهى تقول :

وإن سلوى عن جميل لساعة من الدهر لاحانت ولاحان حينها

سواء علينا ياجميل بن معمر إذا مت بأساء الحياة ولينها

يقول رشيد رضا (٩٠) : لمّا سمع الإمام ذلك اهتز لسماع هذا النثر والنظم وتغيّر وجهه ثم صار يردد البيت الثانى مرارا.

---

(٨٩) المرجع نفسه ص٥٤

(٩٠) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص ٤٠٩

وفى تصورى أن هزة الإمام مبعثهاما فى هذا النثر وذلك الشعر من أدب يصهر النفس ويطهرها ويجعل من آلامها وآمالها مبعثا لفيض الحنان والرحمة والعطف على العالم وعلى الإنسانية كلها . لقد كان أدب الإمام ينبعث عن عواطف نبيلة ، ويبعث أيضا على أعمال نبيلة ، ينبع من عواطف سامية ، ويدفع إلى أعمال سامية هى أليق ماتكون بالإنسان الراقى المهذب . أدب ينبعث عن النفس كما ينبعث صوت البلبل عن نفسه ، ويدل على صاحبه كدلالة ضحك الطفل البرىء وبكائه على مافى نفسه من سرور أو حزن فلا غش ولارياء . كان على الإمام أن يغنى بما فى نفسه ولو لم يغن لانفجر ، يغنى بما فى نفسه سواء كوفئ أم عوقب ، وسواء قرّب أم شرّد ، وسواء أعجب أم لم يعجب . إن نحن نظرنا إلى الأدب من ناحية أنه خادم للهيئة الاجتماعية ووسيلة من وسائل الرقى النفسى ، وأداة من أدوات الإصلاح الاجتماعى كان أدب الإمام من هذه النواحى قمة أدبية لاتبارى وإذا نحن قرأنا مايقوله الغربيون عن تعريف الأدب بأنه « نقد الحياة » رأينا أدب الإمام من هذه الزواية فى القمة أيضا فقد كان يصف الحياة الاجتماعية ، ويعبر عن العواطف الشعبية بل والعالمية .

لقد كان الشرق فى حاجة ملحة إلى مثل أدب الإمام . كان الشرق مكبلا بأغلال اجتماعية تحتاج إلى أدب ينشد الإصلاح حتى يخلص منها ، ومصابًا بانحلال يحتاج إلى أدب يشعل النار تحته حتى يعقد ،وفقيرا فى اللذائذ العقلية ، فلابد له من أدب راق يغذيه ، وثروة أدبية عقلية تغنيه .(٩١)

لقد كان الإمام فى أدبه حريصا على أن يربى الفرد بحيث يشعر بمسئوليته نحو مجتمعه ، يدل على هذا القصة التالية :

سافر الشيخ مرة إلى أوربا ومعه صديق له ، صعد هذا الصديق مرة إلى ظهر السفينة فوجد الشيخ يبكى فتعجب من ذلك وسأله عما يبكيه فأخفى عنه السبب أولا فلمّا ألح عليه قال : وجدت بنتا صغيرة تجرى وتلعب ثم وقفت عند شجرة من الأشجار الصغيرة الموضوعة فى الأصص فقطفت منها زهرة فجاءت مربيتها الإفرنجية وأنبتها على عملها ، وأبانت لها أن هذه الشجرة وزهرتها ليست ملكها بل هى لإمتاع من فى السفينة جميعا ، وأن كل إنسان فى السفينة له الحق فى المتعة بها ، وأنت بقطفك هذه الزهرة قد تعديت على حقوق كل من فى السفينة ومن يركبها بعد ، وحرمتهم لذتهم ثم أخذت تلقى عليها درّسا فى الملكية الخاصة والملكية العامة . قال الشيخ محمد عبده : تذكرت إذ ذاك علماءنا ورجالنا ونساءنا فى مصر ، وعجزهم عن فهم هذه المعانى وتفهيمها لأبنائهم وبناتهم فدمعت عينى(٩٢)

---

(٩١) فيض الخاطر جـ٢ ص٨٢

(٩٢) فيض الخاطر لأحمد أمين جـ٣ ص ٢١١ - ٢١٢

ولقد وضع بيانه الرائع خططا حربية ، وطرقًا جديدة فى النظام والإدارة والسياسة ، وقواعد مهمة فى التربية ، وأصولا كلية فى علم النفس ، والعادات المستحبة ومعاملة المرءوسين ، وطلاب الحاجات ، وأرباب السعايات ، وأصحاب الأخبار ، وبالإيجاز لايتأتى لأحد أن يفيض فيما أفاض فيه من الأغراض العظيمة .

نعم ألبس الإمام فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هذا الإنشاء العربى حلة جديدة فيها المتانة وفيها الرشاقة ، إنشاء يسير مع الطبع ، ومع الطباع التى توائم أهل الحضارة ممن يفصلون ويتوسعون ، ويعيدون ويبدون ومقاصدهم تحوم حول التأثير فى أذهان السامعين والقارئين ، وبلوغ الغاية من تأليف الدول وانتظام الجماعة .

كان تمكن الإمام من اللغات الفارسية والفرنسية فضلا عن العربية جمعا بين ثروات ثلاث فاق بها الأقران والنظراء إلى مالم يكد يصل اليه أحد من معاصريه ، ساعده تمكنه من الفارسية والفرنسية على الرسوخ فى العربية ، وأتى بأساليب جديدة ، وطرق فى التفكير قلّ أن عرفت قبله .

يقول صاحب[٩٣] الصناعتين : « إن من عرف ترتيب المعانى واستعمال الألفاظ على وجوهها فى لغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له من صنعة الكلام مثل ماتهيأ له فى الأولى » .

وقد حفظ القرآن ودرس إعجازه وعرف محكمه ومتشابهه ، وقرأ ماشاء من دواوين شعراء الجاهلية ، وأدرك معانيهم ، وتدبر ألفاظهم . ويبدو من مقدمته لنهج البلاغة إعجابه الشديد بخطب على بن أبى طالب . ولاشك أن كل ذلك قد ترك أثرا بعيدا فى تكوين أدب الإمام .

كانت ألفاظ الإمام متخولة فى منخل دقيق نقى الزؤان مما يحمل أمّا التراكيب فهى موضع العجب فى رصف بعضها إلى جانب بعض على غاية الإحكام ثم هوليس فى الفاظه بالبخيل ولاالمسرف يعطى منها بمقدار مايلبس معانيه حلة قشيبة فيجمع بين الجزالة والوضوح والإيجاز ، ومعانيه كلها ناصعة ، وألفاظه كلها فصيحة على أن اللفظ مهما سلس وبعد عن الوحشية والسوقية لايعذب إلا بضم أجزائه فى سلك واحد لتصح المعانى ، وهى سرّ البلاغة والفصاحة والروعة ، وهذا كان ظاهرا فى كلام الإمام ، هو يمشى من صفاء الطبع على عرق عريق ، ويحاول أبدا نقل فكره إلى من يتلو كلامه واضحا جليا فكأنه يتوخى الإفهام أولا وبلاغته فى كثرة إفهامه ، والأصل فى إنشائه المرسل الرشيق .

وما خاض إلافيما توسع فى علمه ، وماوقع له فى رسائله ، وفى آثاره من الحكم والأفكار مما يتأدب به كل إنسان ، ويصلح لكل زمان ومكان وينفع أهل كل نحلة ولسان ، وكله شاهد

---

(٩٣) أبو هلال العسكرى

بسعة بصره فى كلام العرب وبطول تبصره فى دراسة أحوال المجتمع كان متبحرا فى أدب أمته ، وكشف خوالج نفوسها ، وكان مؤمنا بما يقول ، هاضما ماتعلم يغترف بيانه من صميم القلب فجادت لذلك طريقته ، وأسر القلوب بأسلوبه ، وماخرج عن قانون الفطرة فى كل ماخطه بنانه ، وقذف به جنانه ، أثر بابداعه فى النفوس بما كتب لأن النّاس فى حاجة إلى مثل كلامه لايستغنون عن الأخذ به ، ولأنه أتاهم بما تدركه عقولهم من أيسر سبيل ، والأمور تعظم فى النفوس بقدر وقعها فيها وشدة حاجتها اليها .

إنّا إذا حكمنا على الإمام بآثاره وكتبه وهى كافية فى إثارة وجوه الحكم عليه نجزم بأنه كان فيما يكتب يتروى ولايتسرع ولايبتده وقد يرتجل وينشىء أفكاره وأفكار غيره انشاء يصبها نقرة واحدة فى قالب واحد ثم هو فى ذاته بعيد عن تزكية نفسه لايفاخر ولايتمجد ، يناقش خصومه مناقشة الواثق بنفسه ، يقول ما يعلم لايأبه لغير ذلك . ولقد تجلى النبل والعظمة فى قوله وفعله ، وأنّ الحق طلبته لايبالى عذل عاذل ، ولا صولة متطاول لا يصانع من يصانعه ولايمارى من ماراه . يتلطف فى الأداء ويربأ بنفسه عن مما حكات المماحكين ، ومناقشات المجادلين ، هو جدّ عارف بأن للعلم سياسة كما للنّاس سياسة ، وأن للأدب حدودا لايصح لمن يكتب فيه تعديها ، وهواه محصور فى أن يحمل للأمةماينفعها ، وتجمع على استحسانه وان تخالفت مشاربها ، نقل شيئا فى الفلسفة والعلوم القديمة وفى الأدب والحكم وسير الملوك وتدبير الممالك ، وترجم ماينفع العرب .

طريقة الإمام فى كتابته لاتكلف فيها ، ولا يشاهد فيها الناقد أثر التعمل فهو وابن المقفع والجاحظ من غرار واحد فهو لايحفل بالأسجاع إذا جاءت عفو الخاطر ، ولايتعمد الجزالة إلا إذا اقتضى الموضوع ذلك ، ففى أسلوبه تقرأ لتتعلم وفى كثير غيره تقرأ ألفاظا جميلة وقوالب محكمة وفى كلمه الطيب تقع على إشباع المعانى وتقطيع الجمل ، والإبلاغ فى المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع وتفعل البلاغة فعلها فى نفسك من طريق الإقناع والبرهان لامن مجرى التقفية والزخرف وتوازن الكلمات وزنة الفقرات .

يطالعك الإمام من بارع أدبه بالإبداع دونه كل إبداع ، ويعلمك فى سهولة ويسر لايشق عليك ويدخل من نفسك مدخل صدق ويستهويك وأنت لاتدرى كيف أخذت ، قد تقرأ لغيره كلامًا وتعجب بما فيه من ديباجة حسنة أو معنى دقيق أو تحقيق وإحاطة أو فكر طريف أو رأى نادر . أما أن يضّم الكلام شتيت هذه الميزات ، ويحمل كل مايعن لخاطر من الصفات فهذا مما لايقع إلا على الندرة فى كلام البلغاء وهو من الأمور المعتادة فى كلام الإمام . أنت تتمثل فيما يملى الكاتبون شيئا تستطيبه وتستملحه ، وفى أدبه كل مايطرب ويعجب . الكتاب فى العادة يتطاولون إلى أن يكتبوا موضوعاتهم والامام يستميله موضوعه فيمليه لا يتكلف ولا

يتعسف يصوّر لك خلجات الروح وآهات النفس وأزمات العقل ويرسم لك المحسوسات كأنك تحسها ويصف لك المعلوم والمجهول ويعرض عليك المعقول والمنقول ويفيض كل الفيض بما لم يكتب لغير أفراد فى علماء هذه الأمة الطويل تاريخها الكثير بلغاؤها كأن الإمام بوق عصره ومصره ، والآلة المحكمة التى أحسنت نقل أصوات أهل جيله سجّل المفاخر والمعاير وحمل إلى أبناء القرون اللاحقة أفانين من أدبه جملها بروح الحق وسحر الجمال .

يقف القارىء بما ينقل اليه على صور رآها بعينه فأحب إمتاع غيره برؤيتها ، وإشراكه بحالات تأثرت بها نفسه هو ممن ربط ماضى الأمة بمستقبلها ودينها بدنياها وتعمد لفرط أمانته أن يسمعها الحسن والقبيح فطّب بلطف عبقريته روحها وجسمها ، وإذا كنت ممن لايتوقع من المصوّر أكثر من أن يصوّر لك مايقع بصره عليه فأدب الإمام يصور لك فى حذق وتدقيق ماوقعت عليه عينه وقلبه وحسه .

ينبعث البهاء فى أدب الإمام من كون مادة الجمال فيه سيّالة براقة ناصعة تنشر السرور فى الروح . قالوا : إذا أورثك الكلام مايعلو به فكرك وما ينبه فيك حسّا شريفا فلا تبحثن بعدها عن شىء آخر لتحكم على ماقرأت وكن على مثل اليقين أنه من الجيد الصالح وأنه ماصدر الا عن يد صناع [٩٤] وفى ذلك ابداعه فى أدبه .

كان يعيش كالأديب فى العالم ويكتب كما يكتب الأديب للعالم ، ولا يرضى عن نفسه إلا لأنه يرضى النّاس وقد قبل البشر بكل مافيهم من صفات ليزحزحهم عما هم فيه فخاطب الإنسان للتأثير فيه ، ونظر اليه لا على أنه روح محض نظر اليه على أن له جسما يضطهد الفكر ويحرفه وينفيه فرأى من الواجب أن يخاطبه بما فيه فخاطب فيه العقل والإرادة ، والذهن والإحساس فبرزت فصوله تزهى بما خلع عليها من الجمال ، والفكر الذى لايتمثله الكاتب ينفر القارىء منه لأن له من عزة نفسه مايحب معه أن يخاطب بما ألف ، وبما تتأثر به نفسه ، وهذا ماكان مستجمعا فى محمد عبده .

كتب بعد الدرس الطويل والخبرة الواسعة وماتأتى من الأبحاث إلا مااضطلع به .

قيل إن الكتابة الصحيحة صعبة المراس ، وأصعب منها اختراع تركيب جديد وإن جودة الكتابة تتوقف على استبطان أسرار الأشياء ومنها أن يسلى الكاتب السامع بالمناظر المختلفة يجمع له منها أصنافًا ، وينقله فى الأحاسيس ويبعد به عن المهجورات والمكررات ، ويهيب به إلى الإشراف على ماتخترع قريحته ، ويتكشف عنه بيانه [٩٥] . وهذا القول أيضا يصدق على الإمام إذا تأملت تراكيبه ، وبصره بالأشياء حتى لايترك قولا لغيره إذا بدا له أن يقوله .

---

(٩٤) أمراء البيان جـ٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧

(٩٥) المرجع نفسه ص ٣٢٧ - ٣٢٨

الفصل الخامس

نظرية الأنواع الأدبية عند الإمام

تمهيد : - تعريف الأنواع الأدبية - تطوُّر الأنواع الأدبية عصر النثر - الأنواع الأدبية عند الإمام :

أولا : المقالة - الوقائع المصرية - المفهوم الفنى لكلمة المقالة - وللمقالة الصحفية على وجه الخصوص - الفرق بين الصحفى والأديب - تثقيف الجماهير ومهمة الكاتب - الصحافة والذوق الأدبى فى القرن التاسع عشر - ظهور طابع الدرس على مقالات محمد عبده - أول كتابة صحفية للإمام - نماذج من مقالات الإمام فى « الأهرام » - رسالة الصحافة فى نظر الإمام - مقالات الإمام تنقسم إلى أربعة أقسام : تدعيم الدعوة إلى الجامعة العربية - تقريب الإسلام من الحضارة الغربية - تدعيم البناء السياسى فى مصر - تدعيم البناء الاجتماعى - نماذج من مقالاته فى الوقائع المصرية - أدب اجتماعى وأسلوب مرسل - المراحل التى مرَّ بها أسلوب محمد عبده فى المقالة الصحفية - العروة الوثقى - فى بيروت - الرد على هانوتو - المعلم .

ثانيا : الرسالة: (أ) ديوانية - (ب) إخوانية

تمهيد : - نمو الرسائل الديوانية وأهم دواعى ذلك النمو - شخصية رئيس الديوان وثقافته - الرسالة الديوانية فى العصر الحديث - بعث لعهد ديوان الإنشاء - الرسالة الإخوانية وأهميتها - مقارنة بين الرسالتين ، الدوانية والإخوانية - نماذج من رسائل الإمام وأهم خصائصها .

ثالثا : - الخطابة - الحركة الخطابية فى العصر الحديث وريادة الإمام لها - نشأة دواوين الخطب الدينية - عوامل ازدهار الخطابة - أنواع الخطابة : دينية وسياسية وعلمية - نماذج من خطابة الإمام .

رابعاً : السير والتراجم :

تمهيد : مدارس السير : (أ) المدرسة الأكاديمية - (ب) المدرسة النقلية (جـ) المدرسة التفسيرية - السيرة تجربة ذاتية - شروط نجاح التجربة - السيرة الذاتية فى الأدب العربى - نماذج من فن السيرة الذاتية عند الإمام الخصائص الفنية للسيرة الذاتية عند الإمام - انتماء الإمام إلى المدرسة الأكاديمية .

نماذج من فن الترجمة عند الإمام : جمال الدين الأفغانى - الخديوى توفيق - الوزير رياض - الشريف الرضى تقصير الإمام فى ترجمته للشريف الرضى دون غيرها .

خامساً : أدب الرحلات وقصصها

نشأة أدب الرحلات وتطوّره - مراحل القصة فى العصر الحديث - أدب الرحلات فرع من أدب القصة - رحلة الإمام إلى جزيرة صقلية - خصائص أدب الرحلات وتطبيق هذه الخصائص على رحلة الإمام

سادساً : الحكمة :

حكيم الإسلام فى العصر الحديث - العوامل المؤثرة فى حكمته هل نقل حكمة عن غيره - معنى الحكمة - نماذج من حكمه فى عالم الثقافة والأدب والنقد .

سابعا : الشعر

تطور الشعر فى العصر الحديث - عوامل ازدهار الشعر مقارنة بين تقدّم الشعر والنثر - أغراض الشعر - أسلوب الشعر وقوالبه - تعريف الشعر - التجديد والمجددون - الإمام والشعر - الرسم والشعر - وحدة الفنون الجميلة - والشعر والتماثيل - قصيدتا الإمام فى الثورة العرابية وفى مرض الموت - دراسة وتحليل - شاعر غنائى - خصائص شعره : الموت والوطن - هجاء اجتماعى سياسى أخلاقى عام - التحليل - خيبة الأمل .

تمهيد :

قبل أن نعرض للأنواع الأدبية عند الإمام يجدر بنا أن نعرض لتعريف الأنواع الأدبية وتطّور هذه الأنواع وكيف يتم ؟ ولنشأة النثر الفنى وفلسفته ثم نلتقى بعد ذلك بالأنواع الأدبية عند الإمام وتتمثل فى :

المقالة - الرسالة - الخطابة - السير - القصة وأدب الرحلات - الحكمة - الشعر

تعريف الأنواع الأدبية :

ليست الأنواع الأبية سوى صيغ فنية عامة لها مميزاتها وقوانينها الخاصة ، وهى تحتوى على فصول أو مجموعات ينتظم خلالها الانتاج الفكرى على ما فيها من اختلاف وتعقيد[١] . من ذلك ما نراه عند الكتاب فمنهم من يؤلف مقالة ، ومنهم من يؤلف خطبة ومنهم من يؤلف قصة ، ومنهم من يؤلف رسالة . والأنواع الأدبية تشبه الى حد ما الكائنات والأجناس والأسر... الخ التى تعرف فى التاريخ الطبيعى بأنها مجموعة من الأفراد تنفق فى الأوصاف بحيث يمكن وضع كل مجموعة تحت اسم خاص وفى نفس الوقت تنفصل عن المجموعات الأخرى لما لها من صفات لاتتفق مع صفاتها الخاصة ، وهكذا نجد شبيها لذلك فى مجموعات الأسماك وفى مجموعات الطيور غير أن مجموعة الأسماك لاتشترك فى صفات فصيلة الطيور ، والطيور بدورها لها صفات خاصة تميزها عن فصيلة الحيوانات ذوات الثدى .

تطّور الأنواع الأدبية :

اصطلح علماء التاريخ الطبيعى على أن يسموا التغيير أو النمو التدريجى الذى يطرأ على النوع النباتى كالصنوبر أو الحيوانى كالكلب بالتطّور ، وذلك تحت التأثير الخارجى للبيئة التى هو فيها أو تحت التأثير الداخلى للتركيب الطبيعى فشجرة الصنوبر ليست واحدة فى كل البلاد .

أمّا فى تاريخ الأدب فالتطوّر عبارة عن مجموعة من الصيغ يأخذها النوع الأدبى كالمقالة والرسالة والخطابة وذلك تحت تأثير العبقرية والحضارات المختلفة[٢] .

(١) نظرية الأنواع الأدبية للأب فنسان ترجمة الدكتور حسن عون ص٢٢ مطبعة رويال بالاسكندرية ١٩٥٤

(٢) المرجع السابق ص٢٦

وتحاول نظرية التطوّر أن تربط بين هذه الصيغ التى أخذت أشكالا أخرى ، وأن تشرح كيف يتولد بعضها من بعض وأن تكشف عن العنصر المستمر تحت هذا التدرج وعن الوحدة الباقية مع هذا التشقيق.

وكما أن المؤرخ الطبيعى يأخذ شجرة الصنوبر منذ كانت نواة يتتبع نموها حتى اللحظة التى تصبح فيها شجرة عظيمة فكذلك الناقد يدرس النوع الأدبى منذ نشأته الأولى ويستمر حتى اكتمال ازدهاره بل حتى موته حينما يقدر له أن ينقطع عن الحياة إذ أن للأدب أيضا كهولته كسائر الكائنات .

ويمكن أن ندرس التطوّر الأدبى فى هذه النقاط الثلاث :

١ – تطوّر كل نوع على انفراد

٢ – نظام التدرج أو النشأة بالنسبة للأنواع

٣ – ما يطرأ على هذه الأنواع من تغيير تام .

فالنوع الذى يموت يتولد منه نوع آخر أو أنواع أخرى(٣) . ومن أخطاء النقد الأدبى أن يعتبر الأنواع الأدبية كقوالب جامدة ، وصور ثابتة غير متحركة تتكون فى زمن ما من أجزاء متعددة ولا تخضع فى المستقبل لأى تغيير.

والآن بفضل طريقة الدراسة التاريخية مطبقة على دراسة الأدب قد أدركنا أن كل نوع من الأنواع الأدبية يتطوّر أى أنه بعد عصر بدائى تختلط فيه الأنواع ولاتتحدد يأخذ كل نوع فى التميز والاستقلال عن جيرانه الذين كانوا مختلطين به اختلاطا تاما ثم هو يتكوّن ويحيا حياته الخاصة متدرجا حتى يصل إلى درجة النضوج والكمال لكى ينتهى أمره إلى الضعف والانحلال(٤) .

عصر النثر :

إن الشعر على عكس ما يظن النّاس ينمو قبل النثر ، ومن المرجح أن النثر قديم يقدم العالم ، وكل منا يصنع النثر دون أن يعرفه ومع ذلك فالنّاس يفكرون بعد مدة فى تغيير هذه الأداة البسيطة إلى مظهر من مظاهر الترف ثم فى تهذيب الجملة وزخرفتها ومن المحقق أن الخيال والإحساس وهما الملكتان الرئيسيتان للشعر يستيقظان مبكرين عند الشعوب وعند الأفراد على حد سواء فالأساطير وهو وليدة الخيال والنظم الموسيقى وهى وليد الحس هما أمران يستهويان الإنسان ويلذان له قبل أن تستهويه الحقيقة الخالصة والأسلوب المنسق ثم بعد ذلك يتدخل العقل ومنذ تلك اللحظة لايكتفى العقل بتلك الخيالات الواهمة بل يطلب معرفة الحقيقة فتوضع النظريات التى تتطلب مناقشة بلغة أكثر سهولة وأكثر دقة من لغة الشعر.

(٣) المرجع نفسه ص٢٧

(٤) المرجع السابق ص٢٧ ، ٢٨

ومنذ اللحظة التى ينتظم فيها أمر المدنية انتظاما قويا تنهض مشاكل خطيرة تهم الشعب وتتطلب كل القوة الكلامية كل مصادر الخطابة الموجزة المستقيمة التى لاتعرف الدوران بل تتجه مستقيمة إلى الهدف . وهنا فقط يستخدم النثر فى تأليف علمى أو عقلى مثل التاريخ والفلسفة والخطابة ومع ذلك لايغيب عن بال الكتاب أنهم يؤلفون أثرا فنيا وحينئذ فقط تؤلف الجملة لا لمجرد الحاجة وحدها ولا لمجرد شرح الفكرة جيدا كان ذلك الشرح أم رديئا ، ولكن رغبة فى أن يكون تأليفها تأليفا جميلا حتى تسترعى اهتمام الإنسان وتؤثر فيه تأثيرا كاملا يصبح النثر أدبيا يجمع بين اللذة والمنفعة(٥) .

على هذه الأسس قامت الأنواع الأدبية وعليها ننظر فى هذه الأنواع عند الإمام .

أولا : المقالة

لقد شهدت مصر فى أوائل القرن الماضى ميلاد حدث جديد فى حياتها ، وهذا الحدث هو الصحافة ، غير أن ميلاد الصحافة جاء على أيدى الفرنسيين الذين حملوا اليها فيما حملوا أداة جديدة لا عهد للمصريين بها من قبل ، وهذه الأداة هى المطبعة .

ثم إن هذا الوليد السعيد - وهو الصحافة - أخذ ينمو ويترعرع فى عهد محمد على ، ثم مازال النماء يعمل فى جسمه وروحه وعقله حتى جاوز دور الطفولة فى عهد اسماعيل ، بحيث لم ينقض عهد اسماعيل إلا وللصحافة فى مصر خطرها وبلاؤها وغناؤها فى إدارة دفة الحياة المصرية من جميع النواحى السياسية والثقافية والاجتماعية فى وقت معا(٦) .

ولقد مارس المصريون فن المقال الصحفى بذوق شرقى وعقل شرقى ، وروح شرقى ، وأسلوب فى الكتابة شرقى ، فاللغة العربية لغة المقال ، والتطوّر الذى أصاب الأساليب الصحفية تطوّر له بالماضى صلة(٧) .

وفى هذا الإطار مارس محمد عبده فن المقالة ، وكانت له فيه صولات وجولات أهمها فيما نرى حينما أشرف على تحرير الوقائع المصرية . فلتكن لنا وقفة قصيرة على تاريخ الصحافة فى القرن التاسع عشر علاوة على ما سبق لتعرف إلى أى مدى أسهم محمد عبده فى تطوير أسلوب المقالة الصحفية .

الوقائع المصرية :

أنشئت هذه الجريدة بوحى من محمد على عام ١٨٢٨م وكان محمد على شديد العناية بصحيفته يسوسها بنفسه عن طريق ديوان المدارس(٨) .

(٥) المرجع السابق ص٣٤

(٦) أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ١ ص٣

(٧) المرجع نفسه ص٤

(٨) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ١ ص١٢٢

وكان من أهم أسباب إنشائها أن يطبع للمصريين جريدة تعرفهم على الحال والزمان كما تلفت نظرهم إلى الأمور الدقيقة الحاصلة من المصالح الزراعية والحربية ، وباقى أنواع الصنائع التى باستعمالها يتأتى الرخاء والتيسير[٩] .

وكانت الوقائع المصرية تصدر باللغتين العربية والتركية وكانت تكتب موادها باللغة التركية أولا ثم تترجم هذه المواد إلى اللغة العربية ، وإذا كان الأصل التركى ردىء الأسلوب فما ظنك بالترجمة العربية لهذا الأصل[١٠] ، وبقيت الوقائع المصرية على هذه الحال حتى ولى أمرها رفاعة الطهطاوى فاعتنى باللغة العربية وآدابها وظهر شىء جديد لم تألفه الصحافة المصرية من قبل ونعنى به محاولة الطهطاوى إنشاء المقال الصحفى وذلك فى فصول كتبها ببعض أعداد الجريدة[١١] .

وإن المقالة منذ ابتدأت الصحافة العربية بانشاء الوقائع المصرية ثم روضة المدارس ، ثم الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، قد صارت عماد الكتاب والأدباء ، والقالب المعتاد الذى يصبون فيه أفكارهم وينشرونها بين الناس[١٢] .

فما المفهوم الفنى لكلمة المقالة ؟ وللمقالة الصحفية على وجه الخصوص .

كاتب المقالة هو شخص يعبر عن الحياة ، وينقدها بأسلوبه الخاص ، إنه لا ينظر إلى الحياة نظرة المؤرخ أو الفيلسوف أو الشاعر أو القصاص ولكن فى فنه شىء من هذا كله ، وليس يعنيه أن يكشف نظريات جديدة أو يوجد الصلة بين أجزائها المختلفة . إن طريقته فى العمل أدنى إلى مايسمى الأسلوب التحليلى : يراقب ويسجل ، ويفسر الأشياء كما تبدو له ، ثم يدع خياله يمرح فى جمالها ومغزاها ، والغاية من هذا كله أنه يحس إحساسا عميقا بصفات الأشياء ، وبسحرها ، ويريد أن يلقى عليها كلها نورا وضاحا رقيقا ، لعله يستطيع بذلك أن يزيد النّاس حبّا فى الحياة ، وأن يعدهم لما اشتملت عليه من المفاجآت المفرحة والمحزنة[١٣] ، وكذلك كان محمد عبده فهو يعبر عن الحياة وينقدها بأسلوبه الخاص فى تلك المقالات التى نشرها فى الصحف بأسلوب تحليلى .

والمقالة الصحفية ليست فى الحقيقة أكثر من فكرة من الأفكار يتصيدها الكاتب الصحفى أو يتلقفها من البيئة المحيطة به ، ومتى انفعل الكاتب الصحفى بفكرة ما أحس فى نفسه حاجة ملحة إلى الكتابة ، وفى هاتين المرحلتين مرحلة التصيّد أو التلقف ، ومرحلة الانفعال يشترك

---

(٩) تاريخ الوقائع المصرية للدكتور ابراهيم عبده ص٦٢

(١٠) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة جـ١ ص١٢٣

(١١) المرجع نفسه ص١٢٦

(١٢) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ ص٣٣٩ - ٣٤٠

(١٣) محاضرات عن فن المقالة الأدبيه للدكتور محمد عوض نقلا عن آرثر بنسن ص٦٤

الصحفى والأديب ، ثم يفترق الرجلان بعد ذلك أمّا الأديب فيترك العنان لخياله وشعوره كما يترك العنان لقلمه يكتب ما يشاء ، ويتبعه فى ثورته كما يشاء فيخرج على النّاس بقصيدة رائعة أو خطبة بليغة أو مقالة مسجعة ، أو قصة شائقة ، ونحو ذلك من ألوان الأدب .

وأمّا الصحفى فمتى تأثر بفكرة من الأفكار ، وهدأ فى نفسه هذا التأثر نوعا ما . وانفرج عن ابتسامة خفيفة فيها معنى السخرية والازدراء أمسك بقلمه ليكتب مقالا صحفيا لا يشترط فيه أن يكون له نظام معين كالنظام المتبع فى القصيدة أو المقامة أو الخطبة أو الموضوع الانشائى ، أو المحاضرة الأدبية لأن المقالة الصحفية ليست فى شيء من ذلك كما لا يشترط فى المقال الصحفى أن يكون تعبيرا عن وجدانات ذاتية بقدر ما يشترط فيه أن يكون تعبيرا عن وجدانات غيرية[١٤] ، ذلك أن الفرق بين الصحفى والأديب برغم اشتراكهما فى صنعة الكتابة أن الأول معنى بالمجتمع يخاطبه دائما على صفحات الجرائد ، وأما الثانى فمعنى بنفسه ، ومن حقه ألا يعبأ بغيرها متى أراد ذلك .

إننا ننتظر من الصحفى أن يجلس الينا فى هدوء وأن يحدثنا فى رزانة ، وأن يشعرنا بلذة الحديث وأن يشركنا معه فى استعراض المسائل التى تتصل بحياتنا العامة ، وأن يقف منا فى كل ذلك موقف الصديق الذى يساوينا فى المنزلة ، وأن يعرض لنا الأمور التى ينقدها عرضًا يشعرنا بنوعين من الشعور ، هما الشعور بالسخط على أمر معين ، أو شعور بالسخرية من هذا الأمر المعين ، وكل ذلك فى غير عناية من الصحفى بنفسه ، وهذان العنصران لازمان للمقالة الصحفية ما دمنا ننظر إلى الصحافة على أنها ناقدة للحكومة وناقدة للمجتمع[١٥] .

وعلى هذا فالفرق كبير بين الأديب والصحفى ، ومن النّاس من يصلح أن يكون أديبا ولايصلح أن يكون صحفيا ، والعكس صحيح غير أن من الصحفيين من يأبون إلا أن يجمعوا بين شخصية الصحفى ، وشخصية الأديب فى وقت معا ، ومن الصحف أيضا ما تحب أن ترقى ببعض صفحاتها إلى صف الأدب الخالص[١٦] .

وكذلك كان محمد عبده صحفيا أديبا ، وإن من يؤرخ للصحافة فى مصر لايمكن أن يغفله كما أن من يؤرخ للأدب العربى المعاصر لايمكن أن يغفل الحديث عن محمد عبده .

على أن بعض الكاتبين[١٧] يرى أن أسلوب الإمام محمد عبده أخذ يبعد قليلا من الأسلوب الأدبى ويدنو بذلك من الأسلوب الصحفى . فهل هذا صحيح ، وهل هذا مما يقلل من قيمة محمد عبده أديبا ؟

---

(١٤) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ١ ص٢٤٣

(١٥) المرجع نفسه ص٢٤٤

(١٦) المرجع نفسه ص٢٤٥

(١٧) الشيخ محمد عبده لأحمد الشايب ص٦٠

إن العصر الحديث شهد تحولا خطيرا فى عملية تثقيف الجماهير ، لقد انتقلت مهمة تثقيف الشعوب من أيدى الفلاسفة والكتاب والشعراء والخطاباء إلى أيدى الصحفيين .

على أننا يجب أن نلاحظ أن حياة المجتمع تتجدد فيها المظاهر ، وتتعقد المشكلات ويظهر الراديو والسينما والتليفزيون والصحافة وأحدث النظريات السياسية والاقتصادية ولكن شيئا فيها يبقى بلا تغيير هو الإحساس بالجمال الفكرى والفنى ، فان بيتا من الشعر هزّ بدوية فى خيمتها قد يهز حسناء اليوم فى خدرها طربًا ، وأسطورة خيالية شغف بها الأقدمون فى مصر أو الهند أو اليونان قد تثير أوربا الحديثة عجبًا .

إذا تذكرنا ذلك جازلنا أن ننتظر من صحافة اليوم القيام بمهمة التثقيف العام[١٨] ، وجازلنا أيضا أن ننتظر من محمد عبده الصحفى أن يقوم فى القرن التاسع وأوائل القرن العشرين بمهمة التثقيف العام تلك المهمة التى كان يقوم بها الفلاسفة والكتاب والشعراء والخطباء . وعلى ذلك فلم يبعد أسلوب محمد عبده من الأسلوب الأدبى ، وإنما تغيّر شكل المجتمع فتغيّر معه الأديب .

إن مهمة الكاتب كما يرى الأستاذ توفيق الحكيم[١٩] : هى تربية الرأى ، وكل كاتب لا يثير فى النّاس رأيا أو فكرا أو مغزى يدفعهم إلى التطّور أو النهوض أو السمو على أنفسهم ، ولا يحرّك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة ، ولا يقرّ فيهم غير الاطمئنان الرخيص ، ولا يوحى اليهم إلا بالإحساس المبتذل ، ولا يمنحهم غير الراحة الفارغة ، ولا يغمرهم إلا فى التسلية الساقطة والملذات السخيفة التى لا تكوّن فيهم شخصية ، ولا تثقف فيهم ذهنا ، ولا تربى فيهم رأيا لهو كاتب يقضى على نمو الشعب ، وتطوّر المجتمع .

ولكن كيف يربى هذا الرأى العام ؟

إنه يربى كما يربى كل صغير بالتعليم الشامل الواحد الذى يكوّن العقلية الواحدةَ الشاملة .

بهذا النوع من التعليم يشب الرأى العام على تفكير واحد يمكنه من أن يبت فى مسائله برأى واحد سريع قاطع » ومن هنا ظهر طابع الدرس على مقالات محمد عبده وان ظلت محتفظة بالجمال الفكرى والفنى ، الأمر الذى يقربه من الأدب ومن الصحافة معًا .

لقد كان القرن التاسع عشر فقيرا فى الكتابة الأدبية وقد حاول الصحفيون الأول أن يكتبوا مادتهم باللغة العربية على أن يتخففوا شيئا فشيئا من القيود الكتابية التى كان يرسف فى أغلالها الأدب المصرى الشائع خلال القرن التاسع عشر الميلادى[٢٠] ، وهكذا أعانت الصحافة على

---

(١٨) فن الأدب لتوفيق الحكيم ص١٧٤ ١٧٥

(١٩) فن الأدب ص١٧٩ - ١٨١

(٢٠) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ١ ص١٠٠

خلق ذوق جديد فى الأسلوب ، غير أن هذا الذوق لم ينكر السجع ولا أنكر الجناس ، ولاضاق ذرعا بالاستعارة ، وإنما عمد فى أول أمره إلى استخدام هذه الاشياء غير أن ذلك لم يكن دفعة واحدة وإنما جاء بالتدريج ، فوجدنا المدرسة الأولى للصحافة فى مصر كما يقول الدكتور عبد اللطيف حمزه[٢١] يقل فيها ميل أستاذها الأول وهو رفاعة رافع الطهطاوى إلى السجع والجناس والتشبيه والاستعارة ، ولايتقيد إلا حين يعمد إلى الكتابة الأدبية الخالصة على حين يتقيد تلاميذ مدرسته بالسجع والجناس ويتهافتون على التشبيه والاستعارة .

على أن الحق الذى ينبغى أن يقال أن كتاب مصر فى القرن الماضى كانوا فى مفترق الطرق أو أنهم كانوا فى حيرة من أمرهم فقد كانوا يدركون الفرق الواسع بين لغة الكتابة الأدبية الخالصة ، والكتابة الصحفية الخالصة ، وأنهم جاهدوا حتى جعلوا لصحافتهم هذه الصفة التى لاوجود لها فى كتاباتهم الأدبية المنمقة[٢٢] ، ونعنى بها صفة التيسير والتحرر من قواعد الزينة اللفظية .[٢٣] وإن كان بعضهم ظلّ يؤثر السجع ، ويميل إلى بعض الأنواع البديعية مثل عبد الله أبى السعود .[٢٤]

والروح الذى سرى فى الصحافة المصرية هو روح الإصلاح ، وإعداد البلاد لاستقبال النهضة الحديثة وذلك عن طريق التهذيب الخلقى ، ومحاربة العادات السيئة ، والأوهام الضارة .[٢٥]

تحركت فى نفس الإمام الرغبة فى الكتابة الصحفية منذ كان طالبًا فى الأزهر ، وقد شهد يومئذ ميلاد صحيفة كانت من أعظم صحف مصر والشرق فيما بعد وهى صحيفة الأهرام فبعث إليها بتقريظ تقبلته الصحيفة منه شاكرة ومقدرة ، ومنذ يومئذ والشيخ يكتب فى الأهرام فأتيحت له بذلك فرصة من أثمن الفرص حملته على التجرد للكتابة فى الصحافة وترويض قلمه على هذه الصناعة الجيّدة[٢٦] .

هذا أول عهد الأستاذ بالأدب الإنشائى وقد نشرت منشآته فى هذه الفترة كما يقول[٢٧] : رشيد رضا فى أعداد متفرقة من السنة الأولى لجريدة الأهرام الأسبوعية من العدد الخامس الذى صدر فى ١٤ شعبان ١٢٩٣هـ الى العدد (٤١) وهى السنة التى نال فيها يليها « أى سنة

(٢١) المرجع نفسه ص ١٠١
(٢٢) المرجع نفسه ص ١٥٦
(٢٣) المرجع نفسه ص ١٥٧
(٢٤) المرجع نفسه ص ١٦٦
(٢٥) المرجع السابق ص ٢٣٨
(٢٦) المرجع نفسه جـ٢ ص٧٥
(٢٧) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ ص١

١٢٩٤ » شهادة العالمية من الأزهر ، وبعضها نشر فى جريدة مصر التى كانت لسان السيد جمال الدين ومريديه وتلاميذه وهو مقالتان ... وهما فى الحقيقة للسيد وليس لمحمد عبده منهما إلا العبارة .

– المقالة الاولى –

فلسفة التربية

يقول الأستاذ الإمام :

فى ليلة الأحد الماضى [٢٨] انعقد درس الأستاذ جمال الدين الأفغانى ، وانتظم فى سلكه جم غفير من نبهاء طلبة العلم وفضلائهم وكثير من الأفندية مستخدمى الدواوين بمحضر هؤلاء وأولئك شنف المسامع بمقال جليل فى شأن تربية الأمة بما يلزم أن يسلك من سبلها ولما فيه من عظم الفائدة رغبت فى نشره فى الجرائد الوطنية [٢٩] تعميما للفوائد ، وبيانا لما انطوى عليه من حسن المقاصد ثم ذكر المقالة [٣٠] .

– المقالة الثانية –

يقول الإمام : قد عاد حضرة الأستاذ الفاضل ، والفيلسوف الكامل ، السيد جمال الدين الأفغانى إلى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة فابتدأ حفظه الله يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا فى الحكمة العقلية وهو كتاب جليل يحتوى من هذا العلم أصولا جليلة غرست أصولها فى بلاد الشرق من مدة تقرب من ألف سنة إلا أنها امتدت فروعها فى المغرب ، واجتنيت ثمارها لغير غارسيها ، ولم تزل فى بلادنا على كليتها وإجمالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد القوة إلى الفعل إلا أن هذا السيد الفاضل قد جمع فى تدريسه بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين يجمع إلى الأصول فروعها ، وإلى المقدمات نتائجها ، وإلى المجملات تفاصيلها بانيا جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القويمة . ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد جمة الثمرات للعموم رأيت من الواجب قياما بالخدمة الإنسانية أن أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها وأنشر طيب وفدها فى صحف (الجرنالات) لتعم الفائدة والله يتولى التوفيق .

بين حفظه الله وأثبت أن الإنسان نوع من أنواع الحيوانات الأرضية (لا كما يزعمه أرباب الأوهام كالصينين وقدماء الفرس من أنهم من أبناء السماء فليتذكر من له فطنة) . ومما قال :–

---

(٢٨) كان ذلك فى ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ أول يونية سنة ١٨٧٩م

(٢٩) نشرها فى جريدة مصر التى كانت تطبع فى الاسكندرية .

(٣٠) تاريخ الأستاذ الامام جـ٢ ص٢ – ٦

١ - من لم يكن ذا عمل حقيقى يفيد المجتمع الإنسانى ، ويعين على انتظام الهيئة الكلية فهو كالعضو الأشل لافائدة منه على البدن إلا تكلف حمل ثقله فالأولى أبانته وقطعه[٣١] .

٢ - من النّاس من مثله مثل الأمراض الغير السارية ، والأعضاء الزائدة .[٣٢]

قوله « الغير السارية » فيه خطأ نحوى إذ أن كلمة غير ملازمة للإضافة فيجب ألا تدخل عليها أل لأنه لايجمع بين أل والإضافة والصواب غير السارية ، وتعبير الإمام خطأ شائع .

وبعض معاجم [٣٣] اللغة تذكر أن غير يكون وصفا للفكرة تقول جاءنى رجل غيرك وقوله تعالى غير المغضوب عليهم إنما وصف بها المعرفة لأنها أشبهت المعرفة باضافتها الى المعرفة فعوملت معاملتها ، ومن هنا اجترأ بعضهم فأدخل عليها الألف واللام لأنها لما شابهت المعرفة باضافتها إلى المعرفة جاز أن يدخله ما يعاقب الإضافة وهو الألف واللام ، ولك أن تمنع الاستلال ، وتقول الإضافة هنا ليست للتعريف بل للتخصيص ، والألف واللام لاتفيد تخصيصا فلا تعاقب إضافة التخصيص مثل سوى وحسب فانه يضاف للتخصيص ولاتدخله الألف واللام .. وقال أبو محمد مكى فى إعراب القرآن وغير اسم مبهم وإنما أعرب للزومه الإضافة . ولعل الإمام من أولئك الذين أجترأوا فأدخلوا الألف واللام على غير لمشابهتها المعرفة باضافتها إلى المعرفة ، ولكن استعمال القرآن مخالف لذلك فلم ترد غير فى القرآن محلاة بالألف واللام فعلى أقل تقدير هذا الاستعمال مخالف للأفصح ومخالف للمثل الأعلى للبلاغة عند الإمام وعند العرب وأعنى به القرآن الكريم .

وأمّا ماكتبه فى جريدة الأهرام أيام كان مجاورا فى الأزهر ، وهو أول كتابته الإنشائية فى الجرائد كما ذكرنا ذلك سابقا . فالمقالة الأولى فى تقريظ الأهرام تكشف لنا عن الأسلوب الفنى الإنشائى الذى درج عليه الامام ، انه يمثل الطفولة الفنية لإمامنا . إنها طفولة مقيدة بمحسنات البديع وزخارفه من سجع وطباق واقتباس وجناس ، واستخدام للجمل القصيرة ، ومن أمثلة ذلك :

انه لما نظر لدى كل قاص ودان ، واشتهر بين بنى نوع الإنسان أن مملكة مصر كانت فى سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك ، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك .

ثم يقول عن منشىء الأهرام : إنه أنشأ لنا جريدة الأهرام المؤسسة على أحكم قواعد الأحكام الكافلة بارتشاد المسترشدين ، وتنبيه الغافلين بما فيها من المبانى الرقيقة ، والمعانى

---

(٣١) المرجع السابق ص ١١

(٣٢) المرجع نفسه ص١٢

(٣٣) المصباح المنير لأحمد بن محمد بن على المقرى جـ٢ ص٦٢٧ - ٦٢٨ ط المطبعة الأميرية١٩٢٥ .

الدقيقة والأفكار العالية المؤيدة بالبراهين الشافية القائمة بنشر العلوم بين العموم.[٣٤] .. فبخ بخ بمنشيها ، وطوبى لقاريها .. هذا إيجاز فى مزاياها باسم الله مجراها ومرساها[٣٥] .

ولاتنسى ازدحام الصور فى هذا التقريظ ثم تتابعت مقالات الإمام بعد ذلك فى الأهرام ومنها مقالة عنوانها :—

« الكتابة والقلم »

وفيها يحدثنا عن رسالة الصحافة باعتبارها أثرا من أجل آثار القلم فيقول :

ومن أجل آثار القلم ، إذ يعد من أعظم النعم ، ومن اللوازم ألزم الجرائد (والجرنالات) التى هى أمل لترقى الأمم ، وانتظام أمور الدول .

أما الأول فلأنها توقف الملل على خصائصها ، الموجبة لنقائصها ، وتوضح لهم أسباب الترقى ، ومابه يكون التوقى وتنشر بينهم أخبار غيرهم من سلفهم وجيرانهم ، ومابه كانت عزة ملة وذلة أخرى ، وأى الأمور لهم بالتمسك أحرى ، وتشوه لهم وجه القبيح إن ارتكبوه ، وتعظم لهم أمر الجميل إن تركوه ، فتشرح مفاسد العادات التى هم عليها كالجهالة ، والتكاسل عن الصناعة ، والرضا بالفقر مع التردى برداء الكبر ، والتمسك بالخرافات ، وفاسد الاعتقادات ، وجمع كلمة النفاق ، وشق عصا الوفاق وغير ذلك من قبائح الأفعال ورذائل الأخلاق .

وتراه لايغفل الحديث عن البحث والنقد أثناء حديثه عن الصحافة فيرى أن من فوائدها أنها : تقدّم لديهم مصالح الفضائل كاتساع دائرة الأفكار ، والتنقير على مافى العالم من دقائق الأسرار والحث على الاشتغال بالصنائع ، والاهتمام فى ترقى البدائع ، وطلب العيشة الراضية مع اليد العليا والهمة العالية ، والنظر فى آراء الأوائل نظر الناقد .[٣٦]

ويتابع حديثه عن رسالة الصحافة فيقول :

وأمّا الثانى فلأنها لسان سر السياسة ... وأنها تحمل للإنسان الأخبار مع تنائى الأقطار وتباعد الأسفار فالقول الواحد يبلغ الجميع فى قليل زمان ... وإنما مثل صاحب الجرنال مثل خطيب قام على منبر العالم وأمسك بيده صور اسرافيل ، ونادى بالحقير والجليل فنفخة تحيى ونفخة تميت ، وعظة تصيب وأخرى تميت ، فمن الواجب على كل ذى دراية أن يكون له بمطالعة هذه الصحائف غاية .[٣٧]

---

(٣٤) تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا جـ٢ ص ١٦

(٣٥) المرجع السابق ص ٦٧

(٣٦) المرجع السابق ص ٢٢

(٣٧) المرجع نفسه

- المقالة الثالثة -

« المدبر الإنساني والمدبر العقلي الروحاني » نشرت في العدد ١١ الصادر في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦م - ١٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٣هـ . ومما جاء فيها :-

١ - الحقيقة الإنسانية تشمل على مدبرين عظيمين (أحدهما) المدبر الحيواني مع مايستتبعه من جميع الإحساسات الظاهرة والباطنة (والآخر) هو المدبر العقلي الروحاني الكلي .(٣٨)

ثم يقول(٣٩) : المدبر العقلي هو الإنسان بالحقيقة إلا أن سير الوجود قد اقتضى أن يكون مجموعهما طبيعة واحدة وهي الحقيقة الإنسانية وأن يقع الوسط بينهما على وجه محكم .

ويرى الإمام أن الإنسان موسيقي بالأذن ويعبر عن حبه للموسيقا كما يعبر عن أثر الموسيقا وخلقها جوا عالميا تتجاوب فيه الأفكار فيقول(٤٠) عن الإنسان : إنه لولم يصرف وجهة الالتفات إلى مايأتي بالسمع من الأصوات لكان أول مايفقده من الفضائل الفضيلة التي ليس لها من معادل ، وهي تقطيع الصوت بالحروف على وجه معروف لتكون علائم حاكية عما تكنه الصدور ، وماهو وراء حجب الظواهر مستور فيقف كل من بني النوع على أفكار الآخر .

ويحدثنا عما يلاقي الباحثون من جهد ومشقة فيقول :(٤١)

وبالجملة فان كون البحث في دقائق العلوم وكشف معميات الأمور مما يشغل الإنسان عن نفسه فضلا عن حسه أمر محقق في نفوس العموم حتى لايصح أن ينكر إذا لم يجده الإنسان من نفسه .

ويرسم لك الغاية المثلى من الحياة في نظر العقلاء فيقول(٤٢) :

الانسان يأكل لأن يعيش ، ويعيش لأن يرى ولأن يعقل ، ويعقل لأن يكمل . وهذا هو النظر الأدق والقول الأحق .

ويقارن بين الشرقيين والغربيين مبينا السبب فيما يحدث بينهم من خلافات ، ويضع علاجا لتلك الآفة فيقول(٤٣) :

ومن ثم ترى أن أهل قارة أوربا لما ارتقت لديهم المعارف إلى ذراها ... تسابقت هممهم إلى بث مقتضيات الإنسانية في نواحي الكرة الأرضية واستئصال مادة التوحش ... الا أن منهم من يتخذ هذه الفضائل اسما ، ويتقلدها رسّما لتكون آلة لأعمالهم وسلمّا لسوء آمالهم .

(٤٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص٣٣ - ٣٥

(٣٨) المرجع السابق ص ٢٣

(٣٩) المرجع نفسه ص ٢٥

(٤٠) المرجع نفسه ص ٢٦

(٤١) المرجع نفسه ص ٣٠

(٤٢) المرجع نفسه ص ٣١

٢ – كل من الشرقيين والغربيين مع سعة أوطانه ينتهز الفرصة للوثوب على الآخر فهذا حقد بالميراث .

٣ – ثم يحدثنا عن سبب ضعف الشرقيين فيرى أنه ليس « سوى تفرق الآراء ، واختلاف الأهواء » .

٤ – ويرى أن العلاج فى « أن ينبذوا فى مثل هذه الأوقات جميع التعصبات الدينية ، والاختلافات المذهبية لحماية أوطانهم ووقايتها من وطأة أعدائهم .

هذا ويرى الدكتور محمد محمد حسين أنه من الواضح فى آثار محمد عبده الأدبية وأكثرها مقالات صحفية أنها تنقسم إلى قسمين ظاهرين اتجه فى أحدهما إلى تدعيم الدعوة للجامعة الإسلامية ، بينما اتجه فى القسم الثانى إلى تقريب الإسلام من الحضارة الغربية والتفكير الغربى الحديث (٤٤) .

هكذا يرى الدكتور محمد محمد حسين ، ولكننى أراه قد أغفل قسمين آخرين بارزين فى أدب الإمام اتجه فى أحدهما إلى تدعيم البناء السياسى فى مصر بينما اتجه فى القسم الثانى إلى تدعيم البناء الاجتماعى فى مصر ممثلا فى محاربة الآفات الاجتماعية والدعوة إلى الاخلاق الفاضلة ، والعناية بالحياة الاقتصادية للأمة وحمايتها من السفه ، كما وجه نظره إلى التربية والتعليم وأحلها المحل الأول ، والمثل على ذلك مقالاته فى الوقائع المصرية من مثل : « حكومتنا والجمعيات الخيرية » و« احترام قوانين الحكومة وأوامرها » و« حب الفقر أو سفه الفلاح » و« المعارف » و« التربية فى المدارس والمكاتب الميرية » و « وخامة الرشوة » و« القوة والقانون » . واليك مقتطفات من هذه المقالات :

المقالة الأولى

حكومتنا والجمعيات الخيرية

نشرت فى العدد ٩٤٣ من جريدة الوقائع المصرية الذى صدر فى ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٧هـ ١٩ أكتوبر سنة ١٨٨٠م . ومما جاء فى هذه المقالة :

١ – يزيدنا أملا وثقة ما نشاهده من تأييد الحكومة السنية لتلك الجمعيات .

٢ – إن الحكومة بأقوالها وأعمالها كخطيب فصيح العبارة لطيف الإشارة (٤٥) .

٣ – وصدور مثل ذلك من حكومة مصرية وإن كان غريبا عجيبا إذا رجعنا إلى صفحات

---

(٤٤) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ١ ص٣٠٨ - ٣٠٩

(٤٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص٤٩

التاريخ فى الأزمان الماضية إلا أنه ليس بمكان الغرابة فى عصرنا هذا فإن الجناب الخديوى المعظم قد عرف من عهد شبوبته بالميل إلى المعارف.

٤ - لا نعجب إذا رأينا هذه الحكومة الجليلة مساعدة لأهل الخير[٤٦].

ويلاحظ أن هذه المقالة ومقالات الوقائع المصرية عموما تنحو نحو الأدب الاجتماعى، وأسلوبها مرسل قد برىء من التزام البديع إلا نادرا ومن أمثال هذا النادر ما جاء فى هذه المقالة أثناء الحديث عن صنيع رياض باشا مع الجمعيات الخيرية. يقول الإمام:

فهذا الصنيع الجميل من هذا الوزير الجليل يستدعى إنطلاق الألسنة بالثناء عليه، وميل الأفئدة بكليتها اليه، وما كان ذلك إلا بعناية الخديوى وحسن مقاصده، خلد الله دولته، ومكن فى الآفاق سطوته. «فأنت تشاهد بقية من البديع ممثلة فى الجناس بين الجميل والجليل، والسجع بين اليه وعليه، وسطوته ودولته ... ومن أمثلة السجع أيضا قول الإمام «وعند تلاوة مفصلات القانون المحكى عنه وجد مقبول الوضع، ملائما موافقا للطبع»[٤٧].

نحن برغم هذا نلاحظ أن هنا تطورا فى أسلوب الإمام من الطريق المقيدة إلى الطريقة المرسلة.

المقالة الثانية
احترام قوانين الحكومة وأوامرها
من سعادة الأمة

نشرت فى العدد ٩٥٢ من جريدة الوقائع المصرية الصادر فى ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٩٧ - ٣١ أكتوبر ١٨٨٠م. ومما جاء فى هذه المقالة: -

١ - انما تسعد البلاد ويستقيم حالها إذا ارتفع فيها شأن القانون، وعلا قدره واحترمه الكل الحاكمون قبل المحكومين[٤٨]، ويتحدث عن رياض باشا فيقول:

رغب هذا الرئيس الجليل رغبة حقيقية فى تأييد حرية العمل فى هذه البلاد ورفع سوط القسوة الغير القانونية[٤٩]. ولا يخفى ما فى قوله «الغير القانونية» من الخطأ النحوى فقد سبقت الإشارة إلى خطأ مماثل له، وصوابه غير القانونية.

---

(٤٦) المرجع نفسه ص٥٠

(٤٧) المرجع السابق ص٥١

(٤٨) المرجع نفسه ص٥٤

(٤٩) المرجع نفسه ص٥٢

المقالة الثالثة

حب الفقر أو سفه الفلاح

نشرت فى العدد ١٩٦٩ الصادر فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٩٧ - ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠ .

يعرض الإمام فى هذه المقالة لجانب من حياتنا الاقتصادية فى الماضى فيقول : كان أهالى بلادنا محملين من الأثقال النقدية مالا يطيقون من ضرائب على الأراضى متنوّعة متكثرة تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام ... ثم لم يكن لاقتضاء هذه الضرائب الثقيلة منهم وقت معين ، ولا قاعدة معروفة ، بل ذلك كان على حسب اشتهاء الحاكم وإرادته الغير مرتبة[٥٠] » .

وفى عبارة الغير مرتبة خطأ صوابه غير المرتبة .

شخص الإمام فى العبارة السابقة مرضًا من أمراضنا الاقتصادية ثم تحدث عن محاولة العلاج من جانبين جانب الأهالى ، وجانب الحكومة ، أمّا الأهالى فالواحد منهم « لايجد للخلاص من جميع ذلك سبيلا سوى الالتجاء إلى التجار وأرباب البنوكة الذين هم كانوا أعظم أعوان الظلم فى ذلك الوقت »[٥١] . وهذا علاج المستجير من الرمضاء بالنار . أمّا علاج الحكومة فإنها « قد خففت عنهم الأثقال وألغى كثير من الضرائب غير القانونية ووقفت المطلوبات عند حد معروف ، وضربت لتأديتها مواقيت محددة على حسب فصول السنة »

ونتيجة لذلك « نمت الثروة نموا لم يكن يخطر بالبال ثم يضع الإمام مبدأ يضمن القضاء على المرض وفى نفس الوقت يضمن الصحة والبقاء « وذلك لايكون إلا باتباع قانون الاقتصاد والاكتفاء من اللوازم بقدر الحاجة أو دونها حرصًا على نيل الشرف الحقيقى وهو تخليص أملاكهم أو حفظها من تطرق يد الغير اليها »[٥٢] .

وبهذا التخطيط المنظم للمقالة يكشف الإمام عن فكر مرتب يرتب المقالة ترتيبا منطقيا : تشخيص - علاج - قانون عام للوقاية .

ويرى الإمام فى هذا المقالة أيضا أن الناس يفتحون على أنفسهم بابًا من الفقر حين ينغمسون فى السرف والتبذير وذلك حين يقول عنهم إنهم « فتحوا على أنفسهم بابًا آخر من الفقر يلجونه باختيارهم وإرادتهم بدون قاسر ولاقاهر ، وهو باب السرف والتبذير والإكثار من لوازم الرفاهية والزينة .

---

(٥٠) المرجع السابق ص٥٦

(٥١) المرجع نفسه

(٥٢) المرجع نفسه ص٥٧

ثم يتهكم بهؤلاء النّاس فيقول :

كأنهم يبرهنون بأعمالهم هذه وتهورهم فى الإسراف والإنفاق على أنهم ليسوا أهلا للثروة ، ولا مستحقين للغنى ، ولايتحملون ثقل الخير على أنفسهم بل يحبون أن يكونوا على الدوام فقراء متربين لايملكون شيئا . ثم يختم المقالة بقوله : دلت التجارب على أن عاقبة الإسراف حسرة تملأ القلب ، وحيرة تدهش اللب وسنعود إلى هذا الموضوع مرارا ان شاء الله(٥٣) . ثم يعود إلى هذا الموضوع والعود أحمد كما يقول وذلك فى

المقالة الرابعة

والتى نشرت فى العدد ١٨٨٩ الصادر فى ١٦ المحرم ١٢٩٨ - ١٨ ديسمبر ١٨٨٠م . ومما قال فيها :

١ - الاقتصاد هو فضيلة من فضائل الإنسانية الجليلة بل هو من أهمها مدحته جميع الشرائع وبينت فوائده وهو كغيره من الفضائل مركب من أمرين بذل وإمساك أعنى أن الاقتصاد هو التوسط فى الإنفاق . « وهو فى هذا متأثر بنظرية الأوساط عند أرسطو وبالقرآن الكريم والحديث الشريف . ثم يضع خطة سديدة لصاحب المال فيدعوه إلى أن ينفق من ماله على حسب حاله ، يقدم الأهم فالمهم فيدفع الضرورة ويقيم البنية على قدر ما يناسب درجة غناه وفقره ، مع حفظ بقية من كسبه يعدها للعوارض غير المنتظرة التى قلما ينجو الإنسان من ورودها عليه بغتة من حيث لايشعر . فاذا جمع الشخص بين الإمساك عما يلزمه والبذل فيما هو أحوج اليه فقد حاز فضيلة الاقتصاد(٥٤) .

ثم يشير الإمام إلى ناحية مهمة ننادى بها الآن وقد نادى بها الإمام من قبل وهذه الناحية ذات شقين :

الأول : توسيع قاعدة الثروة الوطنية - والثانى : عدم تمكين الأجانب من الثروة الوطنية ومصادرها وذلك إذ يقول :

إن أغنى البلاد وأسعدها هى البلاد التى توزعت ثروتها على غالب أهاليها ، ويزداد الضرر إذا وقعت الأملاك والمبيعات فى أيدى الغرباء والأجانب الذين لايسرنا أن نراهم واضعى أيديهم على غالب الأملاك العظيمة والأراضى الواسعة التى كانت فى أيدى أبناء البلاد بل هذا أمر يحزن كل ذى عقل وإدراك(٥٥) .

---

(٥٣) المرجع السابق ص٥٩

(٥٤) المرجع نفسه

(٥٥) المرجع السابق ص٦٣

المقالة الخامسة

٣ - حب الفقر أو سفه الفلاح ..

نعود اليه من وجه آخر غير الذى بدأنا به

نشرت فى العدد ١٠٢٤ الصادر فى ٢٨ صفر سنة ١٢٩٨ هـ - ٢٩ يناير سنة ١٨٨١م . ومما جاء فيها :

١ - خلق الإنسان ولوعا بالمنفعة حريصا على إحراز الفوائد نفورا من غائلات الاضطرار ، يطلب لاجتلاب رزقه قريب الوسائل وبعيدها ، ويجهد النفس فى توفير ثمرات الكسب ، توقيا من عوارض الاحتياج ، وطوارىء الافتقار(٥٦) .

٢ - وأى سفه أعظم من أن يعلم الشخص طريق منفعته التى لاطريق له سواها ثم يتقاعد عنها ، ويحتاج إلى من يجذبه اليها بالقوة القاهرة(٥٧) .

٣ - إن الحكومة لا شأن لها من هذه الأعمال إلا إيصال الخير إلى رعاياها فهم الغاية المقصودة بثمرة العمل فليس من العقل بعد ما تحققوا هذا المقصد فى عهد حكومتنا الحاضرة وأن سلطة الباشوات (والستات) والمأمورين قد ارتفعت ولم يبق إلا سلطة الحق والمساواة أن يتقاعد مكلف بعمل ما عن عمله اللهم إلا أن يكون سفيها يستحق الحجر عليه(٥٨) .

المقالة الثانية والعشرون

الدوسة

نشرت فى العدد ١٠٧٨ الصادر فى ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٩٨ - ٣ أبريل سنة ١٨٨١م . ومما جاء فيها :

١ - وحيث إن هذه البدعة التى كلامنا الآن فيها (الدوسة) موجبة لانتهاك حرمة الإنسان ... سيما وان عملها تحت اسم كرامة من كرامات الأولياء مما يؤدى بالعقول إلى سوء الظن بالمتقين والصلحاء(٥٩) .

وقول الإمام : سيّما وإن عملها تحت اسم كرامة ... الخ فيه نظركما يقول نقادنا القدامى فكتب اللغة(٦٠) تذكر أنه « لا يجوز أن تقول جاءنى القوم سيّما زيد حتى تأتى بلا لأنه

---

(٥٦) المرجع نفسه

(٥٧) المرجع نفسه ص٦٦

(٥٨) المرجع السابق ص٦٧

(٥٩) المرجع نفسه ص١٤١ - ١٤٢

(٦٠) المصباح المنير لأحمد بن محمد بن على المقرى جـ١ ص٤٠٩ - ٤١٠ ط المطبعة الأميرية ١٩٢٥

كالاستثناء ، وقال ابن يعيش أيضا : ولايستثنى إلا ومعها جحد ، وفى البارع مثل ذلك قال وهو منصوب بالنفى ونقل السخاوى عن ثعلب من قاله بغير اللفظ الذى جاء به امروء القيس (٦١) فقد أخطأ يعنى بغير لا ووجه ذلك أن لا وسيما تركبا وصارا كالكلمة الواحدة ، وتساق لترجيح ما بعدها على ما قبلها ، فيكون كالمخرج عن مساواته إلى التفضيل ... ثم يقول : ولا يجوز حذف العامل وإبقاء عمله إلا شاذا ويقال أجاب القوم لاسيما زيد والمعنى فانه أحسن اجابة فالتفضيل إنما حصل من التركيب فصارت لا مع سيما بمنزلتها فى قولك لا رجل فى الدار فهى المفيدة للنفى ، وربما حذفت للعلم بها وهى مرادة لكنه قليل ، ويقرب منه قول ابن السراج وابن بابشاذ ، وبعضهم يستثنى بسيما .

فاستعمال الإمام « سيّما » بدون لا إن لم يكن خطأ فهو استعمال قليل ، مخالف للمشهور فى استعمالات العرب ، وكان الأصوب أن يقول ولا سيمّا أو لا سيمّا .

ومهما يكن من شىء فباستطاعتنا أن نلخص المراحل التى مرّ بها أسلوب محمد عبده فى المقالة الصحفية فيما يلى :

١ - يمكن أن يقال أن المرحلة الأولى من هذه المراحل كانت للتهيئة والإعداد ، وفيها نجد أسلوب شاب مبتدىء يحاول فى أول أمره أن يقلدّ طريقة المتأدبين فى زمانه فيتحرى السجع فى الكتابة ، ويملأ مقاله بطائفة من الألفاظ اللغوية الغريبة ، والتشبيهات التى لايستريح القارىء إلى الكثير منها ، كما يصطنع التعبيرات التى حاول فيها الأخذ من العلوم الحديثة ، وان كان لم يحسن بعد هذا الأخذ على الوجه الذى يرضى الذوق ومع هذا وذاك كان الشيخ المبتدىء فى المرحلة الأولى من الكتابة طويل النفس فى العبارة يحاول أن يقلدّ أسلوب الكتاب المفتونين بالسجع فى القرن الرابع الهجرى . وإن دلّ ذلك على شىء فانما يدل على حسن استعداد الرجل للكتابة (٦٢) .

أضف إلى ذلك أن معانى الشيخ فى مقالات المرحلة الأولى كانت غزيرة لأن أكثر هذه المعانى كان مأخوذا من السيد جمال الدين فإن دلّ ذلك أيضا على شىء فانما يدل على حسن استعداد الشيخ للإصلاح الدينى والإصلاح الاجتماعى (٦٣) .

وكان الشيخ يحشو بعض كلامه بالحكم والأمثال وينزلق أحيانا الى استخدام الأسماء العامية استخداما سخيفا كما فى قوله من ضمن مقال : (المدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى) : « وهل كان يحضره تراكيب الحيوانات على اختلافها وتناسب أعضائها وارتباط

---

(٦١) ولاسيما يوم بدارة جلجل

(٦٢) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه جـ٢ ص٧٦

(٦٣) المرجع نفسه ص٧٧

الأعصاب والعضلات وجذب طلمبات الشرايين مادة الغذاء إلى جميع الجهات .. الخ والشاهد فى قوله « طلمبات الشرايين » فليست الحاجة ماسة إلى ذلك(٦٤) .

وأمّا من حيث الموضوع فالشيخ فى كل ما كتب إلى يوم وفاته يوضح للنّاس فوائد الصحف تارة ، وقيمة العلوم الحديثة تارة ، ويسخر من افتقار الأزهر للمنطق تارة ثالثة ، وينقد سياسة الدولة العلمية آخر الأمر ، وذلك فضلا عن تلخيصه دروس جمال الدين(٦٥) .

٢ - انتقل الشيخ محمد عبده بعد ذلك إلى الكتابة فى الوقائع المصرية « الرسمية » وكانت كتابته تتسم بالطابع الاجتماعى ثم قامت الثورة العرابية فتحوّل الشيخ من المقالات الاجتماعية إلى المقالات السياسية .

وقد عدل الشيخ فى أسلوب هذه المقالات عدولا ظاهرا عن السجع إلى الازدواج كما عدل عن الألفاظ الغريبة إلى الألفاظ السهلة كما توخى اليسر فيما أتى به من التشبيهات(٦٦) . لقد حاول تيسير أفكاره وتيسير أسلوبه وألفاظه وتشبيهاته إلى درجة كبيرة ليفهمه جميع النّاس . وكان لاينسى ايراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية فى غضون كلامه ، غير أنه كان مقتصدا كل الاقتصاد فى هذه الناحية أمّا من حيث الموضوع فقد وقف الإمام فى هذه المرحلة من حياته الكتابية موقف المعلم للشعب المصرى ، واتخذ من الوقائع المصرية منبرا يعظ النّاس من أعلاه ، ويوقظ فيهم شعورا بضرورة الإصلاح ، ومن ثمّ جاءت جميع مقالاته كما يقول الدكتور عبد اللطيف حمزه دروسا اجتماعية ودينية لا أكثر ولا أقل(٦٧) .

٣ - ننتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة من مراحل الكتابة الصحفية عند الإمام ، وهى المرحلة التى كان فيها بباريس إلى جانب أستاذه السيد جمال الدين وفى أثناء ذلك انتقل الإمام من دائرة ضيقة : كان يعمل فيها لإصلاح مصر من الناحيتين الدينية والاجتماعية إلى دائرة أوسع وأكبر هى الدائرة التى أصبح فيها مع السيد جمال الدين يعمل لصالح الكافة من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها(٦٨) . واستبدل الشيخ بطابع الهدوء الذى غلب على نفسه وخلفه كما يقول الدكتور عبد اللطيف حمزه طابع الثورة التى انتقلت إليه من أستاذه ومن ثمّ أخذت مقالاته فى العروة الوثقى طابع الدعوة الحارة إلى جانب الطابع الأول وهو طابع الدرس الخالص الهادىء(٦٩) .

---

(٦٤) المرجع السابق ص٨٠

(٦٥) المرجع نفسه ص٨١

(٦٦) المرجع نفسه

(٦٧) المرجع نفسه ص٨٢

(٦٨) المرجع السابق ص٩٠

(٦٩) المرجع نفسه ص٩١

لقد ارتفع أسلوب الإمام فى درجة جودته وبلاغته كما ارتفع فى درجة حرارته عما كان عليه فى الوقائع المصرية .

ثم إن الشيخ كان فى مصر يروض قلمه على التعبير حتى مرن هذا القلم ، واكسبته هذه المرانة قوة وسهولة وجمالا وتدفقا فى وقت معا[٧٠] ، فإذا أضيف إلى ذلك أنه كان يصدر عن عاطفة قوية منفسحة تسع العالم الإسلامى كله أدركنا إلى أى حد ارتفع أسلوب الإمام فى ذلك الحين أمّا السجع فقد استمر الشيخ فى عدوله عنه ولكنه كان ينفلت منه انفلاتا ، ويأتى سجعه لمجرد إحداث التوافق بين نفسه وبين قلمه ، أو بين اهتزازاته الشعورية ، واهتزازاته اللفظية ولم يكن أسلوبه يجرى مجرى الحديث العادى كما كان يفعل فى المرحلة الأولى من مراحله فى الكتابة ولكن يجرى مجرى الخطابة ، وفيه كثير من خصائصها كتكرار الكلام بقصد التأكيد ، وكثرة النداء فى غضون المقال ، وكثرة الإشارة والاستفهام الإنكارى ونحو ذلك .

ومن السهل على قارىء هذه المقالات أن يدرك أن العناية بالفكرة توشك أن تغلب فيها العناية بالأسلوب . وهذا ما يفسر لنا خلو العبارة أحيانا من الألفاظ الفحلة الجزلة ، ومن الجرى وراء المحسنات وما اليها من أدوات الزينة اللفظية التى استعاض عنها الشيخ بصدق العواطف المنبثة فى ثنايا المقال ، وبدرجة الحرارة التى وصل إليها .

ونلاحظ فى هذه الفصول الأدبية الصحفية أن ذوق كاتبها قد ارتفع إلى درجة كان يأتى فيها بالصور البيانية الرائعة[٧١] .

ثم بالرغم من سهولة الألفاظ التى تتألف منها المقالات فقد يصطدم القارىء فى حالات قليلة وليست شائعة بكلمة غريبة ، ولفظ قليل الاستعمال عند الكتاب ، ومن أمثلة ذلك : وإذا أراد الله بشعب أن يلقى بوانيه إلى أجل مسمى أودع فى ضئاضئه هذين الوصفين الجليلين (يريد الميل إلى الوحدة والكلف بالسيادة) [٧٢] فقوله ألقى بوانيه معناه أقام وثبت ، وقوله ضئاضئه معناه أصوله .

ومثل : ثفثغ جماعة من متزندقى هذه الأوقات فى بيان مفاسد التعصب الدينى[٧٣] فقوله ثفثغ معناه خلط فى الكلام ، ومثل قوله فى فصل عن التعصب الدينى : لفظ شغل مناطق النّاس حتى صار تكأة للمتكلمين يلجأ اليه الصبى فى تهتهته ، والذلقانى فى تفيهقه[٧٤] فالذلقانى

---

(٧٠) المرجع نفسه ص٩٢

(٧١) المرجع نفسه ص٩٣

(٧٢) العروة الوثقى ط المكتبة الأهلية ببيروت ص ١٥٨

(٧٣) المرجع نفسه ص ١٠٢

(٧٤) المرجع نفسه ص ٧٦

سريع الكلام ، والتفيهق : التنطع ليس شك فى أن الكاتب يلجأ أحيانا للألفاظ الغريبة ليحقق غاية بلاغية فى نفسه ، ولكن الخطر فى ذلك يأتى من أن القارىء إمّا أن يتمهل ويجهد ذاكرته حتى يعرف معنى الكلمة ، وإمّا أن يحاول البحث عنها فى معاجم اللغة ، وهذه الحركة أو تلك كافية لأن تضيع المعنى وتفوت على الكاتب قصده من الاغراب .

على أن قارىء العروة الوثقى لايسعه إلا الاعتراف لكاتبها بحسن اختيار الألفاظ ذات الإيحاء الخاص ، وهى صفة لاتتيسر لغير الموهوبين فى الكتابة أو المثقفين بالثقافة الإسلامية العميقة .

ثم إن الأمثلة التى توخى الإمامان ضربها فى مجلة العروة الوثقى كان معظمها مشتقا من السياسة الانجليزية فى الهند والأفغان ومصر. [٧٥] وقائما على التنديد بهذه السياسة ، والغض منها وكشف اللثام عنها للعالم الإسلامى ، وبهذا العنصر الأخير – وهو السخرية – استحقت مقالات العروة الوثقى اسم الكتابة الصحفية الصحيحة لأن شرط النجاح فى كتابة المقالة الصحفية أن يكون الكاتب الصحفى ناقما على شىء معين ، وأن يعبر عن هذه النقمة إمّا بطريق الغضب على مذهب الشرقيين أو بطريق الفكاهة أو السخرية على مذهب الأوربيين .

هذا وقد كانت مقالات الشيخ فى هذه الجريدة طويلة مسرفة فى الطول إلى الحد الذى لايمكن نشره فى جريدة من جرائد الوقت الحاضر. [٧٦]

٤ – اذن للأستاذ الإمام بعد ذلك أن يسافر إلى بيروت ، وهناك اتصل به العلماء والأدباء وفسحت له بعض الصحف صدورها ، واستكتبته جريدة « ثمرات الفنون » وكان فى أثناء ذلك على اتصال دائم بالصحف المصرية ، وبالأهرام منها بنوع خاص . فكان يعرف منها أخبار بلاده وحركات أهلها . [٧٧]

وأسلوب الإمام فى هذه المرحلة هادىء رزين ألا حين يتصل الكلام بموضوع الدين من قريب أو من بعيد[٧٨] .

كان الشيخ فى بيروت يخدم الإسلام والقومية العربية ويهتف بالدولة العثمانية ، ويلهج بالثناء عليها . [٧٩] ويوضح للنّاس طريق الإصلاح الصحيح فى رأيه ، ويكتب فصوله الأدبية فى لغة توشك أن تكون عادية ، ويرسلها مرتبة ترتيبا منطقيا ، ولايحتاج إلى الصور البيانية . [٨٠]

---

(٧٥) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة جـ٢ ص ٩٥

(٧٦) المرجع السابق ص ٩٦

(٧٧) المرجع نفسه ص ١٠١

(٧٨) المرجع نفسه ص ١٠٢

(٧٩) المرجع نفسه ص ١٠٤

(٨٠) المرجع نفسه ص ١٠٥

٥ - عاد الشيخ بعد ذلك إلى مصر ، واشتغل بأمور كثيرة منها رده على « هانوتو » وزير خارجية فرنسا الذى فهم الشيخ أنه ينتقد الإسلام إذ ذاك سنحت للشيخ أثمن فرصة فى حياته فطفق يكتب المقالات الضافية فى الرد على هذا الوزير فى أسلوب بلغ الذورة : سهولة قول ، وسلاسة عبارة ، وقوة حجة ، واستقامة منطق ، وإبداع تصوير ، ووصولا بالكلام إلى درجة عظيمة من هذه المزايا الثلاث للأسلوب الحق والوضوح والجمال .[٨١] ولم يخل ردّ الامام على الوزير من قسوة ومرارة واسفاف[٨٢] . وعنى الإمام أثناء ذلك بموسيقية العبارة ، بل إن هذه العناية جاءت صدى لعواطفه التى جاشت بها نفسه فى ذلك الوقت .[٨٣]

أخذت المقالة الصحفية عند الإمام شكل الدرس وبعض هذه المقالات ملخصات للدروس التى كان يلقيها السيد جمال الدين .[٨٤] . فقد غلبت على نفس محمد عبده طبيعة المعلم .

كما أن مقالاته يشيع فيها روح الجد إلى حد الصرامة والحزن ، فقد أحاطت بمصر فى القرن الماضى ظروف عصيبة دفعت المصريين إلى ترك اللهو واللعب ، وطرح الضحك والسمر جانبا ، كما تشيع فى بعض هذه المقالات السخرية الممزوجة بالحزن .[٨٥] والانفعالات القوية ،[٨٦] والازدواج ، والتأثر بأسلوب القرآن[٨٧] .

* * * * *

---

(٨١) المرجع السابق ص ١٠٦
(٨٢) المرجع نفسه ص ١٠٧
(٨٣) المرجع نفسه
(٨٤) المرجع نفسه ص ٢١٩
(٨٥) المرجع نفسه ص ٢٢٠
(٨٦) المرجع نفسه ص ٢٢١
(٨٧) المرجع نفسه ص ٢٢٣

ثانيا : الرسائل

(أ) الرسالة الديوانية :

(ب) الرسالة الاخوانية :

تمهيد :

الرسائل أسبق ألوان الأدب الكتابية إلى الظهور كما يقول الدكتور محمود رزق(٨٨) فقد بدأ بروزها فى عالم الوجود والأدب ، على عهد الرسول صلوات الله عليه ، بفضل ماأخذ من الكتابة الخطية واتخاذه كتابا للوحى يدونون القرآن الكريم ، ويكتبون مايمليه الرسول عليهم من مكاتبات ضرورية تطلبها منطق الدعوة وسياق الجهاد . فسن بذلك لقومه من بعده سنة حسنة اتبعوها .

وقد اقتدى خلفاؤه الراشدون به فى ذلك ، فاتخذوا الكتاب وأملو عليهم مايريدون من رسائل ، وأخذت حياة الرسائل تزداد بروزا وثباتا ، وينعا ونضارة باتساع رقعة المملكة الإسلامية وشيوع عوامل القوة فيها وازدهارها ، وبنشر دعائم النظام فى ربوعها واستقرارها ، وإنشاء الدواوين التى تحتاج اليها دولة قوية مترامية الأطراف واسعة المنافع طامحة الآمال ، موصولة الأعمال بفضل ماوحد الإسلام به بين بنيها ، ومابثه فيها من حياة وقوة ونشاط .

ومانقضت الدولة الأموية إلا وكتابة الرسائل قد اخضر عودها ، واستقامت سوقها ، وأصبحت صناعة عتيدة مجيدة ، ويتخصص فيها المنشئون ولها ديوان خاص يلى رياسته كبارهم ممن حذقوا الإنشاء والترسل ، يكتبون لدولتهم فى شتى شئونها العليا فترتسم فيها سياستها ، ويبدو مبلغ قوتها وحياتها ، ومدى آمالها ومراميها ويصور فيها الجم من نواحى حياتها ونشاطها ومرافقها المختلفة . وتعمل على تثبيت أركانها ، ودعوة الناس إلى المعاونة على دعمها ، ومناوأة خصومها فى داخل البلاد وخارجها ، إلى غير ذلك من الوظائف الرئيسية العليا التى أصبحت روح الدولة وقوامها ، وهى تشـــعر بما كان لصناعة الإنشاء من قوة وسلطان ، وما كان لصاحب ديوان الرسائل من جاه عظيم فى الدولة ، ولدى خلفائها . فقد تركزت فيه بذلك ضروب من المسئوليات اضطلع بها ، وقام بشئونها من تقويم للسياسة الداخلية ، وتنظيم للعلاقات الخارجية . والعرب أهل أدب وبلاغة تفعل بهم الكلمة البليغة فعل السحر . ومن قبل هذا انقادوا لحر البيان ، واستسلموا لبلاغة القرآن . ذلك لأنه صادف فيهم نفوسا صافية أبية ، وأرواحا كريمة رضية . فاستجابت لدعائه ولبت عند ندائه .

---

(٨٨) عصر سلاطين المماليك : المجلد الخامس وهو القسم الأول من الجزء الثالث ص ٢ومابعدها . مكتبة الآداب ومطبعتها ١٩٥٦ .

وهذه النزعة فيهم كانت من أهم الدواعي التي أوحت ببروز الكتابة الإنشائية ووهبت لها فى الدول العربية حياة كريمة فياضة بالنشاط ، وأخص ضروب الكتابة التى تحتاج اليها الدول كتابة الرسائل الديوانية ، وقد عنوا باختيار رجالها من أهل الفقه والأدب اللباب ، والعقل الراجح الوثاب ، ومن أولى الظرف والكياسة والدهاء والحيلة والسياسة لأنهم فى الحق بحكم صناعتهم حكام دولة ، وسيوف صولة ، ورؤوس رعية ، وعقول أمة . فضلا عن مصاحبتهم للخلفاء ، ومقارعتهم للملوك ، ومصاولتهم للولاة والعمال .

لبثت هذه الحالة يتسع نطاقها وتمتد آفاقها ، كلما ازداد نصيب الدولة الإسلامية من الحضارة والنظام ، وقد تعددت الدواوين فى دولة بنى العباس لتعدد منافعها ، وترامى مرافقها ، ولخلوصها من بداوة العرب القديمة ، واستتباب معالم المدنية فيها ، وكان أرحب دواوينها أهمية وعملا ، وأوسعها أثرا وفضلا ديوان الرسائل . وتعددت ألوان الرسائل الديوانية بتعدد مصالح الدولة ومنازعها ومناسباتها ، وتقلب الأحوال بها ، ومن هنا نرى أن هذا الضرب من الرسائل من أهم سجلات الدولة التى تدون فيها شئونها ، ومختلف أمورها ، وأهم حوادثها ، وعليا تصرفاتها ومتجهاتها ، وتصلح إلى حد كبير لأن تكون مددا لتاريخها ، وسندا يرجع اليه عند معرفة أحوالها (٨٩)

لقد كانت أهم ألوان النثر عند القدماء فكان لفظ الكتابة إذا أطلق لاتراد به غير كتابة الإنشاء والكاتب إذا أطلق لايراد به غير كاتبها (٩٠) .

ويراد بكتابة الإنشاء كل مارجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعانى (٩١) .. الخ .

هذه الكتابة الإنشائية هى التى عنى بها النقاد الأقدمون وألفوا الكتب من أجلها حتى سمى العسكرى كتابه : « الصناعتين : الشعر والكتابة » يريد كتابة الإنشاء وسمى ابن الأثير كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » يريد كاتب الإنشاء (٩٢) .

وأقيم لهذا اللون من الكتابة ديوان سمى « ديوان الإنشاء » تصدر عنه هذه الرسائل السلطانية ، وشرطوا فى رئيس هذا الديوان أن يكون أعلم أهل عصره بفنون الكتابة وأساليبها ، ورفعوه مكانا عاليا لأن كاتب الإنشاء هو الذى يمثل لكل عامل فى تقليده مايعتمد عليه ويتصفح مايرد منه ، ويصرفه بالأمر والنهى . وهو حلية المملكة وزينتها لما يصدر عنه من البيان

---

(٨٩) مرجع سابق ، ص ٨٤.

(٩٠) صبح الأعشى جـ١ ، ص٥٢ .

(٩١) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٩٢) المصدر نفسه ، ص٥٢

الذى يرفع قدرها ، ويعلى ذكرها ، ويعظم خطرها ، ويدل على فضل ملكها ، وهو المتصرف عن السلطان فى الوعد والوعيد ، والترغيب والإحماد والاذمام ، واقتضاب المعانى التى تقر الوالى على ولايته وطاعته ، وتعطف العدو العاصى عن عدواته ومعصيته (٩٣) .

ولهذه المكانة الرفيعة رأوا أن صاحب هذا المنصب يحتاج إلى ثقافة واسعة تشمل الثقافة العربية والشرعية ، وتمتد إلى معرفة اللغة الأعجمية ، وصبح الأعشى فى جزئه الأول (٩٤) يقدم منهجا عمليا لتخريج كاتب ، فهو إذا ذكر حاجة الكاتب إلى لون خاص من ألوان الثقافة بين طريقة استخدام الكاتب لهذا اللون وضرب له الأمثال .

وهى تشمل كتابة الدواوين تلك الكتابة الحكومية (الرسمية) ... من رسائل ومنشورات ، وبحوث وغيرها مما يقتضيه العمل الحكومى ، وقد روعى فيها أول العصر الحديث الإطناب وبعض البديع والسجع مع قلة الاكتراث بالعامى من الكلام أو القيم من العبارات ، ولما كان عصر اسماعيل ، وظهر طائفة من الأدباء المثقفين أخذت الحكومة تعهد إلى بعضهم بالإشراف على كتابة الدواوين فارتقت أساليبها بعض الرقى ، ومنها ماعادت إلى مثل ماكانت عليه زمن المماليك ، بل ربما كانت خيرا منها وأكثر حسنا وجودة ، وزايلها البديع والسجع شيئا فشيئا ، وكانت هناك عناية بالألقاب فظهرت عربية متركة أو تركية خالصة ، ومن الكتاب الإمام محمد عبده حين إشرافه على الوقائع المصرية ومراقبة كتابة موظفى الدواوين (٩٥) ان الذى يبدو لى أن الإمام حين أشرف على تحرير الوقائع وإدارة المطبوعات قد جعل منها ميدانا للمبارزات الأدبية كما بعث فيها عهد ديوان الإنشاء . وماكان له من صولة وهيلمان .

وبجوار الرسائل الديوانية ازدهرت ضروب أخرى من الرسائل شاركتها فى جهادها الأدبى مشاركة بعيدة المدى ، وأهمها الرسائل الإخوانية والرسائل الإخوانية ذات أهمية تاريخية كبرى فى عالم الأدب حينذاك إذ كان يمشى فى سطورها غالبا صدق التعبير عن الضمير ، وتتراءى قوة الحس بما فى النفس ، وتطفر هواجس اللب بخفايا القلب ، وهى معرض للمودات – ومعترك للخصومات ، فإذا كانت الرسائل الديوانية تعبر عن الحياة الرسمية للدولة فالرسائل الإخوانية تنم عن الحياة النفسية والشعبية لها ولو فى نطاق . وربما اتخذها المتراسلون مسرحا يظهرون فيه مايبطنون ، ويتحدثون بما يعتقدون من آراء ومذاهب وأفكار ومشارب . ويستطردون فيها إلى تصريح بخفى ، أو تلميح إلى قصى وإلى حديث عن ممتع مطرب ، ورائع معجب ، كما يتخذونها مجالا لأدبهم وملعبا لأقلامهم تجول فيها أسلاتها وتصول . وتخب شباتها وتضع ،

---

(٩٣) المصدر نفسه . ص ٥٦ .

(٩٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ ومايليها .

(٩٥) الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم لمحمود رزق سليم ، ص ١٧٥ .

فتسابق وتسبق ، وتجد وتصدق ، أو تتفكه وتداعب وتمزح وتلاعب ، إلى غير ذلك من شئون النفس ، وهي مترامية ترامى أطرافها ومتشعبة تشعب أهدافها ، ومن هذا وذاك تبدو الأهمية التاريخية التى يعلقها الأدب على هذا الضرب من الرسائل .

والدول الإسلامية التى عاصرت دولة بنى العباس كالفاطميين المغاربة والأيوبيين الأكراد ، سارت فى نهجها الديوانى على نمط من العباسيين قريب إذ شعرت بحاجتها القصوى إلى دواوين الرسائل والكتاب المنشئين من بارعى البلغاء فأمدتها بحياة ، وجملتها بجاه ، ووسعت لها فى أفق العمل حتى كانوا من أهم الدعائم القويمة التى سمقت الدولة بها وسبقت . .

ودولة المماليك فى جملتها كانت امتدادا للدولة الأيوبية اصطنعت كثيرا من نظمها الديوانية واصطبغت إلى حد كبير بصبغاتها الأدبية ومشى كتابها فى الدواوين وخارج الدواوين فى طريق أسلافهم ، واتخذ منشئوها الأسلوب الفاضلى يصبون فيه ماينشئون .

وبقيت منها صبابة إلى أول عصر النهضة الحديثة ، ثم قوى أمرها واشتد ساعدها فى أيام اسماعيل ، وأخذ الأدباء منذ عصره يتشبهون فى كتابة رسائلهم بنظرائهم من كتاب الرسائل فى العصور القديمة ، واتشحت رسائلهم بكثير من الرونق ، وتجلت فى أفانين من ضروب البيان ، وترقرق فيها ماء الحياة ، مع بقاء القيد بالسجع ، ويسير من البديع ، وفى مقدمة كتاب الرسائل الإمام محمد عبده(٩٦) كتب وهو فى بيروت جوابا عن كتاب لصديق :

« لك فى قلوبنا من الود مايذكيه سناؤك ، وفى مناطقنا من الحمد مايوحيه كمالك ، وفى صدورنا من الإجلال مايرفعه بهاؤك ، مابيننا من المودة لاتحده مدة ، ولاتخلق له جدة ، نعيذه من حاجة للتجديد ، واستدعاء للمزيد ، فلا المواصلة تربيه ، ولا المهاهلة توهيه . نعم إن مانحفظ لك فى الأنفس هو تجلى فضلك ، ومثال علائك ونبلك . وذلك الخالد بخلود الأرواح الباقى فى تفانى الأشباح ... الخ »

وكان للإمام فى هذه الرسائل ميل قوى إلى السجع والاقتباس والاستشهاد بالأشعار ، ولم تكد رسالة له تخلو من ذلك عدا هذه الرسالة التى كتبها وهو فى سجن القاهرة متهما بالاشتراك فى حوادث الثورة العرابية وذلك فى ٢٠ نوفمبر ١٨٨٢ الموافق ٩ المحرم سنة ١٣٠٠ .

فقد جاءت هذه الرسالة ضربا من الهياج العصبى الذى ركب الشيخ منذ دخوله السجن ، وتتلخص ملاحظاتنا عليها فيما يلى :

أولا : مراعاة الكاتب لهذا الترادف الموسيقى للعبارة ، وهو ترادف كان يساير اضطراب الكاتب فى مشاعره ، وتأثره بانفعالاته ، وهو مستسلم لعواطفه ، حريص على التعبير عنها تعبيرا يلائم قوتها فى نفسه ، وقدرتها على ارعاد جسمه وقلمه .

---

(٩٦) المرجع السابق . ص ١٧٧ .

ثانيا : ومما يلاحظ على هذه الرسالة تلك السجعات النونية التى التزمها الكاتب فى نهاية كل فقرة من فقرات الرسالة ، وهى تذكر بالفن القرآنى ولعلها أثر من آثاره فى نفس الكاتب ، والعجيب أن الشيخ التزم ذلك فى الرسالة من أولها إلى آخرها على طولها وامتداد القول فيها إلى درجة تلفت النظر .

ثالثا : ويلاحظ على الرسالة أيضا أن الكاتب فيها عنى بجانب التصوير عناية كبيرة[(٩٧)] ، فقد صور نفسه فى هذه المحنة التى مرت كأنه فى صحراء مترامية الأطراف فى ليلة شديدة الظلام ليس فيها إنسان ، ولكن فيها آسادا تزأر ، وذئابا تعوى ، وكلابا تنبح ، وثعبانا يلتف حوله ، وكلها تطلب طعاما ، وهو وحده فى هذا المكان المظلم الذى تملؤه الوحشة – هدف لكل هذه السباع الجائعة ، ومن كانت هذه حاله فهو لاشك من الهالكين .

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزه : أن الشيخ كان كلفا بالصناعة اللفظية التى لم تفد المعنى ، ولو ترك الشيخ وشأنه لكان من كتاب الصنعة لأنه لم يكن يتركها إلى الترسل الخالى منها إلا فى ظرف واحد هو الكتابة فى الصحف[(٩٨)] .

ونحن نختلف مع الدكتور حمزه فيما ذهب اليه فإن كلف الشيخ بالصناعة كان أثرا من آثار عصره ، ومثل مرحلة من مراحل تطور أسلوب الإمام إذ لم يلبث الإمام أن ساير طبعه ، وسار فى طريق الترسل ، ويبدو أنه كان يرى أن بعض الموضوعات كالرسائل الإخوانية ومقدمات الكتب تحتاج إلى الصنعة اللفظية فاستخدم الطريقة المقيدة ، فإن هذا المسلك هو الواضح فى أدب الإمام ، ويقول رشيد رضا عن رسالة السجن :

« وهى من أصدق الآيات على علو أخلاقه وسلامة صدره وسعة حلمه ، وحسن نيته ، وأسلوبها فلسفى تاريخى شعرى ، وهو يشبه إنشاء بلغاء الإفرنج ولايتسع غير هذا الأسلوب لتصوير ذلك الكرب الذى أثاره فى قلبه ظلم الحكام ، وخيانة الأصحاب اللئام وتجهم الأيام[(٩٩)] – ومما جاء فيه :

١ – هذه حالتى : اشتد ظلام الفتن ... ودارت الأفلاك دورة العكس ... فولى معها آلهة الخير أجمعين[(١٠٠)] ... تسمع ذئابا تعوى وسباعا تزأر ، وكلابا تنبح كلها يطلب فريسة واحدة هى ذات الكاتب ... تقطع حبل الأمل ... وانحلت الثقة بالأولياء ... وبطل القول بإجابة الدعاء ... وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة ... سقطت الهمم وخربت الذمم ... ولم يبق إلا هوى يتحكم ... ذهب ذوو السلطة فى بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب

---

(٩٧) أدب المقالة الصحفية فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة ، جـ٢ ، ص ١١٠ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ١١٠ – ١١ .

(٩٩) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص ٥٩٢ .

(١٠٠) المصدر نفسه ، ص٥٩٢ .

أصداف من الشبهة ، ومقذوفات من التهم ... ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوه غير مخطئين ، وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة[١٠١] ... وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق بتقارير محشوة من الأباطيل ... اننى برىء من كل مارمونى به[١٠٢] نعم خنقنى الغم ... وفارقنى النوم ليلة كاملة[١٠٣] ... آه ماأطيب هذا القلب الذى يملى هذه الأحرف وماأشد حفظه للولاء ، ماأغيره على حقوق الأولياء وماأثبته على الوفاء ، ماأرقه على الضعفاء ، ماأشد اهتمامه بشئون الأصدقاء ماأعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة ، وإن كانوا فيها غير صادقين ماأبعد هذا القلب عن الايذاء ، ولو للأعداء ، ماأشده رعاية للود ، وماأشده محافظة على العهد ... ماأقواه إقداما على العمل الحق والقول الحق لايطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين[١٠٤] ... ولئن عشت لأصنعن المعروف ولأغيثن الملهوف ، ولأنقذن الهاوى فى حفرة القدر ، ولآخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم ... ولأظهرن الصديق فى أجمل صورة ولأجلونه للناس فى أبهج حلله[١٠٥]

* * *

---

(١٠١) المصدر نفسه ، ص ٥٩٣ .

(١٠٢) المصدر نفسه ، ص ٥٩٤ .

(١٠٣) المصدر نفسه ، ص ٥٩٤ .

(١٠٤) المرجع السابق ، ص ٥٩٥ .

(١٠٥) المصدر نفسه ، ص ٥٩٧ .

ثالثا : الخطابة

إن باحثا مدققا لو أراد أن يعرف حال الخطابة فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين لايمكنه أن يصل إلى معرفة حقيقية لجذورها الأولى ، وكيف نمت وترعرعت حتى قوى عودها وأثمرت أدواحها إلا إذا اتصل بشخصيتين كبيرتين إحدى الشخصيتين جمال الدين الأفغانى ، والثانية صاحبنا محمد عبده .

وليس هنا مجال الحديث عن جمال الدين وأثره فى النهضة الأدبية بل وفى يقظة الشرق عموما ، وإنما نحن مع تلميذه محمد عبده أحد الرواد الأوائل فى ميدان الخطابة يحس باحساس الجماهير فيبلور ذلك الإحساس ، ويراهم كسالى فيحثهم على العمل ، ويراهم مظلومين فينادى برفع الظلم عنهم ، ويطالب بالعدالة الاجتماعية والسياسية . تراه خطيبا فى المدرسة وتراه خطيبا فى الجمعيات والنوادى ، وتراه خطيبا فى المحاكم ، وهكذا فى كل ميدان يتاح له أن يخطب فيه . بل إنه ليساهم فى إنشاء الأماكن التى تزدهر فيها الخطابة كانشاء الأندية والجمعيات ، ويؤمن بالمسجد ورسالته المقدسة ، وأنت تعلم أنه فى ظل المسجد ، وفى رحاب الله ولدت الخطابة الدينية ، وفى ظل المسجد وفى رحاب الله ارتفع صوت الإمام بالحق طلقا ينادى بالإصلاح الدينى ثم انطلق برسالة المسجد مجاوزا جدران المسجد إلى الآفاق الرحبة .

ولئن أتى على الناس حين من الدهر تنكروا فيه للخطابة الدينية فضعف أمرها فإن الله كتب لها البقاء والنماء على يد هذا الرائد العظيم .

كان هذا شأن الخطابة الدينية ، وكان هذا حظها لدى الإمام ، ولم يكن أقل تبريزا فى حلبة الخطابة السياسية فقد كان أحد ركائز النهضة السياسية يوقظ وجدان الناس وينبه إلى حقوق الوطن ويستحوذ على رضا الجماهير .

وليس هذا فحسب بل إن الخطابة العلمية حظيت منه أيضا بنصيب الأسد فقد ارتفع صوته مناديا بإصلاح التربية والتعليم وتنمية المعارف وتدبير الشئون المالية .

وإن نظرة فاحصة على سير الحركة الخطابية فى العصر الحديث ترينا أن الإمام كان من وراء هذه الحركة .

كانت الخطابة على اختلاف أنواعها فى حالة يرثى لها منذ زمن بعيد ، سواء أكانت فى مصر أم الشام أو غيرهما من بلدان الشرق العربى ، وقد زادت حالتها سوءا فى عهد العثمانيين لعدم الداعية اليها ، ولكثرة الأدواء التى انتابت اللسان العربى وأهله فظل أمر الخطابة مقصورا على خطب الجمع والأعياد وماإليها من خطب دينية ، بل لقد دب الضعف فى هذا النوع أيضا ، وقلت القدرة على إحسانه ، ومن هنا نشأت دواوين للخطب الدينية تنتقى منها الخطبة المناسبة

للجمعة أو العيد الذى تلقى فيه ، وظلت كذلك حتى عهد محمد على ومن بعده فجدّت لها عوامل أثرت فيها[١٠٦] وظلت فى أول هذا العصر على ماكانت عليه فى آخر العصر العباسى لاتتعدى الجوامع والبيع ، ولايقوم بها إلا فئة جاهلة ناقلة[١٠٧] ، ثم ارتقى فن الخطابة ، وقد كانت الخطابة قبل ذلك ميتة أو شبه ميتة لفقدان الحرية ، وخمود الوعى القومى ، والخطابة السياسية لاتنهض إلا بهذين العنصرين : قدر من الحرية يستطيع به الخطيب أن يعبر عن آرائه ، ويقظة شعور تدفعه للتفريح عن نفسه بالقول ، ومجاوبة للسامعين فى هذا الشعور .

وقد كانت الحرية مخنوقة لايستطيع قائل أن يقول وإلا تعرض للسجن والنفى والموت ، وكان الشعور القومى قد جمد إلى درجة بعيدة فلا يفكر مفكر إلا فى نفسه ، وكيف يعيش ؟ وكيف يتقى الشر ، أما التفكير فى الوطن فمنزلة لم يبلغها[١٠٨] ، فلما أنشأ اسماعيل مجلس الشورى فى سنة ١٢٨٣هـ بدأ الناس يشعرون بشىء من الحرية ، وإن كان شعورا ضعيفا يساوره خوف وتردد حتى إذا تدخل الأجانب فى مصر على أثر سوء الحالة المالية أخذ الناس يتذمرون ، وأخذ وعيهم القومى فى التكون ، وساعد على ذلك شعور الخديوى اسماعيل نفسه بضرورة ابداء الناس آراءهم وتذمرهم ، واذ ذاك ظهر جمال الدين الأفغانى فكان أول خطيب من نوعه ، يبلور شعور الناس ويستحثهم للعمل ، وكسب الحقوق ورفع الظلم ، والمطالبة بالعدل[١٠٩] وتبعه فى هذا الميدان تلميذه محمد عبده .

ثم كان للثورة العرابية ، ولتنظيم القضاء فى مصر وإنشاء المحاكم ، ونظام المرافعات أثر كبير فى نهضة الخطابة القضائية بل والسياسية أيضا[١١٠] .

كما أن انتشار الأندية والجمعيات العلمية والأحزاب السياسية رفع من شأن الخطابة العربية والمناظرات العلمية والأدبية ، وجدد روح النقد والحجاج فى كل نواحى الحياة المصرية . وكان لذلك أثره فى تثقيف الأذهان وتنشيط العقول وإطلاق الألسنة بالعبارة المختارة واللفظ الأنيق ، ولجمال الدين الأفغانى وتلاميذه ومن بينهم الشيخ محمد عبده الفضل الأول فى نشوء هذه النوادى والعمل على إحيائها ونشاطها[١١١] .

ومما تقدم نرى أن أهم أسباب نهوض الخطابة منذ عصر اسماعيل يتخلص فى الآتى :

١ - إنشاء مجلس شورى النواب فى عصر اسماعيل سنة ١٨٦٦ م وهو إحياء للمجلس

---

(١٠٦) الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم لمحمود رزق سليم . ص ١٦٠ - ١٦١ .

(١٠٧) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ، ص ٤٨٠ .

(١٠٨) قصة الأدب فى العالم جـ٣ ، القسم الأول لأحمد أمين وزكى نجيب ، ص٣٣٠ .

(١٠٩) المرجع السابق ، ص ٣٣١ .

(١١٠) المصدر نفسه ، ص ٣٣٣

(١١١) الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم ، لمحمود رزق سليم ، ص١٤٢ .

المخصوص الذى ألفه محمد على فى أواخر عهده وقد بدرت فى هذا المجلس بادرة الخطابة السياسية ، ولكنها كانت ضعيفة ركيكة الأسلوب لم يكن لها من الأمر شىء وخصوصا أن جلسات المجلس كانت سرية[١١٢] .

٢ - وفود السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر سنة ١٨٧١م والتفاف كثير من الطلبة النبهاء والشبان حوله ، وتأسيس النوادى للخطابة يتعاقب عليها هو وتلاميذه ، وكان يخطب فى الإصلاح الدينى والخلق والاجتماعى ثم تطرق إلى الإصلاح السياسى والدعوة إلى اجتماع الشرق ونهوضه ، وأخذ يبث فى نفوس تلاميذه روح الإقدام وعشق الحرية وحب الوطن وبغض المستبد فنهضت بذلك الخطابة السياسية وبعد نفيه بقيت روحها فى تلاميذه ومن تأثر به أمثال محمد عبده وسعد زغلول[١١٣] .

٣ - قيام الثورة العرابية سنة ١٨٨٢م التى أدت إلى ظهور روح الخطابة الكامنة فى نفوس كثير من بنى الوطن من بينهم تلامذة الأفغانى وزعماء هذه الثورة كعبد الله النديم ، ومحمد عبده ، وأحمد عرابى ، والبارودى[١١٤] .

* * *

أنواع الخطابة

١ - الخطابة الدينية :

كانت مقصورة على المساجد تتلى على منابرها من خطباء دب فى نفوسهم الضعف فأذاعوا الخوف والهلع فى قلوب الناس من القبر والآخرة وزهدوهم فى الدنيا ، ولم يتناولوا شئونها بالشرح والإرشاد إليها ، والتشجيع على مزاولتها ، وقد كان منهم من يبكى أو يتباكى ومنهم من يقرأ ولا يعى مايقرؤه والناس من حوله كالهجود لا يفهمون تلك العبارات المسجوعة والأساليب الغريبة ولا يفيقون إلا إذا ذكر لفظ الجلالة فيقولون : « لا اله إلا الله » أو ذكر اسم النبى الكريم فيقولون : « عليه الصلاة والسلام » بلهجة خشوع وتوقر ، وظلت الحالة كذلك حتى عصر اسماعيل ، فنهضت الخطابة الدينية ، وأصبح أسلوبها طلقا خاليا من قيود البديع والسجع إلا بمقدار حاويا الكثير من الأفكار والمبادىء التى ترمى إلى الإصلاح الدينى كما أنها لم تعد مقصورة على المساجد تلقى فوق منابرها .

وشبت الثورة العرابية فى عهد توفيق ، واشتغل الناس بأمرها وتتابعت من بعدها الحركات

---

(١١٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .

(١١٣) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(١١٤) المصدر نفسه ، ص١٦٤ .

السياسية ففتر أمر الخطابة الدينية وعادت إلى ماكانت عليه من قبل إلا ما كان يرد منها على لسان محمد عبده ومصطفى كامل[١١٥]

٢ - الخطابة السياسية :

لم تعرف مصر ولا سوريا هذا النوع من الخطابة من قبل ، وهى التى توقظ الوجدان وتنبه الناس إلى حقوق الوطن ، وتستحوذ على رضاهم ، ولما كان عصر اسماعيل بدأ نجم الخطابة السياسية يظهر فى أفق البلاد ، ومازال يعلو فى سمائها شيئا فشيئا حتى أصبحت أروع أنواع الخطابة ، وأكثرها تأثيرا فى حياة البلاد وتوجيهها إلى مستقبلها ، وحتى أصبحت سلاح كثير من قادتها وزعمائها[١١٦] .

٣ - الخطابة العلمية :

هى التى تعنى بمسائل العلوم والآداب والفنون وضروب تدبير المال وماشابه ذلك ، فتتناولها بالشرح والتعليق الدقيق فى حفل عام ، ونظرا إلى صعوبة موضوعها والاعتماد فيها على الحقائق والمعلومات دون سواها ، لا الاعتماد على مخاطبة الوجدنات والعواطف كما هو الشأن فى الخطابة الدينية والسياسية ، يضطر الخطيب فى أكثر مواقفه أن يراجع ذاكرته قبل أن يخطب ، وقد يحضر بعض المعلومات أو جميعها ، وقد يكتب خطبته فى أوراق ليتلوها منها ، [١١٧] ولهذا تعتبر الخطابة العلمية فى كثير من مواقفها محاضرات أو مناظرات ، وهذا لايمنعنا القول أن بعض ذوى الدراية والذرابة من أهل العلم يستطيع أن يرتجل الخطاب العلمى الجليل الشأن والأثر عفو الساعة ببديهة حاضره ، وذاكرة قوية ولسان مطواع .

وفى أيام اسماعيل نشطت الحركة العلمية والأدبية وكثرت المدارس فانتشر التعليم ووفد على مصر جمال الدين الأفغانى ، وأنهض الخطابة بأنواعها وربى ناشئة مقتدرة عليها ، ثم افتتحت النوادى العلمية والأدبية ، وأسست الجمعيات فى تلك الأيام كالجمعية الخيرية سنة ١٨٧٨م ثم جمعية الاعتدال سنة ١٨٨٦ ، وكان من الخطباء محمد عبده ، وعبد الله النديم[١١٨] .

يقول الإمام محمد عبده من خطبة فى الاحتفال السنوى للجمعية الخيرية سنة ١٩٠٢م :

« إن رغبة الناس منصرفة إلى جعل التعليم ذريعة لأخذ الشهادة لأنها شرط للاستخدام فى الحكومة ، والسبب فى رغبة الناس فى خدمة الحكومة هو أنهم لعدم ثقتهم بأنفسهم ولجهلهم بطرق الكسب الواسعة ، وضعف همتهم عن سلوكها ، يود كل واحد منهم أن يكون له مورد من الرزق مضمون يعتمد عليه وإن كان وشلا آسنا » .

---

(١١٥) المصدر نفسه ، ص١٦١ .

(١١٦) المرجع السابق ، ص١٦٤ .

(١١٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(١١٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .

ويقول أيضا فى التربية التى يكون بها الإنسان إنسانا ، والجماعة الكبيرة أمة .

خطاب فى احتفال الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٣١٤هـ ومما جاء فيه :

١ – أهم مقصد لدى الجمعية إصلاح حال الناشئين من أولئك الضعفاء المساكين بالتربية والتهذيب .

٢ – إن الإنسان لايكون إنسانا حقيقيا إلا بالتربية وليست هى إلا عبارة عن اتباع الاصول التى جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام والحكم والتعليم وهى عبارة عن السعادة الحقيقية(١١٩) .

٣ – إن بلادنا ليست بلاد الجوع القتال ... ولكنها ويا للأسف منيت مع ذلك بأشد ضروب الفقر : فقر العقول والتربية .

٤ – إن القوانين لم توضع فى جميع أنحاء العالم إلا للشواذ والهفوات والسقطات .

٥ – إن العلم الحقيقى هو الذى يعلم الإنسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من أفراد جامعته فهو إذا يعلم الإنسان من هو ومن معه فيتكون من ذلك شعور واحد وروابط واحدة هو مايسمونه بالاتحاد(١٢٠) .

٦ – انظروا إلى المرأة حين تقول لابنها مثلا إذا أرادت أن تمنحه شيئا : خذ هذا واخفه عن الأعين حتى لايراك أخوك ، فكم من نقيصه علمته بمثل هذا القول . علمته ثلاث خصال هن الموبقات المهلكات : الأثرة والدناة والسرقة . وربما توصيه بانكار ماأعطته إذا سأله أخوه فتعلمه بذلك أقبح خصال السوء والفساد(١٢١) وهو الكذب ، وقد لايتعلم الطفل عندما يراد تمرينه على النطق والكلام غير ألفاظ السباب والشتائم القبيحة فيشب الطفل متعودا على أن تلفظ شفتاه كل كلام قبيح لا يعبأ بماذا ينطق ولا يبالى بما يقول(١٢٢) .

---

(١١٩) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص ٤٦٩ .

(١٢٠) المصدر نفسه ، ص ٤٧٠ .

(١٢١) المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٤٧١ .

(١٢٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٤٧٢ .

رابعا : السير والتراجم

تمهيد :

فى أحضان التاريخ نشأت السيرة وترعرعت ، واتخذت سمتا واضحا ، وتأثرت بمفهومات الناس عنه على مر العصور ، وتشكلت بحسب تلك المفهومات[١٢٣] ، وأن السيرة التاريخية ظلت حتى العصر الحديث أقوى أنواع السير عند المسلمين ، وهى تجمع أحيانا بين الغاية الخلقية ، وغاية المتعة التى تحققها السيرة الأدبية ، ولكنها قد تكون منبعثة عن مجرد الرغبة فى التاريخ أى تكون غاية فى نفسها لأن المؤرخين المسلمين كانوا يرون السيرة جزءا من التاريخ[١٢٤] .

ظل أكثر السير فى العالم الإسلامى مجموعة من الأخبار المأثورة أو المشاهدات ، ليس فيها وحدة البناء ، ولا الإحساس بالتطور الزمنى ، ولا تتبع مراحل النمو والتغير فى الشخصية المترجمة ، ظلت السيرة دون شكل تام ، ودون محتوى واف كامل حتى العصر الحديث حيث واجهت بعض التغيرات فى القاعدة والطريقة وكان ذلك بتأثير من الثقافة الغربية[١٢٥] . فاتجهت السيرة فى ظل النهضة الحديثة اتجاهات مقاربة لما فى الغرب فتأثرت بالدراسات النقدية للنصوص ، والنظريات النفسية ، وقلت الرغبة فى تأريخ الحياة نفسها وأصبح الحديث عن الأشخاص تأريخا لآرائهم إن كانوا من ذوى الرأى أو عرضا لطريقتهم الأدبية إن كانوا من الأدباء ، أو توضيحا لدورهم السياسى وعلاقاتهم الاجتماعية[١٢٦] ويمكن أن نميز فيما يكتب من السير ثلاث مدارس :

١ - مدرسة ذات طابع أكاديمى تقوم دراستها على التشريح والتحليل والتدقيق فى الاستنتاج بعد عرض المتناقض المضطرب من الروايات لاستخلاص الحقائق منها ، وتحتاج هذه الدراسة قوة خارقة من النقد اللازم لكل من المؤرخ والأديب ، وكثيرا ماتكون هذه الدراسة مخفقة لضعف ملكة النقد ، فيجىء تاريخ الحياة روايات قد تكدس بعضها فوق بعض ، وغرقت فى أثنائها شخصية الدارس ، وقد تخرج الدراسة فى شكل مجادلات بيزنطية أكثرها رد على آراء قديمة أو تهكم بأصحابها ، ويصبح الشخص المترجم ظلا باهتا لاتمده قوة من حياة ،

---

(١٢٣) فن السيرة للدكتور إحسان عباس ، ص٩ .

(١٢٤) المصدر نفسه ، ص٢٨ .

(١٢٥) المصدر نفسه ، ص٣٧ .

(١٢٦) المصدر نفسه ، ص٥٨ .

ولاتكشف عنه أصالة من نقد ، أما التكوين والبناء الايجابى فانهما ضعيفان فى هذا النوع من الدراسة .

٢ – والمدرسة الثانية مدرسة قديمة فى طابعها ، لاتؤمن بالدراسة النقدية قدر إيمانها بما قاله القدماء ، ولذلك كانت عنايتها بالتراجم لاتتجاوز إعادة ماكتب من قبل فى بيان إنشائى مفكك وحماسة مفتعلة(١٢٦) .

٣ – والمدرسة الثالثة هى التى تنتحل السيرة الأدبية أو شكلا مقاربا لها – والرابطة الجامعة لأصحاب هذا الاتجاه هى عنايتهم بالفرد وإنسانيته على أساس من الجو التاريخى فى تطور حياته وشخصيته وتكاملها(١٢٧) .

إن السيرة فن لابمقدار صلتها بالخيال ، وإنما لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء وعلى ذلك فهى ليست من الأدب المستمد من الخيال ، بل هى أدب تفسيرى ، وهذا االنوع من الأدب يعنى صاحبه بغاية محدودة تهديه فى اختياره وترتيبه للحقائق(١٢٨) إنه يقف موقف المستكشف المفسر لأشياء وأشخاص وجدوا فى الحقيقة ، ولا بأس إذا وضع شيئا من الحرارة فى الحوار الذى يجريه فى السير فذلك مع البناء العام لها كفيل أحيانا أن يحقق الخطة المؤثرة وأن يثير العطف على بطل السيرة(١٢٩) .

ليس فى الناس من يكره التحدث عن نفسه ، حتى الذين يقولون ذلك بألسنتهم ، إنما يعانون ألما شديدا لكف أنفسهم عما تشتهيه إذا هم قدروا على كفها ، وكثير منهم من يجعل من ذلك وسيلة إلى التحدث عن ذاته ، على وجه يوحى بأنه ينتزع الكلام عنها انتزاعا ، وهو كاره له ، وإذا كان الحديث عن النفس بطريقة شفوية عامة حظا مشاعا بين أبناء الإنسانية فإنه من بعض صوره قسمة تختص بالأديب أو الفنان لأن « الأنا » حاضرة لديه مقنعة أو مكشوفة(١٣٠)

وكل سيرة هى تجربة ذاتية لفرد من الأفراد ، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت فى نفس صاحبها نوعا من القلق الفنى فإنه لابد أن يكتبها ، والناس مهما يطل عليهم الأبد وتختلف أحوالهم هم أحد رجلين : رجل وصل إلى حيث يؤمل ، وانتصر على الحياة وصعابها وأحس التخلص من ورطاتها ، ورجل كافح حتى جرحته الأشواك وأدركه الإخفاق ، وكلا العاملين أعنى الوصول والخيبة يبلغان بالتجربة حد النضج على شرط واحد : هو اكتمال التصور لأطراف هذه التجربة ، ورؤيتها عند التطلع إلى الماضى على أساس من نظرة ذاتية

---

(١٢٦) المرجع السابق . ص٥٩

(١٢٧) المصدر نفسه ، ص٦٠ .

(١٢٨) المصدر نفسه ، ص٩٠

(١٢٩) المصدر نفسه ، ص٩١

(١٣٠) فن السيرة للدكتور إحسان عباس ص٩٨ .

خاصة ، ولولا هذا الشرط لكان كل إنسان قادرا على أن يكتب سيرة حياته ، وإنك لتستمع إلى أشخاص يقصون عليك قصصا من أحداث حياتهم ، يمنعك سماعها ، ويبعث فيك شيئا من النشوة ، ولكنهم يعجزون عن أن يكتبوها سيرة كاملة لأنهم يعجزون عن أن يروا مكانهم من الحياة[١٣١] ، ولايرى الإنسان مكانه بوضوح إلا إذا أصبحت تجاربه ذات وحدة متكاملة ، وكانت لديه قاعدة فلسفية يتقابل بها وجها لوجه مع حقائق الوجود الأخرى ، وهذا فرق أصيل بين الفنان وغيره ، وهو سر تفرده فى الحياة كما أنه سر سعادته أو شقائه أعنى مايصيبه من وصول أو خيبة ، ولست أقول أن التجربة فى الحياة لاتكون إلا روحية ولكن التجارب الروحية من أشدها حثا على كتابة السير الذاتية ، ومن أكثر الحوافز خلقا للسير الذاتية الجميلة[١٣٢] .

السيرة الذاتية فى الأدب العربى :

إن طبيعة الاستسلام أغلب على هذا اللون من الأدب حتى عند أصلب شخصياته وأشدها تمرسا بالمصاعب ، ومعنى هذا أن الإحساس بالصراع الذى يخلق الفن ضعيف فى تلك السيرة الذاتية[١٣٣] . أما الصراع نفسه فحاضر فى كل مرحلة من مراحل الحياة .

ويلى هذا العنصر فى القوة عنصر التعرى النفسى والاعتراف المخلص ، فهو أقوى ظهورا من سابقه وخاصة عند أهل الاتجاه الروحى أو الفكرى[١٣٤] فى ضوء الحقائق السابقة نعرض لفن السيرة عند الإمام مبتدئين بالسيرة الذاتية التى كتبها عن نفسه لنستطيع أن نحدد المدرسة الفنية التى ينتمى إليها فى دنيا السير والتراجم .

يقول الأستاذ الإمام فى فاتحة ماكتبه عن تدوين سيرته :

ماأنا ممن تكتب سيرته ، ولاممن تترك للأجيال طريقته ، فإنى لم آت لأمتى عملا يذكر ، ولم يكن لى فيها إلى اليوم أثر يؤثر ، حتى أكون لأحد منها قدوة ، أو يكون لأحد فى أسوة وهذا الذى أجد من استصغار أمرى ، وخفاء أثرى وظهور عجزى عن بلوغ مايرمى إليه فكرى ويطمح اليه نظرى كان يمنعنى من أن أكتب شيئا يتعلق بحياتى ، تعرض فيه بداياتى ، وشىء من أعمالى بعدها وصفاتى حتى أكون به باقيا عند من يطالعه بعد مماتى . وكنت أقول : وقت أصرفه فى حكمة أستفيدها خير من زمن أنفقه فى قصة استعيدها ، وماالذى عساه يبقى منى ، وأنا فى قومى لم أترك مايؤثر عنى[١٣٥] .

(١٣١) المصدر نفسه ، ص١٠٢ .

(١٣٢) المصدر نفسه ، ص١٠٣ .

(١٣٣) المصدر نفسه ، ص١٢٠ .

(١٣٤) المرجع السابق ، ص١٢١ .

(١٣٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ١ ، ص٩ .

ولكن عرض لى أن زرت يوما بعض معارفى من الغربيين ممن نظروا فى الآفاق . وبحثوا فى العادات والأخلاق . وحققوا فى ذلك ونقبوا . وكتبوا فيه ماشاء الله أن يكتبوا فدار الحديث بيننا على شئون بعض الأمم الحاضرة . ومايجرى فيها مما أدت إليه حوادثها الماضية فذكرت لهم ماعندى فى ذلك وما أقيم عليه رأيى من مشاهدات . فى أيامى الخاليات فرأوا فيما ذكرت شيئا يستحق أن يذكر . ولاينبغى أن يهمل ويهدر . وزادوا على ذلك أن قالوا : إنهم يتمنون أن يروه منقولا إلى لغتهم مقروءا فى قومهم بلسانهم . ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجا فى سيرتى معروضا فى تضاعيف وصفى لمعيشتى . وما تنقلت فيه من أدوار . وما تدرجت إليه من آراء وأفكار مع إسناد كل شىء إلى سببه . ورد كل أمر إلى أصله(١٣٦) . وسألونى مع ذلك أن أكتب ماأعرف من نسبى . وماكان عليه بيتى ومنزلة أهلى من قومى ..

ولما تكرر الطلب فى هذه الصور المختلفة رأيت أن الإضراب عن الإجابة إغراق فى الخمول وتقصير فى احترام رأى لم يشبه رياء . ولم يحمل عليه إلا قوة الظن بالفائدة فى المطلوب .

ثم نظرت نظرة فى نفسى . وماكانت بدايتى . ومالاقيت فى تربيتى . ومانزعت إليه أثناء الطريق فى سيرى . وماانتهيت إليه فيما تأخر من أيام عمرى قسمت جميع ذلك إلى ماعليه الناس حولى . فوجدت اختلافا قد يسهو عنه الغافل . ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل .(١٣٧)

وبعد أن بيّن الأستاذ الإمام الأسباب التى دفعته لكتابة سيرته . ودعوته إلى حرية الفكر وفهم الدين على طريقة السلف . وإصلاح اللغة . والعلاقة بين الحاكم والمحكوم . وأسباب نجاحه فى بعض مادعا إليه . وأسباب إخفاقه فى البعض الآخر . بعد أن بيّن كل ذلك قال :

« لهذا رأيت أن أكتب مالاقيت . وأثبت ماصادفت من لدن عقلت منها على مافى من معايب . وعلى إحسان الله إلىّ فى بعض المزايا . وعلى علل الحوادث التى مررت بها أو مرت بى فى أطوار حياتى . غير أننى أبدأ بكلام قليل فيما يتعلق بما فى بيتى وهو مالا أعرفه إلا بالسماع من أهله كما لا يخفى » .

ثم حدثنا فى الفصل الأول عن والده ووالدته وأقاربه وجيران بيته وكان مما لفت نظرى فى هذا الفصل مايلى :

١ - وقر فى نفسى احترام والدى .

٢ - ماكان يواكل نساءه وأولاده فى تلك الأوقات إلا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية .

---

(١٣٦) المصدر نفسه . ص٩ ١٠ .

(١٣٧) المرجع السابق . جـ١ . ص١٠ .

وقد كان والد محمد عبده ينفرد بالطعام دون والدته وأخواته كما وضح لنا ذلك .
٣ – الدنيا عندى لم تكن أوسع من قرية محلة نصر .
٤ – فشا فيّ الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لايتعلقان بالثروة ووفرة المال[١٣٨] .
٥ – كنت أعقل من صغرى ماكان عليه والدى من ثباته فى عزيمته وشدته فى المعاملة وقسوته على من يعاديه ، وقد أخذت عنه ماعدا القسوة .
٦ – أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لاتنزل عن مكانة والدى ، وكانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء ، وتعد ذلك مجدا وطاعة لله وحمدا . ولم أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك فى نفسى إلى اليوم .
٧ – ولنا أقارب كثيرون يتصلون بنا من جهة النساء وبيوتهم من خير البيوت فى القرية .

هذا ماعرفته من حاضر بيتى فى أول أمرى ، وماطرأ عليه سيأتى ذكره فى سيرتى أما ماضيه فإنما أذكره حديثا عن أبى ورواية عن بعض من عرف شيئا منه ممن أثق به من ذوى قرابتى وغيرهم .

ثم حدثنا عن جده وأنه توفى عن أبيه وعمه بالهواء الأصفر الذى فتك بسكان القطر المصرى فى أواسط القرن الماضى ، ويقال أنه كان له قبل موته من بنى عمه وذوى عصبته نحو اثنى عشر رجلا وشى بهم واش عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ويقف فى وجوه الحكام فأخذوا جميعا وزجوا فى السجن ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتا .
٨ – كان جدى حسن شيخا بالبلدة وهو الذى بقى من البيت مع ابن اخيه إبراهيم .
٩ – هاجر والدى وعمى ومن معهما من البلدة ولجأوا إلى خال والدى الحاج محمد خضر[١٣٩]

وكان عمدة فى قرية صغيرة تعرف بكنيسة أورين من مركز شبراخيت ولكنه لم يستطع إيواءهم عنده خوف الاضطهاد ... فأخذهم خفية وسار بهم إلى مديرية الغربية عند أحد أقاربه فى قرية يقال لها « منية طوخ » بمركز السنطة ثم انتقلوا إلى قرية بجانبها تسمى شتراء وكان معهم من النقود مايسمح لهم باستئجار أطيان يعملون فى زراعتها .
١٠ – اشتهر والدى بالفتوة والبراعة فى الصيد بالسلاح ، وأحبه لذلك مصطفى أفندى المنشاوى ومحمد أخوه .
١١ – جددت الوشاية بوالدى ومن معه فأرسلوا إلى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك إلى أن يصدر الأمر فى شأنهم . ولم يزالوا فى السجن إلى أن توفى عباس فأفرج عنهم وعن غيرهم وبعد

(١٣٨) المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٣ .
(١٣٩) المصدر نفسه ، ص١٤ .

ذلك عاد والدى إلى مسقط رأسه فى أول ولاية سعيد ولم يجد شيئا مما كان يملكه أسلافه إلا جدران البيت مهدمة[١٤٠] .

١٢ - بيت والدتى بيت كبير فى بلدة تسمى حصنة شبشير يعرف ببيت عثمان كان كبيره إذ ذاك جدى ابراهيم عثمان الكبير فتزوج منه والدى وأخذ والدتى إلى شترا وفيها ولدت فى أواخر سنة خمس وستين بعد المئتين والألف من الهجرة ولم يولد له منها غيرى إلا بنتان إحداهما تسمى زمزم وهى بكرة وتوفيت قبل ولادتى ، والأخرى تسمى مريم وهى لم تمت حتى تزوجت وأنا فى آخر سنى طلب العلم .

١٣ - نسبنا ينتهى إلى جد تركمانى[١٤١] .

١٤ - أما بيت والدتى فيقال إنه عربى قرشى ، وإنه يتصل فى النسب بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولكن ذلك كله روايات متوارثة لايمكن إقامة الدليل عليها .

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الأنساب فى الإسلام . ثم تحدث الإمام عن ذلك .

١٥ - الكسل الملازم لطبيعة الإنسان كان يغلب جانب الاتكال على جانب الأسوة الحسنة[١٤٢] .

١٦ - أوصى على بن أبى طالب أن يعهد بجلائل الأعمال إلى أهل البيوتات الصالحة ، وذوى القدم[١٤٣] السابقة وجاءت سنة السلف شاهدة بأن للأنساب وتوارث الأحساب مظاهر فى أعمال الأشخاص وآثارا فى خصالهم ينبغى النظر اليها[١٤٤]

١٧ - أما التربية فإن كانت حسنة مهدت السبيل وأسرعت بتكوين الملكة الصالحة فى النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الأخلاق ... وإن كانت رديئة أماتت الاستعداد للخير ... وشأن التربية مع الاستعداد للرذائل ذلك الشأن بعينه[١٤٥] .

١٨ - صار الجهل بالأنساب عادة وبئست العادة[١٤٦]

١٩ - إن ماأسمعه عن بيت والدى ووالدتى إنما هو روايات فى أفواه الأهل والأقارب ومن يعرفهم من الناس قد يكون لها طريق إلى الصحة وقد تكون مما يخترعه الناس للتزيد فى الفضل

---

(١٤٠) المرجع السابق . جـ١ . ص١٥ .

(١٤١) المصدر نفسه ، ص١٦ .

(١٤٢) المصدر نفسه ، ص١٦ .

(١٤٣) المرجع السابق ، ص١٧ .

(١٤٤) المصدر نفسه ، ص١٨ .

(١٤٥) المصدر نفسه ، ص١٨ .

(١٤٦) المصدر نفسه ، ص١٩ .

غير أن ذلك يأتى فى الانتساب إلى قريش وعمر بن الخطاب أما فى الانتساب إلى أصل تركمانى فلا أظن ذلك يأتى ولهذا يترجح عندى جانب صحة الخبر ، ويؤيده مايرى فى أهل بيتنا من بعض الخصال التى لايشاركهم فيها من يجاورهم فى مساكنهم(١٤٧) .

* * *

نشأته وتربيته وطلبه العلم

كتب عن مبدأ تعلمه مذكرات أوضح فيها تعامه فى منزل والده ثم فى كتاب القرية ثم فى الجامع الأحمدى بطنطا ، وكيف أنه قضى فى هذا الجامع سنة ونصفا لا يفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم ، ولذلك هرب من الجامع واتصل بأحد أخوال أبيه واسمه الشيخ درويش(١٤٨) والذى اعتبره الإمام مفتاح سعادته حيث يقول : « تفرقت عنى جميع الهموم ولم يبق لى إلا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم أجد إماما يرشدنى إلى ماوجهت إليه نفسى إلا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهال إلى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد - هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة أحد أقاربى وهو الشيخ درويش خضر من أهل « كنيسة أورين » من مديرية البحيرة وهو مفتاح سعادته .

ثم تابع الإمام حديثه عن تعليمه حيث اتصل بالجامع الأزهر فى القاهرة ، وبالسيد جمال الدين وغيره من الشيوخ الأفاضل(١٤٩) ونلمح فى هذه السيرة العطرة نغمة التواضع الأليف إلى النفس فبالرغم من أعمال محمد عبده الجليلة نراه يقول : « إنى لم آت لأمتى عملا يذكر » لقد كان الرجل عالى الهمة طموحا يفكر فى أفق رحب ويرنو ببصره إلى عوالم لايدركها قصار النظر ولكنه لم يحقق كل آماله .

والغاية الخلقية واضحة فى السيرة ، ففى السيرة قيم روحية وطاقات معنوية تستأهل النظر مثل إحترام رأى الآخرين ، ولاسيما إذا لم يشبه رياء ، ولم يحمل عليه الا قوة الظن بالفائدة ، والاعتراف بما صاحب السيرة من معايب وبإحسان الله إليه فى بعض المزايا ، ومنها احترام الوالد ، والاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لايتعلقان بالثروة ووفرة المال ، وهكذا والغاية التاريخية أيضا واضحة فى السيرة حين تحدثنا عن بعض العادات الأسرية التى كانت شائعة فى القرن الماضى ، وعن أسرته وأقاربه وتربيته وتعليمه .

ولم يعرض محمد عبده هذه القضايا على طريقة السرد التاريخى الجاف بل كان يعرض الفكرة ممزوجة بالعاطفة مصورة أجمل تصوير فى نسق تعبيرى أخاذ من مثل قوله : وقت

---

(١٤٧) المصدر نفسه ، ص١٩ .

(١٤٨) المصدر نفسه ، ص٢٠ - ٢١ .

(١٤٩) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ١ ، ص٢٣ - ٢٥ .

أصرفه فى حكمة استفيدها خير من زمن أنفقه فى قصة استعيدها - ثم نظرت نظرة فى نفسى .

ولا يقتصر الأمر على استعمال الأسلوب الجميل فى العرض بل إنه أعمق من ذلك أنه يسند كل شيء إلى سببه ويرد كل أمر إلى أصله ، ومن هنا ينشأ تشابك الحوادث وتفاعلها.

وبذلك تحقق السيرة الذاتية عند الإمام غرضا ثالثا هو المتعة التى تنشأ عن طريق العرض الأدبى لموضوعه .

فنى سيرته وحدة البناء ، والإحساس بالتطور الزمنى ، والنظرة النفسية الفاحصة والتأريخ لآراء الإمام وأفكاره ، وسلوك الأسلوب التحليلى ، كما أن هذه السيرة تكشف لنا عن ملكة النقد عند الإمام فهو حين يذكر طرفا من أخبار أسرته لايطمئن إليه تراه يقول : ذلك كله روايات متوارثة لايمكن إقامة الدليل عليها » ويقول أيضا : إن ماأسمعه عن بيت والدى ووالدتى إنما هو روايات فى أفواه الأهل والأقارب ... الخ

ونستطيع بعد ذلك أن نذهب إلى أن المدرسة الفنية التى تنتمى إليها السيرة الذاتية عند الإمام هى المدرسة الأولى ذات الطابع الأكاديمى التى تقوم على التشريح والتحليل والتدقيق فى الاستنتاج هذا عن السيرة الذاتية ، أما حديث الإمام عن غيره والذى سنطلق عليه لفظ « ترجمة » فيتمثل فى حديثه عن جمال الدين الأفغانى والخديوى توفيق والوزير رياض ، والشريف الرضى .

إن السيرة قد تكون تعبيرا ذاتيا عن نفسية كاتبها ، وبعض الحماسة للعمل نفسه يبعث وقدة من الحياة فيه ، ولذلك كان من الطبيعى ألا يقبل الكاتب على أى سيرة فى الوجود[١٥٠] ولابد من التقلبات والأعاصير التى تجتاح حياة شخص ما لتجعل منها موضوعا صالحا للسيرة مثيرا لشهوة الاستطلاع[١٥١] على نحو ما فعل الاستاذ الإمام فى كتابته عن سيرة جمال الدين الأفغانى . فقد بيّن الإمام فى مقدمة الرد على الدهريينّ أن الذى دفعه للحديث عن جمال الدين إنما هو تخالف الناس فى أمره ، ثم بيّن السبب فى هذا التخالف وسلك فى بيانه طريقة الأدباء فكأن جمال الدين حقيقة كلية أو قوة روحية ، ينظر إليها كل إنسان بمنظاره الخاص .

وذكر الإمام أنه سيعرض مجملا من خبر جمال الدين وفى هذا توضيح لطريقته فى كتابة السيرة ، وذكر أيضا أنه سيعتمد فى ذلك على كمال الخبرة وطول العشرة وفى هذا بيان للمصادر التى اعتمد عليها فى كتابة السيرة .

واليك ما يقوله[١٥٢] الإمام فى كل ذلك :

(١٥٠) فن السيرة للدكتور إحسان عباس ، ص٨٠ .

(١٥١) المصدر نفسه ، ص٨١ .

(١٥٢) الرد على الدهريين ، ص٢ .

« حملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس فى أمره وتباعد ما بينهم فى معرفة حاله وتباين صوره فى مخيلات اللاقفين لخبره حتى كأنه حقيقة كلية تجلت فى كل ذهن بما يلائمه أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله والرجل فى صفاء جوهره ، وزكاء مخبره ، لم يصبه وهم الواهمين ، ولم يمسه حزر الخراصين ، وانا نذكر مجملا من خبره نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة » .

وفى هذا الحديث تطل عليك روح الإعجاب ، وتحس بعاطفة الحب يعرضها الإمام فى تصوير أدبى جميل فجمال الدين فى نظر محمد عبده حقيقة كلية أو قوة روحية ، وجوهر صاف .

ثم بدأ بالحديث عن بيت جمال الدين وأسرته ومحل اقامته وذكر أن آل هذا البيت عشيرة وافرة العدد لها منزلة علية فى قلوب الأفغانيين ، وأنه كانت لها سيادة على جزء من الأراضى الأفغانية تستقل بالحكم فيه وإنما سلب الإمارة من أيديها دوست محمد خان(١٥٣)

وتناول الحديث عن مولده فى قرية « أسعد آباد » من قرى كيز سنة ١٢٥٤هـ ، وانه انتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل ، وأنه فى الثامنة من عمره أجلس للتعليم وعنى والده بتربيته فأيد العناية به قوة فى فطرته وإشراق فى قريحته وذكاء فى مدركته فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها . تلقى علوما جمة برع فى جميعها(١٥٤)

أما وسيلة التعليم عند جمال الدين فيوضحها لنا الإمام حين يقول : أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة فى تلك البلاد وعلى ما فى الكتب الاسلامية المشهورة ، واستكمل الغاية من دروسه فى الثامنة عشرة من سنه ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فأقام بها سنة وبضعة شهور ينظر فى بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوروبية الجديدة(١٥٥) .

الأستاذ الماهر - الطريقة القديمة - الطريقة الجديدة --الرحلات - أربع كان لها أثر كبير فى تعليم جمال الدين ولاسيما تلك الأخيرة فقد أوقفته « على كثير من عادات الأمم التى مر بها فى سياحته واكتنه أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة(١٥٦)

ودخل فى سلك رجال الحكومة ، وفى عهد محمد أعظم ارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الأول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه فى العظائم وما دونها على خلاف

---

(١٥٣) المصدر نفسه ، ص٢ ، ٣ .

(١٥٤) المصدر نفسه ، ص٣ .

(١٥٥) المرجع السابق ، ص٤ .

(١٥٦) المصدر نفسه ، ص٤ .

ما تعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم ، وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين (١٥٧)

وواضح أن الأستاذ الإمام يرسم الآن صورة للبيئة السياسية التى عاش فيها جمال الدين وقد عرضها بيئة تتصارع فيها القوى على مراكز القوة كل قوة تحرص على أن تكون مقاليد الأمور بيدها ، وبيئة هذا شأنها لايمكن أن توصف بالاستقرار هى بيئة مضطربة تعلى أناسا وتخفض آخرين ثم تعود فترفع من خفضت وتخفض من رفعت وهكذا . وقد ذاق جمال ٪لدين من هذه البيئة حلوها ثم عادت فسقته العلقم والصاب ولهذا رأى خيرا له أن يفارق بلاد الأفغان فاستأذن للحج فأذن له ... فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥هـ ... ثم سار إلى السويس فجاء إلى مصر وأقام بها نحو أربعين يوما تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا اليه كل الميل ... ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر إلى الآستانة (١٥٨) .

وصل إلى الأستانة وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقاة الصدر الأعظم عالى باشا ونزل منه منزلة الكرامة ، وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله وهو مع ذلك بزيه قباء وكساء وعمامة عجراء ، وحومت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء ... وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم وبعد ستة أشهر سمى عضوا فى مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة فى آرائه وأشار إلى طرق لتعليم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الإسلام لتلك الأوقات حسن فهمى أفندى لأنها كانت تمس شيئا من رزقه فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧هـ فرغب اليه مدير دار الفنون تحسين أفندى أن يلقى فيها خطابا للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه ى اللغة التركية ، فألح عليه تحسين أفندى فأنشأ خطابا طويلا كتبه قبل القائه (١٥٩) .

وألقى الخطاب وكان فى تشبيه المعيشة الإنسانية ببدن حى ... ولا حياة لجسم الا بروح وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة (١٦٠) .

إلا أن حسن أفندى أقام من الحق باطلا ليصيب غرضه من الانتقام فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم أن النبوة صنعة واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة فى خطاب يتعلق بالصناعة . يقول الإمام وهكذا تكون حجج طلاب العنت ... فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات براءته مما رمى به ورأى أن ذلك لايكون إلا بمحاكمة شيخ الإسلام يقول الإمام

---

(١٥٧) المصدر نفسه ، ص٤ ، ٥ .

(١٥٨) المصدر نفسه ، ص٧ .

(١٥٩) المرجع السابق ، ص٨ .

(١٦٠) المصدر نفسه ، ص٩ .

وكيف يكون ذلك[١٦١] واشتد فى طلب المحاكمة وأخذت منه الحدة مبلغها وأكثرت الجرائد من القول فى المسألة ... وانتهى الأمر إلى أن فارق الآستانة مظلوما فى حقه مغلوبا لحدته وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها فى أول محرم ١٢٨٨هـ.

هذا مجمل أمره فى الآستانة وما ذكره سليم العنحورى فى شرح سفره المسمى سحر هاروث مما يخالف ذلك خلط من الباطل لا شائبة للحق فيه[١٦٢]

ولم يشأ الإمام أن يقطع سلسلة السيرة ليتحدث عن سليم العنحورى فاكتفى بهذه الإشارة العابرة ثم بعد أن فرغ من سيرة جمال الدين ذكر أن ما قاله العنحورى سبب الأسباب الذى دفع الإمام للحديث عن جمال الدين ثم ذكر ما نشره سليم العنحورى فى جريدة لسان الحال.

ومهما يكن من شيء فقد مال السيد جمال الدين إلى مصر وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصرى كل شهر نزلا أكرمته به ... واهتدى اليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فأورى واستفاضوا بحره ففاض درا وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية فى فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية طبيعية وعقلية وفى علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الإسلامى ، وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم ولم يذهب إلى الأزهر مدرسا ولا يوما واحد[١٦٣] .

إلا أن بعض المفسدين سعى فيه لدى الجناب الخديوى حتى غير قلب الخديوى عليه فأصدر أمره باخراجه من القطر المصرى سنة ١٢٩٦هـ وقام بحيدرأباد الدكن ، وفيها كتب رسالة « الرد على الدهريين » ولما كانت الفتنة الأخيرة بمصر دعى من حيدر أباد إلى كلكته ، والزمته حكومة الهند بالإقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وهدأت الحرب الإنكليزية ثم أبيح له الذهاب إلى أى بلد فاختار الذهاب إلى أوروبا وأول مدينة أصعد اليها مدينة لوندرة أقام بها أياما قلائل ثم انتقل عنها إلى باريز وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافيناه فى أثنائها ، ولما كلفته جمعية العروة الوثقى أن ينشيء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الإسلامية أيدها الله سألنى أن أقوم على تحريرها فأجبت ونشر من الجريدة ثمانية عشر عددا وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا مالم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه وذلك لخلوص النية فى تحريرها وصحة المقصد فى تجهيزها ثم قامت الموانع دون الاستمرار فى إصدارها حيث قفلت أبواب الهند عنها واشتدت الحكومة الانكليزية فى إعنات من تصل اليهم . ثم بقى بعد ذلك مقيما بأروبا اشهرا فى باريز وأخرى فى لندره إلى أوائل شهر جمادى

---

(١٦١) المصدر نفسه ، ص١٠ .

(١٦٢) المصدر نفسه ، ص١١ .

(١٦٣) المرجع السابق ، ص١١ ، ١٢ .

الأولى سنة ١٣٠٣هـ وفيه رجع إلى البلاد الإيرانية(١٦٤) ثم عرض لمذهبه الفقهى فقال(١٦٥) « أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى ، وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلدا لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضى الله عنهم وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه وعرف بذلك بين معاشريه فى مصر أيام واقامته بها ولا يأتى من الأعمال الا ما يحل فى مذهب إمامه فهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه . أما حميته الدينية فهى مما لا يساويه فيها أحد يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله » .

وأكبر الظن أن محمد عبده قد تأثر بمذهب أستاذه ولا أدل على ذلك من تركه للمذهب المالكى الذى درج عليه وأتباعه للمذهب الحنفى ، وقد يكون هناك أسباب أخرى لعدول الإمام عن المالكية إلى الحنفية إلا أننى أرى أن سير جمال الدين على مذهب أبى حنيفه يعد سببا جوهريا فى اتباع الإمام محمد عبده لهذا المذهب ثم إننى آخذ على الشيخ قوله : « أما حميته الدينية فهى مما لايساويه فيها أحد » إذ هذه مبالغة غير مقبولة .

أما مقصد جمال الدين السياسى فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفى مجده ، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار المشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية(١٦٦) .

ويبدو أن إعجاب محمد عبده بجمال الدين وغزارة معارفه لم يكن يقف عند حد فهو يضع جمال الدين فى المرتبة الثانية بعد الأنبياء بل انه يضعه على قمة هذه المرتبة استمع اليه وهو يقول(١٦٧) :

« أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى إلا بنوع من الإشارة اليها . لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقى اليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه .

وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها . ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لسن فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد الا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خاصم

(١٦٤) المرجع السابق ، ص١٤ - ١٥ .
(١٦٥) المصدر نفسه ، ص١٥ .
(١٦٦) المصدر نفسه ، ص١٥ - ١٦ .
(١٦٧) المصدر نفسه ، ص١٦ - ١٧ .

أحدا إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا جدله ، وقد اعترف له الأوربيون بذلك بعدما أقر له الشرقيون . وبالجملة فإنى لو قلت إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ولنا عدة ملاحظات على هذا المقطع :

١ – لم يعجبنى هذا التشبيه فى كلام الإمام :

– وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها .

فليس هناك وجهة نفسية بين المشبه والمشبه به .

٢ – لم يعجبنى قوله :

– وله لسن فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه »

فنحن مع تقديرنا لجمال الدين ولمحمد عبده لا نقر الإمام على هذه المبالغة لايلحقه فيهما أحد ، ونهمس فى أذنه لو كان حيا قائلين : فى الناس من لا تعرفه شيئا من التواضع ، وبعدا عن الغرور .

٣ – واستمع إلى قوله :

« فإنى لو قلت إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء »

أليست هذه مبالغة ؟ وإن حاول الشيخ أن ينفى عنها هذه الصفة .

يخيل إلى أن إعجاب الشيخ باستاذه لم يكن يقف عند حد وأن ذلك الإعجاب هو مصدر تلك المبالغات . أما حديث محمد عبده عن أخلاق أستاذه وصفاته الشكلية فممتع رائع يبدو فيه أدب محمد عبده وهو ينتقد أستاذه ، وتبدو فيه مهارة محمد عبده فى ربطه بين الصفات الشكلية والخلقية لجمال الدين فى وقت مبكر . يقول[١٦٨] محمد عبده عن أستاذه :

أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع إلا أن يدنو منه أحد يمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب ، وهو كريم يبذل ما بيده . قوى الاعتماد على الله لايبالى ما تأتى به صروف الدهر عظيم الأمانة سهل لمن لاينه صعب على من خاشنه طموح إلى مقصده السياسى الذى قدمناه إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان وهو قليل الحرص على الدنيا بعيد من الغرور بزخارفها ولوع بعظائم الأمور عزوف عن صغارها شجاع

(١٦٨) المرجع السابق ، ص١٧ – ١٨ .

مقدام لايهاب الموت كأنه لا يعرفه حديد المزاج وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة إلا أنه صار اليوم فى رسوخ الأطواد وثبات الأقناد(١٦٩) فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ لا يعد لنفسه مزية أرفع ولاعزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر وبالجملة ففضله كعلمه والكمال لله وحده .

فانظر إلى محمد عبده ينتقد فى أستاذه صفتين :

التعجل والحدة فيقول عن الأولى : وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان « ويقول عن الثانية : وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة » .

إنه يطلق الحكم ويرسله إرسالا ويأبى عليه أدبه مع أستاذه أن يوجّه الخطاب مباشرة اليه . إن فى هذا لأدبا وإيحاء يرضيان الذوق والفن معا .

أما الذوق فنى حسن أدبه مع أستاذه ، وأما الفن فنى التعبير الموحى إذ أنه أجمل من التعبير المباشر ثم يحدثنا محمد عبده عن صفات أستاذه الشكلية فيقول(١٧٠) « أما خلقه فهو يمثل لناظره عربيا محضا من أهالى الحرمين فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز حماه الله . ربعة فى طوله وسط فى بنيته قمحى فى لونه عصبى دموى فى مزاجه عظيم الرأس فى اعتدال عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين عظيم الأحداق ضخم الوجنات رحب الصدر جليل فى النظر هش بش عند اللقاء قد وافاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمال خلقه » .

وفى هذا التعبير الأخير ما يدل على أن الإمام كان يربط بين البناء الجسمى والبناء الخلقى ، ويرى أن للبنية أثرا فى أخلاق الإنسان وسلوكه .

وأخيرا يختتم الأستاذ الإمام حديثه عن جمال الدين بالدفاع عن بعض تصرفات أستاذه وفى هذا الدفاع يبدو محمد عبده المتحرر المنطلق ، ويبدو أن فريقا من المتزمتين أخذوا على جمال الدين توسعه فى إتيان بعض المباحثات فانبرى محمد عبده للدفاع عن أستاذ ، استمع اليه يقول(١٧١) « بقى علينا أن نذكر وصفا لو سكتنا عنه سئلنا عن إغفاله وهو أنه كان فى مصر يتوسع فى إتيان بعض المباحات كالجلوس فى المنتزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرح المحزونين لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار وكان مجلسه فى تلك المواضع لايخلو من الفوائد العلمية فكان بعيدا عن اللغو منزها عن اللهو ، وكان يوافيه فيها كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية ، وأهل العلم ، وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه ولكن الله يحب أن

---

(١٦٩) لعلها الأوتاد فالقند عسل قصب السكر إذا جمد .

(١٧٠) الرد على الدهريين ، ص١٨ .

(١٧١) المصدر نفسه ، ص١٨ - ١٩ .

تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، وأى غضاضة على المرء المؤمن فى أن يفرج بعض همه بما أباح الله له .

وفى نهاية المطاف يكرر محمد عبده ما ذكره سابقا من أنه يسلك طريق الإجمال لا التفصيل فى كتابته لتلك السيرة العطرة ، ويبين السبب الذى دفعه لتلك الكتابة فيقول[١٧٢] :

« هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الأفغانى أتينا به دفعا لما افتراه عليه الجاهلون ، ولو سلكنا فى تأريخه مسلك التفصيل لأدى بنا إلى التطويل » ثم يردف ذلك بما كتبه سليم أفندى العنحورى تخطئة لنفسه فيما نقله فى شرح سحر هاروت ، وإلى هنا تنتهى سيرة جمال الدين الأفغانى التى كتبها محمد عبده وعرض علينا مجملا من حياة أستاذه : اسرته ومولده ونشأته ، والحياة السياسية فى عصره ، وشيئا عن رحلاته وأثرها فى حياته وأثر السيد جمال الدين فى النهضة الأدبية والفكرية والسياسية بمصر بل فى العالم كله كما حدثنا عن مذهبه الفقهى ، ومقصده السياسى ومنزلته من العلم ، وتحدث عن أخلاقه ومزاجه ، وصفاته الشكلية ، وبين لنا السبب الذى حداه الى كتابة تلك السيرة العطرة ثم كان بارعا حين ختم سيرته بما كتبه سليم العنحورى تخطئة لنفسه فيما نقله فى شرح سحر هاروت .

سيرة توفيق :

ذكر الإمام من مناقب توفيق : العفة واللين والتحبب إلى الرعية ، وتعرف أحوالها بالسياحة فى المدن الشهيرة ، وبعده عن السرف ، واكتفاؤه من النساء بأميرة واحدة ، وترفعه عن ارتكاب ما كان يرتكبه غيره من الأمور الفاضحة .

وذكر نتيجة ذلك بقوله : فاجتمع له فى أنفس الرعية المحبة والمهابة ، وهما أقوى سند للحاكم ، وأشد ركن يعتمد عليه ، وهما البقية التى تحفز اليها الهمم ، وتحث نحوها العزائم ، وتطير دونها الرقاب ، والسعيد كل السعادة من الحاكمين من هيأ له القدر أن ينالها وذكر من سيرته فى حكومته اتفاقه مع نظارها وسائر كبارها على ما يخفف عن الرعية أثقالها ويرقى عقولها وآدابها . ويفتح أبواب السعادة فى المستقبل لها مع شدة تمسكه بحفظ مسنده ، وتقوية سلطته ، وأن هذا رفع قدره فى نظر الأجانب أيضا ، وأن الناس تناسوا بهذه السيرة ما أتاه فى أول حكومته من النفى بغير محاكمة ، والمسارعة إلى تعيين المراقبين من الأجانب ، واعطائهم الحقوق الواسعة ، وكادت تندمل تلك الجراح بالقاء تبعة الخطأ فيها على غيره[١٧٣] .

سيرة رياض :

عقد الأستاذ فى رياض فصلا وفاه فيه ماله وما عليه وقال : إنه استعمل غاية الرأفة فى

---

(١٧٢) المرجع السابق ، ص١٩ .

(١٧٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا . جـ١ ، ص١٨٢ .

الحكم عليه ، وأن الذى قد حمله عليه ضرورة بيان أسباب الفتنة القريبة ، وقد بدأ هذا الفصل بقوله :

رياض باشا خير من طبقته من المصريين بلا نزاع ، والمنازع فى ذلك مكابر ، وفيه من محامد الصفات مالا ينكره العدو المنصف ، ولكن يصحب هذه المزايا ما قد يؤاخذ عليه « ثم بين ذلك[١٧٤] وبيّن أيضا تأثير سيرة رياض باشا وشمائله فى مقدمات الثورة[١٧٥]

هذا ونلاحظ أن ترجمة الإمام لكل من جمال الدين وتوفيق ورياض تسير بنفس القوة والأسلوب فى ترجمته لنفسه ، وترتفع هذه التراجم الثلاث لتضع صاحبها فى صف أصحاب المدرسة ذات الطابع الأكاديمى التى تقوم على التشريح والتحليل كما ذكرنا ذلك سابقا .

وتحدث الإمام فى مقدمة نهج البلاغة عن الشريف الرضى فقدم موجزا من القول فى نسبه ، وطرفا من خبره فهو أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى ... الخ ولد الشريف الرضى فى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة واشتغل بالعلم ففاق فى الفقه والفرائض ، وبذ أهل زمانه فى العلم والأدب .

ثم روى الإمام عن صاحب اليتيمة ، وأبى حامد الاسفراينى ، وابن خلكان وغيرهم كثيرا من فضائل الشريف الرضى وقال : وفى رواية العلماء من مناقب الشريف الرضى مالو تقصيناه لطال الكلام ، وإنما غرضنا أن يلم القارىء بسيرته بعض الإلمام[١٧٦] .

وهذه الترجمة أقل من الوجهة الفنية من تراجم الإمام السابقة فلا تظهر فى هذه الترجمة النزعة النقدية ، وانما تتجه أكثر ما تتجه إلى ماقال القدماء عن الشريف الرضى فترجمة الإمام هذه لا تتجاوز إعادة ما كتب من قبل فى بيان إنشائى مفكك وحماسة مفتعلة ، وهذا اتجاه قديم فى كتابة التراجم كنا نود ألا يقع فيه الإمام بعد ما رأينا تراجمه السابقة الممتازة ، وكأنى بالإمام قد أدرك ذلك ، وأدرك قصور الترجمة ، فبين أن غرضه منها أن يلم القارىء بسيرة الشريف الرضى بعض الإلمام » وإن كان ذلك لا يعفيه من تبعة التقصير فى هذه الترجمة .

---

(١٧٤) المصدر نفسه ، ص١٨٣ - ١٨٥ .

(١٧٥) المصدر نفسه ، ص١٨٥ - ١٨٨ .

(١٧٦) مقدمة نهج البلاغة ، ص٦ - ٩ .

خامساً : أدب الرحلات وقصصها

نوع جديد من الأدب ابتدأكما يقول الأستاذ عمر الدسوقى [١٧٧] برحلة (ماركوبولو) الذى توفى سنة ١٣٦٤ إلى بلاد المغول ، وقد عاد إلى وطنه بعد عشرين سنة محملا بكنوز الشرق ، وأخذ يروى لأهل الوطن فى البندقية رحلته العجيبة فى تلك البلاد النائية التى لم تكن تعرف أوربا عنها شيئا ، وقد خلط الحقيقة بالخيال فسحرت ألباب النّاس وأخذ المؤلفون ينسجون على منواها ومن ثمّ انتشر هذا النوع الجديد الملىء بالأخبار المحوط بالغرائب والأسرار ، وجاء بعد ذلك اكتشاف أمريكا وغيرها وظهر (كولمبس) و(فاسكو دى جاما) وغيرهما وقويت روح المغامرة والمخاطرة بين النّاس ورأينا ذلك كله فى أدب العصر فقرأ النّاس روبنسن كروزو (لدانيل ديفو) وكتب سويفت ، رحلات (جليفر) إلى أرض الأقزام وبلاد العمالقة .

وكل هذه الكتب كانت امتداداً لرواية البطولة ولكن فى صور مختلفة ، وفيها حلّ النثر محل الشعر ، بدأت القصة إذا حكاية خيالية تروى الغريب الشاذ ولا تصوّر الواقع ، ومضت فى هذا الطريق عصورا طويلة فحينما تنحى كتاب القصة عن التقليد القديم وسرد أخبار الجبابرة والأبطال الذين يعلون عن مألوف الرجال سدوا الفراغ بتصوير الحوادث التى صوروها أجل تصوير كانوا يختارون لحكاياتهم أشخاصا من الحياة المألوفة بيد أنهم سلكوا هؤلاء الأشخاص فى طريق من الحياة لايشبه ما يسير فيه النّاس فكأنهم استبدلوا شذوذا بشذوذ ، وقد يختارون أبطال قصصهم أشخاصًا من سفلة النّاس يتسكعون فى الحانات ومباءات الفساد ، ومن الغريب أن مثل هذا التطّور فى نظر النّاس إلى البطولة ظهر كذلك فى الأدب العربى حين تقوضت أركان المجتمع على أيدى المماليك والاتراك ، ومنى النّاس بظلم الحكام وشراهة الجباة والرؤساء واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر فحارب بعضهم بعضا بالشطارة والحيلة وتقاتلوا على حطام الحياة بالخديعة والغيلة وتمضى عجلة الزمن حتى إذا كنّا على أبواب القرن التاسع عشر وجدنا النّاس لا ينظرون إلى القصص فى أوله على أنه أدب رفيع إلا ما كان من المقامات وأمثالها ، وإنما علا شأن القصة بعد أن احتك الشرق بالغرب ورأى المتأدبون أنها تحل فى الأدب الغربى أعلى منزلة ، ولذلك بدأ الأدباء فى هذا القرن يترجمون عن الأدب الغربى بعض القصص كما فعل محمد عثمان جلال [١٧٨] .

وكانت الخطوة الثانية فى تأليف الروايات على نسق ما يفعله الغربيون ، وربما كان أول قصة مصرية منشأة هى قصة (علم الدين) لعلى مبارك ، وقد ألفت حوالى ١٨٧٩م ، وطبعت

(١٧٧) دراسات أدبية ص١٥ وما بعدها الطبعة الثانية دار نهضة مصر .

(١٧٨) قصة الأدب فى العالم جـ٣ القسم الأول لأحمد أمين وزكى نجيب محمود ص٣٣٣

١٨٨٢م ، وكانت ضعيفة الحبكة الروائية ، قلل من الروابط منها ما كدسه من العلوم والمعارف ، وفاتته الدقة أحيانا فى وصف الشخصيات وتحليلها فهى على كل حال من أوائل القصص المصرية التى خطت الطريق للقصة من بعدها[١٧٩] .

وكان قد ساد فى أوربا القصص التاريخى فقلدّ كتاب العرب هذا النمط القصصى ، وإلى جانب القصص التاريخى وضعت قصص أخرى كانت تهدف إلى الحث على الفضيلة ، وتجنب الرذيلة وبجانب ذلك كانت الروايات التمثيلية فكان لها نصيب فى إحياء فن القصص ، وبدءوا كذلك بتمثيل روايات إفرنجية بعد تعريبها كما فعل مارون النقاش من تمثيل رواية البخيل لموليير .

وفى عهد اسماعيل بنيت دار الأوبرا (١٨٦٩) ومثلت فيها للمرة الأولى فرقة فرنسية فكان هذا لافتا لأنظار بعض الأدباء أن يعنوا بالتمثيل العربى على نمط التمثيل الأوربى[١٨٠] .

كانت هذه هى النظرة السائدة لفن القصة فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ويبدو أن كتاب هذه الحقبة كانوا يعدون أدب الرحلات فرعا من فروع القصة فإن الأستاذ الإمام محمد عبده حين يحدثنا عن رحلته إلى جزيرة صقلية يراها ضربًا من القصص إذ يقول : لا أكتب أسطرى هذه للأفاضل من أهل الفن ، فإنهم أعلى من أن يستفيدوا من قراءة أمثال هذه القصص وهذا المفهوم لفن القصة كان معروفًا فى أدبنا العربى القديم فقد كان يقال لمن يروى الحكايات والقصص والنوادر « الاخبارى » ولقد حوت جعبة الإخباريين فى مختلف عصور العربية صورا من الحياة الاجتماعية تمثل نفسية الأمة العربية ، وتجلوا نظراتها إلى غرائز النفوس وقيم الأخلاق ، وأسباب المعاش[١٨١] .

ومهما يكن من شيء فإن رحلة الإمام يمكن أن نطلق عليها قصة بهذا المفهوم بل يبدو أن هذا المفهوم كان ماثلا فى ذهن الإمام كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، وقد كان هدف الإمام من ذكر الأحداث والمشاهد إحدى اثنتين إمّا العبرة وإمّا الفكاهة كما يقول هو نفسه ونلمح أيضا من خلال تعبيراته سخريته من بعض الأوضاع والتصرفات فهو يقول مثلا :

يقال أن العرب كانوا فى زمن النرمنديين متمتعين بحرية تامة ... وإن كان هذا الملك قد هدم مساجد كثيرة ... الخ ومن الفكاهة الممزوجة بالسخرية قوله : يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه أن يفسد شيئا من عمل من سبقه فكل منهم يقوم بما رآه واجبا عليه .

ومن مشاهد الفكاهة قوله : اجتمعت علينا من الصغار والنساء صفوف أو زحوف جلبتهم علينا تلك العمامة وصاحبتها الجبة . « ثم يعرض صورة ضاحكة ساخرة لمن يحاول تحصيل ملكة اللسان بأسلوب غير قويم حيث يراه : يفنى عمره وهو لايزال يضرب برجليه فى أول الطريق » .

(١٧٩) المرجع نفسه ص٣٣٤

(١٨٠) المرجع نفسه ص٣٣٥

(١٨١) أبو حنيفة الدينورى ومدرسته فى الأدب والنقد للسيد تقى الدين ص٣٨٣

وكذلك حينما يتحدث عن أحد الكتب وقد طبع فى المانيا وكان الأجدر به أن يطبع فى مصر يقول الإمام : ولعل ذلك يكون إن شاء الله متى ساوى المصريون أهل المانيا فى اهتمامهم باللغة العربية ونفائسها .

وحينما يتحدث عن ضرورة تعلم لغة أجنبية لمن يريد السفر إلى الخارج يقول : وأجرة الأستاذ المعلم لاتصل إلى نصف ما يخسره ببركة الجهل باللسان وعندما يشير إلى الكسل فى إيطاليا فيقول :

وهذا ضرب من الكسل فى أداء الحقّ ونوع من البطء فى العمل لا تجده حتى فى مصر حرسها الله » . وهكذا فضلا عما فى هذه الرحلة أو القصة سمها كيف شئت من مبادىء النقد الأدبى من مثل قوله : إن الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى ... ومثل قوله : إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك .

ولعله من الأوفق أن نقدّم إليك طرفا من هذه الرحلة التى تحتوى على نفائس ثمينة نقلنا لك بعضها ، وتركنا البعض الآخر ننقلها لك من تاريخ الأستاذ الإمام تحت عنوان :-

باب الرحلات العلمية والتاريخية
فصل من رحلة الأستاذ الإمام الأخيرة
إلى أوربه وجزيرة صقلية وتونس والجزائر
سنة ١٣٢١هـ ١٩٠٢ م دون فيها مارأى
فيه الفائدة والعبرة من الآثار العربية فى
بلرم عاصمة جزيرة صقلية

بالرم - صقلية

يحدثنا الإمام فى هذه الرحلة عن خطة سفره ، وعن رغبته فى أن يزداد علمًا عن طريق الرحلات ، ويعرض علينا بعض مشاهداته فى مدينة بلرم فيحدثنا عن قصر الملك فى بلرم وكنيسته فيقول :

لاحاجة بى إلى وصفه فإن ذلك من شأن صاحب جريدة أو سائح يطلب اظهار البراعة فى حسن الوصف وسعة العبارة وغاية ماأقول إنه قصر ... كسائر قصور الملوك ... مما تنفق فيه الأموال بحساب وبغير حساب . ولاشىء منها من كدّ الملك أو الأمير ، وإنما هى من أموال الرعية وكسب الحفاة العراة الذين لايجدون مابه يستترون ويشتهون لو أنفق على جدران أبدانهم وأركان أجسادهم جزء من المليون مما أنفق على حيطان تلك القصور ... ماأنا بذاكر شيئا من

وصف ذلك الغنى فى بلد الفقر ، ولكن أذكر مارأيت فيه ممايحب الشرق أن يطلّع عليه إمّا لعبرة وإمّا لفاكهة .(١٨٢)

ثم عرض لشيء من تاريخ الكنيسة والملك روجير النرمندى إلى أن قال : يقال إن العرب كانوا فى زمن النرمنديين ممتعين بحرية تامة فى إقامة شعائر دينهم وتصرفهم فى شئونهم وإن كان هذا الملك قد هدم مساجد كثيرة لنقل أعمدتها الجميلة إلى الكنائس(١٨٣) .

كذلك حدثنا بما شاهد فى خزينة الجواهر ، وأحد بيوت القصر الذى يحوى صور نواب الملك فى عهد البربرون بعد النرمنديين . وماكان للعرب من أثر فى صناعة هذا البلد وآثاره وعن كنيسة (كاتيدرال) وكان مما قال عنها : وأصل هذه الكنيسة الكبرى مسجد باق على ماهو عليه حتى بابه الخشبى الجميل ، غاية مافى الأمر أنه زيدت فيه الصور والتماثيل ، وعن دير سانت جوانى وأن أسفل الدير كان مسجدا فلما جاء النرمنديون حولوه إلى كنيسة بناها راجار إلى أن قال : يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه أن يفسد شيئا من عمل من سبقه فكل منهم يقوم بما رآه واجبا عليه .(١٨٤)

وهكذا يمضى الإمام السائح فى عرض ما شاهده فى الرحلة حتى إنه ليقول : واجتمعت علينا من الصغار والنساء صفوف أو زحوف جلبتهم علينا تلك العمامة وصاحبتها الجبة(١٨٥) .

كذلك تحدث عن كنيسة « موريالى » وعن تساهل العرب حيث لم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ممن كان يهدم مساجدهم ، ويخرب معابدهم ، فحيا الله أيامهم ، لاجرم أن الإسلام عربى وأحق النّاس برعايته ، والوقوف عند حدوده بعد فهم حقيقته هم العرب فأين هم ؟ ... إنما يكون القوم أولئك القوم إذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم فإن كان لم يبق إلا أشباح تشبه أشباحهم فليسوا بهم فلى الحق أن أقول عن العرب فأين هم(١٨٦) .

وتحدث عن دير الكبوشيين ومدرستهم ومقبرتهم فى بلرم ، وفيه بحث الدعوة إلى الدين وإحياء اللغة فحدثنا عن الراهب جبرائيل ماريا الكبوشى وهو من حلب وتعلم العربية فى بيروت ، وقد ذهب إلى إيطاليا ليخدم دينه ويعلم العربية وهنا يذكر الإمام دينه فيقول : ماكان أحوجنا إلى إنشاء ضرب من التعليم خاص بمن يكلف إرشاد من يسىء إلى الدين باسم الدين ، ومن يهدم شرف الدين بعمل ينسبه إلى الدين ؟

ألا يحق لنا أن نطالب من أولئك الذين صعدت بهم ألقاب الرئاسة الدينية إلى أسمى المنازل أن يفكروا فى هذا الأمر ... فإن فى تقوية جانب الدين تقوية لمساندهم ، وفى تبصير العامة

(١٨٢) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص٤٧٤

(١٨٣) المرجع نفسه ص ٤٧٥

(١٨٤) المرجع نفسه ص ٤٧٦

(١٨٥) المرجع نفسه ص ٤٧٧

(١٨٦) المرجع السابق ص ٤٧٨

بشئون الدين تمكينا لحرمتهم فى نفوس الدهماء ... وأن نزيد عليه مطالبتهم بالنظر فى إنشاء فرع لتعليم مايلزم لنشر الدين بين بقية الأمم إن كانوا يعتقدون أن دينهم هو الحق فإن السكوت عن الدعوة إلى الحق رضاء بالباطل . أولئك الملوك والأمراء الذين لافضل لشىء عليهم فى تمتعهم بملكهم ، واخضاع رعاياهم لسلطانهم مثل فضل الدين ، لم لايقتطعون شيئا من مالهم وقطعا من زمانهم ينفقونها فى الاشتغال بإحياء روح الدين (١٨٧) ثم يقول : ماأحوج كل عربى إلى تعلم مايحتاج إليه من لغته لكن ماأشق العمل ، وماأوعر الطريق وماأكثر العقبات فى طريق العربى الساعى فى تحصيل ملكة لسانه . يفنى عمره وهو لايزال يضرب برجليه فى أول الطريق . أفلا نشعر بالحاجة إلى تقريب المطالب وتيسير المذهب فى تحصيل ماتدعو إليه الحاجة من لغتنا حتى نستطيع فهم ماأودع فيها من النفائس ، والتعبير بها عما نجد فى أنفسنا ، ونحب أن نسوقه إلى بنى لغتنا على وجه صحيح ، وبأسلوب فصيح ؟ ألم يأن لنا أن نرجع إلى المعروف مما كان عليه سلفنا فنحيا بما كان قد أحياهم ، وتركماابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم ؟ (١٨٨)

وكانت للإمام جولة فى المكتبة العمومية ودار المحفوظات طلب فيها فهرس الكتب العربية فجىء إليه بدفتر صغير جدا يحتوى على نحو خمسين صفحة يقول الإمام : « ولم يرعنى عند تصفحه إلا كثرة مافيه من كتب الأدعية والصلوات كأنه فهرس خزانة لشيخ من مشايخ الطريقة الخلوتية أو مكتبة السادات البكرية ... وفيها قطعة من شرح ابن رشد على مدونة الإمام مالك رضى الله عنه وكتاب فى السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام إلا إنه لا يمكن قراءة سطر واحد من تلك السيرة لأن خطوطا قد جرت على السطور بعناية غريبة حتى عمت الحروف الأصلية ، وحجبت حقيقتها عن النظر مع سلامة الظاهر من التشويه فعجبت لذلك وسألت عن السبب فقيل لى : إن قسيسا من أهل القرن الثامن حمله التعصب على أن يأتى إلى المكتبة ويطلب الكتاب بحجة أنه يريد قراءته وكان يعرف العربية حق المعرفة فسلم إليه فصنع يده ذلك حتى يصد النّاس عن مطالعة مافيه . وقد فعل مثل ذلك بمصحف من المصاحف ، وزور كتبا كثيرة أفسدها ، وقد انكشف للحكومة حاله فحوكم وصدر الحكم عليه بالحبس مدة عشر سنين فى رواية ومدة خمس عشرة سنة فى رواية أخرى (١٨٩) ... والكتاب الفرد الكامل الذى رأيته فى المكتبة هو كتاب النخل لأبى حاتم السجستانى ، وهو صغير فى نحو ستين ورقة بخط ضيق مضبوط صحيح ، قرأت منه عدة صفحات ، ونقلت منه عدة فقرات فى تفسير قوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » الخ . ومما نقلته فى ذلك قول أبى حاتم

(١٨٧) المرجع نفسه ص ٤٨٠

(١٨٨) المرجع السابق ص ٤٨١

(١٨٩) المرجع نفسه ص ٤٨٣

رحمه الله » ومما كرم الله به الإسلام وكرّم النخل أنه قدر جميع نخل الدنيا لأهل الإسلام فغلبوا عليه وعلى كل موضع فيه نخل ، وليس فى بلاد الشرك منه شئ ، فرحم الله أبا حاتم ما كان أبعده عن صحة الحكم فى طبائع العمران ، وإن كان من أفضل أهل السير وأجل علماء اللغة ، والكتاب مفيد فى اللغة وهو بخط مشرقى تاريخ نسخه شهر جمادى الآخر سنة ٣٩٤هـ وقد بلغنا أنه طبع فى ألمانيا ، وكان الأجدر به أن يطبع فى مصر ، ولعل ذلك يكون إن شاءالله متى ساوى المصريون أهل ألمانيا فى اهتمامهم باللغة العربية ونفائسها[٢٠٠] .

(حاجة السائح إلى معرفة اللغات وأيها أنفع)

ومن الأمور التى لا أجد بدا من نقدها أن موظفى هاته المكاتب لا يعرفون من اللغات إلا الإيطالية وكان رفيقى يترجم بينى وبينهم ... لكن بعد انصرافه وقعت فى وحشة يزيدها لزوم الصمت وعدم الفائدة فى الكلام وضيق الصدر عند إرادة الاستفهام عما يراد فهمه ولا يوجد السبيل إليه إلا من طرق الإشارة . ولايخفى عليك أن الإشارة إنما تصلح للإفادة والاستفادة من الأخرس إذا كنت والدة له على مافى المثل « أم الأخرس أعرف بلغته .[٢٠١] إذا كنت لاتعرف لسان القوم الذين تنزل فيهم يجدونك طعمة أو هبة من الله سيقت اليهم ... وغاية مايمكنك فعله أن تتنفس الصعداء ... وفى ظنى أن من أراد أن يسافر إلى بلد لا يعرف لسانه فأولى له أن يتعلم من لسان ذلك البلد مايكفيه للتعامل ومدة سنة قبل السفر تكفى لذلك وأجرة الأستاذ المعلم لا تصل إلى نصف ما يخسره ببركة الجهل باللسان[٢٠٢] .

ثم يحدثنا الإمام عن سوء سلوك الحمالين عند ساحل صقلية بالنسبة للقادم اليها فيقول : عند وضع قدمه على ساحل صقلية يجتمع عليه الحمالون والمرشدون المضلون ويتجاذبون متاعه وثيابه[٢٠٣] ... وجدت أن الذى يعرف الإنجليزية أسعد حظا فى فرنسا ممن يعرف الفرنسية فى انجلترا فإنك لاتجد نزلا فى البلاد الفرنسية إلا وفيه كثير من الخدم الذين يعرفون الإنجليزية . سألت عن السبب فى ذلك فقيل أن أهل فرنسا قلما يسيحون فى بلاد الإنجليز . أما الإنجليز والأمريكيون فيملأون سهول فرنسا وجبالها ، ويدهشون بالذهب صغارها ورجالها فاضطر الفرنسى إلى ترويج الإنجليزية فى بلاده لتعجب الزائرين وليستكثر من الزائرين[٢٠٤] ... أفلا يحملك ذلك على تعلم اللسان الايطالى إذا أردت السفر إلى سيسيليا وأن لا تصدق مايقال لك من أن معرفة الفرنسية تكفيك الحاجة فى كل بلاد أوربا ؟

(٢٠٠) المرجع السابق ص ٤٨٤

(٢٠١) المرجع نفسه ص ٤٨٦

(٢٠٢) المرجع نفسه ص٤٨٧

(٢٠٣) المرجع نفسه .

(٢٠٤) المرجع السابق ص ٤٨٨

مسينا ومقبرتها

وفيها مكان شامخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم (٢٠٥) وقد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الأشجار لأنه فى خضرة دائمة وحياة مستمرة كأن أرواح من يموت تنتقل إليه بعد مفارقة الأجساد فهو لايزال دائم الحياة فى الصيف وفى الشتاء والخريف والربيع (٢٠٦) .

(صخب الصقليين وتسولهم وكسلهم)

أهل مسينا من أهالى سيسيليا وسيسيليا هى جزيرة صقلية التى ملك فيها العرب نحوا من مئتى سنة ... وقد ترك العرب آثارا فى البلاد ... ومنها كلمات فى لسانهم كثيرة كالشروق للريح الشرقية ... ولا أظن أن الصياح والصخب الذى اختص به أهل سيسيليا يكون من ميراث العرب رحمهم الله ... وأمّا الإهمال والكسل فلا أدرى هل هو من طبيعة البلاد أو من ميراث تركه بعض السلف من الفاتحين ؟

ويل لك إذا عرفت بأنك غريب .... ثم تجد النّاس فى الساحات وقوفا أو جوّالين لايدرون ماذا يعملون . (٢٠٧) ... وهذا ضرب من الكسل فى أداء الحق ونوع من البطء فى العمل لاتجده حتى فى مصر حرسها الله (٢٠٨) .

(رثاثة الصقليين ووساختهم ومقابلتهم بالمصريين)

ومما يلفت النظر هنا قول الإمام :

١ – إنى الآن لا أكتب كتابا فى علم الكلام ، ولا أكتب أسطرى هذه للأفاضل من أهل الفن فإنهم أعلى من أن يستفيدوا من قراءة أمثال هذه القصص (٢٠٩) .

٢ – إن الإرادة السليمة والطبيعة المستقيمة يمكنها أن تميّز الملح النظيف من الوسخ وتعتنى بتقديم النظيف إلى الضيف من أول الأمر بدون احتياج إلى اصدار أمر ، وقس على ملح الطعام بقية الأملاح كالنحو ملح العلم ، والعلماء ملح العالم ، وهكذا كل ما يحتاج اليه فى إصلاح الأغذية بدنية كانت أو روحية دنيوية كانت أو دينية . وأما إذا كنت لاتميّز ولا تفهم إلابأمر فتربص حتى يأتى الله بأمره والله شديد العقاب (٢١٠) .

---

(٢٠٥) المرجع نفسه ص ٤٨٩

(٢٠٦) المرجع نفسه ص ٤٩٠

(٢٠٧) المرجع نفسه ص ٤٩٢

(٢٠٨) المرجع نفسه ص٤٩٣

(٢٠٩) المصدر السابق ص٤٩٥

(٢١٠) المصدر نفسه ص٤٩٦

(دور الآثار وبساتين النبات)

لا تبخس أهل سيسيليا (صقلية) حقهم فانهم فهموا مسألة لا بأس بفهمها ... وهى المحافظة على الآثار القديمة والجديدة ... حفظوا لبس امرأة مسلمة من مسلمى صقلية وهو زى يشبه الأزياء الأوربية مع ساتر للوجه ، يدل على أن ستر الوجه كان عامّا حتى فى صقلية أيضا ، وإن كان ذلك قد يغضب قاسم بك أمين فإنه يجد له أضداداً فى مسلمى أوربا فضلا عن مسلمى آسيا وأفريقيا(٢١١) .

وبالرغم من أن الإمام يرى فى مثل هذا الأدب أنه لون من ألوان القصص فأنا أميل إلى الحاقه بأدب الرحلات ، وليس هذا النوع من الأنواع الأدبية بالهيّن فإنه على اختلاف الطابع والألسنة والأزمان تمثل كتابة الرحلات بابّا من أبواب الأدب عرفته لغات الحضارة شرقا وغربا ، ويجمع إلى أسلوب الوصف ، وصنوف التعبير الوجدانى ، قيامه مستندا مهمّا لشطر من الزمن فى صقع من الأرض ، ما أحوج الأجيال إلى معرفته لأن كتب الرحلات مثل التراجم ، مثل كل ما أبقاه الدهر على صفحات الصخر ، ركائز مهمة للمؤرخ والجغرافى والفيلسوف ، حتى لو كتبت بأسلوب تقريرى بارد .

وكلما تعاقبت القرون على كتب الرحلات ثقلت وزنا ، ونفقت بضاعة ، حتى لو انطوت على مبالغات ، وحشدها أصحابها بالخرافات والأساطير.

ولكن إذا ما سلمنا بهذه الأهمية لأهل الاختصاص ، فإننا لايمكن أن نسلم لها بقيمتها كأدب بعينه إلا حين تعدل عن الأسلوب التقريرى ، وتنفعل بالأحداث والأشخاص والآثار ، بل وكل ما يعرض له كاتب أصيل من صغائر الأمور وكبائرها ، على أن تشعر بالنفحة الإنسانية ، والهيمان الروحى ، فيما يكتب سواء نحى الكاتب الى التفلسف ، أو عمد إلى الديباجة الشعرية ، والأسلوب الرومانتيكى ، فالمهم أن ينقلنا من واقع لم نشهده أو شهدناه إلى مايراه هو ، وينفعل فى أعماق وجدانه ، وما تثير فيه لحظات رحلته على نحو ما فعل الإمام لقد انفعل بتاريخ العرب والمسلمين فى بلرم وانتقد ما انتقد من العادات والتقاليد . إن من متطلبات كاتب الرحلات : حدة البصر ، فهذا إنسان يعبر بأصقاع جديدة ، يرى ما فيها لأول مرة ، وربما لآخر مرة أيضا ، والانطباع الأول يجب أن يلتقط بسرعة ، وأن يختزن فى الذاكرة . والنّاس على اختلاف فيما يرون : الفيلسوف يتأمل ويربط ما يراه بمجموعة من التأملات قد يخرج منها بفكرة جديدة ، والشاعر يتأثر بما أعدته له شاعريته ، بالحسن أينما وجده ، أو بالطرافة ، أو باستيحاء التاريخ أو بمعنى الحياة مأساة أو مهزلة ، تبعا لشيطانه . أمّا الدقة فى الوصف ، والاستغراق فى التفاصيل فهى من متطلبات المستكشف ، والعلامة

(٢١١) المصدر نفسه ص٤٩٧

الباحث دون أن تنتقى قدرتهم – إن وجدت على الديباجة الجميلة ، والأسلوب الرائق ، بيد أنه مهما تغيّر أسلوب المتسلق الأول لقمة جبل شامخ ، أو المرتاد لواحد من القطبين فإن لما يكتبه قيمة تقريرية علمية .

أما رحالة الحاضر الذى يصف لنا ذهابه لحجز مكان بالباخرة أو الطائرة وساعة القيام وما وقع له من تأخير طائرته ، أو ساعة الوصول ، وما حدث لحقيبته فى الجمرك ، فإن دقة تفصيله تغنى عن تفاهة ما يكتبه حتى لو حرره بأبلغ عبارة الا أن يرى فيما وقع له معنى من معانى الحياة على نحو ما صنع الأستاذ الإمام فى رحلته .

سادساً : الحكمة

حينما نلقى نظرة فاحصة على تاريخ الإمام تطالعنا حقيقة لا تقبـــل الشك أو الجدل تلك هى حكمة الإمام واتزانه فقد كان صمام الأمان فى الثورة العرابية فلما انفجر اندفعت الحوادث بقوة كقوة السيل لا تبقى ولاتذر ، وقد كان صمام الأمان فى كل عمل تولاه لأنه كان يكره الطفرة فى الأعمال ويؤمن بالتدرج الطبيعى . ولعل مما قوى هذه النزعة فيه دراسته المستفيضة للمنطق ، وبصيرته النافذة .

ولقد مّر بتجارب عديدة أكسبته حنكة ومرانة فكان إذا تكلم انعكست تجاربه على كلامه فيجىء موزونا بميزان العقل الكبير والخبرة المتأصلة ، والمعرفة العميقة ، فيضع كل لفظ فى مكانه ، وكل فكرة فى نصابها ينطق فكره عن صواب ، وتأتى عبارته ترجمة عما يؤمن به ويعتقد ، فليس بعجيب أن تعد الحكمة إحدى فنونه الأدبية وقد جاءت أضواء من هذه الحكمة فى تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الثانى ، ونجتزىء منها هنا بما له مساس بموضوع الأدب والنقد ، ولكن ترى ونحن يعنينا من الإمام بلاغته هل نقل حكمه عن غيره أو كان أبا عذرتها ومفترع طريقها ؟ والأرجح أنه نقل ولكن بأسلوبه المعجب المطرب نقل ما ألبسه ثوبا جميلا من حوكه ، وقد يقل الإبداع فى الأفكار وهى تأخذ من نفسك بما ألبست من حلة شائقة يتعذر على كل أحد محاكاتها كالطعام الجيدّ تتألف مواده من أشياء يعرفها النّاس وقلّ أن يحسن تحضيرها إلا طاه رفيق يركّب فيها كل شىء على مقادير معلومة فتأتى طيبة فى المذاق .

ولقد كان الإمام يرى أن حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظامًا ، أو يدفع فسادا خاصًا كان أو عامًا لو كشف للعقل من أى وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا ، يقول الإمام : ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه إلى أوضاع اللغة وبداهة العقل (٢١٢) .

وأيما كان الأمر فإن حكم الإمام تكشف عن عقل حصيف وفكر ثاقب ، وهذه الحكم تكشف لك عن أهم الجوانب الاجتماعية التى شغلت ذهنه ومارسها عمليا ، واستطاع أن يخرج من هذه الممارسة وتلك التجارب بقانون عام هو ما يطلق عليه فى عالم الأدب « فن الحكمة » .

فنى عالم الثقافة والفكر والأدب والنقد ترى الإمام يذهب الى أن « العلم ما يعرفك من أنت ممن معك » وأنه « ما وعظك مثل لائم ، ولا قوّمك مثل مقاوم » (٢١٣) .

ومن شؤم بلادى أن لا أجد فيها من استفيد منه . وتمنيت لو كان كل النّاس أعلم

---

(٢١٢) رسالة توحيد ص٥٥

(٢١٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص٦٤٢

مني[٢١٤] . وفهم كتاب الله يأتي بمعرفة ذوق اللغة ، وذلك بممارسة الكلام البليغ منها .

إن لكلام الله أسلوبًا خاصًا يعرفه أهله ومن امتزج بلحمه ودمه[٢١٥] .

المعارف الشكية عرضه لإيقاع الإنسان فى الخطر[٢١٦] .

وقال فى وصف كلام بليغ سمعه أشخاص ولم يستعدوا له :

هذا شيء سهل على أرباب العقول الساذجة البسيطة ولكن صعب على كل عقل تعلم البنانى على السعد[٢١٧] .

مهما بلغ الإنسان فى العلم لايسلم من هاجس فى نفسه يثبطه ويقول له « استرح » ولكن العاقل لايركن اليه .

ومما قاله فى نصيحة بعض طلاب العلم :

على الطالب إذا خلا بنفسه أن يفكر كثيرا فى المعانى التى يرومها وفى طريقة تعلمه وتعليمه ، وفى مقصده وغايته[٢١٨] .

إن قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية وركن من أركان اليقين فلا بدّ من تحصيله[٢١٩] .

لا وحشة فى النفس كوحشة الجهل ، وكلما علم الإنسان شيئا أنس به وسرّ .

الشعر إذا لم تكن ألفاظه آخذه بجزء من روح الشاعر فليس بشعر .

ترك الاشتغال بدقائق الفصاحة والبلاغة والبراعة موت للحياة العقلية[٢٢٠] .

وفى الميدان الاجتماعى تراه يذهب الى :

١ - أن أشد أعوانك الحاجة اليك .

٢ - ومن لاصديق له فهو عدو نفسه وعدو النّاس .

٣ - وحسبك من الصديق أن ينصرك بقلبه .

٤ - أقوى شروط النجاح قوة العزيمة فيه وأن يصر الإنسان على الفوز بغرضه . إذا تضعضعت العزيمة ضاع نجاحه وهذا شأن المسلمين الآن .

٥ - لايشتهر الإنسان فى شيء إلا إذا وصل فيه إلى حد يعجز عنه الكثيرون .

---

(٢١٤) المرجع نفسه ص٦٤٣

(٢١٥) المرجع نفسه ص٦٤٤

(٢١٦) المرجع نفسه ص٦٤٥

(٢١٧) المرجع نفسه ص٦٤٦

(٢١٨) المرجع نفسه ص٦٤٧

(٢١٩) المرجع السابق ص٦٤٩

(٢٢٠) المرجع نفسه ص٦٥٠

سابعاً : الشعر

كان الشعر قبل النهضة الحديثة ، وفى أوائلها بادى الضعف ، شديد الهزال ، وربما كان ضعفه وهزاله أظهر من ضعف النثر وهزاله ، لأن الشعر فن جميل يعتمد على الجمال أكثر مما يعتمد على الحقائق ، فإمّا أن يكون جميلا وإمّا أن يكون عدمه خيّرا من وجوده ، أما النثر فقد يكون وسطا ويكون مع ذلك مقبولا .

وقد كان الشعر فى أوائل القرن التاسع عشر يجرى على سنن الأقدمين من حصر نفسه فى الغزل والمديح والهجاء وشىء من الوصف . ولكنه يختلف عن شعر الأقدمين فى أنه حفظ الشكل وفقد الروح .

وربما مثّل هذا الدور السيد اسماعيل الخشاب (المتوفى ١٨١٥) والشيخ حسن العطار (المتوفى ١٨٣٤) والسيد على الدرويش (المتوفى ١٨٥٣) فى مصر .

فهؤلاء الشعراء كانوا فى الأغلب شعراء للأمراء يهنئونهم بالأعياد ، أو يؤرخون حادثة من أحداثهم كبناء قصر أو ولادة مولودأو موت عزيز عليهم أو نحو ذلك . وقد يشعرون لأنفسهم أو لأصدقائهم وهو ما يسمى بالإخوانيات ، وشعرهم فى هذا كذلك مصنوع لا مطبوع .

فقد يكون شيخا من شيوخ الدين لم يقع قط فى أسر عشق ثم يتغزل لايقصد من غزله إلا أن يحاكى ضربّا من ضروب الشعر الذى جرى عليه القدماء حتى لقد يتغزل فى غلام أو يصف الخمر ، وهو آمن لأن النّاس قد ثبت فى أذهانهم أن الشعراء يقولون مالا يفعلون[٢٢١] .

ولم ينل الأدب من عناية الأمراء العلويين ما نال العلم فظل الشعر على ندرته كما كان فى العصر الماضى أسير التقليد والصنعة ، ثم أدركته نفحة من الهبّة العامة فى عهد اسماعيل فتردد ذكره على ألسنة شعرائه وندمائه كالسيد على أبى النصر ، والشيخ على الليثى ، وأخذت هذه الحركة تطرد بالإقبال على أمهات كتب الأدب الباقية ، والرجوع إلى منابع الشعر الصافية ، وكان البارودى أول من أقام عمود الشعر ، وجدد دارس القريض ، فترسم خطى الفحول من شعراء العبّاسيين وحاكاه الناشئون من شعراء العصر ، وابتغوا الوسيلة إلى ذلك بحفظ المختار من أشعار الجاهلين والإسلاميين ، فأخصبت القرائح ، وأدركت السلائق ، وصحت الأذواق ، وجرى الشعر جزل اللفظ محكم النسج ، متين القافية ، مشرق المعانى ، متخففا من أثقال البديع وأوزان الصنعة ، ثم نزع الشعراء إلى الاستقلال والحرية والتجديد بتأثير الحضارة الأوربية ، وتعلمّ اللغات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ، وقصدوا إلى اكتناه النفوس وتحليل

---

(٢٢١) قصة الأدب فى العالم جـ٣ القسم الأول لأحمد أمين وزكى نجيب ص٢٩٣

الأشخاص ، وتعليل الأشياء ، ومناجاة الطبيعة ، وحاد أكثرهم عن الأساليب العتيقة (٢٢٢) كالاستهلال بمقدمة خارجة عن الموضوع فى الغزل أو غيره تحتاج الى تخلص ، ونظروا إلى القصيدة كلها كأنها كائن حى تتساعد أجزاؤه على غرض معين ، ونفروا من الأغراض القديمة كالمدح والفخر والهجاء والمجون ، لتغير البيئة واختلاف التربية ، وجرت ألسنتهم بالمعانى العامة كرثاء مجد مفقود ، وانتقاد عيب موجود ، وطلب استقلال منشود ، ولكن تقدّم الشعر فى الجملة كان أبطأ من تقدّم النثر لأن الثقافة العلمية فى مصر أسبق من الثقافة الأدبية ، ولأن الشعر لا يزال من ضروب الكمال التى لاتعد فى وسائل الكسب ، ولاتدخل فى صميم الحياة (٢٢٣) .

كانت أهم أغراض الشعر هى ما ذكرنا آنفا ، أما شعر القلب فلا تعثر عليه ، وأمّا شعر يعرض لوصف الحياة الاجتماعية أو بؤس الشعب ، أو صرخة من ظلم ، أو مناداة بعدل فغير موجود لأن السلطات لم يكن صدرها يتسع لذلك ، والشعراء أنفسهم ليس لهم من الثقافة العالمية ولا من المركز الاجتماعى ما يؤهلهم لعشق الحرية أو التغنى بجمال الطبيعة أو نحو ذلك مما خاض فيه الشعراء بعد .

حتى إذا كانت النهضة وتقدمنا بعض الشىء ، بدأ المطلعون على الآداب الغربية يتأثرون بها ، ويقتبسون منها ، ومن أمثلة ذلك محمد عثمان جلال المولود سنة (١٨٢٩) ، فقد درس بعض اللغات الأوربية فى مدرسة الألسن ، وتدرج فى الوظائف الى أن كان قاضيا ، وقد ترجم عن الفرنسية رواية بول وفرجينى كما ترجم قصص لافونتين شعرا بتصرف ونشرها فى كتاب اسمه (العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ) . وكان جلال شاعرا مطبوعا خفيف الروح ، وربما وضع من شعره عند من أرخو الشعر ونهضته أنه كان سهل الأسلوب متدفقه لايكثر من التأنق وكثيرًا ما جنح إلى العامية (٢٢٤) .

ومع هذا كله فلم يكن تقدّم الشعر طفرة ، وإنما كان تدرجا ، فقد تنقل من محافظين إلى مخضرمين إلى أحرار مجددين (٢٢٥) .

ثم خلقت المدنية والظروف الاجتماعية الشعر السياسى والاجتماعى . نعم كان هناك شعر سياسى فى العصور الأولى كالذى نراه فى شعراء الزبيريين والأمويين وغيرهم ولكن كانت له صفة خاصة لاتتصل بالشعوب وحرياتها ، وانما يتجه إلى الانتصار للقادة ومن بيدهم زمام الأمور ، فلما نشأت المدنية ، واحتك الشرق بالغرب ، وطمعت أوربا فى استعمار الأمم الشرقية

(٢٢٢) تاريخ الأدب عربى لأحمد حسن الزيات ص٤٩٠
(٢٢٣) المرجع نفسه ص٤٩١
(٢٢٤) قصة الأدب فى العالم جـ٣ القسم الأول ص٢٩٦
(٢٢٥) قصة الأدب فى العالم جـ٣ القسم الأول لأحمد أمين ومكى نجيب ص٢٩٧

تيقظ الوعى القومى يدافع هذا الطمع ، حتى إذا كان الاحتلال وجدت النزعة إلى الاستقلال فكان الشعراء يمثلون دورهم فى هذا الباب ، وكان الشعر السياسى بهذا المعنى . وكذلك كان الشأن فى الشعر الاجتماعى فقد أخذ الشعراء يحسون آلام الشعوب وعللها وآفاتها كما كان من أثر تقليد الشرق للغرب اتجاه الشعراء إلى الشعر التمثيلى تقليدا لما عند الأوربيين(٢٢٦) . هذا من ناحية الموضوع ، أمّا من ناحية الأسلوب والأوزان والقوافى فقد كانت روح المحافظة أشد مما كانت فى الموضوع ، فحوفظ على الأوزان والقوافى إلا فى القليل النادر ، وأكثر ما يظهر الميل إلى الأوزان القصيرة ونشوء القصيدة التى لا تلتزم قافية واحدة بل تتعدد قوافيها فى المقطوعات المختلفة ، وقد حاول بعضهم تقليد الشعر الفرنجى بانشاء الشعر المرسل ، ولكنها كانت حركة لم يكتب لها الانتشار ورقى الأسلوب من ناحية جزالته ، وتأثره بشعر الفحول من القدماء ورغبة الشعراء عن الافراط فى أنواع البديع وميلهم إلى قربه من أذهان الناس بوضوحه وجماله الفطرى(٢٢٧) .

وتنابذ الأدباء حول تعريف الشعر ، فنهم من ضيّق التعريف حتى قصره على الشعر الاتباعى الذى يحكى شعر العرب منذ الجاهلية إلى العصر الحديث عصر البارودى واسماعيل صبرى وشوقى وحافظ ومطران وولى الدين يكن ، ومنهم من وسع التعريف ليشمل شعر المدرسة الحديثة سواء سمى هذا الشعر طلقا أو حراً أو اقتصر على تسميته بالشعر الجديد كناية عن تميزه عن الشعر القديم بالعصرية والجدة .

ولا مشاحة فى أن التوفيق بين هذين المذهبين أمريكاد يكون محالا لأن الأولين ينكرون على أبناء المدرسة الجديدة شاعريتهم ،ويقولون إن بهازيفا جوهريا لأن الشعر إن خلا من الوزن والقافية فقد صار أبعد الكلام عن جنّة الشعر الفيحاء(٢٢٨) ، أمّا الآخرون فإنهم يرون أن الشعر شعور ونبضات وانفعالات ،وأن كل ما يصدر عن العاطفة شعر وإن اضطربت عباراته أو أرسل إرسالا وهم يرون أن القوالب الشعرية القديمة أغلال رسف فيها الشعر ردحًا من الزمن ، وأنه لايصح الالتزام بها فى وقت اتسعت فيه التعبيرات الشعرية حتى عزّ عليها أن تستوعب فى قوالب يضبطها وزن وتنظمها قافية .

وقد يقال إن هذا تجديد ، ولسنا ننكر الدعوة إلى التجديد ولكن التجديد ينبغى أن لايقضى على خصائص الشعر الأصيلة وإلا عدّ شيئا آخر للمرء أن يسميه نثرا مشعورا أو شعرا منثورا أو مرسلا ولكنه لن يكون شعرا بالمعنى الذى عرفته اللغة العربية والأدب العربى فى تالد مجدهما(٢٢٩) .

---

(٢٢٦) المرجع نفسه ص٢٩٨

(٢٢٧) المرجع السابق ص٢٩٩

(٢٢٨) قضايا الفكر فى الأدب المعاصر لوديع فلسطين ص١٥

(٢٢٩) المرجع نفسه ص١٦

إن الوزن والقافية دعامتان فى الشعر لاسبيل إلى هجرهما أو التحايل عليهما ، والشاعر الخلاق المبدع لا تستعصى عليه قافية ، ولايجد مشقة فى حفظ الأوزان ومراعاة الجرس (٢٣٠) .

فى ضوء هذه الحقائق التاريخية والفنية نريد أن ننظر إلى فن الشعر عند الإمام .

يبدو أنه كان إذا أراد الشعر صنعه بيد أنه لم يشغل به نفسه لانصرافه إلى النثر ، والواقع أنه ما كان يستطيع من الشعر إلا ما يذكر مثله من مثله .

لقد نظر الإمام إلى الشعر نظرة فيها الفهم والتذوق والفن فالشعر عنده أحد الفنون الجميلة كالرسوم والتماثيل ، ينقل إليك أحوال النّاس فى شئونهم المختلفة ، وأحوال الجماعات فى المواقع المختلفة يصوّر الإنسان أو الحيوان فى حال الفرح والرضا والطمأنينة والتسليم ، وفى حالة الجزع والفزع والخوف والخشية .

الإمام يؤمن بوحدة الفنون الجميلة من حيث الغاية والهدف وان اختلفت طريقة الاداء فى كل فن فإن الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولايسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولايرى .

الرسم شعر ساكت يقدّم لك الحقائق الفنية التى تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك . والفنون الجميلة فى نظر الإمام يكمل بعضها بعضا ، وتتعاون جميعا على ابراز الحقائق الفنية ، ومن هنا كانت دعوته إلى ضرورة العناية بالمتاحف ودور الآثار لأن حفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها . لقد ثارت هذه الحقائق وتلك القضايا فى ذهن الإمام حينما كان فى زيارة صقلية وشاهد آثار القوم ومدى عنايتهم بها فانطلق يقول :

إذا كنت تدرى السبب فى حفظ سلفك للشعر وضبطه فى دواوينه ، والمبالغة فى تحريره خصوصًا شعر الجاهلية ، وما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ، فإن الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولايسمع (٢٣١) . إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية ، يصورون الإنسان أو الحيوان فى حال الفرح والرضا ، والطمأنينة والتسليم . وهذه المعانى المدرجة فى هذه الألفاظ متقاربة لايسهل عليك تمييز بعضها عن بعض ، ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا يصوّرونه مثلا فى حالة الجزع والفزع والخوف والخشية . والجزع والفزع مختلفان فى المعنى ، ولم أجمعهما ههنا طمعا فى جمع

---

(٢٣٠) المرجع السابق ص٢٠

(٢٣١) تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا جـ٢ ص٤٩٨

عينين فى سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولايسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ، ومتى يكون الجزع ، وما الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك ، وأمّا إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك إذا نزعت نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك : ريت أسدا تريد رجلا شجاعا فانظر إلى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسدا فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها ، إن كنت فهمت من هذا شيئا فذلك بغيتى ، وأمّا إذا لم تفهم فليس عندى وقت لتفهيمك بأطول من هذا ، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المفلقين ليوضح لك ما عرض عليك إذا كان ذلك من ذرعه(٢٣٢) .

هذا وقد حفظ لنا التاريخ قصيدتين منسوبتين للإمام إحداهما يكاد الإتفاق ينعقد على صحة نسبتها اليه وهى قصيدته فى الثورة العرابية ، والثانية أبيات قالها فى مرض الموت ، وهى موضع شك فريق من الباحثين.

ويقول رشيد رضا عن القصيدة الأولى : (٢٣٣)إن الإمام لم ينظم الشعر قبلها ولابعدها إلا تلك الأبيات التى قالها فى مرض موته ، وقد قال لى إذ أنشدنى إياها إننى قلت شعرا فى هذه الأيام كأننى لا أقول الشعر إلا فى المرض أو السجن « يشير إلى هذه القصيدة » .

وقعت لنا نسخة من هذه القصيدة فيها غلط وتحريف وتصحيف فما عرفنا أصله باليقين صححناه ومالم نعرف أصله تركناه وهى :

مالى يعنف قلبى من تقاضيه ... دهر يبالغ فى عجب وفى تيه
أبيت ليلى كملسوع تساوره ... زرق الأفاعى وقد شدت أياديه
الجسم فى ألم والروح فى قلق ... والقلب فى فزع من خوف آتيه
وما ذنوبى لدى دهرى سوى شمم ... يأبى الدنايا وأفكار تضاهيه
سريت للمجد هونا غير ذى عجل ... على أساس من التقوى أراعيه
مجدى بمجد بلادى كنت أطلبه ... وشيمة الحر تأبى خفض أهليه
وإذ أحسّ عداة الفضل مشبتنا ... قاموا على قدم هيا نناويه
فأوقفونى شهورا فى مقاومة ... نجوت منها بعزم هيب ماضيه
وازددت بسطة جاه لم يهن بها ... سوى مضيم ومظلوم أنجيه

(٢٣٢) المرجع نفسه ص٤٩٩

(٢٣٣) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص١٥٠

أنزلت نفسى مقاما لايخف به — الا الفضائل تعلوه فتعليه
وقمت للحق أجلو من مطالعه — نورا وكان غمام الظلم يخفيه
وأبرز الفكر كنزًا من جواهره — وزيّن النطق باهيها بحاليه
وصحت بالظلم لاتطرق مغانينا — رياض راعى وعقلى من حواريه
فخرّ كل غشوم واجفا صعقا — وأرتج كل ظلوم خيفة «الهيه»
وأسهر الليل طرًا فى مطالعة — ونثر در لتبيان أوفيه (٢٣٤)
أنعم به من سهاد كنت آلفه — وأبغض الشمس تنئى عن وصاليه
وكان لى أمل فى وضع قاعدة — لكل نوع من الأعمال تحويه
ويؤخذ القوم طرا فى مناهجهم — ولا يجوز عن المشروع أوفيه
حتى يكون نظامًا كل سيرهم — بمقتضى الالف من فهم يزكيه
ويأخذ العلم والتهذيب مأخذه — من النفوس فتزهو من دراريه
ويصبح العدل طبعا فى جبلتنا — ويشهد الكون أنّا من مواليه
وتستقل بلادى فى حكومتها — ونمنع الترك مفروضًا نؤديه
ويشمل الخصب أنحاها بجملتها — ويثرى القطر قاصيه ودانيه
نقضى ديونا ونغشى من ينازعنا — بصوت فضل يرج الكل داويه
هذا سبيلى خبيت السير فيه على — رغم الأنوف من البله المعاتيه
ماكنت أسعى لنفسى فى مصالحها — جزءا من الألف من سعى لأنهيه
وكنت أنجح قومى فى مكالمة — مع الرئيس لاخلاص بتنويهى
وتنهض العزم أقوالى ولاعجب — شراب حق وروح الفضل ساقيه
أقاوم الصعب فى سيرى فأخضعه — ولاحسام ولا رمح أرويه
وإنما الفكر يغنى نفس صاحبه — عن الجيوش إذا صحت مباديه
وبينما أنا لاه فى محادثتى — مع المعالى أقول الأمر «مافيه»
قامت عصابات جند فى مدينتنا — لعزل خير رئيس كنت راجيه
ذاك الذى أنعش الآمال غيرته — وخلص القطر فارتاحت أهاليه
قاموا عليه لأمر كان سيدهم — يخفيه فى نفسه والله مبديه
كان الرئيس حليف العدل منقبة — وسيد القوم يهوى الجور يأتيه
جرّوا مدافعهم صفوا عساكرهم — نادوا بأجمعهم سل ماترجيه
فنال مانال وانقضت جموعهم — أمّا النظام فقد دكت مبانيه

(٢٣٤) لازمة من لوازم رياض عند الغضب .

ثعالب الشر هبت من مراقدها ... وأفسدت من قوام العدل باقيه
تفلت الحكم من أيد مدبرة ... وصار فوضى شتيت الناس يجريه
مانوا أمانى تبكينى وتضحكنى ... حرية ونظام الشورى عاليه
حديثهم صخب أسرارهم لجب ... لاعقل لافهم أين النجح نبغيه
أمّا سبيلى فقد سدّت منازعه ... طبعًا وعزّ صعودى فى مراقيه
رجعت أجرى على خوف لمبدئه ... أناد قومى تعالوا لا نعاديه
فعنفونى وراموا خفض منزلتى ... فقلت لاتعجلوا هذا مرائيه
وعجت أسأل ماذا فى حقائبكم ... هل ثمّ فكر وفكرى لا يوافيه
هزّوا الرءوس جوابا أى نعم معنا ... سياسة السيف فيها الفصل نقضيه
قولولت مهجتى حزنًا على وطنى ... وقلت خطب لعلى أن أجليه
وصغت من كلمى شمساتكاشفهم ... هذا المصاب الذى حلت مرازيه
فأنكر الجهل ضوء الشمس ضاحية ... وظلمة الغى وارت ماتواريه
لووا رؤوسهم عجبا بقوتهم ... واستكبروا النصح أن يصغوا لصافيه
مزجت بالهزل جدى علّ يعجبهم ... كوالد الطفل يلهيه بمرضيه
وأعجم القول طورا فى مناصحتى ... كساحر امّ مصروعا ليرقيه
وعندما حقت البلوى أشرت لهم ... هذا الخراب فقدوا قدّ باغيه
فلم يصيخوا وعجوا فى محاضرهم ... قولا هراء بلا فعل يماليه
ولم يزالوا حيارى فى ترددهم ... حتى دهاهم أبو الهيجا بداهيه
وشبّ حربا صلاها من بنى وطنى ... من لا يهاب المنايا أن تغشيه
وسح كل غنى ماء ثروة ... كما همى دمع عينى من أماقيه
وعج كل فقيه فى تضرعه ... كما تفطر قلبى من عواديه
والمسلمون وكل القبط فى نهج ... مع اليهود كأن لادين يأويه
نادوا بأجمعهم هذى مواطننا ... وطارق السوء فيها لاتخليه
وبينما الظفر معقود بوحدتهم ... مال الأمير لأمر كان ينويه
واستدبر الجيش واستدعى لحضرته ... زعيم عسكره يبلو مغازيه
وقال أقدم فلا حرب ولا حرب ... فليصرف الجيش فورا لا تبقيه
قرابه الريب وانهارت عزائمه ... إذ كان جيش العدا بالثغر ماليه
وخالف الأمر واستعصى بقوته ... وناصب الشرمولى القطر واليه
وصار جيش العدا جيشا لحاكمنا ... وقوة الملك تحمى وجه عاديه

فانحل عقد نظام كان ملتئما　　وبدد الرأى وهم كان يوهيه
هذا وهذا إلى ماكان من دخل　　فى أنفس من كبار الجند تطويه
وزاد فى الضعف ضعفا أن قوتنا　　ناس يرى ضبطهم صعبا تلافيه
وقائد الجند شهم فى مكالمه　　أشلّ قلبا إذا الهيجا تناديه
يستطلع الرأى والتدبير فى حلم　　من المنامات جلّ الله هاديه
ما كان أحسنه شيخا بزاوية　　يغشى النساء بوعظ كان يمليه
أمّا البلاد فواغمى لحالتها　　لم يبق فيها سوى أمر وتنبيه
واستنزفت طلبات الجند ثروتها　　واستأسد الذئب واشتدت عواديه
حكام أريافها هاضوا بأجمعها　　واستنفروا من فقار الظهر شوكيه
مهاجرو الثغر زادوا فى مصائبها　　قوم جياع وباع العقل شاريه
ماذا أحمل نفسى فى مداركتى　　هذا البلاء بتخفيف يسرّيه
أظل يومى وأمسى فى مناضلة　　مع الأهالى لدى من هم مراميه
وسقت من منطق جيشا أروع به　　قلب الكمى فألهيه وأدهيه
حوائج النّاس هالات على قمرى　　وليس فى النّاس إلا قائل هيه
وينجح الجد منى فى وقايتهم　　وتقشع الظلم مذعورا طواغيه
ولاجزاء أرجيه سوى ألم　　يلم بالقلب والإنجاز يشفيه
والنّاس قسمان قسم همه نشب　　وآخر همه العلياء تطريه
وبينما النّاس أحزاب وأغلبهم　　من المنيقين يشدو باسم مسميه
ساق النظام على الأشتات عسكره　　فصبّح التّل طودا من سواريه
منا قتيل ومنّا هائم جزعا　　قلبى الجريح فهلاّ من يداويه
فى موقع الشرق كانت شر هزمتهم　　والشرق ضأن وذئب الغرب راعيه
وقائد الجند وافانا بلحيته　　يسيل رعبّا وثوب العار كاسيه
وسلّم السيف واستجدى بغفلته　　عفوا من الحنق المعزو خديوه
تخوف الذلّ فاستدعى مطيته　　ركضا إليه فوافاه موافيه
(٢٣٥)

....

تنكرتنى وجوه كنت أعرفها　　تعد لئم نعالى غاية التيه
تيقن العزم أنى لو برزت له　　أخرجت من ضغنه أخزى مخازيه
فهاض فى قزم من ضل سحنته　　يبغى مغالبتى كلا ساقعيه

(٢٣٥) حذفت من هذا الموضع بضعة أبيات محرفة الأصل معظمها فى طعن سلطان باشا .

حجبت عنهم وعصبى غير محتجب ... صل يصلصل والأقدار تمليه
بنى الزمان لهم بيتا وشيده ... وليس يبقى على مالست أبقيه
نعم له معنا فيهم مداركة ... فيهم أجرهم من صنع أيديه
هذا الزمان زحمناه فذل لنا ... لكن به صرف عيب كنت أدريه
وأحفظ الدهر أنى لا أشاكله ... فيما تبطن من غش وتمويه
أحارب الدهر وحدى ليس ينفعنى ... إلا الثبات وحسبى من أصافيه
تعلّم الدهر منى كيف يطعننى ... فخاب ظنا وخانته مزاكيه
وليس يعجزنى عن كسر فيلقه ... إلا المنايا تفاجينى فتحميه
إن المنايا سهام الله سددها ... وليس يخطىء سهم الله مرميه(٢٣٦)

وهذه القصيدة تصوّر لنا نفسية الإمام وهو فى السجن فى حالة هياج نفسى وعصبى ، وقد كتب الإمام وهو فى السجن رسالة كان يشيع فيها نفس الشعور الذى يشيع فى هذه القصيدة وأفكار الإمام التى أودعها فى هذه القصيدة تعرّض لها أيضا فى حديثه عن أسباب الثورة العربية فليس هناك مايدعو إلى إنكار نسبة القصيدة إلى الإمام .

وأيّا كان الأمر فإن القصيدة تصوّره فى حالة صراع مع الدهر ، وأن الدهر كان أقوى من الإمام الذى أصبح كملسوع تساوره زرق الأفاعى ولاحول له ولا قوة قد شدّ وثاقه ، وأنه يعانى من آلام الجسم والروح والقلب ، ثم يبحث عن الذنب الذى اقترفه حتى يحيق به هذا العذاب فلا يجد سوى الشمم والإباء ، لايجد سوى أنه طلب المجد لنفسه ولبلاده فقاومه أعداء الفضيلة ، ولكنهم لم يتمكنوا منه بل نجا منهم بعزيمته التى لا تقهر ، وازداد بسطة فى الجاه والمنزلة ، ومناصرة الحق والفكر الحر ، ومقاومة الظلم يعينه فى ذلك رياض وأنه انتصر على أعدائه .

ثم عرضت القصيدة لمنهج الإمام فى الإصلاح ذلك المنهج القائم على احترام القانون والنظام والعلم والخلق والعدل ، وأن من ثمار هذا المنهج الاستقلال والحرية ونماء الثروة الوطنية .

وأنه رجا أن يستعين برياض فى تحقيق هذا المنهج ، وقد غالب الصعاب فغلبها بفكره ورأيه .

كان هذا شأنه قبل الثورة العرابية ، وبينما هو يمضى فى طريقه قامت عصابات الجند ونادت فيما نادت به بعزل رياض ، فقضت على النظام والعدل وأشاعات الفوضى ، وأن أمانيهم كانت تضحك الإمام وتبكيه .

حديثهم صخب أسرارهم لجب ... لاعقل لافهم أين النجح تبغيه

(٢٣٦) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ س١٥٠ – ١٦٥

وأن قيام الثورة قد سدّ طريق الإصلاح القائم على الفكر ، وأحلّ محلّه سياسة السيف ، الأمر الذى أحزن الإمام ، ، وأخافه على وطنه فحاول أن يثنى الثوّار ويقنعهم بالعدول عن الثورة ولكن بدون جدوى ، ولجّ الثوّار فى طغيانهم وقام صراع داخلى استنزف ثروات البلاد وهبت الأمة عن بكرة أبيها تدعو إلى وحدة وطنية وكادت تتم لولا خيانة الخديوى ، ووجود جيش العدو بالثغر ، وماكان فى أنفس بعض كبار الجند من دخل ، أضف إلى ذلك جبن عرابى وضعفه .

وعلى كل حال فقد قامت الحرب بيننا وبين الإنجليز وانتهت بالاحتلال ، وعمّت الفوضى وأجدب الوادى .

إن الإمام لم يقصر فى القيام بواجبه فنصح للأمة وبذل فى ذلك جهده وطاقاته ، وحين غشيت الغاشية تنكر النّاس للإمام ، وغلبه الدهر ولكن عزم الإمام مازال قويا ، وأنه لن يستسلم بل سيقاوم ولن يلقى السلاح إلا إذا لفظ أنفاسه الأخيرة .

وأنت ترى أن عاطفة الإمام فى هذه القصيدة جيّاشة بحب الوطن ومقت أعدائه وعدم الاستسلام للهزيمة ولو كان وحده فى المعركة . وقد مزج الإمام أفكاره السابقة بعاطفته عن طريق التصوير الأدبى فالدهر يبالغ فى عجبه ، والإمام ينام كالمسلوع تساوره زرق .. الأفاعى وقد شدّت أياديه – وأنه أبرز الفكر كنزا – وسهر الليالى ينثر در البيان وقاوم الصعب – وأن رياض انعش الآمال – وكان حليف العدل – وأما النظام فقد دكت مبانيه – وأن الثّوار هزوا الرءوس – وأن سياستهم السيف وأن كلم الإمام شمس – فأنكر الجهل ضوء الشمس – وظلمة البغى وارت ماتواريه وأن الثّوار لووا رءوسهم عجبا – وأنه مزج بالهزل الجد علّه يعجبهم كوالد الطفل يلهيه بمرضيه – وأن القوم أعجموا فى مناصحته فكان واياهم كساحرامّ مصروعا ليرقيه – فلم يسمعوا حتى دهاهم أبو الهيجا –

وشب حربًا صلاها من بنى وطنى من لايهاب المنايا أن تغشيه
وسح كل غنى ماء ثروته كما همى دمع عينى من أماقيه

والظفر معقود بوحدتهم – وانهارت العزائم وانحل عقد النظام ... وهكذا .

ونرى الإمام قد عمد إلى الخيال التفسيرى القائم على التشبيه والاستعارة والكناية ولكنه أجاد فى استخدام صوره إذ جاءت وثيقة الصلة بعاطفته مترجمة عن فكره .

وقد تدفق التعبير أيضا مع الفكر وذلك الشعور فجاء النسق التعبيرى مواكبا لها فحديث الإمام عن سجنه تناسبه كلمات : يعنف – ملسوع تساوره زرق الأفاعى وقد شدّت أياديه – وكلمات : ألم وقلق وفزع وخوف وعلو همته وسعيه للإصلاح تناسبه كلمات : شمم مجد – عزم – بسطة جاه – فضائل – الحق – الفكر – النظام – العلم – العدل – الاستقلال – الخصب – أقاوم الصعب – الفكر يغنى نفس صاحبه – الحديث مع المعالى .

وقيام الثورة العرابية تناسبه كلمات : جند - عزل - جرّوا مدافعهم - صفّوا عساكرهم ثعالب الشر هبّت - تفلت الحكم - حديثهم صخب .

ومعارضة الثوار للإمام تناسبها كلمات : عنفونى - راموا خفض منزلتى - هزّوا الرءوس لووا رءوسهم - صفت من كلمى شمسا تكاشفهم - أعجم القوم فى مناصحتى - لم يصيخوا حيارى فى ترددهم - شب حرّبا .

ودعوة الإمام للوحدة الوطنية تناسبها كلمات : سح كل غنى ماء ثروته - عج كل فقيه فى تضرعه - المسلمون والقبط واليهود فى نهج - نادوا بأجمعهم - الظفر معقود بوحدتهم . وحديثه عن بوادر الخيانة يناسبه : مال الأمير لأمركان ينويه - فليصرف الجيش فورا - رابه الريب - جيش العدا بالثغر . ومخالفة عرابى لأوامر الخديوى يناسبها : خالف الأمر واستعصى بقوته - ناصب الشر .

ونتائج الصدام بين الخديو وعرابى يناسبها : انحل عقد نظام .

- وسوء رأى الإمام فى عرابى وضباطه يناسبها دخل فى أنفس كبار الجند - قواتنا ضبطهم صعب - قائد الجند شهم فى مكالمة - أشل قلبا فى الهيجا - يستطلع الرأى فى الحلم - يصلح شيخا بزاوية يعظ النساء .

ونتائج الثورة : غم - استنزفت طلبات الجند ثروة البلاد - حكام الأرياف هاضوا بأجمعها - مهاجرو الثغر - قوم جياع - البلاء .

- ومحاولة الإمام علاج الموقف يناسبه : أحمل نفسى فى مداركتى - مناضلة مع الأهالى - سقت من منطق جيشا - ... وهكذا نجد النسق التعبيرى فى القصيدة متمشيا مع الفكرة وإن كنت آخذ على الإمام استعماله لبعض الألفاظ مثل : بمقتضى الألف - مفروضًا نؤديه - وجزء من الألف - أقول الأمر مافيه - تعد لثم نعالى البتة - صل يصلصل .

- فهذه ، كلمات غير شعرية وبعضها فيه إسفاف مثل لثم نعالى - وبعضها أقرب إلى العامية مثل جزء من الألف .

والقصيدة كما نرى من شعر القلب تعرض لوصف الحياة الاجتماعية ، وبؤس الشعب ، هى صرخة من الظلم ومناداة بالعدل ، أطلقها مصلح اجتماعى يعشق الحرية ويتغنى بجمالها .

وقد التزمت القصيدة برغم طولها الوزن الواحد والقافية الموحدة وهما دعامتان فى الشعر لاسبيل إلى هجرهما أو التحايل عليهما .

وفيها من ألوان الموسيقا الداخلية الظاهرة : حسن التقسيم مثل : الجسم فى ألم ، والروح فى قلق ... الخ . ومثل : جرّوا مدافعهم ، صفوا عساكرهم ... الخ وهكذا .

وقال فى مرض الوفاة :

ولست أبالى أن يقال محمد أبلّ أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمائم
وللناس آمال يرجون نيلها إذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيارب إن قدرت رجعى قريبة إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا رشيدًا يضىء النهج والليل قاتم
يماثلنى نطقا وعلما وحكمة ويشبه فى السيف والسيف صارم(٢٣٧)

والقصيدة كما ترى تعكس أمل الإمام إلى الله أن يرزق الإسلام والمسلمين بمرشد يضىء لهم الطريق ويسير على نهج الإمام : نطقا وعلمًا وحكمة وقوة .

وقد استراب أقوام فى نسبة القصيدة إلى الإمام وزعموا أنها من نظم رشيد رضا لأنه كان يأمل أن يكون خليفة للإمام . ولست أرى هذا الرأى فاستخدام كلمة « رشيد » فى القصيدة لايدعو لأن ننسب القصيدة لرشيد رضا فهو وصف عام وليس بخاص ، وفكرة الإصلاح الدينى والحرص عليه والتى هى فحوى القصيدة من أبرز الأغراض التى كرّس الإمام لها جهوده . وليس من شك فى أن شعر الإمام من نوع الشعر الغنائى . وبعض النّاس(٢٣٨) يرى أن الشعر الغنائى شعر شخصى بمعنى أنه اعتراف أو افضاء بما يخالج النفس فى نظم شعرى . ومثل هذا التعريف يعتبر غير جامع إذ أنه يستبعد من نوع الشعر الغنائى مجموعة عظيمة من الآثار الأدبية كانت دائما تعتبر بحق داخلة فيه ، فالشعراء الغنائيون لم يتغنوا بإحساساتهم الشخصية فحسب بل بإحساسات المجتمع الذى كان يعتبرهم ألسنته الناطقة . لقد كان هذا شأن الشاعر العربى منذ امرىء القيس إلى محمد عبده ، فالشعر الغنائى هو التعبير عن الإحساس الشخصى على شرط أن يفهم من هاتين الكلمتين – إحساس شخصى – أوسع معانيهما إذ يشتمل هذا الاصطلاح على كل أنواع الإحساسات منذ أكثرها هدوءا إلى أشدها عنفا ، ويكون الإحساس شخصيا بمعنى أن يصدر عن الشاعر نفسه سواء أكان إحساسه الخاص أم كان إحساس المجتمع لأن روح الشاعر تهتز بما تهتزله روح الشعب ، وكذلك كان الشأن فى شعر محمد عبده فهو شعر يعبر عن احساس محمد عبده الخاص كما يعبر عن احساس المجتمع ، ويمثل روح الشعب فى أصالته وتدينه .

إن خيبة الأمل التى تشيع فى حياة محمد عبده وإن عقله المولع بالتحليل وبالحرية فى البحث عنصران بارزان فى الشعر الغنائى عنده وأن موضوعى هذا الشعر هما : الموت ، الوطن .

(٢٣٧) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص١٠٢٦ – ١٠٢٧

(٢٣٨) نظرية الأنواع الأدبية جـ١ ص١٢٤

فحين لاحت له ظلال الموت لم يفزع من أن يموت ، ولكنه فزع خشية على الدين من الضياع .

والشعور بالوطنية لم يفتر لحظة واحدة عن إلهاب شعره . والوطن فى الواقع يعد رمزا لماض طويل ، ملىء بالتضحية والفداء . ولقد أراق آباؤنا دماءهم فى ميادين القتال ، ولقد عانوا كثيرا من أجل الاستقلال ، ومن أجل عظمة هذا البلد الذى نعيش فيه اليوم والذى يضم الآن رفاتهم .

وليس هناك من لايشعر بحب الوطن سوى أولئك الأفراد أو الأجيال الماديين الذين فقدوا الإيمان بكل شىء حتى الإيمان بالذكريات .

على أن هناك مميزات أخرى فى شعر محمد عبده فهو هجاء اجتماعى ... حين اتجه إلى نقد الإسراف واستغلال النفوذ ، وهو هجاء سياسى حين اتجه إلى نقد النظام السياسى وإلى نقد شخصيات شعبية ، وهو هجاء أخلاقى حين اتجه إلى نقد الرذائل الخلقية كالطمع والشح والنفاق . وهو باعتبار آخر هجاء عام لايصّور سوى العيوب العامة والرذائل ، وإن أمطر ضرباته على ظهر أشخاص اتخذهم هدفًا للسخرية أو الاحتقار .

الفصل السادس

النقد
بين النظرية والتطبيق

بواكير النقد عند الإمام – معنى النقد وأثره – النقد والازدهار – النقد والنقاد فى الغرب والشرق – أهداف النقد – أقسام النقاد – وظيفة النقد – النقد فى رسالة التوحيد – ميدان النقد الأدبى عند العرب – عبد القاهر الجرجانى والسكاكى – تحول النقد إلى دراسة بلاغية – علوم البلاغة جزء أساسى من علوم النقد – الوسيلة الأدبية – النقد الأدبى خلال القرن التاسع عشر ومطلع العشرين – عوامل ازدهار النقد الحديث – إحياء القديم – مذهب الإمام فى تحصيل مادة اللغة – رأى الإمام فى التوكيد والمبالغة والشعر – توجيهات الإمام – الأساس الدينى – تأثر الإمام بعبد القاهر وابن خلودون وابن الأثير والزمخشرى وأوجه هذا التأثر – مطالع التاريخ فى نظر الإمام – البلاغة فى رأى الإمام – أنواع النقد عند الإمام ونماذج لكل نوع – المتاحف وفوائدها – نظرة إلى الملاحة فى الشعر العربى – قضية الترجمة – رسالة الأدب – الأدب الشعبى وموقف الإمام منه – الأسس النقدية فى مقدمة الإمام لنهج البلاغة ومقامات أبى الفضل بديع الزمان الهمزانى – منهج فى تحقيق النصوص – المثل الأعلى فى البيان والتعبير – ظاهرة الإعجاز البلاغى – دراسات القرآن أصل العلوم العربية – موجات التأليف النقدى عند العرب وتأثر الإمام بهذه الموجات – ميادين التفسير فى العربية . بعث الطريقة الأدبية فى تفسير القرآن ورائد البعث – منهج الإمام فى التفسير – قضايا فنية : الترادف – حروف الزيادة – التكرار – المعانى الاصطلاحية لبعض الحروف – الإطناب فى خطاب اليهود والإيجاز فى خطاب العرب – قصص القرآن – نماذج من تفسير الإمام – نماذج من دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة – الأسس الفنية لنظرية النقد عند الإمام – شأن النقد فى الأدب كشأن الفقه فى القضاء – النقد الموضوعى – النقد الوصفى . بين المؤرخ والناقد – أين نضع محمد عبده بين نقاد عصره ؟

يبدو أن ملكة النقد كانت متأصلة عند الإمام ، فقد ظهرت بوادرها على أسلات قلمه مبكرة ظهرت فى المقالة الثانية التى كتبها فى أهرام السنة الأولى تحت عنوان « الكتابة والقلم » والتى يذهب فيها إلى أن آثار القلم الجليلة تسجيل أفكار السابقين ومعارفهم وحفظها من الضياع فإذا انضمت إليها أفكار اللاحقين أوقدت سرج الاستبصار بفضل تعاون هذه الأفكار كلها على ابراز الحقيقة ناصعة ، يوضح الإمام ذلك فيقول[١] :

١ – كان القلم لسانا آخر للمتكلم .. فسهل عليهم بذلك حفظ آثارهم وبث أفكارهم .. وكان من ذلك أن حفظ قول القائلين من جيل إلى جيل .. فكان بذلك أفكار الأزمنة المتتالية مجتمعة فى نقطة واحدة .. فحصل لذلك التعاون فى الأفكار وإيقاد سرج الاستبصار ، فان

(١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص ١٩ .

أفكارا كثيرة تقدمت أو تأخرت بمنزلة لجنة انعقدت للارتئاء فى حقيقة أمور خفيت والناظر الناقد بمنزلة رئيس الجمعية يرجح بين الأقوال ويرى بنور بصيرته ماإليه أمر كل آل(٢) .

ثم انظر إليه يحدثنا فى نفس المقال عن أن بعض الأدباء يجيد كاتبا ويخفق خطيبا ، وبعضهم يجيد خطيبا ويخفق كاتبا فيقول :

فكم من معاتب تنفر النفوس من عتابه إن هو أعتب فى خطابه ، ولكن إن رقم أتى بالرقيق ، ونادى نداء الشقيق فاستبدل الشقيق بالمشاق ، ورفع العنا ووضع الوفاق فهو إن تكلم كلم ، وإن رقم شفى الألم ، وكم من مؤدب فهيه لا يستطيع تحريك فيه بما يخفيه لايفيد المستفيد ولايوافى مرام المستعبد ، ولكنه إن أجرى القلم نطق بالحكم ، وحج وأحرم ، ووصل وأبرم ، وأسس وأحكم ، فهو وأن لم ينطق بلسانه قد نط ببراعه وبنانه ، فلم تعده فضيلة البيان ، وإن عضلته عصبة اللسان ، وكم من خطيب نجيب ، ورقيب حسيب إن تكلم أقلق وأطبق وأغلق ، وان كتب أعجب وأرهب ، وقرب وأبعد ، وجمع وأفرد ، وأوقد نيران الأنفة وعقد روابط الألفة ، وأتى برقيق التشبيه ودقيق التنبيه .

ثم يخطو الإمام فى النقد خطوة أوسع من ذى قبل حين يعرض له فى مقال عنوانه « الانتقاد » وقد نشر فى المقتطف عام ١٨٨٨م وفى جريدة ثمرات الفنون البيرونية ومما جاء فيه : الانتقاد لغة النظر فى الدراهم وغيرها لمعرفة صحيحها من فاسدها ، وصحيحها من زائفها ، ومنه انتقاد الكلام لتمييز فاسده من صحيحه وغثه من سمينه . وعلى أن الانتقاد طريق من أوسع طرق الارتقاء ، وأن أربابه قادة الناس إلى المراتب العليا من مراتب الكمال والجمال ، فلا عجب أن يعرف العقلاء قدرهم ، ويحيوا ذكرهم ويصدعوا بأمرهم ، وحيث كان الانتقاد ميتا كان الفن ساكنا لاحراك له نحو التقدم ، ولاحياة لأهله

وبعد ماجعل الإمام الانتقاد أصح دليل على رقى الناس قال : إن النقد ازدهر عند العرب فى عصر نهضتهم ثم توارى حين تأخروا ، وكذلك الفرنجة فإنه لم يكن عندهم انتقاد يوم كانوا فى تأخر ، ولما تقدموا أنشأوا للنقد الجرائد والمجلات .. حتى إنك لاتكاد تجد مؤلفا يؤلف عند الإفرنج إلا استهدف لسهام الانتقاد ، والمنتقدين من كل صوب وناحية . بل قد صارت عادتهم أن لا يعرض مؤلف للبيع حتى يعرض على الجرائد لانتقاده فيسمع الناس به ويعرفوا قيمته ، والمؤلفون منهم أرغب الناس فى توطيد دعائم الانتقاد ، وتقوية ساعد المنتقدين ، لعلمهم أن جلب الفائدة منه عائد عليهم ، فلذلك تراهم يرضخون لحكم المنتقد أخطأ فى اعتقادهم أو أصاب ، ويعتبرون نقده فضلا عليهم وجميلا معهم ، واذا اقتضت الضرورة أن يردوا عليه صدروا الرد بالاعتذار عن ذلك .. كل ذلك حرصا على الانتقاد أن لاتخبوا ناره ،

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

وأبلغ الكتاب قلما ، وأقومهم رأيا ، وأجزلهم لفظا ، وأرقهم نثرا ونظما هم أشد الناس عرضة للانتقاد . وقد يميل المنتقدون عليهم كل الميل ، ويتحاملون عليهم شديد التحامل ، فينتقى الكتاب من انتقاد النقاد ماأصابوا فيه ، ويغضون عما أخطأوا ، وكثيرا ماينقلون انتقادهم عليهم إلى كتبهم ، إما اقرارا بصحته أو اظهارا لخطأه أو لغير ذلك من الأغراض والانتقاد بين علماء الإفرنج دليل على رعاية مقام المنتقد عليه ، والاحتفاء بشأنه ، والتدقيق فى الانتقاد دليل الاهتمام بما ينتقد ، والواسعون فى الفهم يعتبرون تشديد المنتقد عليهم مزية لهم ويفضلون إظهاره لمعايبهم على مجرد مدحه لهم واطرائه وإذا رأوا من المنتقد تساهلا وتسامحا ساءهم ذلك ، وحملوه محمل الاستصغار لقيمة تأليفهم وقوة عقلهم [٣] .

ثم قال فى الناقد :

يلزم أن يكون الناقد بصيرا خبيرا يتحرى الصدق فى القول ، والإخلاص فى النية منصفا عادلا باحثا منقبا ، قاصرا النظر على ماقيل ، مغضيا عمن قال ، ولاحق للمنتقد عليه أن يحقد على الناقد إذا أبان معايب تأليفه ، ولم يعترض بمدح ذاته وصفاته ، أو إذا لم يغض عن نقيصة أتاها سهوا أو عمدا .

وهذا وصف وجيز لحال النقد والناقدين عند الأوربيين ، وأما نحن المشارقة فقد خبت عندنا نار النقد منذ غابت عنا شمس معارف العرب وعلومهم [٤] « لقد احتوى مقال الإمام على تعريف ميسر للنقد فهو تمييز فاسد الكلام عن صحيحة ، وهو طريق الارتقاء ، وأربابه قادة الناس ، ورقى الفن رهن برقى الانتقاد ، وهو أصح دليل على رقى الناس ، ثم وصف حال النقد الأوربى وبين أنه من أهم الوسائل لترويج سوق الكتاب وأشار إلى مايجب أن يتصف به الناقد . كل هذا عند الأوربيين . وبعد ذلك تحدث الإمام عن أهداف النقد بالتفصيل فبين أنه تقريع للناقصين فى أعمالهم ودفع لطلاب الكمال إلى منتهى مايمكن لهم ، وبين أن الناقد بمثابة الواعظ الحكيم والمؤدب العليم وبين أيضا أن الإنسان أشد بصرا بشأن غيره من شأن نفسه ، وإليك مايقوله الإمام فى ذلك :

١ - الانتقاد نفثة من الروح الإلهى فى صدور البشر تظهر فى مناطقهم ، سوقا للناقص إلى الكمال ، وتنبيها يزعج الكامل عن موقفه إلى طلب الغاية مما يليق به : الانتقاد قاصف من اللائمة تنفس عنه القلوب وتنفتق به الألسنة لتقريع الناقصين فى أعمالهم ودفع طلاب الكمال إلى منتهى مايمكن لهم :

جعل الله للحياة قواما وقوام الحياة بالادراك

(٣) رواه النهضة الحديثة لمارون عبود ص ١٩٧ - ١٩٨ نقلا عن المقتطف عام ١٨٨٨ م

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٨

إنما الإنسان كون عقلى سلطان وجوده العقل فإن صلح السلطان ونفذ حكمه صلح ذلك الكون وتم أمره إن الله لم يهمل العقل من ناصرين عزيزين حاذقين أحدهما له والثانى له وعليه . أما الأول فما قرن الله به من غريزة الميل للأفضل ، والاصـــغاء للأمثل ، وأما الثانى فما ألزمه الصانع من الانقباض عن الدون .

٢ - ليس يصل منتجع الكمال إلى مقام إلا ويرمى بطرفه إلى أبعد منه ... ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف به عند مظاهر غرارة ....

لهذا وكل الله بالعقل منبها لايغفل ... ذلك الواعظ الحكيم والمؤدب العليم هو (الانتقاد) يثبت فى الفؤاد ثم يتجلى فى البيان ، على أسلة اللسان فيفقهه العالمون ، ولا يهمله العاملون (فطرة الله التى فطر الناس عليها) : أودع فى كل ناطق بصرا بشأن غيره أشد إحاطة من بصره بشأن نفسه ، ومكن كلا من تمييز أحوال الآخر حسنها من قبيحها ، وفاسدها من صحيحها ثم دفعه للنطق بما ألهمه والقضاء بما أحكمه[٥] ...

ثم تحدث عن أقسام النقاد فقال :

وجعل الله الناقدين أقساما فمنهم ناظر إلى الفضل لايعدوه فهو يذكر المنقبة ، ويغض عن المثلبة ، ومن هذا القسم المفرطون فى الوفاء من الأصدقاء ، ومنهم رقباء النقائص - وجواسيس العيوب يروون المساءات ويسكتون عن الحسنات ، وفيهم الحساد ، وأهل الأحقاد ، ومنهم ناظرون بالعينين عارفون بالوجهين يذكرون للكمال نبله ويلزمون النقص ويله ، وهؤلاء فى أعلى المنازل وفيهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ، ومن الناقدين فاسقون يكتمون مايعرفون ، ويهرفون بما لا يعلمون وهم فى أخس المنازل ، وليس فى الناس إلا من تجتمع هذه الأقسام له وعليه[٦] .

ثم ختم مقاله بالحديث عن أهمية النقد وآثاره فقال :

لا جرم أن النقد نائرة غريزية تقدح شررها على السابقين واللاحقين ، وكل نقد فحشوه لوم ... فإن حمد الكامل عذل للناقص على التقصير وازعاج للمحمود ، وزجرله عن ملابسة الاعياء[٧] ... فلولا الانتقاد ما شب علم عن نشأته ولا امتد ملك عن منبته أترى لو أغفل العلماء نقد الآراء ، وأهملوا البحث فى وجوه المزاعم أكانت تتسع دائرة العلم ، وتتجلى الحقائق للفهم ويعلم المحق من المبطل ... فالمغبوط فى حاله من يستمع قول اللائمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ويتصفح وجوه المتنكرين ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، وليس فيما يملك الحازمون أنفس لديهم من الانحاء عليهم بما ينبههم إذا غفلوا ...

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٧) تاريخ الأستاذ الإمام الرشيد رضا جـ٢ ص٣٧١ .

وأحجى بالعقل أن لايمج من الانتقاد شيئا حتى أكاذيب أهل الضغينة ... فإن أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة المسالح تقام فى الثغور زمن السلم حذرا مما عساه يطرقها من عدوان المغيرين عليها ...

فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جنانه وجاء بغير الحق فى ثلب غيره فقد أفسد نفسه لصلاح عدوه[٨] ولله ما يقول بعض الصوفية : جزى الله الأعداء عنا كل خير فلولاهم ما نزلنا منازل القرب ، ولا حللنا حظائر القدس . هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد[٩] ، ومن هنا ترى أن النقد المنطقى بمعناه الأخص إنما هو ملكة فنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة ، والناقد بهذا الاعتبار يشارك المشترع فى صدق التمييز ، والفيلسوف فى دقة الملاحظة ، والقاضى فى قوة الحكم ، ومن ثم كان نوابغ النقد فى العالم أندر من نوابغ الشعر والكتابة .[١٠]

وليست وظيفة النقد أن يهدم أو يميت أو يشترع . تلك وظيفة الطبيعة التى تطور كل شيء ، وتغير كل نظام ، وتسد كل عوز ، وفق قانون ثابت إنما وظيفة الناقد أن ينظم الموجود ، وينبه الأذهان إلى المفقود ، أما أن يحاول تغيير الطباع بقانون ، وقلب الأوضاع بمقالة ، ومحو الثابت بنكتة فذلك عبث لا يخلق بكرامة إنسان وتهريج لا يزكو بضمير فنان .[١١]

وفى « رسالة التوحيد »[١٢] يشير الإمام إلى ثلاث قوى لا يمكن أن يستغنى عنها ناقد فهو يرى : أن الله وهب الإنسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان : الذاكرة والمخيلة والمفكرة ، فالذاكرة تثير من صور الماضى ما ستره الاشتغال بالحاضر فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الأشباه أو الأضداد الحاضرة فقد يذكر الشيء يشبهه ، وقد يذكر بضده كما هو بديهى - والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الأحوال حتى يصير كأنه مشاهد ثم ينشيء له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ، ويهمز النفس فى طلبه أو الهرب منه فتلجأ إلى الفكر فى تدبير الوسيلة اليه .

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الإنسان ومنها ينبوع بلائه . ثم يشير الإمام لقيمة هذه القوى فى عالم النقد فيقول :

« فلقوة الذاكرة وضعفها ، وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته أعظم أثر فى

---

(٨) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٣٧٢ .

(٩) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٣٧٣ .

(١٠) وحى الرسالة لأحمد حسن الزيات ، المجلد الأول ، ص٣٠٢ .

(١١) وحى الرسالة لأحمد حسن الزيات ، المجلد الأول ، ص٣٠٥ .

(١٢) ص٧٤ - ٧٦ - ٢ - ص٥٥ - ٧٦ .

التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الأعمال ، وللأمزجة والأجواء ، وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر بل وفى الذكر .»

ومهما يكن من شيء فان ميدان النقد الأدبى عند العرب هو بصفة عامة ميدان ذوق الأدب العربى ، وتحليل نصوصه وإبراز ما فيها من فن وجمال ، وتعرف الأسس النظرية التى يقوم عليها ذلك الذوق ، وهذا التحليل .(١٣)

وكان النقد حرا طليقا يتناول النص الأدبى من نواحيه المختلفة ، فحينا يقف الناقد عند المعنى فيعرض له من ناحية الصحة والخطأ ، والصدق والكذب ، والاقتصاد والمبالغة والابتكار والتقليد ، والخصوصية والعموم إلى غير ذلك من النواحى التى تناولوا بها المعنى .

وحينا يقف عند إحساس الأديب فيتبين قوة تأثيره فى النفس ، ومخالطته للقلب ، أو مدى إنسانيته وشذوذه .

وحينا يقف عند خياله ليرى روعة تشبيهه أو قوة استعارته أو جمال كنايته (وحينا يقف عند أسلوبه ليدرس قوته أو ضعفه ووضوحه أو غموضه ، وجماله أو قبحه ، ويرى ما فيه من وسائل الحسن الطبيعى أو المتكلف أو غير ذلك مما يعرض للأسلوب من صفات(١٤)

وحينا يعرض لفنون الشاعر وما تفرق فيه من بينها وما انفرد به أو شورك فيه ، وحينا يعرض للموازنة بين الشعراء من حيث أساليبهم حينا وفنونهم حينا ، ومعانيهم حينا آخر .

وحينا يعرض لبيئة الشاعر متبينا أثرها فى لين شعره أو فخامته وجزالته ، ولثقافة الأديب ومدى ما ينبغى أن يظهر منها فى أدبه أو يدع .

وحينا يعرض لغير ذلك من كل ما يكون فيه تقويم للأدب أو للأديب . حتى جاء عبد القاهر الجرجانى فدرس هذا التراث الذى خلفه السابقون وألف كتابه .. « دلائل الإعجاز » يشرح به نظرية النظم التى تتناول أهم الأبواب التى كونت بعد ذلك أبواب علم المعانى ، وألف كتابه « أسرار البلاغة » متناولا مسائل ما عرف بعد ذلك بعلم البيان وبعض مسائل البديع ، ثم جاء بعده السكاكى ملخصا ما شرحه عبد القاهر مقسما علوم البلاغة إلى معانى وبيان وبديع . اتجهت جهود العلماء إلى هذه العلوم واجدين فيها الأسس لتقويم النصوص الأدبية مغفلين تقريبا النواحى الأخرى التى كان الناقد الأدبى يجول فيها بقلمه ولسانه ، وهكذا تحول النقد إلى دراسة بلاغية ، وأخذ نموه يسير فى الاتجاه البلاغى فانحصر فيما تتناوله هذه العلوم من أبواب ومسائل بعد أن كان حرا طليقا ذا ميدان واسع ، رحب الجوانب

---

(١٣) أثر القرآن فى تطور النقد العبنى : المقدمة للأستاذ محمد خلف الله أحمد ، ص٧ .

(١٤) أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى ، ص١١ ، نهضة مصر بالفجالة .

فسيح الأرجاء . على أن علوم البلاغة كما يقول الدكتور أحمد أحمد بدوى[١٥] ليست بشىء منفصل عن النقد الأدبى بل هى جزء أساسى من علومه وقراءة النصوص الجيدة ، وحفظ خيارها هما الوسيلة الفعالة لاتقان صناعة الأدب بل الوسيلة التى لا يمكن أن تغنى عنها أية دراسة لغوية أو نقدية .[١٦]

وكان هذا صنيع الإمام مع طلابه فى الشام ومصر.

وكلنا يعلم أن نهضتنا الأدبية الحديثة قد ابتدأت ثمارها فى النصف الآخر من القرن الماضى ، ولما كانت نهضة أدبية لابد أن تصاحبها نهضة مماثلة فى دراسة الأدب ونقده فقد كان من الطبيعى أن يظهر فى تلك الفترة أستاذ وناقد يبعث علوم اللغة العربية وطرائق النقد الأدبى التقليدى عند العرب القدماء .[١٧]

وكانت المعاهد الدينية تعنى بالعلوم الدينية واللغوية والعقلية ، ولا تحفل بالعلوم الحديثة ، اللهم الا بقدر ضئيل اقتضته ضرورات الدين كعلم الفلك والهيئة وعليه كانت ثقافة تلك المعاهد توشك أن تكون ثقافة عربية محضة ، وكانت بعيدة كل البعد عن علوم الغرب وفنونه ، هذا بالإضافة إلى أن علماء الأزهر ومعاهده اقتصروا فى تأليفهم على النقد ووضع الشروح والحواشى والتقارير والتعليقات ، والاحتفال بالتحقيقات اللفظية والاعتراضات المختلفة ، ونحو ذلك مما لا يمكن أن يكون أساسا لنهضة علمية صحيحة ،[١٨] أو يجدى كثيرا فى رفع مستوى الثقافة التى كانت تشيع فى البلاد كما أن ذلك يفسر لنا وجود تلك النزعة اللغوية فى النقد الأدبى فى ذلك الوقت حين كان النقاد لا يحفلون من الأدب إلا بالمحسنات البديعية ، ولا يقيمون وزنا إلا للزخارف اللفظية .[١٩]

(إن النقد الأدبى خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كان نقدا لغويا فيه ذاتية كما فيه موضوعية مع تقدير لحكم الذوق ، وميل للاستطراد)[٢٠]

وقد حاول بعض الكتاب أن يرشد الناس إلى ما تقتضيه صنعة الكتابة من أمور وما تتطلبه من جهود كأديب اسحاق وقد بين فى مقالاته شروط الكتابة السليمة وأنواعها .[٢١]

---

(١٥) أسس النقد الأدبى عند العرب ، ص١٢ .
(١٦) النقد والنقاد المعاصرون للدكتور محمد مندور ، ص١٩ .
(١٧) المصدر نفسه ، ص٧ .
(١٨) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرابعى ، جـ١ ، ص٤٧ .
(١٩) نشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر ، لعز الدين الأمين ، ص٤٢ .
(٢٠) نشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر لعز الدين الأمين ، ص٢٧ ، نهضة مصر بالفجالة ، ١٩٦٢م .
(٢١) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ ، ص٢٢٤ - ٢١٥ .

ويقول الشيخ خليل اليازجى فى الإنشاء :

الإنشاء ملكة راسخة فى النفس يعين عليها سلامة الذوق وطول المزاولة ، والناس فيها طبقات متفاوتة مرجعه فى الأكثر بداهة الخاطر وذكاء البصيرة وغزارة المادة ، وله أحكام إذا راعاها المجيد نبغ فيها ، وإذا راعاها الضعيف استأنس بها فأعانته على الجرى فيها .(٢٢)

ولما عهد إلى الشيخ حسن توفيق العدل بتدريس الأدب بدار العلوم سنة ١٨٩٨م بدأيدرسه على الطريقة الحديثة فهو بذلك أول من سن هذه الطريقة فى مصر وقد وضع كتابا جمع فيه طائفة من الشعراء مع تراجمهم من مختارات أشعارهم ، وتوخى فيه ترتيبا خاصا ، ومنذ الحين انتقلت دراسة الأدب العربى بوجه عام لوضع جديد غير وضعها السابق الذى يعتمد على قراءة كتاب جامع لكل فنون اللغة .(٢٣)

وكان عهد عباس الثانى أعظم عهود الصحافة المصرية فى تاريخها إلى الحرب العظمى بما تميز به من نشاط أدبى ظهر خلاله شوقى وحافظ وغيرهما من الشعراء والناثرين وتبع ذلك ما تبعه من مساجلات أدبية كانت هى البذور الأولى للنقد الأدبى الحديث(٢٤)

إنما قوى النقد واشتد ساعده بظهور الصحف ، فقد كان بعض محرريها يتناول بعض كبراء البلاد بالنقد ، ومن ثم انتقل النقد إلى أبطال الأدب القدامى والجدد ينثر كلامهم ويتبعه رأى المحرر ، وقد كان لكثير من رجال الأزهر جولات صادقة فى ميدان النقد الأدبى وعلى رأس هؤلاء الإمام محمد عبده ، وحسين المرصفى صاحب كتاب (الوسيلة الأدبية) وحمزة فتح الله صاحب كتاب « المواهب الفتحية » .

وانصرفت العناية أولا إلى النقد اللغوى والنحوى والصرفى ، ثم عنى بالنقد البلاغى(٢٥) وقد ساعد على نمو روح النقد طبع كتبه القديمة كدلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وأسلوب النقاد مرسل سهل التركيب دقيق التعبير يعنى أولا بتوضيح المعنى ، وقد حرر من قيود البديع ، والتزام السجع إلا ماسنح عرضا فلا غرابة إذا أن كان هذا النهج الجميل قانونا لهم يزنون به الآثار الأدبية ، فلهم فضل توجيه الأدباء شعراء ومنشئين الى العناية بالمعنى وإلى الفكرة المنظمة ، وإلى الرأى الواضح وإلى الخيال الجديد والتصوير المبتكر ، ثم بعد هذا يعتنى باللفظ باعتباره أداة لأداء كل ذلك فيربأ به عن المعاظلة والتعقيد والغريب الجاف من الكلمات

---

(٢٢) مجال الغرر ، جـ٣ ، ص١٠ .

(٢٣) نشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر لعز الدين الأمين ، ص٥٣ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص١٠٤ .

(٢٥) الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم لمحمود رزق سليم ، ص١٧٨ .

المهجورة إلا لضرورة ، كما ينأى به عن أساليب العوام وما ابتذل بدورانه على ألسنتهم كما تحرر من المقدمات الطويلة الدعية التى لا صلة لها بالموضوع[٢٦]

ومن العوامل التى ساعدت على رقى النقد الأدبى وتطوره عندنا الترجمة سواء كانت أدبية أم علمية فإنها قد أفادت الأدب العربى فى ألفاظه ومعانيه وأغراضه وأساليبه حيث قد زادت الثروة اللغوية ، بما وضع أو عرب من مصطلحات فى الطب والقانون والآداب وغيرها كما أنه تأثرا بما ترجم من علوم الغرب وآدابه اتسعت الأغراض وتعود الكتاب قصد العبارة وارتقت الأخيلة ، وبعدت الأساليب عن الصنعة والزخرف ، وانصرفت عن التمهيد بالمقدمات الطويلة وتخلصت من التقليد ، ومالت العبارة للسهولة والوضوح ثم كانت بعد ذلك هذه « الكتب المترجمة من الموارد الفكرية التى وسعت مسارح التأليف والتصنيف وأنشأت طوائف شتى من الأدباء فى مذاهب الوصف ودراسة الأطوار النفسية وقصص الواقع والتاريخ[٢٧] وقد جنى النقد الأدبى ثمرة هذا الاتجاه فى الأدب بأن كان هذا الاتجاه عاملا خطيرا يمهد لظهور اتجاه مثله فى النقد بل كانت هذه المترجمات فى الحقيقة من الأسس المهمة لنشأة النقد الحديث فى مصر فهى ليست إلا صورا أدبية جديدة ذات مقاييس وأوضاع طريفة يصح أن تحتذى فى إنشاء الأدب العربى الحديث ، إنها نقد عملى وتوجيه سديد[٢٨] .

وفى إبان الثورة العرابية انفسح ميدان الخطابة وظهرت بعض الصحف التى كان يحررها عبد الله النديم ثم برزت شخصية الإمام محمد عبده الذى كان يرأس تحرير الوقائع ويعنى بالأساليب الكتابية ويراجع المخطئين ... واستمرت كتاباته نبراسا فى الكتابة الرصينة العاقلة فترة من نهاية القرن التاسع عشر إلى أن انتقل إلى رحمة الله[٢٩] .

وكان محمد عبده الناقد البليغ يوقن أن اللغة مادة البلاغة وكان من شواغله الكثيرة شاغل واحد لم تشغله عنه مهمة من مهام أعماله المتعددة التى تنوء بالعمل منها كواهل المنقطعين له ، والمتوفرين عليه ، وذلك الشاغل الواحد هو احياء اللغة مادة وعلما ودراسة وكتابة ، فكان يعين جماعة احياء الكتب العربية بعلمه ووقته وماله ونفوذه وكان ينشر نماذج البلاغة السلفية ، ويشرحها بقلمه ، أو ينوه بها فى دروسه وتفسيراته من قبيل نهج البلاغة ، ومقامات البديع ، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، ومن أهم المراجع اللغوية التى بذل الجهد فى استحضارها

---

(٢٦) المصدر نفسه ، ص١٧٩ .

(٢٧) أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، لعباس محمود العقاد ، ص١٦٢ .

(٢٨) نشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر لعز الدين الأمين ، ص٨٦ .

(٢٩) دراسات فى الأدب العربى للدكتور سعد الدين محمد الجيزاوى ، ص١٠٦ ومابعدها . دار نهضة مصر للطبع والنشر .

وتشجيع الواقفين على طبعها كتاب « المخصص » لابن سيده وهو نوع من المعجمات المبوبة على حسب المعانى والأغراض أنفع من أكثر المعجمات التى لاعناية لها بغير جمع المفردات[٣٠] .

وكتب من مصر إلى مولاى عبد العزيز سلطان المغرب الأقصى كتابا جاء فيه :

لما كان الإصلاح الذى يقصده المولى انما يتم برعاية الدين والرجوع اليه فى كتابه المبين ، وسنة صاحبه الأمين ثم النظر فى أقوال وأعمال السلف الصالحين لتعرض على ذلك كله أعمال الخلف المحدثين تعلقت الآمال بأن يكون لمولانا لفتة إلى العلوم الدينية وإحياء ما مات منها ، ونشر ما طوى من كتبها لتتأدب النفوس بأدبها[٣١] ... إنه قد تألفت فى مصر جمعية لإحياء العلوم العربية وخاصة عملها أن تبحث عما كاد يفقد من كتب السلف فتصحح نسخه وتطبعه حتى يحيا بذلك ما اندرس من علوم الأولين ، واحتجب عنا بمحدثات المتأخرين وقد عنيت هذه الجمعية بطبع كتاب على ابن سيده الأندلسى فى اللغة المسمى بالمخصص ، وسيتم عن قريب ، وهى الآن تبحث عن نسخ مدونة الإمام مالك حتى تحصل لها نسخة صحيحة ثم تطبع هذا الكتاب الجليل ، وقد وجدت من هذا الكتاب قطع فى مصر ، وقطع أخرى فى تونس ، وصارت هذه القطع فى أيدى الجمعية ولكن لم توجد إلى الآن نسخة كاملة يوثق بصحتها ، وقد تأكد للفقير أن نسخة كاملة للكتاب توجد فى جامع القرويين ، ويسهل على فضل مولانا السلطان أيده الله وأيد به الدين أن يمدنا فى عملنا ، ويعيننا على ما نبتغى من الخير باصدار أمره الكريم أن ترسل الينا هذه النسخة إما بتمامها لنقابل عليها ما عندنا ، ونتم منها ما ينقص نسخنا ونعيدها اليه ، ونهدى الجامع عشر نسخ من الكتاب عند نهاية طبعه إن شاء الله تعالى وإما مفرقة جزءا بعد جزء فكلما انتهى الغرض من جزء أرسل إلى مقره[٣٢] .

وحركة إحياء التراث التى تزعمها محمد عبده أثمرت فى حياته وبعد مماته .

هذا والذى يجب أن نلاحظه ونحن ندرس محمد عبده الناقد أن مذهبه فى تحصيل مادة اللغة أنه تحصيل ملكة وليس بتحصيل قواعد ومصطلحات لأن دقائق الفصاحة والبلاغة وبراعة التعبير تحى الفهم وترك الاشتغال بها موت للحياة العقلية ، وكان يقول : إن الكلام البليغ سهل على الفطرة لكنه صعب على كل عقل تعلم البنانى على السعد ، وكان يقول :

إنما أشكو من قلة الفهم ، وضعف العقل ، واختلال نظام الإدراك ، وفساد الشعور عند الخاصة فلا تجذبهم فصاحة ، ولاتبلغ منهم بلاغة ، وغاية مايطلبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وأن يوصفوا بالعلم ، وان لم يعقلوا ، وأن تقضى حاجاتهم إذا سألوا . وأن ترفع مكانتهم وإن

(٣٠) محمد عبده ، لعباس محمود العقاد ، ص٣٠٦ .

(٣١) تاريخ الاستاذ الامام الرشيد رضا ، جـ٢ ، ص٦٢٠ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص٦٢١ .

تنزلوا ، وإن استعداد السامع للفهم يستدر المقال ، ويسدد الفكر للنضال فى الجدال أما عيشك فيمن لايفهم فإنه ينضب منك ينبوع الكلام ، ويطمس عين الفكر ، ويزهق روح العقل (٣٣) .

ومن خصائص مذهب محمد عبده الناقد فى استعمال المادة اللغوية مايبدو فى كتابه إلى أحد أصدقائه :

١ - تعلم أننى ممن يكتب ، ويقال إن لى حظا من معرفة دقائق البلاغة ، وإن كنت لا أحسب لنفسى فى ذلك حسابا ، ولا أزال استعمل التوكيد فى كلامى ، وأذوق لذته ، وأعرف موقعه من كلام غيرى ، وأنكر العبارة تخلو منه ، وهى محتاجة اليه ، وهو معنى من المعانى المقصودة التى وضعت لها فى اللغة الفاظ خاصة كلفظ ان واللام ونحوهما .

ثم إن من الألفاظ ما يكون فيه شىء من معنى آخر فيؤتى باللفظين ليؤكد أحدهما الآخر بما فيه من المعنى المشترك ثم يزيد بما انفرد به كالسيف والصارم كل هذا لا أنكر شيئا منه ، ولكنى أنكر الذى يلجؤن اليه بدون بيان صحيح فيقال كلمة كذا توكيد بدون بيان وجه التوكيد أو لفظ كذا زائد (٣٤) .

ولاقدرة للأديب على القصد فى التعبير بغير توفير مادته من اللغة ، ولاخير فى المبالغة « فإنما يأتى بالمبالغة من كان مجازفا فى رأيه ، والعقل السليم لايتعدى الصدق ، ورأيه فى الشعر البليغ مع جودة اللغة » أنه لايكون شعرا إلا إذا كانت الفاظه آخذه بجزء من روح الشاعر وإلا فهو نظم لابلاغة فيه ، وقد كانت توجيهاته لتلاميذه من الشعراء فاتحة اشتغال شعراء مصر بالتعبير عن الحياة الإنسانية - عامة وخاصة - ولولاه لما ظهر كثير من القصائد فى الموضوعات العامة ومنها قصائد كثيرة لحافظ إبراهيم وعبد المحسن الكاظمى ، ومحمد إمام العبد ، وربما أملى على الشاعر ما يقوله حضا لبعض المحسنين بأسمائهم على معونة المنكوبين كما فعل فى قصيدة حريق ميت غمر التى نظمها حافظ ابراهيم (٣٥) .

ولم تكن توجيهات الإمام التى هى لون من ألوان النقد موجهة إلى المصريين وحدهم بل جاوزت حدود الوطن فشرقت وغربت ، ويحثت عن أولئك القادة والأئمة لقومهم فقادت خطاهم وبصرتهم بمواقع السداد ، ونصحت بالبعد عن مواطن الزلل والعثار . إن إصلاح واحد من هؤلاء القادة وأولئك الرواد يرجى به صلاح أمته ، فليوجهه محمد عبده وليكن أول ما يوجهه اليه الاستمرار على مزاولة كلام البلغاء من أهل اللسان العربى فذلك من أفضل

(٣٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص٦١٩ - ٦٢٠ .
(٣٤) المصدر نفسه ، ص٥٨٧
(٣٥) محمد عبده لعباس محمود العقاد ، ص٣٠٧ .

الوسائل المعينة للأئمة على أداء رسالتهم يقول محمد عبده فى كتاب له من بلرم إلى أحد علماء الجزائر المصلحين : حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الحليم سمايا حفظه الله ... إنك ستكون إمام قومك تهديهم إن شاء الله سبل الرشاد ... فخذ من الوسائل ما يبلغك بفضل الله غاية ما يرمى إليه استعدادك ، وأفضل ذلك فيما أرى استمرارك على مزاولة كلام البلغاء من أهل اللسان العربى واتمام ما سبقت لك البداءة فيه من اللسان الفرنسى ، ثم دراسة أخلاق البشر ، وما يكون له أثر فى تحويلها بتدقيق يجدر به لقب التحقيق ، ومن ذلك النظر فى تاريخ الأمة الاسلامية ، وتنقل الدين فى أطواره ، وعلل ذلك وأسبابه ... وإنى وإن كنت على ثقة من كمال عقلك ، ومعرفتك بما اليه حاجة المسلمين اليوم فإنى لا أجد مندوحة عن التصريح بالتحذير من النظر فى سياسة الحكومة أو غيرها من الحكومات ، ومن الكلام فى ذلك فإن هذا الموضوع كبير الخطر ، قريب الضرر[٣٦] ، وإنما الناس محتاجون إلى نور العلم ، والصدق فى العمل ، والجد فى السعى حتى يعيشوا فى سلام وراحة مع من يجاورهم من أهل الأمم الأخرى ، ولا يتعلقوا من الوهم بحبال تتقطع فى أيديهم[٣٧] .

حاول محمد عبده أن يحمل الكتاب على العناية ، وله فى هذا المضمار ، وفى النهوض بالكتابة آثار منها :

١ - مكّن له منصبه فى الوقائع المصرية من الإشراف على الجرائد والمجلات ومراجعة ما يحرره كتبة الدواوين فى شئون الحكومة ، وقد التف حوله فريق من كتاب مصر والشرق ، وأفسح لهم فى الوقائع المصرية يدبجون المقالات الاجتماعية والأدبية والسياسية بارشاده ، وكان يرى أن اللغة العربية هى أساس الدين ، وأن حياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال .

ميادين رحبة صال فيها قلم الإمام وجال فمع دعاة البعث الأدبى تجده رائدا وموجها ، ومع المترجمين تراه مشجعا ومؤيدا ومقدرا بل ومساهما أيضا ألا تذكر تعريب « الرد على الدهريين » أما مع المنشئين فمعلم وهاد ، والمعلم كما يقول شوقى كاد أن يكون رسولا » .

وكان يرى أن إصلاح اللغة العربية هو الوسيلة لإصلاح الدين وأن حياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال ، ولذلك قال : إن إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا ، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذى صدهم عن فهم ما جاء فى كتب دينهم ، وأقوال أسلافهم ، فى اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب مالا يمكن الوصول اليه إلا بتحصيل ملكة اللسان[٣٨] وترى من هذا ومما سبق أن الأساس الدينى هو الحافز للإمام على اتقان اللغة والنهوض بها ، ويبدو أن الإمام قد تأثر فى ذلك بعبد القاهر الجرجانى .

(٣٦) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص٦١٧ .

(٣٧) المصدر السابق ، ص٦١٨ .

(٣٨) الإسلام والتجديد فى مصر ، ص٨٠ .

« فالأساس الدينى هو الحافز لعبد القاهر على أن يكتب ما كتب من هذه البحوث البلاغية التى شرح فيها نظريته فى النظم ودعمها فى كتابه « دلائل الإعجاز » أولا ثم فى كتابه « أسرار البلاغة » ثانيا فعبد القاهر فى بحوثه البلاغية كان رجل دين قبل أن يكون باحثا بلاغيا ، وهو لم يكتب فى البلاغة لذاتها ، وإنما كتب ما كتب خدمة لعقيدة دينية ، ورغبة فى أن يفهم الناس إعجاز القرآن كما ينبغى أن يفهم فى رأيه(٣٩) .

ولكن على الرغم من أن عبد القاهر لم يكن يستهدف بنظريته فى النظم البلاغة فى ذاتها ، وإنما كان يستهدف بعض الأغراض الدينية والكلامية فقد أسدى إلى البلاغة معروفا جزيلا باتجاهه إلى تجريد الألفاظ من حيث هى ألفاظ وأصوات من الميزة والفضل ، والى رد كل فضيلة يمكن أن تعزى إلى اللفظ إلى حسن الدلالة على المعنى فى النظم .

وذلك اتجاه سليم يربأ بالأدب أن ينساق فى تيار اللفظية وأن يكون ألفاظا جامدة لاتخفق بأرواحها من المعانى(٤٠) .

ويكاد هذا المخطط يكون مذهب الإمام فى دروس البلاغة وفى تفسير القرآن الكريم ، ونظرية عبد القاهر فى النظم قد طبقها بتصرف محمد عبده فى تفسير القرآن وفى تفسير الأدب ، وكان ذلك بعثا لروح الأدب ونقده فى العصر الحديث .

وقبل أن نتعرض لمفهوم هذه النظرية عند عبد القاهر يجدر بنا أن نشير إلى أن هناك نقادا آخرين تركوا آثارهم فى التيار النقدى عند محمد عبده ، ومن أبرز هؤلاء ابن خلدون ، وابن الأثير والزمخشرى .

فما الأسس النقدية عند هؤلاء جميعا ؟ وما مقاييس نقد الأسلوب عندهم ؟ وكيف كان مفهومهم للتذوق الفنى ؟ وما أساس المفاضلة عندهم بين الكلام ؟ وما مفهوم الملكات الفنية عندهم ؟ ، وما مثلهم الأعلى فى البلاغة والفصاحة ؟

إننا إذا استطعنا أن نجيب على هذه الأسئلة وأن نقارن بين هذه الآراء وبين آراء محمد عبده فى النقد نكون قد جلونا جانبا مهما من نظرية النقد عن الإمام إن لم نقل بأن هذا الجانب هو الأساس الأول فى تلك النظرية .

أدرك نقاد الأدب من العرب أن للأدب ثلاث ملكات : الملكة الأولى منتجة تتجلى فى الشعراء والكتاب والخطباء والثانية ناقدة تستطيع أن تتبين مواضع الجمال فى النصوص الأدبية وتدل عليها ، وتبين أسباب هذا الجمال ، والثالثة متذوقة تدرك بنفسها أو بوساطة الناقد ما فى النصوص من حسن ورواء ، وتلتذ بما تدركه من مظاهر هذا الحسن والجمال(٤١)

(٣٩) نظرية عبد القاهر فى النظم للدكتور درويش الجندى ، ص٨ ـ ٩ ، نهضة مصر بالفجالة .

(٤٠) المرجع نفسه . ص١٢١ .

(٤١) أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى ، ص٨٣ .

ونحن وإن كنا لانستطيع أن نفصل بين هذه الثلاث انتاج ونقد وتذوق لأنها سلسلة متصلة الحلقات ، والذى يهمنا هنا إنما هو النقد الأدبى ، وهو مكون من كلمتى نقد وأدب إلا أننا سنقصر حديثنا على الملكتين الثانية والثالثة ، أما الأولى فقد تحدثنا عنها سابقا .

رأى نقاد العرب أن النقد طبع لابد منه للناقد ، وذكاء يستطيع به أن يحلل العمل الأدبى ، وثقافة تمد هذا الذكاء بأسباب الحكم ، ومخالطة للنصوص الأدبية يستطيع بعدها أن يضع كل نص فى مكانه من مراتب الجودة والإبداع ، وهم فى ذلك لايكادون يختلفون فى النظرة عن نقاد العصر الحديث إلا أن نقاد العصر الحديث ربما كانوا فى الدعوة إلى توسيع ثقافة الناقد أكثر الحاحا من القدماء فى ذلك .(٤٢)

وهذا هو عبد القاهر الجرجانى أحد هؤلاء النقاد إن لم يكن كبيرهم يرى :

ان الفكر يتعلق بما بين معانى الكلم من العلاقات وليست هذه العلاقات إلا معانى النحو فلا يقوم فى وهم ، ولا يصح أن يتفكر فى معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه وجعله فاعلا له أو مفعولا أو يريد منه حكما سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبرا أو صفة أو حالا أو ما شاكل ذلك . وإن أردت ذلك عيانا فاعمد الى أى كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معانى النحو فيها .(٤٣)

وإذا كان النظم درجات يمكن أن ترد إلى درجتين أساسيتين : الأولى لاتكاد تتعدى مرحلة الصحة والصواب ، والأخرى تتعدى هذه المرحلة إلى مناط الفضيلة والمزية فليس النظم على كلتا الدرجتين كما يقول عبد القاهر إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت .(٤٤)

ويقول عبد القاهر : إن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها فى الكلم وهى أفراد لم يتوج فيما بينها حكم من أحكام النحو فلا يتصورها هنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف غيره .(٤٥)

فليس للمعانى النحوية التى يجرى نظم الكلام عليها فضيلة فى ذاتها ومن حيث هى على الإطلاق ولكن تعرض لها المزية بحسب المقام وبحسب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض .(٤٦)

(٤٢) دراسات فى علم النفس الأدبى لحامد عبد القادر ص١٥٩ ، ومن الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده لمحمد خلف الله أحمد ، ص١٢٦ .

(٤٣) دلائل الإعجاز ، ص٣١٤ .

(٤٤) المصدر نفسه ، ص٦٣ - ٦٤ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص٥٦ ، ٥٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص٦٩ ، ٧٠ .

وقد انتهى عبد القاهر من شرح النظم إلى جعل مناط الفضيلة فى الكلام الصورة التى يرسمها النظم بما يقوم عليه من معانى النحو المتخيرة – الصورة التى ارتسمت فى نفس المتكلم بأصباغ العلاقات بين معانى الكلم التى رتبت فى النفس ترتيبا خاضعا لهذه العلاقات .

إن النظم فى حقيقته ترتيب للمعانى فى النفس فلابد أن يكون الهدف من هذا الترتيب صورة وصفة إذ لا يكون ترتيب فى شىء كما يقول عبد القاهر حتى يكون هناك قصد الى صورة وصنعة وإن لم يقدم فى ذلك الشىء ما قدم ولم يؤخر ما أخر أو ثلث بالذى ثنى به أو ثنى بالذى ثلث به لم تحصل تلك الصورة وتلك الصنعة .(٤٧)

هذا ولقد كانت نظرية النظم لدى عبد القاهر دعوة صارخة إلى دراسة النحو على منهاج جديد يقوم على الحس والذوق وحسن التخير بدلا من ذلك المنهاج التقليدى الذى يوجه العناية إلى الإعراب وبيان الأوجه الممكنة من الناحية الإعرابية التى قد تفسد المعنى وتشوهه .(٤٨)

أساس المفاضلة إذن بين الكلام عند عبد القاهر صورة المعنى لا المعنى الغفل الخام . وخضوع اللفظ فى ترتيبه الخارجى لترتيب الصورة المعنوية فى النفس ودلالة النظم اللفظى على النظم المعنوى هو الذى سوغ إطلاق اللفظ وإرادة صورة المعنى للتفريق بين المعنى الخام وبين صورته .(٤٩)

ولكى يصل عبد القاهر إلى هذه الغاية بدأ بحثه فى (دلائل الإعجاز » بنقض نظريتين قديمتين : احداهما تجعل جمال الكلام فى اللفظ ، والأخرى تجعله فى المعنى ثم انتهى به البحث إلى أن الجمال ليس فى اللفظ ولا فى المعنى وإنما هو فى نظم الكلام فى الأسلوب ثم يحاول بعد ذلك أن يبين فيم يكون جمال الأسلوب وروعته فيدرس « الجملة » بالتفصيل منفردة ومتصلة فيضطره البحث إلى الكلام على أهمية حروف العطف وقيمة الإيجاز والإطناب وضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال وبذلك يضع أساس علم « المعانى » المشهور بل إن بعض الكاتبين(٥٠) يرى أن عبد القاهر هو الذى رفع قواعد البيان العربى وأحكم بناءه .

وينعى عبد القاهر على المتأخرين الذين جروا وراء البديع وتكلفوه فطمسوا المعانى وأفسدوها من أجل فنونه التى صارت لهم غايات وأهدافا فقادوا اليها المعانى وأخضعوها لها ، ولم يكن ذلك سبيل العارفين بجواهر الكلام الذين لم يكونوا يعرجون على البديع الا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته والا حيث يأمنون جناية منه عليه(٥١)

(٤٧) دلائل الإعجاز ، ص٣١٦ ، ٣١٧ .
(٤٨) نظرية عبد عبد القاهر فى النظم ، ص١٢٢ .
(٤٩) نظرية القاهر فى النظم للدكتور درويش الجندرى ، ص٧٩ .
(٥٠) الدكتور طه حسين فى « تمهيد فى البيان العربى » الذى نشر فى مقدمة « نقد النثر » لقدامة بن جعفر .
(٥١) أسرار البلاغة ص٥٠٤ .

وبهذا وضحت الأصول الفنية لنظرية النظم عند عبد القاهر فلننتقل إلى التذوق الفنى بين ابن خلدون وبين عبد القاهر .

قال ابن خلدون : « واعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعنون بفنون البيان ، ومعناها : حصول ملكة البلاغة للسان وقد مرّ تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب فى إفادة ذلك فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه ، وسهل عليه أمر التركيب حتى لايكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التى للعرب ، وان سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحى مجه ، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر وبغير فكر إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة ، فإن الملكات إذا استقرت ورسخت فى محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل(٥٢) ثم يقول : وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب ، وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية فى ذلك ، التى استنبطها أهل صناعة اللسان ، فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل فى محلها(٥٣) فملكة البلاغة فى اللسان تهدى البليغ إلى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب فى لغتهم ونظم كلامهم ، ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعنية والتراكيب المحفوظة لما قدر عليه ، ولا وافقه عليه لسانه لايعتاده ولاتهديه اليه ملكته الراسخة عنده ، وإذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم أعرض عنه ومجه ، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا أمر وجدانى حاصل بممارسة كلام العرب .(٥٤)

واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان . وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم ، ولكن لما كان محل هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه . وأيضا فهو وجدانى للسان كما أن الطعوم محسوسة فقيل له ذوق .(٥٥)

ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة فى الكتب فليس من تحصيل الملكة فى شىء

---

(٥٢) مقدمة ابن خلدون ، ص٥١٥ .

(٥٣) المرجع السابق ، ص٥١٦ .

(٥٤) المرجع السابق ص٥١٦ .

(٥٥) المرجع نفسه ص٥١٧ .

إنما حصل أحكامها وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة ، والاعتياد والتكرير لكلام العرب[٥٦] وربما يدعى كثير ممن ينظر فى هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها ، وهو غلط أو مغالطة ، وإنما حصلت الملكة إن حصلت فى تلك القوانين البيانية ، وليست من ملكة العبارة فى شىء[٥٧] عرف ابن خلدون الذوق فى هذه العبارة بأنه ملكة راسخة فى المرء فى لسانه ناطقا على نهج كلام العرب أو متذوقا للكلام قابلا منه ما وافق نهج الكلام العربى وحائدا عما لا يتفق مع هذا النهج .

ويرى ابن خلدون أن هذا الذوق الذى يجعل صاحبه منتجا أو ناقدا انما ينشأ من ممارسة كلام العرب وكثرة تكريره على اللسان ، وطول سماع الأذن له والتنبيه للخصائص التى فى الأساليب العربية ، فيستطيع المنشىء حينئذ أن ينشىء والناقد أن ينقد .

أما دراسة علوم البيان فإنها لاتحصل هذه الملكة كما أن دراسة قواعد النحو لا تخلق اللسان الذى يستطيع أن يتكلم فى صحة وإبانة ، وإنما تستطيع القوانين البيانية أن تخلق ملكة فى هذه القوانين أما أن تخلق اللسان الذواق فلا .

وكأن ابن خلدون بذلك يرى الناقد الحق هو الذى مارس كلام العرب وألفه وعرف مناهجه ، وأسرار هذه المناهج . أما دراسة هذه القوانين البيانية وحدها من غير ممارسة للكلام العربى البليغ فإنها لا تخلق الذوق الناقد .

ولم يحدثنا ابن خلدون عن الذوق بمعنى الاستعداد الخاص الذى يهىء صاحبه لتقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته بقدر ما يستطيع فى كلامه[٥٨] وانما عنى الذوق المثقف هذه الثقافة اللغوية الأدبية ، وكأنه أغفل أمر الاستعداد لأن الاستعداد من غير ثقافة لغوية أو أدبية لا يثمر شيئا ، ومثله مثل بذرة لم تهيأ لها البيئة الصالحة لاثمارها فلا يظهر لها ساق ولا فروع ولا ثمرة .

هذا الذوق المثقف مكتسب ولا ريب ، وإن كان يبدو أنه فطرى طبيعى يقول ابن خلدون :[٥٩]

إن الملكات إذا استقرت ورسخت فى محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ، ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب فى لغتهم إعرابا وبلاغة أمر طبيعى ، ويقول : كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هى ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت فى بادئ الأمر أنها جبلة وطبع .

(٥٦) المرجع نفسه ص٥١٧ .

(٥٧) المرجع نفسه ، ص٥١٧ .

(٥٨) دراسات فى علم النفس الأدبى لحامد عبد القادر ، ص١٤٥ .

(٥٩) مقدمة ابن خلدون ، ص٥١٦ .

أما عبد القاهر الجرجانى فقد نظر الى الذوق من ناحية أنه استعداد خاص يهئ صاحبه لتقدير الجمال وفهم أسرار الحسن فى الكلام ويجعل هذا الاستعداد الخاص شرطا أساسيا لتذوق الجمال فى الأدب وكأنه يرى الثقافة الأدبية من غير هذا الاستعداد لاتجدى شيئا ويكون مثل صاحبها مثل من يروى أرضا لا بذر فيها ، وعبد القاهر يرى هذا الاستعداد فطريا ، وأنه قليل فى الناس .

ومن أجل هذا كانت الزاوية التى نظر منها ابن خلدون إلى الذوق غير هذه التى نظر منها عبد القاهر لم يغفل الثقافة بل لايكون الناقد ناقدا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة(٦٠) .

غير أن هذا الذوق الحاكم يدرك أن وراء أحكامه التى يصدرها أسبابا وعللا وأصولا جعلته يستجيد كلاما دون آخر ويرفع قولا على قول ، وهذا الذوق يجد وراء هذه الأسباب ، ويجرى وراءها ، ويعد عبد القاهر من الكسل الوقوف عند حد الاستحسان والاستهجان من غير سعى لمعرفة أسبابهما ، ومما قاله فى ذلك :

واعلم أنه لايصادف القول فى هذا الباب(٦١) موقعا من السامع ، ولايجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومىء اليه من الحسن واللطف أصلا ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ويعرى منها أخرى(٦٢) .

وعبد القاهر لايقف فى نقده عند حد ذكر تلك الصفات والعناصر والأصول كما يكتفى بعض الناقدين ، ولكنه يتعمق لكى يصل إلى أسرار هذه العناصر ، والأسباب التى جعلت لهذه الأصول ذلك التأثير فى النفس فهو لا يكتفى بذكر أن فى هذه الجملة أو تلك تقديما أو تأخيرا أو ذكرا أو حذفا أو تعريفا أو تنكيرا ، وأن ذلك كله جعل النفس تتأثر به تأثرا عميقا بل يبحث عن السبب الذى من أجله كان لهذه المظاهر آثارها فى النفس(٦٣) .

وعبد القاهر مؤمن بأن وراء الجمال أسبابا وأصولا ، ويرى أن الناقد أحيانا لايهتدى اليها ، ولكنه يدعو إلى أن يتخذ ما يعرف وسيلة إلى مالا يعرف ، وأن يبذل الجهد للوصول إلى هذه المعرفة ، مؤمنا بأن كثيرا من هذه الأسباب لم يهتد اليها السابقون ، وأن فى استطاعة اللاحقين أن يهتدوا اليها(٦٤) .

---

(٦٠) دلائل الإعجاز ، ص٢٢٥ .

(٦١) أى باب إدراك أن البلاغة ناشئة من النظم .

(٦٢) دلائل الإعجاز ، ص٢٢٥ .

(٦٣) أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى ، ص٩٢ .

(٦٤) المرجع السابق ، ص٩٣ .

ومن خلال أحاديث عبد القاهر وابن خلدون ندرك أن مفهوم الأسلوب عند عبد القاهر أنه الضرب من النظم والطريق[٦٥] فيه ، وعرفه ابن خلدون بأنه المنوال الذى ينسج فيه التراكيب أو القالب الذى يفرغ فيه[٦٦] فهو عند نقاد العرب كما هو عندنا اليوم الطريقة الخاصة التى يصوغ فيها الكاتب أفكاره ، ويبين بها عما يجول فى نفسه من العواطف والانفعالات[٦٧] .

واذا تركنا عبد القاهر وابن خلدون فإننا نرى أن ابن الأثير قد اتخذ من أسلوب القرآن نموذجا للفصاحة والبلاغة ذكر فى مقدمة « المثل السائر » أنه استمد منه بعض مقاييسه البيانية كما أنه كان مرجعه الأخير إذا أشكل عليه الأمر ، وكثيرا ما تعارض بيانه مع ما وضع من مقاييس أو تعارف عليه الناس ، فلا يكون ذلك قصورا فيه بل يكون نقصا وعيبا فيما وضع يقول فيه :

« والقرآن الكريم أحق أن يتبع وأجدر بأن يقاس عليه لاعلى غيره[٦٨] .

وقد كان القرآن نموذجا يحتذيه فصحاء العرب ونقادهم ويهتدون بأسلوبه وفنون بيانه ، وقد ذكر الزمخشرى الصلة بين القرآن وعلمى المعانى والبيان فقال : ثم إن الفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام والمتكلم ، وإن بزّ أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، وإن كان من ابن القرية[٦٩] أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وان كان أنحى من سيبويه واللغوى وان ملك اللغات بقوة لحيينه ، لايتصدى أحد منهم لسلوك الطرائق ، ولايغوص على شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة ، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذا فى سائر العلوم بحظ جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ كثير المطالعات طويل المراجعات[٧٠] فالقرآن نموذج رائع للأدب العربى شعرا ونثرا ، جمع كل حصائصها بدرجة فائقة من حيث المعانى والصور والأخيلة والأحاسيس ، والألفاظ الموحية القوية التأثير ، والموسيقا المؤثرة فى فقراته وآياته وسجعه وتناسق فواصله ، ولهذا اعتبر القرآن أروع بيان وبلاغته أسمى بلاغة ولغته أفصح اللغات .

(٦٥) دلائل الإعجاز ، ص٣٦١ .

(٦٦) مقدمة ابن خلدون ، ص٥٢٣ .

(٦٧) أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى ، ص٤٥٣ .

(٦٨) المثل السائر ، جـ ٢ ، ص٢٥ .

(٦٩) القِرّية بكسر القاف وتشديد الراء المكسورة أحد فصحاء العرب واسمه أيوب ، والقرية اسم أمه ، وهى فى الأصل حويصلة الطائر كان من الحفاظ نقل الكتب القديمة إلى العربية قتله الحجاج فقال عند القتل لكل جواد كبوة ، ولكل شجاع نبوة ، ولكل حكيم هفوة .

(٧٠) مقدمة تفسير الكشاف ، جـ١ ، ص١٣ ، ١٤ ، مصطفى البابى الحلبى .

فلم يكن غريبا بعد هذا كله أن يعكف عليه نقاد العرب وبيانيوهم لينهلوا من موارده وليتخذوا منه ومن طرائق تعبيره مقاييسهم فى البيان(٧١) ، وكذلك صنع الإمام محمد عبده هذه المنابع الأولى لنظرية النقد عند الإمام وهؤلاء هم أبرز النقاد القدامى الذين تركوا أعمق الأثر فى الاتجاه النقدى عنده .

فالأساس الدينى لايفارقه إذ لا يثق فى النقل التاريخى إلا على كتب الحديث ، كما لايثق إلا بكتب المحققين من أمثال ابن الأثير وابن خلدون ، ولايستغنى مطالع التاريخ عنده عن قوة حاكمة يميز بها يقول الإمام(٧٢) :

« العمدة فى النقل التاريخى كتب الحديث كصحيحى البخارى ومسلم وغيرهما ، ويتلوها كتب المحققين من المؤرخين كابن الأثير والمسعودى وابن خلدون وأبى الفداء وأمثالهم ، وعلى أى حال فلا يستغنى مطالع التاريخ عن قوة حاكمة يميز بها بين ما يتطبق على الواقع ، وما ينبو عنه » .

وفى محاضرة عن « العلم والتعليم » ألقاها الإمام فى تونس ونشرها رشيد رضا فى كتابه « تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن » فى هذه المحاضرة تطل علينا روح عبد القاهر فى نظرية النظام تلك التى تقوم على أساس من علمى النحو والبلاغة وتطل علينا روح ابن الأثير الذى اتخذ من أسلوب القرآن نموذجا للفصاحة والبلاغة يقول الإمام(٧٣) .

علم المعانى والبيان علمان يبحث فيهما عن البلاغة وهى مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فما هو ذلك المقتضى ؟ وهنا يعرض الإمام احدى طرق السابقين ويرى أنها طريقة جدلية تصرف الذهن عن البلاغة نفسها وذلك حيث يقول : نجد الناظر فى هذا الفن أو المعلم له يقول : هل تتحقق البلاغة بمطابقة الكلام لمقتضى الحال فى الجملة أم لابد من مراعاة جميع مقتضيات الأحوال ؟ فإن كان الأول فكيف يعد بليغا من لم يراع الحال كما ينبغى وهو يعلم أنه غير مراع له ، وإن كان الثانى فلا تختلف طبقات البلاغة ولايكون لها أعلى وأسفل ويطول البحث ويكثر الجدل فى ذلك وينصرف الذهن عن البلاغة نفسها ولايجد الباحث ما يرده اليها وهكذا نجد البحث يطول فى الغالب إلى حد يشغل الذهن عن الغرض المقصود .

لم يرض الإمام عن هذه الطريقة وعلل عدم رضاه وهذه طريقة مثلى فى النقد لاتكتفى بالاتكار بل تعلل له وتبرهن ثم تخطو خطوة أوسع من ذلك حين تعرض بناء جديدا يحل محل

(٧١) العمدة لابن رشيق ، جـ٢ ، ص٥٢ .

(٧٢) ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد للدكتور محمد زغلول سلام ، ص٢٣٩ – ٢٤٠ ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة .

(٧٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص٣٥٠ .

(٧٤) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن لرشيد رضا ، ص٢١٦ – ٢٢٧ .

ذلك البناء المتداعى فى نظرها فالإمام بعد نقده الطريقة السابقة يقترح أخرى فيقول : البلاغة صفة فى الكلام تبلغ المتكلم مراده من نفس السامع على قدر طاقته ثم أنها تكون بمراعاة حال المخاطب وذلك ينقسم إلى قسمين : ما يتعلق بنظم الكلام ، وما يتعلق بالمعنى الذى سيق له الكلام فما يتعلق بنظم الكلام هو موضوع علم المعانى ثم ينطلق فى بيان ذلك وتقرير المعانى التى سماها الإمام عبد القاهر الجرجانى واضع هذا الفن معانى النحو .

وأما القسم الثانى وهو حال المخاطب بالنسبة إلى المعنى الذى سبق له الكلام فتتوقف معرفته على أمور كثيرة ومعارف جمة يتوصل بها إلى معرفة طبائع الأشخاص ومداخل المعانى إلى قلوبهم فمن أراد أن يقنع مخاطبه بعقيدة مثلا فعليه أن ينظر فإن كان المخاطب ممن لايقنع إلا بالبرهان فعليه أن يقيمه له ، وإن كان ممن لايدرك البرهان ولكنه يقنع بالمسلمات مثلا سلك معه له تلك السبيل ، ولا يكون بليغا إلا إذا لاحظ ذلك مع ما يتعلق بالنظم .

وواضح مما سبق أن الإمام محمد عبده ارتضى لنفسه طريقة الإمام عبد القاهر الجرجانى ، ويرى أنها تجمع المعانى الكثيرة إلى ذهن الطالب وتوجه إلى الغاية المطلوبة وإن كنت آخذ على محمد عبده ركاكة فى تلك العبارة « سلك معه له تلك السبيل »

ثم يرى الإمام أن البلاغة وسيلة غايتها أمران : أن يكون الطالب فصيحا بليغا وأن يستطيع التمييز بين الأساليب واعتبر القرآن الكريم هو الميزان الذى توزن به البلاغة استمع إليه يوضح لك ذلك فيقول : لايعد المعلم معلما للبلاغة إلا إذا وجه فكر الطالب إلى ممارسة كلام العرب ونسج فى التحرير والتعبير على ما نسجوا عليه حتى تحصل ملكة البلاغة ويصل إلى الغاية من علمه فان غاية هذا العلم تشمل كلا الأمرين . الأول أن يكون الطالب فصيحا بليغا فيما يكتب أو يخطب والثانى أن يقيس بلاغة البلغاء ببلاغة القرآن فيدرك حقيقة الإعجاز وهذا الأمر الثانى هو فى الحقيقة ثمرة الأمر الأول فإن من لم يكن بليغا بالملكة والعمل لايمكنه أن يميز بين طبقات البلاغة .

وهكذا ترى الإمام لايقف عند الجانب النظرى للبلاغة بل يربطه بالجانب التطبيقى وهو هنا يمزج البلاغة بالنقد الأدبى ، وهو يؤكد هذه الحقيقة حين يتحدث عن أسهل طرق تعلم البلاغة حيث يقول :

سئل الأصمعى أى الرجلين أشعر ؟ أمسلم بن الوليد أم أبو نواس ؟ فحكم لأبى نواس فقيل له إن أخاك أبا عبيد يحكم لمسلم بأنه أشعر فقال : إن أبا عبيد يروى الشعر ولكنه لايكابد مشقة العمل فى صناعته فليس أهلا للحكم « ويعلق الإمام على ذلك فيقول : « وهذا قول حق فإن من لم يذق لم يعرف » .

وهكذا ندرك أن الإمام قد بعث أصول النقد الأدبى عند عبد القاهر وابن الأثير وابن خلدون .

أنواع النقد

ينقسم النقد عند الإمام إلى أربعة أقسام :

١ – نقد علمي . ٢ – نقد اجتماعي . ٣ – نقد كتب . ٤ – نقد تحليلي .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أنه ليس هناك حد فاصل بين هذه الأنواع أو هذه الأقسام فهي تتداخل فيما بينها ذلك أن النظرية لم تكن تنفصل عند الإمام عن تطبيقها فالعلم عنده لاينفصل عن المجتمع ومن هنا قد يتداخل النقد العلمي مع النقد الاجتماعي ، وقد يتداخل النقد الأدبي مع نقد الكتب ، وهكذا ، ولكننا نفصل بين هذه الأقسام للتصنيف والتقنين .

النقد العلمي والنقد الاجتماعي :

ما المقصود بالنقد الاجتماعي عند الإمام ؟ من خلال أحاديث الإمام في هذا الصدد نحس أن المقصود بهذا النوع من النقد هو ذلك الذي يعرض للقضايا العامة التي تهم مجموع الأمة من حيث هي أمة ، ولا تختص بفرد أو طائفة من الأمة ، وقد كان الإمام يسعى سعيا حثيثا ليكون شعبا راقيا وأمة عزيزة يكون إحساس الإنسان فيها بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره بأضرار وطنه كشعوره بأضرار ذاته ، ولا يتأتى ذلك في نظر الإمام إلا إذا سرت روح التربية الشرعية العقلية في مجموع الأمة .

ومن هنا تدرك لماذا جمعنا بين هذين النوعين من النقد ؟ فالنظرية وتطبيقها متلازمان عند الإمام كما ذكرنا ذلك سابقا . انتقد الإمام في هذا الصدد بعض أساليب الحياة الاجتماعية ووجه الأمه إلى أفضل الطرق فنقده هنا كشف عن المعايب وتوجيه إلى المحاسن . ومن أبرز ما وجه الأمة اليه دعوته الى حرية الفكر .

وهذان اللونان من النقد يعتمدان اعتمادا كليا على العقل ومقاييسه ، ومن ثم كان مقصود الباحث منهما أمرين : ١ – الأفكار . ٢ – العبارات .

وكان مقصده من الأفكار ما فيها من صحة أو خطأ ومصدر هذه الأفكار وأثرها في حياة الفرد والجماعة ، ومفهوم هذه الأفكار عند الناس ، وهل هو مفهوم سليم أم غير سليم وإن كانت الثانية فأين وجه الصواب ؟ وكيف نصل اليه ؟ وبعبارة أخرى أوجز تقويم هذه الأفكار .

وأما المقصود من العبارات في هذين اللونين من النقد فالوضوح والدقة .

وفي ميدان النقدين العلمي والاجتماعي يطالعنا الإمام بمناقشة العلماء لمسمى لفظ العلم ، وعلاقة العلوم بعضها ببعض وتأثير العلم في الأخلاق والعادات .

والملاحظ في هذا الصدد أن الإمام بعد أن يناقش القضايا العامة ويبرهن على صحتها

ويتخذ لنفسه موقفا منها يتبع ذلك بأمثلة تفسيرية . وقد عرض فى موقفنا هذا للمعارف ولعلوم النحو والمنطق والتوحيد ، والعلوم الإنسانية واللغات والرشوة والقوة والقانون .

عرض لهذه العلوم بوصفها علوما اجتماعية لها تأثيرها فى حياة الفرد والجماعة فقال فى مقالة عنوانها :

المعارف

... أما الشباب الذين فاتهم زمن التعليم ... فبود الكثير منهم أن تكون فى البلاد مدارس ليلية يتداركون فيها بعض ما فاتهم ... حتى سمعوا بأن نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلة ففرحوا واستبشروا .... ثم انقبضت نفوسهم عندما سمعوا من شروط تلك المدرسة أن تكون دروسها باللغة الفرنساوية خاصة ولا يقبل فيها إلا من كانت عنده مبادىء الرياضيات والطبيعيات ، وله تقدم فى اللغة الفرنساوية ، وقالوا ياسبحان الله إن المدارس الليلية فى البلاد المتمدنة تقرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية مع التزام التسهيل فى التعبير(٧٥) ولم نسمع أن أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجملتها ليلية .

ثم يسخر الإمام من هذه الفكرة فيقول : فهل يقال بأننا تقدمنا عن تلك الممالك فترقينا حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم(٧٦) ... وإنا وحق الحق لفى حاجة كلية إلى أن يكون التعليم الليلى عندنا مستديما آخذا من البداية سهل الوسائل ميسر الأسباب بلغة بلادنا عامة أو خاصة(٧٧) .

ويتابع الإمام حديثه عن العلم وأثره فيقول :

١ — من يعرف قواعد النحو بالتمثيل والتقريب إلا أنه إذا قرأ لا يتذكر شيئا منها ، وإذا كتب جال قلمه خارجا عن دائرتها ، وأولئك هم المبتدئون الواقفون على عتبة التعليم ، ولايصح أن يقال لهم بالحقيقة عالمون بشىء مما يقولون ، ولو علم النحوى مثلا قواعد النحو حق العلم أو عرف السياسى أصول السياسة كمال المعرفة وانطبع بها روحه الدراك لتبع ذلك الانفعال غايته فان الغاية من الأصل المدرك التى ما وضع الأصل إلا لها من لوازمه لا تفارقه فعدم تمكنها فى النفس دليل عدم تمكن الأصل نفسه فيها ... ومن هذا القبيل أحوال كثير من الناس يزعمون أنهم يعتقدون شيئا ويعلمونه حق العلم بل ويدافعون عنه ، ولكنهم يعملون على خلاف ما يقتضيه مع زعمهم التيقن بأن النجاة فى اتباعه ، والهلاك فى العدول عنه ، وقد تبين أنهم فى الحقيقة لايعلمون(٧٨)

(٧٥) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص٦٩ — ٧٠ .

(٧٦) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٧١ .

(٧٧) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٧٢ .

(٧٨) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٨٩ .

فقد وضح لنا من هذه الآثار التابعة للادراك أن الصور التعليمية التى تحضر الذاكرة دائما أو فى بعض الأحيان غير مصحوبة بالغاية العملية لاتعد فى الحقيقة معتقدات ، وإنما هى مخيلات تظهر فى جوهر النفس عند عروض المذكرات فقط ثم لايترتب عليها أثر حقيقى فى جوهر الروح يثبت فيه ، ولكن ينشأ عنها أعراض وقتية (٧٩) .

وينتقد الإمام بعض المصلحين والمفكرين ، ويرى أنهم أخطأوا خطأ عظيما من حيث إنهم لم يقارنوا بين ما حصلوه من المعارف ، وبين طبيعة الأمة التى يريدون ارشادها ، وأنه كان عليهم أن يدرسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم . يعرض الإمام لذلك فى المقالة السابعة عشرة من مقالات الوقائع الصادرة فى ١٨٨١/٤/٤م فيقول : إن أصحاب القرائح الجيدة لكونهم اكتسبوا هذه الأفكار وحصلوا تلك الهمم من الكتب والأخبار ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم إلى الحد الذى وصلوا اليه ... هو أمر سهل ... فيطلبون من الناس طلبا حاثا أن يكونوا على مشاربهم ... وإن كانت الأمة عدة ملايين وحضرات المفكرين أشخاصا معدودين ، ويظنون أن أفكارهم العالية إذا أبرزت من عقولهم ... ينقلب بها حال الأمة من أسفل درك فى الشقاء إلى أعلى درج فى السعادة ... تلك ظنونهم التى تحدثهم بها معارفهم ... وإن كانوا أصابوا طرفا من الفضل من جهة استقامة الفكر ... لكنهم أخطأوا خطأ عظيما من حيث إنهم لم يقارنوا بين ما حصلوه وبين طبيعة الأمة التى يريدون ارشادها ... ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ، ودققوا النظر فى سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية ... لعلموا أن الأمم فى أحوالها العمومية كالأشخاص فى أحوالها الخصوصية . (٨٠)

* * *

المقالة الثالثة والعشرون من مقالات الوقائع : ما هو الفقر الحقيقى فى البلاد ؟ نشرت فى العدد ١٧٣ الصادر فى ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٨ - ٢٨ مارس ١٨٨١م ومما جاء فيها :

١ - إن أرضنا خصبة طيبة التربة ... وهواؤها ونباتها فى غاية الجودة ... وبنوها أصحاب كد ونصب ، وذوو صبر على العمل ، وجلد على التعب فهى من هذا الوجه عالم برأسه ... ولكن ليس كل هذا الذى ذكرته بكاف وحده فى الغنى ... بل لابد أن ينضم اليه حسن استعمال هذه الأسباب الجليلة ... فان ضلت الآراء وساء الاستعمال فهذا هو الفقر المدقع الذى يعسر علاجه ... وأى شىء تفيد الفرص إذا لم تصادف من ينتهزها ، وهل يقطع السيف

---

(٧٩) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٩١ .

(٨٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص١١٩ - ١٢٠ .

الصقيل بلا بطل ؟ كلا فما فقر البلاد إلا قلة الراشدين فيها ، وما غناها الحقيقى الا كثرة المهتدين .

فان سألنا سائل هل فى بلادنا كثير من أولئك الذين هم غنى البلاد إذا وجدوا ، وهم فقرها إذا فقدوا . قلت مع الأسف : لا إنهم قليل (٨١)

٢ - الزراعة على حالها القديم ... والصناعة قد انحطت درجتها ... والتجارة لم تتغير حالتها ... ورجال العلم ومصابيح الفضل لانراهم الا قليلا ، والمترشحون لاستلام إدارة المصالح العمومية ... هم أيضا كسابقيهم ... نعم يوجد عندنا من لهم استعداد للتمرن والتعلم .

٣ - على أن أولئك الأفاضل من رجال المعارف أو المحنكين فى السياسة والإدارة إن كانوا فى هذا الوقت كثيرا فليس فى البلاد أساس حقيقى يوجب أن يتأثرهم من بعدهم حتى لاتنقطع سلسلة الصالحين .

٤ - والسبب فى ذلك عندنا عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التى تجعل إحساس الإنسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره بأضرار وطنه كشعوره بأضرار ذاته . (٨٢)

٥ - فإن سألنا سائل : هل من مانع يحول دون وضع ذلك الأساس أساس المجد والعزة ؟ أعنى به أساس التربية الحقة ، وهل يوجد عندنا صارف سوى الغفلة وانحطاط همم الأفراد من الناس الذين يجب عليهم طلبه والمحافظة عليه قلت : لا اننا كنا فى الزمن السابق نتعلل فى اغفال مصالحنا ، وإغماض الجفن عن رؤية نور الهداية بالخوف من ظلم الحكومة ، وكان لنا بعض الحق فى ذلك فان السلطة فى تلك الأزمان كانت ضاربة على العقول والأفكار من الرعب والخشية ، فان غاياتهامن التصرف فى الحقوق بما تشاء ونفوذ الكلمة واستيفاء الأغراض وقضاء الأوطار الذاتية لايمكن إلا مع جهل المحكومين وعمائهم حتى لا يعرفوا حقا فيطلبونه ولا باطلا فيدفعونه . (٨٣)

٦ - وبالجملة فإن الحكومة قد أطلقت عنان العمل لكل طالب حق ، وقاصد صلاح ، وراغب فلاح فليس من جهة الحكومة هذا المانع فبطل ذلك التعلل . (٨٤)

٧ - إن التغالب فى هذه الأوقات أصبح معظمه إن لم أقل جميعه تغالب الأفكار والآراء ، فإن الأمة ذات البسطة فى الأفكار والمهارة فى المعارف هى الأقوى سلطانا ، والأقوم سياسة وهى الغالبة على سواها من الأمم . (٨٥)

(٨١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص١٤٣ .

(٨٢) المصدر نفسه ، ص١٤٤ .

(٨٣) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص١٤٥ .

(٨٤) المصدر نفسه ، ص١٤٦ .

(٨٥) المصدر نفسه ، ص١٤٧ .

٨ - وبالجملة فطالب الإصلاح منا لا يرضى لنفسه أن يخطو خطوة واحدة فى سبيل تحصيله ، بل يجب أن يأتيه الإصلاح ساعيا اليه ، ويحدق نظره نحو الحكومة يطلب منها أن تخلق خلقا جديدا ، مع أن سنة من قبلنا ومن معنا فى عصرنا أن يسعى أفراد الأمة ونبلاؤها فى جمع الكلمة ، وبذل الدينار والدرهم ، وتعاضد الأفكار والأعمال على تحصيل ما يطلبون بأسبابه ووسائله الحقيقية بدون توان فى العمل ، ولا فتور فى الهمم .(٨٦)

٩ - إن شأن الحكومة ليس إلا أن تطلق للناس عنان العمل فيعملون لأنفسهم ما يعلمونه خيرا لها ... فإذا لم يكن فى الناس خصوصا الكبراء من يهمه أمر مصلحته ، وبقاء شرفه ، وناموسه ، فسفه منه أن يطلب من الحكومة مالا يطلبه هو لنفسه من نفسه .

١٠ - إن عدل الجاهل ظلم ، فإن صدر منه بطريق الصدفة لا عن مقصد فلابد له من الخبط فيظلم وإن غناه فقر فإنه أتى من البخت الاتفاقى ، ولابد يوما أن يختل سيره فيفتقر ، وإن كمال الجاهل نقص فإنه طلاء على حائط خرب ، عما قليل يكشط ويتناثر منه التراب ثم يتهدم .(٨٧)

وفى المقالة الثالثة من مقالات جريدة ثمرات الفنون التى نشرت فى ٢٥ من شوال ١٣٠٣هـ يظهر اعتزاز الإمام بالعلم ، وبعلم الحياة البشرية على وجه الخصوص ، ثم يفند دعوى فقرنا المالى ، ويذهب إلى ضرورة الاستفادة من علمائنا السابقين ، يقول الإمام(٨٨) موضحا كل ذلك :

١ - كل مفقود يفقد بفقد العلم ، وكل موجود يوجد بوجود العلم .

٢ - نحن نشكو ضعف الهمم ، وتخاذل الأيدى ، وتفرق الأهواء ، والغفلة عن المصلحة الثابتة ، وعلوم الصناعات لاتفيدنا دفعا لما نشتكيه ، فمطلوبنا علم وراء هذه العلوم ، ألا وهو العلم الذى يمس النفس ، وهو علم الحياة البشرية ، إذا نفخت الحياة فى جسم نبهته لجميع ضروراته ، وهدته لحاجاته ، واستحفظته ما يصل اليه ، وصرفته فى سبيل الحصول عليه ، والعلم المحيى للنفوس هو علم أدب النفس وكل أدب لها فهو فى الدين .

٣ - أما دعوى أننا فقراء فهى باطلة ، فإنا لو نظرنا إلى ثروة بلادنا لا نجدها قاصرة عن حاجاتنا ، ولكن القاصر عن الحاجات هو إدراكنا لاحتياجنا .

٤ - واننا فى تحصيل هذا العلم الحيوى لانحتاج إلى الاستفادة من البعداء عنا بل يكفينا فيه الرجوع إلى ما تمكنا منه وتخليص ما خلطنا ، فهذه كتبنا الدينية والأدبية حاوية لما فوق الكفاية مما نطلب ، وليس فى كتب غيرنا ما يزيد عنها إلا بما لا حاجة بنا اليه .

(٨٦) المصدر نفسه ، ص١٤٨ .

(٨٧) المصدر نفسه ، ص١٤٩ .

(٨٨) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٣٥١ - ٣٥٤ .

وفى مقالة أخرى عن المعارف يقول الإمام :

١ - ومما ينبغي ذكره أنه ثبت فى أذهان بعض الناس أن مجرد تعلم اللغات الأجنبية يعد فضيلة يسعى اليها ويهتم بشأنها مع أن اللغة فى ذاتها لا فضيلة فيها ولا يصح أن تجعل غاية تقصد ، وانما هى وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والأفكار التى ربما لاتكون مبسوطة فى اللغة الوطنية كما هى واضحة فى اللغة الأجنبية .[٨٩]

وأهم اللغات لدى الإمام لغتان : التركية لأنها لغة دولة قامت بشأن الممالك الإسلامية ما يقرب من سبعة قرون وقد تكلم فيها من الأفاضل والعلماء جم غفير نحن فى حاجة إلى الاستفادة من معارفهم ، ثم هى اللغة الرسمية فى الممالك العثمانية ، فيها حياتنا السياسية وبها نقف على هدى مولانا الخليفة الأعظم أيده الله بنصره ، واللغة العربية وهى لغة القرآن الشريف ، وكتب الشرع المنيف ، فعلى الناس أن يطلبوا البراعة فى اللغتين لا لأن يقال كاتب ومنشئ ولكن ليدرك أسرار ما أودع فيهما ، ويتمكن من إفادة ما قد ينكشف له ، أما اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات فالحاجة اليها خاصة ، والاشتغال بها ولابد أن يكون منحصرا فى طبقات من الناس . إما عالم يطلب ترجمة ما فيها من العلوم الطبيعية مثلا إلى لغته ، وإما متهيئ لأن يخدم دولته فى معاملة سياسية بينها وبين الدول الأجنبية ، وإما تاجر يحتاج إلى معاملة أناس من غير جنسه وما شابه ذلك ، وليس بمحمود فى نظر العقلاء أن تطلب اللغات الأجنبية لذاتها فإن اللغة طريق إلى ما أودع فيها وليس فى علمها نفسها فضيلة .[٩٠]

ويبدو أن علم المنطق من العلوم التى استحوذت على فكر الإمام وأثرت فى أحكامه النقدية ذلك أنه يرى أن العلوم المنطقية إنما وضعت لتقويم البراهين ، وتمييز الأفكار غثها من السمين ، وأن علم المنطق حقيق بأن يتخذ سلما لجميع العلوم ، ووجه نقده المر إلى أولئك الجهلاء الذين يرون فى الاشتغال بهذه العلوم مضيعة للوقت ، وافساداً للعقيدة ، ثم دعا دعوة عامة إلى التبحر فى المعارف والعلوم لأنها سبب الرقى ، عرض الإمام لذلك فى المقالة الرابعة من مقالات الأهرام[٩١] بعنوان : « العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية » وقد كان الإمام فى هذه المقالة على وفاق مع خديوى مصر ، ويرى أنه بذل الهمة فى اجتلاب المعارف وتوسيع دائرة الآداب ... الخ ، واليك مقتطفات من أقوال الإمام فى كل ما تقدم :

١ - من أعجب ما رأينا فى هذه الأيام أن بعض طلبة العلم الكرام ... قد تحركت إلى المعالى همته ... فأخذ فى دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية التى كان قد صنفها بعض

---

(٨٩) المصدر نفسه ، ص٧٨ .

(٩٠) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٣٥٤ .

(٩١) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٣٧ - ٤٢ .

أفاضل الملة الإسلامية لما أنه قد علم كما هو الواقع أن العلوم المنطقية إنما وضعت لتقويم البراهين وتمييز الأفكار غثها من السمين ، فهذا علم حقيق بأن يتخذ سلما لجميع العلوم ، ولا يعدل عن طلبه إلا جهول ظلوم ، والعلوم الكلامية إنما هى أحكام لتأييد القواعد الدينية بالأدلة العقلية القطعية ... فلما سمع بذلك بعض أحبائه .. اهتز لذلك واضطرب ... وأوسع ذلك الطالب النصيحة ويالها من فضيحة أى فضيحة قائلا كيف تدرس علوم الضلالات حتى تقع فى الشبهات ألا فارتدع وبحالتك اقتنع ، وكن كما كان الأب والجد ... فأجاب الطالب المسكين سؤله ... حتى أن بعض ذوى الجهل ... وشوا بهذا الطالب إلى والده وأفصحوا له القول بشأن ولده قائلين ... ألم تعلم أن الإنسان كلما قوى فى العلم اجتهاده ، وبدا له رشاده يتزلزل اعتقاده ... فتحرك فى والده عرق الحمية وأسرع ذاهبا إلى مصر المحمية ... ينذر ولده بالثبور والويل ... فأجابه الطالب إلى ذلك من كذب الناقلين ...

٢ – ويا عجبا إذا لم نصرف الفكر فى تقويم البراهين وتسديدها وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها ففى أى شىء نصرفه .

٣ – إنه من البين أن ما يؤخذ عن الآباء ... إن لم يؤيد بالبراهين نالته أقوال الملحدين .

٤ – وليت شعرى اذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد أرضعت ثدى الإسلام ... فما حالنا بالنسبة إلى علوم جديدة مفيدة هى من لوازم حياتنا فى هذه الأزمان .. لابد لنا من اكتسابها .

٥ – إن مثل هذه النفرة لو كانت فى عهد المتوكل العباسى ... أو فى زمن المماليك والكولمان ... لكان لا يأخذنا العجب ... ولكن ذلك الأمر منهم فى زمان جرى فيه سيل العلوم حتى عمّ أنحاء الكرة على العموم وهم فيه غرقى من حيث لايشعرون ... فى زمان خرج فيه العلم من الأذهان إلى الأعيان .

٦ – علينا أن ننظر إلى أحوال جيراننا من الملل والدول وما الذى نقلهم عن حالهم الأول وأدى بهم الى أن صاروا أغنياء أقوياء ... وها نحن بعد النظر لا نجد سببا لترقيهم فى الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى رشادهم فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها ومضراتهم فنكبوا عنها .

وحين نلتقى بالإمام فى رحاب الفلاسفة والكلاميين نجد أنه يرى أن برهان التطبيق الذى اتفق على إجرائه كل من الحكماء والكلاميين سفسطة ظاهرة(٩٢)

– يقول الشيخ محمد عبده جميع ما قالوه فى ابطال التسلسل من البراهين فانما هو مبنى على أوهام كاذبة ، يدعها البرهان الصريح ، وإلى الآن لم يقم برهان خطابى ، فضلا عن

(٩٢) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين ، ص١١٢ .

يقيني على وجوب تناهى سلسلة اجتمعت أجزاؤها فى الوجود مع الترتيب أو لم تكن كذلك [٩٣]

- لا بأس عند الشيخ محمد عبده أن يعتقد المرء ما يتأدى به اليه البرهان من قدم العالم أو حدوثه . [٩٤]

- يرى أنه لم يقم دليل عقلى ولا نقلى على وجوب قدم شيء من العالم [٩٥] ويرى أن من سلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليد فى الاعتقاد ، ولم تجب عصمته فهو معرض للخطأ ولكن خطؤه عند الله واقع موقع القبول . [٩٦]

* شكوى الشيخ محمد عبده من أهل زمانه . [٩٧]
* نقده للمعتزلة ، ومناصرته للأشعرى عليهم فيما يكون أول واجب . [٩٨]
* تشنيعه على من يكفرون الناس . [٩٩]
* يتهم الأشاعرة بالخروج على مذهب الأشعرى . [١٠٠]
* لجوء الشيخ محمد عبده إلى الوجدان فى إثبات الاختيار [١٠١] .
* يقول : من الواجب أن لايذهب ذاهب فى التأويل إلى مالا يسمح استعمال اللغة بارادته ، ولاتوجد قرينة تدل عليه ، فإن هذا الضرب من التأويل قد يذهب بأصل الدين ، ويبطل دلالة الكتاب والسنة على ماوردا لأجله . [١٠٢]

ويعلق الدكتور سليمان دنيا على ذلك بقوله فى هامش ص٧١٩ من كتاب الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلامين :

« هذا من غير شك يفيد الاعتراف بأن الكتاب والسنة وردا من أجل بيان أصل الدين . ولكن هذا الاعتراف يتناقض تمام المناقضة مع قوله فى التعليق على حديث ستفترق أمتى .. الخ » الوارد فى أول الكتاب وفى المقدمة التى كتبناها : إن الباحث ينظر إلى عقله غير معول على شيء سواه ، ثم إذا رأى النصوص توافق ماانتهى إليه فيها ، وإلا فليؤمن بالنصوص مفوضا الأمر فى معناها إلى الله لأن هذا الإجراء يجعل الكتاب والسنة معطلين عن الإفادة .

---

(٩٣) المصدر نفسه ، ص١١٥ .

(٩٤) المصدر نفسه ، ص١٧١ .

(٩٥) المصدر نفسه ، ص١٧٩ .

(٩٦) المصدر نفسه ، ص١٨١ .

(٩٧) المصدر نفسه ، ص٢٠٥ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ص٢١٥ .

(٩٩) المصدر نفسه ، ص٢٣٧ .

(١٠٠) المصدر نفسه ، ص٢٣٩ .

(١٠١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين ، ص٢٦٥ .

(١٠٢) المصدر نفسه ، ص٣٣٤ .

* يرى أن ما يقوله من سبقنا ليس بلازم أن يكون دائما قيدا فى أعناقنا[١٠٣] .
* يتهم الدوانى بعدم فهم كلام الحكماء[١٠٤] .
* يتهم عبد الحكيم بعدم قدرته على التفرقة بين العلم الإجمالى ، والعلم التفصيلى[١٠٥] .
* ينقد من يؤولون آيات الوعيد قائلا :

« على هذا يكون القرآن كله - إلا ماندر مما يفيد حكما أو قصصا - مؤولا لم يقصد معناه »[١٠٦] .

* يقول عن الحسن والقبح « فالقول ماقال الشيخ أبو منصور وإن وافقه عليه صدفة جماعة ممن لاعقل لهم كالمعتزلة[١٠٧] .

* الشيخ محمد عبده يرى أنه لاينبغى أن يبحث فى فن الكلام عن شئون الملائكة وأحوالهم ، ويحيل ذلك على السمع[١٠٨] فقط ، ويقول[١٠٩] محقق الكتاب وفى هذا مايدل على أن الشيخ محمد عبده ينحو بعلم الكلام منحى يجعله عقليا صرفا .

والعلم والنقد لايبرحان فكر الإمام وعقله ففى خطابه فى ختام درس المنطق يقول :

١ - سعادة الناس فى دنياهم وأخراهم بالكسب والعمل ... والكسب مهما تعدد وجوهه فإنها ترجع إلى كسب العلم ... فالعلم مصدر الأعمال دنيوية وأخروية ... وحيث كان للعلم هذا الشأن فلاشك أن الخطأ فى طريق السير إلى السعادة عائق أو مانع من الوصول إليها فلا جرم أن الناس فى أشد الحاجة إلى مايحفظ من هذا الخطأ ... وهذا هو المنطق المسمى بالميزان والمعيار الذى يضبط الفكر ويعصم الذهن عن الخطأ فيه ، ولهذا كانت العناية به من أهم مايتوجه إليه طلاب السعادة .

٢ - اعتنى العلماء فى كل أمة بضبط اللسان وحفظه من الخطأ فى الكلام ، ووضعوا لذلك علوما كثيرة ، وماكان للسان هذا الشأن إلا لأنه مجلى للفكر وترجمان له وآلة لإيصال معارفة من ذهن إلى آخر ، فأجدر بهم أن تكون عنايتهم بضبط الفكر أعظم ، كما أن اللفظ مجلى الفكر هو غطاؤه أيضا فإن الإنسان لايقدر على إخفاء أفكاره إلا بحجاب الكلام الكاذب[١١٠] .

---

(١٠٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧٥ .
(١٠٤) المصدر نفسه ، ص ٤٤٠ .
(١٠٥) المصدر نفسه ، ص٤٤٤ .
(١٠٦) المصدر نفسه ، ص ٥٦٤ .
(١٠٧) المصدر نفسه ، ص٥٧٠ .
(١٠٨) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين ، ص ٥٧٩ .
(١٠٩) المصدر نفسه ، ص ٧٣٠ .
(١١٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ١ ، ص ٧٦١ .

٣ - الفكر انما يكون فكرا له وجود صحيح إذا كان مطلقا مستقلا ... وأما الفكر المقيد بالعادات والمستعبد بالتقليد فهو المرذول الذى لا شأن له وكأنه لاوجود له .

٤ - لا ينبغى للإنسان أن يذل فكره لشىء سوى الحق .

٥ - يجب على كل طالب أن يسترشد بمن تقدمه ... ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم .

٦ - ما الذى يعتنق الأفكار من رقها ؟... الشجاعة . الشجاع هو الذى لايخاف فى الحق لومة لائم [١١١] ، والشجاعة هنا (وهى التى يسميها بعض الكتاب العصريين الشجاعة الأدبية) قسمان : شجاعة فى رفع القيد [١١٢] الذى هو التقليد الأعمى وشجاعة فى وضع القيد الذى هو الميزان الصحيح .

٧ - وهذه الطريقة طريقة معرفة الشىء بدليله وبرهانه ماجائتنا من علم المنطق وإنما هى طريقة القرآن الكريم ... وانما المنطق آلة لضبط الاستدلال .

٨ - ولا يمكن أن ينتفع أحد بالمنطق ، ولا بغيره من العلوم مهما قرأها وراجعها إلا إذا عمل وراعى أحكامها حيث ينبغى أن تراعى فالذى يحفظ العلم حفظا حقيقيا هو العمل به ، والا فهو منسى لامحالة .

٩ - وإننا نرى المجاور يقضى السنين الطويلة فى الأزهر يدارس العلوم العربية ، ولا ينتفع بها بتحصيل ملكة العربية قولا وكتابة ، وإنما ذلك لعدم الاستعمال .

١٠ - أنصح لكل من يسمع كلامى أن يستعمل مايحصله من العلم ، وأن يحصل لنفسه ملكة الشجاعة ، وبدون هذا لا ينتفع بعلم ولا عمل ، ويكون الاشتغال بالدروس فى حقه من اللغو المنهى عنه المذموم صاحبه شرعا بل يقضى حياته كسائر الحيوانات العجم وربما كان أتعس منها .

١١ - وأحب أن يكون كل منكم إنسانا كاملا والإنسان يطلب الجميل النافع لأنه حسن فى نفسه لا لأن غيره يطلبه فلو كفر كل الناس لوجب عليه أن يكون أول المؤمنين وهذا هو الإسلام الصحيح [١١٣] .

أما حين يتحدث الإمام عن علم التوحيد فإنه يوضح الغاية من هذا العلم ويعرض لطرق تدريسه عرضا نقديا يغضب ويرضى ، وهو فى رضاه وغضبه لا يصدر عن هوى وزيغ بل عن بينة وبرهان . انتقد الطريقة التقليدية ورأى أنها غير موصلة إلى الغاية ومما قال فى ذلك [١١٤] :

(١١١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ١ ، ص٧٦٢ .

(١١٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦٣ .

(١١٣) المصدر نفسه ، ص ٧٦٤ .

(١١٤) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ، ص ٢٢٧ - ٢٣٧ .

فهذا العلم إن جرينا فى تعلمه على التقليد فى الدليل ، كالتقليد فى النتيجة واكتفينا بفهم ماجاء من الأدلة على ألسنة من كتبوا فيها أعرضنا عن الغاية من وضعه لأن اليقين لا يحصل بقراءة الأدلة وخزنها فى الأذهان ، وإنما يحصل بالاستدلال الصحيح وادراك العقل وجه الدلالة من نفسه بدون تقليد ، وانما يعد النظر فى دليل المستدل السابق معينا ومهيئا للفعل إلى تصحيح النظر .

٢ - صاحب اليقين يرتاح إلى كل ما يسمع .

٣ - من سوء الاستعمال فى تعليم هذا العلم أن يعلم الطالب متن السنوسية مثلا وهو لم يحصل شيئا من مبادىء العلوم .

٤ - اللازم الأخذ بأحد أمرين إما أن يستدل الناس بالأكوان على مكونها وبالآثار على المؤثر فيها لينالوا بذلك اليقين فيما يعتقدون ...

واما أن يعلم علم الكلام على طريقة تكفل الانتفاع به فى الوصول إلى اليقين الذى لا يقبل التزلزل .

٥ - لا يقين مع التحرج من النظر وإنما يكون اليقين باطلاق النظر فى الأكوان طولها وعرضها حتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تقييد كما هدانا الله إلى ذلك فى كتابه فإنه يخاطب الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد[١١٥] ووقوفنا عند حدفهم العبارة مضربتا فى العلم ومناف لما كتبه أسلافنا وماتركوه لنا من جواهر المعقولات فى الكتب النفيسة المستودعة بخزائننا التى أصبحت اليوم أكلة للسوس وفراشا للأتربة لا تمد أيدينا لنستلبه منها أو لنزعج السوس عن أكلها واتلافها ، أنفس مافيها فر من بين أيدينا ورصعت به خزائن أمم أخرى أصبحت الآن تنعت بأمم النور ولو طلبناها لم نجدها .

وربما اعتذر الطالب عن قبول النصيحة بأنه لا مناص له عن صرف الزمان فى قراءة المطول ونحوه مثلا لأن غيره (ككتاب الصناعتين) ليس مما قرره القانون أو لأن الأستاذ لايريده ولأنه يبغى أن يكون عالما مشهورا ، ولن يكون كذلك فى نظر العامة إلا إذا قرأ المطول بحواشيه فى المدة المعلومة أو فى أطول منها ولكن هذا لا يصح عذرا ، ولست أريد بنفى العذر أن أحمل الطالب على عصيان أستاذه أو حرمانه مما يطلب من الشهرة بين قومه بل أريد أن أنبه الى سلوك طريق وسط وهو أن يجمع بين الحضور فى درس الأستاذ وتحصيل حقيقة العلم فيطالع درس الأستاذ ويضم إلى ذلك مطالعة شىء من الكلام البليغ وتحرير ماينسج على منواله فى تحصيل الملكة المطلوبة .

---

(١١٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ .

ولقد عرض لى مايعرض للطلبة اليوم وكنت أتمنى أن أبلغ من الشهرة مابلغه غيرى فحضرت درس تلك الكتب مع اشتغالى باستكمال ماأردت من العلم ، على أن طلب الشهرة فى العلم إنما هو عند شعور النفس بشىء من الغرور فإذا أدركت حقيقة العلمَ نسيت شهوة الشهرة وأدركت أنها بمنزلة من الجهل تقضى عليها بتحصيل العلم للعلم والعمل به فى سائر الأوقات وعلى أى الحالات .

ثم يختم الإمام حديثه بأن الطريقة التى يشير إليها هى طريقة أسلافنا الأقدمين ثم يقول : فالقديم الحقيقى هو ما ندعو إليه ولانجاح لنا إلا بالتعويل عليه ، ثم يتحدث الإمام عن علوم اللسان العربى ويعتقد أنها مقدمة على غيرها وأن إصلاح اللسان هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا وذلك حيث يقول :

بهذه الوسائل يسهل علينا التوفيق بين السعى والتواكل ولا سيما فى تحصيل العلوم وهى كثيرة وأولاها بالتقدم فيما أعتقد علوم لساننا العربى فإن إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا ، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذى صدهم عن فهم ماجاء فى كتب دينهم وأقوال أسلافهم فنى اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب مالا يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل علومه على الوجه الذى سبق بيانه من الجمع بين معرفة القواعد من أسهل طرقها بدون التفات إلى عبارات المعبرين ، وبين العلم بالقول والقلم حتى يملك الطالب من اللسان ماكان يملكه العربى بسليقته وبدون ذلك لا نصل إلى فهم أسرار شريعتنا بل تسد فى وجوهنا طرق الوصول إلى الحقيقة منها على كل من له غيرة على ملته أن يبذل مافى وسعه لتسهيل طرق تعليم اللغة وتحصيل الملكة فيها قولا وكتابة حتى يتكلم بها غالب أهلها ويكتبوا بها بالطريقة الصحيحة لأن فى انحطاط[١١٦] لغتنا انحطاطا لنا ولديننا وعقائدنا وأخلاقنا وانحطاط ذلك مفسد لجميع أمورنا .

أقول قولى هذا ولا أريد به الزام سامعه بقبوله وإلا خالفت ماأدعو إليه من استقلال الفكر وحرية الرأى ، على أنى لا أظن أن فى السامعين من يلتزم به لو طلبت إلزامه ، ولكنه رأى أعرضه على مسامعهم فإن وجده السامع صوابا أخذ به وإلا فإنه لم يخسر شيئا سوى احتماله مشقة الحر فى هذا المجلس وهو قدر مشترك بينى وبينه .

ويلفت النظر فى هذه المحاضرة فوق ما تقدم أن إيمان الإمام وحرصه على دينه يعد مفتاح شخصيته فهو المحرك لعلمه وعمله ، وأنه يرى أن من أسباب نجاح الطالب أمرين : طريقة تربوية سليمة ، ومعلم يزن الطالب ودرجة استعداده ثم يحرص على الزمن فنراه يحدد لكل علم فترة يرجى اتقان الطالب لهذا العالم فى تلك الفترة ثم انظر إلى سخريته من اهمالنا الاستفادة

---

(١١٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

من كتب السابقين النفيسة المستودعة بخزائننا التى أصبحت اليوم أكلة للسوس ، وفراشا للأتربة لاتمد أيدينا لنستلبه منها أو لنزعج السوس عن أكلها واتلافها .

وانظر إلى دعوته للطالب بأن لايكتفى بدرس الأستاذ بل يضم إلى ذلك مطالعة شئ من الكلام البليغ ، وتحرير ماينسج على منواله فى تحصيل الملكة المطلوبة .

وينفر الأستاذ الإمام من الشهرة ويراها لونا من الغرور .

ثم يرى أن إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا .

وانظر إلى الباحث الحر بعد أن يعرض عليك آراءه السابقة يقول :

أقول قولى هذا ، ولا أريد به إلزام سامعه بقبوله ... الخ .

المقالة الخامسة

نشرت فى العدد ٦٥٨ من ثمرات الفنون بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٥ ومما جاء فيها :

١ - وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لاينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن فى طائفة أو أمة أو ملة فإن ذلك اعتداء على غير معتد ، ومحاربة لغير محارب(١١٧)

٢ - وأما من لاتخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين إلى الشر فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الأشخاص ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم أو تحويلهم عن القبيح من أعمالهم ، ويجب أن يكون النقد خاصا بالعمل الذى ظهر فيه الخلل لا يتعدى إلى أوصاف خاصة لا تفيد البحث .

٣ - أما بطرس باشا غالى فهو رجل ذكى ... وإننا إلى الآن لم نر الناقدين ذكروا عملا مما أخذوا عليه يستحق أن نبحث فيه سوى الخلاف الذى وقع بينه وبين شفيق بك منصور(١١٨) .

* * *

المقالة العاشرة
وخامة الرشوة

نشرت فى العدد ٩٨٤ فى يوم الاثنين ١١ المحرم سنة ١٢٩٨ هـ - ١٣ ديسمبر ١٨٨٠ وجاء فى هذه المقالة :

---

(١١٧) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص ٣٦٢ .

(١١٨) المصدر نفسه ، ص٣٦٣ .

١ - لو كف كل ذى حق عن أداء الرشوة واعتصم بالطريق الأقوم ، وخضع للأحكام الحقة ليحصل على حقه بدون أن يرى خصمه أدنى محاولة أو مراوغة إلا بالحق وبدون أن يقع فى عناد من بيده زمام الحكم والسلطان طمعا فيما يأخذه منه .

٢ - العلة الأولى فى فساد أخلاق بعض المتوظفين هو رغبة ذوى اليسار فى ارشائهم بدون[١١٩] تأمل .

٣ - لانشك فى أن سلوك طريق الاستقامة أهدى وأقوم وأفيد للعموم والخصوص ، وأحكم وأما تلك الطرق العتيقة فهى قريبة العطب شديدة الخطر لانرى لمرتكبها نجاة خصوصا فى هذه الأوقات التى أصبح بصر الحكومة فيها حديدا ، ومن توارى تحت التستر وقتا ظهر بعار الفضيحة فى آخر[١٢٠]

٤ - القوة ان لم تكن على قانون لاتتعداه ، وخط لاتتخطاه بأن استعملت على أى وجه وفى أى زمان أو مكان لاتنال ثمرتها المحبوبة وغايتها المطلوبة ... أما الإنسان الذى ساعده التوفيق فى الانقياد لأحكام القانون فإنه حفظه باطنا وظاهرا .. إلى أن عرف به واجباته الحقوقية ... وأمن به من مصائب الظلم ونوازله ، واطمأن به على نفسه وعرضه وماله[١٢١] .

٥ - أما الذى ضرب عن القانون صفحا وطوى عنه كشحا فهو هو على رذالة أخلاقه ، وبساطة أفكاره ، يصبح مضغة تحت أضراس الظلم ، ويمسى كرة لصولجان البغى ، فليحيى صاحب القانون على بساط النعمة الهنى ... ولكن صراط الحق واضح ، وسالكه لا يضل إن عثر يوما استقام أعواما ، أما طريق الاعوجاج فهى وعرة خطرة كثيرة الغوائل[١٢٢]

المقالة الثالثة عشرة

- ما أكثر القول وما أقل العمل -

وقد ظهر تأثره بالقرآن فى هذه المقالة فهو يقول مثلا : « إن من أخس الأوصاف وأدناها أن يقول الإنسان مالا يفعل « وهذا يذكرنا بقوله تعالى » كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » وقد ظهر أيضا فى المقالة ميل الأستاذ الإمام إلى التفريع والتقسيم وذلك حين يقول فى شأن من يقول مالا يفعل « من كانت هذه صفته فهو جاهل من وجه ومعترف بنقصه من وجه آخر وخبيث المقصد دنىء الهمة من الوجه الثالث .. ثم فسر ذلك فقال : أما جهله فلأنه ادعى

(١١٩) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٨٥ .

(١٢٠) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٨٦ .

(١٢١) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٩٥ .

(١٢٢) المصدر نفسه ،جـ٢ ، ص٩٦ .

بما ليس فيه .. فقد جهل أن النفوس مجبولة على تطبيق المسموعات على المشاهدات وواقع الأمر فإن لم تجدها مطابقة رمت بها فى وجه قائلها(١٢٣)

ثم انظر إلى الإمام ينتقد آفة التحدث عن النفس والمبالغة فى ذلك ، وأنها أمارة من أمارات النقصان وذلك حيث يقول :

إننا إن طرقنا المجالس الخصوصية فى بواطن البيوت والأندية العمومية فى الأماكن العامة لانعدم قائلا عن نفسه إنه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها ، وطالع الكتب العالمية ، ووقف على المباحث الجليلة ، وكشف بواطن الدقائق الخفية ، واستطلع الأسرار . وكان مع ذلك مشهورا فى زمن الاشتغال بالفطنة والذكاء ، وتوقد الفكر وقوة الحافظة ونحو ذلك ، وآخر يقول إنه بلغ من الاقتدار على الإقناع فى الجدل ، والإفحام عند المخاصمة ، وتفهيم الطالب عند الاستفادة حدا لا يصل العالمون إلى غباره ، وإن له من طرق الإقناع والإفهام مالا يتيسر لغيره معرفتها ، وإنه يحيى بكلامه الأذهان الميتة ، ويحشر إليها صور المعلومات ويودع فيها أسرار الكائنات ، ولو سألت كل واحد من الذين يظن فيهم وصف العلم والتعليم لرأيته يتحدث عن ذاته بكل الذى قلناه ، ويقول لوكان الناس يسلكون هذا المسلك الذى أسلكه لانتشر العلم وعمت المعرفة .

لكننا إذا رجعنا إلى الواقع ونفس الأمر رأينا أن التأليف والتصانيف مفقودة ، وإن وجد منها شيء كان ناقصا إما من جهة المعنى ، وإما من جهة اللفظ بحيث لا تدل عبارته على ماتصدر منه فيكون كعدمه(١٢٤) ، والطالبون للعلوم على اختلافها قاصرون عن إدراك ماأضاعوا عمرهم فيه ، ودليلنا على ذلك احتياجهم دائما إلى غيرهم وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه فى نفس العلم أو الصناعة التى تعلموها فتارة يحتاجون فيه إلى الأجانب وأخرى إلى بعض من الوطنيين وربما نبين هذه الجملة فى وقت آخر(١٢٥) .

وهذا من غير شك لون من النقد الاجتماعى تناول فيه الأستاذ الإمام كما يقول هو « ما ألفناه من الأحاديث ، وما عكفنا عليه من الأقاويل فى مجامعنا الاعتيادية ، ومحافلنا المتتابعة ، مما هو عقبات فى طريق تقدمنا وظلمات متكاثفة فى وجه انتظام هيئتنا الاجتماعية ، وحواجز دون الوصول إلى محجة الرشاد ، وانتهاج خطة السداد ، وإن خاله الكثير منا تمدنا وزعمه السواد الاعظم من شعار الأدب ، وعلائم الذوق والترف » .

ومما يذكر فى ميدان النقدين العلمى والاجتماعى رد الأستاذ الإمام على فرح أنطون فى كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » .

---

(١٢٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص٩٨ .

(١٢٤) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠٠ .

(١٢٥) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠١ .

إنك ترى الإمام فى هذا الكتاب يفحص بناظريه أحوال المسلمين مع غيرهم فى بلد صاحب مجلة الجامعة ويرى تسامح الأولين مع الآخرين برغم تعديهم على الإسلام ، ولكنه يتذكر موضوع المناقشة فيقول(١٢٦) .

ولولا أن موضوع كلامى محدود باعتبار التسامح بالنسبة إلى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة أنه يوجد فى بلاده طائفتان تعد آحادهما بالألوف وتزعم كل منهما أن لها نسبة إلى الإسلام وهى تعتقد بمالا ينطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ، ولاتقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة ، وأجمع فقهاء الأمة على أنهما من قبيل المرتدين والزنادقة لاتؤكل ذبائح أفرادهما ، ولايباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات ، وإنما اختلفوا فى قبول توبة من تاب منهم ، ومن العلماء من قال لاتقبل توبته ، وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ، ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة ، وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والإسلام فى أوج القوة ، ودخلوا فى حكم الأتراك وهم هم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكهم ، وكانت عساكرهم على أسوار فينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم وأسروا عقيدة تناقض عقيدتهم ، قد ظهروا بأعمال تضاد أعمالهم وهم جيرانهم ، وتحت أيديهم ، وفى مكنتهم محوهم ، ومع ذلك عاشوا إلى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين ، وللمسلمين بينهم مصافون وأوداء فهل عهد مثل ذلك فى المسيحيين ؟

والأستاذ الإمام لا يستقى معلوماته هذه من بطون الكتب وحدها ولكن مما رأى وشاهد أثناء اقامته فى بلاد الشام ، وكم كان جميلا أن يفرق الأستاذ الإمام بين من يدّعى الإسلام والإسلام منه براء ، وبين المسلم الحق .

وبرغم أن الإمام واسع الأفق محيط بأطراف موضوعه،وبكل ما يتصل به إلا أنه لايريد أن يخرج عن دائرة المناقشة بل يريد أن يلتزم بها وأن يعمقها فى نفس الوقت فلا يكتفى بالرد الإجمالى بل يردفه بالرد التفصيلى استمع اليه وهو يقول(١٢٧)

« غير أن موضوع قولى محدود فلا أخرج عنه ، وأرانى نطقت فيه بكلمتى المجملة ، ولكن لايكفى لبيان ما عرضت به الجامعة فى قولها « هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أو مع القريب والغريب .. « ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به فى حكيمها إلا تفصيل تعرض فيه حالة الدينين من العلم تحت نظر القارىء على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم » .

وفى هذا النص تحديد لطريقة الإمام النقدية فى الرد على صاحب الجامعة : التزام بموضوع البحث ثم إجمال وتفصيل كما ذكرنا ذلك سابقا ، ثم عرض لحالة الدينين عرضا لا لبس فيه

(١٢٦) ص١٠.

(١٢٧) ص١١ .

ولاغموض تسفر فيه الحقيقة عن وجهها الناصع الأبيض بعيدة عن ضباب الوهم ثم اشراك للقارىء فى القضية ليدلى فيها برأيه بعد أن تكون الحقيقة قد وضحت لذى عينين ، وإنك لتحس بمقدرة الإمام الفائقة على الجدل والمناقشة ، وتمكنه من ناحية موضوعه حينما يطرق أبرز الموضوعات وأهمها والتى يحتمل أن يكون فيها دليل قوى لخصمه ، والتى يستمسك بها أعداء الإسلام وتلوكها ألسنتهم صباح مساء ، ولاينفكون يرددونها إلى يوم الناس هذا فهو الحجة الثبت والإمام الحكيم الذى يسعى لتحطيم الصخور من طريق الإسلام بصدر رحب وعلم غزير وإيمان عميق .

إنه ينفى أن يكون هناك قتال وقع بين المسلمين لأجل الاعتقاد ويرى أن السياسة وحدها هى المسئولة عن إراقة الدماء ، وإشعال نار الفتن فى الجبهة الإسلامية يقول(١٢٨) .

نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج كما وقع من القرامطة وغيرهم ، وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف فى العقائد ، وانما أشعلتها الآراء السياسية فى طريقة حكم الأمة ... وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهى حرب على الخلافة وهى بالسياسة أشبه وهى أصل السياسة » .

ثم يتحدث عن الحروب الداخلية ويرى أن منشأها طمع الحكام وجهلهم بأمور دينهم وأن الله لو رزق المسلمين حاكما يعرف دينه وينفذ أحكامه لنهضوا نهضة كبرى تزاحم الأوروبيين وتتفوق عليهم .

وفى ذلك يقول(١٢٩) الإمام :

« وأما الحروب الداخلية التى حدثت بعد استقرار الخلافة فى بنى العباس ، وأضعفت الأمة وفرقت الكلمة فهى حروب منشؤها طمع الحكام ، وفساد أهوائهم ، وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم ، ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم ، وارتخاء حبل التمسك به فى أيديهم ، وأكبر داء دخل على المسلمين فى دينهم وعقولهم إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم . أقول « الجهلة » وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الإسلام ، ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم ، ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم فى إحدى اليدين ، وما قرر الأولون ، وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، وساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم » .

والأستاذ الإمام حين يعرض هذه الآراء لا يعرضها عرضا جافا خاليا من وشائح الدم

---

(١٢٨) ص١٢ .
(١٢٩) ص١٣ .

وأواصر الشعور بل يعرض الفكرة مصورة تصويرا أدبيا ينم عن دخيلة نفسه حبا وكرها ، ورضا وسخطا يحملها آلامه وآماله ، فالحروب أشعلتها الآراء السياسية وفى هذا ما ينم عن كرهه للسياسة ، وطمع الحكام مصدره جهلهم بدينهم وارتخاء حبل التمسك به فى أيديهم ، ففى حبل التمسك تشبيه بليغ يكشف عن إيمانه بالوحدة الإسلامية وهو فى نفس الوقت مقتبس من قول الله سبحانه « واعتصموا بحبل الله جميعاً » .

ثم انظر إلى تصويره للأمل الذى يراوده ويراود كل محب للإسلام والمسلمين ألا وهو النهضة الإسلامية الشاملة وتصويرها فى أسلوب كنائى فالمسلمون نهضوا والقرآن الكريم فى إحدى اليدين وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى وما أدق تعبيره عن النهضة العلمية بقوله : اكتشف الآخرون فالواقع أن النهضة المعاصرة اكتشاف لا اختراع .

ثم يلتفت الأستاذ الإمام ليرى أن صاحب الجامعة لايلتزم بحدود بحثه ، ويدخل فيه ما ليس منه ، وفى هذا ما فيه من الإشارة إلى الخلط فى الموضوعات وعدم وضوح الرؤية عند صاحب الجامعة ، ومع هذا فالإمام مستعد للرد لكنه يذكر الجامعة بآداب البحث ويقول (١٣٠) :

« على أن هذا الأمر الذى جاءت به الجامعة وألجأتنا إلى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة لأن الكلام فى التسامح الدينى مع العلم لا فى تسامح عقيدة مع عقيدة أو دين مع دين ، وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض ، وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء الجامعة بقية هذه السنة إذا أوجزنا ما استطعنا ثم أورد بعض الأمثلة بأسلوب الاستفهام .

ويغلب على أسلوب الإمام طريقة الدفاع ، وتحديد نقاط للبحث فهو يقول (١٣١) :

أرى الجامعة جاءت فى كلامها بأربعة أمور آتى بها على حسب ترتيب النسق فى تعبيرها (الأول) أن المسلمين قد تسامحوا لأهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم من أرباب الأديان الأخرى (الثانى) أن من الطوائف الإسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية (الثالث) أن طبيعة الدين الإسلامى تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين المسيحى تيسر لأهله التسامح مع العلم (الرابع) أن ابناع ثمر المدنية الحديثة انما تمتع به الأوربيون ببركة التسامح الدينى المسيحى » .

أرأيت إلى العقل المنظم الدقيق الذى يحدد ولايخبط فى كل واد ، ثم إنه حين يبدأ بالرد على هذه النقاط لايلتزم بحرفية ترتيبها بل يبتدىء بالحديث عن أقلها كلاما كما يقول هو نفسه « فلابد لى من الكلام على كل واحد من هذه الأمور الأربعة وأبتدىء منها بالثانى لقلة الكلام عليه »

(١٣٠) ص١٤ .
(١٣١) ص١١ - ١٢ .

وقد ذكرنا ذلك سابقا فلا نعيد الحديث عنه ، وبنفس الطريقة طريقة تقديم الأقل كلاما على غيره يقول الإمام(١٣٢) :

« ثم أرجع إلى الأمر الأول من الأمور الأربعة لأن الكلام عليه أقل منه على الأمر الثالث . وأننى لا استدل على رعاية الإسلام على الحكماء من الملل غير المسلمة بقول كاتب مسلم ، وإنما أرجع فى جميع ما أذكر إلى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين وأذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم مالم يبلغه غيرهم »

وهذه براعة من الإمام أن يستدل بالخصوم بعضهم على بعض ، اعتمد فى رده على صاحب الجامعة على كتب المسيحيين ، وعلى ذكر أسماء علماء مسيحيين كانت لهم حظوة عند المسلمين .

ثم يقول (١٣٣)

« ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الإسلام ، ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام ؟ هل تريد أن أتمم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الإسلام المسلمين الذين نالوا أسمى الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك ؟ هل أنا فى حاجة إلى ذكر فيلسوف الإسلام أبى يوسف يعقوب الكندى »

ولعلك لاحظت أن الأستاذ الإمام يكثر من استعمال أسلوب الاستفهام وربما بطريقة تكاد تكون واحدة مثل : فهل يمكننى أن أجد طالبا واحدا .. ؟ فهل سمع أن والدا .. ؟ فهل عهد مثل ذلك عند المسيحيين ؟ هل يمكن لأحد أن يروى حادثة مثلها .. ؟ هل تريد أن أتمم لها الكلام .. ؟ هل أنا فى حاجة .. ؟ وتكرار هذا الاستعمال يدل على أنه خاصية فنية من خصائص الأستاذ الإمام ويظهر السجع على ندرة وبدون تكلف فيما سبق مثل قوله : على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولاتلتبس فيه الحقيقة بالوهم ومن مثل قوله : وسعهم صدر الإسلام ، ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام وقوله : نالوا أسمى الدرجات وأعلى المقامات ، ولكن السمة الغالبة على أسلوب الإمام هى سمة الترسل .

ثم يقول (١٣٤) الإمام فى ختام حديثه عن الأمر الأول : أظن أنه يسهل بعد سرد ما عددناه أن يعرف قراء الجامعة أن الإسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد وهو ميزان احترام العلماء للعلم. ويسهل علىّ أن التمس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث قيل إنها حدثت للدين وما حدثت له بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء أو جهالة عمياء أو تأريث بعض السفهاء

(١٣٢) ص١٤ .
(١٣٣) ص١٩ .
(١٣٤) ص٢٠ .

ولا أطيل خوف الإملال وانتقل الآن إلى الأمر الثالث وهو المقابلة بين طبيعة الدينين وهو أهم مما سبق ومما سيلحق

وتحس فى هذا الحديث استراحة الإمام لما قال حتى إن قارىء الجامعة ليسهل عليه أن يعرف بعد ذلك أن الإسلام سمح ، ثم انظر إلى الناقد يحاول أن يعرف السبب الذى أوقع المنقود فى الخطأ بل ويلتمس له العذر وان كان فى هذا الأسلوب ما فيه من تهكم ورمى بالغفلة وعدم التثبت ثم تلخيص لما ذكره سابقا بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء ... الخ وهو يعرض ما يعرض بطريقة الادباء فى التصوير مثل : يوسع صدره ... وميزان احترام العلماء .

ولعل الإمام كان يميل إلى الإيجاز فى التعبير خوف الإملال .

ثم تحدث الأستاذ الإمام عن طبيعة الدين المسيحى حديث الناقد لطريقة الجامعة فى البحث الموجه لها إلى الطريقة المثلى فقال (١٣٥) :

(تمهيد) ظنت الجامعة أن الدين المسيحى فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ، ولذلك كان فى طبيعته التسامح أمّا الدين الإسلامى فمن أصوله أن السلطان ملك وخليفة دينى وذلك مما يصعب معه التسامح فى رأيها . ليس هذا بكاف فى بيان طبيعة كل من الدينين واستعدادهما للتسامح مع العلم أو مع أية عقيدة تخالفها ، بل لابد من بيان أركان الدين ، وأهم أصوله التى ترجع اليها جميع الفروع ، وعنها تصدر الآثار الحقيقية .

عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحصًا مما عرض عليه من بعض عادات أهله أو محدثاتهم التى ربما تكون جاءتهم من دين آخر ، فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب النّاس إلى منشأ الدين ، ومن تلقوه على سذاجته التى ورد بها من صاحب الدين نفسه وإننى أوجز القول فى إيراد الأصول الأولى التى وردت فى الأناجيل المعروفة الآن فى أيدى المسيحيين ، وجاءت فى كلام أئمتهم الأولين ، ثم إيراد ما جرّ اليه الأخذ بتلك الأصول بحكم طبيعة الدين .

وواضح أن الأستاذ الإمام ينظر إلى القضايا العامة وإلى الأصول التى ترجع اليها جميع الفروع كما يقول وهذا شأن القادة والموجهين ، ثم إنه رجل يقظ لاتخدعه بعض العادات والمحدثات التى طرأت على الدين وليست منه فى شىء ، وهو بذلك داع إلى تنقية الأديان مما علق بها ، وأساء اليها الأمر الذى أوقع بعض الباحثين فى الخطأ كما حصل لصاحب الجامعة . ولعل فى هذا ما يبرر تمسك الإمام بمذهب السلف فى الدين واللغة والأدب والنقد حيث النقاء والوضوح والبعد عن الالتواءات والمزالق وحيث يزال عن هذا التراث الخالد ما علق به ،

(١٣٥) ص٢١ - ٢٢ .

ويبعث من جديد ليواصل سيره نحو الكمال المنشود بعد أن وقف ردحًا طويلا من الزمن .

ثم تحدث الأستاذ الإمام عن الأصول التى قامت عليها النصرانية ، وحصرها فى ستة أصول[١٣٦] هى : ١ - اعتمادها على خوارق العادات ٢ - السلطة الدينية التى منحت للرؤساء على المرءوسين فى عقائدهم ٣ - التجرد من الدنيا والانقطاع إلى الآخرة ، ٤ - الايمان منحة لا دخل للعقل فيها ، وأن من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل ، وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به ٥ - الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج اليه البشر فى المعاش والمعاد ٦ - التفرقة بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقربين .

هذا وقد انتهى الأستاذ الإمام إلى نتائج هذه الأصول وآثارها[١٣٧] وأثبت أن المسيحيين الأولين أعرضوا عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه إظهارا للغنى بالإيمان والعبادة عن كل شىء سواهما إلى أن يقول[١٣٨] : « ما من عقيدة ظهرت فى المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق إلا وقد سالت لها الدماء ، فليراجع التاريخ لتتمثل أرض مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عندما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أمّا كان ذلك فى طبيعة الدين أن من لم يتبع المسيح فهو هالك ، والهالك لايستحق الحياة » .

ثم قرر الإمام صراحة مقاومة النصرانية[١٣٩] للعلم واعتمد فى إثبات ذلك على التاريخ فقال : لا أجد فى التاريخ ذكرا للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية فى مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده إلا فى أثناء المنازعات الدينية التى كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك ، وأخرى بجمع المجامع ، وثالثة بسفك الدماء فتخمد شعلة العلم ، وينتصر الدين المحض وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون ، وما كان يقع بين ملوك أوربا من التسافك فى الدماء باغراء رؤساء الكنيسة ، وأمر ذلك معروف عند من له المام بالتاريخ ، وليس موضوعنا الكلام فيه .

ولكن أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر فى أوربا بعد ظهور الإسلام واستقرار سلطانه فى بلاد الأندلس ، واحتكاك الأوربيين بالمسلمين فى الحروب الصليبية .

ثم تحدث عن مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش[١٤٠] ، وموقفها من العلم وانتهى به

---

(١٣٦) ص٢٢ - ٢٨ .

(١٣٧) ص٢٩ - ٣٢ .

(١٣٨) ص٣٢ .

(١٣٩) ص٣٣ .

(١٤٠) ص٣٥ - ٣٨ .

المطاف إلى أن قال : اشتدت محكمة التفتيش فى طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعاة إلى كسبه ، ونبط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها .

أرأيت إلى قوله : أولئك المجرمين طلاب العلم ... الخ وما فيها من تهكم وسخرية .

وتكلم أيضا عن اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة (١٤١) . وكان مما قال فى ذلك : ظهر القول بكروية الأرض - ذلك الأمر الذى عرفه المسلمون وصار رأيا لهم فى أول خلافة بنى العبّاس ولم تتحرك له شعرة فى بدن - فأحدث اضطرابًا شديدا فى عالم النصرانية ، ولا يسع هذا المقال ما وقع من حوادث فى شأنه .

هل يصدق القارىء أن ما قصده كريستوف كولمب من السفر فى المحيط الأطلنطى لعله يكتشف أرضا جديدة كان من الأمور التى اهتمت لها الكنيسة وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين .

وتناول الإمام مقاومة البابا للسلطة المدنية وحرية الاعتقاد (١٤٢) ومقاومة الجمعيات العلمية والكتب ، (١٤٣) وتحدث عن البروتستانت أو الإصلاح ، (١٤٤) وكان مما قال عن أحد زعماء هؤلاء : كان لوثير أشد النّاس إنكارا على من ينظر فى فلسفة أرسطو وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذّاب ونحو ذلك من الألقاب التى لا بأس بها إذا صدرت من أهل الغيرة على الدين فى طريق الدفاع عنه . وكان كلفان أقل شتما للفيلسوف من لوثير لكنه لم يكن أحسن ظنا به ، ولا أوسع صدرا لمن يطلع على شىء من كتبه . وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف « المعلم الأول » فتأمل الفرق بين الفريقين .

ومما لفت نظرى فى حديثه عن البروتستانت قوله : (١٤٥) لو كنت ممن يحب الجدال فى الدين لعددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحى ما تضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية واضطهاد الكنيسة « ما أهون الدم على من يمثل فى عبادته أكل الدم ، وعلى من يعتقد أن خلاص العالم الإنسانى من الخطيئة إنما كان يسفك الدم البرئ على يد المعتدى الأثيم . لكنى فى بحثى هذا لا أريد أن أستعمل قوّة الخيال ، ولا أن أذكر ما يعد من قبيل الجدال ، وإنما آتى بما هو حكاية حال ، ليس للناظر فيها مقال .

والغريب فى الأمر أن الإمام يقول : لو كنت ممن يحب الجدال ... لعددت ... ثم يذكر قول الناقد كما أثبتناه سابقا تماما كما كان يفعل بشار بن برد حين نهاه الخليفة عن الغزل فكان

(١٤١) ص٣٨ - ٤١ .

(١٤٢) ص٤١ .

(١٤٣) ص٤٢ .

(١٤٤) ص٤٢ - ٤٤ .

(١٤٥) ص٤٤ .

يقول ان الخليفة نهانى عن قول كذا وكذا واستجابة لأمره لن أقول كذا ولا كذا وفى هذا ما فيه من الفكاهة والطرافة وبلفت النظر فى خاتمة المقطع السابق ان الإمام ذكر فيه بطريقة السجع طرفا من منهجه فى الرد على صاحب الجامعة وذلك حيث يقول : لا أريد أن استعمل قوة الخيال ... الخ فهو يسعى لإفحام خصمه فيأتى له بالأدلة الثابتة التى لا تقبل جدالا لواقعيتها ، والتى لا يسع الخصم معها إلا التسليم .

ثم تحدث عن الفصل بين السلطتين(١٤٦) فى المسيحية ، وعن اعتقاد المسلمين فى المسيح والمسيحية(١٤٧) فقال : هذا الذى عرضناه من طبيعة الدين المسيحى وأوردناه من مشاربه فيما بعد نشأته وما وقع من حوادث أهله مع طلاب العلم وروّاد المعارف فى كل زمن إلى ما يقرب من أيامنا هذه كل ذلك مأخوذ من تاريخهم الذى كتبوه عن أنفسهم ، ومن نصوص كتبهم الدينية التى يتوكأون عليها فيما ذكرنا من سيرتهم وأعمالهم .

أمّا رأيى ورأى أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين فى المسيح عليه السلام ودينه فهو على غير ما رآه القارئ . ثم ذكر فى ذلك الرأى مستقى من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وبهذا ينتهى القسم الأول من الكتاب الذى جعل عنوانه النصرانية ، ويبدأ القسم الثانى وقد جعل عنوانه فى الإسلام تحدث فيه عن طبيعة الإسلام مع العلم بمقتضى أصوله(١٤٨) وكان مما قاله فى ذلك : « للإسلام فى الحقية دعوتان - دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده - ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ .

فأمّا الدعوة الأولى فلم يعوّل فيها إلا على تنبيه العقل البشرى وتوجيهه إلى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب بالمسببات ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا واجب الوجود عالمّا حكيما قادرا وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد .

ثم تحدث عن الأصل الأول للإسلام وهو : النظر العقلى لتحصيل الإيمان(١٤٩) وهذا الأصل ضد الأصل الرابع من أصول النصرانية ، أمّا الأصل الثانى للإسلام فهو تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض(١٥٠) ومما قال الإمام فى ذلك :

---

(١٤٦) ص٤٤ .
(١٤٧) ص٤٦ - ٤٧ .
(١٤٨) ص٤٩ .
(١٤٩) ص٥٥ .
(١٥٠) ص٥٦ .

أسرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدّم قبل أن انتقل إلى غيره : اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ مايدل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله فى علمه ، والطريق الثانى تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل .

وقد استخدم الأستاذ الإمام الطريقتين فى تفسيره للقرآن الكريم .

كما تناول بالبحث الحديث عن الأصل الثالث[(١٥١)] فى الإسلام وهو البعد عن التكفير ، وعن الأصل الرابع[(١٥٢)] وهو : الاعتبار بسنن الله فى الخلق ، وهذا ضد الأصل الأول للنصرانية .

وتحدث عن الأصل الخامس وهو قلب السلطة[(١٥٣)] الدينية ، وهذا الأصل ضد الأصل الثانى من أصول النصرانية . وكان مما قاله الأستاذ الإمام فى ذلك :

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف وانما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبه وأحوال العرب خاصة فى زمان البعثة ، وما كان الناس عليه زمن النبى ﷺ وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحى وشىء من الناسخ والمنسوخ من الآثار .

والواقع أن الأستاذ الإمام بهذا الحديث وبما سبق من كلامه عن الأصل الثانى من أصول الإسلام انما يقدم لنا منهجه هو فى تفسير القرآن الكريم . ثم تكلم عن الأصل السادس للإسلام وهو : حماية الدعوة لمنع الفتنة[(١٥٤)] ثم عقد فصلا عنوانه « مقابلة بين الإسلام الحربى والمسيحية[(١٥٥)] السلمية » ومما لفت نظرى فى تلك المقابلة قوله :

ولست أبالى إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف فى الإسلام – وضيق الصدر من طبع الضعيف – فذلك مما لا يلصق بطبيعته ويخلط بطينته فهو يفرق بين الإسلام الصحيح وبين ما صار إليه المسلمون فى فترة الضعف والواقع أن الإسلام حجة على المسلمين وليسوا بحجة عليه وتكلم عن الأصل السابع للإسلام وهو مودة المخالفين فى العقيدة[(١٥٦)] وهو ضد الأصل السادس للنصرانية . وتكلم عن الأصل الثامن للإسلام وهو :

(١٥١) ص٥٧ .

(١٥٢) ص٥٧ .

(١٥٣) ص٦٠ – ٦٦ .

(١٥٤) ص٦٧ – ٦٨ .

(١٥٥) ص٦٩ – ٧٢ .

(١٥٦) ص٧٣ – ٧٥ .

الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة(١٥٧) وهذا الأصل ضد الأصل الثالث للنصرانية ، وتحدث عن نتائج هذه الأصول(١٥٨) وآثارها فى المسلمين وأن سماحة الدين أفضت إلى أن أخذ المسلمون فى دراسة العلوم والفنون والصنائع .(١٥٩)

وتحدث عن أخذ الخلفاء والأمراء(١٦٠) بيد العلم والعلماء وكان مما لفت نظرى فى ذلك قوله :

إن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله، فتنظر السياسة للدخول فى الأمر لتحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع أن غيره غنى عما يراه هو حقا له ، وتخشى الفتنة إذا استمر مدعى الحرية فى غلوائه فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينقى منهم المجتمع صونا له عما يزعزع أركانه ، ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ وأن لا ينشأ شيء إلا باذن من الحكومة ومن لم يخضع لذلك تحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح وقد ينفى من البلاد كما نفى كثيرون فى سنين سابقة ، ولكن هل يسمى هذا اضطهادا ؟ كلا إنما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش ، واضطهاد رؤساء الإصلاح بعدها بأول نشأتهم .

والواقع أن كلام الإمام هنا فى غاية من الغرابة فهو أولا يحاول تبرير اضطهاد السياسيين لرجال الفكر بأنهم يحافظون على أمن الدولة ففيم إذن كانت محاولاته هو وأستاذه جمال الدين الأفغانى إصلاح سياسة المسلمين وساستهم ، وهل أرضاه ما وقع عليه وعلى أستاذه ؟ ومن قال إن المفكر يستطيع أن يحبس فكره ؟ ان الفكر الحر كالسيل لا يمكن منعه مهما أقيمت أمامه السدود والعقبات . والشيخ يرى السياسة عدوة للفكر ويعوذ بالله من ساس ويسوس وسائس ومسوس(١٦١)... الخ إنه إذا حدث صراع بين الفكر والسياسة الغاشمة فالحق فى جانب الفكر لا محالة والفكرة تقاوم بالفكرة والسياسة الغاشمة وإن أخمدت أنفاس الفكرة فى وطن من الأوطان فأنها على التأكيد لن تستطيع استئصال الفكر الحر من جميع أوطانه إن كان للفكر

---

(١٥٧) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص٧٦ - ٨٣ .

(١٥٨) المرجع نفسه ص٨٣ - ٨٤ .

(١٥٩) المرجع نفسه ص٨٥ .

(١٦٠) ص٩٧ - ١٠٢ .

(١٦١) الاسلام والنصرانية ص١١٠ - ١١١ .

وطن . وهوثانيا ينفى أن يكون هذا اضطهادا. ونحن نقول له أنه اضطهاد وان كان أقل من اضطهاد محكمة التفتيش فالاضطهاد طبقات بعضها أسفل من بعض .

ثم تحدث عن الإسلام اليوم أو الاحتجاج بالمسلمين على الإسلام(١٦٢) وقد صوّر حال المسلمين اليوم حين قال : (١٦٣)

فلو أخذن مسلما من شاطئ الأطلانطيق وآخر من تحت جدار الصين لوجدنا كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهى : انّا وجدنا آباءنا على أمة وانّا على آثارهم مقتدون ثم يقول : (١٦٤) « اللهم الا فئة زعمت أنه نفضت غبار التقليد وأزالت الحجب التى كانت تحول بينها وبين النظر فى آيات القرآن ومتون الأحاديث لتفهم أحكام الله منها ، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدرا من المقلّدين ، وإن أنكرت كثيرا من البدع وتحث عن الدين كثيرا مما أضيف اليه وليس منه فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيّد به بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين ، واليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحياء »

ويرى السيد محمد رشيد رضا(١٦٥) أن الإمام « يعنى بهذه الفئة أهل الحديث ومن يسمون الوهابية »

ثم تحدث عن رأى رينان(١٦٦) فى الإسلام وخشيته من قضاء التعصب والجمود والاضطهاد على الدين الإسلامى ويرد الأستاذ الإمام على ذلك بقوله :

هذا كلام فيه شبة من الحق ، ولمعة من الصدق ، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين ، فإن حملة العمائم إنمّا حركهم الحسد لا الغيرة ، وأمّا صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد فتنشر عدواه فيتنبه غافل آخر ويتبعه ثالث ثم ربما تسرى العدوى من الدين إلى غير الدين – إلى آخر ما يكون من حرية الفكر ويعوذون بالله منها .

هنا نجد محمد عبده حقا محمد عبده الذى ينتصر لحرية الفكر ولا يبرر اضطهاد السياسيين لها بأنه محافظ على الأمن كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، ولعل محمد عبده يعنى نفسه حين قال « سجن من قال بقول السلف »... الخ فهذا الوصف ينطبق عليه ألم يدخل السجن اثر الحوادث العرابية ؟ أليس مذهبه هو مذهب السلف ؟ ثم إن فى قوله « ربما تسرى العدوى من

(١٦٢) ص١٠٣ – ١٠٩ .
(١٦٣) ص١٠٦ .
(١٦٤) ص١٠٦ .
(١٦٥) هامش ص١٠٧ .
(١٦٦) ص١٠٩ – ١١١ .

الدين إلى غير الدين - إلى آخر ما يكون من حرية الفكر فى هذا القول مما يؤيد ما ذهبنا اليه من أن محمد عبده لم يسلك مذهب السلف فى الدين وحده بل هو مذهبه أيضا فى اللغة والأدب والنقد بناء على سريان العدوى من الدين إلى غير الدين .

ثم تحدث الإمام عن جمود المسلمين(١٦٧) وأسبابه ، ومما لاحظته على كلامه قوله : « والغوغاء(١٦٨) عون الغاشم ، وهى يد الظالم » وقوله : والعامل(١٦٩) الأقوى فى حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة فى الدين ، وموافقة الهوى - أمور إذا اجتمعت أهلكت فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس النّاس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما قال .

قال لإمام(١٧٠) فى جناية الجمود على النظام والاجتماع « الجمود قد يؤدى إلى الجحود »

كان من رأى الإمام(١٧١) « إنه ينبغى أن يعيّن القضاة فى مصر من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها ، وقال : إن الضرورة قاضية بأن يأخذ فى الأحكام ببعض أقوال مذهب مالك أو مذهب الشافعى تيسيرا على النّاس ودفعًا للجور والفساد »

كان الإمام إذا رأى فسادا بحث فى الوسيلة إلى اقتلاع هذا الفساد ، كان بينه وبين أحد المدرسين حديث فى أخذ الطلبة بالنصيحة فرأى المدرس استحالة المنفعة وبالتالى فالأمر والنهى لغو فقال الإمام : (١٧٢)

فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه وبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم ، و لم ينظر فى الوسيلة إلى اقتلاع هذا الفساد ، مع أن الدين يدعوه إلى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لاسبيل إلى اصلاحه . وتحدث فى جناية الجمود على العقيدة فكان مما قال(١٧٣) : انجر التساهل فى الاعتماد على النقل إلى الخروج عما اختطه لنا السلف رضى الله عنهم ، فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمنحون قوله حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة ، ولكن جمود المتأخر على مايصل إليه من المتقدّم صير النقل فوضى » .

فأنت ترى من هذا أن الإمام يرفض النقل عن السابقين بدون وعى ولا تبصرة ، فهو يدعو

---

(١٦٧) ص١١١ .

(١٦٨) ص١١٤ .

(١٦٩) ص١١٥ .

(١٧٠) ص١١٩ .

(١٧١) ص١٢٠ .

(١٧٢) ص١٢٣ .

(١٧٣) ص ١٢٦

إلى اعمال العقل فى كلام السابقين حتى لايكون الإنسان كالببغاء عقله فى أذنيه كما قال شوقى.

لقد كان الإمام كالطبيب يفحص مريضه فيعرف أسباب المرض ومايجرّ إليه ثم يطب للداء بوصف العلاج وفى حديثه هذا يظهر تأثر أسلوبه بالقرآن الكريم والحديث الشريف واقتباسه منهما وذلك إذ يقول(١٧٤) : هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ويجلبون العار على الإسلام بدخولهم تحت عنوانه ويقوون حجج أعدائه فى حربهم بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وماهم منه فى شىء .

هؤلاء لابد أن يصيبهم ماأصاب الأمم قبلهم فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعًا بذراع وضيقوا على أنفسهم بدخولهم جحر الضب الذى دخلوه ، ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فلن يخلص مما قضى الله فى عذابهم فقد قص عليهم سير الأولين ، وبيّن لهم ماأنزل بهم عندما انحرفوا عن سننه ، وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا - أحل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ، فهل ينتظر المتبعون سننهم ، السائرون على أثرهم أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا » .

ويرى الإمام أن الخلاف بين العقل والقلب فى الوسيلة لا فى الغاية بل يرى أكثر من ذلك وهو أن المشاهدات بالحس الباطنى من مبادىء البرهان العقلى . استمع إليه وهو يقول : (١٧٥) .

اياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذّج من أن فرقا بين العقل والوجدان أو القلب فى الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة فإنما يقع التخلف بينهما عرضا عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطنى « الوجدان أو القلب » من مبادىء البرهان العقلى كوجدانك أنك موجود ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذّتك وألمك ونحو ذلك .

منحنا العقل للنظر فى الغايات والأسباب والمسببات والفرق بين البسائط والمركبات والوجدان لإدراك مايحدث فى النفس والذات من لذائذ وآلام ، وهلع واطمئنان وشماس وإذعان ونحو ذلك مما يذوقه الإنسان ، ولايحصيه البيان .

ثم يرى الإمام أن معرفة المسلمين للزندقة والتكفير عدوى سرت اليهم من جيرانهم وسهّل سريانها ضعف المزاج الدينى عند المسلمين وذلك حيث يقول(١٧٦) :

« لا أكاد أخطىء القارىء إذا زعم أن المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق

---

(١٧٤) ص ١٣٤

(١٧٥) ص١٣٨

(١٧٦) ص ١٥١

وزنديق من فضل ما علمه جيرانه إذ كانوا يقولون هرتقة وتهرتق وهو هرتوقى : أو ما يماثل ذلك - أو زعم أن قد فشت فى المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة ، وأن الذى سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الدينى عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوّماته ، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم .

ولا يعجبنى من الإمام التعميم فى الأحكام ومن أمثلة ذلك قوله : (١٧٧)

قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين فى ابن تيمية - وهو أعلم النّاس بالسنة ، وأشدهم غيرة على الدين - إنه ضال مضل فلم يعجبنى أعلم وأشد بهذا التعميم والذى يأخذ بالحيطة ويقول هو من أعلم الناس ... الخ يكون قد سار على نهج العلماء ومن أولى من الإمام بذلك ؟

ونحن بحاجة إلى أن نعرف الفترة الزمنية التى عاشها مذهب السلف ذلك الذى يتمسك به الإمام ويدعو إليه يرى الإمام أن ذلك المذهب امتد عبر القرون من الثالث الهجرى إلى السادس وذلك حيث يقول :(١٧٨) كتب على القرآن تفاسير كثيرة فى القرن الثالث من الهجرة ومابعده الى السادس ومن خلال حديث الامام يبدو رضاه عن كتب التفسير فى هذه الفترة وقد عدد بعضها ، ولعل فى ذلك تحديدا زمنيا لمذهب السلف فى التفسير .

ثم يشير الإمام إلى حال طلبة العلوم الدينية وما آلت إليه من سوء بسبب اعتمادهم على مختصرات من كتب المتأخرين وإهمالهم طريقة السلف وذلك حيث يقول(١٧٩) .

إن حالة طلبة العلوم الدينية الإسلامية أصبحت مما يرثى له فى أكثر بلاد المسلمين فهم لا يقرؤن من كتب الكلام إلا مختصرات مما كتب المتأخرون . يتعلم أذكاهم منها ماتدل عليه عباراتها ولا يستطيع أن يتعلّم البحث فى أدلتها وتصحيح مقدّماتها وتمييز صحيحها من باطلها ، وإنما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه ﷺ ويأخذ مافيها بالتسليم فإذا ناظره مناظر فى بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا . وإن لم يكن القول متفقا عليه بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذى اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب مما لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذا يأخذ عنه مايقول .

ثم عرض الإمام لتشويه(١٨٠) المسلمين للإسلام ، وتغيير معالمه وأنه « صح فيهم ماقال عمر الخيام فى بعض أشعاره الفارسية مخاطبا النبى عليه الصلاة والسلام » إن الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته » .

(١٧٧) ص١٥١

(١٧٨) ص١٥٢

(١٧٩) ص١٥٣

(١٨٠) ص١٥٤

ثم تحدث عن التقليد وأثره الضار فقال[١٨١] «لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر إلى الدنيا والأخرى تنظر إلى الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون أغمضوا احدى العينين وأقذوا الأخرى بما هو أجنبي عنهم ففقدوا المطلبين ، ولن يجدوهما إلا بفتح ماأغمضوا وتطهير ماأقذوا » .

ويذهب الأستاذ الإمام إلى أن الإنجليز أخذوا بعض النظم الإسلامية وطبقوه فى بلادهم وفى ذلك يقول[١٨٢] هل أجد من يأبى علّى القول بأن الإسلام السليم من البدع هو أستاذ الانجليز ، وعنه أخذوا هذه الخلة ؟ ألا ترى أن نظامهم فى ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين : يكتفون من النّاس بالخضوع للقوانين وأداء مايفرض عليهم من الضرائب ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ماتسمح به السياسة لايفرقون بين دين ودين ؟ وهكذا كان حال المسلمين ، وإن كان ذلك على قاعدة أبرّ وأرحم .

ومما يذكر أيضا فى ميدان النقدين العلمى والاجتماعى ردّ الإمام على هانوتو فقد اعتاد الأستاذ الإمام أن يتصفح الجرائد فى القطار بين القاهرة وعين شمس التى فيها داره غدوا ورواحا ، فلما كان رائحا بعد العشاء من الأزهر وقد قرأ درس المساء فيه نظر فى المؤيد فإذا فيه قسم من مقال هانوتو فقرأه فى القطار والانفعال يساوره فما عتم بعد وصوله إلى الدار أن شرع فى الرد على ماقرأ فى فرصة تهيئة طعام العشاء وأتمّ المقالة الأولى بعد تناول الطعام وأرسلها إلى المؤيد . ومما جاء فى رد الأستاذ الإمام : [١٨٣]

١ - يرى الناظر فى كلام مسيو هانوتو لأول وهلة أنه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد فى العقائد ، وأنه جمع خليطا من الصور وحشرها إلى ذهنه ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الإسلام من الفرنساويين وهو جمهورهم .

٢ - ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذى وصل إليه الأوربيون حمل إلى أوربا مع المهاجرين الأولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية إلى الأقطار الغربية[١٨٤] ؟ ألم يخطر بباله تلك العظائم التى انتفخ بها بطن التاريخ ، وماكانت عليه أوربا الآرية من الهجمية ، وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها وإنما جاءها بمخالطة الأمم السامية كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الأقدمين وهم أساتذة الأوربيين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو .[١٨٥]

---

(١٨١) ص١٥٨

(١٨٢) ص١٦٦

(١٨٣) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص٤٠٠

(١٨٤) المرجع السابق ص٤١٦

(١٨٥) المرجع نفسه ص٤١٦

٣ - إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوءها من بلاد الأندلس على ماجاورها.[١٨٦]

٤ - إن صح الحكم على الأديان بما يشاهد فى أحوال أهلها وقت الحكم جازلنا أن نحكم بأنه لا علاقة بين الدين المسيحى والمدنية الحاضرة.[١٨٧]

٥ - لازالت الأمم يأخذ بعضها عن بعض فى المدنية لافرق عندهم بين آرى وسامى متى مست الحاجة إلى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورات الحياة أو استكمال شأن من شئونها.

٦ - انني أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهى أن دين التوحيد ليس دينا ساميا بل هو دين عبرانى فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون. أما بقية الساميين من عرب، وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة فى الكتاب المقدس، وهو يعرفها فقد كانوا وثنيين مشبهين، ولم يخالفوا فى ذلك بنى عمهم أو أعدائهم الآريين.[١٨٩]

٧ - لم يختص الكلام فى القدر بملة من الملل.

٨ - وليس هذا بمذهب سامى كما يزعم مسيو هانوتو بل لم تنبت أصوله، ولم تتشعب فروعه إلا بين الآريين ثم انتقلت عدواه إلى غيرهم[١٩٠].

٩ - جاء القرآن الشريف - وهو الكتاب المنزل بالإسلام - يعيب على أهل الجبر رأيهم وينكر عليهم قولهم (لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء) بقوله (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسناقل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) وأثبت الكسب والاختيار فى نحو أربع وستين آية، وماجاء به مما يتوهم الناظر فيه مايخالف ذلك فإنما جاء فى تقرير السنن الإلهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما فى آية (ولو شاء ربك لجعل النّاس أمة واحدة).. الخ ونحوها.

والعاقل يرى الفرق الجلى بين مسألة اختيار العبد فى أفعاله وبين أثر القدرة الإلهية فى أخلاق الأمم، أو فى تقرير الغرائز مثلا، فاختيار العبد فى أفعاله مما يقربه الوجدان، ولاينكره إلا من جهل نفسه، لكن ماعليه الأمم من الاختلافات فى الطبائع والغرائز والسجايا ليس لأحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والأرض ومابينهما[١٩١].

(١٨٦) المرجع نفسه.
(١٨٧) المرجع نفسه ص٤١٨
(١٨٩) المرجع السابق ص٤١٩
(١٩٠) المرجع نفسه ص ٤٢١
(١٩١) المرجع نفسه ص ٤٢٢

١٠ - جاء الموالى من عجم الفرس والرومان ، ولبسوا لباس الإسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق.

١١ - وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة.

١٢ - غلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار ، وهو مذهب الجد والعمل ، وصدق الإيمان ، وأخذه عن المسلمين فى آخريات الأيام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسيه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الأعظم منهم(١٩٢).

١٣ - كلما ارتقى الإنسان فى العلم ولطف وجدانه بالفهم ... تمزّقت دون روحه حجب المادة ... وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم ... وقف فيثاغورس على عتبة التقديس ، وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو مجاهدين فى كشف الغمة عن عيون شعوبهم(١٩٣).

١٤ - إنى أرفع أدبًا من أن أطعن فى عقائد المسيحية فى جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتى هى أحسن(١٩٤).

١٥ - لم يكد ينتهى القرن الثانى من ظهور الإسلام حتى جال المسلمون فى علوم السموات والأرض ، وصححوا الأغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصول ، وفى مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ومسحوا الأرض وأتوا فى ذلك بما هو معهود لأهل العلم فى ديارنا وديار مسيو هانوتو ، إنى اكتفى بما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر فى الأمم الغربية اليوم : أقامت النصرانية فى الأرض ستة عشر قرنا ، ولم تأت بفلكى واحد ، وأخذ المسلمون يبحثون فى هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين هذا لايعد طعنا فى أصول الديانة المسيحية وإنما هو طعن فى تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت به.

١٦ - قضى الإسلام بأن لايكون للكون إلا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق. وحظر على النّاس مقامين لايمكن الرقى اليهما مقام الألوهية التى تفرد بها ، ومقام النبوة التى اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وماعدا ذلك من مراتب الكمال فهى بين يدى الإنسان ، وينالها باستعداده ، لايحول دونها حجاب إلا ما كان من تقصيره فى عمله ، أو قصوره فى نظره(١٩٥)

---

(١٩٢) المرجع السابق ص ٤٢٣
(١٩٣) المرجع نفسه ص٤٢٥
(١٩٤) المرجع نفسه ص٤٢٩
(١٩٥) المرجع نفسه ، ص ٤٣٠

١٧ - يجب على الباحث فى الإسلام أن يطلبه فى كتابه كما يجب عليه أن يطلب آثاره والإسلام إسلام ، والمسلمون مسلمون[١٩٦]

١٨ - لايخفى أن كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهى جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهى سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهى غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة فالظافر فى ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد ، فإن قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، وإلا استحال الإتفاق ، واستبد القوى بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء سنة الله فى عالم الأحياء[١٩٧] .

١٩ - خير القوى ماحفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ووقف لهيبته كل المتنافسين عند حده ، حتى يستقر السلام بينهم وتشمل الطمأنينة شئونهم .

وقد تألفت قوى الأمم الأوروبية من عناصر هى العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح[١٩٨] .

٢٠ - فإن لم يسع المسلم بعزم ثابت فى تحصيل هذه العناصر التى سبق ذكرها أو تقوية ماضعف عنده منها وهو مسلم كان مخالفا لكتابه[١٩٩] .

٢١ - إن المسلمين إذا تهذبت أخلاقهم بالدين سابقوا الأوروبيين فى اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم فى التمدن ، وعند ذلك يسهل الإتفاق معهم إن شاء الله[٢٠٠]

وفى ختام جولتنا عن النقدين العلمى والاجتماعى نلتقى بالإمام فى رحلته إلى صقلية أثناء زيارته لمتاحفها فنراه يمجد فكرة المتاحف بأنواعها المختلفة ويرى أن فائدتها لاتقتصر على النواحى العلمية والفنية فحسب بل إنها تتعداه إلى الحياة الاجتماعية فلو حفظنا الدراهم والدنانير التى كان يقدر بها نصاب الزكاة ، ولايزال يقدر بها إلى اليوم لسهل علينا تقدير النصاب بالجنيهات والفرنكات ونحو ذلك . وكذلك الشأن فى تحديد الصاع والمد ونحوهما من المكاييل ، لو حفظنا هذه الأشياء لما وجد ذلك الخلاف الذى استمر بين الفقهاء يتوارثونه سلفا عن خلف .

يقول الإمام : لوحفظنا الدراهم والدنانير التى كان يقدر بها نصاب الزكاة ولايزال يقدر بها إلى اليوم أفما كان يسهل علينا تقدير النصاب بالجنيهات والفرنكات ونحو ذلك مادام المثال

(١٩٦) المرجع السابق ، ص٤٣١ .

(١٩٧) المرجع السابق ، ص٤٥٠ .

(١٩٨) المرجع السابق ، ص ٤٥١ .

(١٩٩) المرجع السابق ، ص٤٥٢ .

(٢٠٠) المرجع السابق ، ص ٤٦٢ .

الأول موجوداً بين أيدينا ولو حفظ الصاع والمد وغيرهما من المكاييل أفما كان ذلك مما ييسر لنا معرفة مايصرف فى زكاة الفطر وما تجب فيه الزكاة من غلات الزروع بعد تغيير المكاييل ، وماكان علينا إلا أن نقيس مكايلنا بتلك المكاييل المحفوظة فنصل إلى حقيقة الأمر بدون خلاف ، أظنك توافقنى على أنه لو حفظ درهم كل زمان وديناره ومده وصاعه لما وجد ذلك الخلاف الذى استمر بين الفقهاء يتوارثونه سلفا عن خلف كل منهم يقدر المكيال والميزان بما لا يقدر به الآخر حتى جاء فى آخر الزمان أحمد بك الحسينى يخطىء بعضهم ويوفق بين أقوال البعض الآخر بدون أن يكون بين يديه صاع ولا مد من تلك الآصع والأمداد ومأأصعب التخطئة والتوفيق إذا لم يكن العيان هو المميز بين فريق وفريق[٢٠١]

نقد الكتب :

ونقصد به تلك النظرات العامة التى أبداها الإمام فى بعض الكتب مؤلفة أو مترجمة ورأيه فى أصحاب هذه الكتب .

وليست هذه النظرات بالأمر التافه الذى لايؤبه له فإنها طاقات فنية كبرى ، وإذا صح مايقوله الأستاذ قسطاكى الحمصى[٢٠٢] من أن جميع ماقرأه لجهابذة هذا الفن[٢٠٣] المشهورين : سنت بوف ورينان وتين وفرديناند برونتير واميل فاجه وجول لوميترو أودلف بيسون وغيرهم من المعاصرين لايتعدى نقد مؤلفات ومصنوعات ومؤلفين ومتغنين إذا صح هذا فإننى لاأستبعد أن يكون الإمام قد تأثر بهؤلاء النقاد الفرنسيين فى اتجاهه نحو نقد الكتب ، وإذا صح هذا أيضا فاننى أعد الإمام رائد هذا الاتجاه فى الأدب العربى الحديث ومهما يكن من شىء فقد كانت هذه النظرات تسير فى اتجاهين :

١ — تقريظ .   ٢ — تقديم وتقويم .

أولا : التقريظ :

التقريظ مدح الشيء والثناء عليه مأخوذ من قرظ الجلد دبغه بالقرظ ، وقرظه بالغ فى دباغة ، وسموا المدح تقريظا « لأن المقرظ يحسن ويزين صاحبه كما يحسن القارظ الأديم » وبهذا المعنى يستعملها الكتاب المحدثون فيعنون بالتقريظ ذكر المحاسن[٢٠٤] ومن عادة المؤلفين ولاسيما المبتدئون منهم أن يلجؤا فى ترويج مايؤلفون إلى تقاريظ يحصلون عليها من أعاظم الرجال وأكابر العلماء وأعلام النقاد ، ولانبالغ إذا قلنا إن هذه ظاهرة أدبية قديمة قدم الأدب العربى . ألا تذكر النابغة وقبته الحمراء فى عكاظ ؟ يشهد لهذا الشاعر فيروج شعره ويغض عن

(٢٠١) المرجع السابق ، ص ٥٠١ .

(٢٠٢) منهل الوراد فى علم الانتقاد ، جـ١ ، ص٤ .

(٢٠٣) النقد الأدبى .

(٢٠٤) فيض الخاطر ، لأحمد أمين ، جـ١٠ ، ص١٧٢ .

هذا فيكسد شعره . وقد عبرت هذه الظاهرة عصور الأدب العربى لم يخل منها عصر على وجه التقريب حتى إذا وصلنا إلى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين وجدنا الشيخ عبد الرحمن البرقوقى يقول[٢٠٥] : « جرت عادة المؤلفين فى هذه الأيام أن يلجؤا فى ترويج مايؤلفون إلى الإكثار من التقاريظ وكلمات المدح والإطراء من أعاظم الرجال وأكابر العلماء » .

على أننا نعتقد أن الكتاب النفيس يحمل بين طياته عناصر تقريظه بما ينطوى عليه من آراء سديدة واتجاهات قيمة .

إلا أننا نجد أن لفيفا من الكتاب قد اتجه بمؤلفاته إلى الأستاذ الإمام ليقرظها لأنه كما يقول الشيخ البرقوقى[٢٠٦] « نابغة هذا العصر » .

والملاحظ على تقاريظ الإمام أنها لم تنح نحو الإطراء الكاذب والمدح الخادع وإنما قومت ووجهت ، وشاعت فيها نظرات صائبة وأصول فنية فى النقد الأدبى فحين يقرظ شرح متن التلخيص للشيخ عبد الرحمن البرقوقى نراه يحدثنا عن البلاغة وأنها ملكة البيان وقوة النفس على حسن التعبير وذوقها لمحاسن ماتسمعه أووجوه النقد فيما يلقى اليها ، وإن علوم البلاغة إنما وضعت ليصل محصلها إلى امتلاك تلك الملكة ، وليكون على بصيرة من وجوه التعبير . حتى إذا وصل إلى « متن التلخيص » رأى أن شروح السابقين له غير كافية لأنها أهملت الغاية من البلاغة ، ورأى أن شرح الشيخ البرقوقى كاف فى تبيين معنى مافى الكتاب ، ولاحاجة بالسائر إلى الغاية من الفن إلى ماهو أكثر مما جاء فيه .

ثم نراه يلفت نظر الأدباء والضالعين فى الفن إلى أن تحصيل ملكة البلاغة لايكون بحفظ هذه القواعد وفهمها فحسب وانما يكون بالعمل ومزاولة كلام البلغاء ، وكسب أساليب الفصحاء ثم يرى الإمام أن العمل الناضج والأسلوب الرائق خير شاهد لصاحبه فى نظر العلماء بل وأيضا عند العدو والصديق .

وبعد فأنت إزاء هذا التقريظ لست أمام مدّاح وإنما أنت أمام موجه فنى وناقد بصير يعرفك البلاغة وماهى ؟ وماالغاية منها ، ويميز الغث من السمين فى هذا الميدان ثم يرشدك للتى هى أقوم حتى ترضى الفن وأهله والعدو قبل الصديق يقول[٢٠٧] الإمام : « ليست البلاغة فى الحقيقة إلا ملكة البيان ، وقوة النفس على حسن التعبير عما تريد من المعنى لتبلغ من مخاطبها ماتريد من أثر فى وجدانه يميل به إلى الرغبة فيما رغبت عنه ، أو النفرة مما كان يميل اليه ، أو تمكين ميل إلى مرغوب ، أو تقرير نفرة من مكروه ، أو تحويل فى اعتقاد أو تغيير لعادة أو

---

(٢٠٥) مقدمة شرح متن التلخيص ، ص ٢٣ .

(٢٠٦) المرجع السابق ، ص٢٣ .

(٢٠٧) مقدمة وضعها الشيخ عبد الرحمن البرقوقى لشرحه على التلخيص - التقريظ ، ص٢٣ ، ٢٤ .

مايشبه ذلك مما يقصد بالخطاب ، وذوق النفس كذلك لمحاسن ماتسمعه أو وجوه النقد فيما يلقى إليها . هذه هى البلاغة فى حقيقة الأمر وضعوا علوما ليصل محصلها إلى امتلاك تلك الملكة أحكم قواعدها عبد القاهر الجرجانى وتبعه من جاء بعده على نوع من التحرير والتنقيح ، وجاء صاحب التلخيص بمجمل ماينبغى تنبيه النفس إليه من أسرار تأليف الألفاظ ليكون المحصل لذلك المجمل على بصيرة من وجوه التعبير شرحه كثير من الناظرين فى الفن ، وتعلق الأغلب بلفظه ، ولم ينظروا الغاية من وضعه فصرفوا الوقت فيه وفاتهم البلاغة نفسها بجميع مقاصدها فلاهم يحسنون إذا كتبوا ، ولاهم يقنعون إذا خطبوا ، ولاهم يحسنون الاستماع إذا خوطبوا كما هو معروف لأنفسهم ولكل من يعرفهم .

شرحه الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، واطلعت على نموذج من شرحه فوجدته كافيا فى تبيين معنى مافى الكتاب موجها نظر الناظر فيه إلى ماقصد منه ولا حاجة بالسائر إلى الغاية من الفن إلى ماهو أكثر مما جاء فيه ، وإنما الواجب عليه تحصيل الملكة ومزاولة كلام البلغاء ، وكسب أساليب الفصحاء حتى يتم له من شأنه مايريد ، ويشهد له كلامه قبل أن يشهد لنفسه ، وليس لكلامه أن يشهد حتى يروق العلم وأهله ، وعدوه وخله »

وترى الإمام حين يبعث برسالة إلى أحد المؤلفين يحدد لذلك المؤلف مكانه فى طريق الأدب العربى فهو مؤلف بين التقليد والتجديد : التقليد فى تجويد الرأى واحترام العقل ، والتجديد فى الترتيب المنطقى للأفكار ، ثم تراه يتخيل أن ذلك المؤلف صاحب مثل أعلى فى البلاغة وأن مثله الأعلى هو القرآن الكريم الذى خط للعرب طرقا جديدة للتعبير لينهضوا بأدبهم ، ويرى الإمام أن المؤلف كلما اقترب من المثل الأعلى قوى تأليفه وكلما ابتعد عنه ضعف ذلك التأليف .

نحن إذا امام ناقد أدبى يضع الأديب فى مكانه من خط سير الأدب العربى ، ويرى أن المثل الأعلى للعربية وآدابها هو القرآن الكريم وأن القرب منه قرب من البلاغة فى ذروتها وأن البعد عنه بعد عن البلاغة واتجاه نحو الضعف والركاكة يقول الإمام(٢٠٨)

لم تفتك فضيلة الابداع ، ولم تحرم من حسن الاتباع اقتفيت أثر سلفك من تجويد الرأى واحترام مقام العقل فلم يهبط بك التقليد إلى ما يحط بالعمل ويسقط من قيمة الكد فى الجد ثم أبدعت فى ترتيب كتابك على ما هو أقرب للفهم وأدنى إلى التقريب من حقيقة العلم وكأنى بك قد وقفت على ذلك السر الذى خفى عن الجمهور الأعظم ممن سبقك ، وهو أن القرآن قد خط للعرب طرقا للتعبير ، ومهّد لهم سبلا جديدة لصوغ الأساليب ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزموه ، ويبعد بك منهم عن تكلف كانوا رمّوه ، ولهذا قوى عندك كل ما بنى عليه وضعف لديك كل ما لم يستند اليه .

(٢٠٨) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضد ، جـ٢ ص٦٢٨ .

وحين يبعث الإمام برسالة إلى سليمان البستانى مترجم الإلياذة نراه يثير قضية من أخطر قضايا النقد الأدبى فى القديم والحديث هو خلو الأدب العربى من شعر الملاحم بالرغم من أن العرب قد اتصلوا باليونان فى العصر العباسى ، وكان من الممكن أن يترجموا هذا اللون من الشعر كما ترجموا علم اليونان إلا أن الإمام يرى أن ترجمة العلم أمر ميسر عن ترجمة الشعر ذلك أن العلم لا يختلف فيه مشرق عن مغرب ، ولا يتخالف على حقائقه الأعجم والمعرب ، كما رأى الإمام أن الأساطين الأولين من العرب ظنوا أن ما وراء العلم من آداب القوم ليس مما يتناسب مع آدابهم لبعد ما بين أنساب أولئك وأنسابهم ، فالسر فى عدم ترجمة الآداب اليونانية إلى العربية فى نظر الإمام يرجع إلى اختلاف الجنس العربى عن الجنس اليونانى .

على أن الإمام فيما يبدو لم يكن مقتنعا بهذه الحجة وعتب على علماء العربية لأنهم حرموها من نفائس ما اخترع اليونان وكان مؤمل اللغة منهم ألا يحرموها ، فلما جاء سليمان البستانى وترجم الإلياذة حق له الشكر على كل من يعرف قيمة هذا العمل الذى سد ثلمة فى بنية العلم العربى من عشرة قرون ، ويبدو أن الإمام كان مفتونا باليونانية فترجمة الفنون اليونانية فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده صيرت اللغة العربية لسان العلم والصنعة بل كانت لسان الدين والحكمة يقول[٢٠٩] الإمام موجها حديثه إلى سليمان البستانى :

تمت لك ترجمة الإلياذة لنابغة شعراء اليونان هيروس المشهور . نسجت قريحتك ديباجة ذلك الكتاب كتاب الترجمة فإذا هو ميدان غزت فيه لغتنا العربية ضريعتها اليونانية فسبت خرائدها ، وغنمت فرائدها ، وعادت الينا فى حلل من آدابها تحمل إلى الألباب قوتا .

لكن كان أولئك الأساطين يرون أن ذلك ما يفرضه الحق عليهم فى جانب العلم الذى لا يختلف فيه مشرق عن مغرب ، ولا يتخالف على حقائقه الأعجم والمعرب[٢١٠] وظنوا أن ما وراء العلم من آداب القوم ليس مما يتناسب مع آدابهم لبعد ما بين أنساب أولئك وأنسابهم فلم يمدوا نظرهم إلى ما كان فى اليونانية من دواوين الشعراء وما صاغته قرائح البلغاء فلم تنل اليونانية من عنايتهم ما نالت الفارسية والهندية ، وكان مؤمل اللغة منهم ألا يحرموها نفائس ما اخترع اليونانيون كما زينوها بزينة ما أبدع الهنديون والفارسيون ، وبقى ذلك المؤمل فى غيب الدهر حتى أتيت ترفع عنه الستر[٢١١] من لبابها ، وما أجمل ذلك الغلب فى زمن ضعف فيه العرب ، حتى عن الرغب فى نيل الأدب ، ما ينال منه عن كثب فضلا عما يكسب بالتعب فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة ما وفقت لإكماله من العمل فقد سددت به ثلمة كانت فى بنية العلم العربى من عشرة قرون .

(٢٠٩) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ ، ص٦٢٩ — ٦٣٠ .

(٢١٠) المرجع السابق ، ص٦٢٩ .

(٢١١) المرجع السابق ، ص٦٣٠ .

أغار قومنا على دقائق الفنون اليونانية فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده فنثروا منها ما كان مخزونا ، ونثروا بين الناس ما كان مدفونا ، ولم يدعوا غامضا إلا جلوه ، ولا بعيدا إلا قربوه ونالت اللغة العربية بصنيعهم ذلك ما لم يكن فى حسبانها فقد صارت لسان العلم والصنعة بل كانت لسان الدين والحكمة .

وليأخذ البحث مجراه الطبيعى لابد لنا من مناقشة أسباب عدم معرفة العرب لهذا الفن أو عدم اختراعهم له . وهل ما ذكره الإمام هو الصواب كل الصواب ؟ أم أن هناك آراء أخرى .

من الغريب أن العرب قد عرفوا الأوثان وتعدد الآلهة بل وعرفوا الجن وعوالمه ومع ذلك لم تنم عندهم الأساطير على نحو ما نمت عند اليونان مثلا بل وعند المصريين القدماء إلى حد بعيد فى أسطورة ايزيس وأوزوريس وغيرها مما يدعونا إلى أن نسلم بأن الناقد الكبير هيبوليت نين لم يكن مخطئا كل الخطأ عندما جعل الجنس والبيئة من العوامل الأساسية فى تمييز أدب أمة عن غيرها . ومن الممكن تدعيم هذه الحقيقة أيضا بما نلاحظه من أن العرب قد كانت لهم أيام وحروب وغزوات بين القبائل المختلفة ، ومع ذلك لم ينشأ عندهم شعر الملاحم على نحو ما نجد فى « الإلياذة والأوديسا » عند اليونان أو « الإنديادة » عند الرومان بل وأحيانا فى بعض الآداب الأوروبية الحديثة مثل ملحمة « رومان رولان » أو « الفرنسياد » عند الفرنسيين .

ومن العجب أن لاتخلق الحروب الصليبية عند العرب هذا الفن كما خلقته عند الفرنسيين أو غيرهم من الغربيين مع أن فى بطولة صلاح الدين ما يبذ بروعته بطولة رولان وغيره وإن يكن الشعب قد تدارك ما فات فصحاء الأدب فألف فى العصور المتأخرة ملاحمه الشعبية عن عنترة وأبى زيد الهلالى وغيرهما .[٢١٢]

إذا كان هذا هو الوضع الأصيل عند العرب فإن الباحثين يتساءلون لماذا لم يأخذ العرب شعر الملاحم عن اليونان على نحو ما أخذوا مبادئ العلوم والفلسفة والمنطق فى العصر العباسى عندما نشأت الترجمة وتوثقت الصلة بين العرب والثقافة الأجنبية ؟

يذهب أصحاب « التوجيه[٢١٣] الأدبى » إلى أن العرب لم يتأثروا كثيرا بالأدب اليونانى كما تأثروا بالفلسفة والطب والرياضة فلم ينقلوا الروايات اليونانية ولا الشعر اليونانى ولا كثيرا من القصص اليونانى ، ولعل السبب فى ذلك أن الأدب اليونانى كان مملوءا بأسماء الآلهة اليونانية فلم يستسيغوها ، ولأن هناك فرقا واضحا بين الفلسفة والعلم وبين الفن والأدب والفلسفة والعلم يرجعان إلى العقل والعقل عالمى يشترك الناس كلهم فى قضاياه ونتائجه ، وأما الفن والأدب فرجعها الى الذوق ، والذوق مختلف بين الشعوب .

---

(٢١٢) محاضرات عن مسرحيات شوقى للدكتور محمد مندور ، ص٣ ، نشر معهد الدراسات العربية ٥٤ -٩٥٥

(٢١٣) طه حسين - أحمد أمين - عبد الوهاب عزام - محمد عوض محمد ، ص٢٠٧ .

ولا أستبعد أن يكون أصحاب هذا الرأى متأثرين برأى الإمام الذى نقلنا سابقا ولاسيما فيما يتعلق بالتفرقة بين ترجمة العلم وترجمة الأدب . ولاسيما إذا علمت أيضا أن هؤلاء الكاتبين تلاميذ لمحمد عبده ، ورأى الدكتور محمد مندور قريب من رأى أصحاب التوجيه الأدبى فهو يرى أن السبب فى عدم نقل الأدب اليونانى إلى العربية أن الفلسفة الدينية عند اليونان تتعارض مع الفلسفة الدينية فى الإسلام[214] ومهما يكن من شىء فرأى الإمام له قيمته فى تاريخ الأدب والنقد وعند المعاصرين من نقادنا .

وحين نلتقى بالإمام فى تقريظه لكتاب البؤساء ترجمة حافظ ابراهيم نراه يشيركذلك إلى قضية مهمة من قضايا النقد تلك هى قضية الترجمة .

إن هذه القضية كانت موضع مدارسة ومناظرة بين القدماء كما هى بين المحدثين وقد زادها دراسة وتفصيلا عبد القاهر[215] الجرجانى وخرج على الناس بنظرية فيها تحدثنا عن أن عرف اللغة وطرقها الخاصة يترجم بالمعنى أما الاستعارة المفيدة والتشبيه المفيد فتنقل كما هى فى لغتها المترجم منها إلى اللغة المترجم اليها نقلا لفظيا عن طريق الاستعارة أو التشبيه أو المجاز وإلا فقدت جمالها وبلاغتها ، ان هناك نوعين من الترجمة :

١ — ترجمة العلوم .   ٢ — ترجمة الآداب .

فالأولى تعنى بالفكرة والنظرة الموضوعية دون تأثر بشعور فردى أو عاطفة شخصية أما الثانية فإنها بطبيعتها أشد عسرا وأصعب منالا ذلك لأن الآداب تعتمد على التصوير والعاطفة والتأثير والانفعال إلى جانب ما يمكن أن تشتمل عليه من أفكار ، ولا يكون الأدب أدبا إلا بخروج الكلمات عن دلالتها اللغوية وشحنها بفيض من الصور والأخيلة ، ومترجم الآداب لا يقنع عادة إلا بترجمة أدبية تبرز نواحى الجمال فى النص المترجم كى يتذوق القارئ أكبر قدر ممكن من جمال النص الأصلى ويقف على عناصر المهارة فيه[216] وليست ترجمة الأدب بمستحيلة أو فوق طاقة البشر غير أنها تحتاج إلى الجهد والمثابرة ، وتتوقف إلى حد كبير على السيطرة والقوة فى اللغتين ، وقد عبّر أحد الدارسين[217] من المحدثين عن هذا بقوله : إن لغة كل أمة وبخاصة اللغة الأدبية متحملة بعواطف خاصة قد لاتدركها الألفاظ ، ولكن يدركها الأديب وحده ، وكثيرا ما نقف أمام نص من النصوص وقفة المتردد الذى يتمنى لو أنه رأى الأديب فيسأله عما أراد بهذا النص ، ويود لو كان حيا ليسأله عما يريد بل هو يتأمل بذهنه مستعرضا ظروف الأديب نافخا فيه الحياة من جديد ليسأله عما يريد وقد أشار الإمام إلى هذه الحقيقة فى تقريظه

(٢١٤) محاضرات عن مسرحيات شوقى ، ص٥ .

(٢١٥) أسرار البلاغة ، ص٢٣ .

(٢١٦) على محمود طه حياته وشعره ، ص٣٤٣ .

(٢١٧) ابراهيم سلامة : تيارات أدبية بين الشرق والغرب ، ص٤٧ .

لترجمة حافظ ابراهيم لكتاب البؤساء ، وأشار إلى ضرورة العناية فى الترجمة الأدبية بجمال الأسلوب ، وحسن الصياغة وارتفاع البيان وقد اشتملت ترجمة حافظ على كل هذه الخصائص الفنية حتى أن الإمام ليضع حافظ ابراهيم بسبب هذه الترجمة فى طبقة ابن المقفع ، ويراه رائدا من رواد الترجمة الأدبية يرجو أن ينسج على منواله المترجمون . يقرر الإمام كل هذه الحقائق حين يقول(٢١٨) مخاطبا حافظ ابراهيم :

١ - حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الأعجم مبلغك فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطريق ووصل منهم فريق إلى ما يحب من مقصده ولكنه لم يعن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ويرد اليها ما سلبه المعتدون عليها من متانة التأليف وحسن الصياغة ، وارتفاع البيان فيها إلى أعلى مراتبه ، أما أنت فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعده ، ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده ، ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت إلى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الأرواح فظهرت لك اليوم فى صورة أبدع ، ومعنى أنفع ، ولعلك قد سننت بطريقتك فى التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله من ظهور كتابك ، ويحملها الزمان إلى أبناء ما يستقبل منه فتكون قد أحسنت الى الأبناء كما أجملت الصنع مع الآباء ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من معجمه سوى ما هو فى الأسماء أسماء الأماكن والأشخاص لا أسماء المعانى والأجناس ، ومثلى من يعرف قدر الإحسان إذا عمّ ويعلى مكان المعروف إذا شمل .(٢١٩)

ومن هنا ترى مدى عناية محمد عبده بالتراث ، وحرصه على سد ثغرات النقص فيه ، وبيان أسباب هذا النقص وطرق علاجه ، ثم هو يمجد العاملين على ملء الفجوات الأدبية عند العرب ، ومن هنا قرظ عمل البستانى ، وأشاد بصنيع حافظ ابراهيم فى ترجمة البؤساء كما كان حريصا على وضع كل من الأديبين فى مكانه من خط سير الأدب ، وهذا إن دل على شيء فأنما يدل على وعى عميق بوظيفة النقد الأدبى فهى تشخيص وعلاج وحفز لهمم الأدباء وتوجيه إلى أقوم السبل ، واختيار المثل الأعلى .

ثانيا : تقديم وتقويم :

إذا كانت الصفحات السابقة فى نقد الكتب تقريظا وتشجيعا وتوجيها فإن الصفحات القادمة بمثابة فحص للكتب الموجودة وبيان الضار منها والنافع ، وإرشاد لما ينبغى أن يراعى عند تأليف الكتب أو ترجمتها .

وستجد أيضا فى الصفحات القادمة إشادة لبعض الجهود التى بذلت فى ميدان الترجمة ، ولكنك ستجد مع ذلك أيضا تعريفا ببعض الكتب ، وإشارة لبعض ما تتحلى به من سمات .

(٢١٨) تاريخ الإمام لرشيد رضا . جـ٢ ، ص٦٣١ - ٦٣٢ .

(٢١٩) المصدر نفسه ، ص٦٣٢ .

فهذا هو الأستاذ حنين نعمة الله خورى يترجم من الفرنسية إلى العربية كتاب « التحفة الأدبية » للوزير الشهير كيزو ، وهذا هو الأستاذ الإمام يقدمه إلى قراء العربية بمقالة استهلها بالحديث عن العربية حين كانت فى أوج كمالها تباهى برجالها السياسيين وبعلمائها الذين وسعوا دائرتها وجعلوها تحيط بدقائق المعانى وتزدان بالمصطلحات العلمية .

كان هذا فى العصر الذهبى للعربية ، أما فى عصور التخلف فقد انحطت إلى الحضيض ، وسلبت تلك اللغة ما كان لها من الحلى والزينة .

ثم بدأت عوامل النهضة تؤتى أكلها فنشأ منا من بذل الهمة فى استحصال العلوم واللغات وبرعوا فى ذلك وترجموا إلى لغتهم العربية الكتب من جميع الفنون .

ولكن ترى لماذا اختار الإمام هذا الكتاب وتحدث عنه ؟ السبب فى ذلك أن الترجمة لم تكن تعنى بعلم السياسة وتاريخ التمدن ، والكتاب الذى بين أيدينا يسد هذه الثغرة .

حتى إذا وصل الإمام لذكر مزايا الكتاب ترك القلم لأستاذه جمال الدين ليعرفنا به ومما جاء فى مقالة الإمام عن هذا الكتاب ما يلى : (٢٢٠)

١ — أنه حينما كانت همم أرباب الفطن النقادة ، والفكر الوقادة من أهل العربية فى أوج كمالها ... كانت الأمة تباهى سائر الأمم برجالها العقلاء السياسيين ... وسطوع شمس المعارف فى أفق ديارهم ... بينما اللغة العربية تباهى سائر اللغات باتساعها وإحاطتها بدقائق المعانى التى كان يبديها العرفاء من المتكلمين بها وكانت متحلية متزينة بحلية الاصطلاحات العلمية ... إذ فترت تلك الهمم وتنزلت إلى حضيض الانحطاط ... وسلبت تلك اللغة الشريفة ما كان لها من الحلى والزينة ... فلما قرع آذان أبناء الأمة العربية سهام الملام قام قائم الغيرة والحمية وآلوا على أنفسهم أن لا يألوا جهدا فى استرجاع ما فقدوه ... فنشأ فيهم من بذل الهمة فى استحصال العلوم واللغات وبرعوا فى ذلك وترجموا الى لغتهم العربية الكتب من جميع الفنون ... إلا أنه لم يوجد فيهم من يعنى بعلم السياسة وتاريخ التمدن حتى يمن على اللغة العربية بأن يودعها دقائق معانيه ... حتى قام بهذا الأمر العظيم جناب الفاضل الأديب ، واللوذعى الأريب الذى يغنيك رؤية أثره عن عطر ذكره الخواجا حنين نعمة الله خورى فتبرع لأبناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل لم يسبق سابق بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله وهو ما ألفه الوزير الشهير كيزو فإنه كتاب قد جمع فيه من نتائج السياسيات ما تحار فيه ألباب أرباب الرياسات حقيق بأن يسمى سبيل النجاة وعدة الحياة وهو الكتاب المسمى بالتحفة الأدبية ، واننى لاأستطيع أن أذكر من مزايا هذا الكتاب فوق ما أفاده حضرة الأستاذ الأكرم ، والفيلسوف الأعظم ،

---

(٢٢٠) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ، ص٤٥ ، ٤٧ .

الذى تشرف بذكره مسامع القاصى والدانى جناب السيد جمال الدين الأفغانى وهاك ما قال .[٢٢١]

١ - كل إنسان طالب للسعادة بطبعه هارب من الشقاء بوسعه .

٢ - أعظم سعادة تطلب إنما هى سعادة الأمة والملة ...إلا أن لدى الوصول إلى هذه السعادة المطلوبة طرقا وعرة السلوك .... على كل إنسان أن يأخذ الأهبة ويمتحن جميع السبل ويتخذ أعظم الوسائل لنيل هذا المطلب الجليل .

٣ - المستبد برأيه كثيرا ما يعرض له الخطأ بل قلما تقع منه الإصابة فأحسن الطريق وأولاها بالسلوك هو الطريق الذى قد امتحنته أيدى التجربة .

٤ - لابد لكل إنسان أن يبحث عن تلك المقدمات التى انتجت سعادة أولئك الأمم حتى يستعملها فى إيصال أهالى ملته ووطنه إلى مثل ما ناله غيرهم .

٥ - الوزير كيزو قد جمع فى كتابه هذا جميع الشروط والأسباب والوسائل والآلات التى كان لها المدخل فى سعادة الأورباويين والعناصر التى تكون منها ذاك المزاج اللطيف .. فعلى عالم الإنسانية أن يشكر له هذا الصنيع البديع وعلى أبناء العربية خاصة أن يقوموا بشكر مترجمه الفاضل فإنه قد بالغ فى تهذيب العبارات ، وتحقيق الإشارات حتى أتى على المرغوب من ايضاح معانى ذلك الكتاب بألفاظ رقيقة عذبة المذاق متسقة المساق تتسابق معانيها إلى الأذهان ، وتبرز دقائقها فى عالم العيان[٢٢٢] .

وهكذا نرى الإمام يذهب إلى أن رقى اللغة رهن بعدة عوامل من أبرزها النهضتان السياسية والعلمية فكلما ارتقت السياسة والعلم ارتقت اللغة والعكس صحيح . ثم عرض لمزايا هذا الكتاب من وجهة نظر جمال الدين الأفغانى ، وإن كنت آخذ على الامام مبالغته فى الحكم للمترجم حين قال عنه : تبرع لأبناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل لم يسبق سابق بمثاله ولم ينسج ناسج على منواله . ثم يلقى الإمام نظرة على المكتبة العربية فى عهده ويغربلها وذلك فى المقالة الخامسة والعشرين والتى نشرت فى العدد ١١٠٩ الصادر فى ١٢ جمادى الثانية سنة ١٢٩٨ - ١١ مايو سنة ١٨٨١م من الوقائع المصرية (الرسمية)

وهذه مقالة يغلب عليها الطابع النقدى فهى تبدأ بتقسيم المؤلفات المتداولة فى أيدى المصريين كما يقول الإمام إلى أقسام متفاوته بتفاوت أميال المطالعين[٢٢٣] ومما جاء فيها :

---

(٢٢١) المصدر نفسه ، ص٤٦ .

٢٢) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص٤٧ .

(٢٢٣) المصدر نفسه ، ص١٥٣ :

١ - فنها الكتب النقلية الدينية ... وهذا القسم نرى من المشتغلين به فى بلادنا عددا كثيرا نبغ منهم الأفاضل .

٢ - ومنها الكتب العقلية الحكيمة ... وهذا القسم نادر الوجود فى بلادنا ، والمشتغلون بكتبه أقل من القليل ، بل انه لم يطبع منه فى مطابعنا إلا النزر يسير من فروعه كبعض الكتب فى الطبيعة والكيمياء والطب والرياضة غير صحيحة العبارات .

٣ - ومنها الكتب الأدبية ، وهى ما يبحث فيها عن تنوير الأفكار ، وتهذيب الأخلاق ، ومن هذا القبيل كتب التاريخ ، وكتب الأخلاق العقلية ، وكتب الروحانيات ، وهى المخترعة لمقصد جليل كتعليم الأدب وبيان أحوال الأمم ، والحث على الفضائل ، والتنفير من الرزائل ككتاب كليلة ودمنة وفاكهة الخلفا والمرزبان والتليماك ، والقصة التى تترجم فى جريدة الاهرام وغيرها من بقية المؤلفات ، وهذا القسم كثير التداول فى المدن والثغور ، ويكثر فى أبناء وطننا وجود البارعين فيه المشتغلين بدراسته العاكفين على مطالعته .

٤ - ومنها كتب الأكاذيب الصرفة وهى ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع ، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة ، ومن هذا القبيل كتب أبو زيد وعنتر عبسى ، وابراهيم ابن حسن ، والظاهر بيبرس والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير ، وقد طبعت كتبه عندنا مئات مرات ونفق سوقها ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل(٢٢٤) .

٥ - ومنها كتب الخرافات .... ومن هذا القبيل ما يعرف عند الناس بعلم الروحانى ، وعلم الكيمياء (الكاذبة) وكتب الوفق وكتب الحرف والزايرجات .... وهذا القسم قد اشتغل به فى ديارنا كثير من الناس ، ونبغ منهم الدجالون والمحتالون ، وطبع من كتبه عندنا ما يخرج عن حد الحصر بالقلم واللسان(٢٢٥) .

ويلفت النظر فى هذا الحديث تصور الإمام لمفهوم الأدب ولكتب الأدب .

كما يلفت النظر أيضا حديثه عن الأدب الشعبى ، أما الأدب فرسالته تنوير الأفكار وتهذيب الأخلاق والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل . هذا رأى الإمام ولكنه ليس رأى كل المشتغلين بشئون الفن والأدب .

فلقد اشتد الجدل من قديم بين طائفتين طائفة تقول : إن الفن ينبغى له أن يكون أخلاقيا . وطائفة تقول : إن الفن يجب أن يتحرر حتى من الأخلاق لأن الجمال فى الفن ينبع من الاتقان ، وأن الاجادة فى تصوير الدمامة لاتقل فضلا عن الإجادة فى تصوير الحسن والفضيلة . هذا صحيح ، والإمام أشد الناس تمسكا بحرية الفن ، وإدراكا لقدسية هذه

---

(٢٢٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، جـ٢ ، ص١٥٤

(٢٢٥) المصدر نفسه ، ص١٥٥ .

الحرية والفن يصور الرذيلة كما يصور الفضيلة ويبرز القبح كما يبرز الحسن ، والدين فى تنزيله يصور لنا رجس المشركين وإثم الكافرين وقبح الأشرار والمفسدين كما يبرز لنا فضلَ المؤمنين وإحسان المحسنين . ولكنِ المقصود ليس حرية التصوير فهذه مكفولة فى الفن ملحوظة فى الدين وانما المقصود هو ذلك الإحسان الأخير الذى ينقله الفن والدين إلى النفوس .

هناك صلة فى اعتقادى[٢٢٦] بين رجل الفن ورجل الدين ذلك أن الدين والفن كلاهما يضىء من مشكاة واحدة هى ذلك القبس العلوى الذى يملأ قلب الإنسان بالراحة والصفاء والإيمان . وإن مصدر الجمال فى الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذى يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفنى .

من أجل هذا كان لابد للفن أن يكون مثل الدين قائما على قواعد الأخلاق .

ولقد ذكرت فى مستهل هذا الفصل أن الأساس الدينى هو الحافز للإمام على إتقان اللغة والنهوض بها . وقلت فى الفصل الخاص بالاتجاه الأدبى عند الامام ان الدين كان من وراء أدب الإمام بل إن مفتاح شخصيته هو عمق إيمانه . وما من ريب فى أن الإحساس الأخير الذى ينقله الدين إلى النفوس مهما يكن لون الصورة ونوع التصوير هو إحساس أخلاقى .

فهل هذا واجب الفن أيضا ؟ أو أن الفن حر حتى فى إحداث الأثر الذى يريد غير مقيد حتى فى إقرار المشاعر غير الأخلاقية فى نفوس الناس ؟

يقول « شوبنهور » إن النية لاقيمة لها فى الأثر الفنى أى أن نيات الفنان الصالحة أو الطالحة لا تقدم ولا تؤخر فى القيمة الفنية لعمله .

ويقول « جويو » إن الروح الأخلاقى عند الفنان كعبقريته يجب أن ينبعا معا وفى وقت واحد من أعمال طبيعته ، وإن الفن غير الأخلاقى هو على كل حال أحط مرتبة حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة ذلك أن الفن العالى ليس ذلك الذى يثير فى النفس أحر المشاعر وأعنفها فحسب ولكنه ذلك الذى يثير فيها أكرم المشاعر وأرحمها[٢٢٧] .

إن خطر الفن يرجع إلى تلك القدرة العجيبة فيه تلك التى يستطيع بها أن يستدر عطفك على مخلوقاته ، ويستلب إعجابك بصوره . وإن العطف والإعجاب يعديان كالمرض فإذا أبدع الفن فى تصوير نوع من الشذوذ أو الانحطاط وحملك بهذا الإبداع على أن تعطف على الإنحلال وتعجب بالتدهور فإن مجتمعنا بأسره يمكن أن تسرى فيه العدوى عن طريق هذا الفن .

ما مهمة الفن الحق إذن ؟ أهى أن يقف فى المجتمع واعظا ومرشدا وهاديا إلى سواء السبيل ؟

(٢٢٦) توفيق الحكيم : فن الأدب ، ص٧٣ .

(٢٢٧) فن الأدب ، توفيق الحكيم ، ص٧٣ .

من المجمع عليه أن الوعظ والارشاد ليسا من وظيفة الفن لأن وظيفة الفن هى أن يخلق شيئا حيا نابضا يؤثر فى النفس والفكر.

ما نوع هذا التأثير ؟ ان نوع التأثير هو الذى يحدد نوع الفن. فإذا طالعت أثرا فنيا قصيدة أو قصة أو صورة وشعرت بعدئذ أنها حركت مشاعرك العليا أو تفكيرك المرتفع فأنت أمام فن رفيع فإذا لم تحرك إلا المبتذل من مشاعرك والتافه من تفكيرك فأنت أمام فن رخيص.

هنالك سؤال آخر : ما مصدر هذا التأثير فى العمل الفنى ؟ أهو الأسلوب ؟ أم اللب ؟ أهو الشكل أم الموضوع.

إن الأثر الفنى الكامل فى نظرى هو ذاك الذى يحدث فينا ذلك الشعور الكامل بالارتفاع وقلمّا يحدث هذا كما يقول الأستاذ توفيق الحكيم[٢٢٨] إلا عن طريق السمو فى اللب والأسلوب لأن ضعف « الشكل » وسقم « الأسلوب » يحدثان فى النفس شعورا بالقبح والضيق والاشمئزاز، وهذا ينافى الشعور بالجمال والتناسق والانسجام.

ولعل هذا هو ما دفع الإمام إلى أن ينعت كتب الأدب الشعبى بأنها أكاذيب صرفة ويقول عنها إنها تارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة ... الخ وهذه قضية نقدية تستحق البحث والدراسة فما هو الأدب الشعبى أولا ؟

هو الأدب الذى يعبّر عن وجدان الشعب ويمثل اتجاهاته ومستوياته الحضارية، ومن الطبيعى أننا فى أكثر الأحيان بل فى أغلبها لانصل إلى هذا الأدب إلا بعد أن تتوارثه أجيال فيترك كل جيل أثره فالمعروف أن الأدب الشعبى لا يأخذ صورة نهائية محدودة، وانما تضيف اليه الأجيال المتعاقبة، وتحذف منه، وتعيد ترتيب عناصره وتجرى فيه بعض التغييرات ليلائم ذوقها ويعبر عنها. وتوجد فيه كما يقول[٢٢٩] الدكتور حسين نصار لغتان : احداهما للخاصة أو للتدوين الأدبى وأخرى للعامة أو لمجموع الشعب.

وهذه الأخيرة هى التى نفر منها الإمام ونعتها بالسخف. ويجدر بنا أن نلقى نظرة عامة على نشأة هذا الفن فى اللغة العربية لنرى أيستحق الدراسة أم يستحق الإهمال أكذب صرف هو كما يقول الإمام أم أن فيه صدقا فنيا ؟ ولن نلتفت إلى العصر الجاهلى لضآلة أثره فى هذا الميدان ذلك أن العمران جاء بعد ظهور الإسلام فتكونت حضارة إسلامية واسعة الأرجاء وأقيمت المساجد الجميلة على أنقاض الهياكل القديمة، وشيّدت القصور وملئت بالبدائع والطرائف والتحف وتقدّمت الصناعات وازدهرت الفنون وابتلعت الحضارة الإسلامية فى جوفها كثيرا من الحضارات، ومع ذلك فإن الأدب العربى لم يحاول أن يزيد فى قوالب نثره أو أن يساير تلك

---

(٢٢٨) المرجع السابق ص٧٤.

(٢٢٩) الشعر الشعبى العربى ص١٥.

الفنون المعاصرة ولم يخرج فى الناحية الإنشائية عن ثوبيه المعروفين[٢٣٠] وهما : – الرسائل والمقامات .

والمقامات أعمال قصصية يقصد بها سرد حكاية وتصوير أشخاص ولكن الإغراق فى الوشى اللفظى والاحتفال بالوضع اللغوى صرف الكاتب عن التعمق فى التحليل والإفاضة فى السرد والاجادة فى البناء . فالأدب العربى الإنشائى فى تلك الأزمان قد عنى باللفظ أكثر مما يجب ، ولم يشأ أن ينزل عن تكلفه الذى يعتبره فصاحة وبلاغة ليصوّر ما يجيش فى نفس الشعب من إحساس وما يهيجه من خيال وهنا حدث أمر عجيب : فروح الشعب لايقهر هذا الشعب فى عصور الحضارة الإسلامية المختلفة قد تعطش للون جديد من الأدب غير لون البداوة الأولى ، لون من الأدب مستمد من إحساسه بالحياة الجديدة المتطوّرة المتغيّرة أدب جديد قائم على فن مساير للفنون الزاهرة المعاصرة ، فلما لم يشأ أدباء الفصحى أن يمدوا النّاس بحاجتهم لجأ النّاس إلى أدباء من بينهم لايملكون أداة اللغة ولاجمال الشكل ولكن يملكون السليقة الفنية وروح الخلق وهنا ظهر الأدب الشعبى « فما ظهور الأدب الشعبى أحيانا إلا علامة قصور أو تقصير من الأدب الرسمى أو صرخة احتجاج على جمود الفصحاء »[٢٣١] .

هكذا ظهر القصص الشعبى العربى فى صورة « عنترة » و « مجنون ليلى » وسارت الحضارة الإسلامية فسار معها الأدب الخيالى الاجتماعى الشعبى ، فإذا نحن أمام عمل فنى رائع هو « ألف ليلة وليلة » ثم بنت فى كل شعب من شعوب الإسلام قصصه التى تطبعه بطابع عصره فكان فى مصر قصة « أبى زيد الهلالى » و « سيف بن ذى يزن » و « الظاهربيبرس » وغيرها .

ومن الغريب أننا إذا تأملنا « التصميم » الفنى والبناء الروائى لهذا الأدب الشعبى وجدناه من حيث الفن – لا اللغة – هو السائر فى الطريق الصحيح محاذيا تلك الفنون والعلوم التى ظهرت بظهور الحضارة الإسلامية ، ولقد كان من المستغرب حقا للباحث أن يرى هذه الحضارات ذ ت فنون وعلوم ولا يجد فى أدبها آثارا إنشائية تماثل ما عند جيرانها حتى كادت تتهم العقلية الإسلامية بعقم خيالها ولكن الأدب الشعبى الإسلامى صحح الوضع أمام التاريخ وأثبت أن حضارة الإسلام سارت فى مجراها الطبيعى مع فارق واحد : وهو أن الحضارات الأخرى مثل الهندية أو الفارسية أو الإغريقية كان خاصة الشعراء والأدباء هم الخالقين لتلك الآثار . أمّا فى حضارة الإسلام فقد تخلى الخاصة عن بعض هذه المهمة لعامة أدباء الشعب وشعرائه ووقفوا بعيدين عن كل تغير أو ابتكار .[٢٣٢]

---

(٢٣٠) فن الأدب لتوفيق الحكيم ص٢٢ .

(٢٣١) المرجع السابق ص٢٣ .

(٢٣٢) المرجع السابق ص٢٤ .

ويؤدى بنا هذا إلى القول بأن عبارة « الأدب الشعبى » تقوم عندنا مقام عبارة « الفنون الملحونة » عند أسلافنا ، ومفهومنا نحن إلى الأدب الشعبى أوسع وأشمل ، ولا يقتصر على النظر إلى اللغة التى كتب بها الفن ، ومفهومنا نحن لا تشويه هذه الأيام عند كثير من الدارسين نظرة الازدراء التى ينظر القدماء والمحدثون اليه بها .(٢٣٣)

أمّا رأى الإمام فى كتب المغازى وأحاديث القصاصين فقد عرضه فى العدد ٥٨٧ من جريدة ثمرات الفنون البيروتية الصادر فى ٢٦ من رمضان سنة ١٣٠٣هـ . ومما جاء فيها :

١ - سألنى سائل عن الرأى فيما يوجد بأيدى النّاس من كتب الغزوات وأخبار الفتوح الأولى ... ثم خص فى السؤال كتاب الشيخ الواقدى الموضوع فى فتوح الشام .(٢٣٤)

ثم يجيب الأستاذ الإمام على ذلك فيقول :

١ - لم يرزأ الإسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون اليه .

٢ - عموم البلوى بالأكاذيب حقّ على النّاس بلاؤه فى دولة الأمويين ... ثم اتسع شر الافتراء ... إلى أن نهض أئمة الدين من المحدثين ... ووضعوا للحديث أصولا ... وصار ذلك فنا من أهم الفنون سموه فن الإسناد وأتبعوه بفن آخر سموه فن مصطلح الحديث .(٢٣٥)

٣ - جميع الإسرائيليات وما حوته شروح التوراة قد نقل إلى الكتب الإسلامية على أنه أحاديث نبوية إلا أن أئمة الدين عرفوا ذلك فنصوا على عدم صحتها .(٢٣٦)

٤ - ومن الكاذبين قوم ظنوا أنّ التزّيد فى الأخبار والإكثار من القول يرفع من شأن الدين ... ومن هؤلاء وضاع كتب المغازى والفتوح وما شاكلها . أمّا الشيخ الواقدى فكان من علماء الدولة العباسية . ثم يقول الإمام عن كتاب الواقدى : على أنى لو حكمت بأنه مكذوب عليه مخترع النسبة اليه لم أكن مخطئا .(٢٣٧)

٥ - والناظر فى كتاب الواقدى ينكشف له بأول النظر أن عبارته من صناعات المتأخرين فى أساليبها وما ينقل فيها من كلام الصحابة مثل خالد بن الوليد وأبى عبيده وغيرهم رضى الله عنهم لا ينطبق على مذاهبهم فى النطق بل كلما دقق المطالع فى احناء قوله يجد أسلوبه من أساليب القصاصين فى الديار المصرية من أبناء المائة الثامنة والتاسعة ، ولا يرى عليه لهجة المدنيين ، ولا العراقيين ، والرجل كان مدنى المنبت عراقى المقام ... فهذا الكتاب لا تصح الثقة به إما

---

(٢٣٣) الشعر الشعبى للعربى للدكتور حسين نصار ص١٧ .

(٢٣٤) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ٢ ص٣٤٦ .

(٢٣٥) المرجع السابق ص٣٤٧ .

(٢٣٦) المرجع نفسه ص٣٤٨ .

(٢٣٧) المرجع نفسه ص٣٤٩ .

لأنه مكذوب النسبة على الواقدى وهو الأظهر ، وإما لضعف الواقدى نفسه فى رواية المغازى كما صرح به العلما .[٢٣٨]

والذى يهم الناقد الأدبى فى حديث الإمام عن الواقدى هو تقدير الإمام للكتاب وبيان قيمته ودرجته الفنية فهذا الكتاب لا تصح الثقة به إمّا لأنه مكذوب النسبة على الواقدى وهو الأظهر ، وإمّا لضعف الواقدى نفسه فى رواية المغازى .

وحين يحكم الإمام على الكتاب بأنه مكذوب على الواقدى مخترع النسبة اليه يعتمد فى هذا الحكم على أساس نقدى قوى هو « طبيعة الإقليم ومناخ البلد » وأثرهما فى حياة النّاس وسلائل الأجناس ، فأحوال الإقليم هى التى تنهج لساكنيه سنن معاشهم ونظام اجتماعهم ، وتكوّن الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم ، ومناظره هى التى تربى ذوق أبنائه وتغذى خيال كتابه وشعرائه .[٢٣٩]

إن أفكار الشاعر أو الأديب هى لدرجة كبيرة وليدة بيئة فمحال أن يكون طرفه عباسيا أو أبو نواس جاهليا بل لايمكن أن يكون أبو نواس إلا عبّاسيا عراقيا ، ولا يمكن أن يكون البهاء زهير الا قاهريا أيوبيا .

وعلى هذا الأساس رأى الإمام أن أسلوب الواقدى فى كتابه « من أساليب القصاصين » فى الديار المصرية من أبناء المائة الثامنة والتاسعة ولا يرى عليه لهجة المدنيين ، ولا العراقيين ، والرجل كان مدنى المنبت عراقى المقام .

ومن الواضح أن كل أمة فى عصر من العصور لها طابع خاص يطبع أدبها وهذا الطابع هو نتيجة بيئته ، والأدب العربى نفسه ، وإن اشترك كله فى الخضوع لقوانين اللغة العربية من نحو وصرف وبحور شعر وقافية فإنه يختلف إلى درجة كبيرة باختلاف البيئة التى أنتجته ، فالأدب العراقى غير الأدب الحجازى ، وكلاهما غير الأدب الأندلسى ، وكلاهما غير الأدب المصرى .[٢٤٠]

والعالم بالبيئة الاجتماعية والتطورات التى طرأت على الأمة وتاريخها علمّا تامّا يستطيع أن يتبين تأثير ذلك كله فى أدبها ، وكذلك كان الإمام وعلى هذا الأساس أصدر حكمه على الواقدى وكتابه ، ومن هذا كله تظهر لنا قيمة الدراسة التاريخية فى فهم الكتب والأدب ولعلها لفتة رائدة من الإمام ليتأسى بها النقاد والأدباء . ولعل خير ما نختم به حديث الكتب ونقدها دعوة الإمام المبكرة إلى العناية بالمتاحف ويرى أن ذلك مما يساعد على تحقيق مدلول بعض

---

(٢٣٨) المرجع نفسه ص٣٥٠ .

(٢٣٩) فى أصول الأدب لأحمد حسن الزيات ص٢٢ .

(٢٤٠) النقد الأدبى لأحمد أمين جـ١ ص٥ -٦ .

الكلمات ، وتحقيق المعانى التاريخية واللغوية ، كما يرى أنه مكمل للمعاجم وموضح لما عساه يكون فيها من ألفاظ مبهمة الدلالة .

ويحدثنا الإمام عن هذه القضايا المهمة فى النقد أثناء رحلته التاريخية إلى صقلية فيقول :

يحفظ القوم[٢٤١] فى متاحفهم هذه كل ما يوجد من آثار المتقدمين من مصنوعات وأشجار وأحجار ، ولا يدخرون جهدًا فى حفظ ذلك حتى إذا وجدت اسم شىء فى كتاب تاريخ مثلا أو عرض لك اسم فى علم من العلوم كان يدل على معنى فى الزمن السابق أمكنك أن تعرف المدلول بالعيان والمشاهدة ... وهذا مما يفيد فى تحقيق المعانى التاريخية واللغوية فائدة لا يعرف مقدارها إلا من يسمع اسم اللامة والدلاص والدرع والعمامة (عمامة الحرب) ونحو ذلك من الألفاظ العربية الكثيرة الاستعمال ثم يراجعها فى القاموس أو غيره من كتب المعجمات وبعد ذلك لا تستقر فى خياله صورة لمدلول من مدلولات هذه الألفاظ ، وقد يتخيّل صورة لا مناسبة بينها وبين الحقيقة وهو جهل باللغة فاضح[٢٤٢] وكثير منا يأكلون الجوز واللوز وينطقون باسمه فى البيت وعند البائع إذا طلبوا شراء شىء منه وهم إذا رأوا شجرة الجوز أو اللوز لا يميّزون بينها وبين شجرة الجميز أو الفلفل .[٢٤٣]

بل إن الإمام ينتقد تخلف الوعى المكتبى عندنا فنحن لا نحفل بالكتب ولا نحافظ عليها والأوربيون يهتمون بكتبها أكثر مما نهتم بها نحن . يقول الإمام :

ولكن ما نقول فى الكتب وودائع العلم ، هل حفظناها كما كان ينبغى أن نحفظها أو أضعناها كما لا ينبغى أن نضيعها ؟ ضاعت كتب العلم وفارقت ديارنا نفائسه فإذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر أو مؤلف فاخر أو مصنف جليل أو أثير مفيد فاذهب إلى خزائن بلاد أوربا تجد ذلك فيها ، وأمّا بلادنا فقلما تجد فيها إلا ما ترك الأوربيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والأدبية والعلمية ، وقد تجد بعض النسخة من الكتاب فى دار الكتب المصرية مثلا وبعضها الآخر بمدينة كمبردج من البلاد الإنجليزية ، ولو أردت أن أسرد لك ما حفظوا وضيعنا من دفاتر العلم لكتبت لك فيه كتابًا يضيع كما ضاع غيره ، وتجده بعد مدة فى يد أوربى فى فرنسا أو غيرها من بلاد أوربا .[٢٤٤]

وبذلك نستطيع أن نقول إن محمد عبده أدى للنقد الأدبى مهمة جليلة هى ما نسميها « المساعدة على الاختيار » فكل إنسان له ميول تختلف عن ميول غيره ، وكل انسان يفضل

(٢٤١) يقصد أهل صقلية .

(٢٤٢) تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ ص٤٩٧ .

(٢٤٣) المرجع نفسه ص٤٩٨ .

(٢٤٤) المرجع السابق ص٥٠٢ .

طبقا لأهوائه لونا معينا من ألوان الإنتاج الفنى . فهناك من يحب الشعر ولا يطيق النثر ، وهناك من يفضل المقالة على غيرها من ألوان النثر وهناك من يخشى الأدب الشعبى خشية الوباء أو الطاعون . فإذا ما صدر عمل أدبى فكيف يتسنى لكل منهم معرفة لونه قبل أن يقدم عليه ؟

هنا يأتى دور النقد الأدبى حيث يتناول الناقد هذه الأعمال تناول تقديم وتعريف ، وعن طريق هذا التقديم يستطيع كل فرد تكوين فكرة مناسبة عن العمل الأدبى والإقدام عليه أو الإحجام عنه حسب ميوله وأهوائه .(٢٤٥)

على أن محمد عبده الناقد ذو ثقافة وخبرة وحاسة فنية تمكنه من تذوق الأدب واستيعابه . الأمر الذى يمكنه من حسن شرح النصوص وتحليلها والتعليق عليها وتحقيقها وتقديمها للنّاس فماذا صنع تجاه كل ذلك ؟

النقد التحليلى :

نلتقى بالإمام فى هذا الميدان ومعنا شرحه وتعليقه على الكتب التالية :

١ - نهج البلاغة .　　٢ - مقامات بديع الزمان الهمذانى .　　٣ - دلائل الإعجاز .

٤ - أسرار البلاغة .　　٥ - تفسير القرآن الكريم .

أولا : نهج البلاغة :

عنى بعض المؤلفين أن يضع لكتابه مقدمة يتأنّق فيها ، ويسير على نسق الرسائل الفنية فيسجع ويجانس ويطابق ولو كانت المقدمة لغير كتاب أدبى ، وكانوا يرون من الواجب أن يكون للمقدمة جمالها الأدبى ، وأن تكون لغتها غير اللغة العلمية الخالصة فى بقية أجزاء الكتاب يريدون بذلك أن يؤثروا فى نفوس القراء ، وأن يشوّقوهم إلى قراءة كتبهم(٢٤٦) وكذلك صنع الإمام فى جميع كتبه تقريبا فلنلتق به الآن فى نهج البلاغة .

كتب الأستاذ الإمام مقدمة للجزء الأول منه التزم فى أسلوبها الطريقة المقيدة الخالية من التكلف ، وأوضح فيها كيف التقى مصادفة بالكتاب ، ووصف حالته أثناء قراءة الكتاب وأنه كان يشغل بقراءته وقت فراغه ، ويسلى بذلك نفسه وأنه قرأ بعض جمل من عباراته بتأمل وفى ذلك يقول :

أو فى لى حكم القدر بالاطلاع على كتاب نهج البلاغة مصادفة بلا تعمل ، أصبته على تغير حال ، وتبلبل بال ، وتزاحم أشغال ، وعطلة من أعمال ، فحسبته تسلية وحيلة للتخلية ، فتصفحت بعض صفحاته ، وأملت جملا من عباراته من مواضع مختلفات ، وموضوعات متفرقات .(٢٤٧)

---

(٢٤٥) تذوق الأدب للدكتور محمود ذهنى ص٢١١ .

(٢٤٦) أسس النقد الأدبى عند العرب ص٥٩١ - ٥٩٢ .

(٢٤٧) ص٢ .

ثم يحدثنا عن انطباعات القراءة فى نفسه ، والتأثيرات التى تركها الكتاب فى حسه ووجدانه وعقله ، فهو يحس بالروح الحربية حينا ، وبالهداية والرشاد حينا آخر ، وآنا تكشف له الجمل عن أرواح شريرة انقضت عليها أرواح خيرة فاغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء ، وأحيانا يحس بالتسامى إلى الملأ الأعلى والمثل الرفيعة فى السياسة وتدبير الشئون . وفى كل ذلك يقول الإمام : (٢٤٨)

كان يخيّل لى فى كل مقام أن حروبًا شبت ، وغارات شنت ، وأن للبلاغة دولة ، وللفصاحة صولة ، وأن للأوهام عرامة ، وللريب دعارة ، وأن جحافل الخطابة ، وكتائب الذرابة فى عقود النظام ، وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج ، والقديم الأملح وتمتلك المهد برواضع الحجج ، فتقل من دعارة الوساوس ، وتصيب مقاتل الخوانس ، فما أنا إلا والحق منتصر ، والباطل منكسر ، ومرج الشك فى خمود ، وهرج الريب فى ركود ، وأن مدبر تلك الدولة ، وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب أمير المؤمنين على بن أبى طالب بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع ، أحس بتغير المشاهد ، وتحوّل المعاهد ، فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية فى حلل من العبارات الزاهية ، تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحى اليها رشادها وتقوم منها مرادها ، وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفضل والكمال .

وطوّرا كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة ، وأرواح فى أشباح النمور ، ومخالب النسور ، قد تحفزت للوثاب ، ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها ، وأخذ الخواطر دون مرماها ، واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء ، وأحيانا كنت أشهد عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا فصل عن الموكب الإلهى ، واتصل بالروح الإنسانى فخلعه عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ، ونما به إلى مشهد النور الأجلى وسكن به الى عمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس ، وآنات كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة ، وأولياء أمر الأمة يعرفهم مواقع الصواب ، ويبصرهم مواضع الارتياب ، ويحذرهم مزالق الاضطراب ، ويرشدهم إلى دقائق السياسة ، ويهديهم طرق الكياسة ، ويرتفع به إلى منصات الرئاسة ، ويصدرهم شرف التدبير ويشرف به على حسن المصير . (٢٤٩)

وأكبر الظن أن هٰذه الانطباعات كان لها أكبر الأثر فى اختيار الإمام لهذا الكتاب يدرسه ويشرحه ويعلق عليه .

---

(٢٤٨) ص٢ .

(٢٤٩) ص٣ .

ثم يوضح الإمام القيمة الفنية للكتاب ، وما فيه من فنون الفصاحة ووجوه البلاغة . وأنه لم يترك غرضًا من أغراض الكلام إلا أصابه ، وفى هذا يقول الإمام :

ولا أعلم اسما أليق بالدلالة على معناه منه ، وليس فى وسعى أن أصف هذا الكتاب بازيد مما دلّ عليه اسمه ، ولا أن آتى بشىء فى بيان مزيته فوق ما أتى به صاحب الاختيار كما ستراه فى مقدمة الكتاب ، ولولا أن غرائز الجبلة ، وقواضى الذمة تفرض علينا عرفان الجميل لصاحبه ، وشكر المحسن على إحسانه لما احتجنا الى التنبيه على ما أودع نهج البلاغة من فنون الفصاحة ، وما خص به من وجوه البلاغة خصوصا وهو لم يترك غرضًا من أغراض الكلام الا أصابه ، ولم يدع للفكر ممرا إلا الإجابة ثم يحدثنا عما قد ينتقده البعض من أن ألفاظ الكتاب معجمية وغريبة ، ويرى أن الغرابة مرجعها بعد العهد بهذا الكتاب ، وانقطاع أهل جيلنا عن لساننا فالعيب فى ذهن المتلقى لا فى نص الكتاب ، استمع إلى الإمام يقول :

إلا أن عبارات الكتاب لبعد عهدها منا ، وانقطاع أهل جيلنا عن أصل لساننا ، قد نجد فيها غرائب ألفاظ فى غير وحشية ، وجزالة تركيب فى غير تعقيد فربما وقف فهم المطالع دون الوصول إلى مفهومات بعض المفردات ، أو مضمونات بعض الجمل ، وليس ذلك ضعفًا فى اللفظ ، أو وهنا فى المعنى ، وإنما هو قصور فى ذهن المتناول[٢٥٠] .

ثم يوضح لنا ما صنعه فى الكتاب ، وما لم يصنعه فيقول : أعلق على بعض مفرداته شرحا ، وبعض جمله تفسيرًا وشىء من إشاراته تعيينا . واقفا عند حد الحاجة مما قصدت موجزًا فى البيان ما استطعت ، معتمدًا فى ذلك على المشهور من كتب اللغة ، والمعروف من صحيح الأخبار ، ولم أتعرض لتعديل ماروى عن الإمام فى مسألة الإمامة أو تجريحه ، بل تركت للمطالع الحكم فيه بعد الالتفات إلى أصول المذاهب المعلومة ، والأخبار المأثورة الشاهدة عليها ، غير أنى لم أتحاش تفسير العبارة ، وتوضيح الإشارة ، لا أريد فى وجهى هذا إلا ذكر ما أحفظ تصونا من النسيان وتحرزًا من الحيدان ، ولم أطلب من وجه الكتاب الا ما تعلق منه بسبك المعانى العالية فى العبارات الرفيعة فى كل ضرب من ضروب الكلام ، وحسبى هذه الغاية فيما أريد لنفسى ، ولمن يطلع عليه من أهل اللسان العربى[٢٥١] .

وأكبر الظن أن الإمام يريد أن يضع القارىء وجها لوجه مع النص يفهم منه ما يفهم ويتذوق ما يتذوق ولايريد أن يفرض عليه فهما أدبيا أو تذوقا فنيا يريد أن يتلقى القارىء عن النص مباشرة مادام فى استطاعته ذلك فإن لم يستطع فلا بأس بمعاونته . ويخيّل إلىّ أن هذه الطريقة هى التى تعودّ الاستقلال فى الفهم والحرية فى ابداء الرأى كما أنها تكوّن القارىء المتلقى

---

(٢٥٠) ص٤ .

(٢٥١) ص٥ .

تكوينا أدبيا سليمًا ، ونفس هذا المسلك سلكه الإمام فى تفسير القرآن الكريم على أن الإمام لم يضرب عرض الحائط بالشروح السابقة فهو معها إذا وافقت رأيه ويختلف معها إلى الصواب فيما يظن ، ثم هو يعتبر صنيعه تعليقا وتطريزا لاشرحا من الشروح ولا كتابا بين الكتب . وفى ذلك يقول :

وقد عنى جماعة من أجلة العلماء بشرح الكتاب وأطال كل منهم فى بيان ما انطوى عليه من الأسرار ، وكل يقصد تأييد مذهب ، وتعضيد مشرب ، غير أنه لم يتيسر لى ولا واحد من شروحهم إلا شذرات وجدتها منقولة عنهم فى بطون الكتب ، فإن وافقت أحدهم فيما أرى فذلك حكم الإتفاق ، وإن كنت خالفتهم فإلى صواب فيما أظن ، على أنى لا أعد تعليقى هذا شرحا فى عداد الشروح ولا أذكره كتابًا بين الكتب ، وإنما هو طراز لنهج البلاغة ، وعلم توشى به أطرافه(٢٥٢) .

ولعل أوجز ما يوضح منهج الإمام فى نقده لنهج البلاغة ذلك التنبيه الذى وجهه لمديرى المدارس فقال :

قد اعتنينا عند تصحيح الكتاب بضبط ألفاظه اللغوية ضبطا صحيحا ، ولم نهمل من الضبط إلا الألفاظ المألوفة التى يسهل على طالب العلم معرفتها ، وما أشكل من الإعراب عيناه كذلك بالضبط لتسهيل الفهم بأول النظر ، وما لا اشكال فيه تركناه لقريحة القارىء لتظهر فيه قوتها العربية ، وليتوجه فكر المطالع لتطبيقها على قواعد اللغة فترسخ فى نفسه وتنطبع فيه بالتأمل ملكة صحيحة(٢٥٣) .

ويمكن تلخيص الأسس النقدية فى مقدمة الإمام لنهج البلاغة فيما يلى :

١ - الطريقة التأثرية فى دراسة الأدب ونقده تكوّن جانبا من نظرية النقد عند الإمام .

٢ - نهج البلاغة نموذج أدبى فريد وصاحبه أديب رائد .

٣ - غرابة اللفظ ومرجعها .

٤ - شرح المفردات والشرح الإجمالى للمعنى .

٥ - التوجيه الأدبى للشباب .

٦ - الفنون البديعية .

ويجدر بنا أن نناقش هذه الأسس التى بنى عليها الإمام نقده فى هذا الكتاب .

الطريقة التأثرية :

يبدو أن الإمام كان يعنى هذه الطريقة حين عبر عن الأثر النفسى لقراءته « لنهج البلاغة » بقوله : كان يخيّل إلّى فى كل مقام أن حروبا شبّت ، وغارات شنّت ... الخ وهذه الطريقة

---

(٢٥٢) ص٥ .

(٢٥٣) ص١٠ من الجزء الأول .

شخصية تعتمد على ذوق الناقد وترى أنه الحكم والميزان(٢٥٤) ، وهذه الطريقة ترمى بالفوضى والمصادفة ذلك أن الذوق الشخصى ليس له ضابط ، واذا ترك الحكم فى الآثار الفنية الأدبية للذوق وحده فقد ترك إذا للفوضى(٢٥٥) .

حقا إننا قد نقرأ لناقد كبير تعبيره عن ميله ونفوره تجاه الكتب فتبدو لنا آراؤه معتمدة على مجرّد الهوى والميل الذاتى ولكنها دائما تستحق الاعتبار والتقدير أكثر مما تستحقه آراء رجل الشارع(٢٥٦) .

وفى تصوّرى أن الذوق الفنى لايمكن الاستغناء عنه فى دراسة الأدب ونقده ، ولكن يجب أن نسأل أنفسنا دائما ونحن نقرأ أمثال هذا النقد . هل الناقد محق فيما يذهب اليه ؟ فمن وراء استمتاع الناقد بعمل أدبى معين توجد إذا مسألة تالية هى معرفة صواب هذا الاستمتاع وقيمته .

ولعل خير منهج للناقد أن يجمع فى نقده بين شتى الاعتبارات ، ويؤلف بين مختلف النظرات فيختار الأثر من بين مختلف الآثار بذوقه كاشفا عن نواحى جماله ثم يحلله بغربال علمه ليخرج لنا ما انطبق منه على الأصول وما لم ينطبق وذلك لمجرد التحليل والبحث والدرس ، فاذا فرغ من ذلك بقى أمامه الشطر الأجل من عمله النقدى وهو تقويم الأثر بقيمته فى المحيط الأدبى القومى أو الإنسانى ووضعه فى مكانه ، ومقارنته بالسابقين له ومبلغ إتفاقه معهم فى المذهب أو اختلافه عنهم فى المسلك(٢٥٧) .

وهذا ما صنعه محمد عبده فقد اختار بذوقه « نهج البلاغة » وكشف عن نواحى إعجابه بالكتاب حين قال : لا أعلم اسمًا أليق بالدلالة على معناه منه ... الخ كما كشف عن نواحى جمال الكتاب حين تحدث عما أودع فيه من فنون الفصاحة وما خص به من وجوه البلاغة ، وهو لم يترك غرضا من أغراض الكلام إلا أصابه ... الخ

ثم يناقش مسألة غرابة ألفاظ الكتاب إلا أن عبارات الكتاب لبعد عهدها منا وانقطاع أهل جيلنا عن أصل لساننا قد نجد فيها غرائب ألفاظ فى غير وحشية ... الخ ثم يبين لنا طريقته فى التحليل والبحث والدرس علق على بعض مفرداته شرحا وبعض جمله تفسيرا ... الخ . وأخيرا يقوّم الكتاب بقيمته فى محيط الأدب العربى ذاكرا مذهبى الكتابة الفنية العربية فيقول : لكنهم – أى الشبان – يتوخون وسائل ما يطلبون فى مطالعة المقامات ... الخ .

---

(٢٥٤) فن الأدب لتوفيق الحكيم ص١٥ .

(٢٥٥) المرجع السابق ص١٦ .

(٢٥٦) النقد الأدبى لأحمد أمين جـ١ ص٢٠٧

(٢٥٧) فن الأدب لتوفيق الحكيم ص١٦ .

ثم يرى أن كلام الإمام على بن أبى طالب أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله تعالى وكلام نبيه ...الخ .

ومحمد عبده الناقد يوجه الطلائع الأدبية إلى أقوم السبل وأفصحها وأرجو أن يكون فيما وضعت من وجيز البيان فائدة للشبان من أهل الزمان فقد رأيتهم قياما على طريق الطلب يتدافعون إلى نيل الأدب ...الخ إلى أن يقول فلو أنهم عدلوا إلى مدارسة ما جاء عن أهل اللسان ..الخ ثم يقول فأجدر بالطالبين لنفائس اللغة أن يجعلوا هذا الكتاب أهم محفوظهم ...ألخ

بهذا كان محمد عبده الناقد موجها للأدب وللأدباء فى عصره وفى نفس الوقت كان مفسرا للأثر القديم .

ولقد كان المنفلوطى على حق حين قرر[٢٥٨] أن « إمام الشعر البارودى وأمام النثر محمد عبده » ثم يقول : وإنما كانت حياة ذينك الرجلين حياة الصناعتين ، وكان لوجودهما سرّ من الأسرار ينبعث فى الألسنة فيطلقها والأقلام فيجريها . وكانت منزلتهما من الأحياء منزلة الأم من مصابيح الكهرباء تشتعل المصابيح بتيارها وتضىء بأسرارها فإذا فرغت مادتها ، وانقضى أجلها عمّ الظلام واشتد الحلك ، والمصابيح كما هى جسم بلا روح ولفظ بلا معنى .

وحين عرض الإمام لتفسير نهج البلاغة وأصدر حكمه عليه لم ينس أن يحدثنا عن الأدب الإسلامى ، وأنه كان أدب القوّة بكل معانيها كان أدب القوة من الناحية الفنية لأنه يمثل أهل الطبقة العليا فى بلاغة الكلام وكان أدب القوّة من الناحية الخلقية والاجتماعية فيه عزة الفاتح وإعجاب الظافر ، ونشوة المنتصر حتى إن الإمام ليخيّل اليه أن جحافل الخطابة وكتائب الذرابة فى عقود النظام ، وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج ... الخ . كانت هذه هى الأصول النقدية التى عرض لها الإمام فى مقدمته لنهج البلاغة فكيف طبّق هذه الأصول ؟ كيف انتقلت من حيزّ النظرية إلى حيّز التطبيق ؟ ذاك أمر يدعونا إلى أن نعرض نماذج من شرح الإمام لنهج البلاغة .

نماذج من شرح الإمام لنهج البلاغة : جـ١

١ - يقول السيد الشريف الرضى فى مقدمة الكتاب متحدثا عن النبى ﷺ وسلالة المجد الأقدم ومغرس الفخار المعرق .

ويعلق الإمام فى هامش الصفحة على كلمة الفخار فيقول : قال بعضهم بالكسر ، ويغلط من يقرأ بالفتح لأنه مصدر فاخر ، والمصدر من فاعل الفعال بكسر أوله ، غير أنه لا يبعد أن

---

(٢٥٨) النظرات جـ٢ ص٢٣٥ .

يكون مصدر فخر ، والثلاثى إذا كانت عينه أولامه حرف حلق جاء المصدر منه على فعال بالفتح نحو سمح سماحا[٢٥٩] .

وهذا النقد يعتمد على علم الصرف .

٢ - يقول الشريف الرضى فى المقدمة أيضا متحدثا عن سيدنا على كرّم الله وجهه : ومن عجائبه عليه السلام التى انفرد بها ... أن كلامه كلام من ينغمس فى الحرب مصلتا سيفه فيقط الرقاب ، ويجدل الأبطال ، ويعود به ينطف دما ، ويقطر مهجّا ، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد وبدل الأبدال ، وهذه من فضائله العجيبة[٢٦٠] .

ويعلق الإمام على ذلك فيقول[٢٦١] : **أصلت سيفه من غمده** : **سله ويقط الرقاب** : يقطعها عرضا فإن كان القطع طولا قيل : يقد ، قال ابن عائشة : كانت ضربات على أبكار إن اعتلى قد ، وإن اعترض قط ، ومنه قط القلم ، يجدل الأبطال : يلقيهم على الجدالة كسحابة ، وهى وجه الأرض ، وينطف من نطف كنصر نطفا وتناطفا : سال والمهج جمع مهجه وهى دم القلب ، والأبدال : قوم صالحون لاتخلو الأرض منهم إذا مات منهم واحد أبدل الله مكانه آخر .

وموضع العجب أن أهل الشجاعة والإقدام والمغامرة والجرأة يكونون فى العادة أقسياء فتاكا متمردين جبارين ، والغالب على أهل الزهد وأعداء الدنيا ، وهاجرى ملاذها المشتغلين بالوعظ والنصيحة والتذكير أن يكونوا ذوى رقة ولين ، وضعف قلوب وخور طباع ، وهاتان حالتان متضادتان فاجتماعها فى أمير المؤمنين على كرم الله وجهه مما يوجب العجب ، فكان كرّم الله وجهه أشجع النّاس ، وأعظمهم إراقة للدم ، وأزهدهم وأبعدهم عن ملاذ الدنيا ، وأكثر وعظاً وتذكّيرا وأشدهم اجتهادا فى العبادة ، وكان أكرم النّاس أخلاقا ، وأسفرهم وجها ، وأوفاهم هشاشة وبشاشة .

أما نقد الإمام هنا فإنه يقوم على شرح المفردات اللغوية مضافا اليها المبدأ النفسى أو بمعنى آخر اتفاق المبنى مع الطبائع البشرية .

٣ - من خطبة لعلى وهى المعروفة بالشقشقية :

أما والله لقد تقمصها فلان ، وإنه ليعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عنى السيل ، ولايرقى إلى الطير ، فسدلت دونها ثوبا ، وطويت كشحا .

يعلق الإمام على ذلك بقوله :

---

(٢٥٩) ص١١ .

(٢٦٠) ص١٣ - ١٤ .

(٢٦١) ص١٤ .

الشقشقية لقوله فيها : إنها شقشقة هدرت ثم قرت ، والضمير فى قوله تقمصها يرجع إلى الخلافة ، وفلان كناية عن الخليفة الأول أبى بكر رضى الله عنه ، وينحدر عنى السيل تمثيل لسمو قدره كرّم الله وجهه ، وقربه من مهبط الوحى ، وأن ما يصل إلى غيره من فيض الفضل فإنما يتدفق من حوضه ثم ينحدر عن مقامه العالى فيصيب منه من شاء الله . وعلى ذلك قوله ، ولا يرقى ..الخ غير أن الثانية أبلغ من الأولى فى الدلالة على الرفعة . فسدلت دونها : كناية عن غض نظره عنها وسدل الثوب : أرخاه ، وطوى عنها كشحا : مال عنها وهو مثل لأن من جاع فقد طوى كشحه ومن شبع فقد ملأه فهو قد جاع عن الخلافة أى لم يتلقها(٢٦٢) .

ويظهر فى هذا النموذج النظرات البلاغية « وفلان كناية عن الخليفة الأول . وينحدر عنى السيل تمثيل لسمو قدره وهكذا .

٤ — قال الأعشى :

شتان مايومى على كورها ويوم حيان أخى جابر

يقول الإمام :

الكور بالضم = الرحل أو هو مع أداته ، والضمير راجع إلى الناقة المذكورة فى الأبيات قبل فى قوله :

وقد أسلى الهمّ اذ يعترى بجسرة دوسرة عاقر

والجسر = العظيم من الإبل ، والدوسرة = الناقة . الضخمة ، وحيان كان سيدا فى بنى حنيفة مطاعا فيهم وكان ذا حظوة عند ملوك فارس ، وله نعمة واسعة ورفاهية وافرة ، وكان الأعشى ينادمه ، والأعشى هذا هو الأعشى الكبير أعشى قيس ، وهو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل ، وأول القصيدة :

علقم مأأنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر

وجابر أخو حيان أصغر منه ، ومعنى البيت أن فرقا بعيدا بين يومه فى سفره ، وهو على كور ناقته وبين يوم حيان فى رفاهيته ، فإن الأول كثير العناء شديد الشقاء ، والثانى وافر النعيم وافى الراحة ، ويتلو هذا البيت أبيات منها :

فى مجدل شيد بنيانه يزل عنه ظفر الطائر

مايجعل الجد الظنون الذى جنب صوب اللجب الماطر

مثل القراتى إذا ماطما يقذف بالبوصى والماهر

والمجدل = كمنبر : القصر ، والجد بضم أوله : البئر القليلة الماء ، والظنون : البئر لايدرى أفيه ماء أم لا ، واللجب = المراد منه السحاب . لاضطرابه وتحركه ، والقراتى : الفرات .

(٢٦٢) ص٣٤ — ٣٥ .

وزيادة الياء للمبالغة ، والبوصى : ضرب من السفن معرب بوزى ، والماهر : السابح المجيد [٢٦٣] .

وفى هذا النقد يبرز الجانب التاريخى ، وحيان كان سيدا فى بنى حنيفة مطاعا فيهم ... الخ .

٥ - يقول على رضى الله عنه :

أفلح من نهض بجناح ، أو استسلم فأراح . ويقول الإمام : .

المفلح أحد رجلين إمّا ناهض للأمر بجناح أى بناصر ومعين يصل بمعونته إلى مانهض إليه ، وإما مستسلم يريح النّاس من المنازعة بلا طائل وذلك عند عدم الناصر ، وهذا ينحو نحو قول عنترة لما قيل له إنك أشجع العرب . فقال : لست بأشجعهم ولكنى أقدم إذا كان الإقدام عزّما ، وأحجم إذا كان الإحجام حزّما [٢٦٤] .

وهنا تبدو المقارنة كأساس من أسس النقد عند الإمام .

٦ - ومن خطبة له عليه السلام :

إن الله بعث محمدا ﷺ وآله ، وليس أحد من العرب يقرأ كتابًا ، ولايدعى نبوة فاق الناس حتى بواهم محلتهم ، وبلغهم منجاتهم ، فاستقامت قناتهم ، واطمأنت صفاتهم . أما والله إن كنت لفى ساقتها حتى ولت بحذافيرها .

يقول الإمام : إن كنت الخ إن هذه هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والأصل إنه كنت الخ . والمعنى قد كنت ، والساقة : مؤخر الجيش السائق لمقدمه ، وولت بحذافيرها : بجملتها ، والضمائر فى ساقتها ، وولت بحذافيرها عائدة إلى الحادثة المفهومة من الحديث ، وهى ماأنعم الله به من بعثة النبى ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن الذلة للعزة ، وقال الشارح ابن أبى الحديد : الضمائر للجاهلية المفهومة من الكلام ، وكونه فى ساقتها أنه طارد لها ، ويضعفه إن ساقة الجيش منه لا من مقاتليه ، فلوكان فى ساقة الجاهلية لكان من جيشها ، نعوذ بالله ويمكن تصحيح كلام الشارح بجعل الساقة جمع سائق أى كنت فى الذين يسوقونها طردا حتى ولت . [٢٦٥]

٧ - من خطبة له عليه السلام بعد التحكيم :

أمّا بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحيرة وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ... فأبيتم علّى إباء المخالفين الجناة ، والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه وضن الزند بقدحه .

(٢٦٣) ص٣٦

(٢٦٤) ص٤٥

(٢٦٥) ص٩٠

يقول الإمام :

يريد بالناصح نفسه أى أنهم أجمعوا على مخالفته حتى شك فى نصيحته ، وظن أن النصح غير نصح ، وأن الصواب ماأجمعوا عليه وتلك سنة البشر إذا كثر المخالف للصواب اتهم المصيب نفسه . وقوله ضن الزند بقدحه : أى أنه لم يعد له بعد ذلك رأى صالح لشدة مالقى من خلافهم ، وهكذا المشير الناصح إذا اتهم واستغش عشت بصيرته وفسد رأيه(٢٦٦) .

٨ — ومن كلام له عليه السلام « يجرى مجرى الخطبة » فقمت بالأمر حين وقفوا ، وكنت أخفضهم صوتا ، وأعلاهم فوتا . فطرت بعنانها ، واستمددت برهانها ، كالجبل لاتحركه القواصف ، ولاتزيله العواصف ، لم يكن لأحد فىّ مهمز ، ولالقائل فىّ مغمز ، الذليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له والقوى عند ضعيف حتى آخذ الحق منه ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا لله أمرنا . أترانى أكذب على رسول الله ﷺ ؟ والله لأنا أول من صدّقه فلا أكون أول من كذب عليه . فنظرت فى أمرى فاذا طاعتى قد سبقت بيعتى واذا الميثاق فى عنقى لغيرى .

يقول الإمام :

هذا الكلام ساقه الرضى كأنه قطعة واحدة لغرض واحد ، وليس كذلك بل هو قطع غير متجاورة كل قطعة منها فى معنى غير ماللأخرى ، وهو أربعة فصول الأول من قوله : فقمت بالأمر إلى قوله : واستمددت برهانها : والفصل الثانى من قوله : كالجبل لاتحركه القواصف إلى قوله : حتى آخذ الحق منه ، والفصل الثالث من قوله : رضينا من الله قضاءه إلى قوله : فلا أكون أول من كذب عليه ، والفصل الرابع مابقى .

وبعد هذا التقسيم للنص حسب أفكاره الرئيسية بدأ الإمام بشرح كل فكرة على حدة حسب الترتيب السابق فعن الفكرة الأولى يقول عن على :

(ا) يصف حاله فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، ومقاماته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أيام الأحداث أى أنه قام بانكار المنكر حين فشل القوم أى حين جبنهم وخورهم .

(ب) وأمّا الفصل الثانى فيذكر حاله بعد البيعة ، أى أنه قام بالخلافة كالجبل ..الخ .

(جـ) وأمّا الفصل الثالث فكلام قاله عندما تفدس ماتفدس فى قوم من عسكره أنهم يتهمونه فيما يخبرهم به من أنباء الغيب .

(د) وأمّا الفصل الرابع فهى قطعة من كلام له فى حال نفسه بعد وفاة رسول الله بيّن فيها أنه مأمور بالرفق فى طلب حقه فأطاع الأمر فى بيعة أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فبايعهم امتثالا لما أمره النبى به من الرفق وايفاء بما أخذ عليه النبى من الميثاق فى ذلك .

---

(٢٦٦) ص٩٣ — ٩٥

وبهذا نرى أن الإمام كان ينظر إلى النص أولا نظرة كلية يبحث فيه عن مدى ارتباط أفكاره الأساسية بعضها ببعض ، وهل هو ارتباط وثيق أو ضعيف أولا يوجد ارتباط بالمرة ، وهذه نظرة سبقت أوانها على يد الإمام فلم تظهر فى النقد الأدبى الحديث باعتبارها من مبادئه إلا على يد مدرسة الديوان التى تزعمها شكرى والعقاد والمازنى ، والتى ظهرت على مسرح الحياة الأدبية بعد وفاة الإمام بمدة فله فضل السبق على هذه المدرسة إذن .

وفى نفس المضمار يقول الإمام معلقا على قول سيدنا على فى إحدى خطبه « فما ينجو من الموت من حافة ، ولايعطى البقاء من أحبه » .

يقول الإمام : ليس ملتئما مع ماقبله فهو قطعة من كلام آخر ضمه – أى الرضى – إلى هذا على نحو ما جمع الفصول المتقدمة .(٢٦٧) .

وبهذا نرى أن الإمام كان ينظر إلى وحدة الموضوع الذى يفسره وينقده .

٩ – وفى خطبة أخرى يقول على رضى الله عنه :

منيت بمن لايطيع إذا أمرت .. الخ .

يقول الإمام :

وهذا الكلام خطب به أمير المؤمنين فى غارة النعمان بن بشير الأنصارى على عين التمر من أعمال أمير المؤمنين ، وعليها إذ ذاك من قبله مالك بن كعب الأرحى(٢٦٨)

وهنا يوضح الإمام جوّ النص ، ولاشك فى أن ذلك يساعد على تمثل النص وتفهمه وتذوقه فهو لبنة أساسية فى بناء النقد الأدبى الحديث .

١٠ – يقول على رضى الله عنه : ولقد أصبحنا فى زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيسا .
يقول الإمام معلقا على ذلك :

وأهل ذلك الزمان يعدون الغدر من العقل وحسن الحيلة كأنهم أهل السياسة من بنى زمننا(٢٦٩) .

١١ – يقول على رضى الله عنه : أيها النّاس : إنّ أخوف ماأخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى وطول الأمل .

ويقول الإمام معلقا على ذلك :

طول الأمل : هو استفساح الأجل والتسويف بالعمل طلبا للراحة العاجلة ، وتسلية للنفس بامكان التدارك فى الأوقات المقبلة ، وهذا من أقبح الصفات .(٢٧٠)

---

(٢٦٧) ص٩٦ – ٩٨

(٢٦٨) ص٩٨ – ٩٩

(٢٦٩) ص١٠١

(٢٧٠) ص١٠١

١٢ - يقول على رضى الله عنه عن الدنيا : وهى حلوة خضرة .

ويقول الإمام معلقا على ذلك : هو تمثيل لها بما يألفه الذوق ، ويروق النظر(٢٧١) .

١٣ - يقول على رضى الله عنه :

اللهم داحي المدحوّات ، وداعم المسموكات . قال صاحب القاموس : المسموكات لحن والصواب مسمكات . يقول الإمام : ولعل هذا فى إطلاق اللفظ اسما للمسموكات أما لو أطلق صفة كما فى كلام الإمام فهو صحيح فصيح بل لا يصح غيره فان الفعل سمك لاأسمك(٢٧٢)

١٤ - من خطبة له عليه السلام بعد حرب الجمل فى ذم النساء :

معاشر النّاس إن النساء نواقص الإيمان ، نواقص الحظوظ ، نواقص العقول ، فأمّا نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام فى أيام حيضهن ، وأمّا نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد ، وأمّا نقصان حظوظهن فمواريثهن على الأنصاف من مواريث الرجال ، فاتقو أشرار النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر ، ولاتطيعوهن فى المعروف حتى لايطمعن فى المنكر.

ويعلق الإمام على ذلك بقوله :

خلق الله النساء وحملهن على ثقل الولادة وتربية الأطفال إلى سن معينة لا تكاد تنتهى حتى تستعد لحمل وولادة ، وهكذا فلا يكدن يفرغن من الولادة والتربية ، فكأنهن قد خصصن لتدبير المنزل وملازمته وهى دائرة محدودة يقوم عليهن فيها أزواجهن خلق لهن من العقول بقدر مايحتجن إليه فى هذا . وجاء الشرع مطابقا للفطرة فكن - فى أحكامه - غير لاحقات للرجال لا فى العبادة ولا الشهادة ولا الميراث .

أمّا قول على رضى الله عنه : ولا تطيعوهن فى المعروف ...الخ فلا يريد أن يترك المعروف لمجرد أمرهن به فإن فى ترك المعروف مخالفة السنة الصالحة خصوصا ان كان المعروف من الواجبات بل يريد أن لا يكون فعلى المعروف صادرا عن مجرد طاعتهن فإذا فعلت معروّفا فافعله لأنه معروف ، ولا تفعله امتثالا لأمر المرأة ، ولقد قال على رضى الله عنه قولا صدقته التجارب فى الأحقاب المتطاولة ، ولااستثناء مما قال إلا بعضّا منهن وهبن فطرة تفوق فى سموها ماستوت به الفطن أو تقارب أو أخذت بسلطان من التربية طباعهن على خلاف ماغرز فيها وحولتها إلى غير ماوجهتها الجبلة إليه(٢٧٣)

---

(٢٧١) ص١٠٤ - ١٠٥

(٢٧٢) ص١٣٠

(٢٧٣) ص١٤٠ - ١٤١

١٥ - يقول على رضى الله عنه :

فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم الله لا رهج له ولا حسّ ، وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر .

وفى تعليق الإمام :

قالوا : يشير إلى فتنة صاحب الزنج وهو على بن محمد بن عبد الرحيم من بنى عبد القيس ادعى أنه علوى من أبناء محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين وجمع الزنوج الذين كانوا يسكنون السباخ فى نواحى البصرة ، وخرج بهم على المهتدى العبّاسى فى سنة خمس وخمسين ومائتين واستفحل أمره ، وانتشرت أصحابه فى أطراف ابلاد للسلب والنهب ، وملك أبله عنوة وفتك بأهلها واستولى على عبادان والأهواز . ثم كانت بينه وبين الموفق فى زمن المعتمد حروب انجلى فيها عن الأهواز وسلم عاصمة ملكه ، وكان سمّاها المختار بعد محاصرة شديدة ، وقتله الموفق أخو الخليفة المعتمد سنة سبعين ومائتين ، وفرح النّاس بقتله لانكشاف رزئه عنهم .(٢٧٤)

وانظر إلى ذكاء الإمام وفطنته ومجاملته للشيعة حين يعرض لمثل هذا الخبر الذى فيه ادعاء معرفة على للغيب أنه يمرّ من هنا سريعا ولايقف للمناقشة فكان تعليقه : قالوا : يشير إلى فتنة صاحب الزنج ... الخ .

نماذج من شرح الإمام لنهج البلاغة جـ٢ :

١ - من كتاب على رضى الله عنه للأشتر النخفى : ولا تعقد عقدا تجوز فيه العلل ، ولا تعوكن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة .

يقول الإمام :

العلل جمع علة وهى فى النقد والكلام بمعنى مايصرفه عن وجهه ويحوله إلى غير المراد ، وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته ، ولحن القول : مايقبل لتوجيه كالتورية والتعريض ، فإذا تعلل بها المقاعد لك وطلب شيئا لايوافق ماأكدته وأخذت عليه الميثاق فلا تعوّل عليه ، وكذلك لو رأيت ثقلا من التزام العهد فلا تركن إلى لحن القول لتتملص منه فخذ بأصرح الوجوه لك وعليك(٢٧٥) .

باستطاعتنا من خلال هذه النماذج أن نتبين الأسس النقدية التى اعتمد عليها الإمام فى شرحه لنهج البلاغة وهى :

---

(٢٧٤) ص٢١٣

(٢٧٥) ص١١١

١ - أسس تعتمد على علم الصرف والنحو .
٢ - أسس لغوية .
٣ - أسس نفسية .
٤ - أسس بيانية .
٥ - أسس تاريخية .
٦ - أسس مقارنة .
٧ - أسس معنوية وعضوية .
٨ - أسس اجتماعية .

وهذه الأسس لاتخرج فى مجموعها عن نظرية الإمام فى النقد ، ولاعن أصول هذه النظرية ومنابعها الأولى كما أوضحناها سابقا .

٢ - مقامات أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى :

كتب الإمام مقدمة لهذه المقامات بين فيها منزلة صاحب المقامات فى عالم الأدب وأنه بلغ شهرة الشمس والقمر ، وأن مما امتاز به كلامه أنه جمع بين خصائص أهل الوبر فى الرصانة والرفعة ، وبين خصائص أهل الحضر فى الرقة ورواء الصنعة ، ثم تحدث عن المقامات وفوائدها ، وبين الباعث له على شرحها وطريقة ذلك الشرح والتى تناولت فيما تناولت تحقيق النص ، وتفسير غريبه ، وتبين خفيه . ثم بيّن الإمام أنه لم يسبق إلى ذلك العمل وأن عدته فى شرحه كانت طبعا عربيا ، وذوقا أدبيا بالإضافة إلى أمهات اللغة الحاضرة وأمثال للعرب سائرة ، ومقالات لهم على الألسن دائرة ، ثم بيّن أنه عوّل فى شرحه على الاختصار لأن غرضه تسهيل فهم الكتاب لحديث العهد بالآداب ، وان كان الآخذون فى العلم رشدهم سيستفيدون منه أيضا ، ونبه إلى أنه لجأ أحيانا إلى التهذيب والتمحيص والتنقيح والتلخيص ، وذكر سبب ذلك وهو أن فى بعض المقامات مايستحى الأديب من قراءته ويخجل مثل الإمام من شرحه ، وإن كان ذلك لايغض من شأن الهمذانى « فلكل زمان مقال ، ولكل خيال مجال » .

لقد كان محمد عبده فى دراسته للمقامات محققا وناقدا من الطراز الأول يرسم المنهج ويقوم بتنفيذه ، ولقد رسم لنا فى مقدمته منهجا ممتازا فى تحقيق النصوص الأدبية وتصحيح متن الكتاب فقد وفقه الله بتعدد النسخ ، وإن عظمت مشقة الاختيار لتباين الروايات ، واتفاق الكثير منها على مالا يصح معناه ، ولذلك لزم النهج الآتى :- الوضع اللغوى أصلا - الاستعمال العرفى مرشدا - مكان المصنف بين أهل اللسان ميزانا للترجيح - ... الخ . إن هذه المقدمة على جانب كبير من الأهمية بل إن هذا شأن مقدمات محمد عبده بصفة عامة ، إن نقاد الأدب ودارسيه سيجدون فيها فوائد جمّة ترشدهم فى ميدان الأدب والنقد ولايمكن لباحث

يكتب عن محمد عبده الأديب الناقد دون أن يعرض لمقدمات كتبه ولهذه المقدمة على وجه الخصوص لذلك آثرت نقلها بعد هذا العرض السريع لأبرز معالمها .

يقول الإمام :

عرف الناظرون فى كلام العرب ، وشهد السالكون على مناهج الأدب أن الشيخ أبا الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى المعروف ببديع الزمان قد طبق الآفاق ذكره ، وسار مثلا بين النّاس نظمه ، فله الرسائل الرائعة ، والمقامات الفائقة ، والقصائد المونقة ، وله المعانى العالية فى العبارات الحالية والأساليب الساحرة فى الألفاظ الباهرة ، وماأجدره بقوله نفسه فى وصف زهير « يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه » . ولاحاجة للاطالة فيما ظهر حتى بهر ، وبلغ شهرة الشمس والقمر ، ومن أشرف ماامتاز به كلامه أنه يباهى كلام أهل الوبر رصانة ورفعة ، ويمتزج بطباع أهل الحضر رقة ورواء صنعة فبينما يخيل لسامعه أنه بين الأخبية والخيام إذ يتراءى له بين الأبنية والأطام(٢٧٦) .

وقد قالوا انه أنشأ من المقامات زهاء أربعمائة مقامة لكن لم يظفر النّاس منها اليوم بغير عدد قليل ينيف على الخمسين طبع مجموعة فى الأستانة العلية ، وهو على نزارته غزير الفوائد كثير الفرائد جمّ الفنون متصرف فى شتى من الشؤون ، يستفيد منه العليم ، ويهتدى به الناشىء فى التعليم غير أن الانتفاع به كان عسيرا لسببين: الأول ماعاث به النساخ فى ألفاظه من تحريف يفسد المبنى ، ويغيّر المعنى . وزيادة تضر بالأصول وتذهب بالذهن عن المعقول ، ونقص يهزّع الأساليب ، وينقض بنيان التراكيب ، فالناظر منه ان كان ضعيفا ضلّ أو حار ، وان كان عريقا لم يأمن من العثار . والوجه الثانى غرابة بعض كلماته وخفاء كثير من إشاراته وغموض فى تأليف بعض عباراته ، فالمبتدءون بمعزل عن فهمه وأهل التحصيل فى عناء من تفهمه فمسّت الحاجة فى الاستفادة منه أولا إلى تصحيحه ، ورد لفظه إلى صريحه . وثانيا إلى تفسير غريبه وتبيين خفيه وتوضيح غامضه ، ولمّا كان على قصره أنفع لطلاب الفصيح من غيره وفى قلّة ألفاظه أبعث للأنفس على استحفاظه عنى بعض حفدة العربية من سكان سورية بطلب ماتتم به الفائدة من ذلك فحملنى إذ كنت فى تلك الديار على النظر فيه ووضع تعليق عليه يكشف عن خوافيه ويسهل على طلاب معانيه أمر تعاطيه فأحببت طلبه وشكرت أدبه واستعنت الله تعالى على العمل ، وسألته الوقاية من وصمة الزلل وزّلة الخطل وأقدمت على ذلك بلا سابق أقتفيه ولا ذى مثال أحتذيه ولامادّة لى إلا طبع عربى وذوق أدبى ، وأمهات اللغة الحاضرة ، وأمثال للعرب سائرة ، ومقالات لهم على الألسن دائرة وعوّلت فيه على الاختصار خوف السآمة من الاكثار ، ولم أعد الغرض من تسهيل فهم الكتاب لحديث العهد بالآداب .(٢٧٧)

(٢٧٦) ص٥

(٢٧٧) ص٦

أمّا الآخذون فى العلم رشدهم ، والبالغون فى المعرفة أشدهم فأولئك لهم من نافذ الفهم مايسبق التفسير ويبلغ كنه المراد قبل التعبير إلا أنهم فيما أظن سيحمدون قصدنا عند المطالبة إذا عرض الحرف الغريب والمعنى البعيد فيغنيهم مايجدون عن طول المراجعة ويكفيهم مؤونة البحث فى معجمات اللغة ويسرع اليهم بما عساه يبطىء عليهم من أنفسهم ويثير ماربما كان كامنا فى مداركهم بل قد يكون فى الخطأ إن حققوه هداية لصواب لو طلبوه فالرجاء أن يحملونى من إنصافهم على الفضل من محاسن أوصافهم .

وههنا ماينبغى التنبيه عليه وهو أن فى هذا المؤلف من مقامات البديع رحمه الله افتنانا فى أنواع من الكلام كثيرة ربما كان منها مايستحى الأديب من قراءته ويخجل مثلى من شرح عباراته ولا يجمل بالسذج أن يستشعروا معناه أو تنساق أذهانهم إلى مغزاه ، وأعوذ بالله أن أرمى صاحب المقامات بلائمة تنقص من قدره أو أعيبه بما يحط من أمره ولكن لكل زمان مقال ، ولكل خيال مجال ، وهذا عذرنا فى ترك المقامات الشامية ، وإغفال بعض جمل من المقامة الرصافية وكلمات من مقامات أخرى مع التنبيه على ذلك فى مواضعه ، والإشارة إلى السبب فى مواقع ، وليس هذا العمل بدعا ولا من الممنوع شرعا فقد جرت سنة العلماء بالتهذيب والتمحيص والتنقيح والتلخيص ، وليس من منكر عليهم فى شىء من ذلك وانّما الممنوع أن يؤتى ببعض ذلك أو كله مع السكوت عنه فيكون تغريراً للناظر ، وضلّة للقاصر ، ونسبة قول لغير قائله ، وحمل أمر على غير حامله ، وهذا من الظاهر الجلى عند العارفين ، وانما يبعث على بيانه سوء ملكة المتشدقين(٢٢٨) .

وأمّا تصحيح متن الكتاب فقد وفق الله له بتعدد النسخ لدينا ، وإن عظمت مشقة الاختيار علينا لتباين الروايات واتفاق الكثير منها على مالا يصح معناه ، ولا يستجاد مبناه فكان الوضع اللغوى أصلا نرجع إليه ، والاستعمال العرفى مرشدا نعوّل عليه ، ومكان المصنف بين أهل اللسان ميزانا للترجيح ، ومقياسا نعتد به فى التصحيح فإن تعددت الروايات على معان صحيحة أثبتنا فى الأصل أولاها بالوضع ، إمّا لتأيده بالاتفاق مع اكثر الروايات وامّا لتميزه بقرب معناه إلى مااحتف به من أجزاء القول ثم أشرنا إلى الروايات الأخرى فى التعليق ، وإن كانت فى حاجة إلى التفسير جئنا به على طريقتنا من الاختصار فجاء الكتاب والحمد لله صافيا وأرجو أن يكون التفسير بتيسير الله وافيا ، وأسأل الله أن لايحرمنى مثوبة العمل عنده وأن يكفينى من الأمر مايكفى الرب عبده ، وهو ولىّ الإجابة واليه الايابة(٢٧٩)

---

(٢٧٨) ص٧

(٢٧٩) ص٩

نماذج من نقد الإمام فى المقامات :

المقامة القريضية

يقول الإمام فى تفسير قول الهمذانى « حتى إذا مال الكلام بناميله .. الخ أى انحدر بنا فى أبواب المعانى انحداره المعروف عند أهله فإن للكلام اندفاعا بالمتكلمين يكاد يغلبهم على مالا يقصدون الخوض فيه وذلك معروف عند من له إلمام بالكلام(٢٨٠) .

المقامة الأزاذية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت ببغداد ... الخ . جاء فى هامش ص ١٤ على لسان الامام مايلى : بغداد هى مدينة بغداد المشهورة وفى لفظها لغات بذالين معجمتين ودالين مهملتين وبمختلفين مع تقدم المعجمة أو تأخرها وبغدان وبغدين ومغدان وتلقب بمدينة السلام ولفظها فى الأصل فارسىّ مركب من باغ بمعنى بستان وداد بمعنى العدل فهو بذالين مهملتين وبقية اللغات وجوه تعريب وكانت من بناء الفرس قبل الإسلام إلا أنها لم تكن من حواضرهم وبقيت كذلك إلى سنة ١٤٥ من الهجرة فجدد الخليفة المنصور ثانى خليفة من بنى العبّاس اختطاط مكانها حاضرة للخلافة العباسية وتّم بناؤها فى سنة ١٤٦ وأنفق فيه أربعة ملايين درهم وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهم . وكان عرض الطريق فيها أربعين ذراعا .

المقامة الأزاذية

يقول عيسى بن هشام : فحين جمعت حواشى الأزار عَلى تلك الأوزار أخذت عيناى رجلا قد لفّ رأسه ببرقع حياء .

وجاء فى هامش ص١٤ على لسان الإمام ما يلى :

البرقع ما تستر به المرأة وجهها وهو فى الإنسان من خواص النساء ، وكان الأقوم فى التعبير قد جلل وجهه ببرقع لأن الرأس لا يبرقع ولا ستره من خواص الحياء ولكنه أراد أنه لفّ رأسه بما سدل منه طرفا على وجهه أو أراد بالبرقع اللثام وهو ما يدل عليه الكلام الآتى آخر المقامة .

المقامة الأزاذية

قال أبو الفتح الاسكندرى :

فقض العمر تشبيها على النّاس وتمويها
أرى الأيام لا تبقى على حال فأحكيها
فيوما شرها فىّ ويوما شرّى فيها

---

(٢٨٠) ص٩

يقول الأستاذ الإمام فى هامش ص١٧ :

فيوما ينفذ فى شرها بما ترميني به من الفقر ، ويطلق الشرّ أيضا على الفقر خاصة ويوما أقاوم سلطانها بشرتى بالكسر أى نشاطى وخفتى فى إعداد ما يدفع بؤسها عنى .

وفى النسخة المطبوعة فى القسطنطينية هذه الأبيات :

يا حريصا على الغنى قاعدا بالمراصد
لست فى سعيك الذى حصت فيه بقاصد
انّ دنياك هذه لست فيها بخالد
بعض هذا فانما أنت ساع لقاعد

والمراصد : المراقب عليها من يرقب أسباب الغنى لينالها ، وحصت بالصاد المهملة أى عدلت فيه عن الصواب والقاصد القائم على العدل وقويم المحجة وقوله بعض هذا مبتدأ لخبر محذوف أو فاعل لمحذوف أى يكفيك ، وأنت ساع لقاصد مأخوذ من كلام الإمام على بن أبى طالب « ربّ ساع لقاصد » أى قد لا ينتفع جامع المال بما سعى فى جمعه ويخلص نفعه لوارث لا سعى له . وهذه الأبيات لا تناسب حال أبى الفتح فى هذه المقامة وإنما تناسب حال الزاهدين النافضين أيديهم من الدنيا وحطامها وقد كشف حاله عن حريص على كثرها وقلها .

المقامة البلخية

حدثنا عيسى بن هشام قال : نهضت بى الى بلخ تجارة البز فوردتها وأنا بعذرة الشباب وبال الفراغ وخلية الثروة ... الخ .

يقول الأستاذ الإمام فى هامش ص١٧ :

العذرة الناصية وهى الخصلة من الشعر من مقدم الرأس ويعبر بالناصية عن أعلى الشئ أو على موضع المكنة منه يريد عنفوان الشباب والأنسب بالعبارة الآتية أن يكون اللفظ « بغرة الشباب » أى غفلته ووردتها أى أتيتها .

المقامة البلخية

يقول ابن هشام : ولما حنى العراق بناقوسه أوكاد دخل علىّ شاب فى زى ملء العين ولحية تشوك الأخدعين .

يقول الأستاذ الإمام فى هامش ص١٨ .

الأخدعان : عرقان فى صفحة العنق موضع الحجامة وهما شعبتان من الوريد واللحية تشكوها تصل أطراف شعرها اليها فتكاد تنقدهما لعظمها من شاكة الشوك يشوكه إذا نفذ فيه .

وفى بعض النسخ تشكو الأخدعين وفى بعضها تشكو دم الأخدعين ولا معنى لها إلا بتكلف لا يليق بكلام الفصحاء بأن يقال فى الأولى إن من عادة الشاكى أن يأخذ بتلابيب المشكو ليجره إلى موقف المخاصمة فعبر بالشكوى عن بعض لوازمها وهو الملازّة وهو المراد من تشوك على ما بينا ويقال فى الثانية أنها بسوادها تشكو ماء الوجه فى حمرته كأنما يغلب عليها توقده فيكون قد أصاب غرضين سواد اللحية وظهور ماء الحياة فى الوجه وكلاهما عنوان لقوة الشبيبة ولكن كل من التفسيرين تاويل لا يخفى بعده .

المقامة السجستانية

يقول عيسى بن هشام : مضيت الى السوق اختار منزلا فحين انتهيت من دائرة البلد الى نقطتها ومن قلادة السوق إلى واسطتها خرق سمعى صوت له من كل عرق معنى ...

وفى هامش ص٢٣ يعلق الأستاذ الإمام على ذلك فيقول :

القلادة ما يحيط بالعنق من منظوم الجواهر وواسطة القلادة أعظم فرد من جواهرها يوضع وسطها وهو أكرمها وقد كانت السوق فى العهد الأول حوانيت مصطفة يتوسطها ساحة يجول فيها طلاب الحاجات والباعة فكانت على ساحتها أشبه بالقلادة على العنق وواسطتها ما يستقبل الآتى من أول السوق ذاهبا الى آخرها ، وفى نسخة إلى سطتها والمراد الوسط تسمية للمكان بالمصدر يقال وسط المكان سطة جلس وسطه ، وربما كان الشيخ أبو الفتح فى صدر السوق فيكون عند واسطة قلادته أى الحانوت الذى يتساوى اليه عدد الحوانيت من جانبيه أو يكون وسط السَاحة فتكون النسخة الثانية أمثل بالمعنى وكلا الاحتمالين غير بعيد فإن المقصود أن الشيخ كان موجودا يصيح فى مكان من وسط المدينة ويجوز أن يراد من قلادة السوق ما أحاط به وهو دائرة المدينة ومن سطتها وواسطتها وسط المدينة فتكون هذه الفقرة راجعة إلى التى قبلها فى معناها ومثل هذا التكرار فى المقامات غير ممنوع .

المقامة الكوفية

يقول عيسى بن هشام : فلما انصاح النهار بجانب ليلى وجمعت للمعاد ذيلى وطئت ظهر المروضة لأداء المفروضة وصحبنى فى الطريق رفيق لم أنكره من سوء فلما تجالينا وخبرنا بحالينا سفرت القصة عن أصل كوفىّ ومذهب صوفى

ويقول الأستاذ الإمام فى هامش ص٢٩ :

سفرت المرأة عن وجهها كشفت ، والقصة ما حكاه الرفيق عن حاله والكوفّى نسبة إلى الكوفة من بلاد العراق معروفة باسمها وموضعها إلى الآن ، والصوفّى نسبة إلى الصوفية وهم طائفة من المسلمين همهم من العمل إصلاح القلوب وتصفية السرائر والاستقبال بالأرواح

وجهة الحق الأعلى جلّ شأنه تأخذهم الجذبات اليه عمن سواه وتفنى ذاتهم فى ذاته وصفاتهم فى صفاته ، والعارفون منهم البالغون إلى الغاية من سيرهم فى أعلى مرتبة من الكمال البشرى بعد النبوة .

المقامة الأسديّة

يقول ابن هشام : وقمت إلى أصيحابى فحللت أيديهم وتوزعنا سلب القتيلين ، وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه .

يقول الأستاذ الإمام فى هامش ص٤١ :

القتيلان أحدهما الغلام التركى والآخر رفيقهم الذى قتله الغلام وسلبهما ثيابهما وسلاحهما وكل ما يصلح سلبه منهما ، وتوزعناه تقاسمناه كل واحد منا أخذ حظه منه وفى نسخة : القتيل مفردا والمراد منه الغلام وهى الى الصواب أقرب فإنه ليس من المرؤة أن يجعلوا ما ترك رفيقهم سلبًا يتوزعونه بل من الواجب عليهم أن يحفظوا ما ترك حتى يوصلوه إلى أهله ثم قوله أدركنا الرفيق ... الخ يؤيد ذلك .

المقامة الساسانية

حدّثنا عيسى بن هشام قال : أحلتنى دمشق بعض أسفارى فبينا أنا يوما على باب دارى إذ طالع علىّ من بنى ساسان كتيبة قد لفوا رؤسهم ... الخ .

ويقول الأستاذ الإمام فغ هامش ص٩٧ :

بنوساسان الشحاذون وأهل المسألة ، وساسان يقولون إنه كان رجلا فقيرا حاذقا فى الاستعطاء دقيق الحيلة فى الاستجداء فنسب اليه المكدون وعندى أن الساسانية وبنو ساسان وما شاكل ذلك من الألفاظ المشيرة بالتحقير لساسان وأنه جد الفئة أو شيخهم إنما جاءت بعد زوال دولة الساسانية من الفرس التى كان مؤسسها أردشير بابك فلما محقها الإسلام وبقى من أطرافها أفراد أذلاء سقطوا فى ألسنة فتيان المسلمين الأولين فكانوا يطردونهم من مكان إلى مكان وَيعيرونهم بعنوان آبائهم فبعد أن كانت نسبتهم إلى ساسان نسبة مجد وحسب صارت نسبة قذف وسب وكان فى إشهار هذا الاسم بالتحقير غاية سياسية فضلا عما تطمح اليه نفس الغالب من إذلال المغلوب وهى أن لا يبقى لدولة الساسانية ذكر فى لسان ولا أثر فى جنان ينبئ عن سلطانها أو رفعة شأنها وإذا خطر أمرها بالبال فلا يخطر إلا مع لازمه الجديد وهو السفالة والدناءة ثم نسى ذلك بمرور الأيام وبقى اللفظ مستعملا فى الشحاذين وهم أدنى طبقة من الناس . وقد سمعت فى بعض البلاد سبًا تعجبت لأول سماعه ثم انتبهت الى سببه وذلك أن رجلا كان قد رأى على ابنه شيئا يشير الى رخاوة فيه فكان نهاية شتم قاله فى شدة غيظه

يا برمكى فعلمت أن أهل الدولة من العبّاسيين بعد أن نكبوا البرامكة جعلوا عنوانهم عارا لمن يتصل به ، وبقى ذلك إلى اليوم فى ألسنة بعض البلاد فى مصر . هذا وللبرامكة أعوان وأنصار حفظوا طيب ذكرهم فى بطون الكتب إلى ما شاء الزمان أن يبقى . أمّا الساسانية فلم يكن لهم بعد تمكن الإسلام فى فارس ولىّ ولا نصير .

٣ - تفسير القرآن الحكيم :

اتجه فريق من الباحثين إلى الدراسات القرآنية فى مختلف نواحيها من مفردات وغريب ومعان ونظم وإعجاز محاولين أن يفسروا على هدى هذه الدراسات كثيرا من الظواهر التى اختص بها الذوق العربى الإسلامى الذى اتخذ من كتابه السماوى نموذجه الأول ومثله الأعلى فى البيان والتعبير[٢٨١] على نحو ما صنع الإمام .

فهناك ظاهرتان وثيقتا الصلة بالحياة الأدبية العربية برزتا منذ بدء الدعوة الإسلامية : أولاهما هذا الكتاب العربى المبين الذى تمت له الصدارة على كل ما أنتج العرب وينتجون من أدب وبيان ، والذى هو فى الوقت نفسه دستور الحياة وميزان السلوك والأصل الأول للتشريع ، ومن الطبيعى أن تتجه أذهان المسلمين أول ما تتجه إلى العناية بهذا النص ، لشرح ألفاظه وتفسير آياته وتعرف أساليبه ، وتبيين مغازيه واستنباط الأحكام منه ، وكثير من هذه النواحى يدخل فى صميم ما نسميه وتسميه الآداب الأخرى « نقد الأدب »[٢٨٢] وإن كنّا تأدبا مع القرآن الكريم نفضل له اسما آخر من الأسماء التى أطلقتها الثقافة العربية على هذه الدراسات ، ولعل هذا كان من الأسباب التى حدت بعلماء المسلمين ممن ألفوا فى صناعة الأدب الى العدول عن لفظة النقد لما تتضمنه هذه اللفظة من ذكر المحاسن والمساوئ واصدار الحكم على النص المنقود .

أمّا الظاهرة الثانية التى جدت مع الإسلام على الحياة الأدبية النقدية عند العرب فهى ظاهرة الإعجاز البلاغى ، وقيام الرسالة السماوية عليه ، وهى ظاهرة لم تعرفها الآداب الأخرى ، ومن الطبيعى كذلك أن يشغل علماء العربية بها ، وأن يستعملوا أذهانهم وعبقرياتهم فى دراستها ، وأن يستعينوا على هذه الدراسة بكل ما يلزمها من أدوات ، وبكل ما يستحدثون من مناهج وثقافات ، وظاهر أنها فى صميمها دراسة نقدية من الطراز الأول ، فهى تعتمد على بحث الأساليب ، وتعمق أسرار البلاغة والموازنة بين ألوان الكلام الرفيع .

منذ بدء الحياة الإسلامية إذن أخذ القرآن مكان الصدارة بصفة كونه النص الأدبى الأول لهذه الأمة ، والكتاب المبين المعجز ، هذا الى كونه وحى السماء وأساس التشريع والقانون

(٢٨١) أثر القرآن فى تطوّر النقد العربى : المقدمة للأستاذ محمد خلف الله ص٨ .
(٢٨٢) المرجع السابق ص٩ .

المنظم للسلوك ، والمرشد الموجه الى معالى الأمور . واذا اجتمعت هذه الظروف لكتاب فمن الطبيعى أن يصبح محورا لأهداف الفكر والتأليف فى الأمة وينبوعًا للكثير من جداول ثقافتها ، وحافزا على العناية بكثير من فروع العلم التى يمكن أن تعين على فهم هذا الكتاب ، وادراك أسراره والتاريخ يحدثنا أن هذا كان شأن القرآن من الثقافة العربية الاسلامية ، وأن دراسات القرآن كانت العامل الأكبر فى العناية بتدوين اللغة وجمع الشعر ورواية الفصيح ، وبحث طرائق اللغة فى التعبير وأساليبها فى البيان .(٢٨٣)

موجات التأليف النقدى عند العرب :

انقسم الصحابة فى صدر الإسلام قسمين : متحرّج من القول فى القرآن ، ومن هؤلاء أبو بكر وعمر(٢٨٤) والقسم الثانى الذين لم يتحرجوا وفسّروا القرآن حسب ما فهموا من الرسول أو حسب فهمهم الخاص بالمقارنة إلى الشعر العربى ، كلام العرب ، ومن هؤلاء على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عبّاس ومن أخذ عنهما .(٢٨٥)

وهؤلاء المفسرين من الصحابة والتابعين كانوا ينتهجون منهجًا يتلخص فى الاسترشاد بحديث رسول الله ، وبروح القرآن ، وبالشعر العربى ، والأدب الجاهلى بوجه عام ، ثم عادات العرب فى جاهليتها ، وصدر إسلامها ، وما قابلهم من أحداث ، وما لقى رسول الله من عداء ومنازعات وهجرة وحروب .(٢٨٦)

ويمثل هذا الاتجاه المرحلة الأولى من حياة الفكر الإسلامى فى القرن الأول الهجرى ومعظم الثانى . ولكن المرحلة التالية التى تبدأ من نهاية القرن الثانى وتستمر خلال القرن الثالث مرحلة مهمة فى الموضوع لغنى ثروتها فى ميدانها ، وهناك ثلاث كتب مهمة فى هذا الموضوع هى «كتاب مجاز القرآن» لأبى عبيدة أحد أعلام الرواية الأدبية والمتوفى سنة ٢٠٩هـ ، و«كتاب معانى القرآن» للفراء أحد أعلام النحو المتوفى سنة ٢٠٧هـ ، وكتاب «مشكل القرآن» لابن قتيبة أحد أعلام الأدب والبيان والمتوفى سنة ٢٧٦هـ .

امّا الكتاب الأول فقد كان محاولة فى تفسير غريب القرآن ، وفى بيان نهجه أو مجازه فى التعبير ووجوه نظمه التى يوجد مثلها فى كلام العرب ، من إضمار الكلمة ، أو الاستغناء عن تتمة الجملة أحيانا أو بارجاع اللفظ لواحد من اثنين مشتركين أو زيادة حرف أو تقديم أو تأخير ، والاستشهاد للكثير من ذلك بأمثلة من كلام العرب .(٢٨٧)

---

(٢٨٣) المرجع نفسه ص١٠ .

(٢٨٤) أثر القرآن فى تطوّر النقد العربى للدكتور محمد زغلول سلام ص٣١ .

(٢٨٥) المرجع نفسه ص٣٢

(٢٨٦) فجر الإسلام لأحمد أمين ص٢٣٦ .

(٢٨٧) أثر القرآن فى تطوّر النقد العربى : المقدمة للأستاذ محمد خلف الله ص١١ ، ١٢ .

منهج أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتاب « مجاز القرآن »

١ – يبدأ شرح الآية بآية أخرى ما أمكن .

٢ – يتبعها بحديث فى نفس المعنى .

٣ – يتبعها بالشاهد الشعرى القديم أو بكلام العرب الفصيح كالخطب والأمثال والأقوال المأثورة ، ويحرص أبو عبيدة على أن يؤكد دائما صلة أسلوب القرآن وفنون التعبير فيه بأساليب العرب وفنونهم فيذكر دائما فى ختام كلامه أن « العرب تفعل هذا »(٢٨٨) .

وأمّا الفراء فقد عنى بطبيعة الحال بالتوسع فى التخريج النحوى وبيان القراءات ، وأوجه التفسير الى جانب عنايته بالشرح اللغوى ، والتنبيه الى ظواهر الاستعمال والاستشهاد بالشعر .

وأمّا ابن قتيبة فقد وجه عنايته الى بيان أسلوب القرآن وجريه على مجازات العرب فى كلامها « ومعناها كما يقول طرق القول ومآخذه » من الاستعارة والتمثيل والتقديم والتأخير ... وما إلى ذلك ، وقد جعل ابن قتيبة مفتاح حديثه فى الموضوع كون القرآن جامعا للكثير من المعنى فى القليل من اللفظ .. ثم قال : وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات .

ومن أهم ما يسترعى النظر فى منهج الباقلانى لدراسة اعجاز القرآن اعتبار الوحدة الفنية التى تتضمن موضوعا واحدا ، ويظهر هذا من تناوله بالتحليل سورة بتمامها ، يتدرج فيها ليظهر ما تنطوى عليه من خصائص فى النظم ، فالسورة لا الآية أصغر وحدة فنية موضوعية فى القرآن يمكن الحكم عليها بإعجاز النظم أو بالبلاغة وروعة البيان لأنها يمكن أن تتوفر لها شروط الإعجاز السليمة(٢٨٩) .

هذه وأشباهها من كتب الدراسات القرآنية فى تلك المرحلة كتب فى صميم النقد فهى تحاول فهم النص ، وتعرف ظواهر الاستعمال اللغوى والتركيبى فيه والإشارة إلى ما فيه من وجوه المجاز(٢٩٠) وقد انطبعت آثار هذه المرحلة فى تفسير الإمام لجزء « عم » .

١ – تفسير جزء عمّ

فالخطة التى اتبعها الإمام فى تفسير هذا الجزء تكشف عن عقلية منظمة وبصر بفن القول وكيف يفسر ومن ملامح هذه الخطة مايلى :

١ – اعطاء فكرة عامة عن النص تتناول النقاط الرئيسية فيه من أوله إلى آخره ، وهذه

---

(٢٨٨) أثر القرآن فى تطوّر النقد العربى للدكتور محمد زغلول سلام ص٤٢

(٢٨٩) أثر القرآن فى تطوّر النقد العربى للدكتور محمد زغلول سلام ص٢٨٦

(٢٩٠) المرجع السابق : المقدمة للأستاذ محمد خلف الله ص١٢

الفكرة العامة بمثابة الشرح الإجمالى النص ، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره فى تفسير سورة النبأ حيث يقول :[٢٩١]

كان غير المؤمنين يسأل بعضهم بعضا عن رسالة النبى ﷺ ويسألون غيرهم فيقولون : هل هو رسول ؟ وما هذا الخبر الذى جاء به من دعوى أنه مرسل من قبل الله ، يدعو الى توحيده ، وإلى الاعتقاد باليوم الآخر وهو يوم القيامة ، يوم يسأل كل عامل عما عمل ؟ فبكتهم الله بقوله : عن أى شيء يتساءلون ؟ ثم قال عن الخبر العظيم الذى هم فيه مختلفون : بعضهم ينكره ، وبعضهم يتردد فى صحته ثم ردّ عليهم الإنكار والتردد بقوله : كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون أى ستنكشف لهم الحقيقة ويرون صحة الخبر ، وتنقطع الريبة فيه تقوم الساعة ويفصل بينهم ، ثم ذكرهم بدلائل قدرته ومته فقال : ألم نجعل الأرض مهادا.. الخ أى أن من ينعم على النّاس هذه النعم العظيمة لايهملهم من إرسال داع إلى توحيده بعد ما ضلوا عنه ، وهاد الى طريقه المستقيم ، ومذكر بيوم الحساب ، وليس بعظيم على صاحب هذا الإحسان أن يرسل ذلك الرسول ، ولا أن يحقق مايدعو إلى الاعتقاد به من شئون اليوم الآخر وهى ماذكر فى قوله : إن يوم الفصل ..الخ .

٢ – التفصيل بعد الإجمال . فبعد أن قدّم للسورة كلها بذلك التقديم الذى يلقى ضوءا على أفكارها الرئيسية بدأ يتناول تلك الأفكار فكرة مفسرا مفرداتها اللغوية مشيرا إلى ما فيها من صور بيانية وألوان بلاغية موضحا الفكرة من الوجهة الدينية بما يكشف عن أسرارها ومراميها فيقول[٢٩٢] مثلا عقب التقديم السابق :

(عم) أصله عما أى عن أى شيء ، والابهام للتعظيم و(النبأ) الخبر الذى يهتم له . و(كلا) للردع ونفى الزعم الباطل . (المهاد) الفراش . وقد جعل الله الأرض موطئا للنّاس والدواب يقيمون عليها فهى فراش لهم . و(الأوتاد) جمع وتد بسكون التاء وكسرها وهو معروف . وإنما كانت الجبال أوتادا لأن بروزها فى الأرض كبروز الأوتاد المغروزة فيها ، ولأنها فى تثبيت الأرض ومنعها من الميدان والاضطراب كالأوتاد فى حفظ الخيمة من مثل ذلك . كأن أقطار الأرض قد شدّت اليها ، ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان . و (أزواجًا) ذكرا وأنثى ليتم الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة وحفظ النسل ، وتكميله بالتربية . و (السبات) بضم السين الموت ، والمسبوت الميت من السبت وهو القطع ، والنوم أحد الموتين ، ونعمة الله فيه كبيرة ، فإن موت بضع ساعات فى اليوم يريح القوى من تعبها ، وينشطها من كسلها ، ويعيد اليها ما فقد منها ، ولو لم يكن النوم موتا واليقظة بعثا لم يتم هذا التجديد للقوى .

(٢٩١) تفسير جزء عم ص٥

(٢٩٢) المرجع السابق

ومما يلفت النظر فى تفسير الإمام قوله(٢٩٣) فى تفسير : « يوم ينفخ فى الصور » : والنفخ فى الصور تمثيل لبعث الله للنّاس يوم القيامة بسرعة لايمثلها إلا نفخة فى بوق فإذا هم قيام ينظرون ، وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور ، وليس علينا أن نعلم . ماهى حقيقة ذلك الصور ، والبحث وراء هذا عبث لايسوغ للمسلم « وفتحت السماء » ... والآخرة(٢٩٤) عالم آخر غير عالم الدنيا التى نحن فيها فنؤمن بما ورد به الخبر فى وصفه ، ولانبحث عن حقائقه مادام الوارد غير محال ، ولاشك أن امتناع السماء علينا إنما هو لطبيعة أجسامنا فى هذه الحياة الدنيا ، أمّا النشأة الأخرى فقد تكون على غير ذلك فتكون السماء بالنسبة الينا أبوابا ندخل من أيها شئنا . وقد يكون معنى تفتح السماء ما عنى بقوله :

إذا السماء انشقت ... إذا السماء انفطرت ... يوم تشقق السماء بالغمام أى أنه يقع الاضطراب فى نظام الكواكب فيذهب التماسك بينها ، ولايكون فيما يسمى سماء إلا مسالك وأبواب لايلتقى فيها شيء بشيء ، وذلك هو خراب الكون العلوى كما يخرب الكون السفلى .

ثم يقول(٢٩٥) أثناء تفسيره لقوله تعالى : « وكل شيء أحصيناه كتابا » والكتابة هنا على النحو الذى يليق بتنزيه الله تعالى وهو أعلى من كتابتنا التى نعرفها وأشد منها ضبطا لكنا لا نكلف بالبحث عنها فذلك مما نؤمن به ونكل علم حقيقته إلى الله .

سورة النازعات

- مكية وآياتها ست وأربَعون -

أمّا فى سورة النازعات فإن الإمام يفتتح الحديث عنها بقوله : (٢٩٦)

جاء فى الكتاب العزيز ضروب من القسم بالأزمنة والأمكنة والأشياء ، والقسم إنما يكون بشيء يخشى المقسم إذا حنث فى حلقه به أن يقع تحت المؤاخذة - نعوذ بالله أن يتوهم شيء من هذا فى جانب الله - وما كان الله جلّ شأنه ليحتاج فى تأكيد أخباره إلى القسم بما هو صنع قدرته ، فليس لشيء فى الوجود قدر إذا نسب(٢٩٧) الى قدره الذى لايقدره القادرون بل لا وجود لكائن إذا قيس إلى وجوده الا لأنه انبسط عليه شعاع من أشعة ظهوره جل شأنه ، ولهذا قد يسأل السائل عن هذا النوع من تأكيد الخبر الذى اختص به القرآن ، وكيف يوجد فى

---

(٢٩٣) المرجع نفسه ص٦

(٢٩٤) المرجع السابق ص٧

(٢٩٥) المرجع نفسه ص٨

(٢٩٦) ص٩

(٢٩٧) ص١٠

كلام الله ، فيجاب بأنك إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به وجدته إمّا شيئا أنكره بعض النّاس أو احتقره لغفلته عن فائدته أو ذهل عن موضع العبرة فيه ، وعمى عن حكمة الله فى خلقه أو انعكس عليه الرأى فى أمره فاعتقد فيه غير الحق الذى قرر الله شأنه عليه فيقسم الله به إمّا لتقرير وجوده فى عقل من ينكره أو تعظيم شأنه فى نفس من يحقره أو تنبيه الشعور إلى مافيه عند من لايذكره ، أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضله الوهم أو خانه الفهم . فما أقسم الله به يوم القيامة أو القرآن مثلا ذلك لتقرير أن الأول واقع لا مفر منه ، وأن الثانى كلام الله الحق الذى لاريب فيه ثم يكون فى ذلك تعظيم كليهما . الأول لما يكون فيه من سعادة وشقاء والثانى لما فيه من الهداية والشفاء لما يعرو النفوس من الأدواء . ومن ذلك النجوم : قوم يحقرونها لأنها من جملة عالم المادة ويغفلون عن حكمة الله فيها وما ناط بها من المصالح ، وآخرون يعتقدونها آلهة تتصرف فى الأكوان السفلية تصرف الرب فى المربوب فيقسم الله بها موصوفة بأوصاف تدل على أنها من المخلوقات التى تصرفها القدرة الالهية وليس فيها شىء من صفات الألوهية كما تراه فى مفتتح هذه السورة وفى سورة إذا الشمس كوّرت ثم تشير إلى ما نيط بها من المصالح كما سيرد عليك ، وسترى فيما يساق اليك من هذا التفسير فى السور الآتية ما يرشدك إلى تفصيل ما أجملناه هنا .

وهناك أمر يجب التنبيه عليه ، وهو أن من الأديان السابقة على دين الإسلام ماظن أهله أن هذا الكون الجسمانى وما فيه من نور وظلمة وأجرام وأعراض إنما هو كون مادى لم يشأ الله خلقه إلا ليكون حبسا للأنفس وفتنة للأرواح فمن طلب رضا الله فليعرض عنه ، وليبعد عن طيباته ، وليأخذ بدنه بضروب من الإعنات والتعذيب وأصناف الحرمان ، وليغمض عينيه عن النظر الى شىء مما يشتمل عليه هذا الكون الفاسد فى زعمه اللهم إلا على نية مقته والهروب منه ، فأقسم الله بكثير من هذه الكائنات ليبين مقدار عنايته بها ، وأنه لا يغضبه من عباده أن يتمتعوا بما متعهم به منها متى أدركوا حكمة الله فى ذلك المتاع ووقفوا عند حدوده فى الانتفاع .

يلفت النظر فى هذا المقطع الذى نقلناه أن الإمام يرى أن للقرآن طريقة خاصة فى التعبير « هذا النوع من تأكيد الخبر الذى اختص به القرآن » .

ثم هذا المقطع يؤكد ما ذهبنا اليه من أن الإمام فى تفسيره يجمل ثم يفصل « وسترى فيما يساق اليك من هذا التفسير فى السور الآتية ما يرشدك إلى تفصيل ما أجملناه هنا » .

ويظهر فى هذا المقطع أيضا رغبة الإمام فى التعميم وهو هنا محمود لاعتماده على كتاب محدود من حيث الكم ومظهر التعميم قوله : إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به وجدته ... الخ .

ثم تسير السورة بعد ذلك على نفس الطريقة التى عرضنا لها فى سورة النبأ تركيب أولا وتحليل ثانيا . وهكذا فى بقية سور الجزء .

هذا وقد شغلت كتب الدراسات القرآنية ببحث ظواهر اللغة وفقهها وطرق الأداء ، ونظام الجملة العربية فى إعرابها وتركيبها ، وما فى الكلام العربى عامة من أفانين التصوير(٢٩٨) .

فبين عبد القاهر الجرجانى أن اجماع المسلمين قد اتفق على أن القرآن معجز بنظمه ، فطريق الوصول إلى هذا الإعجاز إذن هو معرفة حقيقة البلاغة والفصاحة فى النظم ، وقد خاض النّاس فيها طويلا إلى أيامه ولكنهم – فى رأيه – وقفوا دون الغاية ، ولم ينفذوا إلى الأعماق ولم يسلكوا منهجّا علميا دقيقا ، وهذا هو النقص الذى حاول عبد القاهر أن يسده ، ففصل القول فى وضع يده على الجوهر ، وحلل من النماذج القرآنية والأدبية ما شاءت له عبقريته أن يحلل وانتهى فى « دلائل الإعجاز » إلى أن بلاغة الكلام ترجع إلى خصائص فى نظمه وأكمل هذه النظرية بنظرية أخرى فى كتاب « أسرار البلاغة » خلاصتها أن جمال الكلام يرجع إلى مبلغ تأثيره فى النفوس ، وهذان الكتابان هما الأساس الذى قامت عليه المناهج البلاغية فى عهودها المتأخرة .(٢٩٩) .

ويصادفنا فى القرن السادس الهجرى علم من أولئك الأعلام عالج موضوع الإعجاز ، ولكن من طريق عملى آخر هو طريق التفسير ، ذلك هو الإمام الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ .

كان الزمخشرى يذهب إلى أن الله قد خص العرب بالنصيب الأوفرمن سحر البيان ، فتصرفوا فى ألوان القول المختلفة ، وكأنه تعالى قد مخض هذا البيان وألقى زبدته على لسان محمد صلى الله عليه وسلم(٣٠٠) وقد أنزل عليه لتأييد رسالته كتابا ساطعا ببيانه ، قاطعا ببرهانه ، وجعله مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية ، مصداقا لما بين يديه من الكتب السماوية معجزا باقيا دون كل معجز على وجه الزمن ، والطريق إلى إدراك أسرار هذا الكتاب هو علم التفسير الذى لايستطيع الغوص على حقائقه إلا رجل برع فى علمين ضروريين لدرس القرآن هما علم المعانى وعلم البيان ، ونحن هنا فى الحقيقة تجاه جدول آخر من جداول الدراسات القرآنية هو التفسير .(٣٠١)

وليس من شك بعد هذا العرض الموجز لأهم التطورات النقدية فى ميدان تفسير القرآن الكريم أنه كان للقرآن أثر فى تربية الذوق العربى وصقله ، ومشاركته فى قيام مذهب « طريقة

---

(٢٩٨) أثر القرآن فى تطوّر النقد العربى للدكتور محمد زغلول سلامه : المقدمة للأستاذ محمد خلف الله ص١٣

(٢٩٩) المرجع نفسه ص١٧

(٣٠٠) المرجع السابق .

(٣٠١) المرجع نفسه ص٨ .

العرب » معارضًا لمذهب « البديع والبلاغة » المتأثر بأرسطو ، وكان عماد طريقة العرب بعض الأصول التى تجمعت فى دراسات القرآن والشعر والبيان ، ومحضتها الأفكار فكان زبدتها ما سموه عمود الشعر .(٣٠٢)

ومما تقدّم يتضح أن للتفسير فى العربية ميادين مختلفة فهناك تفسير أدبى ، وتفسير دينى ، ومزيج من الأدب والدين كما فى القرآن ، ويذهب كاتب مادة « تفسير » فى دائرة المعارف الإسلامية إلى أن كلمة تفسير تطلق على الشروح التى تكتب على المؤلفات العلمية والفلسفية ، ولكن يظهر أنها كانت تطلق أول الأمر على شروح الإلياذة فهى أسبق ظهورا فى الناحية الأدبية منها فى الناحية العلمية والفلسفية .(٣٠٣)

إن أدبية القرآن المعجزة قد اقتضت منذ أعصر مبكرة تفسيره تفسيرا أدبيا يوائم بين إعجازه وبين الأسلوب العربى فى التعبير عن مقاصده ومعانيه ، ويكشف عن وجه إعجازه(٣٠٤)

ثم تتبدل طرائق الحياة وسنن الاجتماع ويصيب الجماعة الإسلامية ما يصيبها فتتصل بثقافات وحضارات أخرى ، وعند ذلك يراد درس القرآن على منهج أسلم وطريقة أقوم تساير الحياة فى تقدّمها واتساع معارفها فيشير محمد عبده إلى شئ من ذلك ، ويتقدّم الأستاذ أمين الخولى فيضع أصول هذه الطريقة ويمهد سبيلها ويدعو المتأدبين إلى أن يكون رائدهم فى درس القرآن أنه كتاب العربية الأكبر .(٣٠٥) ولا أوافق الدكتور السيد أحمد خليل على ما ذهب اليه من أن محمد عبده أشار إلى الطريقة الأدبية فى تفسيره وأن واضع أصول هذه الطريقة هو الأستاذ أمين الخولى فالطريقة كما رأيت فى عرضنا التاريخى للدراسات القرآنية قديمة وجدت جذورها فى القرون الأولى ، وقد بعثها محمد عبده من مرقدها وألبسها ثوب العصر ، ثم تأثر به الأستاذ أمين الخولى . وستتضح هذه الحقيقة حينما نعرض لمقدمة التفسير التى كتبها الإمام والتى تحدد أصول الطريقة الأدبية ، على أن الأستاذ الإمام لم يتبع المفسرين واللغويين والنحويين ولا المعتزلة ولا غيرهم اتباعا حرفيا بل شق لنفسه طريقا وارتضى رأيا لاءم فيه بين طبيعة الأسلوب القرآنى والبيان العربى بصفة عامة ، أمّا دراسته لفن التعبير فى الآية فلم يتجه الاتجاه اللغوى المعروف بتوجيه همه إلى غريب اللفظ فيشرح معناه بل توسع فأدخل فى الاعتبار المعنى العام فى الآية بل السورة أحيانا .

وكان يستخدم المنهج العقلى ليثبت الحجة أحيانا على من يتولى الرد عليهم ولا ينسى تحكيم الذوق الفنى فى أسلوب الآية إذا اشتجر فيها الخلاف ، وهنا تبرز مقدرته الفنية فى تذوق

(٣٠٢) المرجع نفسه للدكتور محمد زغلول سلام ص٢٦ .
(٣١٣) نشأة التفسير فى الكتب المقدمة والقرآن للدكتور السيد أحمد خليل ص٣٠ .
(٣٠٤) المرجع نفسه ص٩٥ .
(٣٠٥) المرجع نفسه ص٩٦ .

النصوص ، وتتضح معرفته بدقائق نظام الكلام ، ويظهر اطلاعه على ضروب القول عند العرب ، ثم استيعابه الدقيق لبيان القرآن . ومرامى تعبيره ، وإدراكه أنه فى الدرجة العالية من البلاغة لم يعهد مثلها فى تراكيبهم ، وتقاصرت عنها درجات بلاغتهم .

يقول الإمام : ولابد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم ، وساقة الإبل ممن أنزل القرآن بلغتهم والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ، ومذاهب العرب فى الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحى ، فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه ، فإن احتاج إلى وسيلة أخرى فأولاها مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف وتفسير القمى النيسابورى ومن أخذ طريقها .[٣٠٦]

ذكرنا ونحن نتحدث عن آثار الإمام أنه كان قد بدأ فى تفسير القرآن تفسيرا كاملا وفسّر ما يقرب من خمسة أجزاء ، وقلنا إن رشيد رضا قد عدا على هذا الأثر النفيس بعد شيء من التحوير ونسبه لنفسه ، ويهمنا بعد ما فعل رشيد رضا ما فعل أن نتعرّف على منهج الإمام فى التفسير ، ونرى هل التزم المنهج فى تفسيره أم لا ؟ وذلك يدعونا لجولة فى الأجزاء الخمسة التى فسرّها الإمام من تفسير المنار ، وفى مقدمة ذلك التفسير على وجه الخصوص .

مقدمة التفسير :

بعد أن بيّن الإمام أن التفسير له وجوه شتى من بلاغية وإعرابية وقصصية ، وبيان الأحكام الشرعية ، وأصول العقائد ، والمواعظ ، وما يسمونه بالإشارة .[٣٠٧] بعد أن بين ذلك قال : لهذا كان الذى نعنى به من التفسير هو فهم الكتاب من حيث هو دين ، وهداية من الله للعالمين ، جامعة بين بيان ما يصلح به أمر النّاس فى هذه الحياة الدنيا ، وما يكونون به سعداء فى الآخرة ، ويتبعه ولا ريب : بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى ، وتحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن وبلاغته .[٣٠٨]

وفى هذا ما يذكر بنظرية النظم عند عبد القاهر .

مراتب التفسير :

للتفسير مراتب أدناها يبين بالإجمال ما يشرب القلوب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ، ويجذبها إلى الخير...

وأمّا المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور :

---

(٣٠٦) تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا جـ١ ص٤١٤ .

(٣٠٧) تفسير المنار جـ١ ص١٧ - ١٨ .

(٣٠٨) المرجع السابق جـ١ ص١٩ .

(إحداها) فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد من ذلك لفظ « التأويل » اشتهر بمعنى التفسير مطلقا أو على وجه مخصوص ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى « هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق » فما هذا التأويل ؟

يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتبع الاصطلاحات التى حدثت فى الملة ليفرق بينها وبين ما ورد فى الكتاب ، فكثيرا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى .[٣٠٩] فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه وينظر فيه فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ (الهداية) وغيره ، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية ، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه ، وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه ببعض ، وأن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سيق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

(ثانيها) الأساليب ، فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلمّ منه ، نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ، ولكن يمكننا فهم ما نهتدى به بقدر الطاقة ، ويحتاج فى هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعانى والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب ،[٣١٠] ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسددين فى النطق يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع ، أتحسبون أن ذلك كان طبيعيا لهم ؟ كلا ، وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة ، ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عندما اختلطوا بهم ، ولو كان طبيعيا ذاتيا لهم لما فقدوه فى مدة خمسين سنة من بعد الهجرة ، وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر وابن الأثير والزمخشرى وابن خلدون .

(ثالثها) علم أحوال البشر فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه فى غيره . بيّن كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم ، والسنن الإلهية فى البشر ، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها ، فلابّد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى

---

(٣٠٩) المرجع نفسه ص٢١ .

(٣١٠) المرجع السابق ص٢٢ .

أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير . علويه وسفليه ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه .[٣١١]

(رابعا) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن فيجب على المفسر القائم بهذا الغرض الكفائى : أن يعلم ما كان عليه النّاس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم . لأن القرآن ينادى بأن الناس كانوا فى شقاء وضلال ، وأن النبى ﷺ بعث لهدايتهم واسعادهم وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائد على وجه الحقيقة ، أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه ؟

(خامسها) العلم بسيرة النبى ﷺ وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشئون دنيويها وأخرويها[٣١٢]

وترى من هذا العرض للمراتب العليا للتفسير فى نظر محمد عبده أن هذه المراتب حددت أصول الطريقة الأدبية بما لا يدع مجالا للشك ، واشتملت على نظرات صائبة ، وتوجهات فنية دقيقة تهدى وتعصم من الزلل فى مجال الدراسة القرآنية بصفة عامة والأدبية بصفة خاصة . ففى الأساسى الأول الذى وضعه الإمام تراه يشير إلى قضية لغوية يلزم الناقد الأدبى أن يضعها فى اعتباره وهويتأهب لممارسة أى عملية نقدية تلك القضية هى « تطور دلالة الألفاظ » فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان الخ وقضية نقدية أخرى هى النظر للقرآن على أنه نص أدبى متكامل يفسر بعضه بعضا ، وان الإمام يوشك بذلك أن يشير إلى « طريقة النمو العضوى[٣١٣] فى دراسة الأدب ونقده » والتى ظهرت على مسرح النقد الأدبى الحديث بعد وفاة الإمام بزمن يقول الإمام : وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له .. الخ

وفى الأساس الثانى الذى وضعه الإمام لطريقته تراه يرسم لك الطريقة المثلى لفهم النص « وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته » مع الاستعانة بالنحو والمعانى والبيان وفى الأساسين الثالث والرابع يتجه وجهة اجتماعية ، وإن أشار فى الرابع إلى مبدأ نقدى مهم هو ضرورة ربط النص بالبيئة .

ويقصد الإمام من وضعه لهذه الأسس أن يستطيع النّاس فهم القرآن ، ولكن أى فهم يعنى ؟ إنه الفهم الذى لايتطلب أنضج نقاد الأدب ودارسيه أفضل منه . يقول الإمام :

(٣١١) المرجع نفسه ص٢٢ - ٢٣ .

(٣١٢) المرجع السابق ص٢٤

(٣١٣) مقدمة على محمود طه حياته وشعره للسيد تق الدين

لا يتعظ الإنسان بالقرآن فتطمئن نفسه بوعده وتخضع لوعيده إلا إذا عرف معانيه ، وذاق حلاوة أساليبه ، ولا يأتى هذا إلا بمزاولة الكلام العربى البليغ مع النظر فى بعض النحو كنحو ابن هشام ، وبعض فنون البلاغة كبلاغة عبد القاهر ، وبعد ذلك يكون له ذوق فى فهم اللغة يؤهله لفهم القرآن(٣١٤) .

يقول الإمام : وأعنى بالفهم مايكون عن ذوق سليم يصيب به أساليب القرآن بعجائبها ، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه ، لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذا جافا لم يصحبه ذلك الذوق ، ومايتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر .(٣١٥)

إن الامام يرى أن فهم القرآن هو المقصود الأهم الذى شغل علماء المسلمين فى القرون الأولى ، وذلك أنهم لما رأوا تأثير القرآن فى جذب قلوب النّاس إلى الإسلام ، وأن الإسلام لا يحفظ إلا به ، ولمّا كان العرب قد اختلطوا بالعجم ، وفهم من دخل فى الإسلام من الأعاجم مافهمه علماء العرب أجمع كل على وجوب حفظ اللغة العربية ، ودوّنوا لها الدواوين ، ووضعوا لها الفنون . نعم ان الإشتغال بلغة الأمة وآدابها فضيلة فى نفسه ، ومادة من مواد حياتها ، ولاحياة لأمة ماتت لغتها .(٣١٦) ولكن لم يكن هذا وحده هو الحامل لسلف الأمة على حفظ اللغة بمفردتها وأساليبها . ولذلك حرص الإمام على أن يزيل من طريق الأفهام ماعساه يعلق بها من سوء فهم بعض عبارات القرآن الكريم ، وناقش فى هذا الصدد قضايا « الترادف حروف الزيادة – التكرار – المعانى الاصطلاحية لبعض الحروف – الإطناب فى خطاب اليهود والإيجاز فى خطاب العرب . فكان مما قال : أنا لا أجيز لمسلم أن يقول فى نفسه أو بلسانه إن فى القرآن كلمة تغاير أخرى ثم تأتى لمجرد تأكيد غيرها بدون أن يكون لها فى نفسها معنى تستقل به ، نعم قد يكون فى معنى الكلمة مايزيد معنى الأخرى تقريرا أو إيضاحا ، ولكن الذى لا أجيزه هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة ، ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لا غير بحيث تكون من قبيل مايسمى بالمترادف فى عرف أهل اللغة ، فان ذلك لايقع إلا فى كلام من يرمى فى لفظه إلى مجرد التنميق والتزويق وفى العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها(٣١٧) ، وأمّا مايسمونه بالحرف الزائد الذى يأتى للتأكيد فهو حرف وضع لذلك ، ومعناه هو التأكيد ، وليس معناه معنى الكلمة التى يؤكدها فالباء فى قوله تعالى « وكفى بالله شهيدا » تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب الله جلّ شأنه بذاتها ومعناها الذى وضعت له .

(٣١٤) تفسير المنار جـ١ ص١٨٢

(٣١٥) المرجع نفسه ص٢٧

(٣١٦) المرجع نفسه ص٢٨

(٣١٧) المرجع السابق ص٤٦

ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك فى الإعراب ، وكذلك معنى « من » فى قوله « وماهم بضارين به من أحد إلا باذن الله » ونحو ذلك . أمّا التكرار للتأكيد أو التقريع أو التهويل فأمر سائغ فى أبلغ الكلام عندما يظهر ذلك القصد منه كتكرار جملة « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، ونحوها عقب ذكر كل نعمة وهى عند التأمل ليست مكررة ، فإن معناها عند ذكر كل نعمة : أفبهذه النعمة تكذبان . وهكذا كل ماجاء فى القرآن على هذا النحو(٣١٨)

أما قضية المعانى الاصطلاحية لبعض الحروف فيقول فيها الإمام :

الشائع أن لعل للترجى فى ذاتها وإذا وقعت فى كلام الله تعالى يكون معناها التحقيق ، وغرض القائلين بهذا تنزيه الله سبحانه عن الترجى بمعناه اللغوى ولكنه رمى للكلام بدون بيان ، وحقيقته أن لعل للترجى ولكنها تستعمل للإعداد والتهيئة للشىء ، وفى هذا معنى الترجى ، فحيث وقعت لعل فى القرآن فالمراد بها هذا المعنى الأخير ، وهو مايستلزم التحقيق لأن الإعداد بما تأتى لعل بعده أمر محقق لاريبة فيه(٣١٩)

ثم يحدثنا عن السبب فى كون القرآن يطنب فى خطابه لليهود ، ويوجز فى خطابه للعرب فيقول : لاحظ بعض البلغاء والمفسرين أن القرآن يطنب ويبدىء ويعيد فى خطاب اليهود خاصة ، وذلك لما كانت شحنت به أذهانهم مما يسمى علمّا أو فقها فأبعدهم عن أن يصل شعاع الحق إلى ماوراء ذلك من نفوسهم ، ويكتفى بالأ يجازبل بالإشارة الدقيقة فى خطاب العرب لما كانوا عليه من سرعة الفهم ورقة الإحساس لقربهم من السذاجة الفطرية فالإشارة إلى البرهان فى ضمن تمثيل يغنى عندهم عن الإسهاب والتطويل ، ولذلك خاطبهم بمثل قوله فى الأصنام (وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب(٣٢٠)

ثم يعرض لقضية من أخطر قضايا النقد الأدبى المعاصر ، تلك هى قضية « قصص القرآن » ولعلنا لم ننس بعد رسالة الدكتور محمد خلف الله أحمد عن « الفن القصصى فى القرآن الكريم » والتى رفضت مناقشتها كلية الآداب – جامعة القاهرة لأسباب ليس هنا محل ذكرها . ولكن الذى أحسست به بعد دراستى لمحمد عبده أن هذا العملاق كانت له آراء تقدمية كثيرة ، وأن الباحثين أقبلوا عليها بنهم كل منهم يتبنى فكرة من أفكار الإمام وبكل أسف لاينسبها لصاحبها ، وانما يعيش بها وعليها يبنى مجده فى عالم الثقافة والفكر .

ولكن بعض هؤلاء الباحثين كان يجيد القنص والفهم فيكتب له التوفيق ، وبعضهم لايجيد القنص بل ولا الفهم فيتردى فى الهاوية أقول هذا ولا أؤله به محمد عبده ، لا أجاوز به قدره ،

---

(٣١٨) المرجع نفسه ص٤٦ – ٤٧

(٣١٩) المرجع نفسه ص١٨٦

(٣٢٠) المرجع السابق ص٣٦٥

ولكن أضعه فى مكانه الصحيح من تاريخ هذه الأمة ، مكان الريادة ، والقدوة الحسنة ، مكان التربية بالمثل الأعلى الذى يطمح اليه طلاب المجد ، وعشاق الشهرة .

إن كثيرا من كتابنا الكبار فى أيام النّاس هذه يرجع الفضل فى تفوقهم لمحمد عبده ، وبعضهم يذكر ذلك وبعضهم لايذكره .

ويوم يدرس إنتاج كتابنا الكبار فى ضوء الموضوعية البحتة أو على الأقل فى جو بعيد عن المداجاة ستنكشف حقائق مذهلة ، وإننى أدعو المفكرين والباحثين إلى أن يقرؤا مافى رسالتى هذه ويقارنوا بين مافيها من أفكار ، وبين مالدى أعلام الأدب المعاصر من فكر ورأى ليروا صحة مأقول وعلى كل حال فإن ماأشار اليه محمد عبده حول قصص القرآن كان مثار جدل ومناقشة بعد وفاته ، وكانت المبادىء الكلية التى بسطها هى محور الدراسة والبحث يقول الإمام عند تفسير قوله تعالى :

وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر ... الخ

إن كثيرا من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب فى القصص ، ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية فذكر هنا بعد تلك الوقائع ، والجواب عن هذه الشبهة يفهم مم قلناه مرارا فى قصص الأنبياء والأمم الواردة فى القرآن وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها ، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها ، وبيان النقم بعللها لتتقى من جهتها ، ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى إلى التأثير.

إن الباحثين فى التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلى هذا الأسلوب فى التقديم والتأخير ، وقالوا ستأتى أيام يستحيل فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة النّاس إلى معرفة سير الماضين ، وماكان لها من النتائج والآثار فى حال الحاضرين . وقالوا إن الطريق إلى ذلك هو أن ننظر فى كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها ، ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ فإن ترتيب الوقائع هو من الزينة فى ضعف التأليف فلا يتوقف عليه الاعتبار بل ربما يصدر عنه بما يكف الذهن من ملاحظته وحفظه فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمى جاء به القرآن وليبدأ به سير الاجتماع فى الإنسان .

هذا مانقوله إذا سلمنا أن الاستقساء كان قبل التيه لافيه ، ولنا أن نقول إن أرض التيه هى الأرض الممتدة على ساحل البحر الأحمر من بيداء فلسطين مما يلى حدود مصر ، وفيها كان الاستقساء بلا خلاف .

ثم يعود الإمام إلى هذه النقطة ليزيدها إيضاحا عند تفسير قوله تعالى : وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ماهى ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون ، قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وماكادوا يفعلون) فيقول : جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذى لم يسبق إليه ولم يلحق فيه فهو فى هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ، ولاطريقة الكتاب فى تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى فى القصة الواحدة ، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرّك الفكر إلى النظر تحريكا ، ويهز النفس للاعتبار هزّا وقد راعى فى قصص بنى اسرائيل أنواع المنن التى منحهم الله تعالى إياها ، وضروب الكفران والفسوق التى قابلوها بها ، وماكان فى أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات وابتلائهم بالحسنات والسيئات ، وكيف كانوا يحدثون فى أثر كل عقوبة توبة ، يحدث لهم فى أثر كل توبة نعمة ثم يعودون إلى بطرهم وينقلبون إلى كفرهم [(٣٢٢)]

كان فى الآيات السابقة يذكر النعمة فالمخالفة فالعقوبة فالتوبة فالرحمة كالتفضيل على العالمين ، وأخذ الميثاق والانجاء من آل فرعون ، وماكان فى أثر ذلك على ما أشرنا الآن واجملنا ، وأوضحنا من قبل وفصلنا وفى هذه القصة اختلف النسق فذكر المخالفة بعد فى قوله (واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) ثم المنة فى الخلاص منها فى قوله (فقلنا اضربوه ببعضها) ..الخ

وقدّم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص وهى ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ماوراءها حيث لم يسبق فى الكلام عهد لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرة فالمفاجأة بحكاية ماكان من ذلك الأمر والجدال الذى وقع فيه يثير الشوق فى الأنفس إلى معرفة السبب فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه إذ الحكمة فى أمر الله أمة من الأمم بذبح بقرة خفية جديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها لاسيما إذا لم يعتد الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازة للقلوب [(٣٢٣)]

ثم يدعو إلى الاحتراس من الاسرائيليات فيقول :

---

(٣٢٢) المرجع السابق ص٣٤٦

(٣٢٣) المرجع نفسه ص٣٤٦ ، ٣٤٧

يجب الاحتراس فى قصص بنى اسرائيل وغيرهم من الأنبياء وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين ، فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم يقولون معنا إنه لا يوثق بشىء من تاريخ تلك الأزمنة التى يسمونها أزمنة الظلمات إلا بعد التحرر والبحث واستخراج الآثار فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التى لا يوثق بها لحسن قصدهم ، ولكننا لا نعوّل على ذلك بل ننهى عنه ، ونقف عند نصوص القرآن لا نتعداها وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته(٣٢٤)

ومرة ثالثة يعود إلى قصص القرآن فيقول عند تفسير قوله تعالى : ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله .

تقدم فى تفسير (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم) أن القرآن لم يعيّن أولئك القوم ولا الزمان ولا المكان اللذين كانوا فيها (يعنى على القول بأنها قصة واقعة لاضرب مثل كما قال عطاء) ثم ذكر ههنا قصة أخرى عن بنى اسرائيل فعين القوم وذكر أنه كان لهم نبى ، ولم يذكر اسمه ولا الزمان ولا المكان اللذين حدثت فيهما القصة ، ولكنه ذكر بعد ذلك اسم طالوت وجالوت وداود .

يظن كثير من النّاس الآن كما ظن كثير ممن قبلهم أن القصص التى جاءت فى القرآن يجب أن تتفق مع ماجاء فى كتب بنى اسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة ، وليس القرآن تاريخا ولا قصصا ، وإنما هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ، ولا لأجل التفكه بها أو الإحاطة بتفصيلها ، وإنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة كما قال (١٢ : ١١١ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وبيان سنن الاجتماع كما قال : (٣ : ١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وغير ذلك من الآيات .

والحوادث المتقدمة منها ماهو معروف ، والله تعالى يذكر من هذا وذاك ماشاء أن يذكر لأجل العبرة والموعظة ، فيكتفى من القصة بموضع العبرة ، ومحل الفائدة ، ولايأتى بها مفصلة بجزئياتها التى لاتزيد فى العبرة بل ربما تشغل عنها ، فلا غرو أن يكون فى هذه القصص التى يعظنا الله بها ويعلمنا سننه مالا يعرفه النّاس ، لأنه لم يرو ولم يدون بالكتاب ، وقد اهتدى بعض المؤرخين الراقين فى هذه الأزمنة إلى الاقتداء بهذا ، فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون منه الأحكام الاجتماعية وهو الأمور الكلية ، ولايحفلون بالجزئيات لما يقع فيها من الخلاف الذى يذهب بالثقة ، وبهذه الطريقة يمكن إيداع

---

(٣٢٤) المرجع السابق ص٣٤٧

ماعرف من تاريخ العالم فى مجلد واحد يوثق به ، ويستفاد منه ، فلا يكون عرضة للتكذيب والطعن ، كما هو الشأن فى المصنفات التى تستقصى الوقائع الجزئية مفصلة تفصيلا .

إن محاولة جعل قصص القرآن ككتب التاريخ بادخال مايرون فيها على أنه بيان لها هى مخالفة لسنته ، وصرف للقلوب عن موعظته ، وإضاعة لمقصده وحكمته(٣٢٥) .

فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونعمل أفكارنا فى استخراج العبر منه ، ونزع نفوسنا عمّا ذمّه وقبحه ، ونحملها على التحلى بما استحسنه ومدحه ، وإذا ورد فى كتب أهل الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل الينا بالتواتر الصحيح هو الحق وخبره هو الصادق .

وما خالفه هو الباطل ، وناقله مخطىء أو كاذب فلا نعده شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه ، فان حال التاريخ قبل الإسلام كانت مشتبهة الأعلام ، حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بها للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها ، ولاتواتر يعتد به بالأولى ، وإنما انتقل العالم بعد نزول القرآن من حال إلى حال ، فكان بداية تاريخ جديد للبشر كان يجب عليهم لو أنصفوا أن يؤرخوا به أجمعين(٣٢٦) .

واليك مقتطفات من هذا التفسير وقد نسبها رشيد رضا نفسه إلى الإمام سواء فى تفسير المنار أو فى تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن . فحين نقرأ تفسير قوله تعالى : إياك نعبد واياك نستعين ندخل مع الإمام فى تفسير بيانى رائع تفسير من يتذوق العبارة ويدرك الفروق الدقيقة بين كلمة وأخرى فى الاستعمال ثم هو بعد ذلك يتلقى القرآن بروح المؤمن الذى لايهمل جانب العقيدة والشريعة فى تفسيره . استمع إلى الإمام وهو يقول : ما العبادة ؟ يقولون هى الطاعة مع غاية الخضوع وزاد بعضهم التعظيم والحب ، وماكل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل ، وتجليه للأفهام واضحا لايقبل التأويل فكثيرا ما يفسرون الشىء ببعض لوازمه ، ويعرفون الحقيقة برسومها بل يكتفون احيانا بالتعريف اللفظى ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها .ومن ذلك هذه العبارة التى فسروا بها معنى العبادة فإن فيها اجمالا وتساهلا ، وإننا إذا تتبعنا آى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها ويقاربها فى المعنى كخضع وخنع وأطاع وذل – نجد أنه لاشىء من هذه الألفاظ يضاهى (عبد) ويحل محلها ويقع موقعها ولذلك قالوا : إن لفظ (العباد) مأخوذ من العبادة فتكثر إضافته الى الله تعالى ، ولفظ (العبيد) تكثر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق ، وفرق بين العبادة والعبودية ومن

(٣٢٥) المرجع السابق ص٤٧٠

(٣٢٦) المرجع نفسه ص٤٧١

هنا قال بعض العلماء إن العبادة لاتكون فى اللغة إلا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه (٣٢٧) .

يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه والخضوع له غلوا كبيرا حتى يفنى هواه فى هواه ، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لايسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ويبالغ كثير من النّاس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم مالا تراه من المتحنثين القانتين دع سائر العابدين ، ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة فما حقيقة العبادة إذا ؟

تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربى الفصيح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حدّ النهاية ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لايعرف منشأها واعتقاده بسلطة له يدرك كنهها وما هيتها وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه فمن ينتهى إلى أقصى الذل لملك من الملوك لايقال إنه عبده ، وإنّه قبّل موطىء أقدامه مادام سبب الذل والخضوع معروفًا وهو الخوف من ظلمه المعهود أو الرجاء بكرمه المحدود اللهم إلا الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارهم الله للاستعلاء على سائر أهل الدنيا لأنهم أطيب النّاس عنصرا وأكرمهم جوهرا وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد فاتخذوا الملوك آلهة وأربابا وعبدوهم عبادة حقيقية (٣٢٨) .

وتكشف لنا تلك العبارات التى نقلناه من تفسير الإمام عن طريقة فنية ممتازة فى دراسة النصوص الأدبية وفى قمة تلك النصوص القرآن الكريم طريقة تكشف عن الفروق الدقيقة بين عبارة وأخرى تقرب فى المعنى منها ، ثم تضع آى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب . أسسا لمنهج قويم فى النقد الأدبى سبق أوانه وظهر على يد ذلك الإمام الرائد الموجه . ولا يكتفى الإمام بذلك التخطيط العام السابق بل يبادر للدخول فى ميدان النقد التطبيقى فيقول : للعبادة صور كثيرة فى كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها . ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه ، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة كما أن صورة الانسان وتمثاله ليس إنسانا .

---

(٣٢٧) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن لرشيد رضا ص٤٠

(٣٢٨) المرجع السابق ص٤١

خذ اليك عبادة الصلاة مثلا وانظر كيف أمر الله باقامتها دون مجرد الإتيان بها ؟ وإقامة الشيء هى الإتيان به مقوّما كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره وآثار الصلاة ونتائجها هى ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقوله عز وجل (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسّه الشرّ جزوعا ، وإذا مسّه الخير منوعا إلا المصلين) . وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدى إلى غايتها بقوله : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التى هى توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته والمشعر للقلوب بعظم سلطانه ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون[٣٢٩] .

الأستاذ الإمام أديب كبير وناقد ذوّاقة فى تفسيره ولكنه لم ينس قط أنه رجل دين وهاد إلى طريق مستقيم ومن هنا فهو يمزج بين الأدب والدين فى تفسيره .

وفى سورة البقرة يقول الله تعالى : « ألم ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يقول رشيد رضا عند تفسير قوله تعالى :

« أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » : شيخنا قد جعل الإشارتين لنوعى المؤمنين المذكورين فى الآية السابقة بأسلوب اللف والنشر المرتب ، قال إن الإشارة الأولى (أولئك على هدى من ربهم) فى هذه الآية للفرقة الأولى . وهم الذين ينتظرون الحق لأنهم على شيء منه كما يدل عليه تنكير « هدى » الدال على النوع — وينتظرون بيانا من الله تعالى ليأخذوا به ، ولذلك تقبلوه عندما جاءهم . فقد أشعر الله قلوبهم الهداية ، بما آمنوا به من الغيب وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقهم الله[٣٣٠] ، وأمّا الفرقة الثانية وهم المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ فعلى هدى تشرك فيه تلك الفرقة الأولى ، لكن على وجه أكمل لأنها مؤمنة بالقرآن وعاملة به . وقوله « على هدى » تعبير يفيد التمكن من الشيء المتمكن المستقر عليه ، كقولهم « ركب هواه » ولقد كان أفراد تلك الفرقة أى الأولى على بصيرة وتمكن من نوع الهدى الذى كانوا عليه ، فإن كان هذا غير كاف لإسعادهم وفلاحهم فهو كاف لإعدادهم وتأهيلهم لها بالايمان التفصيلى المنزل ، ولذلك قبلوه عندما بلغتهم دعوته ، وإلى الفرقة الثانية وقعت الاشارة الثانية (وأولئك هم المفلحون) كما هو ظاهر . وهم المفلحون بالفعل لاتصافهم

---

(٣٢٩) المرجع السابق ص٤٢

(٣٣٠) تفسير المنار جـ١ ص١٣٦

بالإيمان الكامل بالقرآن وبما تقدمه من الكتب السماوية وباليقين بالآخرة ، لامطلق الإيمان بالغيب اجمالا ، ويرشد إلى التغاير بين مرجع الاشارتين ترك ضمير الفصل « هم » فى الأولى وذكره فى الثانية ، ولوكان المشار اليه واحدا لذكر الفصل فى الأولى ، لأن المؤمنين بالقرآن هم الذين على الهدى الصحيح التام ، فهو خاص بهم دون سواهم ، ولكنه اكتفى عن التنصيص على تمكنهم من الهدى بحصر الفلاح فيهم(٣٣١) .

قال الله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » .

الكلام كله ضرب من التمثيل يعرفه اللسان وتعهده اللغة ، ولما كان حديث الختم تمثيلا لفقد حقيقة الفهم والحرمان من فوائد تلك المواهب الإلهية : مواهب العقل والسمع والابصار كان إسناده ألى الله تأكيدا لمعنى الحرمان وتقديرا لمصيبة الخسران لأن ماختم بيد الله لاتفضه يد سواه .

وأمّا النكتة فى استعمال الختم مع القلب والسمع والغشاوة مع البصر فهى أن الختم من شأنه أن يكون على المكنون المستور ، وهكذا موضع حسن السمع وموضع الادراك من العقل ، والإسماع فى ظاهر الخلقة . وأمّا البصر فالحاسة منه ظاهرة متكشفة ، ومثل هذه الدقائق هى المرادة بقول صاحب التلخيص : « ولكل كلمة مع صاحبتها مقام » والتنكير فى قوله : « عذاب » للتعظيم والتهويل ووصفه مع ذلك بعظيم يدل على أنه بالغ حدّ العظمة كما وكيفا فهو شديد الإيلام ، وطويل الزمان(٣٣٢) .

قال الله تعالى :

« يخادعون الله والذين آمنوا ، ومايخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

العمل الظاهر الذى لايصدقه الباطن إذا قصد به إرضاء آخر يسمى فى اللغة مداجاة ومداراه ومخادعة فإن كان يقصد به المخادعة فظاهر ، وإلا فيكفى لصحة الإطلاق أن العمل عمل المخادع ، لاعمل الطائع الخاضع ، وهذا مراد القرآن من مخادعة هؤلاء الذين هم من أهل الكتاب المؤمنين بالله إيمانا ناقصا لم يقدروا الله فيه حق قدره(٣٣٣) . (وما يخدعون إلا أنفسهم) .

إذا رجع الإنسان إلى نفسه ، وأصغى لمناجاة سره ، يجد عندما يهم بعمل شىء أن فى قلبه طريقتين وفى نفسه خصمين مختصين : أحدهما يأمره بالعمل وسلوك الطريق الأعوج ، والآخر

---

(٣٣١) المرجع السابق ص١٣٦ — ١٣٧

(٣٣٢) المرجع نفسه ص١٤٦ — ١٤٧

(٣٣٣) المرجع السابق ص١٥٠

ينهاه عن العوج ، ويأمره بالاستقامة على المنهج ، ولايترجح عنده باعث الشر ولا يجيب داعى السوء إلا إذا خدع نفسه بعد المشاورة والمذاكرة المطلوبة فيها ، وصرفها عن الحق وزيّن لها الباطل ، وهذه الشئون النفسية فى غاية الخفاء ، تكون المنازعة ثم المخادعة ثم الترجيح ، ويمر ذلك كله كلمح البصر ، وربما لايلتفت اليه الانسان بفكره ولذلك قال (وما يشعرون) فإن الشعور هو إدراك ماخفى[٣٣٤] .

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) .

وقد فسروا اشتروا باستبدلوا ، وهو غير سديد لأن بين اللفظين فصلا فى المعنى ، ولكنا نعتقد - والحق ما نعتقد - أن القرآن فى أعلى درج البلاغة لايختار لفظا من شأنه أن يقوم مقامه ، ولا يرجح أسلوبًا على أسلوب يمكنه تأدية المراد به إلا لحكمة فى ذلك ، وخصوصية لاتوجد فى غير ما اختاره ورجحه ، ووجه اختياره « اشتروا » على استبدلوا أن الأول أخص من وجهين :

أحدهما : أن الاستبدال لايكون شراء إلا إذا كان فيه فائدة يقصدها المستبدل منه ، سواء كانت الفائدة حقيقية أو وهمية .

ثانيها : أن الشراء يكون بين متبايعين بخلاف الاستبدال فإذا أخذت ثوبًا من ثيابك بدل آخر يقال إنك استبدلت ثوبا بثوب ، فالمعنى الذى تؤديه الآية : أن أولئك القوم اختاروا الضلالة على الهدى لفائدة لهم بازائها يعتقدون الحصول عليها من النّاس ، فهو معارضة بين طرفين يقصد بها الربح ، وهذا هو معنى الاشتراء والشراء ، ومثلها البيع ، ولايؤديه مطلقا الاستبدال[٣٣٥] .

(فما ربحت تجارتهم) كأنه قيل فلم يكن نماء فى تجارتهم على أن ذلك التأويل المعروف من أن اسناد الربح الى التجارة لأنها سببه والوسيلة اليه وأن العبارة من المجاز العقلى تأويل يتفق مع البلاغة ولا ينافيها ، ولازال المجاز العقلى من أفضل ما يزين البلغاء به كلامهم ، ويبلغون به ما يشاءون من تفخيم معانيهم[٣٣٦] .

« مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون : صم بكم عمى فهم لايرجعون » .

استوقدوا بفطرتهم السليمة نار الهداية الالهية فلما أضاءت لهم بروقها ، ووضح لهم طريقها فاجأتهم التقاليد الموروثة ، وباغتتهم العادات المألوفة ، وشغلهم ما يتوهمونه فيها من المنافع والفوائد ، وما يتوقعونه فى الإعراض عنها من المصارع والمفاسد عن الاستعانة بذلك الضوء على

---

(٣٣٤) المرجع نفسه ص١٥١

(٣٣٥) المرجع السابق ص١٦٥

(٣٣٦) المرجع نفسه ص١٦٦

سلوك ذلك الطريق المستقيم ، والتفرقة بين نهاره المشرق ، وظلمات ليلها البهيم . بل استبدلوا هذا الديجور بذلك الضياء والنور . وهذا هو معنى ذهاب نورهم وإنما (ذهب الله بنورهم) ولم يقل ذهب نورهم أو أذهب الله نورهم للاشعار بأن الله تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت ، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التى فطر النّاس عليها معتقدين صحة شريعته التى دعا النّاس اليها ، وبأنه تخلى عنهم عندما نكبوا عن تلك السبيل وعافوا ذلك المورد السلسبيل(٣٣٧) .

ولاشك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع الله تعالى مرضية فى التوجه اليه وقصد اتباع هداه والاستضاءة بنوره الذى وهبه إياه فإذا أعرض عنه وكله الله إلى نفسه وذهب بنوره ، وإذا ذهب النور لايبقى إلا الظلمة ، وما كان هؤلاء فى ظلمة واحدة ، ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض متعددة بتعدد أنواع التقاليد التى فتنوا بها ، وبتعدد أنواع الهداية التى أعرضوا عنها ، ولذلك قال (وتركهم فى ظلمات لايبصرون) شيئا حذف مغفول يبصرون إيذانا بالعموم أى لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ولايرون طريقا من طرقها لأنه صرف عنايته عنهم بتركهم سنته ، واهمالهم هدايته ، ووكلهم إلى أنفسهم ، وياويل من وكله الله إلى نفسه ، وحرمه توفيقه ، نسأل الله العافية .

هذا المثل مضروب لفريق لاترجى هدايته لأنه سدّ على نفسه جميع أبواب الهداية فلا يثق بعقله ولا بحواسه ولا بوجدانه إذا خالفت تقاليده ، وعدم الإبصار بذهاب النور غير كاف لتمثيل هذا اليأس والحرمان لجواز أن يلوح بارق ، أو يذر شارق ، أو يصيح طارق فتكون الهداية ، وتنكشف الغواية ، ولذلك عقبه بقوله تعالى : (صم بكم عمى) أى أنهم فقدوا منفعة السمع الذى يؤدى إلى النفس ما يلقبه المرشدون اليها من الحجج القاطعة ، والدلائل الناصعة(٣٣٨) ، فلا يصيخون إن وعظ واعظ ، ولايصغون لتنبيه منبه ، فما أضيع البرهان عند المقلد ، بل لايسمعون وإن أصاخوا ولايفقهون إن سمعوا ، فكأنهم صم لم يسمعوا وفقدوا منفعة الاسترشاد بالقول ، وطلب الحكمة من معاهدها فلا يسألون بيانا ولا يطلبون برهانا ، وفقدوا خير منافع الإبصار ، وهو نظر الاستفادة والاعتبار فلا يرون ما يحل بهم من الفتن فينزجروا(٣٣٩) .

« أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق »

الظلمات هى ظلمة الليل ، وظلمة السحب ، وظلمة الصيب نفسه ، والرعد هو الصوت

---

(٣٣٧) المرجع السابق ص١٧١

(٣٣٨) المرجع نفسه

(٣٣٩) المرجع نفسه ص١٧٢

المعروف الذى يسمع فى السحاب عند اجتماعه أحيانا ، والبرق هو الضوء الذى يلمع فى السحاب فى الغالب وقد يلمع من الأفق حيث لاسحاب ، وقال مفسرنا الجلال السيوطى (ان الرعد ملك أو صوته ، والبرق سوطه يسوق به السحاب) كأن الملك جسم مادى لأن الصوت المسموع بالآذان من خصائص الأجسام ؟ وكأن السحاب حمار بليد لايسير إلا إذا زجر بالصراخ الشديد والضرب المتتابع ، وماذكرناه هو الذى كان يفهمه العرب من اللفظين ، وهو الذى يفهمه النّاس اليوم ، ولايجوز صرف الألفاظ عن معانيها الحقيقية إلا بدليل صحيح ولا سيما إذا صرفت عن معانى من عالم الشهادة الذى يعرفه الواضعون والمتكلمون ، إلى معانى من عالم الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى ، ومن أعلمهم الله تعالى إياها بالوحى ، ولكن أكثر المفسرين ولعوا بحشو تفاسيرهم بالموضوعات التى نص المحدثون على كذبها كما ولعوا بحشوها بالإسرائليات التى تلقفوها من أفواه اليهود وألصقوها بالقرآن لتكون بيانا له وتفسيرا ، وجعلوا ذلك ملحقا بالوحى.والحق الذى لا مرية فيه : أنه لا يجوز الحاق شىء بالوحى غير ماتدل عليه ألفاظه وأساليبه [٣٤٠] إلا ما ثبت بالوحى عن المعصوم الذى جاء به ثبوتا لا يخالطه الريب [٣٤١]

ولا يفوتنا أن نذكر أن الإمام قد تتبع جلال الدين السيوطى فى تفسيره ، وأخذ عليه عدة مآخذ على نحو مافعل بقول الجلال : إن الرعد ملك أو صوته ... الخ وسيستمر على هذا النهج ، غير أنه يؤيد الجلال أحيانا عندما يراه على صواب ، ويخالفه إن جانبه التوفيق ، ومن هنا تدرك الاستقلال فى الفكر ، والنضوج فى الرأى ، والاعتدال فى الحكم عند الإمام . ومن هنا أيضا كانت هذه النقل أدبا ونقدا .

وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم .

استبطأ المصريون أثر الاستدلال فى الإسرائيليين فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم واستحياء إناثهم فأمر فرعون القوابل بأن يقتلن كل ذكر لبنى إسرائيل عند ولادته لأن من سنة الله فى الخلق أن قوام الشعوب والقبائل وحفظ الأجناس إنما يكون بالذكور ، وقال مفسرنا (الجلال) تبعًا لغيره إن سبب العذاب وتقتيل الأبناء دون البنات هو أن بعض الكهنة أخبر فرعون بأن سيولد من بنى إسرائيل ولد ينزع منه ملكه ، وليس لهذا القول سند صحيح ولا يعرف فى التاريخ ، وما قلناه هو الذى يعرفه بنو اسرائيل فى كتبهم المعروفة بالمقدسة وغير المقدسة وهو المعقول فى نفسه أيضا [٣٤٢]

(٣٤٠) المرجع السابق ص١٧٤
(٣٤١) المرجع نفسه ص١٧٥
(٣٤٢) المرجع السابق ص٣١٣

(وظللنا عليكم الغمام)

لا معنى لوصف الغمام بالرقيق كما قال المفسر (الجلال) وغيره بل السياق يقتضي كثافته إذ لا يحصل الظل الظليل الذى يقيده حرف[٣٤٣] التظليل إلا بسحاب كثيف يمنع حر الشمس ووهجها ، وكذلك لاتتم النعمة التى بها المنة إلا بالكثيف وهو المنقول المعروف عند الإسرائيليين أنفسهم[٣٤٤]

« وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا إضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم » .

أمره أن يضرب بعصاه حجرا من حجارة تلك الصحراء بتلك العصا التى ضرب بها البحر فضربه (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) بعدد أسباطهم وذلك قوله عزّ وجل (قد علم كل أناس مشربهم) .

وكون هذا الحجر هو الذى روى أنه تدحرج بثوب موسى يوم كان يغتسل كما قال المفسر (الجلال) لا دليل عليه ، وقصة الثوب ليست فى القرآن فيحمل تعريف الحجر على أنه المعهود فى القصة ، وإنما يفهم التعريف أن الحجر الذى ضرب فتفجرت منه المياه حجر مخصوص له صفات تميّزه عندهم ككونه صلبا أو عظيما تتسع مساحته لتلك العيون ويصلح أن تكون منه موارد لتلك الأمم أوكونه يقع تحت أعينهم منفردا عن غيره ليس فى محلتهم سواه ، وقد يكون التعريف للدلالة على الجنس ليفيدها بعد المرغوب عن التناول وعظمة القدرة الإلهية وأثرها الجليل فى تقريبه وتحصيله ، وعبّر عنه فى سفر الخروج بالصخرة : ولو علم الله تعالى أن لنا فائدة فى أكثر مما دلّ عليه هذا الخطاب من التعيين لما تركه[٣٤٥]

(وإذا قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد) .

قال صاحب الكشاف : كانوا قوّما فلاحة فنزعوا إلى عكرهم فأجموا ماكانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء .

قال الأستاذ الإمام فى تفسيره ونقده ورده مانصه : فلاحة بتشديد اللام جمع فلاح بمعنى الزراع ، وعكرهم بكسر العين أصلهم ، وأجم الطعام من باب ضرب وعلم كرهه من المداومة عليه ، وهو بيان لما بعثهم على أن يسألوا موسى أن يدعو ربه ليخرج لهم تلك الأشياء التى طلبوها ، والسبب فى جهرهم بذلك وثورتهم عليه كأنه يقول : إن الحامل لهم على ذلك هو تمكن العادة من نفوسهم ، فلما خرجوا منها وجاءهم مالم يكونوا يألفون نزعوا إلى ماكانوا قد

---

(٣٤٣) هكذا فى المنار وصوابه فعل التظليل ولعله خطأ مطبعى لم ينبه إليه .

(٣٤٤) تفسير المنار جـ١ ص٣٢٣

(٣٤٥) المرجع السابق ص٣٢٦

عودوه من قبل . ولوكان الأمركما قال لكان فى ذلك التماس عذر لهم ولما عّد الله هذا القول فى خطاياهم ، بل إن السآمة من تناول طعام واحد قد يكون من لوازم الطباع البشرية إلا ما شذّ منها لعادة أو ضرورة ، ولايعد ماهو من منازع الطباع جرّما إذا لم يسقط ذلك فى محظور ، وسياق الآيات قبلها ومايلحق بعد ذلك من قوله تعالى (واذ أخذنا ميثاقكم .. الخ) كل ذلك يدل على أن ماعدد من افاعيلهم من تضافر الآيات بين ايديهم وتوارد نعم الله عليهم كله من خطاياهم ، ومن ذلك قوله تعالى (وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) ويؤكد ذلك إيراد تلك العقوبة الشديدة من ضرب الذلة والمسكنة واستحقاق غضب الله تعالى عقب مقالهم هذا(٣٤٦) (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله)

قال المفسر (الجلال) انهم كانوا يكتبون الأحكام على خلاف ماهى عليه فى الكتابة كآية الرجم ووصف النبى ﷺ وقال الأستاذ الإمام لوكان هذا هو المراد من هذه الآية لما بدىء الكلام بالفاء وانما الآية وعيد على أن لبسوا على الناس بالكتابة ، وتأليف الكتب الدينية وإيهام العامة أن كل ماكتبوه فيها مأخوذ من كتاب الله كما يعتقد المقلدون من كل ملة بكتب الدين التى يؤلفها علماؤهم فى الأصول والفروع حتى ان بعضهم يقول : إن اختلافها لاينافى كونها من عند الله خلافا لقوله تعالى (ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه أختلافا كثيرا) فهذه الكتب هى مثار الأمانى والغرور ولذلك أنذر على أصحابها الهلاك بعد ماذكر أصناف اليهود من منافقين ومحرفين وأميين فقال : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله(٣٤٧)

(بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

للسيئة هنا إطلاقها ، وخصها مفسرنا (الجلال) وبعض المفسرين بالشرك ، ولو صح هذا لما كان لقوله تعالى (وأحاطت به خطيئته) معنى فإن الشرك أكبر السيئات وهو يستحق هذا الوعيد لذاته كيفما كان ، ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها وأخذها بجوانب احساسه ووجدانه كأنه محبوس فيها لا يوجد لنفسه مخرجا منها ، يرى نفسه حرا مطلقا وهو أسير الشهوات ، وسجين الموبقات ورهين الظلمات ، وانما تكون الإحاطة بالاسترسال فى الذنوب ، والتمادى على الإصرار(٣٤٨) (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون) .

من مباحث اللفظ فى الآية أن كثيرا من المفسرين يزعمون أن (ما) زائدة ، وماهى بزائدة ، وفاقا لابن جرير الطبرى ، وجل القرآن أن يكون فيه كلم زائدة ، وانما تأتى « ما » هذه

---

(٣٤٦) المرجع نفسه ص٣٣٠

(٣٤٧) تفسير المنار ، جـ١ ، ص٣٦١ .

(٣٤٨) تفسير المنار ، جـ١ ، ص٣٦٣ .

لإفادة العموم تارة ، ولتفخيم الشيء تارة ، ويقول ابن جرير إنما يؤتى بها فى مثل هذا المقام كمبدأ كلام جديد يفيد العموم كأنه قال : فإيمانا قليلا ذلك يؤمنون به ، وأما التى لتفخيم الشيء فكقوله تعالى (٣ : ١٥٩ فبما رحمة من الله لنت لهم) أى فبسبب رحمة عظيمة الشأن خصك الله بها لنت لهم على مالقيت منهم .

هذا مااختاره الأستاذ الإمام فى تفسير قوله تعالى « فقليلا مايؤمنون[٣٤٩] » ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) قال الاستاذ الإمام : إن قوله تعالى (ولما جاءهم كتاب) الخ متصل بقوله قبله (فقليلا مايؤمنون) والمعنى أن إيمانهم كان قليلا حال كونهم كانوا ينتظرون نبيا وكتابا مصدقا لما معهم ، وكانوا يستفتحون به على المشركين فكيف لايكون قليلا أو أقل بعد ماجاء ماكانوا ينتظرون وعرفوا أنه الحق ثم كفروا ؟ فالجملة حالية[٣٥٠] (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) .

يروى فى سبب نزول هذه الآية أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبى ﷺ فقال كل فريق منهم ماقال فى إنكار حقيقة دين الآخر[٣٥١] ، قال الأستاذ الإمام : إن فهم الآية لايتوقف على هذه الرواية ، فالآية تحكى لنا اعتقاد كل طائفة بالأخرى سواء قال ذلك من ذكر أو لم يقله على أن ما يروى فى أسباب النزول من مثل ذلك هو من تاريخ الآيات ومافيها من الوقائع ومايروى فى أسباب النزول عندنا غير كاف فى ذلك فلابد لنا من البحث والاطلاع على تاريخ الملل والأمم التى تكلم عنها القرآن لأجل أن نفهمه تمام الفهم ، ونعرف مايحكيه عنهم من العقائد والشئون والأعمال ، هل كان عاما فيهم أو كان فى طائفة منهم ، وأسند إلى الأمة لما نبهنا عليه مرارا من إرادة تكافلها ومؤاخذة الجميع بما يصدر عن بعض الأفراد لأنهم كلفوا إزالة المنكر والتناهى عنه[٣٥٢] (قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى ، وماأوتى النبيون من ربهم) قال الاستاذ وههنا نكتة دقيقة فى اختلاف التعبير عن الوحى الذى منحه الله الأنبياء إذ عبر بأنزل تارة وبأوتى تارة أخرى ، وهى أن التعبير بأنزل ذكر هنا فى جانب الأنبياء الذين ليس لهم كتب تؤثر ، ولاصحف تنقل ، وذلك أن انزال الوحى على نبى لايستلزم اعطاءه كتابا يؤثر

(٣٤٩) تفسير المنار ، جـ١ ، ص٣٧٩ .

(٣٥٠) المصدر نفسه ، ص٣٨٠ .

(٣٥١) المصدر نفسه ، ص٤٢٨ .

(٣٥٢) المصدر نفسه ، ص٤٢٩ .

عنه ، وهذا ظاهر إذا كان النبي غير مرسل ، فإن الوحى إليه يكون خاصا به ، ويكون إرشاده للناس أن يعملوا بشرع رسول آخر إن كان بعث فيهم رسول ، وإلا كان قدوة فى الخير ، ومعدا للنفوس لبعثة نبى مرسل وأما النبى المرسل فقد يؤمر بالتبليغ الشفاهى ، ولا يعطى كتابا باقيا ، وقد يكتب مايوحى إليه فى عصره فيضيع من بعده ، فهؤلاء الرسل الكرام الذين عبّر عنهم بقوله(وماأنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط) لايؤثر عن أحد منهم كتاب مسند صحيح أو غير صحيح [٣٥٣] وإننا نؤمن بأنهم كانوا أنبياء وأن مانزل عليهم هو دين الله الحق وأنه موافق فى جوهره وأصوله لما أنزل على من بعده ، وماذكر الله من ملة ابراهيم بالنص هو روح ذلك الوحى كله ، وقد جاء فى سورة النجم وسورة الأعلى ذكر صحف لابراهيم وقال الجلال هنا انها عشر فنؤمن أنه كان له صحف ، ولانزيد على ماورد شيئا وأما اسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط فلم يثبت أن لهم صحفا ولاكتبا ، فنؤمن بما أنزل اليهم بالإجمال ، ونعتقد أنه عين ملة ابراهيم ، وجاء التعبير عن وحى الذين كان لهم كتب تؤثر بقوله (وماأوتى موسى وعيسى ، وماأوتى النبيون من ربهم) فهو يشير بايتاء إلى أن ماأوحى اليهم له وجود يمكن الرجوع إليه ، والنظر فيه فإن أقوامهم يأثرون عنهم كتبا [٣٥٤] (فإن آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتدوا) قال صاحب الكشاف : إن الآية تعريض بأهل الكتاب وتبكيت لهم ، وقال الجلال : ان لفظ مثل زائدة ، واستنكر الأستاذ الإمام ذلك واستكبره كعادته فإنه يخطىء كل من يقول : ان فى القرآن كلمة زائدة أو حرفا زائدا وقال : إن لمثل هنا معنى لطيفا ونكتة دقيقة ، وذلك أن أهل الكتاب يؤمنون بالله ، وبما أنزل على الأنبياء ، ولكن طرأت على إيمانهم بالله نزعات الوثنية ، وأضاعوا لباب ما أنزل على الأنبياء ، وهو الاخلاص والتوحيد وتزكية النفس والتأليف بين الناس ، وتمسكوا بالقشور ، وهى رسوم العبادات الظاهرة ، ونقصوا منها وزادوا عليها مايبعد كلامنهم عن الآخر ويزيد فى عداوته وبغضائه له ففسقوا عن مقصد الدين من حيث يدعون العمل بالدين [٣٥٥] فلما بيّن الله لنا حقيقة دين الأنبياء ، وأنه واحد لاخلاف فيه ولافرق ، وأن هؤلاء الذين يدعون أتباع الأنبياء قد ضلوا عنه فوقعوا فى الخلاف والشقاق أمرنا سبحانه وتعالى أن ندعوهم إلى الإيمان الصحيح بالله وبماأنزل على النبيين والمرسلين بأن يؤمنوا بمثل مانؤمن به نحن لابما هم عليه من ادعاء حلول الله فى بعض البشر ، وكون رسولهم إلها أو ابن الله ومن التفرق والشقاق لأجل الخلاف فى بعض الرسوم والتقاليد ، والذى يؤمنون به فى الله ليس مثل الذى نؤمن به فنحن نؤمن بالتنزيه وهم يؤمنون بالتشبيه ،

---

(٣٥٣) المرجع السابق ، جـ١ ، ص٤٨٤ .

(٣٥٤) المصدر نفسه ، ص٤٨٥ .

(٣٥٥) تفسير المنار ، جـ١ ، ص٤٨٥ .

وعلى ذلك القياس ، فلو قال فإن آمنوا بالله ، وبماأنزل على أولئك النبيين وما أوتوه فقد اهتدوا لكان لهم أن يجادلونا بقولهم : إننا نحن المؤمنون بذلك دونكم ، ولفظ « مثل » هو الذى يقطع عرق الجدل(٣٥٦) (وتقطعت بهم الأسباب) قال الأستاذ الإمام جاءت فيه الباء لمعنى خاص لايظهر فيما ذكروه هنا من معانيها ، وإنما يفهمه العربى من الأسلوب فإنك إذا قلت هنا كما قال الجلال : تقطعت عنهم الأسباب لاترى فى نفسك الأثر الذى تراه عند تلاوة العبارة الأولى التى تمثل لك التابعين والمتبوعين كعقد انفرط بانقطاع سلكه فذهبت كل حبة منه فى ناحية (٣٥٧)

٢ - ذكر الأستاذ الإمام من الحكمة فى جعل القبلة فى أول الأمر بيت المقدس أن الكعبة كانت فى أول الإسلام مشغولة بالأصنام والأوثان . وكان سلطان أهل الشرك متمكنا فيها ، والأمل فى انكشافه عنها بعيدا فصرفه الله أولا عن استقبال بيت مدنس بعبادة الشرك - وقد كان الله أمر ابراهيم بتطهيره للطائفين والعاكفين والركع والسجود ، إلى بيت المقدس قبلة اليهود الذين هم أقرب من المشركين إلى ماجاء به من التوحيد والتنزيه ولما قرب زمن تطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان وعبادتها وازالة سلطة الوثنيين عنه جعله الله تعالى قبلة للموحدين ليوجه النفوس إليه فيكون ذلك مقدمة لتطهيره ، واتمام النعمة بالاستيلاء عليه ، والسير فيه على ملة ابراهيم من التوحيد والعبادة الصحيحة لله تعالى وحده(٣٥٨) .

٣ - ان سبب النزول انما يحتاج إليه فى آيات الأحكام لأن معرفة الوقائع والحوادث التى نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفقه حكمته وسره ، ومثلها مافيه إشارة إلى بعض الوقائع كغزوة بدر والنصر فيها ، ومصيبة المؤمنين فى أحد ، وأما الآيات المقررة للتوحيد ، وهو المقصود الأول من الدين فلا حاجة إلى التماس أسباب لنزولها بل هى لاتتوقف على انتظار السؤال وإنما كان يبين عند كل مناسبة ، ماعساه يكون قد قارن نزولها من حادثة أو سؤال(٣٥٩) .

قال الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا الله إن كنتم اياه تعبدون) .

قال الأستاذ الإمام : لايفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفا بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله ، فإن المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقا وأصنافا ، منهم من حرّم على نفسه أشياء معينة بأجناسها أو أصنافها كالبحيرة والسائبة عند العرب وكبعض الحيوانات عند غيرهم ، وكان المذهب الشائع فى النصارى أن أقرب مايتقرب به إلى الله تعالى تعذيب النفس

(٣٥٦) المصدر نفسه ، ص٤٨٥ .

(٣٥٧) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٨٥ .

(٣٥٨) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٢٦ .

(٣٥٩) تفسير المنار جـ٢ ص ٥٦ .

واحتقارها وحرمانها من جميع الطيبات المستلذة ، واحتقار الجسد ولوازمه ، واعتقاد أن لاحياة للروح إلا بذلك ، وأن الله تعالى لايرضى منا إلا إحياء الروح ، وكان الحرمان من الطيبات على أنواع منها ماهو خاص بالقديسين ، وفى بعضها يحرمون اللحم والسمن دون السمك ، وفى بعضها يحرمون السمك واللبن والبيض أيضا ، وكل هذه الأحكام والشرائع قد وضعها الرؤساء ، وليس لها أثر ينقل عن التوراة أو المسيح عليه السلام ، وبذلك كانوا أندادا ونزل فى شأنهم (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله).

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وماكنت لديهم إذ يختصمون).

قال الأستاذ الإمام : أعقب هذه القصة بهذه الآية الناطقة بأنها من أنباء الغيب ، وأخر خبر القاء الأقلام لكفالة مريم فى سياق نفى حضور النبى ﷺ مجلس القوم ، وشهود ماجرى منهم ، ولابد لهذه الغاية من نكتة ، وقد قالوا فى بيانها : إن كونه ﷺ لم يقرأ أخبار القوم ، ولم يروها سماعا عن أحد معلوم عند منكرى نبوته فلم يبق له طريق للعلم بها إلا مشاهدتها فنفاها تهكما بهم ، وبذلك تعين أنه لم يبق له طريق لمعرفتها إلا وحى الله تعالى اليه بها وهذا الجواب منقوض ، وإن اتفق عليه من نعرف من المفسرين ، وذلك أن القرآن نطق بأنهم قالوا : (١٦ : ١٠٣ انما يعلمه بشر) و(٢٥ : ٥ قالوا أساطير الأولين اكتتبها) والصواب أن النكتة فى النص على نفى حضور النبى القوم إذ يلقون أقلامهم أى بعد النص على كون القصة من أنباء الغيب هى أن هذه المسألة لم تكن معلومة عند أهل الكتاب فيكون للمنكرين شبهة على أنه أخذها عنهم[٣٦٠] .

(لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق).

قال الأستاذ الإمام فى تفسير قوله تعالى :

(سنكتب ما قالوا) قال مفسرنا كغيره أى نأمر بكتابته وغفلوا عن قوله : (وقتلهم الانبياء بغير حق) فإنه كان من سلفهم فما معنى التعبير عن الكتابة بصيغة الاستقبال ؟ لابد من تفسيره بوجه يصح فى الأمرين ، ولكن ضعف المسلمين فى لغة القرآن هو الذى أوقعهم فى هذا الضعف فى الفهم ، والضعف فى الدين ، وتبع ذلك الضعف فى كل شىء ، ولايقال كما زعم بعض المجاورين : إن الفعل إذا أسند إلى الله تعالى يتجرد من الزمان ، فإن الكلام فى اختلاف التعبير ، والمعنى الصحيح لهذه الكلمة « سنعاقبهم على ذلك حتما » فإن الكتابة هنا عبارة عن

---

(٣٦٠) تفسير المنار جـ٣ ص٣٠١

حفظه عليهم ، ويراد به لازمة وهو العقوبة عليه ، والتوعد بحفظ الذنب وكتابته وإرادة العقوبة عليه شائع مستعمل حتى اليوم فلا يحتاج إلى دقة نظر ولفظ الكتابة آكد من لفظ الحفظ لما فيه من معنى الاستتباب وأمن النسيان ، وإنما ختم قتل الأنبياء - وهو أفظع جرائم هذا الشعب إلى الجريمة التى سبق الوعيد لأجلها لبيان أن مثل هذا الكفر والتهوّر ليس بدعا من أمرهم فإنه سبق لهم أن قتلوا الهداة المرشدين بعد ما جاءوهم بالبينات فهم يجرون فى هذا على عرق وليس هو بأول كبائرهم[٣٦١] .

(يأيها النّاس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) .

قال الأستاذ الإمام : افتتح سبحانه السورة بتذكير النّاس المخاطبين بأنهم من نفس واحدة فكان هذا تمهيدا وبراعة مطلع لما فى السورة من أحكام القرابة بالنسب والمصاهرة ، وما يتعلق بذلك من أحكام الأنكحة والمواريث فبيّن القرابة العامة بالإجمال ثم ذكر الأرحام ، وشرع بعد ذلك فى تفصيل الأحكام المتعلقة بها .

وسميت سورة النساء لأنها افتتحت بذكر النساء وبعض الأحكام المتعلقة بهن[٣٦٢] .

وفى تفسير سورة العصر - يقول الأستاذ الإمام عند قوله تعالى : والعصر إن الإنسان لفى خسر.. « أل » فى الإنسان للاستغراق كما يدل عليه الاستثناء فى قوله : « إلا الذين آمنوا » والاستغراق بأل فى لسان العرب ليس كالاستغراق بلفظ « كل » الذى يسور به المناطقة قضاياهم الكلية وليست أل مساوية لكل التى تضاف إلى النكرة ويريد بها العربى تعميم الحكم فى جميع أفراد الجنس ، وإنما يراعى فى « أل » استغراق المعهود عند المخاطبين لأنها فى لسانهم للعهد ، وتعريف الجنس امّا فى فرد أو أفراد ، ولن تفارق العهد فى حال من الأحوال ، وكذلك التى يسميها النحاة العهد الذهنى ويتحيرون فى الفرق بينها وبين النكرة ثم يقول من لايعرف خصائص اللسان منهم : إن الفرق فى اللفظ واجراء أحكامه ، وأمّا المعنى فلا فرق فيه ، وهو وهم فاسد ، فإن قول الرجل لعبده اشتر اللحم من السوق لايفهم منه أى لحم فى الكون بأسره ، ولا أى سوق فى العالم بأجمعه ، ولكن قد عهد السيد نوعا خاصا تعود العبد شراءه ، وأسواقا خاصة هى أسواق المدينة التى يقيم فيها وإن لم يتعين أحدها فالعهد والتعريف به لم يفارقها ، والفرق بين المعنى معها والمعنى فى النكرة واضح لمن يعرف خصائص اللسان والإنسان : الذى تجرى عليه أحكام الإنسانية ويحدث عنه فى مثل هذه الشئون هو من بلغ سن الرشد عاقلا يميز بين الخير والشر[٣٦٣] ، وليس يخطر بالبال عند التخاطب فى مثل هذا

(٣٦١) المرجع السابق جـ٤ ص٢٦٣

(٣٦٢) المرجع نفسه ص٣٢٢

(٣٦٣) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن لرشيد رضا ص٨٩

المقام الصبيان غير المكلفين ولا المجانين ، ولو أتى بلفظ «كل إنسان» لشمل ذلك . ولاتؤدى «أل» مؤدى «كل» إلا بقرينة فالاستغراق فى الآية على حقيقته وهو شامل لجميع أفراد المكلفين من الناس سواء كانوا ممن بلغتهم رسالات الأنبياء أم ممن لم تبلغهم[٣٦٤] .

والأستاذ الإمام هنا ليس متمسكا بخصائص اللسان العربى فحسب وانما هو ناقد لمن يسىء فهم هذه الخصائص حيث يقول : ثم يقول من لايعرف خصائص اللسان منهم ..الخ وهو يفرق بين الاستعمال اللغوى والاستعمال المنطقى والاستغراق بأل فى لسان العرب ليس كالاستغراق بلفظ كل الذى يسور به المناطقة قضاياهم الكلية ..الخ

ثم هو يفرق بين استعمال عربى وآخر وليست أل مساوية لكل التى تضاف إلى النكرة ... الخ ثم هو يعتمد على الواقع المشاهد فى أسلوب النّاس وتصرفاتهم فإن قول الرجل لعبده .. الخ

فنحن هنا أمام ناقد دقيق للأسلوب العربى والاستعمال العربى ناقد لايغتر بكل ما يقال ، وانما يأخذ منه ويدع يهديه فيما يأخذ وفيما يدع عقل مستنير وعلم غزير باللغة وذوق مرهف يدرك الفروق الدقيقة بين تعبير وآخر ولاشك أن ذلك الميزان من أهم خصائص الناقد الأدبى الناجح .

ومما يلفت النظر فى تفسير الإمام قوله :

١ - الخطاب فى المكيات كانت تراعى فيه العموميات فى كثير من الآيات[٣٦٥] .

٢ - الإيمان فى هذه السورة كذلك لم يتقيد بشىء كما ترى ولكنه محمول على ماهو معروف عند المخاطبين[٣٦٦] .

٤ - دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة :

لم يحظ النقد ودراساته فى مصر فى مطلع هذا القرن بكثير من عناية علماء العربية وجهودهم ، وكان ميدانه تشغله البلاغة وعلومها إذ كانت تدرس فى الأزهر ودار العلوم ، وغيرهما من سائر المدارس ، وجاء الأستاذ الإمام محمد عبده فخطا بالدراسات النقدية والبلاغة خطوة جديدة ، إذ تناول كتابى عبد القاهر الجرجانى «أسرار البلاغة» و «دلائل الإعجاز» بالدرس والشرح ، وكان اتجاهه هذا تجديدا ، ورجوعا بالبلاغة إلى أصولها الأولى ، وهى لاتزال طرية غضة قبل أن تبلغ مرحلة السكاكسى وشراحه ومختصه به[٣٦٧] .

واليك نماذج من نقد الإمام فى «دلائل الإعجاز» .

---

(٣٦٤) المرجع نفسه ص٩٠

(٣٦٥) المرجع السابق

(٣٦٦) المرجع نفسه ص٩١

(٣٦٧) أثر القرآن فى تطوّر النقد العربى الدكتور محمد زغلول سلام ص٢١

١ — قال عبد القاهر :

وإذا كان من حق الصديق عليك ، ولاسيما إذا تقادمت صحبته وصحت صداقته أن لا تجفوه بأن تنكبك الأيام ، وتضجرك النوائب ، وتخرجك محن الزمان فتتناساه جملة

وكتب الأستاذ الإمام على هذه العبارة مانصه : الذى يليق بالعبارة هو (أن تنكبه الأيام ، وتضجره النوائب ، وتخرجه محن الزمان) فما فى النسخ تحريف . فيجب إصلاح الأصل على الغيبة دون الخطاب ، قال : ثم رأيت فى نسخة بغداد ما يوافق نسختنا هذه فيظهر أنها عبارة المصنف ويكون المعنى أنك تذكر الصديق وتدانيه مهما عظمت عليك النوائب فى سبيل ذلك ، ولاينبغى أن ينسيك إياه ما ينزل بك ، ويذهلك عنه ما يصيبك مهما عظم(٣٦٨) .

٢ — قال الشاعر :

سالت عليه شعاب الحىّ حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

قال الإمام :

الشعاب : جمع شعب بكسر الشين ، وهو الطريق فى الجبل ، ومسيل الماء فى بطن الأرض ، وقوله : بوجوه كالدنانير ، معناه مشرقة متلألئة أى من السرور ، وانما يكون هذا من الثقة بشجاعتهم ، والادلال بقوتهم ، والزهو بزعيمهم ولو كانوا خائفين أو كارهين لجاءوا متثاقلين بوجوه ياسرة عليها غبرة الخوف ، وظلمة الكآبة(٣٦٩) .

٣ — قال المتنبى :

غصب الدهر والملوك عليها فبناها فى وجنة الدهر خالا

يقول الإمام :

الضمير فى عليها يعود إلى قلعة الحدث التى بناها سيف الدولة على جبل الحدث ، وقد ذكر فى البيت الذى قبل هذا وهو :

ان دون التى على الدرب والأحـ دب والنهر مخلطا مزيالا

والأحدب اسم لذلك الجبل ، والدرب الموصل إلى بلاد الروم والمخلط المزيال كثير المخالطة للأمور ثم مزايلتها ومفارقتها ، يراد منه الداهية المجرب وهو فى البيت كناية عن سيف الدولة ، والمدون فى رواية المتنبى وجنة الأرض لا وجنة الدهر(٣٧٠) .

وبهذا نجد الإمام ناقدا ومحققا فى وقت واحد .

---

(٣٦٨) دلائل الاعجاز ص٢٨

(٣٦٩) المرجع نفسه ص٥٩

(٣٧٠) المرجع نفسه ص٨١

٤ - قال الشاعر :

وعلمت أنى يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا
قوم اذا لبسوا الحديـ د تنمّروا حلقا وقدا

وكتب الأستاذ الإمام :

البيتان لعمرو بن معدى كرب ، وقوله تنمّروا أى تشبهوا بالنمر لاختلاف ألوان القد والحديد والقد جلد يلبس فى الحرب وهو اليلب ، واليلب إمّا لباس الرأس خاصة وإما أن يكون هو الدروع من الجلد على اختلاف الروايات ، وكأن لون الحديد ولون ذلك الجلد يختلف اختلاف لون النمر ، والحلق بالمهملة قطعا وهى حلق الدروع ويعبر بها عن الدروع نفسها ، وأراد بكعب بنى الحارث بن كعب وهم من مذحج ، ونهد من قضاعة ، وكانت بينه وبينهم حروب ، يقال لبس فلان جلد النمر لفلان إذا تنكر له ، وكانت ملوك العرب إذا جلست لقتل إنسان لبست جلود النمر ثم أمرت بقتل من تريد قتله(٣٧١) .

٥ - قال حسان :

وان سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

وكتب الإمام :

قاله فى هجو أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قبل إسلامه ، ومعنى كون الحارث عبدا أن أمه ليست بقرشية ، ولم تلدها قبيلة مشهورة(٣٧٢) .

٦ - قال حاجز بن عوف :

أبى عبر الفوارس يوم داج وعمّى مالك وضع السهاما
فلو صاحبتنا لرضيت عنا اذا لم تغبق المائة الغلاما

قال الإمام :

عبر الفوارس أى وزنها وعرف عددها وقوتها واحتال بعد ذلك بالهزيمة عندما عرفه العدو حتى رجع إلى قومه ، وكانوا كامنين فثاروا على أعدائهم وقتلوهم و(يوم داج) من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وكان يومّا مظلما بالسحاب .

والواقعة كانت لعوف بن الحارث مع بنى هلال بن عامر بن صعصعة - أغار عوف عليهم فى يوم داج مظلم فقال لأصحابه انزلوا حتى اعتبر لكم ، فانطلق حتى أتى هرمّا من بنى هلال ، وقد عصب على يد فرسه عصابا ليظلع فيطمعوا فيه فلما أشرف عليهم استرابوا به فركبوا فى طلبه ، وانهزم بين أيديهم فطمعوا فيه فهجم بهم على أصحابه بنى سلامان فأصيب يومئذ بنو هلال .

(٣٧١) المرجع السابق ص١١٣
(٣٧٢) المرجع نفسه ص١٤٠

وأمّا قضية وضع السهام ، فذلك أن الحارث بن عبد الله بن بكر بن يشكر كان يأخذ من جميع الأزد إذا غنموا الربع لأن الرياسة كانت لقومه فى الأزد ، وكان يقال لهم الغطاريف وكانوا يأخذون ديتين للمقتول منهم ، فقيم بن عدى فظفرت بهم فاستغاثوا ببنى سلامان فاغاثوهم حتى هزموهم وأخذوا منهم الغنائم وسلبوهم فأراد الحارث أخذ الربع فمنعه مالك بن ذهل ، وهو عم حاجز وقال له : « ترك الربع غدوة » فأرسلها مثلا(٣٧٣) .

إذا لم تغبق المائه الغلام أى إذا لم يكف لبن مائه ناقة لغبوق غلام واحد أى عند الجدب(٣٧٤) .

٧ - قال الشاعر يصف جملا :

تناسى طلاب العامرية إذ نأت   بأسجح مرقال الضحى قلق الضفر
إذا ما أحسته الأفاعى تحيزت   شواة الأفاعى من مثلمة سمر
تجوب له الظلماء عين كأنها   زجاجة شرب غير ملأى ولاصفر

قال الإمام :

الأسجح من الإبل هو الرقيق المشفر ، ومن غيرها الحسن المعتدل ، ومرقال الضحى أى يسرع السير فى الضحى وهو وقت الحر ، والضفر الحزام ، وقلقه من الضمور.

إذا ما أحسته الأفاعى ... يقول : إذا مشى ليلا والأفاعى خارجة عن جحورها ، وأحست به تحيّزت شواتها أى جلودها ، وانقبضت عن طريقه ، والمثلمة السمر هى الأخفاف ثلمها السير على الحجارة ، والسمر منها أقواها . والشرب جماعة الشاربين ، وصفر خالية(٣٧٥) .

٨ - انما يجزى الفتى ليس الجمل

قال الإمام :

أراد من الجمل البليد الذى هو على ضد الفتى كما فسره بعضهم ، ولولا هذا لكان من قبيل انما يتذكر أولو الألباب(٣٧٦) .

٩ - قال أبو تمام :

لعاب الأفاعى القاتلات لعابه   وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

قال الإمام :

أرى معطوف على لعاب الأفاعى أى أن مداده يشبه لعاب الأفاعى فى السوء ، ويشبه الأرى « العسل » فى النفع ، والأرى ما لزق بأسفل القدر والعسل أو ما تجمعه النحل فى

---

(٣٧٣) المرجع السابق ص٢٣٠
(٣٧٤) المرجع نفسه ص٢٣١
(٣٧٥) المرجع السابق
(٣٧٦) المرجع نفسه ص٢٧١

أجوافها ثم تلفظه وما الزق من العسل فى جو العسالة ، والعسالة شوارة النحل ، والشورة موضع العسل ، والعاسل مشتار العسل من موضعه ، والبيت من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات وقبل البيت :

لك القلم الأعلى الذى بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

والشباة ابرة الثوب ، وحد كل شيء ، وبعده :

له ريقة طل ولكن وقعها بآثاره فى الشرق والغرب وابل

فصيح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل(٣٧٧)

١٠ - قال عبد القاهر :

أفلا ترى إلى قول عمر رضى الله عنه فى زهير : « انه كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتتبع حوشى الكلام » ، فقرن تتبع الحوشى ، وهو الغريب من غير شبهة إلى المعاظلة التى هى التعقيد .

قال الإمام :

رواه فى تاج العروس لم يعاظل ..الخ وقال فى تفسيره أى لم يحمل بعضه على بعض ولم يتكلّم بالرجيع من القول ولم يكرر اللفظ والمعنى ، وحوشى الكلام وحشيه وغريبه ، وقيل لايعقده ، ولا يوالى بعضه فوق بعض ، وكل شيء ركب شيئا فقد عاظله ، قاله الآمدى فى الموازنة ، وفى اللباب : يريد أنه فصل القول وأوضحه ولم يعقده .

وقال أبو حيّان عاظل الشاعر إذا ضمن فى شعره أى جعل بعض أبياته مفتقرا فى بيان معناه إلى غيره وأصل المعاظلة مسافدة الكلاب فشبه بها الكلام المعقد المتداخل بعضه فى بعض ، وفى القاموس : الحوشى بالضم الغامض من القول والمظلم من الليالى ، والحوشى من الإبل وغيرها منسوب إلى الحوش وهو بلاد الجن أو فحول جن ضربت فى نعم مهرة فنسبت إليها ، وهو من خرافات الجاهلية(٣٧٨) .

١١ - قال عبد القاهر : قال الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين : ورأيت النّاس يتداولون رسالة يحيى بن يعمر عن لسان يزيد بن المهلب إلى الحجاج : « إنا لقينا العدو فقتلنا طائفة بعرار الأودية وأهضام الغيطان ، وبتنا بعرعرة الجبل ، وبات العدو بحضيضه » فقال الحجاج مايزيد بأبى عذر هذا الكلام .

قال الإمام :

الذى فى البيان والتبيين « إنا لقينا العدو فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة ، ولحقت طائفة بعرار

(٣٧٧) المرجع نفسه ص٢٨٤

(٣٧٨) المرجع السابق ص٣٠٤ - ٣٠٥

الأودية ، وأهضام الغيطان ، وبتنا بعرعرة الجبل ، وبات العدو بحضيضه » ، قال فقال الحجاج : مايزيد بأبى عذرة هذا الكلام فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر فحمل إليه فلما أتاه قال : أين ولدت ؟ قال بالأهواز . قال فأنى لك هذه الفصاحة ؟ قال أخذتها عن أبى ، ورواية الأصمعى أنه لما قال له : أنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : رزق . والصحيح أن يحيى بن يعمر ولد بالبصرة لا بالأهواز ولذلك يذكر فى نسبه البصرى لا الأهوازى وفى رواية بدل قتلنا طائفة بعرار الأودية .. الخ فلحقت طائفة بقرار الأودية ، والذى فى ابن خلكان عن الأصمعى « إنّا لقينا العدو فأضررناهم إلى عرعرة الجبل ونحن لحضيض فقال الحجاج مالابن المهلب ولهذا الكلام ؟ فقيل له : إن ابن يعمر عنده فقال فذاك إذا ، وقد جاءت نسخة بغداد موافقة لنسختنا هذه فجاء لفظ (فحمل إليه) عقب قوله (بأبى عذر هذا الكلام) مع أن الواجب أن تتم العبارة بمثل ماجاء فى ابن خلكان من ذكر ابن يعمر للحجاج ، ويظهر أن ذلك سقط من نسخة المؤلف(٣٧٩)

هذا وقد كان صنيع الإمام فى « أسرار البلاغة » قريبا من صنيعه فى دلائل الإعجاز إن لم يكنه ولذا نكتفى بنموذجين من الأسرار :

١ - قال المتنبى :

وقد مت أمس بها موتة ولا يشتهى الموت من ذاقه

قال الإمام :

الضمير فى بها راجع إلى الخمر فإن الكلام فيها .

قال قبل البيت :

وجدت المدامة غلابة تهيج للقلب أشواقه
تسىء من المرء تأديبه ولكن تحسن أخلاقه
وأنفس ماللفتى لبه وذو اللب يكره انفاقه

ومعنى تسىء من المرء تأديبه ..الخ أى تغلبه فتخرجه عن قيود الحشمة فى اللفظ والحركات ، ولكنها تغلب منه الخوف والبخل فيشجع ويسخو ، وهذا مايريده من تحسينها لأخلاقه(٣٨٠)

٢ - قال الشاعر :

وكأن النجوم بين دجاه سنن لاح بينهن ابتداع

---

(٣٧٩) المرجع السابق ص٣٠٥

(٣٨٠) أسرار البلاغة ص ٦٣

قال عبد القاهر :

وإن تأولت فى قوله « سنن لاح بينهم ابتداع » أنه أراد معنى قولهم إن سواد الظلام يزيد النجوم حسنا وبهاء كان له مذهب ، وذلك أنه لما كان وقوف العاقل على بطلان الباطل ، واطلاعه على عوار البدعة ، وخرقه الستر عن فضيحة الشبهة يزيد الحق نبلا فى نفسه ، وحسنا فى مرآة عقله جعل هذا الأصل من المعقول مثالا للمشاهد المبصر هناك إلا أنه على ذلك لايخرج من أن يكون خارجا عن الظاهر أن يمثل المعقول فى ذلك بالمحسوس .

قال الإمام : أن يمثل بدل من الظاهر أو أن « من » الجارة المحذوفة من الكلام بيان للظاهر ، والمعنى أنه مع ذلك خروج عن الظاهر الذى هو تمثيل المعقول بالمحسوس ، وقلما تجد لعبد القاهر ركاكة كقوله هنا : لايخرج من أن يكون خارجا[٣٨١] الخ

هذا وقد كانت آخر دراسة أدبية قام بها الإمام وهو على سرير المرض قول بشار :

إذا ماغضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

فقد أنشده محمد حافظ ابراهيم وقال للإمام : انى أنشد هذا البيت منذ سنين ، وأنا لم أفهمه وسألت عنه غير واحد من الأدباء فلم يأت أحد بتفسير ترتاح إليه نفسى ، فلم يلبث الإمام أن قال إن معناه ظاهر فإنه يريد أنهم إذا غضبوا سلوا سيوفهم . وأشرعوا رماحهم فكان بريقها ولمعانها كالهتك لحجاب الشمس الذى يظهر به نورها ويتألق شعاعها إلى أن يمكنوها من طلى أعدائهم وصدورهم فتخرج وهى تقطر دما وتسيل مهجا . هناك يخفى ذلك البريق واللمعان بستر الدم له ورينه عليه ، فالضمير فى قوله قطرت دما عائد إلى السيوف أو الرماح وان لم تذكر بالقول فهى معلومة بالقرينة أى على حد قوله تعالى (إنى أحببت حبّ الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) على التفسير المشهور المأثور من أن ضمير (توارت) يرجع إلى الشمس . والصحيح أنه يرجع إلى الخيل[٣٨٢]

ومن خلال الدراسة السابقة نستطيع أن نستخلص الأسس الفنية لنظرية النقد عند الإمام فهى تقوم على دراسة الفكرة فى النص ثم تحاول أن تربط بها الأحداث وتربطها بالبيئة والظروف التى تولد فيها ، وتتخذ من حياة الأديب وسيرته وسيلة لفهم آثاره وفنونه ، وخواصه الغالية عليه ، كما أنها تبحث عن عناصر الأدب وأسباب جماله وقوته ، وترسم السبيل الصالحة للقراءة والإنشاء .

وقد سلط الإمام مبادىء الدين ، وتجليات التصوّف على الأدب ، كما أنه مال إلى الاستقصاء وبذل الجهد الدائب فى قراءة النصوص ، والكشف المستفيض عنها عامة .

---

(٣٨١) المرجع السابق ص١٩٩ .

(٣٨٢) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا جـ١ ص١٠٣٠

ومعظم الموضوعات التى تناولها هى التى تهتم بالحياة وأحداثها وآلام النّاس وآمالهم وأشواقهم وفى رأيه أن الفن الذى يعبر عن الوقائع العابرة أقل منزلة من الفن الذى يضم الحقائق المعمرة الباقية .

ولم يهمل محمد عبدُه فى دراسته النقدية النظر إلى مايتطلبه النحو والصرف والعروض ، والبيان والمعانى والبديع .

والذى لاشك فيه أن الإمام قد تأثر إلى حد كبير بعبد القاهر الجرجانى فى سعة الأفق ووفرة المعارف ، ودقة التحليل ، وفى التوفيق بين مايتطلبه الذوق ، وبين مناهج التفكير الموضوعى المنظم .

كما أن الإمام عنى بالألفاظ وأسرار تركيبها على نحو ماكان يفعل ابن الأثير .

ويجب أن لا ننسى أن الإمام كان على جانب كبير من الشجاعة الأدبية ، وكان ذا روح قوية ، جاهد مارسب فى بعض الأحيان من أحكام طائشة ، وآراء منحرفة ، وشهرة طنانة كاذبة ، كما كان على قدر كبير من الذكاء والمعرفة والمهارة والحساسية الفنية ، والقدرة على الكتابة ، والروح السمحة المتجردة من آثار الميل والهوى .

ان شأن النقد فى الأدب كشأن الفقه فى القضاء فليس الحاكم العادل وحده هو الذى يصنع علم القانون كما يعرف فى الأمم الكبرى ، فما أكثر الأحكام العادلة التى تصدرها مجالس التحكيم عند البدو أو عند كثير من القبائل الفطرية . فهل نستطيع أن نسمى هذه الأحكام قضاء بالمعنى القانونى ؟ لا . لماذا ؟ لأنه ينقصها الفقه الذى يجمعها ويمحصها ويرتبها ويستخرج منها الاتجاهات والنظريات والمذاهب والمبادىء فالفقهاء فى الشريعة الإسلامية والقوانين الرومانية والأوربية قديما وحديثا هم الذين يغوصهم فى أعماق النصوص وتفسيراتهم للأحكام قد شيّدوا هذا البناء الضخم المتناسق المتماسك لهذه الشرائع والقوانين . كذلك النقاد أى فقهاء الأدب والفن بانكبابهم على الآثار الأدبية والفنية يستخلصون منها التفسيرات والمقارنات والمذاهب والاتجاهات قد أقاموا بجهودهم المتصلة صروح الآداب والفنون ، فالأدب العربى القديم ماعاش حتى اليوم أدبا خصبا وما بقى لنا تراثا غنيا إلا بفضل رواته ونقاده وباحثيه الذين تفقهوا فى دروسه ، ووازنوا بين شعرائه وأدبائه ، وأظهروا لنا أسرار أساليبه ، وآيات بلاغته ، وكشفوا عن مؤثراته ومراميه ومدارسه واتجاهاته فى مختلف العصور والأزمان فالأدب الفنى لابد له من نقد إنشائى كما أن القضاء العظيم لابد له من فقه عميق [٣٨٣] وهذا فى الواقع هو الفارق بين ناقد وآخر ، فناقد يصدر أحكامه غير مدعمة بالدراسة والبحث يصدرها عفو الخاطر وبنت البديهة ووليدة الساعة وناقد يدرس ويحلل ويفسر ويقارن ثم يضع أصولا للنقد بعد ذلك .

---

(٣٨٣) فن الأدب لتوفيق الحكيم ص١٨ - ١٩

وهذا هو الفارق أيضا بين محمد عبده وغيره من النقاد فنقده قائم على البحث والدراسة والتذوق .

والمجالات التى عرضنا لها فى النقد عند الإمام يمكن أن نطلق على بعضها اسم « النقد الموضوعى » تلك التى تناولت الآثار الأدبية تناولا موضوعيا حيث درسها وحللها وشرحها وقدّمها وحكم عليها وقوّمها وقارن وفاضل بينها على نحو ما صنع الإمام فى « نهج البلاغة » و« مقامات بديع الزمان » و« دلائل الإعجاز » و« أسرار البلاغة » و« تفسير القرآن الكريم » .

بعد ذلك يبقى مجال آخر من مجالات استخدام النقد الأدبى عند الإمام يمكن تسميته باسم « النقد الوصفى » ونعنى به مجرد تلخيص الأعمال الأدبية وتقديمها بغرض توفير الجهد والوقت والإمكانيات للمتلقى أو بغرض العمل على نشر الثقافة وتوسيع المدارك ، أو بغرض الارتفاع بمستويات التذوق الفنى أو لغير هذا وذاك من الأسباب العديدة والفوائد الجمة التى يحققها النقد الوصفى . وكذلك صنع الإمام فى « نقد الكتب » .

وهناك لون آخر من ألوان « النقد الوصفى » لايتناول الأدب المنشأ وانما يتناول الأديب المنشىء فيحاول درس شخصية الأديب من خلال مؤلفاته وتحديد معالمها الفنية وارتباطاتها بانتاجه ويحدد الأسس والأصول البيئية والاجتماعية والظروف المعيشية التى أثرت فيها وفى أعماله الأدبية ثم يرسم لهذا الأديب صورة فنية لايستطيع القارىء العادى الوصول إليها أو استخلاصها من قراءة عمل واحد أو أعمال قليلة من منتجات ذلك الأديب وكذلك فعل محمد عبده مع بديع الزمان الهمذانى ومع جمال الدين الأفغانى ومع على بن أبى طالب .

وهذا اللون من النقد الوصفى يختلف اختلافا كبيرا عما يقوم به تأريخ الأدب فى نفس هذا الميدان فمؤرخ الأدب بوصفه مؤرخا لايخرج عمله عن جمع الحقائق وتنسيقها وترتيبها وتقديمها بالشكل الذى يؤثره ، أمّا الناقد الأدبى فإنه يدخل شخصيته الناقدة فى الموضوع فلا يقتصر على ذكر الحقائق مجردة أو مرتبة وانما هو يفسرها ويحللها ويقيمها كذلك ومن هنا كان الاختلاف البعيد الأثر بين حياة الأديب وبين تلك التى يقدّمها الناقد الأدبى .

ولكن ترى أين نضع محمد عبده بين نقاد عصره ؟

فى العصر الحديث كان لنا نقدان : نقد مؤسس على مالنا من تراث قديم كالأغانى والعقد الفريد وزهر الآداب ، ونقد مؤسس على نقد الإفرنج وكلا النقدين تقليد لاابتكار واختلاف هذا النقد تابع لاختلاف منهج الأدب فهناك أدب يحتذى القديم فى أسلوبه وموضوعاته وله مدرسة قائمة بذاتها تستنكر الأدب الغربى ولا تتذوقه وهناك أدب يستوحى الأدب الغربى

---

(٣٨٤) تذوق الأدب طرقه ووسائله للدكتور محمود ذهنى ص٢١٦ - ٢١٧

ويقلدّه ولا يؤمن بالأدب العربى وله مدرسته الأخرى . وقد يكون هناك قوم من أهل الأعراف أخذوا من الغرب معانيه وموضوعاته ، ومن الشرق جزالة أسلوبه وجميل تعبيراته[٣٨٥]

هؤلاء إذن هم أهل الطبقة الوسطى ورائد هذه الطبقة فى الأدب والنقد هو الإمام محمد عبده وبهذا نرى أن محمد عبده يستحق مكانا بارزا بين الخالدين من علماء الدراسات النقدية .

(٣٨٥) النقد الأدبى لأحمد أمين جـ٢ ص٤٥٤

الخلاصة

كان محمد عبده رجلا موهوبا وكاتبا لطيفا وخطيبا فصيحا وعالما بالعربية ضليعا ، وقد ساعد على بناء الرأى العام فى مصر ولم يكن متعصبا فى الدين ، وكان رئيسا نشيطا ووطنيا مخلصا ذا قوة عقلية عظيمة . كانت به حدة ومبالغة فى الرحمة والورع ، وكان يجمع بين الصلاتين فى غير السفر مخالفا بذلك المذاهب الأربعة .

هو رجل سياسة وإن غلب عليه الدين بل إن بعضهم يراه مثالا للفضيلة والإصلاح ذا حنكة وتجربة ، وأساسا للنهضة الأدبية والسياسية والفقهية واللغوية والمنطقية .

وهأنذا أقدم للدارسين محمد عبده الأديب الناقد فى دراسة منهجية تحليلية ، وليس فى صورة إشارات خاطفة تصلح عناوين لموضوعات كبيرة كما فعل الدارسون من قبلى . لقد بحثت محمد عبده بطريقة جديدة عنيت فيها عناية خاصة بأدبه ونقده ، وعرضت لوحة متكاملة عن حياته وبيئته .

شب الأستاذ فى بيت فيه زوجات متعددات وأولاد مختلفو الأمهات ، تزوج وهو صغير ، ولذلك استطاع فهم معايب النظم الاجتماعية فى مصر عن كثب .

ولد الإمام من أبوين فقيرين من أهالى « محلة نصر » بالبحيرة ، وكان أبوه يشتغل بالزراعة ، وقد عرف عن أبويه الطيبة والورع وإكرام الضيف ، وقد تعلم القراءة والكتابة فى منزل والده ، ثم انتقل إلى دار حافظ قرآن ، وهناك أتم حفظ القرآن جميعه . وبعد ذلك ذهب إلى طنطا ليجود القرآن فى المسجد الأحمدى ثم جلس فى درس العلم وبدأ يتلقى شرح الكفراوى على الأجرومية وقضى سنة ونصفا لا يفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم فأدركه اليأس من النجاح وترك الدرس وقرر أن يعود الى بلدته ليعمل بالزراعة كما يعمل الكثير من أقاربه وعزم على أن لا يعود إلى طلب العلم إلا أن اتصاله بأحد أخوال أبيه واسمه الشيخ درويش قد غير مجرى حياته وحبب اليه العلم فعاد إلى طنطا ثانية يطلبه ، ووجد نفسه فى هذه المرة يفهم ما يقرأ أو ما يسمع بل ويشرح للطلاب الدرس .

ثم ذهب إلى القاهرة والتحق بالأزهر وداوم على طلب العلم مع محافظته على العزلة ولم يكتف محمد عبده بتحصيل العلم فى الأزهر بل طلبه خارج الأزهر ولاسيما علوم المنطق والحساب والهندسة .

وعندما جاء إلى مصر السيد جمال الدين الأفغانى صحبه ، وأخذ يتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية والفلسفية والكلامية .

وحين ظهر محمد عبده كانت مصر محرومة من التربية الصحيحة ، ومن المربى الحق وكانت حركة التعليم فيها سطحية لاتهدف إلى تربية العقل أو تهذيب النفوس . وكان التعليم فى الأزهر غير منظم وثماره قليلة ، ولذلك رأى الإمام أن لابد من تغيير نظامه ولا بأس من أن يجعل نظامه مرتبطا بالمعارف العمومية أو بادارة الأوقاف ، ثم يدعو دعوة جريئة إلى توحيد التعليم ليصبح الناس كلهم فى طريق واحدة ، ويرى أن دار العلوم يمكن أن ينتهى أمرها إلى أن تحل محل الأزهر وعند ذلك يتم توحيد التربية فى مصر.

واستقر رأى الإمام على أن الإصلاح يجب أن يعمل على إحياء لغة الأمة وتغذية نفوسها بالتربية الصحيحة والتعليم النافع .

وكانت دروس الإمام فى التوحيد والتفسير والبلاغة والمنطق ذات تأثير كبير فى المجتمع فقد حوّلت نفوسا كثيرة عن السبل المتفرقة إلى سبيل الله وصراطه ، وهو من أوائل المفكرين فى انشاء الجامعة وفى تعليم البنات .

درس الإمام علوم الشريعة والعربية فى الأزهر ثم عرض على مجلس الامتحان سنة ١٨٧٧م وكان امتحانا عسيرا لأن الأكثرين من أعضائه كانوا ضده . ولكنه اجتاز الامتحان وصار مدرسا من مدرسى الأزهر . ثم عيّن فى أواخر سنة ١٨٧٨م مدرسا للتاريخ فى دار العلوم فبدأ دروسه بقراءة مقدمة ابن خلدون ، وعيّن أيضا فى هذه السنة مدرسا للعربية فى مدرسة الألسن .

وكان يقصد فى دروسه إلى إيجاد نشئ من المصريين يحيى اللغة العربية والعلوم الإسلامية ثم عيّن مديرا للمطبوعات المصرية ، وتولى أيضا تحرير « الوقائع المصرية » وكانت فى عهده آية الإعجاز ، وكانت اللغة فى عهده تتأرجح بين الحياة والموت فجاهد لبقائها .

واهتم اهتماما عظيما بالفكرة وليس باللفظ المنمق ، وبذل مجهودا عظيما فى ترقية العقول وخدمة الصحافة . ثم تعلّم الفرنسية فى الرابعة والأربعين واتقنها تكلما وكتابة ، وكان يعد اللغات ذات أهمية عظيمة وقد أثرت الحركات الوطنية التى قامت فى ذلك الوقت فى الأدب ولاسيما النثر فوجهه إلى النظر فى شئون الشعب والدفاع عن حقه ووصف أمراضه وأدوائه .

وكان محمد عبده من أبرز دعاة هذه التيارات القومية . وحين اشتدت الأزمة المالية بمصر تنازل الخديوى إسماعيل عن الحكم وتولى توفيق العرش ، وكان هذا التطور الأخير فى الأحداث الداخلية سببا فى دفع محمد عبده إلى الإمام نحو القيادة ، ذلك أن الخديوى توفيق استهل حكمه بنفى جمال الدين من مصر معتقدا أنه بذلك قد أطفأ شعلة هذا القائد الفذ ، ولكن نسى أن التلميذ الأول لجمال الدين ما زال موجودا فى مصر ممثلا فى شخص محمد عبده ، وان يكن الإمام قد أظهر سياسة جديدة بعد مغادرة جمال الدين مصر ، ذلك لأنه رأى من الحكمة

معالجة الموقف السياسى فى مصر بالهدوء والعمل التدريجى ولكن نفرا من أهل البلاد لم ير رأى محمد عبده واندفع تيار الوطنية الجارف الذى أدى إلى الثورة العرابية .

وقبيل اشتعال الثورة بذل جهده فى إقناع قوادها بسوء عاقبتها حتى هموا كثيرا بقتله ، ومع ذلك لم ينفك عن النصح والارشاد ثم انضم إلى تلك الثورة لأنه رأى خديوى مصر يرتكب الخطأ القاتل باستدعاء الأسطول الإنجليزى لمساعدته ضد الوطنيين فأعلن الإمام سخطه على الخديوى واتهمه بالخيانة ، ودعا الناس إلى الجهاد . ومساعدة الحركة العرابية التى انتهت بالفشل وذاق محمد عبده مرارتها كما لم يذقها أحد وألقى به فى السجن ثم نفى إلى بيروت فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٢م . وأقام فيها ثم سافر إلى أوربا ثم عاد إلى سوريا وأقام فى بيروت وتزوج فيها . وكان النفى نقمة على الإمام ونعمة على الأدب والنقد .

فقد بدأ بمنفاه حركة أدبية نقدية ممثلة فى المقالات التى نشرها فى صحف الشام وفى العروة الوثقى ، وفى التعليق والشرح لبعض أمهات الكتب العربية كنهج البلاغة ، ومقامات بديع الزمان ، وكانت داره مدرسة عامة يؤمها الأذكياء وعشاق المعارف . وكان يقرأ التفسير فى الجامع الكبير ، وجامع الباشورة ، وكذلك كان يقرأ السيرة النبوية ، وفى أوائل سنة ١٨٨٥م دعى إلى التدريس فى المدرسة السلطانية لاحياء اللغة والدين ، وكان يكلف تلاميذه حفظ شىء من « نهج البلاغة » وديوان الحماسة ويشرحها لهم ، وكان له همة عظيمة بملاحظة آداب التلاميذ .

كان الإمام يومئذ لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من العمر ، وكان عصبى المزاج سريع الانفعال مرهف الإحساس كيّسا رقيقا محبا للفكاهة ، وكان يكره السرف والترف إلا أنه كان سخيا كثير البر ، وكان والده يرسل اليه ما يلزم لمعيشته ، وكان يعيش فى حدود دخله ، ولا يقبل هدية من أحد من شدة أنفته .

وقد كان جهاده فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن فى سبيل الإسلام والمسلمين حافزا للكتابة والحديث عن هذا الدين ، وعلاقته بالدين المسيحى ، وقد اشترك فى تأليف جمعية سياسية دينية سرية تهدف إلى تقوية العلاقات بين الأديان لازالة العداوة وإيجاد التعاون ضد الاستعمار فى الشرق وتعريف الإفرنج بحقيقة الإسلام . ثم سارت الحركة فى طريقها إلى مصر فأخرجت للناس دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وظهرت طبيعة المعلم الأديب توجه وتخطط للحركة الأدبية والنقدية فى مصر .

وبهذا تعد الثورة العرابية حدا فاصلا فى حياة الإمام ونقطة تحول كبيرة من مجال السياسة إلى مجال الأدب والنقد وحلقات الدرس .

ولما عفا عنه الخديوى عاد إلى مصر ، واتخذ له دارا فى شارع الشيخ ريحان بالقرب من قصر عابدين ، وود الأستاذ لو عاد إلى دار العلوم ، ولكن حيل بينه وبين ما يشتهى ، وعيّن فى المحاكم الأهلية برغم أنفه ثم سار مستشارا فى محكمة الاستئناف ، وفى يونيو سنة ١٨٩٩م اختير مفتيا للديار المصرية ، وفى نفس السنة عيّن عضوا فى مجلس شورى القوانين ، وفى سنة ١٣١٨هـ انتخب رئيسا للجمعية الخيرية الإسلامية ، وفى هذه السنة أسس جمعية خاصة سميت جمعية إحياء العلوم العربية ، كان الإمام يرى أن حياة الأمة بدون لغتها من المحال ، وكان يرى أيضا أنه لابد للإصلاح من إحياء كتبنا القديمة بجميع فروعها كما أنه كان يعتقد أن العرب أجدر الشعوب بالاستقلال والحضارة ولكنه كان يرى إقامة وحدة مع الدولة العثمانية التى كان يعتقد ويؤمن بأهميتها .

وقد كان المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يموج بالتيارات الوطنية والشرقية والإسلامية ، وكان محمد عبده وطنيا شرقيا إسلاميا فالحديث عن محمد عبده هو فى الواقع حديث عن تاريخ مصر فى هذه الحقبة .

ولقد استعان عباس الثانى بالأزهر فى الكيد لمحمد عبده مع أنه يجاهد فى إصلاح الأزهر وسلك فى سبيل ذلك كل طريق ، وكان الخديوى يخاصمه والشعب من جانبه لا يفهمه فلجأ إلى كرومر أخذا بفكرة الغاية تبرر الوسيلة ، اتجه الإمام إلى إصلاح أساليب اللغة فى التحرير وكانت أساليب الكتاب فى عصره تنحصر فى نوعين كلاهما غير مقبول وتنكره لغة العرب كما يقول الإمام :

الأول : ما كان مستعملا فى مصالح الحكومة والمكاتب .

والثانى : ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون فى الجامع الأزهر .

وهناك لون آخر من التعبير غريبا فى بابه وهو ما جاء مع الصحفيين السوريين وقد محى أثره .

ثم لم تلبث عوامل النهضة أن فعلت فعلها وتركت أثرها ، فاختلفت أغراض الكتابة وشملت الأغراض السياسية والاجتماعية وكانت الصحف خير معوان لبث الآراء الجريئة .

وقد عمل الإمام على بعث الأدب العربى القديم من مرقده ، وأضاف من الجديد ما يتطلبه العصر فأدبه قديم جديد .

وحين عينه رياض فى الجريدة الرسمية وضع لها نظاما تحولت به إلى أحسن ، وكان لإدارة الجريدة حق الانتقاد على أى عمل من الأعمال . وأول ما بدأت به هو انتقاد طريقة التحرير فى ذلك العصر ثم رسم الطريقة الفضلى التى يجب السير عليها ، ومن هنا ظهر مجهود المهتمين باللغة العربية ، واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى التعلم ، وصلح بذلك كثير من أساليب الجرائد

التى لم تكن لها عناية بتهذيب العبارات ، وتسابقت الأقلام فى تنقيح العبارات فتمت بذلك نهضة التحرير .

وكان من أثر انتقاده على الحكومة إنشاء مجلس أعلى لنظارة المعارف هو أحد أعضائه ، والغرض منه ترقية التربية والتعليم فى مصر .

وكان للإمام تأثير آخر فى الحياة الأدبية فقد تأثر به جماعة من رجال الأدب والفكر لونوا الحياة الأدبية فيما بعد ، وكان لبعضهم مدارس واضحة الخصائص ، ومن هنا نشأ جو صالح يمكن أن ينشأ فيه عهد من الكتاب جديد . وكان للنثر مظهران :

المظهر القديم والمظهر الجديد ، أما المظهر القديم فيتجلى فى مقالات الأستاذ الإمام الأولى فى الأهرام ، وأما الجديد فيتجلى فى مقالات العروة الوثقى .

لقد كان طبيعيا أن يكون فى حقل الأدب مخضرمون عاشوا فى القديم والجديد معا تربوا فى المدرسة القديمة ورأوا المدرسة الجديدة فكان أدبهم نتاج الحياتين كما كان الشأن عند الإمام .

والانتاج الأدبى فى هذا العصر يرجع إلى مصدرين عظيمين :

أحدهما الأزهر والآخر التعليم المدنى الحديث ، ولو ألقينا نظرة على النثر من عهد حسن العطار الى عهد رفاعة ومن عهد عبد الله فكرى إلى عهد الإمام لرأينا أنه يقفز قفزا سواء من ناحية الأسلوب أو الموضوع .

وإذا نحن قلنا إن الإمام حوّل الكتابة من كتابة مسجوعة سخيفة فارغة المعانى إلى كتابة مرسلة جميلة يعنى فيها بالمعانى لم نبعد .

وهكذا ترى أن إصلاح الإمام اتجه إلى البلد الذى يسكنه والكتاب الذى يقرؤه والحكومة التى تحكمه ، والدين الذى يعتقده والاقتصاد الذى يحيط به .

أما إصلاحه الأدبى واللغوى فقد بدأه بإصلاح أسلوبه نفسه . أخذ يكتب فى جريدة الأهرام بأسلوب متأثر بالكتب القديمة وبما هو شائع فى هذا العصر من السجع والمقدمات الطويلة ثم أخذ يقوى أسلوبه ويزداد حركة وقوة ، وبلغ أسلوبه غايته فى مقالاته فى الرد على هانوتو حيث تجمل بجمال البساطة وتدفق المعانى فى سلامة وقوة .

وكان حاد البصر يمتاز بجميع مميزات الخطيب ثم إن حالة المخاطب كانت تؤثر فيه جيدا فهو لا يلقى الكلام إلا لمن ينصت اليه بعكس أستاذه جمال الدين الذى كان يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها .

فالغاية من الأدب عنده هى الفائدة فإذا انتفت هذه الغاية فلا فائدة للأدب أو للأدباء ويجب أن لا ننسى دروس البلاغة التى سار فيها على نمط يربى الذوق ويرقى الأسلوب على نحو ما فعل عبد القاهر الجرجانى .

ولعله قصد إلى إحياء نظرية عبد القاهر الجرجانى فى النقد الأدبى حين قام بتدريس كتابيه : « دلائل الإعجاز » و« أسرار البلاغة » ومن الطرق التى سلكها فى الإصلاح اللغوى والأدبى أنه عهد إلى الأستاذ المرصفى بتدريس كتاب « الكامل » للمبرد ، وكتاب « ديوان الحماسة » لطلبة الأزهر ، ولم يكن ذلك معروفا من قبل .

ومن ذلك نرى أن محمد عبده قد حوّل النقد الأدبى إلى حركة اجتماعية تربوية عملية ولم يجعله مجرد نظرية أو فكر كما لم يجعله قاصرا على فرد بل وجهه إلى خير المجموع .

وقد جاهد جهادا كبيرا لمنع قراءة الحواشى ، وكان يكره قراءة الشروح أيضا ولم يقرأ فى عهد الإصلاح الأخير فى الأزهر غير المتون . وأما ما وضعه من التعليقات على كتاب « البصائر النصيرية فى المنطق » فلم يكن يلتزم قراءتها فى درسه وإنما وضعها لتسهل مطالعة الكتاب على طلبة الأزهر لدقة أسلوبه ، وكان يقرأ عبارة « رسالة التوحيد » و« البصائر » و« أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » ويبين معناها بعبارة مختصرة مفيدة قلما يحتاج سامعها إلى سؤال . فإذا استشكل مستشكل وسأل سائل أجيب بما يقنعه بالاختصار فى قول فاصل ليس فيه شك أو احتمال ، وبعد ذلك يعطى تلخيصا واضحا للموضوع .

وقد سلك فى تدريس التاريخ مسلكا لم يكن معهودا فى مصر إذ مزجه بعلم الاجتماع والحضارة ، وكان يرى أن اللغة العربية فى حاجة إلى تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية وتاريخ تطور اللغة ، والمعاجم العلمية ، وفلسفة البيان والانتقاد وغير ذلك .

وأما كتبنا العربية فقد كان كثير الشكوى من سوء أسلوبها وضعف لغتها ، وكان يقول يمكننا أن نعرف كثيرا عن الاسلام وتاريخه من الكتب الإفرنجية فإن فيها ما لا نجده فى كتبنا وكان يرى أن الكلمة المسموعة تؤثر فى النفس أكثر مما تؤثر الكلمة المقروءة لأن نظر المتكلم ، وحركاته وكلامه كل ذلك يساعد على الفهم أكثر ، وكان محبا للاطلاع ، ولذلك ساح كثيرا فى بلاد أوربا وبلاد الشرق باحثا عما عساه ينفع للعمل الذى ابتدأه ، وكانت له صفات المصلح الحميدة ، ومن أهمها الصدق والشجاعة .

وقد توفى فى السادسة والخمسين فى سنة ١٩٠٥ مخلدا إلى الأبد .

المراجع

أولا : المطبوعة

١ - آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية
لساطع الحصرى .
٢ - آراء ومذكرات لمحمد عبده
سلسلة كتب قومية صدرت عن الدار القومية للطباعة والنشر .
٣ - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر
للدكتور محمد محمد حسين - الطبعة الثانية ١٣٨٢هـ - المطبعة النموذجية
٤ - أثر العرب فى الحضارة الأوروبية
لعباس محمود العقاد
٥ - أثر القرآن فى تطور النقد العربى
للدكتور محمد زغلول سلام - دار المعارف بمصر .
٦ - أدب المقالة الصحفية فى مصر - جـ١ ، ٢ ، ٣
للدكتور عبد اللطيف حمزة - الطبعة الأولى - مطبعة الاعتماد ، الناشر دار الفكر العربى .
٧ - الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم
لمحمود رزق . الطبعة الأولى - مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية .
٨ - الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة
للدكتور محمد كامل الفقى - نهضة مصر بالفجالة .
٩ - أسباب الثورة العرابية
لمحمد عبده - منشور فى الجزء الثانى من تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا .
١٠ - الأستاذ الإمام محمد عبده
لعبد المنعم حماده - مطبعة الاستقامة ١٩٤٥ .
١١ - أسس النقد الأدبى عند العرب
للدكتور أحمد أحمد بدوى - نهضة مصر بالفجالة .
١٢ - أسرار البلاغة
لعبد القاهر الجرجانى - شرح محمد عبده
١٣ - الإسلام دين العلم والمدنية
للشيخ محمد عبده - تحقيق طاهر الطناحى - دار الهلال .

١٤ – الإسلام والتجديد فى مصر
لتشارلز آدمث – ترجمة عباس محمود
١٥ – الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية
للشيخ محمد عبده – مطبعة المنار
١٦ – أصول النقد الأدبى
لأحمد الشايب – الطبعة الثالثة – مطبعة الاعتماد
١٧ – أعلام وأصحاب أقلام
لأنور الجندى – نهضة مصر بالفجالة
١٨ – أمراء البيان جـ١ ، ٢
لمحمد كرد على – لجنة البيان العربى
١٩ – بديع الزمان الهمزانى – رائد القصة العربية والمقالة الصحفية
للدكتور مصطفى الشكعة – مكتبة القاهرة الحديثة
٢٠ – البيان والتبين
لأبى عثمان الجاحظ – تحقيق : عبد السلام هارون والسندوبى
٢١ – تاريخ الأدب العربى
لأحمد حسن الزيات – مطبعة الرسالة
٢٢ – تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ، ٢ ، ٣
للسيد محمد رشيد رضا – مطبعة المنار – الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ
٢٣ – تاريخ الحركة القومية
لعبد الرحمن الرافعى
٢٤ – تاريخ الدولة العلية
لمحمد فريد – الطبعة الثالثة ١٩١٢ مطبعة التقدم بمصر
٢٥ – تاريخ العصر الحديث
لمحمد صبرى .
٢٦ – تاريخ الوقائع المصرية
للدكتور ابراهيم عبده
٢٧ – التاريخ والمؤرخون فى القرن التاسع عشر
للدكتور جمال الدين الشيال – مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٨

٢٨ – تذوق الأدب طرقه ووسائله
للدكتور محمود ذهنى – مكتبة الانجلو
٢٩ – تفسير جزء « عم »
للشيخ محمد عبده – مطبعة المنار ١٩٠٤
٣٠ – تفسير سورة العصر
للشيخ محمد عبده – الطبعة الأولى – مطبعة المنار ١٩٠٣
٣١ – تفسير الفتحة و٦ سور من خواتيم القرآن
للسيد محمد رشيد رضا – الطبعة الأولى ١٩٠٥
٣٢ – تفسير المنار جـ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥
للسيد محمد رشيد رضا – مطبعة المنار
٣٣ – تقرير المحاكم الشرعية
لمحمد عبده – مطبعة المنار – القاهر ١٩٠٠
٣٤ – التوجيه الأدبى
تأليف : طه حسين – أحمد أمين – عبد الوهاب عزام – محمد عوض محمد
طبع : دار الكتاب العربى بمصر ونشر وزارة المعارف ١٩٥٣
٣٥ – تيارات أدبية بين الشرق والغرب
لابراهيم سلامه
٣٦ – ثورة الأدب
لمحمد حسين هيكل – مطبعة مصر
٣٧ – ثورة على الأدب المصرى الحديث
لبدوى طه علام – مكتبة الجندى بسيدنا الحسين بمصر
٣٨ – جمال الدين الأفغانى
لمحمود أبو رية – مؤسسة نصار للتوزيع والنشر ١٩٥٨
٣٩ – دراسات أدبية
لعمر الدسوقى – الطبعة الثانية – نهضة مصر بالفجالة
٤٠ – دراسات فى الأدب العربى
للدكتور سعد الدين محمد الجيزاوى – نهضة مصر بالفجالة
٤١ – دراسات فى علم النفس الأدبى
لحامد عبد القادر – لجنة البيان العربى

٤٢ - دروس من القرآن الكريم
للشيخ محمد عبده - عرض وتحقيق وتعليق - طاهر الطناحى - دار الهلال بمصر
٤٣ - دلائل الاعجاز
لعبد القاهر الجرجانى - شرح محمد عبده - مطبعة المنار
٤٤ - رائد الفكر المصرى
للدكتور عثمان أمين - مكتبة النهضة المصرية
٤٥ - الرد على الدهريين
للسيد جمال الدين الأفغانى - ترجمة محمد عبده - طبع بيروت
٤٦ - رسالة التوحيد
لمحمد عبده - الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق ١٨٩٧م ، والطبعة الثالثة عشرة فى سنة ١٣٦٨هـ - مطبعة المنار.
٤٧ - رسالة الواردات
لمحمد عبده - مطبعة المنار - الطبعة الثانية ١٩٢٥
٤٨ - رواد النهضة الحديثة
لمارون عبود - طبع ببيروت
٤٩ - زعماء الإصلاح فى العصر الحديث
لأحمد أمين - مكتبة النهضة المصرية
٥٠ - شرح البصائر النصيرية فى المنطق
لعمرو بن سهلان الساوى - تعليق الشيخ محمد عبده - المطبعة الأميرية بولاق ١٨٩٨م - الطبعة الأولى
٥١ - شرح حاشية عقائد الجلال الدوانى
لمحمد عبده - الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية ١٩٠٥
٥٢ - الشرق العربى الحديث
لضياء الدين الريس
٥٣ - الشعر الجاهلى
لطه حسين - طبع دار الكتب
٥٤ - الشعر الشعبى العربى
للدكتور حسين نصار - نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى - المكتبة الثقافية - ٦٠ - أول مايو ١٩٦٢

٥٥ – الشوقيات جـ١
لأحمد شوقى – مطبعة الاستقامة
٥٦ – الشيخ محمد عبده
لأحمد الشايب
٥٧ – الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين
تحليل وتقديم الدكتور سليمان دنيا – دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٩٥٨م – ١٣٧٧هـ
٥٨ – صبح الأعشى فى صناعة الإنشا
للقلقشندى – المطبعة الأميرية ١٩١٣
٥٩ – الصراع الأدبى بين القديم والجديد
لعلى العمارى – دار الكتب الحديثة ١٩٦٥
٦٠ – صداقة أربعين عاما
لشكيب أرسلان – مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٣٦
٦١ – الصور البديعية بين النظرية والتطبيق – القسم الثانى
للدكتور حفنى محمد شرف – الطبعة الأولى مكتبة الشباب
٦٢ – ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد
للدكتور محمد زغلول سلام – نهضة مصر بالفجالة
٦٣ – عبد الحميد ظل الله على الأرض
ترجمة راسم رشدى – تأليف الدكتوره آلماوتلين
٦٤ – عبقرية عمر
لعباس محمود العقاد
٦٥ – عصر سلاطين المماليك
المجلد الخامس وهو القسم الأول من الجزء الثالث
للأستاذ محمود رزق – مكتبة الآداب ومطبعتها
٦٦ – على محمود طه حياته وشعره
للسيد تقى الدين – نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ١٩٦٤
٦٧ – عمالقة ورواد
لأنور حجازى – الدار القومية للطباعة والنشر

٦٨ – العمدة
لابن رشيق – تحقيق محي الدين عبد الحميد
٦٩ – فاتحة الكتاب
تفسير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
كتاب التحرير رقم (١) الطبعة الثانية ١٣٨٢هـ
٧٠ – فجر الإسلام
لأحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية
٧١ – فصول مختارة من كتب التاريخ – الجزء الثالث
طه حسين – عبد السلام هارون – على البجاوى – ابراهيم الإبيارى
٧٢ – فن الأدب
لتوفيق الحكيم – مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز بمصر
٧٣ – فن السير
للدكتور إحسان عباس – دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٦
٧٤ – الفن ومذاهبه فى النثر العربى
للدكتور شوقى ضيف – دار المعارف بمصر
٧٥ – فى أصول الأدب
محاضرات ومقالات فى الأدب العربى لأحمد حسن الزيات
مطبعة الرسالة – الطبعة الثالثة ١٩٥٢
٧٦ – فى الأدب الحديث
لعمر الدسوقى – الطبعة الثانية ١٩٥١ – لجنة البيان العربى
٧٧ – فيض الخاطر جـ٢ ، ٨
لأحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية
٧٨ – قادة التحرير العربى فى العصر الحديث
للدكتور ابراهيم أحمد العدوى – مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٨
٧٩ – قشور ولباب
للدكتور زكى نجيب – مكتبة الأنجلو ١٩٥٧
٨٠ – قصة الأدب فى العالم جـ٣ – القسم الأول
لأمد أمين وزكى نجيب – مكتبة النهضة المصرية

٨١ – قضايا الفكر فى الأدب المعاصر
لوديع فلسطين – مطبعة الطنانى بعابدين بالقاهرة
٨٢ – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل
للزمخشرى – طبع مصطفى البابى الحلبى بمصر
٨٣ – متن التلخيص
للإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى الخطيب شرحه وضبطه الشيخ عبد الرحمن البرقوقى – الطبعة الأولى ١٩٠٤ مطبعة النيل بمصر
٨٤ – المثل السائر
لابن الأثير – المطبعة البهية
٨٥ – محاضرات عن المقالة الأدبية
للدكتور محمد عوض محمد – نشر معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٩
٨٦ – محاضرات عن مسرحيات شوقى
للدكتور محمد مندور – نشر معهد الدراسات العربية العالية ٥٤ – ١٩٥٥ طبع دار مصر للطباعة
٨٧ – محمد توفيق البكرى
للدكتور ماهر حسن فهمى – ٦٤ سلسلة أعلام العرب ابريل ١٩٦٧
٨٨ – محمد عبده
لعباس محمود العقاد – طبع وزارة التربية والتعليم ١٩٦٣
٨٩ – محمد عبده
لمصطفى عبد الرازق – دار المعارف بمصر
٩٠ – مذكرات الإمام محمد عبده
عرض وتحقيق وتعليق طاهر الطناحى – طبع دار الهلال
٩١ – مستقبل الثقافة فى مصر – جـ١ ، ٢
لطه حسين – دار المعارف بمصر
٩٢ – المصباح المنير – جـ١ ، ٢
لأحمد بن محمد بن على المقرى – المطبعة الأميرية ١٩٢٥
٩٣ – مقامات أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى وشرحها
للعلامة الفاضل الشيخ محمد عبده المصرى
٩٤ – مقدمة ابن خلدون

٩٥ - من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده
لمحمد خلف الله أحمد
٩٦ - منهل الوردانى فى علم الانتقاد جـ١
لقسطاكى الحمصى ١٩٠٦م - نشر دار المعارف بالفجالة .
٩٧ - نشأة التفسير فى الكتب المقدسة والقرآن
للدكتور السيد أحمد خليل - الطبعة الأولى - الوكالة الشرقية للثقافة بالإسكندرية
٩٨ - نشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر
لعز الدين الأمين - نهضة مصر بالفجالة ١٩٦٢
٩٩ - نظام التربية والتعليم بمصر
لمحمد عبده - مطبعة المنار
١٠٠ - النظرات ، جـ٢
لمصطفى طه المنفلوطى - الطبعة التاسعة - مطبعة الاستقامة ١٩٤٧
١٠١ - نظرية الأنواع الأدبية
للأب فنَان - ترجمة الدكتور حسن عون - مطبعة رويال بالإسكندرية
١٠٢ - نظرية عبد القاهر فى النظم
للدكتور درويش الجندى - نهضة مصر بالفجالة .
١٠٣ - النقد الأدبى ، جـ١ ، ٢
لأحمد أمين - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٠٤ - نقد النثر
لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى - حققه وعلق حواشيه الدكتور طه حسين - عبد الحميد العبادى - طبع وزارة المعارف بمطبعة مصر ١٩٣٩
١٠٥ - نقد وإصلاح
لطه حسين - دار العلم للملايين - ببيروت
١٠٦ - النقد والنقاد المعاصرون
للدكتور محمد مندور - مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٠٧ - نهج البلاغة
للإمام على بن أبى طالب - شرح وتعليق محمد عبده
١٠٨ - وحى الرسالة
المجلد الأول والثالث - لأحمد حسن الزيات - مطبعة الرسالة

ثانيا : المخطوطة :

١ - محاضرات فى القومية العربية
لساطع الحصرى عام ٥٦ - ١٩٥٧

٢ - محاضرات عن القومية العربية
للأمير مصطفى الشهابى .

ثالثا : الدوريات :

١ - المقتطف عام ١٨٨٨م

٢ - جريدة الأهرام الصادرة فى يوم الجمعة ١٩٦٨/٧/٥ ، ١٩٦٨/٩/٢٧ .

الفهرس

صفحة

رقم الإيداع : ٢١٩١ / ١٩٨٩
الترقيم الدولى : ٩ - ٢٥٤ - ٠٢ - ٩٧٧ ISBN

مطابع نهضة مصر